حسن الأمين

غارات على بلاد الشام

توزيع: دار قتيبة

حسن الأمين

غارات على بلاد الشام

DS
97
١٨الف/
٢غ
١٣٧٩
١.ن

غارات على بلاد الشام

بلاد الشام التي نتحدث عنها هي ما عرفت بعد الحرب العالمية الأولى بأقسام أربعة: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. هذا إذا أردنا الإجمال، أما التفصيل فقد ذكرناه في كتابنا الماضي (سراب الاستقلال في بلاد الشام) فلا نعيده هنا. وكتابنا اليوم هو صفحات من تاريخ هذه البلاد، تاريخها البعيد وتاريخها القريب، أردنا به أن نفي حق الوطن علينا بتسجيل بعض ما مر عليه من أحداث كان فيها هدفاً لغارات المغيرين وغزو الغازين، ثم لم يلبث أن خرج من أتونها سليماً معافى، يوالي رسالته عربياً صريحاً.

.. سيرى القراء فيما سيقرؤون في هذا الكتاب ما عانته بلاد الشام ممن أغاروا عليها غير راحمين، وما كابدته من الروم والمغول والصليبيين، وما أحاق بها من الإنكليز والفرنسيين، وسيكون لهم من ذلك عبرة فيما تكابده أمتهم اليوم من اليهود وحماتهم الأمريكيين.

«من المقدمة»

غـارات

على بلاد الشـام

حسن الأمين

غارات على بلاد الشام

کتابخانه تخصصی
وزارت امور خارجه
156206

١٥٦٢٠٦
٨٤ /١٠/٢٧

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

المحتويات

الإهـداء ١١

سراب الاستقلال في بلاد الشام ١٣

بين يدي الكتاب ١٩

الفصل الأول: غارات البيزنطيين (الروم) ودفاع الحمدانيين ٢١

سيف الدولة ٢٤

سيف الدولة القائد ٢٥

نقفور فوكاس ٢٦

بعض أخبار سيف الدولة ووقائعه ٢٨

شخصية سيف الدولة ٣٤

سيف الدولة المحارب ٣٧

المتنبي وسيف الدولة ٤٠

جيش سيف الدولة ٥٠

الفصل الثاني: غارات بزنطية عارمة ٥٥

الشعر في معارك الظفر ٥٨

بعد المتنبي وابن هاني ٥٩

الفصل الثالث: بنو مرداس والروم ٦٥

الفصل الرابع: غارة المغول ٧٥

الفصل الخامس: المغول في بلاد الشام ٨٧

الأرمن يحرضون المغول ٩٢

علاقات المغول بالحكّام المسلمين ٩٣
المغول في بلاد الشام ٩٥
توغُّل المغول في بلاد الشام ٩٧
هولاكو يغادر بلاد الشام ٩٨
الصدام العسكري ٩٩
الفصل السادس : الإيلخانيّون ١٠٣
بدء الصراع الدموي ١١١
مؤرخ معاصر يتحدث عن المعركة ١١٦
أحداث كيليكيا ١٢٠
الزحف ثانية إلى الشام ١٢٦
الفصل السابع : غارات الصليبيين ١٣١
الفصل الثامن : انفتاح أبواب الشام أمام الصليبيين ١٤٥
صليبي يصف حال الصليبيين ١٤٧
سقوط معرة النعمان ١٥٣
بعد المعرة ١٥٥
فوشيه يصف الموقف ١٥٥
كربوقا يلعب الشطرنج ١٥٦
بعد المعرة ١٥٨
الدفاع عن القدس ١٦٠
الفصل التاسع : غارة تيمورلنك ١٦٣
ظهور تيمورلنك ١٦٤
تعليق لنا ١٧٢
رجوع تيمور ١٧٣
استقرار تيمور ١٧٤
نظرة في هذه الأحداث ١٧٥
عوامل أخرى ١٧٦

في حلب ١٨٠
حوار تيمور مع العلماء ١٨١
التوجه إلى دمشق ١٨٢
الدفاع عن دمشق ١٨٣
تيمور في دمشق ١٨٨
السلطان الفار ١٩٠
رحيل تيمور ١٩١

الفصل العاشر : غارة مملوكية ١٩٣

الفصل الحادي عشر : غارة نابليون على مصر والشام ١٩٩
التفكير الفرنسي بمصر ٢٠٠
احتلال الإسكندرية ٢٠٥
الزحف إلى القاهرة ٢٠٦
المعركة الحاسمة في وصفين ٢٠٩
ثورة القاهرة ٢١٩

الفصل الثاني عشر : مقدمات عزو الشام ٢٢٣
رسالة نابليون إلى سلطان عُمان ٢٢٥
الإنكليز يعملون ٢٢٧
الزحف إلى الشام ٢٢٨

الفصل الثالث عشر : غارة الفرنسيين بعد الحرب العالمية الأولى ٢٣١
أول صوت ٢٣١

الفصل الرابع عشر : نضال متتابع ٢٥٣

الفصل الخامس عشر : محاولة اغتيال الجنرال غورو ٢٦١

الفصل السادس عشر : صراع على الاستقلال ٢٦٧

الفصل السابع عشر : الإنكليز يتنصلون ٢٧٧

الفصل الثامن عشر : التصميم على وأد الاستقلال ٢٨٣
أشكال التنظيم الإداري والرقابة المركزية : ٢٨٨
وجهة نظر الجنرال غورو : ٢٩٠
في مسألة لبنان والمدن التي ينبغي أن تضم إليه : ٢٩٠
موقف غورو من صيغة التجزئة التي يطرحها ملّران وصيغة علاقة لبنان بالداخل السوري : ٢٩٣
ردود الرئيس ملّران على ملاحظات غورو : ٢٩٤
تعليق ٢٩٦

الفصل التاسع عشر : النضال السياسي ٢٩٩
انعقاد المؤتمر ٣٠٠
رحيل غورو ٣٠٢
حزب الشعب ٣٠٤

الفصل العشرون: الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ .... ٣٠٩
مقدمات الثورة ٣١١
المعركة الأولى واشتعال الثورة ٣١٤
تأجيج الثورة ٣١٦
موفدان إلى شقرا ٣١٧
النداء ٣١٩
حادث الجنرال سوليه ٣٢٥
معركة المسيفرة ٣٢٥
معركة الزور الأولى ٣٢٦
معركة الزور الثانية ٣٢٧
ثورة حماه ٣٢٧
في الغوطة ٣٢٨
في دمشق ٣٢٨
تقرير الجنرال غاملان ٣٣٢
من تقرير ساراي إلى وزارة الخارجية ٣٣٤
عزل ساراي ٣٣٤

الفصل الواحد والعشرون: الشعر في المعركة ٣٣٥
قصيدة شوقي في رثاء دمشق ٣٣٥
الفصل الثاني والعشرون: الثورة إلى لبنان ٣٤١
الموقف في لبنان ٣٤٥
الفصل الثالث والعشرون: بداية النهاية ٣٥١
ظهور أحمد مُرَيْوِد ٣٥٣
من مذكرات أحمد الخطيب ٣٥٧
في الغوطة ٣٦٦
بين الثورة السورية والثورة الجزائرية ٣٦٧
الفصل الرابع والعشرون: مفوض سامي جديد وأحداثه ٣٦٩
الفصل الخامس والعشرون: تنظيم العمل الوطني السلمي ٣٧٣
موت فوزي الغزي ٣٧٤
الدستور ٣٧٨
كاظم الصلح ٣٨١
فشل التفاهم ٣٨٤
الفصل السادس والعشرون: الغارة الصهيونية ٣٨٥
الفصل السابع والعشرون: قيام الدولة اليهودية ٣٨٩
تنبه العرب وبدء الكفاح ٣٩٢
ثورة العرب ٣٩٥
الفصل الثامن والعشرون: تقسيم فلسطين ٤٠١
معاناة لي مع الهجرة اليهودية ٤٠١
التقسيم ٤٠٨
كيف تطورت الأمور ٤١٠
الاقتتال ٤١٢
التدابير الصهيوينة ٤١٣

القوات اليهودية ٤١٥
القوات العربية ٤١٦

الفصل التاسع والعشرون: تساقط المدن والقرى ٤١٧
معركة القسطل واستشهاد عبد القادر الحسيني ٤١٨
التحرك لاسترداد القسطل ٤٢٠
عبد القادر في دمشق ٤٢١
دير ياسين ٤٢٢
سقوط طبريا ٤٢٤
سقوط حيفا ٤٢٥
مناجاة حيفا ٤٣٠
سقوط يافا ٤٣١

الفصل الثلاثون: الحـرب ٤٣٥
وقف القتال ٤٤٦
تفاصيل أخرى ٤٤٩
القوات المصرية ٤٤٩
القوات العراقية ٤٥١
القوات السورية ٤٥١
القوات اللبنانية ٤٥٢
القوات الأردنية ٤٥٢
تشكيل الحرب للقوات الصهيونية ٤٥٤

الإهداء

إلى الحاجة أم صالح ابنة أخي عبد المطلب

التي كُتب هذا الكتاب في ظل برّها وحنانها

سراب الاستقلال في بلاد الشام

على أثر صدور كتاب (سراب الاستقلال في بلاد الشام) كتب الأستاذ طاهر مصطفى عنه في جريدة الحياة:

المراحل العصيبة والدقيقة في حياة بلادنا، قلما تناولها المؤرخون بالدقة المتوخاة، والعلامة المؤرخ حسن الأمين، لطالما أصاب في اختيار هذه المراحل، متناولاً إياها بصدق وموضوعية.

وكتابه الجديد «سراب الاستقلال في بلاد الشام» يعرض فيه لفترة وجيزة من تاريخ المشرق العربي، ما بين ١٩١٨ و١٩٢٠.

اتفق الإنكليز والفرنسيون خلال الحرب العالمية الأولى اتفاقات سرية قطعت أوصال وشرايين المشرق العربي إلى أقسام وفقاً لمصالحهما الاستعمارية، وتنفيذاً لوعد بلفور لليهود بإنشاء «وطن قومي» في فلسطين. وخدع الإنكليز الشريف حسين الذي «حالفهم» في حروبهم فتركوا له «البقايا» متخلين عن وعودهم السابقة بالاستقلال والسيادة لبعض المناطق العربية.

يعرض الأمين في كتابه الجديد، الوقائع حدثاً حدثاً، ويوماً يوماً، فيرسم صورة حية لمجريات تلك الساعات العصيبة التي عاشتها بلاد الشام بعد الحرب العالمية الأولى.

يروي بنفس قصصي يوميات هذه الأحداث، اعتماداً على الوثائق ومذكرات بعض القادة السياسيين والعسكريين، وثلة من الشعراء والأدباء، والشهود العيان. كيوميات رستم حيدر أبرز القادة غير العسكريين للجيش العربي الزاحف إلى دمشق عام ١٩١٨، وكان بمثابة ظل الأمير فيصل بن الحسين ولسانه في المؤتمرات الدولية، ويوميات الشيخ أحمد رضا في جبل عامل الذي دوّن الأحداث بدقائقها أيضاً، ويوسف الحكيم الذي كان وزيراً في حكومة فيصل، وشاهد طليعة الجيش العربي تدخل دمشق يوم الثلاثاء أول تشرين أول (أكتوبر)

١٩١٨، وصبحي العمري الضابط في «الجيش العربي» والقائد في معركة ميسلون في كتابه «أوراق الثورة العربية»، ومرويات رضا الركابي رئيس الوزارة الاستقلالية الأولى، ورؤوف البحراني وزير المال أثناء قيام الحكم الوطني في العراق والضابط في الجيش العثماني عند إعلان الحرب العالمية الأولى، الذي دوّن خلال وجوده مذكرات عن سير القتال على الجبهة الإيرانية ضد الجيش الروسي، وكان في عداد «الجيش العربي» الذي دخل دمشق، كما سجل هزيمة الجيش التركي أمام الجيش العربي، ويعتبرها المؤلف «من أنفس المصادر في تاريخ تلك الحقبة ١٩١٨ ـ ١٩٢٠».

ويحلل المؤلف «سياسات» كل من بريطانيا وفرنسا وتركيا والبولشفيك (روسيا) تجاه سورية في هذه المرحلة العصيبة، وتبدل «سياسات» كل من بريطانيا وفرنسا بعد نجاح أتاتورك في تركيا والوقوف ضد الجيش الفرنسي فتخلت فرنسا لتركيا آنذاك عن كيليكيا لتلتفت إلى حليفتها سورية وتنتصر عليها في معركة ميسلون عام ١٩٢٠، وتشهد دمشق دخول القائد الفرنسي دخول الفاتحين.

ويصف المؤلف في صفحات الحياة الاجتماعية في بعض المناطق، لا سيما في دمشق، والتنازع بين العائلات الإقطاعية في صيدا وجنوبي لبنان كعائلتي الصلح والأسعد، ويستعير وصف بعض القادة التاريخيين من مذكرات رستم حيدر.

يستعيد المؤلف في كتابه، اللحظات السعيدة التي عاشتها بلاد الشام بعد انسحاب الجيش التركي إلى حدود بلاده، ودخول الجيش العربي إلى المدن المحررة في بلاد الشام. ويصف سعادة الشعب باستقبال هذا الجيش الذي سبق غيره من جيوش الحلفاء (فرنسا، بريطانيا) بدخول دمشق ودرعا وبيروت، وإعلان أولى الحكومات الاستقلالية، إلى موقف المؤتمر السوري المطالب بالسيادة التامة لسورية ورفض الوصاية الفرنسية وإعلان أول دستور عربي، كل ذلك يعيد المؤلف حياكته بحبكة روائية مفعمة بالأحلام الواعدة. كما يصف دقائق سقوط هذا الحلم في ميسلون وبعده... كرت السبحة وقسمت بلاد الشام وفقاً للأماني الاستعمارية وانقسمت الشقيقة عن الشقيقة، وانشطرت البلاد، ورُسمت الحدود أيضاً وفقاً لمصالح فرنسا وبريطانيا، وأجريت التعديلات تلو التعديلات تبعاً لأهوائهما وغاياتهما... ويسلمان فلسطين «ذبيحة» إلى الصهيونية، وتضيع «أحلام» السيادة والاستقلال، بعدما طفحت الصحف «بالمقالات الرائعة عن انبثاق الفجر الجديد وتحقيق أملنا السعيد بتشكيل الحكومة العربية المبشرة باستعادة العرب لأمجادهم السابقة». ويتابع عناوين الصحف في هذه الفترة:

«التاريخ يعيد نفسه»، و«العرب يسترجعون دمشق». كما يسجل أول عملية «انبعاث للحكم العربي» والسعادة الطافحة التي غمرت بلاد الشام، والتحاق كل الضباط الذين كانوا في الجيش العثماني في «الجيش العربي».

في الفصل الأول من كتابه، يمر على كل الأحداث التي وقعت في بلاد الشام من دخول الجيش العربي إلى المدن قبل أي جيش آخر، وتكذيب الإنكليز هذه الأحداث ليقطفوا ثمارها، ويعرض المؤلف تفاصيل عمليات الدخول إلى كل مدينة والاستقبالات الشعبية التي جرت في كل منها.

ويستعرض في الفصل الثاني، أوضاع ترسيم الحدود بين كيانات «سايكس ـ بيكو» والخلافات الفرنسية ـ الإنكليزية على هذا الموضوع واتفاقات الانتدابين الفرنسي والإنكليزي على عمليات الترسيم واقتطاع أراضي بعض القرى تطبيقاً لها.

ويتحدث في الفصل الثالث، عن القيادة العسكرية للحلفاء بعد انهيار «الحكم الاستقلالي العربي» ونصوص الرسائل المتبادلة بين الحكومتين الإنكليزية والفرنسية لتثبيت بنود اتفاقية سايكس ـ بيكو.

ويأتي على الزيارات المكوكية التي قام بها فيصل إلى أوروبا، في الفصل الرابع، ومجمل الحوارات والأخذ والرد في العاصمتين باريس ولندن، وانقلاب أتاتورك على معاهدة سيڤر وإرضائه بالإسكندرون، وعودة فيصل خائباً وإعلان استقلال سورية بقيادته في الفصل السادس. وإصدار أول دستور عربي «في التاريخ وفيه تتمثل لأول مرة طموحات العرب في الحكم الاستقلالي النيابي. . .» كما يقول.

ويعرض في الفصول اللاحقة، أوضاع حكومة فيصل، وإنذار غورو له ومن ثم دخوله إلى دمشق وذهاب فيصل إلى العراق والأوضاع المستجدة وفرض الانتداب على كل من سورية ولبنان وشرق الأردن، وعمليات تقسيم بلاد الشام والحدود المرسومة لكل دولة ناشئة والتعديلات الطارئة على الحدود اللبنانية ـ الفلسطينية، واتفاقية الحدود بين مصر وفلسطين.

وأخيراً يستعرض عمليات الاعتداء على فلسطين من إقامة قنصلية إنكليزية في القدس عام ١٨٣٩ التي يعتبرها «أول تدخل عملي إنكليزي لنصرة اليهود»، وأول دفعة من اليهود هاجرت إلى فلسطين عام ١٨٨٢، وأول صدام مسلح عام ١٨٨٦ «عندما تملك الصهاينة الخضيرة وملبس وطردوا الفلاحين. . . الذين هاجموهم واشتبكوا معهم. . .».

كتاب الأمين شهادة حية على أوضاع بلاد الشام عشية انتصار الحلفاء في الحرب

الأولى، و«الطعنة» التي سددوها لجيش «حليف» ساهم مساهمة فعالة وأكيدة في تحرير مدن المشرق العربي وأقام فيها أولى حكوماته ووضع أول الدساتير، وواجه في ميسلون بيديه وبجسده الحي ليحقق هذا الحلم الذي عاش لأيام معدودة.

ويحشد المؤلف في كتابه الوثائق والمذكرات لأيام «مشهودة» ولمؤتمرات تاريخية ولمواقف رجالات بلاد تأبى الذل والهوان.

وكتب الأستاذ حسان الزين في جريدة النهار:

«سراب الاستقلال في بلاد الشام (١٩١٨ ـ ١٩٢٠)» كتاب جديد لحسن الأمين صدر حديثاً عن «شركة رياض الريس للكتب والنشر»، يروي فيه دقائق وتفاصيل الوقائع التي شهدتها بلاد الشام أثناء الصراع بين الانتداب والاستقلال، في أسلوب قصصي مادته التأريخية شهادات وأوراق معاصري تلك الأحداث وخصوصاً الذين كانوا جزءاً من صورتها.

يبدأ حسن الأمين كتابه برسم خريطة لبلاد الشام التي يتحدث عنها في الكتاب وهي: «سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، مضافاً إليها قسم من تركيا هو: عين تاب ومرعش وسيس واضنة وأسكندرونة». ثم تبدأ «القصة» من انبعاث الحكم العربي إلى معاهدة سايكس ـ بيكو إلى رحلة الأمير فيصل الأوروبية إلى أوضاع لبنان وجبل عامل والموقف في لبنان. وفي الفصل الحادي عشر يعلق على كتاب «سلام ما بعده سلام» لدافيد فرومكين، فينتقد أسلوبه في انتقاء المصادر والمراجع وأخذه الأقوال من دون تعليق، وسطحيته وقلة تتبعه، هو وساشار الذي اعتمد عليه «حين يعرضان شؤون البلاد العربية وشجونها» (صفحة ٢٧٠).

فمرة أخرى يعمل المؤرخ الأمين مبضعه التنقيبي في نصوص معاهدات ووثائق ومذكرات سياسية وعسكرية نادرة. فيعيد نبشها وقراءتها بمايكروسكوب. يكتب: «وفي هذا الكلام كله واحدة نفهم منها شيئاً كثيراً، هي كلمة (لزوم الإسراع)». فحسن الأمين يصوغ الحكاية ليس استناداً إلى وثائق ومستندات تاريخية وحسب، إنما من عصارته لها، من تقاطعاتها واختلافاتها في ما بينها. وهو أيضاً، في كتابه الأخير كما في كتبه السابقة، يقرأ ويكتب من موقع المختلف والاستنطاقي والمجاهر. ولهذا كله تكثر مصادره ومراجعه، إذ يوسع دائرة بحثه بالقدر نفسه الذي يحفر فيه ويغوص إلى باطن التاريخ في وثائقه الرسمية والهامشية والخاصة على حد السواء. وهذا الغوص وتلك التوسعة عصبها، إضافة إلى التأريخ، التأويل، أو الاستدلال والاستنطاق. فحسن الأمين صاحب موقف في تأريخه، يتخذ

موقفاً قاطعاً وحاداً، لكأنه شخص في التاريخ الذي يبحث فيه، أو لكأنه قاضٍ والتاريخ محكمة.

وهو إلى هذا مؤرخ يؤلف كتبه بمنهجية بسيطة يقدم فيها مصادره ومراجعه مع خلاصاته.

وعلى أثر صدور كتاب حِل وترحال، كتبت جريدة الديار:

بعد كتابه «سراب الاستقلال في بلاد الشام» صدر للباحث والمؤرخ السيد حسن الأمين عن شركة «رياض الريس للكتب والنشر» كتاب جديد بعنون «حِل وترحال ـ ذكريات».

يتألف الكتاب من قسمين، القسم الأول: الحِل ويتضمن الفصول الآتية: من شقرا إلى دمشق ـ الاصطياف في جبل عامل ـ بصيص من النور ـ أولى المعارك الوطنية ـ في العراق ـ في القضاء ـ إلى مصر ـ إلى العراق مرة ثانية ـ البحث والتأليف ـ لبنانيات ـ قصائد منوعة.

القسم الثاني يتضمن الفصول الآتية: الترحال إلى العراق ـ إلى الباكستان ـ إلى أفريقيا الشرقية ـ إلى إيران ـ على عباب البحر المتوسط ـ إلى أمريكا الجنوبية ـ من سانتياغو إلى نيويورك ـ في ألموت وديار الإسماعيليين.

في هذا الكتاب يسرد المؤلف ذكريات عمر بين دمشق وجبل عامل، وأكثر من عاصمة عربية وغربية، حينا بانطباعات المقيم المزمن وأحياناً أخرى بعين الرحالة المتسابق مع الأمكنة والأزمنة. وفي هذه الذكريات أيضاً وصف لتقاليد وعادات وأطوار للحياة كانت سائدة في لبنان وسورية ثم عفى عليها الزمن، يوماً بعد يوم، حتى امّحى بعضها من الوجود انمحاءً كاملاً.

إن ما يتضمنه الكتاب لا يقتصر على سيرة ذاتية أو أدب رحلات، بل هو مزيج من هذا كله، ما يدفع القراء إلى أن يتقصوا أثر المؤلف وحياته المديدة (٩٠ عاماً) وما حفلت به من أحداث ومواقف ومفارقات، واقعين تارة على حسن الأمين المؤرخ والشاعر وتارة أخرى على الرحالة والسياسي الذي تجمعه مع رجالات السياسة في لبنان صلات وصولات وجولات، يطالعنا فيها المفاجيء والجديد عن هؤلاء.

حسن الأمين في هذا الكتاب قلم نضر وعقل حي ووجدان مضطرم، يحسده على ذلك الكثير من شبان اليوم.

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بلاد الشام التي نتحدث عنها هي ما عرفت بعد الحرب العالمية الأولى بأقسام أربعة: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. هذا إذا أردنا الإجمال، أما التفصيل فقد ذكرناه في كتابنا الماضي (سراب الاستقلال في بلاد الشام) فلا نعيده هنا. وكتابنا اليوم هو صفحات من تاريخ هذه البلاد، تاريخها البعيد وتاريخها القريب، أردنا به أن نفي حق الوطن علينا بتسجيل بعض ما مر عليه من أحداث كان فيها هدفاً لغارات المغيرين وغزو الغازين، ثم لم يلبث أن خرج من أتونها سليماً معافى، يوالي رسالته عربياً صريحاً.

وإذا كنا حرصنا في كتابنا الماضي على تخصيص فترة معينة من فترات التاريخ لم تَعْدُ السنتين: من ١٩١٨ إلى ١٩١٠ فلأن هاتين السنتين كانتا من أخطر ما مر على بلاد الشام من أحداث.

وإننا في كتابنا الحاضر قد وقفنا في أحداث القسم الجنوبي من الوطن (فلسطين) عند إعلان مجلس الأمن تقسيمها بين العرب واليهود وما أعقب هذا الإعلان من حرب، عرفت باسم حرب ١٩٤٨ ولم نواصل الحديث عما تلا تلك الحرب من أمور الحرب والسلم لأننا أردنا أن نذكر ذلك بتفاصيل يضيق عنها حيّز هذا الكتاب، ففضلنا تخصيصها بكتاب مستقل نحن الآن في سبيل إعداده.

وإذا كان اليهود يعدون العدة الآن للاحتفال بمرور نصف قرن على قيام دولتهم في شطر من بلاد الشام الجنوبية[١]، فنحن على يقين بأنه لن يقدر لهم تكرار الاحتفال بقيام دولتهم

(١) كانت كتابة هذه المقدمة قبل بلوغ الخمسين السنة بشهور.

لزمن بعيد. فالصليبيون قبلهم ظلوا هنا قرنين ثم قُذفوا إلى حيث جاءوا، واليهود سُيقذفون مثلهم، ولكن لا بعد قرنين، بل بعد حين مهما طال فهو آت. . .

وإذا كان يبدو أن اليهود هم المنتصرون حتى الآن، وأن انتصاراتهم قد ركّزت دولتهم، فإننا نقول بأن انتصاراتهم العسكرية إذا بدت حاسمة في قيام دولتهم، فإنها لم تكن كذلك في حقيقة الواقع! . . .

فالشعب العربي حقق نصره الأول عليهم فحجارة الفتيان في فلسطين، ومفاداة الشبان في جبل عامل على حدود لبنان الجنوبية، انتصرت على اليهود فحولتهم من طامعين بإسرائيل الكبرى إلى راضين بالصغرى! . . .

وإذا كانت حجارة الانتفاضة في الداخل، ورصاصات (المقاومة الإسلامية) على الحدود في جبل عامل قد حققت هذا النصر الكبير. فماذا سيكون شأنهم يوم يجتمع الشمل العربي المشتت، ويتكامل الإعداد، ويتصايح الثلاث مئة مليون عربي: يا لثارات العرب! . . . .

أتمنى لو تحقق لي كتابة تاريخ حرب (الاسترداد) العربية، ولكنني وأنا حين أكتب هذه الكلمات في صميم التسعين من العمر لا أحسب أن هذه الأمنية ستتحقق، فلمن سيكتب هذا التاريخ من بعدي أطيب تحياتي. . .

وسيرى القراء فيما سيقرؤون في هذا الكتاب ما عانته بلاد الشام ممن أغاروا عليها غير راحمين، وما كابدته من الروم والمغول والصليبيين، وما أحاق بها من الإنكليز والفرنسيين، وسيكون لهم من ذلك عبرة فيما تكابده أمتهم اليوم من اليهود وحماتهم الأمريكيين.

وإننا إذ نودع القراء الآن نرجو الله أن يمدنا بما نستطيع أن نلتقي فيه بهم مرة أخرى في كتاب قادم نصل به ما انقطع من الحديث عن بلاد الشام، وليس بذلك على كرمه الذي عودنا عليه بعزيز.

بيروت: ٧ نيسان ١٩٩٨ — **حسن الأمين**

الفصل الأول

غارات البيزنطيين (الروم) ودفاع الحمدانيين

جد الحمدانيين الأدنى الذي يتفرعون عنه وينسبون إليه هو حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب وهم تسعة: ١ ـ علي بن حمدان بن حمدون وكان أسن ولد حمدان، مات حدثاً. وولده أبو الغطريف يحيى. ٢ ـ أبو الهيجاء عبد الله والد سيف الدولة. وله ثلاثة أولاد. أولهم: ناصر الدولة الحسن وهو أسنّ من سيف الدولة. ولناصر الدولة عدة أولاد منهم: أبو تغلب الغضنفر، وأبو المظفر حمدان، وإبراهيم، وأبو البركات لطف الله، وأبو المرجى جابر، وأبو القاسم هبة الله، والحسين، وأبو المطاع ذو القرنين. والثاني من أولاد عبد الله بن حمدان سيف الدولة أبو الحسن علي، وله من الأولاد: أبو المكارم مات في حياته، وأبو المعالي شريف ملك بعده. والثالث من أولاد عبد الله أبو العطاف جبر. ٣ ـ أبو الوليد سليمان الملقب بالحرون. ٤ ـ أبو العلاء سعيد والد أبي فراس، وله خمسة أولاد هم: أبو عبد الله الحسين، وأبو فراس الحارث، وأبو الهيجاء حرب، وأبو الأغر أحمد، وأبو الفضل. ٥ ـ أبو سليمان داود الملقب بالمزرفن، وله ولدان: أبو وائل تغلب، وأبو اليقظان عمار، ويظهر أن لعمار ولداً اسمه داود أيضاً. ٦ ـ أبو علي الحسين، وحفيده أبو العشائر الحسين بن علي. ٧ ـ أبو السرايا نصر وله خمسة أولاد: أبو العباس أحمد، وأبو اليقظان عمار، وأبو الحسن علي، وأبو زهير مهلهل وأبو عدنان محمد. ٨ ـ أبو إسحاق إبراهيم. ٩ ـ أبو جعفر محمد الغمر. ومن بني حمدان جعفر بن عبد الله الحمداني، للشاعر كشاجم فيه قصيدة بليغة.

وقد ظهر نفوذ الحمدانيين في الموصل منذ أن تقلد ولايتها عبد الله بن حمدان من قبل

الخليفة المكتفي سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦م) ولما تولى المقتدر الخلافة أقره عليها والياً، فظل يلي أمورها حتى سنة ٣١٧هـ حيث اشترك في المؤامرة التي دبرت لخلع المقتدر، فكان مصيره القتل. على أن الخليفة المقتدر رغم ذلك حرص على الاستعانة بالحمدانيين لا سيما في إقليم الجزيرة لاعتقاده أنهم يستطيعون إخماد حركات القبائل المتنافرة بهذا الإقليم، فأسند إلى الحسن بن عبد الله بن حمدان ولاية الموصل. وقد استطاع هذا الأمير أن يحتفظ بنفوذه في الموصل منذ سنة ٣١٧ هـ كما تمكن من بسط سلطانه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة.

ولما استولى البريديون على بغداد ونهبوا دار الخلافة اضطر الخليفة المتقي إلى الهرب منها وسار مع فريق من جيشه إلى الموصل، فقضى فيها ما يقرب من أربعة أشهر، ثم عاد إلى بغداد في شوال سنة ٣٣٠هـ وعلا من ذلك الوقت شأن بني حمدان، فخلع المتقي على الحسن بن عبد الله ولقبه ناصر الدولة، كما خلع على أخيه علي بن عبد الله ولقبه سيف الدولة.

كان عصر الحمدانيين عصراً انقسمت فيه المملكة الإسلامية المترامية الأطراف إلى ممالك وإمارات جلها غير عربي، فكانت خراسان وما والاها بيد السامانيين، وما وراء النهر بيد الغزنويين، وبغداد وفارس بيد البويهيين، ومصر والشام بيد الإخشيديين. وجميع هؤلاء غير عرب، فأنشأ الحمدانيون مملكة عربية في الموصل وديار بكر وديار ربيعة والجزيرة وحلب والعواصم(١) إلى البحر المتوسط شمالاً وإلى مملكة البيزنطيين شرقاً، وإلى فلسطين

(١) **العواصم في اللغة**: جمع عاصم، وهو المانع. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾. والعواصم كما يحددها معجم البلدان: حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية، وقصبتها أنطاكية، كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء، وأكثرها في الجبال فسميت بذلك. وربما دخل في هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحي، وزعم بعضهم أن حلب ليست منها، وبعضهم يزعم أنها منها، ودليل من قال أنها ليست منها أنهم اتفقوا على أنها من أعمال قنسرين، وهم يقولون: قنسرين والعواصم، والشيء لا يعطف على نفسه.

وقال أحمد بن محمد بن جابر: لما استخلف الرشيد أفرد قنسرين بكورها فصيرها جنداً وأفرد منبج ودُلوك ورَعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون فسماها العواصم لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر، وجعل مدينة العواصم منبج. وذكرها المتنبي في مدح سيف الدولة فقال:

لقد أوحشت أرض الشام طراً ... سلبتَ ربوعها ثوب البهاء

تنفّسُ والعواصم منك عَشْر ... فتعرفُ طيبَ ذلك في الهواء =

ودمشق غرباً، فردوا غارات البيزنطيين وأغاروا على بلادهم وفتحوا كثيراً منها، والبيزنطيون يومئذ في قوتهم، وقهروا القرامطة والخوراج وقبائل العرب المتمردة، المنتشرة في الجزيرة وبادية الشام وحاربوا الإخشيديين في الشام وأخذوا منهم دمشق ثم عادوا عنها بمخامرة المخامرين فيها. وكانت هذه المملكة مقسمة في إداراتها بين ناصر الدولة الحسن بن عبد الله وأخيه سيف الدولة علي. وكان لناصر الدولة: الموصل والجزيرة، ولسيف الدولة: حلب والعواصم وما إليها. وكان على عاتق سيف الدولة أن يرد هجمات البيزنطيين ويحمي بلاد الشام منهم، وفي هذا يقول بعض شعراء ذلك العصر في مدحه لسيف الدولة وقائد جيوشه أبي فراس مشيراً إلى تقاعس المتقاعسين عن نصرة الحمدانيين في نضالهم للروم:

طلعت لهم فوق الدروب سحابة تهمي بصوبي عثير وقتام

والمسلمون بمعزل منهم سوى من أفردوه لنصرة الإسلام

وأبو فراس في الهياج أمامه مثل الحسام بدا أمام حسام

وفي قتال سيف الدولة المتمادي للبيزنطيين ودفعهم عن الأوطان وحمايتها منهم يقول أبو فراس الحمداني مخاطباً سيف الدولة:

قد ضج جيشك من طول القتال به وقد شكتك إلينا الخيل والإبل

وقد درى الروم مذ جاورت أرضهم أن ليس يعصمهم سهل ولا جبل

في كل يوم تزور الثغر لا ضجر يثنيك عنه ولا شغل ولا ملل

فالنفس جاهدة والعين ساهدة والجيش منهمك والمال مبتذل

وما أصدق الشريف الرضي حين قال في رثائه لبنت سيف الدولة (تقية)[1]:

نعى الناعون واضحة المحيا ألوف البيت ذي العمد الطوال

= ويقول شاعر بني مرداس (ابن أبي حصينة):

أما العواصم والثغور فلم تزل تحمى بنادون الملوك وتعصم

وفي هذا العصر يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي:

غدت العواصم خطة مغزوة لا الخيل تعصمها ولا الأجناد

(١) ورد الخبر إلى بغداد بوفاة (تقية) بنت سيف الدولة في مصر وقد انتقلت إليها عن الشام، وكانت من أفاضل نساء قومها، وكان كثيراً ما يبلغه من شدة شغفها بما يقع إلى تلك البلاد من شعره، حتى إنها طلبت انتساخ نسخة عن ديوانه على التمام وحملها إليها من العراق. وكان ورود الخبر بوفاتها في شهر رمضان سنة ٣٩٩.

من البيض العقائل من معدّ بنين قبابهن على الجلال
نعوا ظبة لأبيض مشرفي قديم الطبع عاديّ الصقال
لسيف الدولة العربي فيها صنيع القين قام على النصال[1]
إذا ما الفحل أنجب ناتجاه فقد ضمن النجابة للسخال
وما طابت غوادي المزن إلا أطبن وقائع الماء الزلال
قصائر في بيوت العز تنمى مناسبها إلى المجد الطوال
وكل عقيلة للجود تمسي عطول الجيد حالية الفعال
كأن خدورها أصداف يم محصنة ضممن على لآل
لها نسب العتاق مرددات إلى الغايات أيام النضال
عمائر من ربيعة أنزلتهم أعالي المجد أطراف العوالي
كقومك لا يعيد الدهر قوماً ومثل أبيك لا تلد الليالي

سيف الدولة

ولد سنة ٣٠٣هـ (٩١٥م) وتوفي سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م)

البطل العربي الذي صمد في وجه البيزنطيين (الروم) ورد عاديتهم عن بلاد الشام وحمى موطنه من غاراتهم وحكمهم، فلقد أنشأ علي بن حمدان (دولته الحمدانية) في أحرج ظرف من ظروف العرب والمسلمين، حين قام (نقفور فوقاس الثاني) يلوّح بمطامعه الهوجاء، ويزمجر بأمانيه الواسعة في استرداد بلاد الشام والنفاذ منها حتى إلى الحجاز، ولقد كان ضعف الخلافة وتشتت قواها، وتمزق شمل البلاد وانقسامها مما أغراه على الطمع وشجعه على الإقدام. ولكنه واجه الصخرة الصلدة التي تحطمت عليها آماله وتبعثرت فيها مطامعه، واجه سيف الدولة بفروسيته المفادية وشجاعته المتعالية، فرده خائباً وتغلغل في صميم بلاده، واشتبك معه بمعارك كانت من أروع الصفحات في تاريخنا الحربي والسياسي والأدبي، وحسبك أنها أبرزت بطلاً كسيف الدولة وشاعرين كالمتنبي وأبي فراس، وأنها كانت كفيلة بحفظ البلاد وحمايتها ورد الروم عنها إلى الأبد.

(١) في هذا البيت الذي يرى فيه الشريف الرضي أن خير ما يوصف به سيف الدولة أنه (العربي)، دليل على ما في نفس الشريف الرضي من المرارة لتضاؤل شأن العرب في الحكم يومذاك.

وكما كان سيف الدولة مجلياً في الميدان العسكري فقد كان مجلياً كذلك في ميادين العلوم والآداب إذ جمع في بلاطه من العلماء والشعراء والأدباء ما كان منهم خير حفظة لتراث العرب، وأفضل رواد لثقافتهم.

ويقول كاتب عربي:

كل ما اتصف به سيف الدولة كان جديراً بأن يجذب إليه الشعراء: شجاعته وحروبه المتعددة توفر لهم مواد المدح الفخم، كرمه الفياض يرغبهم في صحبته، حبه للآدب ومعرفته بالشعر، يعزز فيهم المنافسة، عصبيته للعرب تعيد إليهم ما انقرض من موضوعات الفخر القديم، تساهله وسعة ثقافته تجرئهم على أقوال ما كانوا ليجرؤوا عليها في حضرة أمير جاهل ضيق الصدر.

أما شجاعته فالشواهد عليها كثيرة. ونكتفي بالقول إنه بدأ غزو الروم ومحاربتهم وهو في أوائل الشباب، ولم يكف عن المعارك يباشرها بنفسه حتى وفاته، لا تمر عليه سنة إلا ويسير للحرب إما غازياً أو مدافعاً، إما منتصراً أو منكسراً. حتى إننا لا نرى مبالغة في قول من قال أن سيف الدولة كان كلما رجع من غزوة نفض ما علق على ثيابه من غبار فجمعه في مكان، وأوصى بأن يصنع منه لبنة توضع تحت خده في قبره، فنفذت وصيته. ومهما يكن من أمر فإن في الحادثة رمزاً دقيقاً إلى سعة غزوات ذاك الأمير.

ومن الطبيعي أن تقترن هذه الشجاعة بفروسية ماهرة فيظهر سيف الدولة من أشهر خيالة عصره، يطاعن بالرمح، ويجالد بالسيف، ويستعمل أحياناً نوعاً من السلاح يعرف بالمستوفي: وهو عمود من حديد طوله ذراعان، مربع الشكل، له مقبض مستدير.

وهو ممثل العروبة الوحيد في ذلك العصر. وعروبته هذه كانت من الأسباب التي دعت المتنبي، وهو الشاعر العربي الأكبر، إلى الاتصال به ذاك الاتصال الوثيق فمثلا في عصرهما النزعة العربية سياسة وأدباً.

سيف الدولة القائد

لقد كانت الجيوش البيزنطية التي يواجهها سيف الدولة يربو عددها في الموقعة الواحدة على عشرات ألوف المحاربين، وهم بعد ذلك من أجناس مختلفة بين روس وبلغار وروم وصقالبة وأرمن وخزر، فجيش البيزنطيين على حد قول المتنبي:

تجمع فيه كل لسن وأمة   فما يفهم الحداث إلا التراجم

فإذا ما نظرنا إلى القادة الذين كانوا يقودون هذه الجيوش وجدناهم الأباطرة البيزنطيين أنفسهم، ومن بين هؤلاء أخطر قائدين عرفتهما بيزنطة ونعني بهما برداس فوكاس ثم أخوه نقفور فوكاس ومن قبلهما قسطنطين ليكابينوس الذي تحداه سيف الدولة في غزواته قبل الملك.

فأما برداس فقد التقى بسيف الدولة في عدة معارك، وعلى رغم كثافة جيوشه لم يحرز نصراً مشرفاً واحداً، بل كان يفقد في كل معركة جانباً كبيراً من جيشه وعدداً خطيراً من بطارقته ـ أي قواده ـ ثم اكتمل سوء حظه حينما التقى بسيف الدولة قرب مرعش سنة ٣٤٢هـ (٩٥٣م) وفي هذه المعركة جرح برداس في وجهه ووقع ابنه قسطنطين أسيراً في يد سيف الدولة فضلاً عن أسرى آخرين من القواد[١].

وكانت هذه المعركة من أكبر ما مر على البيزنطيين من نكبات فبعدها حزن برداس حزناً شديداً على أسر ولده ودخل الدير مترهباً وتسابق شعراء سيف الدولة فوصفوا هذه الحادثة الفريدة وصفاً بارعاً فيقول أبو الطيب المتنبي والخطاب موجه إلى الأمبراطور البيزنطي:

نجوت بإحدى مهجتيك جريحة — وخلفت إحدى مهجتيك تسيل
أتسلم للخطية ابنك هارباً — ويسكن في الدنيا إليك خليل
بوجهك ما أنساكه من مرشة — نصيرك منها رنة وعويل

نقفور فوكاس

وكان هذا القائد من أمهر وأقسى القواد البيزنطيين، كان قبل توليه القيادة والملك قائداً عاماً للقوات البيزنطية البرية والبحرية في الجبهة الغربية وقد نجح فيما أخفق فيه كثير من القواد السابقين حينما استطاع استعادة جزيرة كريت من يد العرب سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م)[٢].

---

(١) زبدة الحلب ١/ ١٢٣، ١٢٤، ابن الوردي ١/ ٢٨٦.

(٢) منذ منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أخذ البيزنطيون بزمام المبادرة في صراعهم مع المسلمين، ورجحت كفتهم في أول الأمر بتولي ثلاثة من أباطرتهم، أولهم (نيقفور فوقاس) صاحب الجيش الكبير الذي استرد به جزيرة أقريطش (كريت) من المسلمين بعدما صمدوا له نحواً من سبعة شهور.
يقول ياقوت الحموي: «أناخ عليها (أقريطش) نقفور بن الفقاس الدمستق في خلافة المطيع... في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩ (٢٨ تموز/يوليو ٩٦٠م) في ٧٢,٠٠٠ منهم خمسة آلاف فارس.
ويذكر ابن خلدون أن النصارى نازلوا الجزيرة في سبعمئة مركب. =

وكان لنقفور فوكاس أطماع كثيرة أهمها الملك وثانيها استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين، فأما هدفه الأول فقد وصل إليه حينما عقد أواصر صداقة مع ثيوفانو زوجة الأمبراطور رومانوس ثم تزوجها بعده وأعلن نفسه أمبراطوراً وتسمى باسم نقفور الثاني وكان ذلك سنة ٣٥٢هـ (٩٦٣م)[١].

وكثيراً ما راودته الفكرة الثانية أي فكرة فتح بيت المقدس وقد وضح ذلك جلياً حينما فتح طرسوس ووقف على منبرها وخطب قائلاً إن هذه البلدة هي التي كانت تعوقه عن الوصول إلى بيت المقدس[٢].

= ويروي النويري حكاية عن الطريقة التي تم فيها للروم الاستيلاء على جزيرة أقريطش يقول فيها إن الأمبراطور لجأ إلى الحيلة لما أعياه أخذ الجزيرة، فبدأ بإبرام معاهدة صداقة مع أميرها وتعهد بأن يدفع له ضريبة سنوية على أن يكف عن الإغارة على جزر بحر إيجة. فوافق الأمير عبد العزيز على ذلك، وأخذ التجار اليونانيون يمارسون أعمالهم بين أقريطش وبين القسطنطينية وجزر بحر إيجه، وازداد بالتالي رخاء الجزيرة وقلّت العناية بالأسطول. ثم كتب الأمبراطور إلى الأمير يقترح إرسال خمسمائة فرس إلى الجزيرة بسبب قحط أصاب الأمبراطورية على أن يتقاسما نسلها، ثم لم يلبث أن أرسل الأمبراطور حملة إلى الجزيرة، ورست مراكبه قرب المكان الذي كانت ترعى فيه الخيول، فنزل الجنود وامتطوها، وأغاروا على المسلمين بغتة وتم لهم بذلك الاستيلاء على الجزيرة. ورواية النويري هذه، وإن لم يتقبَّلْها العقل، إنما يستدل منها على اعتماد الروم في استيلائهم على الجزيرة على عنصري الخداع والمباغتة.

بادر فوقاس لدى وصول حملته إلى الجزيرة بضرب حصار شديد على عاصمتها مدينة الخندق لقطع وصول الامتدادات إليها. وكما يقول ياقوت، فإنه «لم يزل محاصراً لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠ (٧ آذار ٩٦١م)، فقتل ونهب وسبى. وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شُعيب من ولد أبي حفص محمد بن عيسى الأندلسي وأمواله وبني عمِّه، وحمل ذلك كله إلى القسطنطينية. وقيل إنه حمل إلى القسطنطينية من أموالها وسبي أهلها نحواً من ٣٠٠ مركب. وهدموا حجارة المدينة وألقوها في الميناء الذي دخلت مراكبهم فيه لئلا يدخل فيه بعدهم عدو.

أما المصادر البيزنطية فتقول إن نقفور حفر خندقاً على طول الجزيرة ليعزل المدينة عزلاً تاماً، ثم ضربها بالمجانيق إلى أن سقطت في يده بعد مقاومة طويلة وعنيفة.

وبعد سقوطها، تعرَّضت المدينة للنهب والسلب، وأُسر آخر أمرائها الذي تسميه هذه المصادر (Kouroupus)، ولعلّه التحريف عن «القرطبي» كما أُسر ابنه (Anemas) (النعمان) وأفراد أسرتهما.

وبعد أن دكّ فوقاس أسوار المدينة شيّد في ظاهرها حصناً استقرت فيه حامية بيزنطية. ودُمِّرت مساجد المدينة وأُحرقت المصاحف.

(١) الأمبراطورية البيزنطية لباينيس ترجمة الدكتور حسين مؤنيس ص٦٢.

(٢) زبدة الحلب ١/ ١٤٣.

بعض أخبار سيف الدولة ووقائعه

أشار الأمير أبو فراس الحارث بن سعيد الحمداني إلى أكثر وقائع سيف الدولة وحروبه في قصيدته التي يفتخر فيها بقومه وعشيرته ونذكر منها هنا ما يتعلق بسيف الدولة ووقائعه قال:

فإن يمض أشياخي فلم يمض مجدها ... ولا دثرت تلك العلى والمآثر
نشيد كما شادوا ونبني كما بنوا ... لنا شرف ماض وآخر غابر
ففينا لدين الله عز ومنعة ... ومنا لدين الله سيف وناصر
هما وأمير المؤمنين مشرد ... أجاراه لما لم يجد من يجاور
ورداه حتى ملكاه سريره ... بعشرين ألفا بينها الموت سافر
وساسا أمور المسلمين سياسة ... لها الله والإسلام والدين شاكر

والمراد بهما ابنا عمه سيف الدولة علي بن عبد اللّه بن حمدان وأخوه ناصر الدولة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان. والمراد بأمير المؤمنين هو المتقي ثم قال في مدح سيف الدولة وذكر وقائعه:

ألا قل لسيف الدولة القرم إنني ... على كل شيء غير وصفك قادر
فلا تلزمني خطة لا أطيقها ... فمجدك غلاب وفضلك باهر
ولو لم يكن فخري وفخرك واحدا ... لما سار عني بالمدائح سائر
ولكنني لا أغفل القول عن فتى ... أساهم في عليائه وأشاطر
وعن ذكر أيام مضت ومواقف ... مكاني منها بيّن الفضل ظاهر
مساع يضل القول فيهن كله ... وتهلك في أوصافهن الخواطر
بناهن باني الثغر والثغر دارس ... وحافظ دين الله والدين داثر
ونازل منه الديلمي بأزرق ... لجوج إذا نادى مطول مصابر

قال ابن خالويه: افتتح سيف الدولة ديار بكر سنة ٣٤٣ وقلدها أبا جعفر الديلمي فعصى وسار فتحصن بأرزن فنزل عليه سيف الدولة حتى أنزله قهراً. إلى ذلك أشار أبو فراس بقوله (ونازل منه الديلمي بارزن) قال:

وذلت له بالسيف بعد إبائها ... ملوك بني الجحاف تلك المساعر

قال ابن خالويه: ملوك بني الجحاف أبو اليقظان أعلى ابن مسلمة السلمي نازله سيف الدولة في بلده حتى فتحه وهرب إلى بلاد الروم فأمده ملك الروم ببطريق في عشرين ألفاً فهزمهم وعاد السلمي فدخل في جملة أصحاب سيف الدولة ورده إلى بلده ورضي عنه. وقصد أبا العز السلمي وأبا سالم فأخذ بلدانهم ثم ردها عليهم فأقرهم عليها فصاروا من جملة أصحابه. قال:

وشق إلى نفس الدمستق جيشه　　بأرض سلام والقنا متشاجر

قال ابن خالويه: غزا سيف الدولة في سنة ٣٣٤ حتى نزل حصن بني زياد، فأقبل الدمستق في ثمانين ألفاً حتى أحاط بالعسكر في موضع يقال له سلام، فأشاروا على سيف الدولة بأخذ ما خف والهرب فأبى وناجزهم وهرب الدمستق قال:

سقى أرسناسا مثله من دمائهم　　عشية غصت بالقلوب الحناجر

وبات يدير الرأي من أين وجهه　　وذو الحزم ناهيه وذو العزم آمر

(أرسناس) بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح السين المهملة ونون وألف وسين أُخرى، في معجم البلدان: اسم نهر في بلاد الروم يوصف ببرودة مائه عبره سيف الدولة ليغزو فقال المتنبي:

حتى عبرن بأرسناس سوابحا　　ينشرن فيه عمائم الفرسان

والماء بين عجاجتين مخلص　　تتفرقان به وتلتقيان

قال:

وناهض أهل الشام منه مشيع　　يسايره الإقبال فيمن يساير

له وعليه وقعة بعد وقعة　　ولود بأطراف الأسنة عاقر

فلا هو فيما سره متطاول　　ولا هو فيما ساءه متقاصر

ولما رأى الإخشيد ما قد أظله　　تلافاه يثني غربه ويكاسر

رأى الصهر والرسل الذي هو عاقد　　تنال به ما لا تنال العساكر

قال ابن خالويه: كانت له وقائع مع الإخشيد وكانت الحروب بينهما سجالا ولما تطاولت الحروب راسله بالصلح فأجاب إليه سيف الدولة وتزوج ابنة الإخشيد ولم يدخل بها قال:

وأوقع في جلباط بالروم وقعة   بها العمق واللكام والبرج فاخر

في معجم البلدان: جلباط بالضم ناحية بجبل اللكام بين أنطاكية ومرعش كانت بها وقعة لسيف الدولة ابن حمدان بالروم افتخر بها أبو فراس فيما افتخر فقال (وأوقع في جلباط) وذكر البيت، وفيه: عمق بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره قاف كورة بنواحي حلب وإياه عنى أبو الطيب المتنبي حيث قال مخاطباً سيف الدولة:

ومثل العمق مملوء دماء   مشت بك في مجاريه الخيول

وقال أبو العباس الصفري شاعر سيف الدولة يذكر العمق:

وكم شامخ عالي الذرى قد تركته   وارفعه دك وأسفله سهب

وأوقعت بالإشراك في العمق وقعة   تزلزل من أهوالها الشرق والغرب

وفيه: اللكام بالضم وتشديد الكاف ويروى بتخفيفها وهو في شعر المتنبي مخفف فقال:

بها الجبلان من صخر وفخر   أنافا ذا المغيث وذا اللكام

وهو الجبل المشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور. وفيه: برج الرصاص قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قرب أنطاكية وإياها عنى أبو فراس بقوله: وذكر البيت: قال:

وأوردها بطن اللقان وظهره   يطأن به القتلى خفاف حواذر

في معجم البلدان اللقان: بالضم ثم التخفيف وأخره نون بلد بالروم وراء خرشنة بيومين غزاه سيف الدولة وذكره المتنبي في قوله:

يذري اللقان غبارا في مناخرها   وفي حناجرها من آلس جرع

يقول إن هذه الخيل شربت من آلس وهو بلد بالروم فلم يتعد حناجرها حتى أذرى اللقان الغبار في مناخرها يعني أنها سارت من آلس إلى اللقان في مدة هذا مقدارها وبينهما مسافة بعيدة وقد شدده أبو فراس فقال:

وقاد إلى اللقان كل مطهم   له حافر في يابس الصخر حافر

قال:

أخذن بأنفاس الدمستق وابنه   وعبرن في جيحان[1] من هو عابر

(١) **جيحان**: قال ياقوت هو نهر بالمصيصة بالثغر الشامي مخرجه من بلاد الروم ثم يصب في الشام.

وجبن بلاد الروم ستين ليلة　　تغادر ملك الروم فيمن تغادر
تخر لنا تلك القبائل عنوة　　وترمي لنا بالأهل تلك المظاهر

قال ابن خالويه: قوله وأوردها بطن اللقان إلخ قال أبو فراس: غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون سنة ٣٣٩ وسني إذ ذاك تسع عشرة سنة وأوغلنا في بلاد الروم وفتحنا حصن الصفصاف وأحرقت في هذه الغزاة مدينة خرشنة وصارخة وهزم الدمستق وأخذ من بطارقته عدة عديدة. وفي معجم البلدان: صارخة بعد الراء خاء معجمة بلدة غزاها سيف الدولة في سنة ٣٣٩ ببلاد الروم فعند ذلك قال المتنبي:

مخلى له المرج منصوباً بصارخة　　له المنابر مشهوداً بها الجمع

قال:

ولما وردنا الدرب والروم فوقه　　وقدر قسطنطين أن ليس صادر
ضربنا بها عرض الفرات كأنما　　تسير بنا تحت السروج جزائر
إلى أن وردنا أرقنين نسوقها　　وقد نكلت أعقابنا والمخاصر
وألهبن لهبي عرقة وملطية　　وعاد إلى موزار منهن زائر
ومال بها ذات اليمين لمرعش　　مجاهيد يتلو الصابر المتصابر
فلما رأت جيش الدمستق راجعت　　عزائمها واستنهضتها البصائر
وابن بقسطنطين وهو مكبل　　تحف بطاريق به وزرازر
وولى على الرسم الدمستق هاربا　　وفي وجهه عذر من السيف عاذر
فدى نفسه بابن عليه كنفسه　　وللشدة الصماء تقنى الذخائر
وقد يقطع العضو النفيس لغيره　　وتدفع بالأمر الكبير الكبائر

في اليتيمة: يقال إن سيف الدولة غزا الروم أربعين غزوة له وعليه فمنها أنه أغار على زبطرة وعرقة وملطية ونواحيها وانثنى قافلاً إلى درب موزار فوجد عليه قسطنطين بن فردس الدمستق فأوقع به وقتل صناديد رجاله وعقب إلى بلدانه وقد تراجع من هرب منها فأعظم القتل وأكثر الغنائم وعبر الفرات إلى بلد الروم ولم يفعله أحد قبله حتى أغار على بطن هنزيط فلما رأى فردس بعد مغزاه وخلو بلاد الشام منه غزا نواحي أنطاكية فأسرى سيف الدولة إليه يطوي المراحل لا ينتظر متأخراً ولا يلوي على متقدم حتى عارضه بمرعش فأوقع به وهزمه

وقتل رؤوس البطارقة وأسر قسطنطين بن الدمتسق وأصابت الدمستق ضربة في وجهه وأكثر الشعراء في هذه الوقعة.

قال ابن خالويه: قوله ولما وردنا الدرب إلخ... قال أبو فراس: كل موقف لسيف الدولة شريف وهذه الحالة التي أشرحها كالمعجزة وذلك أنا سرنا معه إلى ديار مضر لأن قبائل كعب شمخت واستفحل أمرها فلما عبرنا الفرات هربوا وأمرني باللحاق بهم وردهم إلى الطاعة ففعلت ذلك وأخذت رهائنهم فكتبت إلي أبو محمد الكاتب بحضرة سيف الدولة:

أصلحت أمر عقيل وسست أمر قشير
وكنت أيمن خلق على خلال نمير
فلا يزال نزار ما دمت فيهم بخير

وسرنا ففتحنا بلاد الروم وقدمني ففتحت حصن عرقة، وفي معجم البلدان عرقة بكسر أوله وسكون ثانيه مؤنث عرق بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ وعلى جبلها قلعة لها وكان سيف الدولة بن حمدان قد غزاها فقال أبو العباس الصفري شاعره:

أخذت سيوف السبي في عقر دارهم بسيفك لما قيل قد أخذ الدرب
وعرقة قد سقيت سكانها الردى ببيض خفاف لا تكل ولا تنبو
كأن المنايا أودعت في جفونها فأرواح من حلت به للردى نهب

ثم قال: عرقة هكذا وجدته مضبوطاً بخط بعض فضلاء حلب في شعر أبي فراس بفتح أوله وقال هي من نواحي الروم غزاها سيف الدولة فقال أبو فراس:

وألهبن لهبي عرقة وملطية وعاد إلى موزار منهن زائر[1]

ثم قال أبو فراس فيما حكاه عنه ابن خالويه في تتمة الكلام السابق: وعدنا إلى درب موزار فوجدنا عليه قسطنطين بن الدمستق في الجموع فلم يمكن الخروج منه فعدنا إلى بلاد الروم وكمن لهم سيف الدولة في موضع آخر فقتلنا منهم مقتلة عظيمة.

وقال المتنبي:

وعادت فظنوها بموزار قفلا وليس لها إلا الدخول قفول

ثم قصدنا الفرات فعبرنا فلما وصلنا إلى أرقنين بلغنا خبر الدمستق وخروجه إلى الشام

(١) **موزار**: حصن ببلاد الروم.

ونادى سيف الدولة بالتأهب وسرنا نطوي المنازل حتى عدنا من سميساط ولحقه سيف الدولة وراء مرعش في ستمائة رجل مجهدين فأوقع بهم وهزمه وأسر قسطنطين وقتل البطريق بن الملاين وضرب الدمستق في وجهه ونصرنا عليهم. وفي معجم البلدان: أرقنين بالفتح ثم السكون وفتح القاف وكسر النون وياء ساكنة ونون: بلد بالروم غزاه سيف الدولة بن حمدان وذكره أبو فراس فقال (إلى أن وردنا أرقنين) اهـ. وفي ذلك يقول أبو فراس من قصيدة أخرى:

وويلك من أردى أخاك بمرعش ... وجلل ضربا وجه والدك العضبا

قال:

رأى الثغر مثغورا فسد بسيفه ... فم الدهر عنه وهو سغبان فاغر

قال في اليتيمة: سار سيف الدولة لبناء الحدث وهي قلعة عظيمة الشأن فاشتد ذلك على ملك الروم فجمع عظماء أهل مملكته وجهزهم بالصليب الأعظم وعليهم فردس الدمستق ثائراً بابنه قسطنطين في عدد لا يحصى حتى أحاطوا بعسكر سيف الدولة والتهبت الحرب واشتد الخطب وساءت ظنون المسلمين ثم أنزل الله نصره فحمل سيف الدولة يخرق الصفوف طلباً للدمستق فولى هارباً وأسر صهره وابن بنته وقتل خلقاً كثيراً من الروم وأكثر الشعراء في هذه الواقعة فقال أبو الطيب المتنبي:

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم
وقد فجعته بابنه وابن بنته ... وبالصهر حملات الأمير الغواشم

قال:

ويوم على ظهر الأحيدب مظلم ... جلاه ببيض الهند أبيض زاهر
أتت أمم الكفار فيه يؤمها ... إلى الحين ممدود المطالب كافر

قال:

فحسبي بها يوم الأحيدب وقعة ... على مثلها في العز تثنى الخناصر
عدلنا بها في قسمة الموت بينهم ... وللسيف حكم في الكتيبة جائر

إذ الشيخ لا يلوي ونقفور محجر   وفي القد ألف كالليوث قساور

فلم يبق إلا صهره وابن بنته   وثوّر بالباقين من هو ثائر

الأحيدب: جبل وهو الذي يقول فيه المتنبي:

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة   كما نثرت فوق العروس الدراهم

قال ابن خالويه:

بنى سيف الدولة الحدث في سنة ٣٤٣ والذي في النسخة ٣٣٣ وهي غير مضمونة الصحة. ولكن في معجم البلدان وكامل ابن الأثير ٣٤٣ وزاحف الدمستق وجموع الروم معه فهزمه وأسر صهره وابن بنته فحبسهم فقال في ذلك أبو فراس: وحسبي بها.. الأبيات...

ثم قال ابن خالويه: لما لحق الدمستق ما لحقه وأسر ابنه وابن أخيه ومات في حبس سيف الدولة جمع عساكره وقصد الثغور فسار إليه سيف الدولة والتقوا عند الحدث وسيف الدولة نازل عليهم فلما أشرف الدمستق على الأحيدب وهو جبل مطل عليها هال المسلمين ما رأوا وتسللوا عن سيف الدولة وكان في عدة يسيرة ممن بقي معه فحمل عليهم سيف الدولة فيمن ثبت معه وكان له بصيرة فأنزل الله عليه الصبر والنصر فولى الدمستق هارباً وأسر صهره وابن بنته وقرابات له. ويدل كلام ابن الأثير أن ذلك كان سنة ٣٤٣ وكذلك قال ياقوت إن خروج سيف الدولة لبناء الحدث كان سنة ٣٤٣ قال ابن خالويه وما زالت الرسل تتردد بينهما إلى أن أسر أبو فراس سنة ٣٥١ فوفق الله من الرأي ما عقد له وضمن للملك أثمان ما بقي من الأسرى بعدما تفادى من البطارقة وغيرهم ومبلغه ٢٤٠٢٠٠ مائتا ألف وأربعون ألف ومائتا دينار رومية اهـ وقال:

وأجلى إلى الجولان كلباً وطيئاً   وأقفر عجب منهم وأشاعر

وباتت نزار يقسم الشام بينها   كريم المحيا لوذعي مغاور

علاءة كلب للضباب علاءة   وحاضر طي للجعافر حاضر

في معجم البلدان: عجب موضع بالشام، والأشاعر لست أعرف معناه. والأشعر من جبال الحجاز.

شخصية سيف الدولة

يقول كاتب عربي: هذا القائد العربي الذي وقف وحده في الميدان يحارب جيوش الأمبراطورية البزنطية الكبرى في فترة كانت الدولة العباسية قد تمزقت شذر مذر. وتهددتها الأطماع من كل طرف.

في هذه الفترة العصيبة قام سيف الدولة وأسس الدولة الحمدانية في حلب وأسس جيشاً جعله عدته في الكفاح. وكان همه قبل كل شيء أن يصد البيزنطيين عن التوغل في الأرض العربية. فنقل الحرب إلى الأرض البيزنطية.

وخاض مع البيزنطيين أكثر من أربعين معركة.. ووصلت طلائع جيشه إلى قلب الأناضول وكانت معاركه وغزواته أناشيد في فم الشعراء.

ومن يرجع إلى قصائدهم التي تغنوا فيها ببطولاته يرى أن شعر أكثرهم لم يكن مدحاً بقدر ما كان وصفاً للمعارك.

وكان يروق لسيف الدولة أن يصطحب معه الشعراء ليروا بأم أعينهم المعارك، فإذا وصفوا، وصفوا واقع معاركه وحقيقة غزواته وبطولاته ولم يهيموا في أودية الخيال.

وقصائد المتنبي أريد «سيفياته» التي جاوزت الثمانين قصيدة ومقطوعة هي روائع الأدب العربي في تصوير معارك البطل الحمداني.

وقد ذهب الدكتور طه حسين إلى أن شعره في سيف الدولة إن لم يكن من أجمل شعره وأروعه وأحقه بالبقاء فهو من أجمل الشعر العربي كله وأروعه وأحقه بالبقاء.

وسر ذلك، أن المتنبي رافق سيف الدولة في بعض غزواته، وشهد معاركه، فوصف البطولة العربية وصفاً دقيقاً لا تجده في شعر غيره من الشعراء الذين وصفوا معاركه أو معارك غيره من القادة.

هذا القائد البطل الذي «رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى» كان رمزاً في المغامرة والشجاعة. وإلى هذا أشار المتنبي بقوله:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح، وثغرك باسم

وقال:

فيوما بخيل تطرد الروم عنهم ... ويوما بجود تطرد الفقر والجدبا

سراياك تترى والدمستق هارب ... أصاحبه قتلى وأمواله نهبى

يقول «شلمبرغر» في كتابه عن القائد البيزنطي نيقفور فوكاس: «إن المتصفح لمقتطفات التاريخ البيزنطي في منتصف القرن العاشر، ولأكثر من عشرين سنة، أي من سنة ٩٤٥ إلى سنة ٩٦٧ يجد اسماً وحيداً يطفو على كل صفحة من صفحات ذلك التاريخ كإنسان قوي

شجاع لا يكل ولا يتعب وكان عدواً لدوداً للأمبراطورية الرومانية، ذلك هو أمير حلب سيف الدولة بن حمدان الذي كان قاسياً طموحاً يتمتع بشجاعة فائقة لا يعرف الخور إليه سبيلا، كما كان يوصف بأنه حامي الآداب والفنون».

لقد استطاع هذا البطل العربي، بالرغم من الحروب الداخلية التي شنها عليه الإخشيديون وبالرغم من الفتن التي أثارها رجال القبائل، وبالرغم من دخول البيزنطيين حلب أكثر من مرة بعد أن أعدوا جيشاً ضخماً بلغ تعداده المائتي ألف مقاتل بغية استعادة سيطرتهم على الوطن العربي، استطاع أن يصون الشام من غزوهم، وإلى هذا أشار المتنبي حين اعتبر حروبه مع البيزنطيين ليست لحماية حلب وحماية بلاد الشام فقط، بل لحماية مصر والعراق:

ليس الاك يا «علي» همام — سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا يأمن العراق ومصر — وسراياك دونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الأعادي — ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى من أعزه النفع عنه — فيهما أنه الحقير الذليل
أنت طول الحياة للروم غاز — فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم — فعلى أي جانبيك تميل
قعد الناس كلهم عن مساعيك — وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا — كالذي عنده تدار الشمول

وهكذا، فقد كان يحارب وحده، وظل في صراع مرير حتى مات.

هذا القائد لم تصرفه المعارك عن أن يجعل من حلب بيئة خصبة للآداب والفنون، ولشتى أنواع الترف ومباهج الحضارة.

فقد فتح قصره كما يذكر «شلمبرغر» أيضاً لكل فنان، موهوب وأديب فذ، فوفدوا عليه من جميع الأطراف، من العراق، من فارس، من الشام، من بيزنطة، من البندقية وجنوى، وكان يستمع إلى الشعراء ويتحبب إلى الكتاب والمصورين، ويمنح المؤرخين الشيء الكثير من عطاياه ومنحه فيعود هؤلاء إلى بلادهم حاملين إلى شعوبهم صورة رائعة عن خلق الرجل العالي وشخصيته العجيبة.

هذه الرواية الأجنبية التي تتسم بالصدق تقابهلا الرواية العربية على لسان الكثير ممن عاصروه وفي طليعتهم الثعالبي حين قال:

«إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر».

سيف الدولة المحارب

في كتاب عن الدولة الإسلامية وأمبراطورية الروم، يذكر الدكتور إبراهيم العدوي أن يوحنا تزمسكيس كان أول من فكر في مشروع الحرب الصليبية منذ زمن مبكر يعود إلى أواسط القرن الرابع للهجرة ـ العاشر للميلاد، وذلك حين فكّر في استرجاع بيت المقدس أثناء زحفه إلى بلاد الشام العام ٣٦٤هـ ـ ٩٧٤م، وهو بذلك يكون سبق إلى فكرة الحرب الصليبية بوقت طويل.

وإذا كان نصيب هذا الاستنتاج من الصحة يحوز على درجة كبيرة من التقدير، فإنه من الضروري التنبه إلى ما كان يسبق تلك المرحلة التاريخية، إذ كانت بلاد الشام تتعرض للعديد من الهجمات التي كان يقوم بها البيزنطيون ببضعة عشر عاماً، وهي شكلت فيما نعتقد البدايات القديمة للحروب الصليبية على المشرق العربي.

يبدو نقفور فوكاس الذي كان الندّ الحقيقي للأمير سيف الدولة وكأنه أول من تبنى الحرب الصليبية ونفذها، بحيث سيطرت كما نرى على كل غزوة شنّها على العرب الحمدانيين، وعلى الأمير سيف الدولة منشىء الدولة العربية الفتية على مقربة من حدود الروم. وتظهر لنا المراجع التاريخية أن هذا القائد البيزنطي كان يمهد لفكرته الصليبية هذه في القسطنطينية نفسها، حين كان يظهر في أعياد الفصح مرتدياً ملابس غريبة مذهبة، منتعلاً نعلاً مذهباً، تشبهاً بالسيد المسيح كما يقول شلمبرغر. وكان هذا القائد، إذا خرج لحرب الحمدانيين، حشد في مقدمة جيشه البطاركة والقساوسة وحمل الجنود الصلبان الك... ، حتى يعطي الحرب صبغة مقدّسة.

كان نقفور فوكاس ذاته يفصح في كثير من الأحيان عن الهدف الأساسي لتلك الحروب التي كان يشنها على بلاد الشام مستهدفاً أولاً بأول تلك المملكة العربية التي كان على رأسها سيف الدولة في حلب، وذلك للنيل منها وتحطيمها، لأنه كان يرى فيها عقبة كأداء تحول بينه وبين الوصول إلى الديار المقدسة.

يقول الدكتور مصطفى الشكعة في تعليقه على أعمال سيف الدولة العسكرية وشدة بأسه في حروبه مع الروم: «ليس من شك أنه ما من قائد أتعب الأمبراطورية البيزنطية وسقاها كؤوس المر مترعة، كما فعل سيف الدولة خلال سنوات طويلة من النصف الأول من القرن الرابع للهجرة». ويشير إلى أنه بدأ حروبه معهم قبل توليه مملكة حلب، وذلك منذ العام ٣٢٦هـ، ويضيف بعد ذلك قائلاً «على أننا إذا ما حاولنا تتبع سيف الدولة في كل غزوة من غزواته أراضي الروم، فقد يكون ذلك من الأمور المملّة التي ليس مكانها هذه الصفحات، وإنما يمكن الرجوع إليها في تاريخ ابن الأثير أو زبدة الحلب أو تجارب الأمم لمسكويه، أو غيرها من كتب التاريخ التي تهتم بالجزئيات، ذلك أن سيف الدولة قد قام بحوالي أربعين غزوة على البيزنطيين».

ويحدّثنا بعض المؤرخين أنه حين كان سيف الدولة مشغولاً بحرب الإخشيديين لاستخلاص حلب مملكة يلي أمرها، حام البيزنطيون (٣٣٣ هـ ـ ٩٤٤م) وانتهزوها سانحة، وأغاروا على الثغور ظناً منهم بأن الأمير العربي، كان غير قادر على الحرب في جبهتين في وقت واحد معاً. ومن المفاجىء للبيزنطيين أن سيف الدولة استطاع أن يقدّر عواقب الأمور بسرعة وأن يحزم أمره. ويقرر وقف معاركه مع الإخشيديين، ليسارع إلى ملاقاة البيزنطيين العدوّ الرئيسي، خصوصاً أنه كان يرى مهمته تنحصر في حماية الثغور وتأمينها قبل إنشاء الملك. ولهذا تراه يسارع فيجهز وينزل إلى أرض المعركة في بفراس ومرعش ويكمن لجيش العدوّ في بعض المضايق والشعاب وينزل بهم هزيمة منكرة، ثم يعود ليثبت ركائز ملكه في حلب.

وبعد ثلاثة أعوام نرى الروم يقومون من جديد بغارة على حصن برزويه ويتمكنون منه ويملكونه. وكان هذا الحصن واحداً من الحصون المهمة في الثغور، ولهذا ينهض سيف الدولة إلى الحصن ويستمر في حصاره مضيّقاً على الصليبيين فيه، حتى يتمكّن من استرداده ويثبت قوة الجيش العربي داخل موقعه. ومما يذكر في هذا المجال أنه انصرف من هذا الحصن إلى ميافارقين، ومن هناك عاد إلى حلب ماراً بأنطاكية حيث التقى الشاعر العربي الكبير أبي الطيب المتنبي في حضور أبي العشائر الحمداني للمرة الأولى، وكان ذلك العام ٣٣٧هـ، عندما أنشده قصيدته المشهورة التي تعتبر من عيون شعره ومطلعها:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تسعدا، والدمع أشفاه ساجمه

ولم يتأخر الزمن كثيراً بالأمير سيف الدولة حتى كانت معاركه الشهيرة مع الروم في

العام ٣٣٩هـ - ٩٥٠م، إذ نجده يستعدّ للتقدم منذ ذلك العام في الأراضي البيزنطية فاتحاً مكتسحاً لا سيما أنه أخذته نشوة النصر، فظل يضرب في أكناف الأرض، والحصون تتساقط أمامه وتحت سنابك خيله: حصناً بعد آخر. وتمكّن من أسر عدد كثير من جنود الروم وفتح سمندو وخرشنة وظلّ يتقدم حتى وصل إلى صارخة التي تقع على مقربة من القسطنطينية. فقال المتنبي في قصيدة يذكره بانتصاره بصارخة:

مُخلى له المرجُ منصوباً بصارخة له المنابر مشهوداً بها الجُمعُ

ويقول المتنبي الذي شهد المعارك:

رضينا والدمستق غير راض بما حكم القواضب والوشيج

فإن يُقدم فقد زرنا سمندو وإن يحجم فموعدنا الخليج

ولعل في هذه الأبيات من الإشارات والدلالات ما يسمح لنا بالاستنتاج بأن جيش سيف الدولة كان عازماً على الوصول إلى الخليج أي البوسفور وذلك من أجل الإطباق على القسطنطينية.

ومما يذكره المؤرخون عن جيش سيف الدولة ويتندرون به أنه كان نظم فيالق من خيرة جنوده، ودربهم تدريباً خاصاً فيه جرأة ومغامرة وفداء، وإقبال على الأعداء ومباغتتهم من حيث لا يتوقعون. وعرفت هذه الفرق باسم حملات القفز وذلك لأنها، كما وصفها أحدهم، كانت تعمد في سبيل الوصول إلى الأعداء، إلى القفز من قمة إلى قمة وبكل سهولة ويسر، يقفزون بين هاويتين سحيقتين... وأضاف قائلاً: «ثم ينزلون على العدو فيوقعون به شر الوقائع وينزلون الرعب في صفوفه، وينشرون الفزع في معسكراته، ويتركون الكثير من القتلى». وكان الجنود البيزنطيون حين يروون قصص الفدائيين العرب يروونها في كثير من الفزع والرعب.

وجيش الأمير العربي الذي يحمي الثغور ويقف سداً منيعاً في وجه الأعداء، كان له قواده المدربون الذين تتلمذوا على يد الأمير وخاضوا المعارك معه، ورسموا خطط الحرب وكابدوها. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت تجمعهم مع الأمير أيضاً أواصر الدم والقربى، فهذا هو أبو فراس الحمداني ابن عمه الشاعر والفارس يخوض كثيراً من المعارك في صحبته، ثم كان ينوب عنه في قيادة الجيش أثناء بعض المغازي التي يقوم بها في الثغور، أو أثناء بعض المعارك التي ينهض لها لترويض القبائل الثائرة. أما ابن عمه أبو تغلب وائل بن داود بن حمدان، فكان يلي أمر حمص ويساند الأمير في حروبه مع الروم. وهناك أيضاً أبو زهير

مهلهل بن نصر بن حمدان الذي خاض معارك عدة إلى جانب سيف الدولة ومنها معركته في حصن صفصاف الذي فتحه وأوغل بعد ذلك في بلاد الأعداء، إلى أن لقي مصرعه. ولا ننسى أيضاً أبا العشائر الحمداني الذي كان والياً للأمير على أنطاكية، وقد أسر في موقعة عرندس سنة ٣٤٥هـ ـ ٩٥٦م حيث حمل إلى القسطنطينية ومات فيها قبل أن يتم افتداؤه. كما علينا ألا ننسى هبة الله ومحمد ابنا أخيه ناصر الدولة، وقد ولاهما أكثر من مرة على رأس بعض الجيوش لخوض بعض المعارك.

إن الحمدانيين الذين قال عنهم الثعالبي إنهم أسرة من ملوك العرب وجوههم للصباحة وألسنتهم للفصاحة، لعبوا دوراً بارزاً على صعيد السياسة القومية، إذ كانوا يشكلون بحق نواة الدولة العربية في حلب الشهباء، تلك الدولة التي أسست على قاعدتين أساسيتين: قاعدة توحيد العرب والثانية العمل على الوقوف سداً منيعاً في وجه جميع الحملات الصليبية البيزنطية التي كانت تستهدف استرداد البلاد التي خرجوا منها عقب الفتح العربي الإسلامي.

وحقاً، كان بإمكان هذه الدولة التي استقطبت أنظار العالم عصر ذاك، وشدت قلوب الناطقين بالضاد إليها، أن تعمل على التوحيد والتحرير، غير أن مؤامرة الأعداء نالت منها وهي في تطور تكوينها وتأسيسها، فانتهى الحلم بموت الحالم فزالت بزوال الحاكم[1].

المتنبي وسيف الدولة

في يوم من الأيام الضاحكة من سنة ٣٣٧ للهجرة، وفي دار من أعز دور أنطاكية أهلاً ورحاباً، وأعلاها في المكارم والمحامد باباً، احتشد حفل من علية الناس، وكبراء القوم... وتلاقى في هذا الحفل على بساط واحد عمائم الفقهاء والعلماء، وقلانس البطاركة والمطارين وخوذ الشجعان والفرسان... وزخرت الردهة الكبرى في الدار بمختلف أصحاب المقامات الضخمة من رجال السياسة والزعامة وأكابر القادة وذوي الوجاهة والنباهة.

هذه الدار هي دار الأمير أبي العشائر الحمداني الأمير الشاب الذي كان كغيره من أمراء البيت الحمداني علماً من أعلام الفروسية والأدب، وبطلاً من أبطال السيف والقلم. وكانت ضفاف العاصي في أنطاكية، والطرق المؤدية إلى الدار تنتعش بالمارة والنظارة الذين سدوا المنافذ ليشرفوا على الغادي والرائح بين الجماعات التي تغشى الدار والوفود التي تقصد إليها.

ويظهر أن أنطاكية التي تعودت أن تشهد بين حين وآخر أمثال هذه الاحتشادات

(١) قصي الحسين.

والتجمعات وألفت تلك الدار أن تضم ردهتها هؤلاء الأجلاء من الناس للاحتفاء برجل الدولة الحمدانية الكبير وبطل العروبة الفذ (الأمير سيف الدولة).

وكان يعمل النظر في هذا المجتمع شاب حذر اللفتات، حاد النظرات، ما تكاد تستقر حدقة عينيه، ولا تقف لحظاته وتأملاته. هذا الشاب كان غريباً عن أنطاكية وأهليها، غريباً عن كل شيء فيها، هو أحمد بن الحسين أبو الطيب المتنبي. وربما كان مجلسه القريب من الأمير أبي العشائر والي أنطاكية، والأمير الكبير سيف الدولة هو تعزيته عن وحدته وتسليته عن كربته، فيبدد من كآبة غربته وكمدة وحشته فتبدو بين فترة وأخرى على وجهه ابتسامات الجذل وإمارات الاغتباط وكان الأمير الكبير يبادله نظرات الإعجاب والإكبار، ويلحظ كل منهما الآخر لحظات تستثير الذكريات وتعود بهما إلى الماضي غير البعيد عندما تعارف الوجهان لأول مرة وتمازج القلبان للنظرة الأولى. لقد كانت أنطاكية سنة ٣٣٧ للهجرة موثقة بين هذين القلبين، علائق (رأس عين) سنة ٣٢١ وكان هذا الاجتماع محققاً للأهداف والآمال التي جاءت وليدة ذلك التلاقي ونتيجة هذا الاتصال نعم لقد التقى المتنبي بسيف الدولة سنة ٣٢١ في (رأس عين) وكان من ثمرات هذا الالتقاء أول قصيدة مدح فيها المتنبي سيف الدولة وهي القصيدة التي أولها:

ذكر الصبا ومراتع الأرام　　　جلبت حمامي قبل وقت حمامي

وقد ذكر فيها إيقاعه بعمرو بن حابس وبني ضبة سنة ٣٢١ للهجرة. وفي هذا الاجتماع الثاني جدد التعارف بينهما الأمير أبو العشائر، وجاءت ثمرة هذين الاجتماعين عظيمة وجد عظيمة في تاريخ سيف الدولة الأدبي والسياسي والحربي، ومؤثرة جد مؤثرة في خلود البطلين بطل العلياء والهيجاء علي بن حمدان وبطل الأدباء والشعراء أحمد بن الحسين. وظل سيف الدولة بأنطاكية أشهراً من هذه السنة وأبو الطيب معه لا يفارقه وفي هذه المدة استطاع كل منهما أن ينفذ إلى روح الآخر، ويقف على دخائله، وكان لهذا الاتصال روعة وأثر عميق في نفس المتنبي دل عليهما قوله في أول قصيدة أنشدها بهذا اللقاء:

سلكت صروف الدهر حتى لقيته　　　على ظهر عزم مؤيدات قوائمه

فأبصرت بدراً لا يرى البدر مثله　　　وخاطبت بحراً لا يرى العبر عائمه

غضبت له لما رأيت صفاته　　　بلا واصف والشعر تهذي طماطمه

أما الرواية التي يؤخذ منها أن المتنبي اشترط على سيف الدولة حينما لقيه في أنطاكية أن لا ينشده إلا وهو قاعد، وأن لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه فهي رواية لا يرتاح إليها

الباحثون، ولا يطمئن لها العارفون حقيقة سيف الدولة، والمتنبي يومئذ لم يكن مشهوراً شهرته بعد اتصاله بسيف الدولة ولم يكن نفخ في أنفه بعد كبر العظمة والغرور.

وإذا كان من المقرر أن البيئة شديدة التأثير في الشاعر وأن الشاعر متأثر ببيئته لا محالة فإن البيئة الجديدة التي صار إليها المتنبي في ظلال سيف الدولة كانت خصيبة وجد خصيبة على أدب أبي الطيب وشعره، وقد ظهرت آثارها في جميع أنماط شعره الذي قاله مدة ملازمته سيف الدولة وبعد مفارقته إياه.

وخصائص سيف الدولة الأدبية العظيمة، من عمق المعرفة، وطول الباع في الأدب ونقده، وسمو المنزلة مع نفاذ النظر، كل ذلك كان حافزاً للمتنبي أن يجوّد فيما يقول لعلمه إنه سيعرضه على الصيقل. وكان من ذلك أيضاً الحياة الوارفة الظلال، الرافهة، الهانئة التي اتصل بها أبو الطيب بعد ذلك القلق المساور وضربه في أجواز الفلوات ومغامرته في البلدان:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي، ما أبتغي جل أن يسمى

لقد وصل المتنبي أو كاد إلى هذا الذي قال إنه (جل أن يسمى) وبلغ أن يتعاظم على الكبراء والأمراء في مجالس الملوك.

وإذا أضيف إلى هذا علو ثقافة سيف الدولة وأن حلب كانت في عصر سيف الدولة عاصمة للعلم والأدب ومركزاً لأثرى المكاتب لا سيما مكتبة الأمير سيف الدولة العظيمة التي كان الأخوان الخالديان قيمين عليها نعلم مقدار ما استطاعت اقتباسه ثقافة المتنبي البدوية الجافة من ثقافة سيف الدولة العلمية الأدبية الناضرة.

ويلاحظ بعض الذين كتبوا في المتنبي من المتأخرين أن وشائج المحبة والولاء بين هذين الرجلين الفذين سيف الدولة والمتنبي لم تكن قائمة على الروابط الأدبية فقط بل إن هذه الوشائج كانت تتصل بالنواحي السياسية ووحدة الاتجاه فيها، فكلا الرجلين كانا يتعاونان على إنفاذ برنامج واحد هو إعلاء شأن العروبة والعمل للمجد العربي في عصر سيطرت فيه الأعاجم وكاد يذوب العربي في السلطات الغريبة عنه... وكانت هذه الناحية من أدق البواعث لسيف الدولة في تقريب المتنبي وتفضيله على غيره ممن يمت إليه من أركان الدولة ورجالات العلم والأدب حتى أسمى الناس قربى لديه. وهو القائل يوم اتصاله بأبي العشائر تحقيقاً لغرضه:

فسرت إليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش

هذه الادعاءات التي ادعيناها نحن وغيرنا للمتنبي وادعاها هو لنفسه من بغضه الأعاجم وحبه توحيد المساعي مع الأمراء العرب لجعل كلمة العرب العليا وتخليصهم من المتسلطين عليهم وليسوا منهم ربما نقضها ما شهدناه من المتنبي بعد خروجه من حلب وقصده كافوراً في مصر ومدحه إياه أجل المديح وهو غير عربي ثم قصده إلى ابن العميد في أرجان، ثم عضد الدولة البويهي في شيراز وكلاهما من الأعاجم الذين زخر شعر المتنبي في النقمة عليهم والغض منهم. ولعل كل هذا صورة عن حيرة المتنبي وقلقه النفساني، ثم لعله تأييد لما ذهب إليه آخرون من أن المتنبي كغيره من شعراء عصره لم يكن يبالي بغير جمع المال والحصول عليه من أي طريق جاء وبأية وسيلة حصل. وربما يعتذر المتنبي عن ذلك بأنه لم يكن مخلصاً في مدحه لهؤلاء وإنما تكلف ذلك تكلفاً، وإنه لم يقصد شيراز إلى عضد الدولة إلا بعد تلكؤ وتثاقل وبعد إلحاح ابن العميد عليه ولما استنشد الشعر في أول ملاقاته تعاظم وأنشد من قصيدته التي قالها بعد خروجه من مصر:

فلما أنخنا ركزنا الرماح — بين مكارمنا والعلى

وبتنا نقبل أسيافنا — ونمسحها من دماء العدى

لتعلم مصر ومن بالعراق — ومن بالعواصم أني الفتى

وأني وفيت وأني أبيت — وأني عتوت على من عتا

حتى قال عضد الدولة (هونا. يتهددنا المتنبي) ثم هو لما أنشده قصيدته قال في مستهلها:

ولكن الفتى العربي فيها — غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها — سليمان لسار بترجمان

ومن بالشعب أحوج من حمام — إذا غنى وناح إلى البيان

وقد أشار عضد الدولة إلى موقف المتنبي هذا فقال: (إن المتنبي كان جيد شعره بالغرب) يريد سيف الدولة. ولما وصل هذا إلى المتنبي قال (الشعر على قدر البقاع). وإذا مدح المتنبي كافوراً أو ابن بويه بعد مدحه ابن حمدان فليس إنصافاً أن يتخذ ذلك طريقاً إلى الشك في إخلاص المتنبي لسيف الدولة وشدة ولائه ومحبته له، فكذب الشاعر في شيء لا يستلزم كذبه في غيره وخاصة إذا راعينا ظروف المتنبي ولاءمنا بينها وبين نفسه وغرائزه.

وكانت عطايا سيف الدولة للمتنبي عظيمة ذكر صاحب (خزانة الأدب) إن ما ناله المتنبي

من سيف الدولة في أربع سنين بلغ (خمسة وثلاثين ألف دينار)، وكان يعطيه في كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ما عدا العطايا الخاصة. أفلا يحق للمتنبي بعد هذا أن يقول في سيف الدولة:

أسير إلى إقطاعه في ثيابه ... على طرفه من داره بحسامه

وهو الذي كان قبل اتصاله به يتعثر بأذيال الفقر والخساسة ويضرب في الآفاق من أجل دينار راكباً نعليه وممتطياً قدميه. وبنو حمدان كما قال الثعالبي في اليتيمة (كانوا ملوكاً وجوههم للصباحة وعقولهم للرجاحة وأيديهم للسماحة وألسنتهم للفصاحة). وغير مستنكر أن يجد المتنبي في هذه الوجوه الصبيحة ما يصرفه عن وجوه الغيد، وفي تلك الألسنة الفصيحة ما يكسو به شعره من وشي وإنماط، وفي تلك العقول الرجيحة ما يقبس منه مصباحه العقلي الذي أضاء له السبيل إلى رائع حكمته وبليغ فلسفته. أما السماحة التي وجدها بقربهم فهي التي صيرته يقول من بعد:

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله ... وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا

لازم المتنبي سيف الدولة تسع سنوات أتحفت الأدب العربي بأروع ما يتحف به شاعر، وضمت إلى قائمة فحول شعراء العربية شاعراً عقمت العربية إلى اليوم أن تلد مثله، وعطف الأمير العربي الكبير على الشاعر العربي الكبير، وأعجب بمزاياه وبشعره أيما إعجاب وأدناه وقربه إليه وأغدق عليه فأجاد هذا الهدايا والمواهب وأجاد ذلك صوغ الفرائد والقلائد. وكان بلاط سيف الدولة كبلاط لويس الرابع عشر في فرنسا أشبه بمجمع علمي يضم الشاعر والناثر واللغوي والفقيه والعالم والأديب والفيلسوف والطبيب حتى كان يلتقي على مائدته أربعة وعشرون طبيباً، وفيه خيرة من أنبتته العروبة والإسلام من رجالات العلم وأعلام الأدب كالفارابي والصنوبري وأبي علي الفارسي وابن نباته السعدي وأبي الفرج الأصفهاني وابن خالويه والأمير أبي فراس والرفاء والنامي وكثير غير هؤلاء. فلا غرابة إذا كثر حساد المتنبي ومناوئوه في البلاط وخاصة إذا لوحظ ما كان عليه المتنبي من الطبع القوي وخلق التعاظم والعجرفة. وليس من الأنصاف أن نقول إن الحسد وحده كان السبب في عداوة الناس له، بل إن الرجل كان على جانب عظيم من غلظة الطبع والتعرض لعداوة الناس وقد اتصلت غلظة طبعه هذه بتعاظمه وترفعه على الناس بتآزر الخلقان على خلق الكراهية له في نفوس عارفيه ومعاشريه، ألم يقل:

أمط عنك تشبيهي بما وكأنما ... فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا　　بأنني خير من تسعى به قدم

* * *

وكيف لا يحسد امرؤ علم　　له على كل هامة قدم

وهذا الطبع صحبه في جميع المواطن فأوجد له من الخصوم أمثال (ابن كروس) عند (بدر بن عمار) والأمير (أبي فراس الحمداني) و(ابن خالويه) وغيرهما عند سيف الدولة والوزير (ابن حنزابه) عند (كافور) و(الحاتمي) وإضرابهما في بغداد.

وقد ضايق هؤلاء الخصوم والحساد المتنبي في البلاط الحمداني واستطاعوا أن يوغروا صدر الأمير الكبير عليه وتبرم المتنبي بهؤلاء الخصوم والحساد وهدد وعرض:

أبا الجود اعط الناس ما أنت مالك　　ولا تعطين الناس ما أنا قائل

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر　　ضعيف يقاويني قصير يطاول

بأي لفظ تقول الشعر زعنفة　　تجوز عندك لا عرب ولا عجم

وليس من السهل أن يحف الشاعر في حضرة من ينشده بفئة كبيرة من حاسديه وماقتيه يرمقونه شزراً ويعيبونه كيف قال وكيف نطق. إن صمود المتنبي لخصومه هؤلاء في مجلس سيف الدولة عند إنشاده إياه قصيدته (واحر قلباه ممن قلبه شبم) وشدة معارضة أبي فراس له وتعييبه ونقده وتوجيه الإهانات له كل ذلك لمما يصدع قلب الأسد ويفت في العزيمة ويفلج المقاومة والمغالبة وإذا أضيف إلى ذلك انقلاب سيف الدولة أيضاً على الشاعر ومجاراته للخصوم في ذلك المجلس حتى ضرب الشاعر بالدواة التي بين يديه على مرأى ومسمع من هؤلاء الخصوم، عرفنا قوة ذلك القلب الذي يحمله المتنبي وشدة جلادته على الصدمة ومثل هذه الصدمات تحل العزائم وتخرس الألسنة وتفقد الرشد. ولم يبق أمام المتنبي بعد هذا غير الخروج من حلب ومفارقة سيف الدولة فراق الوامق المغلوب المخذول..

وقد يظن أن الأمير أبا فراس حين كان يوغر صدر سيف الدولة على المتنبي ويغريه بقطع عطاياه عنه وتوزيعها على غيره من الشعراء يعد ذلك حسداً من الأمير أبي فراس. والواقع أن أبا فراس في منزلة من الشعر والأدب والقربى من سيف الدولة لا يدانيه فيها المتنبي ولا غيره، حتى قالوا إن المتنبي كان يتهيب إنشاد الشعر في حضرة أبي فراس وما كان سيف الدولة يدعوه في أكثر الأحيان إلا (سيدي)، ولم يكن البلاط الحمداني وغيره ينظر إلى شعر أبي فراس بأقل من نظره إلى شعر أبي الطيب. وأبو فراس من رجال الحمدانيين المغاوير ومن

أبطال سيف الدولة الأفذاذ، بل هو دعامة عظيمة من دعائم الدولة الحمدانية ولم يقرب من سيف الدولة قربه أحد، ورجل مثل هذا لا يكون حاسداً وإنما يكون محسداً. وإنما كان ذلك حملة موجهة إلى شخصية المتنبي وما يلازم هذه الشخصية من عجرفة وكبرياء وتعاظم حتى في مجلس سيف الدولة وحتى على سيف الدولة نفسه وبني أعمامه وأبو فراس في موقفه ذلك ماقت ناقد وليس بحاسد.

فارق المتنبي سيف الدولة أسفاً نادماً يلتفت إلى أمامه لفتة وإلى خلفه لفتات وهو الذي يقول في هذا الفراق:

ولله سيرى ما أقل تئية　　　عشية شرقيى الحدالى وغرب

عشية أحفى الناس بي من جفوته　　　وأهدى الطريقين التي أتجنب

أليس في قوله (من جفوته) اعتراف بأنه البادىء في الجفاء وأنه هو مصدر هذا التباعد لسيف الدولة ثم أليس فيه الصراحة الكافية الدالة على أنه خلف الأمل والرجاء وراءه واستقبل الخيبة واليأس أمامه:

يا من يعز علينا أن نفارقهم　　　وجداننا كل شيء بعدكم عدم

نعم لقد كان وجدانه كل شيء عدماً بعد سيف الدولة، فارقه وهو لا يريد فراقه ونزح وهو لا يرغب في هذا النزوح. وقد ذكر أحد الفضلاء من الأدباء المعاصرين أن فراق المتنبي لسيف الدولة لم يكن منشؤه ما وقع للمتنبي من كيد حساده له وتغير قلب سيف الدولة عليه، وإنما كان ذلك منبعثاً عن حبه (خولة) أخت سيف الدولة ومعرفة بعض أمراء البيت الحمداني بذلك حتى قاموا يناوئونه تلك المناوءة ويستثيرون عليه سيف الدولة. وهذا خلاف ما ذهب إليه جميع الذين ترجموا للمتنبي وهي دعوى ما تزال تفتقر إلى عناصر تحقيقية وأدلة أقوى من الأدلة التي اعتمدها الكاتب، والبت فيها على هذا النحو، والحال كما ذكرنا، مجازفة قولية لا تقوم على أساس. والمتنبي من أصلب الناس عوداً وأغلظهم كبداً في قضايا الحب ومشاكل الغرام.

وقد انبترت الصلات بين المتنبي وسيف الدولة بعد حلب سوى ما كان من إنفاذ سيف الدولة ابنه من حلب إلى المتنبي في الكوفة، بعد خروجه من مصر يدعوه إلى حلب وإنفاذ المتنبي قصيدته (مالنا كلنا جو يا رسول) إليه سنة (٣٥٢)، ثم إنفاذه إليه قصيدته (يا أخت خير أخ يا بنت خير أب) يعزيه بخولة أخته، ثم كتابة سيف الدولة إليه وجواب المتنبي على هذا الكتاب أواخر سنة (٣٥٣) بقصيدته (فهمت الكتاب أبر الكتب). والقصائد الثلاث هذه

تكشف عن عاطفة متأججة في المتنبي نحو سيف الدولة لم تقو عوامل التشرد الشديدة وقسوة الظروف التي مرت على المتنبي أن تطفىء من جمرتها أو تخمد من جذوتها. وقد جاء في الأولى:

كلما رحبت بنا الروض قلنا ... حلب قصدنا وأنت السبيل
فيك مرعى جيادنا والمطايا ... وإليها وجيفنا والذميل
والمسمون بالأمير كثير ... والأمير الذي بها المأمول
الذي زلت عنه شرقاً وغربا ... ونداه مقابلي ما يزول
ومعي أينما سلكت كأني ... كل وجه له بوجهي كفيل

ومما جاء في الثالثة:

وما لاقني بلد بعدكم ... ولا اعتضت من رب نعماي رب
ومن ركب الثور بعد الجوا ... د أنكر أظلافه والغبب
وما قست كل ملوك البلاد ... فدع ذكر بعض بمن في حلب
ولو كنت سميتهم باسمه ... لكان الحديد وكانوا الخشب
أفي الرأي يشبه أم في السخاء ... أم في الشجاعة أم في الأدب

ليلاحظ قوله: (والمسمون بالأمير كثير والأمير الذي بها المأمول) وقوله: (ونداه مقابلي ما يزول) وقوله: (وما اعتضت عن رب نعماي رب) كيف جعله المأمول دون كل من تسمى أميراً، وعده رب نعماه، وكيف جعل الملوك من الخشب وجعله من الحديد وهم لا يشبهونه سخاء ولا شجاعة ولا أدباً، ثم اعتذاره عما خلعه على غيره من الملوك والألقاب والنعوت وقوله: (ولو كنت سميتهم باسمه لكان الحديد وكانوا الخشب) كل هذا يؤيد ما قاله، حينما سئل عن تراجع شعره بعد مفارقته سيف الدولة: (قد تجوزت في قولي وأعفيت طبعي، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان).

وكان شعر المتنبي قد لازم سيف الدولة مدة من (٣٣٧ـ ٣٤٦) ممثلاً عظمة الأمير الحمداني الكبير وحروبه ووقائعه. وقد تعمد المتنبي أن يضع الأمير في أعلى منزلة يستطيع التحليق فيها الشاعر وخياله، وبلغ ما قاله ثلث شعره، ولم يجيء شعره فيه من نوع ذلك الشعر الذي تلوكه ألسنة الشعراء في الممدوحين ولا صلة له بقلوبهم وعواطفهم فأبو الطيب نظم ما نظم في سيف الدولة وهو في ذلك إنما يترجم عن قلبه وينحت من عاطفته وصدق

إيمانه فيه. وقد دام هذا الإخلاص حتى في أيام التشرد التي قضاها المتنبي في مصر والعراق ألم يقل في مصر:

فارقتكم فإذا ما كان عندكم ... قبل الفراق أذى بعد الفراق يد
إذا تذكرت ما بيني وبينكم ... أعان قلبي على الشوق الذي أجد

وقال في القصيدة التي أنفذها إليه من الكوفة:

لست أرضى بأن تكون جوادا ... وزماني بأن أراك بخيل
نغص البعد عنك قرب العطايا ... مرتعي مخصب وجسمي هزيل
إن تبوأت غير دنياي دارا ... وأتاني نيل فأنت المنيل

وقال في قصيدته الثانية التي أنفذها من الكوفة أيضاً:

وإني لأتبع تذكاره ... صلاة الإله وسقي السحب
وأثني عليه بآلائه ... وأقرب منه نأى أو قرب
وإن فارقتني أمطاره ... فأكثر غدرانها ما نضب

وربما كان موضع ملاحظة ترك المتنبي خلفاء بني العباس ومدحهم والانصراف عنهم إلى الحمدانيين. والحق أن المتنبي لم يجد في البلاط العباسي يومئذ ما يحقق أهدافه ومن هذه الأهداف رؤيته العنصر العربي مسيطراً عزيز الوجه والنفس واللسان. وهذا الهدف تحقق في البلاط الحمداني في قرب أعز العرب داراً وزماناً وسلطاناً الأمير سيف الدولة. وقد روي أن أبا سعيد المجيمري عذله على تركه لقاء الملوك وامتداحهم فقال له:

أبا سعيد جنب العتابا ... فرب رأي أخطأ الصوابا
فإنهم قد أكثروا الحجابا ... واستوقفوا لردنا البوابا
وإن حد الصارم القرضابا ... والذابلات السمر والعرابا
ترفع فيما بيننا الحجابا

وقال في قصيدة له أيضاً يعرض بهؤلاء الملوك المستضعفين:

أيملك الملك والأسياف ظامئة ... والطير جائعة، لحم على وضم
من لو رآني ماء مات من ظمأ ... ولو عرضت له في النوم لم ينم

وقد شغف المتنبي كل الشغف بتصوير وقائع سيف الدولة وألهاه ذلك لا بل صرفه عن

الفن الحضري الذي يتناول الحياة الاجتماعية من شتى وجوهها فيصفها أدق وصف. ومثل هذا النمط من الوصف تجده في شعر شعراء الحضر مثل البحتري وابن الرومي وغيرهما من وصف القصور والبرك ومجالس اللهو والقيان وشبيهه. أما المتنبي فيتعذر وجود شيء من ذلك في شعره كأن لم يكن في عهد سيف الدولة صور اجتماعية جديرة بقلم المتنبي الشعري وأن يتناولها بوصف أو ذكر. والحقيقة أن الرجل انصرف إلى ما تتوق إليه نفسه من الشعر وما يلائم طبعه من وصف المعارك والجيش ووصف القتال وساحات القتال، وغير هذا الوصف إنما جاء في شعر المتنبي عرضا وعلى وجه الأقلال.

وقد نشأ المتنبي في عصر يشبه عصر الفتوة في أوروبا فلا غرابة إذا رأيناه ينشط لأعمال الفروسية ويرتاح لمغامرات الشباب ويقبل على الأخذ بأساليب الترويض الذي أراده عليه سيف الدولة وهو لم يكن في أول اتصاله بسيف الدولة من الشجاعة في المكان الذي وضعه فيه المغالون وإنما قويت فيه ملكات هذه الشجاعة بعد اتصاله بسيف الدولة وما روضه عليه من أفانينه حتى قطع من بعد صحراء التيه وفدافد البادية وحده، وأبى أن يسير بغير خفارة سيفه من واسط إلى بغداد، وإذا أكسبته صحبة سيف الدولة العز والمال وقوة الشعر فهي أيضاً قد أكسبته هذه الشجاعة وعلمته الجرأة وحببت إليه مواقف البطولة.

وقد حققت له صحبة سيف الدولة فكرته حينما قيل له وهو في المكتب ما أحسن وفرتك فقال:

لا تحسن الوفرة حتى تُرى ... منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة ... يعلها من كل وافي السبال

فقد رافق سيف الدولة في كثير من حروبه وغزواته، وانتشر ضفر الوفرة كما نعلم، واعتقل الصعدة.. وأعلها كما يشاء من كل وافي السبال.

وكان يقال إن المتنبي خلق سيف الدولة بمدائحه كما خلق كافور بهجائه، وقد وهم هؤلاء القائلون.. ولو شاؤوا لعرفوا أن سيف الدولة هو الذي خلق المتنبي ولولاه لكان كغيره من شعراء عصره، ولما كان تغذى شعره وعبقريته بتلك الروائع من مقلدات المعاني التي خلعتها عليه نفس سيف الدولة، ووقائعه وأهدافه. وهذا ليس بضائر أن تكون قصائد المتنبي في سيف الدولة هي التي خلدت وقائعه ونقلتها إلى الأجيال صوراً ومرائي تعكس إلى الأحفاد عظمة الأجداد وتصور لهم طموحهم وشممهم وما بلغوه من عز وكرامة ورفعة واستعلاء. وهذه القصائد كانت وما زالت من عهد سيف الدولة إلى اليوم من أقوى العناصر التي غذت

أدبنا العربي. ومن أروع الألواح الشعرية التي تباهي بها العربية والعروبة. وهي أيضاً من أجل الوثائق وأصدقها على نهضة العلم والأدب العظمى التي قامت على مزايا سيف الدولة وأياديه، فبينما كان يدفع عادية الروم عن بلاد الشام بيد كان يرفع لواء النهضة العلمية والأدبية فيها بيد أخرى. وبلغ خلق التضحية الحربية فيه إن قال فيه المتنبي:

الجيش جيشك غير أنك جيشه ... في قلبه ويمينه وشماله

كل يريد رجاله لحياته ... يا من يريد حياته لرجاله[1]

جيش سيف الدولة

وننشر هنا كلمة للكاتب إبراهيم ونوس علق بها على كلمة لكاتب قال إن جيش سيف الدولة كان خليطاً من عدة شعوب وكان مما قاله:

«أما الصورة الثالثة التي وددت أن أشير إليها من صور المحاربين في تاريخنا فهي صورة جيش الأمير سيف الدولة الحمداني الذي كان يقف رغم صغر إمارته على الحدود بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية وقفة شجاعة، وإن كانت تتكيء على جيش يغاير في تركيبه جيش القبائل في الجاهلية، وجيش المسلمين في الفتوح.. فقد كان خليطاً من أقوام متعددة الجنسيات، في عصر إقطاعي غرق في أسواق الرقيق الذي أفاد منها سيف الدولة، فأنشأ ذلك الجيش الذي يصفه الشاعر المتنبي بقوله:

أتوك يجرون الحديد كأنهم ... سروا بجياد ما لهن قوائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما يفهم الحداث إلا التراجم

فرد عليه إبراهيم ونوس بهذه الكلمة وفيها وصف لإحدى معارك سيف الدولة:

والحقيقة التاريخية تخالف هذا القول تماماً، فجيش سيف الدولة كان بغالبيته من أبناء أفخاذ بكر بن وائل، عشيرة تغلب، وشيبان وغيرهما، وأبناء القبائل العربية الأخرى التي كانت تسكن بوادي ومدن شمال بلاد الشام، كبني كلاب، وقشير، ونمير، وتنوخ وغيرهم.. وهذه القبائل كانت تسكن المناطق التي تمتد من الموصل، وديار بكر شرقاً، إلى أنطاكية واللاذقية غرباً، ومن حدود بلاد الشام مع الدولة البيزنطية شمالاً، حتى بوادي «سلمية»

(١) أديب التقي.

و«تدمر» و«حسباء» جنوباً. . وإذا وجد في جيشه بعض الغلمان والقادة من غير العرب، فهم قلة لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين، ذكر لنا التاريخ أسماء بعض منهم «يماك» و«قرعويه» و«نجا».

والشاعر أبو الطيب المتنبي لم يصف في الأبيات التي أوردها كاتب المقال جيش الأمير سيف الدولة. . . بل وصف بها جيش الروم الكبير الذي هزمه سيف الدولة شر هزيمة في معركة «الحدث الكبرى» عام ٣٤٣هـ. .

والحدث قلعة قديمة على حدود بلاد الشام مع الدولة البيزنطية، خربها وأحرقها القائد البيزنطي «الدمستق فردس فقاس» سنة ٣٣٧هـ. فقرر الأمير سيف الدولة في ١٧ جمادى الثانية من عام ٣٤٣هـ. احتلالها وإعادة ترميم حصونها وجدرانها، كي يجعل منها قاعدة عسكرية متقدمة لقواته، ويحرم العدو البيزنطي من الاستفادة منها في عملياته الحربية، وفيما كان سيف الدولة منهمكاً مع قادته وجيشه وعماله في بناء حصون القلعة تقدم القائد البيزنطي نحو القلعة بجيش عرمرم من اليونان والبلغار والخزر والصقالبة والروس والأرمن، زاد عن خمسين ألفاً بين فارس وراجل. . .

وعندما وصل الجيش البيزنطي إلى أرض المعركة، أعطى القائد أوامره بمحاصرة قلعة الحدث. . . فتم له هذا.

تم حصار الروم لجيش سيف الدولة في أصيل أحد أيام أواخر جمادى الثانية من عام ٣٤٣هـ، وكان الأمير سيف الدولة قد علم مسبقاً ماذا سوف يفعل القائد الرومي، وقد هيأ نفسه له، فقرر أن يخوض معركته المريعة في صباح اليوم التالي. . فأمر وحدات الصدمة الرئيسية في جيشه أن تتهيأ خلال الليل، وعددها حوالي خمسة عشر ألفاً بين فارس وراجل، بقيادة ابن عمه الأمير أبي فراس الحمداني ومحمد وهبة الله ابني أخي سيف الدولة ناصر الدولة أمير مدينة الموصل في تلك المرحلة من التاريخ، وأبقى الأمير سيف الدولة خمسة آلاف من خيالة البدو الخفيفة بإمرته لحسم المعركة في الوقت المناسب. .

مع بزوغ أول ضوء في سلخ جمادى الثانية، تقدم أبو فراس بقوام جيشه وهاجم جيش الروم بعنف وضراوة، ومن مكان لم يكن يتوقعه القائد البيزنطي، وهو اتجاه حصن من حصون القلعة يسمى «الأحيدب». . دارت معركة رهيبة جداً لم يذكر التاريخ لها مثيلاً في تلك الحقبة. . أبدى الأمير سيف الدولة حنكة وفنا قياديا عالي المستوى، وتخطيطاً مدهشاً،

وشجاعة فائقة.. وبعد مرور بضع ساعات على بدء المعركة، والروم يعتقدون أنهم الغالبون، وفي الوقت المناسب الذي خطط له الأمير سيف الدولة.. بدأ هجومه السريع بخيالته الخفيفة من فرسان البدو المعروفين بخبراتهم القتالية العالية باتجاه قلب الجيش البيزنطي، وشق طريقه بهم بين صفوف الجيش المعادي، ومعه أبو الطيب المتنبي، حتى وصل إلى مقر قيادة الجيش البيزنطي فلم ير أمامه سوى الفرار والنجاة من سيف الدولة.. ففر بسرعة، وترك جيشه طعماً لسيوف جنود سيف الدولة.. وقبل غروب شمس ذلك اليوم، كان جيش حلب يسيطر سيطرة كاملة على الموقف، بعد إبادة جيش الروم بكامله تقريباً، وقتل في هذه المعركة ابن الدمستق وصهره، وابن عمه، وزوج أخته.. وانتشرت جثث عشرات آلاف من القتلى من جيش الروم فوق أرض المعركة.. فأهاج هذا المنظر المريع شاعرية أبي الطيب المتنبي، فنظم قصيدته التي يصف فيها المعركة ذات المطلع:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وأنشدها أمام الأمير سيف الدولة، وجنده المنتصرين، والعمال العرب يبنون آخر شرفة في قلعة الحدث..

وفي هذه القصيدة يصف أبو الطيب الأمير سيف الدولة أثناء المعركة فيقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

ويصف أبو الطيب جيش الروم، وليس كما ذكر كاتب المقال جيش سيف الدولة.. فيقول:

أتوك يجرون الحديد كأنهم ... سروا بجياد ما لهن قوائم

إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ... ثيابهم من مثلها، والعمائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما تفهم الحداث إلا التراجم

قال أبو البقاء العكبري في شرحه للبيت الرابع من هذه الأبيات ما يلي:

- «المعنى: جعل الروم يبرقون لكثرة ما عليهم من الحديد، والبريق اللمعان، يفرق بين سيوفهم وبينهم، لأن على رؤسهم البيض والمغافر، وثيابهم الدروع، فهم كالسيوف، وقد

فسره بقوله: «من مثلها». . أي مثل السيوف، يريد من الحديد وأشار بهذا الوصف، أعني كثرة سلاح هذا الجيش إلى قوته، وبما ذكره عن هذه الهيئة إلى شدته، وسمعت بعضهم، وكان شيخاً يقرأ عليه الديوان يقول: «أخطأ أبو الطيب، كيف ذكر العمائم، والعمائم للعرب. . وليست للروم، فكيف جعلها للروم؟» فضحكت من قوله، وقلت له: «الضمير في «مثلها» إلى أين يعود؟ أليس إلى البيض وهي السيوف؟ فلم يدر ما قلت».

وبذا يتبين لنا أن أبا الطيب المتنبي في الأبيات التي أوردها الكاتب في مقاله، يصف فيها جيش الروم، وليس جيش سيف الدولة، فجيش سيف الدولة كانت وحداته متجانسة تماماً ـ كما قلت سابقاً ـ ويجمع بين الصورة الأولى التي رسمها الكاتب للمحاربين العرب في العصر الجاهلي، لأن جيش سيف الدولة بمعظمه كان من أفخاذ قبيلة بكر بن وائل، والصورة الثانية للمحاربين المسلمين الأوائل، الذين كانوا يقاتلون لهدف سام، وتأدية رسالة عظيمة خالدة هي رسالة الإسلام. .

الفصل الثاني

غـارات بزنطية عارمـة

> إذا كان العاهل البيزنطي (هرقل) قد وقف بعد معركة اليرموك وما تلاها ـ إذا كان قد وقف فوق جبال طوروس وتطلع إلى سوريا التي تمزقت فيها جيوشه، وتنهد تنهد الأسيف وقال: وداعاً يا سوريا، وداعاً لا لقاء بعده. . .

إذا كان هرقل قد أيس من العودة إلى سوريا فإن الذين تلوه بعد ذلك بقرون لم ييأسوا منها وظلوا متشبثين بها لا سيما بعد أن انفرط نظام الدولة الكبرى، دولة أعدائهم، وعادت دولاً مقسمة تتنازع وتتقاتل، في حين كانوا هم قد تقووا واستفحل أمر بعضهم استفحالاً يرى فيه نفسه جديراً بالعودة إلى سوريا تحت رايات الظفر المؤزر.

فقد جاء قسطنطين ليكابينوس، ثم تلاه الأخوان برداس فوكاس أولاً ثم نقفور فوكاس، وكل من هؤلاء الثلاثة كان يجمع إلى المطامح البعيدة، القوة التي يرتكز عليها لتحقيق هذه المطامح، وفي رأس هذه المطامح: أعظمها وهو العودة إلى بلاد الشام واسترداد السيادة البيزنطية عليها.

ولكن تشاء المقادير أن تخلق من ذلك التمزق العربي تكتلين، يتماسك كل منهما تماسكاً محكماً، ويقود كلاً منهما قائد يجمع إلى الإخلاص، الكفاءة التي تعوز مواجهة المطامح البيزنطية.

فقد قامت في شمال أفريقيا دولة الفاطميين، وقضت هناك على الكيانات الإنفصالية وجمعتها كلها في كيان واحد متلاحم. كما قامت في الوقت نفسه في شمال بلاد الشام دولة الحمدانيين، وضمت إليها ما استطاعت ضمه من الأشلاء ومضت تشق طريقها شجاعة طماحة.

فوقت كان يتعاقب على حكم بيزنطية من عددناهم من قبل، ووقت كان قسطنطين ليكابينوس يعربد مهدداً متوعداً، كان يقوم على رأس الدولة الحمدانية: سيف الدولة فلا ينتظر تقدم عدوه إليه، بل يتحداه في عقر داره.

ثم يأتي برداس فوكاس ويقود الجيوش مقتحماً الأرض العربية على سيف الدولة، ويصمد له سيف الدولة فلا ينال برداس منه منالاً، بل يفقد في كل معركة العدد الخطير من جيشه وقواده، حتى يحيق به المصير الرهيب في معركة مرعش سنة ٣٣٢هـ (٩٥٣م) فيجرح في وجهه ويقع ابنه قسطنطين أسيراً فيمن يقع من الأسرى.

ويكبر الأمر على برداس ويبلغ به الحزن مداه على أسر ولده، فلا يجد ملاذاً لخيبته وأحزانه إلا الترهب ودخول الدير.

ويأتي شقيقه نقفور فوكاس الثاني وهو أشرس الثلاثة وأعتاهم، وقد كانت مطامحه متوازية مع شراسته وعتوه. وقد سبق له قبل توليه الملك أن قهر العرب حين كان قائداً عاماً للقوات البيزنطية البرية والبحرية في الجبهة الغربية، فانتزع منهم جزيرة كريت سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م).

ثم ازداد طموحاً وثقة بالنفس بعد أن تولى الملك سنة ٣٥٢هـ (٩٦٣م) بتزوجه ثيوفانو أرملة الأمبراطور رومانوس وإعلان نفسه امبراطوراً. وكان شعاره الوصول إلى القدس، وحين تقدم ففتح طرسوس خطب على منبرها قائلاً إن هذه البلدة هي التي كانت تعوقه عن الوصول إلى القدس.

وفي هذا الوقت كان على رأس الدولة الفاطمية خليفة خليق بالمهمة التي أعدتها له المقادير هو المعز لدين الله. وإذا كانت مهمة سيف الدولة الحمداني مقصورة على مقاتلة البيزنطيين براً فاكتفى بإعداد الجيوش البرية، فإن مهمة المعز الفاطمي كانت مزدوجة إذ كان عليه أن يقاتل براً وبحراً، لذلك انصرف أول ما انصرف إلى إعداد أسطول ضخم جعل منه سيد البحر المتوسط، حتى لقد وصف أحد المؤرخين الوضع قائلاً: «استطاع المعز بفضل أسطوله القوي أن يجعل غربي البحر المتوسط بحيرة فاطمية». وقد خص هذا المؤرخ غربي البحر، لأن الفاطميين لم يتقدموا بعد إلى الشرق ولم يصلوا إلى مصر وبلاد الشام. أما بعد أن وصلوا إليهما فقد أصبح هذا البحر كله بغربيه وشرقيه بحيرة عربية فاطمية. كما امتد أسطولهم إلى البحر الأحمر، فكما كانت الإسكندرية ودمياط في مصر وعسقلان وعكا وصور وصيدا في الشام أهم المرافىء تتجمع فيها قطع هذا الأسطول في البحر الأبيض، كانت عيذاب أهم مرافىء البحر الأحمر.

وقد أثار هذا الأسطول شاعرية شاعر المعز، محمد بن هاني الأندلسي فأنطقها بقصيدة من عيون الشعر العربي الخالد، تحسب وأنت تقرأها إنك أمام وصف أسطول حربي معاصر، يقول فيها مخاطباً المعز بعد انتصار الأسطول في إحدى معاركه الكبرى مع أسطول البيزنطيين:

لك البر والبحر العظيم عبابه	فسيّان أغمار تخاض وبيد
وما راع ملك الروم إلا اطلاعها	تنشر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره	له بارقات جمة ورعود
مواخر في طامي العباب كأنه	لعزمك بأس أو لكفك جود
أنافت بها أعلامها وسما لها	بناء على غير العراء مشيد
من الراسيات الشم لولا انتقالها	فمنها قنان شمخ وريود
من القادحات النار تضرم للصلى	فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج	كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق	وأفواههن الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار كأنها	دماء تلقتها ملاحف سود

ولابن هاني في وصف معارك هذا الأسطول الخالدات من القصائد التي تعتبر من أروع ما خلف الشعراء العرب من تراث شعري ملحمي، ولا يتسع المجال هنا للإفاضة في الحديث عنها ولكننا نكتفي بهذه الأبيات من قصيدة يخاطب فيها ابن هاني نقفور فوكاس بعد هزيمة أسطوله أمام الأسطول الفاطمي:

وبعثت بالأسطول يحمل عدة	فأثابنا بالعدة الأسطول
أدى إلينا ما جمعت موفراً	ثم انثنى باليم وهو جفول
ومضى يخف على الجنائب حمله	ولقد يرى بالجيش وهو ثقيل

ثم يموت بطل الحمدانيين بل بطل العرب في عصره سيف الدولة، فيموت بموته عنفوان الدولة، ولا يكون في خلفائه من له شيء من صفاته، وتنهار الجبهة الشرقية أمام البيزنطيين، في حين ظلت الجبهة الغربية، جبهة الفاطميين قوية عنيفة بتوالي الخلفاء الأقوياء، وكانت قد بلغت في ذلك كل مبلغ بوصول الفاطميين إلى مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام.

الشعر في معارك الظفر

من حسن حظ الأدب العربي أن قد رافق معارك الظفر التي قادها سيف الدولة الحمداني والمعز لدين الله الفاطمي شاعران عبقريان، وقد مر الحديث مفصلاً عن المتنبي ولا بد لنا من كلمات قصار عن الشاعر الآخر شاعر المعز: محمد بن هاني الأندلسي الذي بلغ من تفاخر مواطنيه به سواء في منبته بالأندلس أو في مهجره بشمال أفريقية، إن سموه متنبي المغرب، كما سموا بعد ذلك ابن زيدون: بحتري المغرب، على عادتهم في محاولة مماشاة المشرق في كل شيء.

ولقد رأينا فيما تقدم نموذجاً من شعر ابن هاني في وصف الأسطول، وكل قصائده في وصف المعارك لا سيما البحرية منها على هذا النسق المتألق المتوثب، حتى لقد كان جديراً بأن يحمل اسم (متنبي المغرب)، والموضوع الذي حلق فيه متنبي المشرق هو الموضوع الذي حلق فيه متنبي المغرب، وهو المعارك الظافرة والبطولة العربية الهادرة.

وكانت شهرة ابن هاني قد امتدت إلى المشرق حتى وصلت إلى المتنبي نفسه، وقيل إن المتنبي كان عازماً بعد فراق سيف الدولة على التوجه إلى المغرب فلما بلغته قصيدة لابن هاني مطلعها:

تقدم خطى أو تأخر خطى فإن الشباب مشى القهقرى

عدل عن عزمه وقال: لقد سد علينا ابن هاني طريق المغرب. ولم يحدد المؤرخون الذين رووا هذا القول زمن هذا العزم، ولم يوضحوا هل كان قبل ذهابه إلى كافور أو بعد مفارقته له.

ومهما كان من أمر فإن القصة تدل على تهيب المتنبي من مجاورة ابن هاني. ومن المؤسف أن الحياة لم تطل بابن هاني. فقد اغتيل وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين، وكان اغتياله وهو يهم باللحاق بالمعز إلى القاهرة. ولقد خسر الشعر العربي خسارة كبرى بموت ابن هاني قبل أن يصل إلى مصر، فلو وصلها ورافق المعز في حياته المصرية وما حفلت به من أمجاد لترك تراثاً شعرياً رائعاً.

ولقد تألبت على ابن هاني قوى شتى عملت جاهدة على طمس اسمه وتشويه أمره وإخمال ذكره، ولقد نجحت في ذلك إلى حد بعيد، ولست الآن في صدد الإشارة إلى هذه القوى.

بعد المتنبي وابن هاني

رأينا فيما تقدم انهيار الدولة الحمدانية بعد سيف الدولة فتمهد الطريق أمام البيزنطيين ليتقدموا في شمال بلاد الشام ويحتلوا فيه المدن ويبسطوا سيادتهم على أجزاء منه كما سيطروا على كيليكيا، بل لقد غزوا شمال العراق وعبروا نهر دجلة. ولم يكن باستطاعة الفاطميين الأقوياء أن يعملوا شيئاً على الجبهة المشرقية، لأن بينهم وبينها أماداً واسعة لا سلطة لهم عليها. ثم إذا بهم على أبواب المشرق ثم في صميم مصر. ثم جاءت الخطوات التالية فإذا بهم يوغلون في المشرق ثم يصبحون جزءاً منه، وإذا بهم وجهاً لوجه مع البيزنطيين في المشرق كما هم معهم في المغرب، فجعلوا همهم الأول استرجاع ما استولى عليه البيزنطيون من المدن الشامية. وحاولوا أول الأمر أجلاء البيزنطيين عن أنطاكية التي كان قد استولى عليها نقفور فوكاس سنة ٣٥٨هـ (٢٩٦٩م)، ولكن القوى البيزنطية كانت أكثر كثافة مما قدرت معلومات الفاطميين وكانت تفوق قواتهم عدداً وإعداداً، فإن البيزنطيين عرفوا خطورة سقوط أنطاكية فضلاً عن أنها مدينة البطاركة والقديسين، لذلك اعتبرت منافسة بيزنطية من الناحية الدينية ولهذا حشدوا للدفاع عنها قوى لم تكن في تقدير الفاطميين، ففشل الجيش الفاطمي في استردادها، واغتنم الأمبراطور البيزنطي حنازيمسكس هذا الفشل وتقدم بجيوشه سنة ٩٧٥ من أنطاكية إلى حمص ومنها إلى بعلبك، وخافت دمشق مغبة مقاومته فخضعت ودفعت له الجزية، كما سلمت له طبريا وقيسارية، وكان مصمماً على الوصول إلى القدس، وهكذا يكون هذا الأمبراطور البيزنطي ثاني من يفكر من أباطرة بيزنطية، في استرجاع القدس من المسلمين، بعد المفكر الأول نقفور فوكاس الثاني، وهكذا تكون بيزنطية قد سبقت الصليبيين في التخطيط للنفاذ إلى القدس.

ويبدو جلياً من استعراض الأحداث أن الفاطميين أدركوا نية حنازيمسكس وصمدوا له فتراجع عن محاولة الوصول إلى القدس وحول هدفه فاتجه إلى الساحل مغتنماً فرصة حشد الجيوش الفاطمية في طريق القدس، فاستطاع الاستيلاء على صيدا وبيروت، ثم اتجه إلى طرابلس.

لم يغفل الفاطميون عن نيات الأمبراطور البيزنطي فأسرعوا لصده عن طرابلس والوقوف في طريق زحفه إليها، وعضدوا جيشهم البري المدافع عنها بأسطولهم الحربي، واستطاعوا إلحاق الهزيمة بالبيزنطيين ورد حنازيمسكس عن طرابلس وملاحقته حتى أخلى بيروت وصيدا وكل ما استولى عليه من مدن الساحل. وظلت الضربات الفاطمية تلاحقه حتى ردته إلى أنطاكية.

ولما حاق به الفشل عاد آيبا إلى القسطنطينية مقهوراً حيث توفي في أوائل سنة ٩٧٦.

هنا نفتقد المتنبي ونفتقد ابن هاني، هنا نفتقد الشاعر العربي الذي يتغنى بالظفر العربي، ونتلفت فلا نجد في الساحة من يقول في حنازيمسكس المهزوم المقهور اللائذ من بطولات الفاطميين بعاصمته ما قاله المتنبي في برداس فوكاس حين فر من المعركة جريحاً في وجهه وترك ابنه أسيراً فيها ثم لاذ بالدير:

نجوت بإحدى مهجتيك جريحة ... وخلفت إحدى مهجتيك تسيل

أتسلم للخطية ابنك هارباً ... ويسكن في الدنيا إليك خليل

بوجهك ما أنساكه من مرشة ... نصيرك منها رنة وعويل

أو ما قاله ابن هاني في نقفور فوكاس بعد معركة المجاز البرية البحرية:

يوم عريض في الفخار طويل ... لا تنقضي غرر له وحجول

مسحت ثغور الشام أدمعها به ... ولقد تبل الترب وهي همول

قل للدمستق مورد الجمع الذي ... ما أصدرته له قنا ونصول

سل رهط (منويل) وأنت غررته ... في أي معركة ثوى منويل[(١)]

منع الجنود من القفول رواجعا ... تباً له بالمنديات قفول

لم يتركوا فيها بجعجاع الردى ... إلا النجيع على النجيع يسيل

نحرت بها العرب الأعاجم أنها ... رمح امق ولهذم مصقول

قلت إنا افتقدنا الشاعر العربي الذي يعيش بشعره المعارك العربية الظافرة التي خاضها الفاطميون دفاعاً عن بلاد الشام، فلم نره بعد المتنبي وابن هاني، فهل كانت الساحة العربية خالية من عباقرة الشعر؟

الواقع أنها لم تكن خالية، فقد كان فيها أيام تلك الأحداث شاعر العرب الفريد (أبو العلاء المعري)، ولكن هل كان باستطاعة أبي العلاء أن يسد فراغ الشاعرين الحماسيين؟

إنه رهين المحبسين، سجين في سجنين رهيبين، وماذا عسى الشاعر الحبيس أن يفعل؟

إنه لم يكن مستطيعاً أن يمتطي الجواد ويجرد السيف ويمشي إلى جنب القائد فيشارك

---

(١) بلغ من اهتمام الأمبراطور نقفور فوكاس بمحاربة الفاطميين، أنه أعد أسطولاً ضخماً ملأه بالمؤمن والذخيرة، وأعد جيشاً يقرب من خمسين ألف رجل مجهزين بأحسن آلات الحرب وأمر عليه رجلين أحدهما (منويل) وكان يمت إليه بصلة القرابة، فانهزم الجيش والأسطول هزيمة كاسحة.

في المعركة ويراها عن كثب فينفعل بوهجها، كما كان يحدث للمتنبي مع سيف الدولة... ولا كان مستطيعاً أن يواكبها في أحداثها متتبعاً لها ساعة فساعة فيضطرم بأنبائها، كما كان يحدث لابن هاني مع المعز.

إنه كان في محبسيه... ولكن المعري الذي عاش هموم شعبه، فأنطقته هذه الهموم بالشعر الثائر المثير، هل كان يمكن أن يكون بعيداً عما يجري على حدود الوطن، أو في قلب الوطن من صراع بين حرية الوطن واستعباده... بين الأجنبي المنقض على الوطن، وبين المواطن المنقض على هذا المنقض؟

لم يكن هذا من طبعه، لهذا كان وهو في محبسيه يعيش مع المناضلين في ميادين الحرب، يعيش معهم بحسه وعواطفه ووطنيته، إن لم يستطع أن يعيش معهم بجسمه وعينيه.

لذلك كان المعري شاعر النضال العربي المسلح في تلك الفترة الحرجة من حياة الوطن العربي.

كان الصوت الذي تغنى ببطولات المقاتلين، وتحمس لوقائعهم، وحرض على أعدائهم.

المعري الهادىء الرقيق القلب الذي يشفق على الحيوان المذبوح فلا يأكل اللحم، هو نفسه الذي يقول وقد سمع بجولات فرسان العرب في بلاد الشام ذياداً عن وطنهم:

فوارس قوالون للخيل أقدمي ... وليس على غير الرؤوس مجال
لهم أسف يزداد أثر الذي مضى ... من الدهر سلماً ليس فيه قتال
بأيديهم السمر العوالي كأنما ... يشب على أطرافهن ذبال

ها هو المعري ينقلب بعد الرفق واللين أسداً هصوراً يستطيب مرأى الدم الفوار، ويستعذب تخيل الفوارس جوالة فوق الرؤوس المضرجة بالنجيع الأحمر!

ويأسف على أيام السلم الوادعة التي انطوت بلا قتال تزهق فيه النفوس وتطيح الهامات!

هل المعري هو الذي يتكلم؟ أجل هو المعري بلسانه الطلق وبيانه الفياض!

إذا كانت الإنسانية هي التي أوحت للمعري أن يقول للذين ذبحوا له (الفروج) وانضجوه وقدموه له ليأكله في مرضه الذي أنحله: «استضعفوك فوصفوك... هلا وصفوا شبل الأسد...» ثم يمتنع عن أكله استفظاعاً لتخيل دمه المراق!

إذا كانت الإنسانية هي التي رققت قلب المعري، فإن الوطنية هي التي قسّت ذلك القلب الرحيم، فجعلت الدم المراق عنده أجمل منظراً وأعذب مرأى!

دم الأعداء الذين لم يتورعوا عن اقتحام وطنه واستباحة أرضه وترويع أهله وترشيد سكانه!

ثم يشتد في القول فيخاطب الغزاة مهدداً متوعداً بمواصلة الحرب:

بني الغدر هل ألفيتم الحرب مرة ... وهل كف طعن عنكم ونضال
وهل أطلعت سحم الليالي عليكم ... وما حان من شمس النهار زوال
وهل طلعت شعث النواصي عوابساً ... رعال ترامى خلفهن رعال
لها عدد كالرمل المبد على الحصا ... ولكنها عند اللقاء جبال
فإن تسلموا من سورة الحرب مرة ... وتعصمكم شم الأنوف طوال[1]
خذوا الآن ما يأتيكم بعد هذه ... ولا تحسبوا ذا العام فهو مثال

ثم يعود إلى ذكر الدماء بعد أن يصف الخيل العربية واثبة بفرسان العرب، وإن تلك الخيول الظامئات لن يكون الماء موردها، ولن يرويها إلا دماء الروم:

يردن دماء الروم وهي غريضة ... ويتركن ورد الماء وهو زلال

وفي قصيدة أخرى يندد بالانهزاميين الذين يخوفون المواطنين بأس الروم ويحث قومه على الثبات:

أيوعدنا بالروم ناس وإنما ... هم النبت والبيض الرقاق موام

ويذكر مواطنيه بانتصاراتهم السابقة على الروم وإن ما يوعدهم به الانهزاميون لن يكون مصيره بأفضل:

كأن لم يكن بين «المخاض» و«حارم» ... كتائب يشجين الفلا وخيام
ولم يجلبوها من وراء «ملطية» ... تصدع أجبال بها واكام
كتائب من شرق وغرب تألبت ... فرادى أتاها الموت وهي توام
بيوم كأن الشمس فيه خريدة ... عليها من النقع الاحم لثام

(١) يقصد بها الجبال.

كأنهم سكرى أريق عليهم بقايا كؤوس ملؤهن مدام
فاضحوا حديثاً كالمنام وما انقضى فسيان منه يقظة ومنام

ويبدو أن البيزنطيين (الروم) قد أرسلوا يفاوضون على الصلح وإنهاء الحرب مما لم يعجب المعري لأنه يريد أهداف أمته كاملة ولو أدى الأمر إلى ما يمكن أن يؤدي إليه من الضحايا الكثيرة: قتلى وجرحى. وهنا نرى المعري داعية حرب لا هوادة فيها، حرب تسيل فيها الدماء أي مسيل فهو يخاطب المفاوض العربي بهذا القول الصريح ويحدد له الموقف المطلوب:

وردوا إليك الرسل، والصلح ممكن وقالوا على غير القتال سلام
فلا قول إلا الضرب والطعن عندنا ولا رسل إلا ذابل وحسام
فإن عدت، فالمجروح توسى جراحه وإن لم تعد متنا ونحن كرام
فلسنا وإن كان البقاء محببا بأول من أخنى عليه حمام

هذه صفحات من تاريخنا النضالي في بلاد الشام كان فيها الشعراء مع الفرسان جنباً إلى جنب في كفاح الغزاة، تاريخنا النضالي الذي أطلق شاعراً وديعاً رقيق القلب عطوف النفس من محبسيه وإعاده من الدعوة إلى الهدوء والحنان والتعاطف، إلى الصخب والقسوة والعنف، من داعية سلام إلى داعية حرب عنيف الدعوة صارمها.

وإذا كان إعجابنا بالمعري المسالم الهادىء العطوف عظيماً، فإن إعجابنا بالمعري المحارب الثائر الحاقد الدموي أعظم.

الفصل الثالث

بـنو مرداس والـروم

شهد القرنان الحادي عشر والثاني عشر، في بلاد الشام، قيام إمارات عربيَّة قدِّر لها أن تمسك بالزمام العربي جهاداً للغزاة من البيزنطيين في حين، ومن الصليبيين في حين آخر، ورعاية للأدب والشعر والعلم. فيكون منها الذَّادة والقادة في ميادين الحرب، ويكون فيها العلماء البارعون والشعراء المبدعون في مجالات الفكر.

هذه الإمارات الثلاث: هي إمارة بني عمار اللبنانية ـ السورية.

أقول اللبنانية ـ السورية لأن رقعتها شملت أرضاً من لبنان وأرضاً من سوريا، فإذا كانت عاصمتها لبنانية، وهي طرابلس، فإن ما ارتبط بتلك العاصمة، كان أرضاً ممتدة من تخوم بيروت حتى تخوم أنطاكية.

وإذا كان هناك من رأي يقول إن بني عمار هم من أصول أفريقية أمازيغيَّة، فإن حياتهم العربية الطويلة، منذ انتقالهم إلى مصر، وتمركزهم فيها التمركز العربي الأصيل، ثم انتقال أحد فروعهم إلى طرابلس وثبوت جذورهم فيها الثبوت البعيد المدى، قد جعلهم من العرب في الصميم.

وهناك من ينفي عنهم الأمازيغية، ويجعل جذورهم عربية، موغلة في عروبتها، فقد نقل صاحب كتاب «المجتمع العربي في بلاد الشام»[1] أن بني عمار بطن من الدواسر، وهم

(١) المجتمع العربي في بلاد الشام، ص٨٩، نقلاً عن الألوسي في «تاريخ نجد»، ص٨٩ وعن عمر كحالة في «معجم القبائل العربية»، ٢/ ٨٢١.

إحدى قبائل بادية نجد، كما ذكر أنهم من أشهر قبائل الزيدية في بلاد قعطبة بجنوبي الجزيرة العربية، وإنهم فرقة من بني سعيد إحدى عشائر سورية الشمالية على ما يذكر وصفي زكريا في كتابه «عشائر الشام»[١].

ويقول صاحب «المجتمع العربي...»: إن محمد الشيخ قد فصل ذلك تفصيلاً كاملاً في رسالته «الإمارات العربية في بلاد الشام»[٢].

والإمارة العربية الثانية هي إمارة بني منقذ في «شيزر»، وهم الذين ترجع أصولهم إلى كنانة.

أما ثالثة هذه الإمارات، فهي إمارة بني مرداس الذين ينتمون إلى بني كلاب.

يقول ابن العديم، في تاريخه[٣]، إن جماعة من بني كلاب رحلت إلى الشام، في نهاية العهد الإخشيدي وبداية العهد الحمداني، وإن محمد بن طغج الإخشيد قد أقام أبا العباس أحمد بن سعيد الكلابي والياً على حلب سنة ٣٢٥هـ.

على أنَّ وصول بني كلاب إلى بلاد الشام كان قبل عهد الإخشسد، فقد وصلوا إليها منذ الفتوحات الإسلامية التي شارك فيها القيسيُّون مشاركة بارزة، ثم توالى وصولهم منذ بداية العصر العباسي لا سيما أيام المأمون. ثم كان إقبالهم الإقبال الكبير في أوائل القرن الرابع الهجري وإقامة إمارتهم في حلب.

وكلاب التي ينتمي إليها المرداسيُّون هي القبيلة العربية التي نزلت ضفاف الفرات والجزيرة، وهي كلاب بن ربيعة، بطن عظيم من عامر بن صعصعة من قيس عيلان من العدنانية. وكان الكلابيون مادة الدولة المرداسية وركيزتها، منهم تستمد القوة وعليهم تعوِّل في الشدائد.

وعاش بنو كلاب قرابة قرن في بلاد الشام قبل إقامة دولتهم، واستطاعوا بفضل كثرتهم العددية أن يفرضوا إرادتهم في منطقة حلب، كما خلقوا لأنفسهم المناخ المناسب لإقامة إمارتهم وسط القوى المتصارعة في ذلك الوقت.

وهم كانوا انتقلوا من المدينة (يثرب) في الحجاز، واتجهوا شمالاً فسكنوا في غرب

---

(١) وصفي زكريا، عشائر السام، ٢/ ٢١٢.
(٢) المجتمع العربي، م. س.، نقلاً عن «الإمارات العربية في بلاد الشام، ص١١.
(٣) ابن العديم، زبدة الحلب ١/ ٩٨ و٩٩.

الضفة العليا لنهر الفرات، وذلك مع هجرات القبائل العربية منذ القرن السابع الميلادي. وقد لعبت هذه القبيلة دوراً هاماً في الحياة السياسية في سوريا عامة وفي شمالها بصورة خاصة؛ وذلك منذ القرن السابع حتى القرن الحادي عشر.

وقد عاصر بنو مرداس ثلاثة خلفاء عباسيين هم: القادر بالله والقائم بأمر الله والمقتدي بالله. وشملت دولتهم بعلبك وحمص وصيدا والرحبة، وامتدت إلى «عانة»، فملكت جميع وادي الفرات الشامي.

ويقول ابن شداد في «الأعلاق الخطيرة»: إن صالح بن مرداس ملك حصن ابن عكار سنة ٤١٦، كما قال ابن العديم: إن صالح ملك سنة ٤١٦ حمص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار في ناحية طرابلس.

يقول صاحب «النجوم الزاهرة»: «لما ملك نصر بن صالح بن مرداس «حلب»، طمع صاحب أنطاكية الرومي في حلب، وجمع الروم وسار إليها وأحاط بها وقاتل أهلها، فكبسه شبل الدولة نصر من داخلها ومعه أهل البلد فقتلوا معظم أصحابه، وانهزم ملكهم صاحب أنطاكية إليها في نفر يسير من أصحابه، وغنم نصر أموالهم وعساكرهم».

ومع أنه كان للمرداسيين شعراؤهم المتغنون بانتصاراتهم، فلم أجد شعراً يذكر هذا النصر.

على أن انتصار نصر على البيزنطيين الذين زحفوا بجيش بالغ بعضهم في تقدير عدده، فجعله ستمئة ألف مقاتل، فيهم الروس والخزر والبلغار والألمان والبلجيك والخزر والأرمن، بقيادة الملك البيزنطي «أرمانوس» سنة ٤٢١هـ. فوقف نصر في وجه هذا الجيش، وقاتله وهزمه وتبع فلوله إلى اعْزاز وأسر جماعة من أولاد الملوك المشاركين فيه. إن انتصار نصر هذا الانتصار الباهر أنطق شاعره الحسين بن أبي حصينة المعري[(١)] بقصيدة قال فيها:

---

(١) الحسين بن أبي حصينة المعرّي، هو أبو الفتح الحسين، وقيل: «الحسن»، بن عبد الله، من معاصري أبي العلاء المعري في معرة النعمان. ولد ونشأ فيها. اتصل بالدولة المرداسية في حلب، فكان من شعرائها المنقطعين إليها، وقد أرسله تاج الدولة بن مرداس إلى الخليفة الفاطمي المستنصر في القاهرة. ومن شعره وهو في مصر:

أقول وقد أشرفت ذات عشية ... على النيل من إحدى الهضاب الشواهق
ومن دونها فسطاط مصر وزاخر ... كأن بشطَّيه مسوك الخرانق:
خليلي شيما بارق الشام إنني ... نظرت إلى إيماض تلك البوارق

ولما مات أبو العلاء رثاه بقصيدة مطلعها: =

دِيَارُ الحيِّ مُقْفِرةٌ يَبَابُ   كأنَّ رسومَ دِمْنَتِها كتابُ
نأتْ عنها الرَّبابُ وبات يهمي   عليها، بعد ساكنها، الرَّبَابُ
إلى نصرٍ، وأيُّ فتى كنصر   إذا حلَّت بمغناه الرِّكَابُ
أمنتَهك الفرنج غداء ظلت   حطاماً فيهم السُّمر الصِّلابُ
جنودُك لا يحيطُ بهن وصفٌ   وجودُك لا يحصّله حساب
وذكرك كله ذكرٌ جميل   وفعلُك كله فعلٌ عجاب
و«أرمانوس» كان أشدَّ بأساً   وحلَّ به على يدك العذابُ
أتاك يجرّ بحراً من حديد   له في كلِّ ناحية عبابُ
إذا سارت كتائبُه بأرض   تزلزلت الأباطحُ والهضابُ
فما أدناه من خيرٍ مجيءٌ   ولا أقصاه عن شرٍّ ذهابُ
فلا تَسْمَع بطنطنة الأعادي   فإنّهم، إذا طنُّوا، ذبابُ
ولا تَرْفَعْ لمن عاداك رأساً   فإن اللَّيثَ تَنبَحهُ الكلابُ

ويقول ابن أبي حصينة، في ثمال بن صالح، مشيراً إلى انتصاره على البيزنطيين في المعركة التي وقعت عند «تبُل»[(١)]، ومتحدثاً عن معارك المرداسيين التي حمت الإسلام من هجمات اليزنطيين:

فَلْتَذفعن عن البلاد وأهلها   نوباً يُخَافُ وقوعها، وكَأن قدِ
ولتحمدن كما حمدت بتبّل   والخيلُ تعثر بالقنا المتقصد
والشّركُ منك، ومن شقيقك، هارب   هربَ الشحاح من الغمام المُرْعد
لولا سيوفُكم البواتر لالتقى   من بالثغور ومن ببرقة مُنشِدِ[(٢)]
أسندتم الإسلام إن سيوفكم   لمعاقل الإسلام أفضل مسند

وفي ثمال يقول ابن أبي حصينة:

= العلم بعد أبي العلاء مضيع   والأرض خالية الجوانب بلقع
توفي ابن أبي حصينة في سروج سنة ٤٥٧هـ ـ ١٠٦٥م، وله ديوان شعر مطبوع في دمشق سنة ١٩٥٦، في جزئين.

(١) **تبَل**: من قرى حلب من جهة إعزاز.
(٢) **برقة منشد**: ماء لبني تميم وبني أسد.

لقد عزّ قومٌ شايعوك وحَصُنت ثغورٌ عليها من سيوفك أقفالُ
فلا يجزعُ الإسلام ما دمتَ سالماً فقد عزّ غيل فيه مثلك رئبالُ
ومن دون هذا الشام أنت وفتية «مرادسة» شمّ العرانين أبطالُ

وقال محمد بن حيوس[1]، شاعر الدزبري، معرّضاً ببني مرداس:

فَدَع الألى مرقوا فإنّ بعادهم عن ذا الجناب لهم عقابٌ مؤلمُ
أولادُ مرداس لسيفك طعمة في كلِّ أرضٍ أنجدوا، أو أتهَمُوا

فردَّ عليه ابن أبي حصينة، شاعر ثمال بن صالح، من قصيدة مشيراً إلى الفرق بين الدزبري الذي بعثه الفاطميون إلى الشام أميراً، فخانهم، واستبدَّ بالأمر، وبين المرداسي الذي ما زال ناصحاً مخلصاً للفاطميين، ومشيراً كذلك إلى حماية المرداسيين للثغور والعواصم من هجمات البيزنطيين:

أين الذين تفوّهت شعراؤهم بالمين، وافتخروا بما لم يعلموا
زعموا بأنّا طعمة لسيوفهم في كلّ أرض أنجدوا أو أتهموا
إن يصدقوا فسيوفُ من تركتهم صرعى تهزهم النسور الحوّم
بخراب حمص والجباب خبيثة منهم كأنّ مياههن العندم
لا ينجحن الدّزبري بما جرى قدماً، فقد وضحَ الطَّريقُ الأقومُ
شتَّان بين الدزبري وبين من نصحَ الإمام نصيحةً لا تسقم
هذا يعقّ، وقد أطاع، وذا عصى من بعد أن أضحى يعز ويكرم
أما العواصم والثغور فلم تزل تحمى بنا دون الملوك وتُعْصَم

وفي ثمال بن صالح، يقول عبد الله بن سنان الخفاجي[2]، متحدِّثاً عن بطولات المرداسيين في دفاعهم عن الوطن وردهم الغزوات البيزنطية.

---

(١) محمد بن حيُّوس هو الشاعر الدمشقي محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الغنوي. له ديوان شعر كبير. ولد سنة ٣٩٤هـ وتوفي سنة ٤٩٣هـ في حلب. كان يتقلّب بين المرداسيين وبين أعدائهم، فهو بينما يقول هذا الشعر نراه يقول في نصر بن محمود المرداسي حين استعاد (منبج) من البيزنطيين سنة ٤٦٨ (١٠٧٥م) قصيدة مطلعها:

وطريدة للدهر أنت رددتها قسراً فكنت السيف يقطع مغمدا

(٢) أخذ ابن سنان الخفاجي الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره، وسمع الحديث وبرع فيه. =

تَـزُورُ جـيـادُه أَرْضَ الأعـادي وأطـرافُ الـرِّمـاح لـهـا دلـيـلُ
ومـلـكٌ شـاده طَـعْـنُ الـهـوادي تـزول الـرَّاسـيـات ولا يـزول
حـذار فـإنَّ فـي حـلـب لـيـوثـاً أنـابـيـبُ الـرِّمـاح لـهـنّ غـيـل
ومـن بـطـن الـشـآم إلـى «رجـيـل» مـرابـعُ نـبـتـهـا الأسـل الـطـويـل
يـشـيـد دونـهـا لـبـنـي كـلاب بـيـوت مـا يـضـامُ لـهـا نـزيـل
تـسـيـل شـعـابـهـا بـنـدى ثـمـال فـلـيـس لـهـا إلـى كـلأ رحـيـل

ويقول في استرجاع محمود بن نصر بن صالح «أسْفونا»(١) من البيزنطيين بالرغم من كثرة عددهم، بعد أن اجتمعوا على قتاله، وقد قتل حوالي ألفين وسبعمئة منهم:

أمّا ظباك فقد وفَتْ بضمانها فمتى تجودُ بها على أجفانها
إنْ أظـهـرت لـعـلاك أنـطـاكـيـة حزناً، فقد ضحكت على قطانها
بـعـث الـبـريـد مـخـبـراً عـن وثـبـة مـا كـانَ أحـوجَـه إلـى كـتـمـانـهـا

وقال الشاعر أبو الفضل، عبد الواحد بن محمد الحلبي الربعي، في الحادث نفسه، مخاطباً محمود:

رَدَدْتَ عـلـى الإسـلام شَـرْخَ شـبـابـه وكـادت عـلـيـه أن تـقـامَ الـمـآتـمُ
وظـنَّ طـغـاةُ الـرُّوم مُـنْـذُ أغـبّـهـم نـزالُـك أنـا حـيـن ذاك نـسـالـمُ

ويقول محمد أسعد طلس، محقق ديوان «ابن أبي حصينة»، في مقدمته للديوان: «. . . حلب التي ازدهرت فيها الحركات العلمية ازدهاراً عظيماً في عهد بني حمدان، وقد استمر ذلك الازدهار في عهد بني مرداس الذين كانوا لا يقلون كثيراً عن الحمدانيين تشجيعاً للعلم

= توفي بقلعة إعزاز من أعمال حلب مسموماً سنة ٤٦٦هـ (١٠٨٩م) وكان والياً عليها. وهو شاعر مجيد متفنن في ضروب الشعر، وقد مدح الأمراء من بني مرداس وبني منقذ وبني ملهم والمتأخرين من بني حمدان. ترك ديوان شعر وكتاب «سر الفصاحة» الذي أراد بتأليفه أن يوضح حقيقة الفصاحة ويكشف عن سرها لأنه يؤمن بأن لكل جمال في الكلام سبباً يمكن الاهتداء به، فأراد أن يضع كتاباً يستطيع به دارسه أن يعلل ويستدل ويعرف الوجوه والأسباب.

(١) **أسفونا**: اسم حصن كان قرب معرة النعمان. وفي فتحه يقول أبو يعلي عبد الباقي بن أبي حصين:
عُـدَاتُـك مـنـك فـي وجـلٍ وخَـوْفٍ يـريـدون الـمـعـاقـلَ أن تـصـونـا
وظـلـوا حـولَ «أسـفـونـا» كـقـوم أتـى فـيـهـم فـظـلـوا آسـفـيـنـا

وحدباً على أهله وبخاصة زعيمهم صالح، وابنه ثمال، فقد كانا محبَّين للعلم وأهله، كما كانا من أصحاب المواهب العربية الصافية التي تمجد الشعر وتكبر قدر اللغة».ا هـ.

وعدا مقارعة المرداسيين للبيزنطيّين، فقد واجهوا الطغيان السلجوقي بنخوة عربية، فعندما زحف ملك شاه وأخوه تتش بن ألب أرسلان على الإمارة العربية في حلب في عهد سابق بن محمود، استنجد سابق بالأمير العربي أبي زائدة محمد بن زائدة، وأمر وزيره أبا نصر بن النحاس بأن يرسل قصيدة لهذا الأمير يوضح له تجدد خطر الاجتياح السلجوقي على ما بقي من ملك عربي هناك، ويطلب إليه أن ينجده كما فعل من قبل، فقال في القصيدة:

دَعَوتُ لِكَشْفِ الخطب، والخَطْبُ معضل ... فلبَّيتني لما دَعَوتُ مُجَاوِبا
وَوَفَيتَ بالعهد الذي كان بيننا ... وفَاءَ كريمٍ لم يخن قطُّ صاحِبَا
وما زلتَ فرَّاجاً لكلِّ ملمَّةٍ ... إذا المحرب الصنديد أدْبَر هائبا
فشمِّر لها، وانهض نهوضَ مشيع ... له غمراتٌ تستقل النوائبا
وها أنا لا أنفكَ أبذلُ في حمى ... حماكم مجداً مهجتي والرغائبا
أأدخر مالي عنكم وذخائري ... إذاً بت عن طرق المكارم عازبا

فاستجاب ابن زائدة للاستنجاد، وأرسل إلى سابق قصيدة يقول فيها:

دَعَوْتَ مجيباً ناصحاً لك مخلصاً ... يرى ذاك فرضاً لا محالة واجبا
فلبَّيتُ لا مستنكفاً جزعاً ولا ... جباناً إذا خاض الكريهة هائبا
أسابقُ صرف الدهر في نصر «سابق» ... إلى تركمان الترك أزجي النَّجائبا
فلمَّا التقيناهم غدا البعض سالباً ... لأنفسهم والبعض للمال ناهبا
وكان يرى في كفه الشام حاصلاً ... ويوم «بُزاعا» ردّ ما ظنّ خائبا(١)
وليلة «كرمين» تَرَكْنَا كِرَامِهِمْ ... كَضَأْن بها لاقت مع القدر قاصبا
وفي يوم «خناقية» قد خَنَقْتَهم ... بعثير ذلٍ ردَّ ذا الشرخ شائبا

(١) **بزاعا**: أوردها في معجم البلدان بالتاء «بزاعة» وقال: منهم من يقول «بزاعا» وأورد هذا البيت:
لو أن بزاعا جنة الخلد ما وفى ... رحيلي إليها بالترحل عنكم
ثم قال: بلدة من أعمال حلب، بين منبج وحلب، فيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة.

فكم فارس منهم تركنا مجدلاً يباشرُ تُرْب القاع منه الترائبا
وإذ أيقنوا أن ليس للكسر جابرٌ تولوا وعن «جبرين» حثُّوا الركائبا
وخلّوا بها كَسْباً حووه وأبصروا سَلامَتَهم منَّا أجلَّ مكاسبا[1]

وما كان للدولة المرداسية أن تعيش أكثر مما عاشت في عصر الفتن الصاخبة، فزالت الدولة، ولكن القبيلة لم تزل، فظل بنو كلاب أبطالاً في الميدان العربي. وحسبك أن يقول عنهم القلقشندي في الجزء الرابع من «صبح الأعشى»: «كانوا عرب أطراف حلب، وكانت لهم غزوات وغارات عظيمة على الروم وإنهم من أشد العرب بأساً»،

وظل الكلابيون، بقيادة بني مرداس، فرساناً مناجيد حتى دهمت العالم الإسلامي الحروب الصليبية، فتجندوا لها بقيادة أميرهم وثاب بن محمود بن نصر بن صالح. وفي وثاب هذا ومعاركه يقول ابن الخياط»[2]:

عِتَاذُكَ أن تشنَّ به مغارا فقدها شزباً قبّا تبارى
كأنَّ أهلَّه قدحت نجوماً إذا قدحت سنابكها شرارا
وقد هبَّت سيوفُك لامعات تفرَّق في دجنتِه نهارا
أما والسَّابقات لقد أباحت لكَ الشَّرف الممنع والفخارا
فَزرْ حلباً بكل أقبّ نهدٍ فقد تدني لك الخيل المزارا
ويأبى الله إن أبت الأعادي لناصر دينه إلاَّ انتصارا

وفي محمود بن نصر بن صالح يقول عبد الله بن سنان الخفاجي:

---

(١) **جبرين**: من توابع حلب.

(٢) ابن الخيَّاط هو الشاعر الدمشقي أحمد بن محمد أبو عبد الله. وقد خرج هذا الشاعر من دمشق في الآونة الممتدة ما بين سنة ٤٦٣ و٤٦٩هـ؛ إذ كانت دمشق تعاني خلالها فترة عصيبة من الفتن والجوع والفاقة، وهو لا يزال في صباه فقصد حماه، ثم ذهب إلى حلب فالتقى بالشاعر ابن حيوس فشكاله حاله وأنشده هذين البيتين يصف الحالة التي وصل إليها:

لم يبقَ عندي ما يباعُ بدرهم وكفاك مني منظرٌ عن مَخْبَر
إلا صبابة ماء وجهِ صنتُها عن أن تُباع، وأين أين المشتري!؟

فقال ابن حيوس: لو قلت: «وأنت نعم المشتري» لكان أحسن. ثم نصحه بأن يقصد بني عمار في طرابلس. وبحدود سنة ٤٧٦هـ. جاء ابن الخياط طرابلس، وهوابن ٢٦ سنة، فأكرمه بنو عمار وحسنت حاله. وتقدر المدة التي عاشها في طرابلس بعشر سنوات.

لا يذكروا حلباً، وبيضُك دونها   مشهورةٌ فهي الظّبا وهمُ همُ
كم وقفةٍ لك دونها مشهودة   والنقع ليلٌ، والأسنَّة أنجمُ(١)

(١) جاء في كتاب (المجتمع العربي في بلاد الشام):
لقد كان قيام إمارات عربية مستقلة في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر حدثاً جديداً يستدعي الانتباه، خاصة إذا عرفنا أن تلك الإمارات تنتسب إلى قبائل عربية معروفة، وهي إمارة بني مرداس في حلب وبني عمار في طرابلس وبني منقذ في شيزر.
وبرغم قصر المدة التي قامت فيها هذه الإمارات العربية في بلاد الشام التي لم تزد عن مائة وثلاثين عاماً إذ امتد حكم بني مرداس في حلب من (سنة ١٠٢٤م إلى ١٠٧٩م) وحكم بني عمار في طرابلس من (سنة ١٠٧٠ إلى ١١٠٩م) وبنو منقذ من (١٠٨١ إلى ١١٢٧) إلا أنها شاركت في صنع تاريخ بلاد الشام، وكانت مثلاً حياً لنجاح القبائل العربية في الاضطلاع بدورها الجديد. فهي أشبه بجزر طافية وسط بحار من النفوذ غير العربي من الترك والسلاجقة بل وتقدم جحافل الصليبيين.
وإذا كان أمراء بني مرداس قد تأثروا بالحضارة في حلب فقد كان منهم فرسان محاربون لا يشق لهم غبار يجيدون الكر والفر وتتحكم فيهم عاطفة الاندفاع والحماسة والبدوية ويميزهم الاستمساك بالكرم والحلم والشهامة. ويميلون إلى مجالس الشعر ويستمتعون بمدح الشعراء ويتيهون زهواً بمنح الهبات والأعطيات.
وتميزت أسرة بني عمار بالطابع العربي الأصيل، ذلك أنهم ظلوا فرساناً ومقاتلين لا تلين لهم قناة، وعرباً تواقين لمجالس الشعر والأدب يتقرب منهم الشعراء، يرعون العلوم والفنون والآداب. ومع احتفاظهم بكل سمات المجتمع العربي، فإن بني عمار كانوا قد قطعوا شوطاً لا يستهان به في التمدن والتحضر، وحصلوا على قسط وافر من الرقي المادي والفكري.
هذا ورغم ما أصابه بنو منقذ من مظاهر التحضر في شيزر، إلا أنهم ظلوا يمارسون حياة هي في الواقع مزيج من الحياة القديمة والجديدة. فإذا كان بعضهم قد سكن المدينة وهو القسم الواقع على النهر قرب الجسر والبعض الآخر استوطن الجزء المحيط بالقلعة، فقد انتشر الباقون قرب شيزر يزرعون. أما الأمراء فقد سكنوا القصور والدور الفاخرة وعقدوا مجالس الأدب والشعر بل أن كثيرين منهم قد وصل درجة كبيرة من العلم والثقافة، فقرضوا الشعر ونسخوا القرآن بخط جميل، وأظهروا حفاوة بالغة برجالات العلم والشعراء.

الفصل الرابع

غـــارة المغـول

قبل الحديث عن غارة المغول على بلاد الشام لا بد لنا من التعرض لأمر هام يتعلق بعوامل الغزو المغولي بقيادة هولاكو على العالم الإسلامي ومناقشة ما قيل عن عوامله وأسبابه وما نسب إلى بعض الرجال فيه:

يكاد المؤرخون يتفقون في الثناء على شخصية محمد بن أحمد بن العلقمي وزير المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس فقد وصفوه بالعقل والعلم والأدب والكفاية والوقار والنزاهة والعفة عن أموال الديوان والمعرفة بأدوات الرياسة[1]. وقد وصفه سبط ابن الجوزي الحنبلي بأنه (كان رجلاً فاضلاً صالحاً عفيفاً قارئاً للقرآن)[2]. ووصفه الخزرجي بأنه (كان عالماً فاضلاً أديباً حسن المحاضرة دمث الأخلاق كريم الطباع خير النفس كارهاً للظلم خبيراً بتدبير الملك)[3]. كان مؤيد الدين أسدياً من النيل قيل لجده العلقمي لأنه حفر النهر المعروف بهذا الاسم. وكان خاله عضد الدين أبو نصر المبارك بن الضحاك من المعدلين بمدينة السلام رتب ناظراً بديوان الجوالي وكتب في ديوان الإنشاء ونفذ رسولاً إلى صاحب الشام وعندما توفي الخليفة العباسي الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٧م كان هو المتولي لأخذ البيعة للخليفة الجديد المستنصر بالله وقد ظل في عهده أستاذاً للدار حتى وفاته سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م[4]. واشتغل محمد بن العلقمي في صباه بالأدب ففاق فيه وسمع

(١) انظر تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٥ ص١١٠؛ ابن الطقطقي تاريخ الدول الإسلامية ص٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) مرآة الزمان، ج٨ قسم ٢ ص٧٤٧.

(٣) العسجد المسبوك، ج٢ الورقة ١٩٤.

(٤) الحوادث الجامعة، ص١٦.

الحديث واشتغل في الحلة على عميد الرؤساء أيوب وعاد إلى بغداد وأقام عند خاله عضد الدين أستاذ الدار الذي عرف بالعلم والرياسة والتجربة فتخلق بأخلاقه واستنابه في ديوان الأبنية إلى أن توفي حيث انقطع ابن العلقمي ولزم داره ولكن شمس الدين أبا الأزهر أحمد بن الناقد الذي عين أستاذاً للدار بعد عضد الدين استدعاه إلى دار التشريفات وأمره بالتردد إليها ومشاركة النواب بها وعندما عزل المستنصر بالله وزيره ابن القمي سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م كان ابن العلقمي مشرفاً بدار التشريفات فعين بعد قليل أستاذاً للدار مكان شمس الدين ابن الناقد الذي عين نائباً للوزارة[١] وعندماتوفي ابن الناقد سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م عين ابن العلقمي مكانه وظل يشغل منصب الوزارة حتى سقوط بغداد ومقتل الخليفة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. وقد عرف ابن العلقمي بحبه للعلم والأدب ومعرفته باللغة وكانت له مقدرة على نظم الشعر وكتابة النثر الجيد الحسن. وقد أنشأ لنفسه مكتبة في داره في ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م نقل إليها عدداً كبيراً من الكتب من أنواع العلوم وصفها العدل موفق الدين القاسم ابن أبي الحديد بأبيات أولها:

رأيت الخزانة قد زينت　　　بكتب لها المنظر الهائل[٢]

وذكر علي ابن أخت الوزير المذكور أنها كانت تشتمل على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب وقد صنّفت للوزير كتب منها العباب الذي وضعه الصغاني اللغوي وشرح نهج البلاغة لعز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد[٣].

ومع ذلك فقد وجه كثير من المؤرخين المسلمين إلى الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي تهمة في غاية الخطورة خلاصتها أنه خان سيده الخليفة المستعصم بالله ودينه الإسلام وجلب على قومه القتل والذل والخراب بمكاتبة هولاكو طاغية التتار وأطماعه بفتح العراق بل دعوته لذلك وتهيئة الأمور له بأساليب متعددة منها إشارته على الخليفة بتسريح أكثر جنوده وتشجيعه على عدم إنفاق المال في سبيل الاستعداد العسكري وتهوين أمر المغول أمامه ودعوته للخروج لمواجهة هولاكو حينما أحاط هذا ببغداد للتغرير به بحجة حضور عقد نكاح ابنة هولاكو لابن الخليفة.

ولعل من المفيد أن نستعرض أهم ما ورد من أقوال المؤرخين في هذه التهمة الخطيرة: قال أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥هـ/

(١) ن. م. ص٣٥؛ خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٢١؛ العسجد المسبوك ج٢، الورقة ١٩٤.

(٢) الحوادث الجامعة، ص٢٠٩.

(٣) ابن الطقطقي، ص٣٣٧.

١٢٦٢م عن حوادث سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م إن التتار استولوا على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة[١]. وأعاد قطب الدين اليونيني البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م نفس العبارة ثم أضاف إليها قوله إن هولاكو تهيأ في سنة أربع وخمسين وستمائة لقصد العراق وسبب ذلك أن أهل الكرخ فيه جماعة من الأشراف والفتن لا تزال بينهم وبين أهل باب البصرة. . . فاتفق أنه وقع بين الفريقين محاربة فشكا أهل باب البصرة إلى ركن الدين الدواتدار والأمير أبي بكر بن الخليفة فتقدما إلى الجند بنهب الكرخ فهجموا ونهبوا وقتلوا وارتكبوا العظائم فشكا أهل الكرخ ذلك إلى الوزير فأمرهم بالكف والتغاضي وأضمر هذا الأمر في نفسه وحصل بسبب ذلك عنده الضغن على الخليفة. وبعد أن أشار اليونيني إلى الخليفة المستنصر بالله وحال الجند في عهده عاد إلى ابنه المستعصم وقال (وكاتب الوزير ابن العلقمي التتر وأطمعهم في البلاد وأرسل إليهم غلامه وأخاه وسهل عليهم ملك العراق وطلب منهم أن يكون نائبهم في البلاد فوعدوه بذلك وأخذوا في التجهيز لقصد العراق وكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في أن يسير إليهم ما يطلبونه من آلات الحرب فسير إليهم ذلك ولما تحقق قصدهم علم أنهم ما ملكوا العراق لا يبقون عليه فكاتب الخليفة سراً في التحذير منهم وإنه يعد لحربهم فكان الوزير لا يوصل رسله إلى الخليفة ومن وصل إلى الخليفة منهم بغير علم الوزير اطلع الخليفة وزيره على أمره). ثم يمضي اليونيني فيصف تقدم جيش هولاكو إلى بغداد وهزيمته لعسكرها وإحاطته بها ثم يعود فيقول (فحينئذٍ أشار ابن العلقمي الوزير على الخليفة بمصانعة ملك التتر ومصالحته وسأله أن يخرج إليه في تقرير ذلك وتوثّق منه لنفسه ثم رجع إلى الخليفة وقال له أنه قد رغب أن يزوج ابنته من ابنك الأمير أبي بكر ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى سلطان الروم في سلطنة الروم لا يؤثر إلا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك من السلاطين السلجوقية وينصرف بعساكره عنك فتجيبه إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك أن يفعل ما تريد فحسن له الخروج إليه فخرج في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا عقد النكاح فيما أظهره فخرجوا فقتلوا وكذلك صار يخرج طائفة بعد طائفة)[٢].
وقال شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م في كلامه عن وقائع سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ما يأتي: (وأما بغداد فضعف دست الخلافة وقطعوا أخباز الجند الذين استنجدهم

(١) تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص١٩٨.
(٢) ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٨٥ ـ ٨٩.

المستنصر وانقطع ركب العراق. كل ذلك من عمل الوزير ابن العلقمي فأخذ يكاتب التتار ويراسلونه والخليفة غافل لا يطلع على الأمور ولا له حرص على المصلحة)[١]. وقال عبد الله بن فضل الشيرازي الذي ألف كتابه حوالي ٨٢٩هـ/١٣٢٨م ما معناه أن الخليفة المستعصم بالله كان منصرفاً إلى الراحة واللهو وكان وزيره ابن العلقمي مستبداً بالأمور حتى إنه لم يكن يحترم المقربين إلى الخليفة ولا يظهر تأدباً في مخاطبته إياهم وقد تغيرت نيّته أزاء الخليفة بسبب واقعة الكرخ لأن ابن الخليفة أرسل جنوداً أغاروا عليها وأسروا البنين والبنات وبينهم العلويات فبعث ابن العلقمي لذلك رسالة إلى تاج الدين محمد بن نصر الحسيني أحد سادات العصر وعندما فرغ البادشاه هولاكو سنة ٦٥٤خـ/١٢٥٦م من فتح قلاع الملاحدة وأرسل بالرسل يبشرون بالنصر في المشارق والمغارب أرسل ابن العلقمي في الخفاء رسولاً إلى هولاكو أظهر الإخلاص والطاعة وزين مملكة بغداد في خاطره وذم الخليفة وقال لهولاكو أنه إذا توجه بسرعة فسوف تسلم له مملكة بغداد ولكن هذا لم يعتمد على قوله لأن حصانة بغداد وكثرة جنودها كانت أمراً مشهوراً في الأقاليم السبعة وكان ملك العالم أوغوتاي في أول جلوسه على العرش قد أرسل القائد جرماغون بجيش فتاك فهزم من قبل الخليفة المستنصر بالله ولذلك فإن البادشاه طلب من رسول ابن العلقمي ما يؤكد صحة أقواله ليطمئن بذلك خاطره الشريف. وعندما زحفت جيوش هولاكو على بغداد واطمأن ابن العلقمي لنجاح مكيدته قال للخليفة إن الجم الغفير من سلاطين وملوك الأطراف أظهروا والحمد لله إخلاصهم وطاعتهم وسمعة الخليفة كبيرة وحكمه نافذ وماله كثير فمن الخير توفير أموال الخزينة وعدم صرفها على الجند فكان الخليفة منصرفاً لسماع الأغاني والاجتماع بالجواري والمغنيات وابن العلقمي يفرق الكلمة ويشرد جميع الأفراد وينفر الجنود في الوقت الذي انتشرت فيه أخبار جيش المغول وكان الشرابي والدويدار يحذرون الخليفة منه وابن العلقمي يسخف أقوالهم[٢]. وقال ابن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م في كلامه عن الوزير ابن العلقمي (ولم يزل ناصحاً لأصحابه وأستاذه حتى وقع بينه وبين الدواتدار لأنه كان متغالياً في السنة وعنده ابن الخليفة فحصل عنده من الضغن ما أوجب سعيه في دمار الإسلام وخراب بغداد على ما هو مشهور لأنه ضعف جانبه وقويت شوكة التتار بحاشية الخليفة.. وأخذ يكاتب التتار إلى أن جرّأ هولاكو وجرّه على أخذ بغداد)[٣]. وقال عنه أيضاً (وحكي

(١) دول الإسلام، ج٢، ص١١٨.
(٢) تاريخ وصّاف الحضرة، (طبعة الهند) ج١ ص٢٨ ـ ٣٨.
(٣) فوات الوفيات، ج٢، ص٣١٣.

أنه لما كان يكاتب التتار تخيل إلى أنه أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما أراد عليه بالأبر ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع عليه شعره وغطى ما كتبه فجهزه وقال: إذا وصلت اؤمرهم بحلق رأسك ودعهم يقرؤون ما فيه وكان في آخر الكلام (اقطعوا الورقة) فضربت عنقه وهذا في غاية المكر والخزي»[1]. وقال تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م أنه لما توفي المستنصر بالله كان أكبر الأمراء وأعظمهم الدويدار والشرابي وهم الذين آثروا المستعصم لضعفه ولينه وأقاموه واستوزروا ابن العلقمي (وكان فاضلاً أديباً وكان شيعياً رافضياً في قلبه غل على الإسلام وأهله وحبب إلى الخليفة جمع المال والتقليل من العساكر فصار الجنود يطلبون من يستخدمهم في حمل القاذورات) ثم كرر الكاتب المذكور رواية مكاتبة ابن العلقمي للتار وعزا ذلك إلى رغبته في الانتقام من الأمير أبي بكر ابن الخليفة والدويدار قائد الخليفة لأنهما أوقعا بالكرخ ووصف طريقة مكاتبة التتار بما يأتي: (إنه حلق رأس شخص وكتب عليه بالسواد وعمل على ذلك وأصار المكتوب كل حرف كالحفرة في الرأس ثم تركه عنده حتى طلع شعره وأرسله إليهم). وأضاف السبكي إلى ذلك قوله إن الوزير كتب إلى نائب الخليفة في أربيل تاج الدين محمد بن الصلايا رسالة يقول فيها: (نهب الكرخ المكرّم والعترة النبوية وحسن التمثيل بقول الشاعر:

أمور تضحك السفهاء منها ... ويبكي من عواقبها اللبيب

فلهم أسوة بالحسين حيث نهب حريمه وأريق دمه.

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

وقد عزموا لا أتم الله عزمهم ولا أنفذ أمرهم على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميل والخادم قد أسلف الإنذار وعجل لهم الإعذار[2].

وقال عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م إن هولاكو لما رجع إلى بلاد الإسماعيلية وقصد قلعة ألموت بلغته في طريقه وصية من ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب إربل يستحثه للمسير إلى بغداد ويسهل عليه أمرها[3].

وعندما نصل إلى أواخر القرن العاشر الهجري نجد أن قصة سقوط بغداد وخيانة

---

(١) ن. م. ص٣١٥.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، ج٥، ص١٠٩ ـ ٨١١٢

(٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٥، ص١١٤٩.

الوزير ابن العلقمي تتسع إلى حد غير معقول وتختلط بأقاصيص غريبة على يد الشيخ حسن الديار بكري المتوفى سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م حيث كتب يقول إن الوزير (ابن العلقمي) كان قد كتب كتاباً إلى هولاكو ملك التتار في الدست أنك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك وكان قد داخل قلب اللعين الكفر فكتب هولاكو إن عساكر بغداد كثيرة فإن كنت صادقاً فيما قلته وداخلاً في طاعتنا فرّق عساكر بغداد ونحن نحضر فلما وصل كتابه إلى الوزير دخل إلى المستعصم وقال إن جندك كثيرة وعليك كلفة كبيرة والعدو قد رجع من بلاد العجم والصواب إنه تعطى دستوراً لخمسة عشر ألف من عسكرك وتوفر معلومهم فأجابه المستعصم لذلك فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الإقامة بها ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفاً من الديوان ثم كتب إلى هولاكو بما فعل. وفكر أن هولاكو إن قدم يقتل المستعصم وأتباعه ثم يعود لحال سبيله وقد زالت شوكة بني العباس وقد بقي هو على ما كان عليه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة. ولما بلغ هولاكو ما فعل الوزير ببغداد ركب وقصدها إلى أن نزل عليها وصار المستعصم يستدعي العساكر ويتجهز لحرب هولاكو وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكوا وخرجوا إلى ظاهر بغداد ومضى عليهم بعساكره فقاتلوا قتالاً شديداً وصبر كل من الطائفتين صبراً عظيماً وكثرت الجراحات والقتلى في الفريقين إلى أن نصر الله تعالى عساكر بغداد وانكسر هولاكو أقبح كسرة وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة وعادوا بالأسرى ورؤوس القتلى إلى ظاهر بغداد ونزلوا بخيمهم مطمئنين بهروب العدوّ فأرسل الوزير ابن العلقمي في تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شط دجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فغرّقت مواشيهم وخيامهم وأموالهم وصار السعيد منهم من لقي فرساً يركبها وكان الوزير قد أرسل إلى هولاكو يعرّفه بما فعل ويأمره بالرجوع إلى بغداد فرجعت عساكره على بغداد وبذلوا فيها السيف)[1]. وأضاف هذا الكاتب رواية جديدة عن مصير ابن العلقمي بقوله: (فلم يلبث أن أمسكه هولاكو بعد قتل المستعصم بأيام ووبّخه بألفاظ شنيعة معناها أنه لم يكن له خير في مخدومه ولا دينه فكيف يكون له خير في هولاكو ثم أنه قتله شرّ قتله)[2].

(١) الشيخ حسن بن محمد بن الحسن الديار بكري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج٢، ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٢) ن.م. ص٤٢١.

هذه هي خلاصة النصوص التي وردت باتهام الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي ومثل هذه التهم ليست غريبة في أيام المحن العامة والكوارث الخطيرة وقد كان سقوط بغداد بأيدي المغول الوثنيين وقتلهم خليفة المسلمين حدثاً عظيماً هز العالم العالم الإسلامي وترك جرحاً عميقاً في قلوب المسلمين جعلهم يفتشون عمن كان السبب فيه، وكان ابن العلقمي يحتل اسمياً المنصب الثاني في دولة الخليفة وأعداؤه يتربصون به الدوائر والأحوال العامة في تدهور والمغول يطرقون أبواب البلاد دون أن يكون أمامهم استعداد عسكري واضح وقد قتل الخليفة واستبيحت بغداد فلم يقتل الوزير بل أنه كان أحد جماعة عهد إليهم إعادة تنظيم إدارة العراق فلم لا توجه إليه التهمة وقد جمع إليه الخيانة من أطرافها كما يبدو ذلك لأول وهلة. وقد أدت بنا دراستنا للتهمة الموجهة للوزير ابن العلقمي بعد قراءة المصادر التي أوردتها وتفهم طبيعة الغزو المغولي منذ بدايته وأحوال العراق والعالم الإسلامي المعاصر، إلى رفضها بناء على الأسباب التالية:

أولاً: إن التهمة تحدد البداية التاريخية لخيانة ابن العلقمي بمراسلته هولاكو بعد استباحة محلة الكرخ سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، ولكن الحقيقة هي غير ذلك لأن هولاكو كان يسير إلى غزو العراق قبل هذا التاريخ ببضعة سنين وإنه كان يعمل طبقاً لأوامر عليا صدرت إليه قبل وقوع حادثة الكرخ.

ولعل الأمر يتضح بدراسة النقاط الآتية:

أ - كان غزو العراق أمراً تتضمنه طبيعة الغزو المغولي الذي كان يستهدف السيطرة على العالم وقد استولى المغول فعلاً على أكثر الصين وأواسط آسيا وإيران وأوروبا الشرقية وبقي العراق وسورية ومصر جيباً جغرافياً وعسكرياً كان لا بدّ من الاستيلاء عليه وهذا ما قام به هولاكو وإذا كان العراق قد سقط بأيدي المغول نتيجة لخيانة وزيره ابن العلقمي فكيف نفسر سقوط كل هذه البلاد الممتدة من المحيط الهادي إلى أواسط أوروبا ومن هم الخونة الذين سلموها إلى الأعداء ثم كيف نفسر احتلال هولاكو لسورية واستعداده للزحف على مصر.

ب - ربما تلقي ضوءاً على رغبة المغول في ضم العراق إلى منطقة نفوذهم قبل سنين عديدة من استيلائهم الفعلي عليه، المقابلة التي جرت بين الأمبراطور كيوك خان بمناسبة تنصيبه على العرش المغولي سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ورسول الخليفة حيث هدد الخان ذلك الرسول موعداً ومنذراً.

ج - إن زحف هولاكو على العراق واحتلاله إياه إنما تم بناء على أوامر عليا أصدرها أمبراطوار المغول مانغو خان سنة٦٥١هـ/١٢٥٣م بفتح البلاد الغربية التي ضمنها العراق وسورية ومصر يؤيد ذلك التقرير الذي رفعه (جانغ ته) الذي أرسله (مانغو خان) إلى أخيه هولاكو ودوّنه أحد الصينيين المسمى (ليو) المتصلين بالسفير المذكور وما ورد في كتاب التاريخ الصيني للأسرة المغولية التي حكمت الصين والذي أمر بوضعه أحد أباطرة الصين وتم إعداده سنة ٧٧٢هـ/ ١٢٧٠م وقد ورد في كلا المصدرين إن مانغو خان أمر أخاه هولاكو سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م بالزحف لاحتلال البلاد الغربية وإخضاع خليفة بغداد(١). وقد سبق هذا التاريخ حادثة الكرخ بثلاث سنوات على أقل تقدير وقد أيد ذلك ابن العبري(٢) والكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة(٣) ورشيد الدين فضل الله(٤).

ثانياً: إن القول بأن الوزير كان يسيطر على الخليفة تماماً بحيث أنه كان يمنع الرسل الذين يحذرونه من خطر المغول، مردود لأن الأدلة تشير إلى أن الوزير كان ضعيفاً غير مسموع القول وليس له نفوذ على الخليفة الذي كان واقعاً تحت نفوذ أعداء الوزير وخصوصاً مجاهد الدين الدويدار الصغير الشركسي الذي كان قائداً للجيش والدليل على ذلك ما يأتي:

أ - إن الخليفة لم يعهد بالوزارة إلى ابن العلقمي سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م إلا بعد أن عرضها على مربيه صدر الدين ابن المظفر علي بن محمد النيّار شيخ الشيوخ فامتنع عليه(٥).

ب - إن استباحة محلة الكرخ سنة ٦٥٤خـ/ ١٢٥٦م إنما تمت نتيجة لأوامر الخليفة القاضية بكف الشقي الكرخي الذي قتل أحد سكان محلة (قطفتا) كما أن إيقاف الاستباحة بعد

---

(١) E. Bretchneider, Mediebal Reserches from Eastern Asiatic Sources, U,P. 109, 121.
يحدد عطا ملك الجويني بداية تفكير مانغوخان بفتح هذه البلاد بسنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م.

(٢) تاريخ مختصر الدول، ص٢٦٣.

(٣) ص٢٦٧.

(٤) جامع التواريخ، ج٢، قسم ١، (النسخة المترجمة)، ص٢٣٨، انظر النص الفارسي، ج٢، ص٦٨٧.

(٥) العسجد المسبوك، ج٢ الورقة ١٩٣.

أن أفلت زمام الأمور من يد الحكومة بتلسط الغوغاء وأهل الفوضى إنما صدر من قبل الخليفة أيضاً وكان في محلة الكرخ أقارب للوزير فلو كان له أيّ نفوذ في الدولة وهو بمنصب وزير وهو يقابل رئيس الوزراء في عصرنا، لمنع استباحة المحلة المذكورة أو لأوقفها عند حدها حفظاً لأقاربه على الأقل.

ج - في الخلاف الذي وقع بين الوزير والدويدار الصغير قائد الجيش، لم يأخذ الخليفة برأي الوزير بل إنه صفح عن الدويدار مع عظم التهمة التي نسبت إليه.

د - إن هولاكو كان يراسل الخليفة ويطلب منه نجدة وينذره بالقدوم إليه منذ أن كان يحاصر قلاع الاسماعيلية وكان الخليفة يستشير الوزير والدوايدار وغيره من أفراد حاشيته وخواصه، وكانت نصائح الوزير معقولة تدل على تفهم لطبيعة الخطر المغولي من جهة وأحوال العراق من جهة أخرى ولم تكن تتضمن تغريراً بالخليفة ولا تآمراً عليه ولكن الخليفة كان يهمل نصائح الوزير ويأخذ برأي خصومه خصوصاً الدويدار الصغير.

هـ - وفيما يتعلق بمنع الوزير للرسل من الوصول إلى الخليفة إن الأدلة لا تؤيد ذلك لأن الخطر المغولي كان يهدد العراق منذ أيام الخليفة الناصر لدين الله أي منذ أن كان المستعصم بالله صبيّاً صغيراً وقد استمر أيام الظاهر بأمر الله والمستنصر بالله وأمره ذائع معروف وأخباره يعرفها الخاص والعام والمعروف أن المستشارين أيام الخطر العسكري هم العسكريون لا المدنيون ولم يكن الوزير عسكرياً، فكيف يعتمد عليه الخليفة دون قواد الجيش وأمرائه، وقد قدمنا أن الوزير لم يكن صاحب نفوذ على الخليفة بل إن النفوذ الحقيقي كان بأيدي الفئة العسكرية وعلى رأسها الدويدار الصغير عدو الوزير، ثم كيف كان يستطيع الوزير أن يمنع الرسل من الوصول إلى الخليفة وهل كان يلقي بهم في السجن وما هي الأمثلة على ذلك وإذا كان يفعل هذا فهل كان يستطيع منع أفراد العائلة العباسية من تحذير الخليفة أو الوقوف بين رجال الدولة الآخرين كصاحب الديوان وعارض الجيش والنقباء والمحتسب وغيرهم وإخبار الخليفة بحقيقة الأمر. ولو صحت هذه التهمة على الوزير لكان معناها أنه كان يترأس مؤامرة كبرى يشترك فيها أكثر رجال الحكومة لكن المصادر التاريخية تبين أن المراسلات كانت قائمة بين هولاكو والخليفة فعلاً وأنها لم تكن سرية لأن الخليفة كان يستشير فيها حكومته وأن

الخليفة أرسل ابن الجوزي إلى هولاكو وإن هذا الرسول كان مخلصاً للخليفة بدليل أن هولاكو قتله بعد فتح بغداد[١].

ثالثاً: أما اتهام الوزير بأنه كان يعمل على أطماع المغول بالعراق ليكون نائباً لهم فهو مردود لأنه ـ أي الوزير ـ كان يشغل منصب الوزارة في دولة الخليفة وليس هناك ما يدل أنه كان سيمنح منصباً أعلى من ذلك.

رابعاً: اختلفت الروايات التي تعيّن رسل الوزير إلى هولاكو فمنهم من قال أنه أرسل أخاه ومنهم من قال إنه أرسل غلامه ومنهم من قال إنه راسل هولاكو بواسطة ابن الصلايا العلوي صدر أربيل يضاف إلى ذلك أننا نلاحظ ما يأتي:

أ ـ إن كل ما قيل عن رسل الوزير إنما كان مجرد ترديد لإشاعات لا تستند إلى أي دليل فليس هناك حتى من ادعى أنه رأى رسل ابن العلقمي إلى هولاكو أو قبض عليهم أو تحدث معهم أو شهدهم يدخلون على هولاكو.

ب ـ إن هولاكو في مراسلاته مع الخليفة طلب مواجهة عدد من كبار رجال الدولة العباسية ولكنه لم يقصر طلبه على الوزير وحده في أية مرة من المرات وكان من المعقول أن يفعل ذلك لو كانت هناك اتصالات سرية بينهما.

ج ـ إن ابن الصلايا العلوي الذي تزعم بعض المصادر أنه كان صلة بين الوزير وهولاكو لا يمكن أن يكون قد قام بالعمل الخياني هذا لأنه أحد الناس الذين أمر هولاكو بقتلهم[٢].

خامساً: إن الوضع والتكلّف يتضحان في نصوص الروايات التي تتهم الوزير فهو يحلق رأس رسوله ويكتب عليه بالأبر أو يجعل الكتابة على رأسه كل حرف كالحفرة وهو يخرج إلى هولاكو ليتوثّق لنفسه ثم يعود إلى الخليفة ليبلغة أن هولاكو يرغب بزواج ابنته من ابن الخليفة وأن الأصلح الخروج مع أعيان الدولة لحضور عقد النكاح في وقت كان فيه الجيش المغولي يحيط ببغداد ويضربها بالمنجنيقات والمعروف أن هولاكو لم يجلب معه إحدى بناته عند زحفه على العراق.

سادساً: كيف يستطيع الوزير إقناع الخليفة بصرف أكثر جنوده والاكتفاء بالقليل منهم في

---

(١) انظر الحوادث الجامعة ص٣٢٨.

(٢) الحوادث الجامعة، ص٣٣٧.

وقت كان الخطر المغولي يهدد الدولة العباسية والعراق وكان للخليفة مستشارون عسكريون متعددون على رأسهم الدويدار الصغير عدو الوزير؟؟

سابعاً: هناك مصادر مهمة لم ترد فيها أية إشارة إلى خيانة الوزير مثل كتاب (جهانگشاي) لعطا ملك الجويني الذي هو أحد المصادر الرئيسة في تاريخ المغول وقد سرد الأحداث إلى نهاية احتلال جيش هولاكو لقلاع الإسماعيلية وتدميره لدولتهم والمفروض أن مراسلات الوزير مع هولاكو إنما جرت أيام تلك الأحداث ولم يشر عطا ملك الجويني إلى أية مراسلات من هذا النوع مع أنه كان شديد الصلة بهولاكو وكان في رفقته عند زحفه على بغداد وقد أورد التهمة المنسوبة إلى الناصر لدين الله من أنه راسل ملك الخطا. ولم ترد التهمة كذلك في الرسالة المنسوبة إلى نصير الدين الطوسي (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) وقد رافق هولاكو إلى بغداد وكان كثير الاطلاع على خفايا الأمور. ولا يذكرها عبد الرحمن سنبط بن قنيتو الأربلي في كتابه (الذهب المسبوك) مع أنه عراقي معاصر للحوادث ولا يذكرها كذلك أبو الفرج ابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول) مع أنه معاصر اتصل بالمغول وعرف أخبارهم بينما يرفض التهمة ابن الطقطقي (وضع كتابه سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م) وفوق كل هذا يفصّل رشيد الدين فضل الله أحداث الفتح ويشير إلى التهمة بأن مصدرها الدويدار الصغير عدو الوزير. ورشيد الدين مؤرخ عرف بصلته الشديدة بسلاطين المغول وأخبارهم وتاريخ شعوبهم وقد اطلع على المصادر الإسلامية والمغولية ولم تكن له أية مصلحة في الدفاع عن الوزير[1]. ولا حجة لمن يقول إن هذه المصادر كتبت في ظل المغول وتحت ضغطهم لأن عبد الله بن فضل الله الشيرازي الذي عرف بوصاف الحضرة لمدحه سلطان المغول الأيلخاني محمد خدابنده، شدّد التهمة على الوزير وقدّم كتابه إلى السلطان المذكور. كما لم يردنا من الأخبار ما يفيد أن حكام المغول كانوا يأمرون الكتّاب والمؤلفين بالدفاع عن الوزير. ولم ترد التهمة في كتاب ابن الفوطي البغدادي تلخيص مجمع الآداب وهو معاصر كبير الاطلاع.

ثامناً: إن سلامة شخص الوزير وداره ومشاركته في اللجنة التي أعادت تنظيم بغداد والعراق بعد الفتح لا تقوم حجة على خيانته لأن صاحب ديوان الخليفة المستعصم بالله أي

---

(١) انظر، جامع التواريخ، ج٢ قسم ١ (الترجمة) ص٢٧٢ ـ ٢٧٤؛ النص الفارسي في المرجع الأصلي ج٢، ص٧٠٢ ـ ٧٠٤.

وزير ماليته وحاجب الباب في عهده أي مدير شرطة العاصمة قد عوملوا بنفس المعاملة كما سلم أقرب مستشاري الخليفة إليه صديقه عبد الغني بن الدرنوس وسلم الابن الأصغر للخليفة مع أخواته فاطمة وخديجة ومريم[١]. وقد كان هولاكو بحاجة إلى من يدبّر أمر العراق بعد فتحه وكان الوزير وصاحب الديوان وحاجب الباب خبيرين بأموره فأشركهم في لجنة عهد إليها أمر تنظيمه.

تاسعاً: تجمع الروايات أن هولاكو لم يفرّق في استباحته لبغداد بين السنّيين والشيعيين بينما استثنى النصارى، والمعقول أن ابن العلقمي لو كان قد اتفق مع المغول على تسليم بغداد لهم انتقاماً من السنيين لحفظ له المغول جميل عمله فلم يقتلوا الشيعة على الأقل.

عاشراً: أما سقوط بغداد نفسها فلم يكن للوزير أي دخل فيه لأنه تم بعد هزيمة جيش الخليفة بقيادة الدويدار واستيلاء المغول على أسوار المدينة وسبب ذلك تفوّق المغول الواضح في العدد والعُدد والقيادة والمعنوية.

والخلاصة ليست هناك دلائل تدين ابن العلقمي بالخيانة وقد كان سقوط بغداد أمراً متوقعاً منذ تدمير المغول لدولة خوارزم وقتلهم آخر سلاطينها جلال الدين منكوبرتي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ولو أراد المغول فتح العراق آنذاك لما وجدوا صعوبة في ذلك وما كان هولاكو في حاجة إلى تشجيع لأنه كان يحمل أوامر عليا بالفتح أصدرها إليه الأمبراطور مانغوخان ومعه جيش متفوق على عدوه تفوقاً ساحقاً في العدد والعدد لم يستطع الإسماعيلية إيقافه بالرغم من كثرة عدد حصونهم وامتناعهم في جبال عالية وقمم شاهقة بينما تقع بغداد في سهل فسيح يسهل الإحاطة بها وقطع الميرة عنها. ويبدو أن إلصاق تهمة سقوط بغداد بالوزير إنما غايتها تبرير الإهمال والتسيّب اللذين سيطرا على إدارة العراق منذ بداية الغزو المغولي لدولة خوارزم سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م وقد كانت الخطة الصحيحة المناسبة آنذاك هي محاربة المغول منذ أول ظهورهم في بلاد ما وراء النهر وخراسان وليس التفرّج على هجماتهم وفظائعهم وانتظارهم عند أسوار بغداد ثم اتهام الوزير بأنه السبب في سقوط المدينة»[٢].

(١) الحوادث الجامعة، ص٣٢٩ ـ ٣٣٢.

(٢) الدكتور جعفر خصباك في كتابه (العراق في عهد الملوك الأيلخانيين) ص٢٦ ـ ٤٣. ١٩٦٨.

الفصل الخامس

المغول في بـلاد الشـام

ما إن أحسَّ الصليبيون بأن تحرُّكاً مغولياً تبدو طلائعه وأنَّ أمراً ما يُعَدُّ حتى تحركوا باتجاه المغول، واضعين قواهم في خدمتهم، وحرَّضوهم على المضي في الوصول إلى بلاد الشام.

وكان يتزعم الحركة الصليبية، يومذاك، ملك فرنسا لويس التاسع المغالي في صليبيته إلى درجة أن أطلقوا عليه لقب «القديس». فهو منذ وصل إلى عكا، بعد إطلاق سراحه من الأسر ورحيله عن دمياط في أيار (مايو) سنة ١٢٥٠ اعتبر نفسه المسؤول عن المسار الصليبي في الشام، وكان قد صار إليه أمر مملكة القدس. فوجه نداء إلى بارونات فرنسا يدعوهم فيه إلى إرسال النجدات لمواصلة الحرب الصليبية، في حين أن أخاه وفريقاً من كبار المحاربين وحوالي ١٤٠٠ رجل غادروا عكا عائدين إلى أوطانهم متخلِّين عن الحروب الصليبية.

وحين سيطر المماليك على مصر، وكان الأيوبيون في الشام، اشتد التنافس والأحقاد والكراهية بين الفريقين، وانقسم الوطن إلى شطرين متصارعين في الشام ومصر، ما أفاد منه لويس التاسع.

وعزم الملك الأيوبي، الناصر يوسف الذي كانت بيده حلب ودمشق والقدس، على التحالف مع لويس التاسع لمقاتلة المماليك، فأرسل إليه سفارة تعرض عليه أن يتنازل له عن القدس مقابل معاونته له على حرب المماليك وانتزاع مصر من أيديهم.

لكن لويس التاسع لم يجب إلى ذلك، لانشغاله بأمر الأسرى الصليبيين لدى المماليك في مصر، واكتفى بأن أرسل سفارةً إلى دمشق كان فيها الراهب الدّومنيكاني (ايفز البرتيوني Yves Breton) الذي كان يجيد اللغة العربية، عارضاً على الناصر أنه عندما يطلق سراح

الأسرى سيتحالف معه على المماليك لإعادة مصر إلى الأيوبيين. وفي الوقت نفسه، أرسل إلى أيبك، سلطان المماليك في مصر، رسولاً يطلب إليه إنفاذ ما جرى الاتفاق عليه من حسن معاملة الأسرى، واستطاع رسوله (يوحنا فالنسيين) أن يحمل المماليك على إطلاق عدد كبير من الأسرى، وتحسنت العلاقة بين لويس التاسع والمماليك الذين اشترطوا عليه عدم التحالف مع الناصر، ووعدوه بأنّهم، متى تم لهم الاستيلاء على فلسطين ودمشق، سيعيدون إلى الصليبيين مملكة القدس بحدودها القديمة الممتدة شرقاً إلى الأردن فتدخل فيها بيت لحم وحبرون ونابلس والجليل. فوافق لويس على هذه الشروط، وتم إطلاق سراح من تبقى من الأسرى الصليبيين في نهاية آذار (مارس) سنة ١٢٥٢.

لم يؤد هذا التحالف إلى النتيجة المرجوَّة منه؛ إذ أن الناصر بادر إلى إرسال العساكر إلى غزة لمنع الاتصال بين المماليك والصليبيين، في تفاصيل ليس هنا مكان الحديث عنها.

وقد رأى لويس التاسع في المغول حلفاء له في ما يصبو إلى تحقيقه، لا سيما بعدما علم ما اشتهر عن زوجات بعض قادتهم المسيحيات وما لهن من التأثير عليهم، فأرسل إلى منكوقاآن سنة ٦٥٠هـ/(١٢٥٣م) بعثة برئاسة الراهب (غيوم روبرك Guillame robruk)[(١)] سارت من عكا إلى القسطنطينية ومنها إلى شبه جزيرة القرم، ثم إل مدينة «سراي»، ثم عبرت منافذ الأورال ونهر إيلي، إلى أن وصلت إلى «قراقورم»، حيث قابل رئيسها منكوقاآن.

ويبدو أن الهدف كان إنشاء تحالف صليبي مغولي يتقدم فيه المغول من الشرق والصليبيون من الغرب لحصر بلاد الشام واقتسامها.

يقول جان سيري دي جوانفيل ـ وهو الذي رافق لويس التاسع في حملته الصليبية فكان بذلك شاهد عيان ـ في مذكراته عن تلك الأيام، متحدثاً عن علاقة لويس التاسع بالمغول:

بينما كان الملك (لويس التاسع) مقيماً في قبرص (كانون الأول سنة ١٢٤٨م) أنفذ إليه ملك التتار استعداده لمعاونته في غزو الأرض المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين.

ولقد بالغ الملك في إكرام وفادة الرسل، وأنفذ، في ما بعد، سفارة من لدنه إلى ملك

(١) غيوم روبرك راهب فرانسيسكي ألف كتاباً باللاتينية عن رحلته إلى منغوليا التي استمرت من العام ١٢٥٣ إلى ١٢٥٥. ونشر الكتاب بالفرنسية سنة ١٩٨٥، وفيه وصف موضوعي دقيق للحياة المغولية يومذاك.

التتار عادت بعد عامين، وأرسل معهم إليه خيمة على هيئة كنيسة، وهي خيمة غالية لأنها مصنوعة بأكملها من القماش القرمزي الجميل الرائع. «وأراد الملك أن يرى ما إذا كان في قدرته اجتذاب أولئك التتار للإيمان بديننا فأمر بنقش الخيمة بصورة تمثل بشارة سيدتنا العذراء بالمسيح وجميع أسس عقيدتنا. وأرسل الملك هذه الأشياء جميعها بصحبة أخوين من الجماعة المبشرين يعرفان لغة التتار ويستطيعان هداية المغول وتعليمهم السبيل إلى الإيمان»[(١)].

ويتحدَّث «جوانفيل»، بعد ذلك، عن عودة رسل لويس التاسع قائلاً: كان عدد شعب هذا الأمير (التَّتري) المسيحي كبيراً حتى لقد أنبأنا رسل الملك أنهم شاهدوا في معسكره ثمانمئة كنيسة صغيرة محمولة على عربات[(٢)].

ثم يقول: ويوجد بين التتار كثير من المسيحيين الذي يعتنقون عقيدة الإغريق[(٣)].

ويقول: نذكر ما فعله الإيلخان، بعد تلقيه رسل الملك وهداياه، من إرساله عهد أمان لجميع الملوك الذين لم يدينوا بالطاعة بعد، فلما جاؤوه أمر بنصب كنيسة الملك وخاطبهم بقوله: أيها السادة، لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتمساً عطفنا للدخول في طاعتنا. وهاكم الجزية التي أنفذها إلينا فانظروها، فإذا لم تستسلموا لنا فإنَّا مرسلون في طلبه للقضاء عليكم.

وإذ ذاك أعلن أكثر الحاضرين استسلامهم للملك التَّتري خوفاً من الملك الفرنسي.

ثم يقول «جوانفيل» بعد ذلك: عاد مبعوثو الملك، وفي صحبتهم آخرون، من قبل ملك التتار العظيم الذي حملهم كتباً منه إلى ملك فرنسا جاء فيها: «السلم خير فإنه إذا ساد أرضاً أكلت كل ذات أربع حشيش السلام، كما أن من يربون على قدمين يفلحون الأرض التي تخرج كل طيب في سلام أيضاً».

---

(١) جان سيري دي جوانفيل، مذكرات، ترجمة د. حسن حبشي، ١٩٦٨، ص٨٤.

(٢) نفسه، ص٢١٧.

(٣) كنا نتساءل عما أوصل المسيحية إلى المغول؟ وفي حديث تلفزيوني في الواحد والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٩٧ لمطران الكلدان في بيروت، وهو كلداني عراقي من شمال العراق انتدب لرعاية الكنيسة الكلدانية في بيروت، ذكر أنه حين ازدهار المسيحية بين كلدان العراق كانت توفد مبشرين إلى الصين ومنغوليا واليابان.
ومع أن المطران لم يشر إلى مدى نجاح هؤلاء المبشرين في ما وصلوا إليه من بلاد، فقد استنتجنا من حديثه أن وجود المسيحية بين المغول يعود إلى تلك العهود.

«وإننا نقص عليك هذا الخبر لتزداد معرفتك؛ إذ لن تعرف معنى السلام إلا إذا عقدته معنا، فقد ثار (بريسترجون) علينا، كما ثار علينا فلان وفلان غيره من الملوك فحكمنا السيف فيهم جميعاً».

ثم راح يعدد له هؤلاء الملوك. ثم قال: «لذلك ننصحك بأن تبعث إلينا عاماً بعد عام بشيء من ذهبك وفضتك، وبذلك تبقينا أصدقاءك، فإن لم تفعل هذا دمرناك أنت وشعبك كما فعلنا مع من ذكرنا من الملوك».

ويعقب جوانفيل على هذا الكلام قائلاً: ويجب أن تعلم أن الملك ندم أشد الندم على إرساله رسلاً إليه(١).

من مراجعتنا النصوص المتقدمة نرى أن البادىء بالاتصال كان ملك المغول، وهو هنا ليس هولاكو، وإنما هو «منكوقاآن» الذي كان أخوه هولاكو قائداً من قواده فقد أرسل بعثة مغولية إلى لويس التاسع الذي كان يعد العدة لغزو بلاد الشام في موقعها المقدس (بيت المقدس). ولم تكن أخبار هذا الإعداد خافية على «منكوقاآن»، بل لم تكن أخبار الحروب الصليبية، من مبتدئها وصولاً إلى وقائع لويس التاسع، بخافية على الملك المغولي الذي كان في حالة التحضير لزحف جيوشه إلى إيران فالعراق فالشام.

والذي يبدو لنا أنه أراد، قبل المباشرة بهذا الزحف، أن يتعرف إلى حقيقة هؤلاء الذين سبقوه إلى دخول بلاد الشام واحتلالها، ثم هم يحاولون اليوم الزحف من جديد بقيادة جديدة. وأراد كذلك أن يعلمهم أنه ينوي الزحف إلى الأرض التي يطمحون إلى الوصول إليها.

وفهم لويس التاسع رسالة «منكوقاآن» على غير حقيقتها، وظن أن الملك المغولي يعرض عليه التحالف ليتقاسما البلاد الشامية التي ستفتح، وأنه يدعوه لمناصرته والتعاون معه ليتسنى لهما الظفر السريع.

وعلى عكس ما كتبه أحد الباحثين، من أن تحالفاً قام بين المغول والصليبيين، فإننا نقول إن قرار المغول هو الحلول محل الصليبيين والوصول إلى شواطىء البحر المتوسط، وإن المغول كانوا على استعداد للاصطدام بالصليبيين إذا وقفوا بوجههم وحاولوا صدهم عن تحقيق مطامعهم في احتلال بلاد الشام.

(١) مذكرات جوانفيل، مصدر سابق. ص٢١٨.

لقد أرسل «منكوقاآن» إلى قبرص وفد استطلاع وتطمين، تطمين محدود لا يتجاوز التعهد بتسهيل الوصول إلى القدس. وغالى لويس التاسع في فهم مؤدى رسالة الوفد، فحسبها استعداداً لمعاونته في غزو الأرض المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، كما نص على ذلك دي جوانفيل.

واستناداً إلى هذا الفهم الخاطىء لرسالة الوفد المغولي، واعتماداً على هذا الاستنتاج غير المصيب، بادر لويس التاسع إلى المبالغة في إكرام وفادة الرسل. ثم أرسل إلى المغول وفداً يتمثل فيه خياله الواسع في الاستنتاج، بحيث حمله هذا الخيال على توقع دخول المغول في النصرانية، فضم إلى الوفد السياسي ملحقين دينيين من جماعة المبشرين يعرفان اللغة المغولية ليسهل عليهما نقل الدعوة المسيحية إلى عقول المغول وتعليمهم طرق الوصول إلى الإيمان!

ولم يكتف بذلك بل بعث مع الوفد والمبشرين كنيسة سيارة ثمينة منقوشاً عليها بشارة السيدة العذراء بالمسيح ومكتوباً فيها أسس العقيدة المسيحية، على حد تعبير جوانفيل!

وقد زاد في توغل لويس التاسع في الخيال الجموح ما اشتهر عن زوجات بعض زعماء المغول المسيحيات وما لهن من التأثير عليهم!

لذلك بادر إلى تأليف وفد رفيع المستوى ـ كما نقول في هذا العصر ـ جعل على رأسه راهباً وألحق به راهبين لإسباغ الصفة المسيحية على نشاطه واجتذاب المغول لا إلى التحالف العسكري فحسب، بل إلى الأخذ بدينه والدخول في عقيدته»(١). ولم ينس أن يبعث مع الوفد الهدايا الغالية..

بوصول الوفد إلى «قراقورم»، عاصمة المغول التي بناها جنكيز خان. ومقابلته لمنكوقاآن وبدئه الحديث معه أدرك ما يرمي إليه لويس التاسع، فعمد إلى أسلوب ترهيبي يُفهم فيه الوفد الصليبي ما يجب أن يفهمه من قوته، واستصغاره لشأن لويس التاسع وأنه فوق أن يكون بحاجة إليه.

---

(١) انخدع لويس التاسع بما عرف عن ميول المغول إلى المسيحيين النساطرة فطمع بإدخالهم في النصرانية، فتباين الهدفان: هدف المغول وهدف لويس التاسع، فالمغول يبغون السيطرة والفتح ولا يرون في لويس التاسع إلا ما يجعله واحداً من أتباعهم، ولويس التاسع يريد قبل كل شيء تنصير المغول.

فكان أن بعث بالأمان إلى بعض المتمردين عليه ـ كما حدثنا جوانفيل في ما تقدم من القول ـ وأعلمهم على مسمع من الوفد الصليبي، بأن هذا الوفد هو وفد طلب الدخول في الطاعة، وأن ما يرونه من الكنيسة الفخمة الثمينة هو جزية أرسلها لويس التاسع دليل خضوع وتسليم.

ثم أشعرهم بأن هذا الملك هو من بعض أتباعه، وأنهم إذا أصروا على التمرد، فلن يتنازل هو لإخضاعهم، بل سيوعز لهذا الملك بأن يأتي من بلاده البعيدة ليتولى هو قتالهم وحملهم على الخضوع!

هذا ما سمعه ورآه وفد لويس التاسع من منكوقاآن، فذابت مطامحه وتلاشت أحلامه. فلم يعد يتحدث عن التحالف أو يفكر في التبشير!

ثم أعاد الوفد مصحوباً بوفد منه ناقلاً الرسالة التي مضى نصها، طالباً من الملك الفرنسي أن يلزم حده ويعرف قدره.. فأدرك لويس التاسع أنه كان يعيش في خيال، وأن نتيجة الوفد كانت إهانة في إهانة، وتحقيراً في تحقير، لذلك ـ كما يقول جوانفيل ـ ندم أشد الندم على إرسال الرسل إلى منكوقاآن...

الأرمن يحرضون المغول

لم يقتصر الانخداع على لويس التاسع، بل إن الأمل راود «هيثوم» الأرمني ملك كيليكيا، فقد هب هو الآخر ذاهباً بنفسه إلى قراقورم، لقد كان أصغر من أن يرسل وفداً، لذلك شد الرحال لملاقاة منكوقاآن وتقوية عزمه على الغزو، ولما كان هيثوم يعرف قيمة نفسه، فلم يذهب طالباً التحالف وناشداً التبشير، بل ملتمساً النجدة، لذلك لم يعامله المغول بالتحقير والامتهان، بل أظهروا أنهم يصغون إليه وصرفوه بالتي هي أحسن، فعاد مملوءاً بالأمل.

ولم يكن يعلم أن التخطيط المغولي كان يستهدف، في ما يستهدف، السيطرة على كيليكيا وإخضاع الأرمن.

عندما وصل هيثوم إلى قراقورم كان هولاكو قد بدأ السير إلى الغرب، وكان قد بلغ إيران، فطلب منكوقاآن إلى هيثوم أن يلقى أخاه هولاكو فهو في طريق الزحف إلى بغداد، وأن يتعاون معه، ومنّاه بإعادة القدس إلى النصارى.

وقد نفذ هيثوم ما أشار عليه به منكوقاآن فلقي في طريق رجوعه إلى أرمينيا، هولاكو،

فكان من جراء ذلك أن قدم لهولاكو مساعدات عسكرية، وانضمت قوات أرمنية إلى الجيش المغولي وساهمت في معاركه بالشام والأناضول. وكان لهيثوم انتصارات على قلج أرسلان سنة ١٢٥٩ وعلى التركمان النازلين على أطراف كيليكيا الغربية.

على أن هذا التحالف المغولي الأرمني وهذه الانتصارات الهيثومية كانت وبالاً على الأرمن وعلى هيثوم بالذات بعد انتصار عين جالوت الإسلامي سنة ١٢٦٠.

علاقات المغول بالحكّام المسلمين

قبل أن يبدأ هولاكو زحفه إلى قلاع الإسماعيليين[١] أرسل عدة رسل إلى الملوك والسلاطين المسلمين يعلمهم فيها أنه عازم على مهاجمة قلاع الإسماعيليين وتحطيمها، وممّا جاء في رسائله: «. . . فإذا أسرعتم وساهمتم في هذه الحملة بالجيوش والآلات فسوف تبقى لكم ولايتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم. أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم فإنّا حين نفرغ بقوة الله من الملاحدة[٢] فإننا لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولايتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى»[٣].

وعوضاً عن أين يكون هذا الإنذار باعثاً للملوك والسلاطين المسلمين على التجمع والتذاكر في إعداد وسائل الدفاع، ومواجهة هولاكو كتلة واحدة تصده عن التقدم، عوضاً عن ذلك سارعوا إلى تلبية طلبه وهبوا لمعاونته. ويصف رشيد الدين فضل الله الهمذاني، في كتابه «جامع التواريخ» التسارع إلى تلبية نداء هولاكو فيقول: «أقبل من بلاد الروم السلطانان عز الدين وركن الدين. ومن فارس سعد بن الأتابك مظفر الدين. ومن العراق وخراسان وآذربيجان وأرّان وشروان وجورجيا الملوك والصدور والأعيان»[٤].

وهكذا نرى أن الاستجابة لدعوة هولاكو للانضمام إليه كانت عامة شاملة، وأنه لقي السمع والطاعة من جميع قادة هذه البلاد الإسلامية، فمشوا معه بجيوشهم لحصار قلاع الإسماعيليين، ثم للزحف على بغداد قاعدة الخلافة الإسلامية الي ينتمي إليها هؤلاء المسلمون، ويرون في صاحبها رمزاً مقدساً لهم.

---

(١) تقع هذه القلاع إلى الشمال الغربي من مدينة قزوين في إيران. ويبلغ عددها مئة قلعة، وأهمها: قلعة ألموت، وقلعة لمبسر، وقلعة قوهستان، وقلعة كردكوه، وقلعة شاه دز.

(٢) يقصد بالملاحدة الإسماعيليين.

(٣) جامع التواريخ.

(٤) يقصد ببلاد الروم هنا: الأناضول.

وبعد سقوط بغداد، انضم إلى هولاكو ـ عدا هؤلاء ـ في من انضم في الزحف على بلاد الشام: الملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي، ويقول عن ذلك أبو الفداء في تاريخه: «وسار الملك السعيد معهم [المغول] وأعلن الفسق والفجور وسفك دماء المسلمين»(١).

وممن حرضوا هولاكو على غزو الشام ومصر وساروا معه الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل بن الكامل بن العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي، وبعد النصر الإسلامي في معركة عين جالوت قبض عليه الظاهر بيبرس و«أحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتر إلى المغيث أجوبةً عما كتب إليهم في أطماعهم في ملك مصر والشام»، كما نص على ذلك أبو الفداء في تاريخه(٢). ثم قتله الملك الظاهر.

وكان الأيوبيّون، في الجزيرة والشام، أول من تعاون مع هولاكو، فأرسلوا إليه يهادونه ويخطبون وده، وقد أسرع الناصر الأيوبي نفسه إلى إعلان خضوعه للمغول وأرسل ابنه العزيز سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) «بتحف وتقادم إلى هولاكو وصانعه». أما الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق فقد أسرع في تقديم ولائه لهولاكو، في حين بادر المنصور بن المظفر الأيوبي صاحب حماه بالفرار إلى مصر تاركاً حماه وأهلها يلقون مصيرهم(٣).

وعندما كان هولاكو يزحف باتجاه بغداد مريداً الاستيلاء على قلاع الإسماعيليين أرسل إلى الإسماعيليين وفداً يهددهم ويتوعدهم، وكان هذا الوفد مؤلفاً ممن انضم إليه من المسلمين وهما: ظهير الدين سلار البيتكجي، وشاه أمين يصحبهما مغولي واحد هو «بكتيورجي».

ولما رفض زعيم الإسماعيليين «خورشاه» التسليم، تقدم هولاكو نحو القلاع وبدأ

---

(١) تاريخ أبي الفداء، ج٣/ ص٢٠٤.

(٢) نفسه، ج٣/ ص٢١٧.

(٣) قال الدكتور فايد حماد عاشور، في كتابه «العلاقات السياسية بين المماليك والمغول»، ص٣٦: كان من الطبيعي بعد سقوط بغداد بيد التتار أن يتابع المغول زحفهم إلى بلاد الشام، وكان صاحب الشام في ذلك الوقت الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، وكان معادياً للمماليك في مصر فلم يجد بداً من الاستعانة بالتتار ضد سلاطين المماليك في مصر، فأرسل ولده الملك العزيز إلى هولاكو وبصحبته بعض الأمراء ومعهم الهدايا والتمسوا منه مساعدة الملك الناصر ضد المماليك..

وهكذا فإن عاشور هذا يرى أنه كان لا بد من الخيانة والتحالف مع المغول على المسلمين!!.

حصارها وأخذ يهاجمها ويضيق عليها. ولما أحسّ الإسماعيليون بضعفهم أمام القوى المتدفقة عليهم أرسل «خورشاه» إلى هولاكو وفداً من أعيان رجاله دليلاً على التسليم فأكرمهم هولاكو، ولكن هولاكو عاد فأرسل إلى خورشاه وفداً مؤلفاً من المسلمين المنضمين إليه وهم: صدر الدين وظهير الدين[١] وتوكل بهادر وبخشي ومازوق ـ وكلهم مسلمون ـ أرسلهم برسالة إلى «خورشاه» تطلب إليه أن يخرب القلاع، إذا كان حقاً قد قبل التسليم ويأتي بنفسه إلى هولاكو.

وحين أحاطت جيوش المغول بقلعة «ميمون دز»، وعجز المغول عنها لمناعتها همّ هولاكو بالرحيل عنها لمداهمة الشتاء له، ولكن مستشاريه، وبينهم سيف الدين[٢] البيتكجي أصروا على البقاء والاستمرار في حصار القلعة، فأطاعهم وسلّمت القلعة بعد ذلك.

المغول في بلاد الشام

لم يطل هولاكو إقامته في بغداد، بل غادرها عائداً إلى معسكره في «خانقين». ثم ترك العراق متجهاً إلى إيران؛ حيث اختار مدينة «مراغة» في آذربيجان قاعدة لحكمه.

وسبق زحف المغول إلى بلاد الشام إنذارات واتصالات، فقد كان الملك الناصر صاحب حلب وطد صلته سراً بالمغول، فأرسل وزيره الصاحب زين الدين الحافظي بتحف وهدايا إلى القآن مظهراً الطاعة والتسليم.

وراح يحكم صلاته سراً بالمغول، ثم أرسل إلى هولاكو طالباً منه نجدة مغولية يفتح بها مصر. ولكن مثل هذه الصلة لا يمكن أن تخفى إلى النهاية، فاتُّهم بممالأة المغول، وثار به حكام بلاد الشام فالتجأ إلى هولاكو، فقوى ذلك من عزم هذا على الزحف إلى حلب مبتدئاً بها فتح البلاد الشامية.

وفي الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) سار هولاكو في قلب جيوشه من آذربيجان واتخذ طريقه على خلاط وجبال حكار الكردية، ووصل إلى ديار بكر وفتح الجزيرة، ووجه ابنه «يشموت» لحصار «ميافارقين»، واتجه بنفسه إلى «دنيسر» و«نصيبين» و«حران» ففتحها، وأصر أهل سروج على المقاومة فكانت فيهم مقتلة.

---

(١) هؤلاء السائرون في ركاب هولاكو المعاونون للمغول، في غزو البلاد الإسلامية، لم يكونوا يخجلون من أن ينسبوا إلى الدين، فهم ما بين ظهير الدين وصدر الدين.

(٢) هذا منتم آخر للدين يسير في ركاب هولاكو لغزو البلاد الإسلامية ويخلص في النصح للمغول.

ثم نزل هولاكو على شاطىء الفرات في «البيرة» الواقعة بين حلب والثغور الروميّة، وهي قلعة حصينة، واستبيحت «منبج»، وعبر هولاكو الفرات واصلاً إلى حلب، فأبت حلب التسليم وصممت على القتال، وكان المغول قد دخلوا «إعزاز» بالأمان.

بدأ حصار حلب في كانون الثاني (يناير) ١٢٦٠م، وظلت تقاتل المغول أسبوعاً، واشتدت مضايقتهم لها ولم يلبثوا أن نفذوا إليها، فبذلوا السيف في أهلها، ثم نادوا بالأمان، ولكن القلعة صمدت أربعين يوماً ترد المغول عن أسوارها، ثم سقطت.

وسمح هولاكو لمن فر من الحلبيين بالعودة إلى ديارهم وأملاكهم. وراح أمراء المسلمين يتسابقون في الوصول إلى حلب لإعلان ولائهم لهولاكو.

وحوصرت «حارم» فشغل حصارها المغول مدة، ثم طلب أهلها الأمان على أن يقسم لهم فخر الدين الساقي على ذلك، ثم سلموا بناء على عهده وأيمانه، فعدّ هولاكو ذلك إهانة له وغضب غضباً شديداً فصب نقمته على أهل «حارم» وحلت بهم النكبة الفادحة.

وبوصول المغول إلى «حارم» يكونون قد أصبحوا على حدود إمارة أنطاكية الصليبية، فتقرب أميرها «بوهمند» السادس من المغول معلناً التحالف معهم. وكانت مصلحة المغول الآنية تقضي بقبول هذا التحالف فأعادوا إلى «بوهمند» ما كان قد استولى عليه المسلمون من بلاد وحصون كانت تابعة لأنطاكية، ومن أهمها اللاذقية، ومقابل ذلك أعاد «بوهمند» إلى كرسي أنطاكية البطريرك اليوناني «ايثيميوس»، فأثار ذلك مشكلة بين الصليبيين. فصليبيو عكا كانوا في ريب من المغول، ولم تعجبهم هذه الصداقة بين «بوهمند» وبين المغول، ولم يروا في استرداد اللاذقية من الأهمية ما يوازي الإهانة التي حاقت بالكنيسة اللاتينية بإعادة البطريك اليوناني إلى اللاذقية، فكان أن أعلن البابا «الحرمان» على «بوهمند».

أما بارونات عكا فقد أقنعتهم تصرفات المغول بأنهم لا ينوون التحالف مع الصليبيين، بل يريدون الحلول محلهم، لذلك كانت نقمتهم على بوهمند عارمة فكتبوا إلى شارل كونت أنجو، شقيق لويس التاسع في نيسان (أبريل) ١٢٦٠ ينبهونه إلى خطر ما يجري: الخطر المادي والخطر المعنوي ويناشدونه المعونة على دفع المضار التي ينتظر وقوعها من تمادي الزحف المغولي.

ولم يشفع للمغول أن بينهم عدداً من المسيحيين مثل «طقزخاتون» زوجة هولاكو التي كانت تصحبه في زحفه هذا، ومثل القائد «كيتوبوقا»، فقد اعتبر اللاتين أن المغول يحابون اليونانيين على حسابهم.

وكما أعاد المغول ما أعادوه من البلاد إلى «بوهمند» أمير أنطاكية، فكذلك فعلوا مع «هيثوم» ملك كيليكيا الأرمني، فقد أعادوا إليه ما كان قد سلبه منه سلاجقة الأناضول من أراضي كيليكيا.

توغُّل المغول في بلاد الشام

كنا قد ذكرنا، من قبل، أن المنصور، صاحب حماه، قد فر عنها تاركاً الحمويين في مأزقٍ حرج، وفي فوضى واضطراب، فقرروا تسليم المدينة للمغول بعد أن فقدوا القيادة، فقصد وفد منهم إلى حلب وأعلن استسلامهم لهولاكو، فأمّنهم هذا واختار للسيطرة على مدينة حماه شحنة من أتباعه المسلمين هو خسروشاه[١]،

أما المنصور الذي كان قد فرّ، فقد لحق بابن عمه الناصر يوسف بدمشق، وقد أثبتا أنهما على الضد من اسميهما، فلا المنصور منصور، ولا الناصر ناصر. أما الأول فقد رأينا ما فعل من الإسراع في الفرار من واجبه تلقاء المدينة التي كان يحكمها وتركها عرضة لشتى الاحتمالات المفجعة.. وأما الثاني فلم يكد يبلغه استيلاء المغول على حلب حتى أسرع بالرحيل عن دمشق مع من كان لديه من العساكر متجهاً إلى مصر ومعه ابن عمه المنصور، فحل أولاً في نابلس عدة أيام، ثم ارتحل إلى غزة فالعريش، ليتجه منها إلى مصر. ولكنه لم يلبث أن داخله الرعب من المماليك، وخشي أن يقبضوا عليه، لذلك عاد فاتجه شمالاً، فأوقعه هذا الاتجاه في أيدي المغول فلقي مصرعه على أيديهم.

وهكذا فعوضاً عن أن يموت ميتة شريفة، مدافعاً عن وطنه مات موتاً ذليلاً. وبرحيل الناصر عن دمشق وهنت عزائم الدمشقيين بتخلي سلطانهم عنهم فألفوا وفداً ذهب إلى القائد المغولي «كيتوبوقا»[٢] الذي خَلَف هولاكو في أثناء غيابه وعرض عليه استلام دمشق وخضوعها، فعين لحكم مدينتهم حاكماً مغولياً يعاونه ثلاثة من أتباعه المسلمين هم: علاء الدين الشاشي، وجمال الدين القزويني، وشمس الدين القمي.

وإذا كانت المدينة قد استسلمت فإن قلعتها أبت الاستسلام فبدأ «كيتوبوقا» حصارها في آذار (مارس) ١٢٦٠ ونصب لها المنجنيقات، فاضطرت للاستسلام.

---

(١) **الشحنة**: هو بمثابة «مدير الشرطة». والمقصود به هنا: الحاكم الذي يكون همه الأول حفظ الأمن.

(٢) كان هولاكو قد رحل إلى قراقورم حين بلغه موت منكوقاآن (سنة ١٢٥٩) والاختلاف على من يتولى مكانه، فلم يشأ أن يكون بعيداً عن المساهمة في هذا الأمر الحاسم وترك أمر إتمام الفخ إلى كيتوبوقا.

ودخل «كيتوبوقا» دمشق فاتحاً يقود وراءه الجيش المنتصر، ويصحبه صديقاه الجديدان ملك أرمينيا وأمير أنطاكية، ومضى يشق شوارع دمشق شارعاً بعد شارع بهذا الموكب المغولي الأرمني الفرنجي[١] ودمشق البطلة التي أعيت الصليبيين من قبل وصدَّتهم خائبين بعد أن بلغوا أبوابها. . . دمشق الأبية حكمها أخيراً هذا النوع من الحكام أمثال الناصر يوسف الأيوبي فأوصلوها إلى هذا الهوان، واستطاع قائد صليبي ـ في ظل سطوة مغولية ـ أن يخطو فيها خطوات الجبابرة. . .

وهكذا قضى فساد المتسلطين المتمادي، وطغيان الحكام المتوالي، والاستهتار بحريات الناس ـ قضى بإذلال العواصم الثلاث: بغداد وحلب ودمشق، وشهد التاريخ الغزاة يقتحمون حصونها ويدكون أسوارها ويمشون فيها بخيلاء المنتصر العاتي. . . وفي خلال أسابيع عنت بلاد الشام كلها للقائد المغولي «كيتوبوقا»، وامتد جنوده حتى غزة وبيت جبرين والخليل والصلت وبعلبك وبانياس، ولما حاولت نابلس المقاومة كانت السيوف تأخذ برقاب الناس فقرت بعد توثب. .

وبعد أن دان ما دان للمغول من مدن ومواقع، صاروا يتاخمون الإمارات الصليبية. أما إمارة أنطاكية فيمكن اعتبارها ـ بعدما كان بين بوهمند وهولاكو ـ تابعة للمغول. وأما مملكة القدس وما يتبعها من الساحل الشامي مثل بيروت وصور وعكا ويافا، فكان أمر حكمها عائداً إلى صنجيل جفري سارجينس نائباً عن ملوكها في قبرص. وقد حرص الصليبيون على أن يتجنبوا أي احتكاك بالمغول فلم يقع بينهم أي صدام سوى صدام محدود سبّبه تهور «جوليان»، أمير صيدا وحمقه، فقد أغار من الشقيف على البقاع، فتصدت له ثلة مغولية استطاع جوليان ومن استنفرهم من جيرانه أن يوقعوها في كمين وأن يقتلوا قائدها ابن أخت القائد المغولي العام «كيتوبوقا»، فأرسل هذا جيشاً كثيفاً إلى صيدا فنهبها، وحين تعرض لقلعتها أعانها أسطول جنوى القادم من صور.

وقد ردت القوى المغولية على ذلك، وعلى غارة على الجليل، بعنف رادع مؤدب.

هولاكو يغادر بلاد الشام

توفي الرجل المغولي الأول منكوقاآن، في ١١ آب (أغسطس) ١٢٥٩، وهو في غزو

---

(١) نجح لويس التاسع في توثيق العلاقات بين أنطاكية وأرمينيا الصغرى بأن تزوج بوهمند السادس من سبيلا ابنة هيثوم، فصار الأرمن بذلك مسؤولين في الدفاع عن أنطاكية.

للصين كان يرافقه فيه أخوه «قوبيلاي»، وكان مفروضاً أن يخلفه أحد أولاده، ولكن هؤلاء كانوا صغار السن، فاستطاع أخوه الأصغر ـ أصغر الأخوة كلهم ـ «أريق بوكا» السيطرة على الحكم في العاصمة المغولية «قراقورم» وراح يسعى ليكون العرش له، وظل في سعيه هذا عدة شهور.

وعقد كل من الأخوين المجلس المغولي (قوريلتاي)(١)، عقدا مجلسين كل مجلس يؤيد واحداً من الأخوين. وانتُخب «أريق بوكا» في ربيع سنة ١٢٦٠ «خانا أكبر» لتأييد معظم أفراد الأسرة في منغوليا له. ولكن أخاه «قوبيلاي» كان يحظى بتأييد قادة الجيش، وقد اعتُبر انعقاد كل من المجلسين باطلاً.

وبلغ هولاكو موت أخيه منكوقاآن وتنازع أخويه قوبيلاي وأريق بوكا على العرش. وقد كان من الممكن أن يشترك هولاكو نفسه في هذا النزاع، ولكن يبدو أنه آثر أن يكتفي بالاحتفاظ بما كان قد فتحه من بلاد وأن لا يدخل في الصراع على عرش المغول من أجل نفسه، وعلى أن لا يكون بعيداً عن الانغماس في هذا الصراع انتصاراً لأحد الفريقين المتنازعين. وكان هواه مع أخيه قوبيلاي لذلك حرص على حضور (القوريلتاي)، فغادر بلاد الشام عائداً إلى إيران وترك لكيتوبوقا أن ينجز فتح مصر.

وما دام هولاكو قد غادر بلاد الشام، فلم يعد يعنينا في بحوثنا هذه من أمره شيء، فموضوعنا هنا هو «المغول في بلاد الشام». وقد خرج هولاكو الآن من هذا الصراع، وأصبح صراعه هناك في منغوليا وما إليها من الدنيا.

وإذا كان هو قد خرج من الصراع على بلاد الشام فإن ممثله فيها «كيتوبوقا» قد ظل بما لديه من قوى في صميم هذا الصراع. وإذا كان «كيتوبوقا» وقواه العسكرية تستهدف الخروج من بلاد الشام والوصول إلى مصر، فإنها بذلك لم تخرج عن موضوع بحثنا لأن معركتها في سبيل الخروج إلى مصر إنما كانت على أرض شامية.

الصدام العسكري

المهمة التي أودع منكوقاآن إلى أخيه هولاكو إنفاذها، وهي الاستيلاء على إيران وإخضاع قلاع الإسماعيليين والوصول إلى بغداد ومتابعة السير منها إلى بلاد الشام فمصر، نفذ

(١) القوريلتاي عند المغول: هو المجلس الذي يضم الأمراء وأركان الدولة ويعقد عند تنصيب أحد أعضاء الأسرة المالكة أمبراطوراً أعظم على جميع المغول.

هولاكو القسم الأكبر منها، وبوصول طلائع جيوشه إلى غزة يكون قد تم استصفاء الشام ولم يبق سوى الوصول إلى مصر.

تركنا هولاكو ماضياً عن الشام مخلفاً فيها، نائباً عنه، قائداً من أشرس قواده هو «كيتوبوقا»، ويبدو أن هولاكو في مضيّه هذا قد اصطحب معه قطعاً من جيشه الكبير اعتقاداً منه أنه قد يحتاجها في الصراع المغولي على العرش في قراقورم، واطمئناناً منه إلى عدم الحاجة إلى جيش كبير في غزو مصر، بعد أن تبين له هزال المقاومة التي لقيها في طريقه الطويل من قراقورم إلى غزة، فما أبقاه من قوى في يد «كيتوبوقا» هو ـ بناء على هذا ـ كاف لافتتاح مصر.

كانت القوة المغولية التي احتلت غزة، بقيادة «بيدر»، لا تعدو أن تكون طليعة للزحف الكبير الذي يقوده كيتوبوقا. وخرجت من مصر طليعة بقيادة بيبرس متجهة إلى غزة، وبالرغم من أنها كانت طليعة غير كبيرة، فإن مجرد خروجها من مصر واتجاهها إلى غزة كاف للدلالة على تصميم المصريين على القتال قتالاً هجومياً.

ورأى بيدر أنه، إذا استطاع بما لديه من قوى دفع الطليعة المصرية الزاحفة، فإنه لن يستطيع دفع من يأتي وراءها من قوى لذلك آثر الانسحاب من غزة، وعندما تقدم إليها بيبرس وجدها خالية من كل مقاومة فدخلها من دون قتال.

وأسرع بيدر بإخبار «كيتوبوقا» بما يجري، وكان هذا في بعلبك فأغذّ السير إزاء بحر الجليل، إلى وادي نهر الأردن، وبينما هو في سيره بلغته أنباء مزعجة من دمشق، فدمشق لا يمكن أن تنسى المظاهرة الجبروتية المغولية الفرنجية الأرمنية التي اخترقت شوارعها مذلة لها كاسرة عنفوانها، وإذا كانت قد أغضت يومذاك، فإنها لم تغض هواناً، بل أغضت حقداً مكبوتاً، ينتظر الساعة المناسبة لينفجر ضراماً على الجبابرة. فإنه لم يكد يبلغ مسامع دمشق نبأ الزحف المصري حتى هبت صاخبة، فكان لا بد من قوة مغولية لمعالجة الموقف.

أما الجيش المصري بقيادة «قطز» فقد عزم على سلوك طريق الساحل الفلسطيني، ولما كان لا بد له من المرور بعكا المحتلة من الصليبيين، فقد أرسل إليهم يطلب السماح باجتياز أرضهم والتزود بما يعوزه من مؤن، فتداول بارونات عكا الأمر في ما بينهم، وكانوا قد بدأوا يدركون حقيقة نوايا المغول، ثم كانوا منفعلين بمهاجمة صيدا ونهبها، فاستجابوا للطلب وزادوا على ذلك بأن عرضوا عليه المساعدة العسكرية، على أنه وُجد فيهم من نبههم إلى أن

المسلمين إذا انتصروا على المغول سيرتدون إلى الصليبيين، وكان (قطز) قد استعفاهم من المساعدة العسكرية وطلب إليهم أن لا يكونوا لا له ولا عليه.

سلك الجيش المصري طريق الساحل في آب (أغسطس) سنة ١٢٦٠، وسار على امتداد الساحل حتى عكا، فنزل خارجها مستريحاً في حدائقها، وهناك علم أن كيتوبوقا اجتاز نهر الأردن ونزل بشرق بحر الجليل.

ثم سار (قطز) بالجيش المصري من عكا باتجاه الجنوب الشرقي، فاجتاز الناصرة حتى بلغ عين جالوت في ٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٢٦٠، وفيها حدثت المعركة التي انتهت بهزيمة المغول وجلائهم عن بلاد الشام.

وهكذا غدت بلاد الشام حتى نهر الفرات في حكم المماليك، حكّام مصر.

وقد حاول المغول، بعد ذلك، الارتداد إلى الشام في تشرين الثاني (نوڤمبر) سنة ١٢٦٠؛ إذ تقدم أحد قادتهم من أعالي الجزيرة إلى البيرة فهزم عساكر من حامية حلب، ثم استولى على حلب وقتل عدداً من سكانها ونهبها، ومضى حتى بلغ ضواحي حماه وحمص فألحق أميرا المدينتين الهزيمة به قريباً من حمص في كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٢٦٠، فانتهى إلى ما وراء الفرات.

وهنا لنا أن نتساءل: لماذا لم يعد المغول، بقيادة هولاكو، الكرّة على الشام ومصر بعد هزيمتهم في عين جالوت؟ ونجيب فنقول: لم يقع ذلك لأنه في سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) بعد سقوط بغداد بحوالي سنتين، وبعد موت منكوقاآن أمبراطور المغول، قام صراع بين الأخوين «قوبيلاي» و«أريق بوكا» ـ كما ذكرنا من قبل ـ وطلب الأول مساعدة أخيه هولاكو. وقد أعقب ذلك خلاف بين «بركاي خلان بن جوجي» حاكم مغول القفجاق وابن عمه هولاكو، ما أدى إلى وقوع سلسلة من المعارك بين الفريقين، وإلى تركيز هولاكو قواته في الجهات التي يحمي بها ممتلكاته من الخطر الجديد.

فكان ذلك مانعاً له عن العودة إلى الشام وغزو مصر، واتخاذه موقف الدفاع أمام دولة المماليك.

الفصل السادس

الإيـــلخانيّـون

إذا كان هولاكو لم يسهم بنفسه في النزاع على العرش المغولي، فلا يعني ذلك أنه قد ابتعد عن السلطة، فهو إذا كان قد ترك للأخوة أن يتنازعوا على الملك في العاصمة (قراقورم)، فإنه اقتطع لنفسه من ذلك الملك المغولي الواسع ما كان قد افتتحه من بلاد، وجعل عاصمته مدينة «تبريز» في إيران، وصار يطلق على الدولة المنفصلة اسم «الدولة الإيلخانية»، نسبة إلى رأسها «الإِيلخان»[١].

كانت المملكة الإيلخانية تتكون من الولايات التالية:

الجزيرة الفراتية، والعراق، وخوزستان، والأهواز، وفارس، وكرمان، وسجستان، والرخج، وأرمينية، وآذربيجان، وأران، وبلاد الجبل (وهي ما يسمى أيضاً العراق العجمي)، وبلاد الديلم، والجيل، وطبرستان، وقومس، وخراسان، وزابلستان، والغور.

وكانت المناطق التي تؤلف العراق الحالي أجزاء من ولايات كبيرة ثلاث هي: ١ ـ بلاد الجبل أو العراق العجمي، وفيه مدينة شهرزور. ٢ ـ الجزيرة الفراتية، وفيها الموصل وسنجار والعمادية وأربيل. ٣ ـ العراق، وهو القسم الأهم، وقد أصبح ولاية إيلخانية ممتازة تمتد ما بين حديثة الموصل إلى عبادان طولاً والقادسية إلى حلوان عرضاً[٢].

(١) كان قوبيلاي قد أصبح خاناً أعظم للمغول، فأرسل إلى أخيه هولاكو بخبره بتعيينه له حاكماً، أو «ملكاً» على حد تعبير صاحب «جامع التواريخ» على البلاد الممتدّة من ضفاف جيحون حتى ديار الشام ومصر.

(٢) صبح الأعشى، ج٤/ص٣١٤ وتاريخ وصاف، ج٣/ص٣٧١ وحافظ أبرو، ذيل جامع =

كان العراق إحدى الولايات الإيلخانية المهمة التي كانت تسمى ممالك ويدعى حكامها أحياناً ملوكاً، وكانت عاصمته بغداد تدعى، في كتابات تلك الحقبة باسم مدينة السلام. وكانت إدارة الأمبراطورية الإيلخانية لا مركزية. وكان حاكم العراق مستقلاً مقابل تقديمه بعض المال لخزينة السلطان والقوات العسكرية ساعة ظهور الخطر. على أن السلطان كان يزور العراق أحياناً مستطلعاً أحواله، وقد يقضي الشتاء في ربوعه أحياناً.

العمل الذي بدأه رجال الإسلام، أول ما بدأوا، بعد سقوط بغداد وانحلال الرباط الذي كان يشدّ العالم الإسلامي بعضه إلى بعض، كان الاحتفاظ بالإسلام قوياً في نفوس المسلمين وبعث العزائم الميتة وإذكاء الآمال الخابية وإعداد الرجال الأكفياء لقيادة المستقبل الذي ينتظر العالم الإسلامي. وهذه المرحلة تولى زمامها نصير الدين الطوسي ومن جمعهم حوله من الأعوان. ولما نجحوا في ذلك، تحولوا إلى ما هو أبعد منه، إلى تحويل المغول إلى مسلمين، وهذا ما كان لآل الجويني، تلاميذ نصير الدين الطوسي، فيه الفضل الكبير.

مات هولاكو وملك بعده ابنه «أبقا»، وبقيت الدولة على وثنيتها. ولكن المساعي الإسلامية الخفية كانت ناشطة في غير ميدان، وكان من أكثر العاملين في هذا السبيل آل الجويني الذي استطاعوا الوصول إلى مواقع حساسة في الدولة، فاستغلوا مواقعهم هذه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه أولاً من أمور المسلمين، ثم النفاذ بعد ذلك إلى العقائد المغولية لتحويلها إلى الإسلام. وراهنوا على الابن الثاني لهولاكو «تكودار» فاستطاعوا تليينه وإمالته إلى الإسلام، على أمل أن يجيء يوم يتولى فيه الملك، فيجاهر بالإسلام، ويسلم المغول تبعاً له.

ومات «أبقا» سنة ٦٨٠ بعد أن عهد بالملك إلى ابنه أرغون. ولكن آل الجويني ومن تابعهم من الأمراء والقوّاد رأوا الفرصة سانحة لتنصيب «تكودار» الابن الآخر لهولاكو، فنادوا

= التواريخ، ص٥٣ و٥٤. والعراق العجمي: اسم أطلقه السلاجقة على ما كان يعرف في عهد البويهيين باسم «بلاد الجبل»، وأهم مدنه: كرمانشاه (قرميسين) والري وهمذان وأصفهان. ويقول حمد الله المستوفى (١٢٨١ ـ ١٣٤٩م) في كتابه «نزهة القلوب» عن العراق العجمي أن حدوده: أذربيجان، كردستان، خوزستان، فارس، المفازة الكبرى، قومس، كيلان، وأن أشهر مدنه: أصفهان، همذان، قم، الري، السلطانية، قزوين، ساوه، الطالقان، كاشان، جرباذقان، نهاوند، يزد وغيرها.

وحديثة الموصل: بليدة كانت على دجلة في الجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى (مراصد اطلاع، ج١، ص٣٨٧).

بخلع الملك الجديد وتنصيب «تكودار» مكانه باسم «السلطان أحمد تكودار» إعلاناً لإسلامه وإسلام الدولة.

وإذ كان آل الجويني سياسيين غير متفرغين للشوؤن الدينية، فقد ولوا أمر الاتصال الدائم بـ«تكودار» وشرح العقيدة الإسلامية له، وتعميق جذورها في نفسه، إلى شيخ صوفي هو كمال الدين عبد الرحمن الرافعي. على أن صاحب كتاب «مجالس المؤمنين» يجزم بأن الذي تولى ذلك هو شمس الدين الجويني.

ولما كانت السلطة المركزية بقيادة «أرغون» تملك من القوى ما تفسد به أمر «تكودار»، فقد مضى آل الجويني ومن والاهم بـ«أحمد تكودار» إلى مدينة «ألطاف» الواقعة في أقصى خراسان واستقرّوا به هناك سنة ٦٨١هـ.

وأرسل علاء الدين عطا ملك الجويني(١) رسالة إلى أهل العراق عموماً وبغداد خصوصاً يصف لهم فيها الانقلاب الذي تم، من خلع «أرغون» إلى تنصيب «السلطان أحمد»، ناعتاً الدولة بالنعوت الإسلامية قائلاً عنها: الدولة الإيلخانية الأحمدية التي نشرت ألوية الشريعة المحمدية، وبسطت يد العدل في الأرضين وكفّت عن البلاد والعباد أكفّ الظالمين، والحمد لله رب العالمين.

ثمّ وصل إلى بغداد بعض أولاد علاء الدين ومعهم بعض النواب والحكام، فقوبلوا من البغداديين بمظاهرات التأييد الحماسية.

أما ما كان من أمر «أرغون»، فقد سلّم أولاً بالأمر الواقع، مضمراً الانقضاض على هذا الأمر بعد تدبير وإحكام. فذهب إلى خراسان حيث قابل «السلطان أحمد»، ثم سافر إلى العراق.

---

(١) حسن بن عمر المعروف بابن حبيب المتوفى سنة ٧٧٩ مؤرخ معاصر لهذه الأحداث كتب في كتابه (تذكرة النبيه) ج١ ص٧٦ عن عطا ملك الجويني علاء الدين مايلي:

وفي ذي الحجة منها توفي الصاحب علاء الدين عطا ملك بن الصاحب بهاء الدين محمد بن محمد الجويني بأران ودفن بتبريز، كان عليّ الشأن، وتأدب بخراسان، وتنقل في المناصب والمراتب إلى أن ولي صحابة الديوان بالعراق، واستوطنها نحو اثنين وعشرين سنة، وعمر النواحي، ووفر الأموال، وساق الماء من الفرات إلى النجف، وعمر رباطاً بمشهد علي ولم يزل مطاع الأمر رفيع القدر إلى أن سقط عن فرسه فمات، وله أشعار ورسائل، رحمه الله تعالى.

وفي سنة ٦٨٣هـ كان «أرغون» قد أحكم أمره وأعلن التمرد، وكانت كل المظاهر تدلّ على رجحان كفة «أحمد تكودار»، ولكن «أرغون» تمكن من استمالة جيش أحمد متصلاً بالقادة، وأبرزهم «بوقا» الذي أعلن انقلابه على «أحمد»، وهرع إلى «أرغون» وآزره على قتل بعض قواد «السلطان أحمد» معلناً أن «أرغون» هو السلطان، ووجد أحمد نفسه محاطاً بأعدائه فحاول الإفلات فلم ينجح، فقتل(١).

وهنا أذاع «بوقا» من قلعة «تلا»، مدفن هولاكو والقريبة من مراغة في آذربيجان، قتل «تكودار» لخروجه على دين آبائه وأجداده، وتولية «أرغون» مكانه. ثم أصبح هو الحاكم الفعلي إذ أُسند إليه منصب نائب السلطة متولياً بذلك جميع صلاحيات السلطان يعاونه في منصب رفيع آخر، أخوه «أروق».

وفي سنة ٦٨٨هـ تمكن «أرغون» من إسقاط «بوقا» فقتله وقتل أولاده وأخاه ونوابه.

أخفقت محاولة إقامة دولة إسلاميَّة مغولية في هذه الآونة، وأسقطها انقلاب عسكري ـ كما رأينا ـ ولكن هذا الفشل كان إلى حين، إذ كانت جذور الدعوة قد تأصلت وظل دعاتها، يقظين يعملون حتى تم لهم الأمر في عهد السلطان «غازان» الذي أعلن إسلامه وتسمى باسم «محمود غازان»، وأعلن إسلام الدولة. كان لا بد لنا من ذكر هذا ـ وإن كان يبدو للوهلة الأولى ـ بأن لا صلة له بموضوعنا (المغول في بلاد الشام)، ولكنه في حقيقته مرتبط كل الارتباط بموضوعنا لما سيؤول إليه الأمر بين هؤلاء الايلخانيين من الصراع بينهم وبين المماليك على بلاد الشام.

مات هولاكو في ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ فآل الأمر بعده إلى ولده «أبقا» أو «أباقا»،

---

(١) كتب حسن بن عمر المعروف بابن حبيب في كتاب (تذكرة النبيه) عن تكودار ما يلي:
ولي أحمد سلطان المسمى تكدار بن هولاكو ابن طلو بن جنكيزخان أمر السلطنة ببلاد التتار، عوضاً عن أخيه أبغا بن هولاكو بحكم موته بنواحي همذان، وأظهر شعائر الإسلام وألزم أهل الذمة بلبس الغيار، عالي الهمة شجاعاً مقداماً خبيراً بالحروب، مملكته متسعة، وجنده وافر، وأمواله جزيلة، وكانت مدة أخيه المذكور نحو سبع عشرة سنة، وعمره نحو خمسين سنة.
ثم قال في الصفحة ٨٩ ما يلي:
وفيها (سنة ٦٨٣) ولي أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلو بن جنكيز أمر السلطنة ببلاد التتار، عوضاً عن عمه أحمد سلطان بن هولاكو بحكم قتله، بالأردو، وكانت خواصه المقربة قد تغيرت عليه بسبب إسلامه وإلزامه لهم بالإسلام فاتفقوا على قتله وتولية أرغون، ثم قصدوا الأردو، فلما أحس بهم هرب، فتبعوه وقتلوه وملكوا أرغون المذكور.

ويسميه بعض قدامى المؤرخين المسلمين «أبغا». و«أباقا» هذا وغيره من خلفاء هولاكو إلى آخر ملوك السلسلة، عرفوا باسم «الإيلخانيين». ولمّا كانت سلسلتهم لا ترتبط ارتباطاً يعتد به بخانات مغولستان، ولا كان لبلاد «قراقورم» سلطان عليهم، فهي تعد سلسلة مستقلة. ومن تاريخ جلوس «أبقا»، أخذ نفوذ المغول وسلطان خانات مغولستان الأصليين ينحسر عن منطقتهم شيئاً فشيئاً،

كان «أبقا» بوذياً، ولكنه كان يميل إلى النصرانية، وذلك بسبب تربيته، إذ كانت أمه «دوقوزخاتون» نصرانية، وكان أبوه هولاكو قد طلب وهو في أواخر عمره من «ميخائيل باليوغوس» أمبراطور الروم الشرقي (٦٨٥ ـ ٦٧١هـ) أن يزوجه إحدى بناته. فأجابه الأمبراطور إلى طلبه، وبعث إليه من القسطنطينية بابنة له، فلما وصلت إلى قيسارية من بلاد الأناضول مات هولاكو. فلم ترجع إلى أبيها، بل تابعت السير إلى تبريز فتزوجها «أبقا». واشتهر أنه تعمّد قبل الزواج وتنصّر.

وهذان العاملان: تربيته السابقة، ثم زواجه بابنة أمبراطور الروم الشرقي، جعلا «أبقا» يزداد ميلاً إلى المسيحيين يوماً بعد يوم. وغدا رجال الدين النصارى موضع العناية والاحترام في بلاطه، ولمّا كانت العداوة والمنافسة على أشدها بين إيلخانيي إيران المغول وبين المماليك في مصر والشام بعد انكسار المغول في معركة عين جالوت، فقد جعل أباقا رجال الدين النصارى غير مرة واسطته إلى البابا وملوك أوروبا لوضع مشروع اتحاد بينه وبينهم.

وفي سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) تلقى «أبقا» من البابا «كليمنت الرابع» جواباً على رسالة كان قد بعث بها إليه، يرجوه فيه أن يكتب إليه بالحرف اللاتيني ليستطيع فهم ما يكتب، وكانت رسالة «أبقا» مكتوبة بالحرف «الأويغري»[1]. وفي جواب البابا ذكر له أيضاً ما قام به النصارى من عمليات مضادة لأعدائه ووعده بأن يقوّيه بمساعدة ملوك أوروبا له في حربه على المسلمين.

وبعد سنتين، اجتمع مندوبون من قبل ميخائيل باليوغوس، ومندوبون من قبل «أبقا خان» بملك مقاطعة «أراغون» في مدينة بلنسية من إسبانيا، وطلبوا منه أن يتفق وسائر ملوك

(١) نسبة إلى «أويغور» إحدى قبائل المغول التي أنشأت دولة متمدنة قوية في تركستان الشرقية في منتصف القرن الثاني الهجري. تنصر فريق منها على يد مبشرين قدموا من إيران. وكان تنصرهم سبباً في دخول إحدى شعب الخط السرياني إليهم، فأخذ هذا الخط ينتشر شيئاً فشيئاً بين النصارى منهم حتى كتبوا لغتهم التركية به، وعرف بالخط الأويغري.

النصارى، فيجهز عساكره لمحاربة المسلمين، وذلك تحقيقاً للوعد الذي وعده البابا، فسمع ملك أراغون لهم، وعزم ـ على شيخوخته ـ أن ينهض إلى الحرب. ولكن جماعة من مستبصري أمراء أسبانيا صرفوه عن هذا العزم، وذكّروه بخيانة الروم الشرقيين (البيزنطيين) وقساوة قلوب المغول.

وبعد عودة «أباقا» من محاربة «براق»[1] عزم بتحريض من ملك أرمينيا الصغرى (كيليكيا والنواحي المجاورة لها) على مذاكرة ملوك أوروبا في هذا الموضوع ومحالفتهم، إذ كان الملك الأرمني يريد استخلاص القدس من قبضة المسلمين بأي نحو كان.

وأرسل «أبقا» سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) وفداً من ستة عشر رجلاً إلى بلاد الفرنجة، يوم كان ينعقد في مدينة «ليون» في فرنسا مجمع نصراني بأمر من البابا «غريغوار العاشر». وقد حضر هذا الوفد جلسات المجمع. وعُمّد اثنان مغوليان من أعضائه بأمر من البابا. وهذا كل ما حصل عليه الوفد من هذه المهمة، إذ أن نجاح المسلمين المطرد ووهن عزم الصليبيين في محاربتهم، جعلهم لا يصغون إلى توقع «أبقا» تجييش جيش منهم لغزو الشام ومصر.

وأُرسلت إلى «أدوارد الأول» ملك الإنكليز، رسالة كتبها «أبقا» إليه، فلم يحرك ساكناً واعتذر بأنه لا يستطيع فيما هو فيه أن يبعث بجيش لاسترداد القدس.

وبعد سنتين من ذلك التاريخ، وكان في منصب البابوية يومئذ البابا «يوحنا الواحد والعشرون» بعث «أبقا» برسولين إلى روما يدعوان النصارى إلى استرداد القدس وفلسطين من يد المسلمين، ويعدانهم بمساعدته لهم. وكان هذان الرسولان من نصارى الكرج (سكان ما يعرف اليوم باسم جورجيا) وقد أبلغا إلى البابا أن «أبقا» و«قوبيلاي» يرغبان في التنصر، فأرسلهما البابا إلى ملكي فرنسا وانكلترا ليعرضا عليهما ذلك. وقرر أن يرسل إلى الشرق بعثة تتألف من خمسة رجال دين للتبشير بالنصرانية. ولكنه توفي قبل إنفاذ قراره في سنة ٦٧٦هـ، واكتفى خليفته البابا «نيقولا الثالث» بأن أرسل بعد سنة من ذلك التاريخ كتاباً إلى «أبقا» وقوبيلاي يظهر فيه سروره بمساعدتهما للنصارى.

وكانت نتيجة سياسة «أبقا» هذه أن قضى مدة حكمه في السعي إلى الحصول على مساعدة البابا وملوك أوروبا لغزو الشام ومصر، ولكن من دون جدوى.

وبعد موت هولاكو، سار ملك مصر الظاهر بيبرس البندقداري بجيش من مصر إلى

(١) هو مغولي آخر كانت بينه وبين «أبقا» حرب سنة ٦٦٨هـ قرب مدينة هرات انتصر فيها «أبقا».

الشام، وفي سنة ٦٦٤هـ استولى عليها ووصل إلى حدود أرمينيا الصغرى (كيليكيا والنواحي المجاورة لها)، وهي يومئذٍ يحكمها الملك الأرمني هيثوم. وكان هذا الملك قد سبق أن ساعد المغول واحتل أراضي المسلمين الواقعة في أطراف ملكه، واتخذ مدينة (سيس) عاصمة له. وذلك يوم كان المسلمون مشغولين بالحروب الداخلية ومجاهدة الصليبيين.

فطلب بيبرس من هيثوم الجلاء عن بلاد المسلمين وفتح طريق التجارة بين أرمينيا الصغرى وبلاد الشام في مقابل أداء ضريبة. فرفض هيثوم طلبه، إذ كان معتمداً على «أبقا» ويعدّ نفسه تابعاً له. وعندئذٍ هجم بيبرس على أرمينيا. وغادر هيثوم بلده مسرعاً إلى الأناضول؛ حيث كان المغول، ليستعين بأمرائهم على دفع جيش المماليك عن مملكته، وتولى أبناؤه وأخوته وأمراء جيشه محاربة هذا الجيش.

ولكن أمراء المغول امتنعوا عن مساعدة هيثوم بحجة أنهم لم يتلقوا أمراً من «أبقا» بذلك. فاضطرّ هيثوم إلى أن يطلب العون من «أبقا» رأساً. وقبل أن يصل جواب طلبه كان جيش بيبرس، وعلى قيادته الملك المنصور وسيف الدين قلاوون، قد احتل أملاك هيثوم بأسرها وأغار على بلاده بالنهب والسلب.

وقتل في هذه المعارك «طوروس» بن هيثوم وأخوه وأسر ابن آخر له اسمه «ليون»، وقتل أيضاً كثير من رجاله وأبناء أخيه. وخربوا عاصمته «سيس»، وظلوا يعملون في بلاده قتلاً ونهباً مدة عشرين يوماً عادوا بعدها إلى الشام.

أما هيثوم فقد جمع جيشاً من المغول والسلاجقة الروميين[1] (وهم مسلمون)، تحمّل في جمعه مشقة عظيمة، وجاء به إلى كيليكيا. ولكن هذا الجيش لم يفده بشيء، إذ كان المسلمون قد ذهبوا وبلاده عادت خراباً، ورجاله بين قتيل وأسير. فهدّه العجز واستولى عليه خوف واضطراب شديدان. فلم يجد بداً، وهو على هذا العجز، من أن يتوجّه إلى بيبرس ويلتمس منه إطلاق ابنه ليون من الأسر. فأجابه بيبرس إلى طلبه برسالة قال فيها: إن غايتنا من الحرب لم تكن الحصول على المال والنوال. وقال: لقد أخذ هولاكو في حلب أحد أصدقائنا

(١) أي السلاجقة الذين كانوا يحكمون في الأناضول (آسيا الصغرى) وكان المسلمون يعرفونها يومئذ باسم (بلاد الروم). وهؤلاء السلاجقة كانوا قد دخلوا في طاعة المغول، إذ أرسل ملكهم علاء الدين كيقباد سنة ٦٣٠هـ سفيراً من قبله إلى أحد رؤساء المغول «أو كتاي قاآن» يقول له إنه يضع نفسه في خدمتهم، وذلك ليستعين بهم على محاربة الملك الأشرف الأيوبي. وبالفعل لم يلبث علاء الدين هذا أن قام بعد ذلك بالهجوم على الملك الأيوبي وأخذ منه مدينة «أخلاط».

ومريدينا أسيراً، وهو شمس الدين سنقر الأشقر السمرقندي، فإن كان هيثوم يريد أن نطلق نحن ابنه من الأسر، فعليه أن يطلب من المغول إطلاق «سنقر» لنطلق نحن في مقابل ذلك ابنه.

فذهب هيثوم بنفسه من أرمينيا إلى معسكر «أبقا»، وتوسل له بالبكاء والأنين، يلتمس منه بإلحاح أن يسعى إلى الإفراج عن سنقر. فرحم «أبقا» شيخوخته وقلة حيلته، وأمره بالعودة إلى مملكته، ووعده بأن يطلب سنقر أينما كان ويبعث به إليه.

كانت حكومة ممالك الروم، أي بلاد الأناضول (آسيا الصغرى) يديرها يومئذ «معين الدين سليمان بن علي بروانه». وهذا كان في أول أمره وزيراً للسلاطين السلجوقيين الروميين. فلما قدم المغول دخل في طاعتهم، فنصبَّه هولاكو، ثم «أبقا» حاكماً على تلك الممالك.

وقبل أن يغادر هيثوم عائداً إلى بلاده كان رسوله السابق إلى بلاط «أبقا» قد وصل إلى بلاد معين الدين هذا عائداً من رحلته. وكان معين الدين يرغب في الزواج من بنت هيثوم. فلما اجتمع بهذا الرسول باحثه في هذا الأمر. فقال له الرسول: إن هيثوم لن يستنكف عن إجابته إلى طلبه إن هو أحسن استقباله حين يعود من رحلته. فعمل معين الدين برأيه واستقبل هيثوم بالتجلة والاحترام وقدّم له هدايا، وبالغ في ذلك على نحو جعل الملك الأرمنيّ يتعجب من عظمة هذا الاهتمام وهذه الملاطفة. فلما اطّلع على ما في نفس «بروانه» أظهر الرضا، ولكنه جعل إجراء العقد مرهوناً بإطلاق ابنه ليون من الأسر. ثم ذهب إلى أرمينيا.

ولكن بنت هيثوم التي صارت خطيبة «بروانه» في الظاهر لا في الواقع لم تلبث أن ماتت بعد ذلك بقليل. وكان «بروانه» قد عرف بتظاهر هيثوم بغير ما يبطنه وأنه كان يتعلل بقضية ابنه ليماطله. فاستاء من ذلك وحقد عليه.

وأراد أن يستقل بإدارة المملكة فقتل الملك السلجوقي «ركن الدين قلج أرسلان» ابن الملك غياث الدين كيخسرو سنة ٦٦٦هـ وأقام ابنه وهو في الرابعة من عمره في مقامه. وساعده على ذلك أمراء المغول.

وفي سنة ٦٦٩هـ بعث «أبقا» بسنقر الأشقر، وكان في نواحي سمرقند إلى هيثوم، فأرسله هذا إلى بيبرس مصحوباً بالاحترام والهدايا النفيسة. وفي مقابل ذلك بعث بيبرس ليون إلى أبيه على هذا النحو.

وكان هيثوم قد عقد وبيبرس معاهدة تقضي بأنه بعد تسليم سنقر وتسلّم ليون يدخلان

في السلم ويسلّم هيثوم إلى بيبرس بعض القلاع التي يستولي عليها، وأن يكون نهر جيحان الحد الفاصل بين بلاده وبين ممالك المسلمين. فلما تمّ تبادل الأسيرين وفى هيثوم بما عاهد عليه.

وأمر هيثوم ابنه ليون بالسفر إلى بغداد ليلقى «أبقا» ويشكر له سعيه في إطلاقه، وأن يذكر له التماساً من أبيه أن يعفيه من الحكم لشيخوخته وينصب ابنه ليون في مقامه. وقد أجابه «أبقا» إلى طلبه، وأصبح ليون خليفة أبيه.

بدء الصراع الدموي

أوقع الملك الظاهر بيبرس بالصليبيين كثيراً من الهزائم في عدة من الوقائع استمرت من سنة ٦٦٦هـ إلى سنة ٦٧١هـ، وقد أرسل إليه «أبقا» رسالة حذره فيها من سطوته. فأجابه بيبرس برسالة قال فيها: إن سلطانه قائم بإجماعٍ من المسلمين، وإنّه لا يخشى سطوته، وهو حاضر لملاقاته ملاقاة يستردّ بها المسلمون من قبضة العدو ما فقدوه.

وكان «أبقا» منذ تولّيه السلطان، يفكر بغزو الشام ومصر، والأخذ بثارات عين جالوت، ولكن معاركه مع «براق» التي أشرنا إليها من قبل كانت تحول بينه وبين إنفاذ خطته.

وفي سنة ٦٦٦هـ غزا بيبرس أنطاكية، وكانت في حكم أمير طرابلس الصليبي، بجيش جرّار، ففتحها، وأوقع بأهلها القتل والأسر. ولمّا كانت حملة لويس التاسع ملك فرنسا على تونس في ذلك التاريخ قد انتهت بانكسار الصليبيين، أيضاً، فقد قويت عزيمة بيبرس على طرد الصليبيين من بلاد الشام، وأصبح الصليبيون آيسين لا يرون لهم حيلة إلا الاستنجاد بـ«أبقا» والطلب منه دفع بيبرس عنهم.

فأمر «أبقا»، بأن يسير القائد الايلخاني بعسكره من بلاد الروم (الأناضول) ومعه معين الدولة بروانه بجيش من عشرة آلاف مقاتل إلى الشام، فأغاروا سنة ٦٦٩هـ على البلاد الواقعة في شمالي حلب. وكان بيبرس يومئذ في دمشق، فاستدعى جيشاً من مصر فتراجع الايلخانيون حين وصول ذلك الجيش، فبعث بيبرس جماعة من عسكره إلى الرها وحران فاحتلتهما بسهولة، وذهب المغول الذين كانوا يقيمون في حران بين قتيل وأسير. ولكن الايلخانيين عادوا فاحتلوا هذه المدينة بعد سنة من ذلك التاريخ، وأوقعوا بأهلها قتلاً عاماً وظلت خراباً من ذلك اليوم.

وأوقع بيبرس هزيمة شديدة بجماعة من عسكر الايلخانيين جاءت إلى الشام مدداً

للصليبيين، واشتدّ في تعقّب الصليبيين منهم بخاصَّة. وإذ أصبحت قوته تزداد يوماً بعد يوم، فقد اضطرّ معين الدين بروانه وقائد الجيش الايلخاني في بلاد الروم (الأناضول) إلى طلب الصلح منه. فبعث إليهما باثنين من أمراء جيشه لعقد معاهدة الصلح، فبعثاهما إلى «أبقا» للمفاوضة.

وفهم من المذاكرات التي جرت بينه وبين الرسولين أن «منكوتيمور بن بركاي» ملك دشت قفجاق[1] وكان مسلماً كأبيه، قد وضع يده في يد بيبرس، وأن هذين الملكين اللذين يتبعان ديناً واحداً قد عقدا العزم على مخاصمته، وأن القصد من هذا التحالف هو تعطيل أساس الصداقة القديمة التي عقدها الإيلخانيون بينهم وبين الصليبيين والأرمن وأمبراطور القسطنطينية، لا سيما وأن «منكوتيمور» كان ينافس الإيلخانيين وينافس أيضاً أمبراطور القسطنطينية، فرأى أن الصلاح في محالفة بيبرس.

وبعث «أبقا» بسفراء من قبله إلى بيبرس وطلب منه إرسال سنقر الأشقر للمفاوضة. ولكن السفراء غيّروا مضمون هذه الرسالة، وقالوا لبيبرس إن «أبقا» يطلب أن يحضر سلطان مصر بنفسه، أو يبعث بمقدّم أمرائه إلى بلاطه للمفاوضة في شروط الصلح. فأجابهم بيبرس بأن الأنسب أن يحضر «أبقا» أو أحد إخوته إلى الشام لتدبير هذا الأمر؛ إذ أنه هو الذي طلب المصالحة. وفي أثناء ذلك أمر بأن يقوم عسكر المسلمين بإعداد التجهيزات الحربية خارج دمشق وبأن يتهيَّأ للحرب.

وبعد ذلك بقليل، أي في سنة ٦٧١هـ، أغار عسكر الايلخانيين على ضفة الفرات العليا وحاصروا قلعتي البيرة[2] والرحبة[3]، فبعث أهالي البيرة خبراً بذلك مع الحمام الزاجل إلى حمص وحماه وطلبوا منهما النجدة. فبادر بيبرس مسرعاً إلى إنجادهم وحمل معه سفناً وسار

(١) بعد موت منكوقاآن دار صراع بين الأخوين قوبيلاي وأربوقا وطلب الأول مساعدة هولاكو. وقد أعقب ذلك خلاف بين بركاي خان بن جوجي حاكم مغول القفجاق وابن عمه هولاكو، ما أدى إلى سلسلة من المعارك بين الفريقين، وكان بركاي قد أعلن إسلامه.

(٢) **البيرة**: بلد بين حلب والثغور الرومية. وهي قلعة حصنية ولها رستاق واسع (معجم البلدان).

(٣) **الرحبة**: جمعها رحاب، والرحاب في الأصل: مواضع في الأودية متواطئة ليستنقع الماء فيها، وما حولها مشرف عليها، وهي أسرع الأرض نباتاً، تكون عند منتهى الوادي في وسطه، وتكون في المكان المشرف ليستنقع الماء فيها. وإذا كانت في الأرض المستوية نزلها الناس. وإذا كانت في بطن المسيل لم ينزلها الناس. وإذا كانت في بطن الوادي فهي حفرة غير عميقة تمسك الماء، ونزل الناس في ناحية منها. وقد غلب اسم الرحبة على أكثر من بلدة. والمقصود هنا: رحبة مالك بن طوق، وبينها ـ على ما يقول معجم البلدان ـ وبين دمشق ثمانية أيام ومن حلب خمسة أيام =

نحو الفرات، وبعث بعض قوّاده مع فرق من الجنود المجرّبين إلى مختلف الجهات لصدّ المغول عن التقدم. وكان المغول قد قطعوا معابر الفرات وأقاموا على شاطئه الذي يليهم استحكامات من الخنادق الحربيّة، فأصبح عبوره صعباً على عسكر بيبرس. ولما وصل بيبرس إلى الفرات ألقى بالسفن في الماء وأركب فيها قسماً من جنوده ليجتازوا النهر إلى الضفة المقابلة. وأخذ المغول يطلقون عليهم السهام من الضفة المقابلة، وشبّت بين العسكريين معركة شديدة. ثمّ استطاع قائد بيبرس سيف الدين قلاوون أن يقطع النهر، فهجم بجنوده على المغول وهزمهم، وعبر سائر عسكره الماء على ظهور الجياد وكانوا يطلقون السهام وهم يمسكون بأعنة الخيل، وبيبرس في مقدّمتهم.

واستولى عسكر المسلمين على معسكر الايلخانيين وأنقذ البيرة منهم، ثم صلّى المسلمون ركعتين شكراً لله على هذا الفتح الذي يعدُّ من الوقائع المهمة في تاريخ الشام وإيذاناً بنجاتها من الايلخانيين. وعادوا إلى الشام، بغنائم وافرة. وعاد بيبرس إلى مصر إلا أن جيشه في الشام لم يكفّ عن تعقّب الأرمن، فقام بحملة أخرى على بلاد ليون، وأعاد استباحة كيليكيا، وفرّ ليون من وجهه.

وحين كان عسكر بيبرس مشغولاً بالحرب في بلاد ليون وصل خبر بأن «أبقا» عازم على غزو الشام بنفسه. فأوقع ذلك اضطراباً بين أهل الشام، وفرَّ كثير من الناس من ضفة الفرات اليمنى إلى دمشق وغيرها. وقدم بيبرس إلى الشام سنة ٦٧٣هـ، وإذ لم يظهر أثر للايلخانيين سار إلى مدينة سيس عاصمة ليون، فغنم منها وعاد إلى دمشق.

وفي سنة ٦٧٤هـ، عاود الايلخانيون محاصرة البيرة وأخذوا يضربونها بحجارة المنجنيق، فأسرع بيبرس إلى نجدة أهلها. ولكن الايلخانيين رجعوا عنها قبل وصوله إليها فعاد إلى مصر.

= وإلى بغداد مئة فرسخ وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخاً. وهي بين الرقة وبغداد. وينسب إلى الرحبة هذه جماعة. وكان أسد الدين شيركوه ولّى الرحبة يوسف بن الملاح الحلبي وآخر معه من بعض القرى فكتب إليه يحيى بن النقاش الرحبي:

كم لك في الرحبة من لائم ... يا أسد الدين ومن لاح
دمرتها من حيث دبرتها ... برأي فلاح وملاح

وله فيه:

يا أسد الدين اغتنم أجرنا ... وخلص الرحبة من يوسف
تعزو إلى الكفر وتغزو به ... الإسلام ما ذاك بهذا يفي

وكان معين الدين بروانه رجلاً ذكياً متطلّعاً إلى المناصب العالية، وكان يبطن المودّة لبيبرس، ويرائي بإظهار الصداقة لليون ملك أرمينيا الصغرى و«أبقا» خوفاً. ومن أجل أن لا يرتاب به الايلخانيون جاء بنفسه إلى معسكر «أبقا» وحمل معه بنت السلطان ركن الدين السلجوقي زاعماً أنه إنما جاء ليزوجها منه كي لا يصار بها إلى بيبرس، وطلب جيشاً ليدفع به عن البلاد الرومية (الأناضول) أميراً سلجوقياً كان قد عصى وحمل معه ملكها ابن السنوات الأربع، وسار بروانه بالجيش بمعيَّة أخي «أبقا» إلى تلك البلاد فتغلب على الأمير العاصي وقتله وأعاد الملك إلى منصبه. وكان الأمير العاصي ينوي حمله إلى مصر على ما زعم بروانه، وقد زادت هذه الأمور في مكانته عند الايلخانيين.

وفي سنة ٦٧٥هـ، عزم الظاهر بيبرس على غزو الأناضول (البلاد الرومية) استجابة لدعوة فريق من الفارين من تلك البلاد، واطمئناناً منه إلى معونة بروانه. وسار من مصر بجيش جرار في ٢٠ رمضان من تلك السنة حتى وصل عن طريق حلب إلى حدود قلاع الشام. فبعث ليون ملك أرمينيا خبراً بذلك إلى معين الدين بروانه، إلا أن هذا صوّر الخبر للايلخانيين بأنه كاذب وضللهم عن الحقيقة، فظلوا غافلين إلى أن عرفوا بوصول جيش بيبرس إلى محلة أُبَلَسْتين[1] فسارع الايلخانيون وبروانه إلى تجهيز جيش ساروا به إلى ملاقاة بيبرس، وعلى قيادته «طوغون» بن «ايلكاي نويان» و«تودون نويان» أخو سونجاق». وتغلب عسكر بيبرس على عسكر الايلخانيين في العاشر من ذي القعدة سنة ٦٧٥هـ في صحراء «أبلستين» وقتل طوغون وتودون، ونُهب معسكر الايلخانيين وغنم المسلمون منه كثيراً وأسروا كثيراً، وكان بين الأسرى أحد أولاد بروانه وأحد أحفاده.

ثم سار بيبرس إلى قيسارية وأقام هناك ينتظر لعل بروانه يأتيه، لكن انتظاره كان عبثاً لأنّ بروانه فرّ يوم معركة أبلستين بعد الهزيمة إلى قيسارية ومنها إلى «توقات»[2] وهو يفكر كيف يعتذر إلى «أبقا» من هذه الهزيمة. وعاد بيبرس إلى الشام بعد أن أقام في الأناضول شهراً، إذ صعبت عليه وسائل الحصول على الطعام لجنده.

وفي هذا السفر عامل أهل تلك البلاد معاملة حسنة، وتحامى أن يصاب أحد من مسلميها بأذى من جنوده، ولامهم ولا سيّما رؤساء العسكر السلجوقي على مساعدتهم

(١) أو أبُلستان (البستان): واقعة في شرق قيسارية بين جبال طوروس وأعالي نهر جيحان.

(٢) توقات بالفتح ثم السكون: بلدة في الأناضول بين قونية وسيواس.

للايلخانيين، وقال: إن غايته من غزو هذه البلاد هي تحريرها من أسر الايلخانيين لا تخريبها.

وزاد خبر هزيمة الايلخانيين في أبلستين «أبقا» غضباً على غضب، فهي ثالث هزيمة يوقعها العسكر المصري والشامي في الايلخانيين خلال عشرين سنة. وقد انكسرت شوكتهم بعد أن ظلت مصانة من الأذى إلى ذلك التاريخ.

ومن ثمّ بادر «أبقا»، حين بلغه نبأ الهزيمة، إلى السير بنفسه إلى الأناضول حتّى دخل ميدان معركة أبلستين. وبعد أن ناح وتفجع كثيراً أمر بإحصاء قتلى الايلخانيين، وإذ رأى أن عددهم من عسكر بيبرس قليل بالنسبة إلى عددهم من عسكر الايلخانيين ازداد غضباً وقتل جماعة من رؤساء الجيش السلجوقي حليفه. وكان معين الدين بروانه قد جاء إليه فلامه لوماً شديداً، فاعتذر بروانه بأن العسكر الشامي وصل على حين غفلة منّا، فلم يتيسر لنا مجال لتهيئة وسائل الحرب.

وعمد الإيلخان «أبقا» إلى الانتقام فنشر عساكره بين قيسارية وأرزن الروم، وأمر جنوده بقتل مسلمي تلك البلاد قتلاً عاماً، فأنفذوا أمره.

وكان «أبقا» ينوي تعقب بيبرس، ولكن أمراءه ثنوه عن عزمه إذ رأوا أن لا صلاح في ذلك. فاكتفى الإيلخان بإرسال رسالة تهديد إلى بيبرس عدّ فيها تراجعه عن مقابلته جبناً، ووصفه باللص والثعلب. ووصلت هذه الرسالة إلى دمشق قبيل موت بيبرس.

أما بروانه فقد جعله «أبقا» في أول الأمر موضع الاحترام وكتم غضبه عليه واصطحبه معه إلى معسكر «آلاتاغ». وهناك حاكمه بحضور قوّاده فأثبتوا عليه ثلاثة ذنوب هي: أنه فرّ من وجه العدو، ولم يعلم «أبقا» بزحف بيبرس لما بلغ إليه خبر ذلك، ولم يحضر إليه بعد هزيمة أبلستين.

ولم يكن «أبقا» ينوي قتل بروانه. ولكن أبناء «تودون نويان» ونساء المغول المفجوعات ما زالوا به حتّى أمر أحد أمرائه بقتله، فقتله وقتل معه ستة وثلاثين من رجاله. وقطع الايلخانيون جسد بروانه قطعة قطعة.

أما الملك الظاهر بيبرس البندقداري فإنه، بعد رجوعه من الأناضول، ما لبث أن توفي في ٢٧ المحرم سنة ٦٧٦هـ، في دمشق بعد سبع وعشرين سنة من الملك. وأخفى أمراؤه خبر موته عن العامة وحملوا جثمانه إلى مصر متظاهرين بأنه حي، ونصّبوا خليفة له ابنه الملك

السعيد بركة، ولكنه عجز عن مقاومة أمراء المماليك المقتدرين، فجاء إلى الشام. وهناك سقط يوماً عن حصانه فمات.

ونصبوا مكانه أخاه وهو في السابعة من عرمه، وأصبح آلة بيد الأمراء لا سيما الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، وهو من أشهر قواد بيبرس المجربين. فلم يمض على تنصيب الملك الطفل غير سبعة أشهر حتى خلعه هذا الأمير واستولى على الملك في ٢٢ رجب سنة ٦٧٨هـ. ، واتخذ لنفسه لقب «الملك المنصور» وأصبح ملكاً على مصر.

وافتتح عهد قلاوون بمخالفة شمس الدين سنقر الأشقر له وخروجه عليه في دمشق، إذ كان هذا يطلب الملك لنفسه، وقد جمع حوله جماعة واتخذ لنفسه لقب «الملك الكامل» في السنة التي جلس فيها قلاوون على تخت الملك.

هزم قلاوون سنة ٦٧٩هـ، سنقر، ففر إلى البادية. وبعد مدة قليلة أخذ يكتب إلى «أبقا» رسائل يحرّضه فيها على غزو الشام. وفي أثناء ذلك استطاع أن يتسلط على بلاد اللاذقية وإنطاكية وصهيون من شمالي الشام. وفي سنة ٦٨٠هـ اعترف قلاوون بملكيته على تلك النواحي.

استجاب «أبقا» لدعوة «سنقر» فسار ومعه أخوه «منكوتيمور» بجيش من ثمانين ألف جندي إلى الشام والأناضول. وتوجّه «منكوتيمور» نحو عينتاب وحماه وحدود الأناضول. وتوجه «أبقا» نحو حدود الشام. وكان قلاوون يومئذٍ في حمص، فاستنجد بجميع أمراء بلاد الشام ومنهم سنقر.

هبّ المسلمون من كل ناحية إلى نجدته، وجاءه ـ في من جاء ـ سنقر يبذل له العون. ونشبت الحرب بين العسكرين يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠هـ بالقرب من مدينة حمص. وقد انهزم جناح عسكر المماليك الأيسر وتعقبهم الايلخانيون إلى ما يقارب حمص، وفرّ فريق منهم إلى دمشق. وثبت جناحهم الأيمن والقلب وأوقعا بمنكوتيمور هزيمة شديدة، وفرّ عسكر الايلخانيين.

وكان «أبقا» مشغولاً بمحاصرة قلعة الرحبة، فلما بلغ إليه خبر الهزيمة فرّ بجنده. وأصبحت وقعة حمص هذه رابع الانتصارات، بعد أبلستين والبيرة وعين جالوت.

مؤرخ معاصر يتحدث عن المعركة

قال حسن بن عمر المعروف بابن حبيب المتقدم ذكره في كتابه (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه) متحدثاً عن معركة حمص في الصفحة ٦٢ من الجزء الأول:

في شهر رجب (٦٨٠)[١] منها كان المصاف العظيم بين المسلمين وبين التتار، بظاهر حمص، وسببه أن أبغا بن هولاكو ملك التتار جمع وحشد وسار إلى جهة الشام، وكانوا نحو ثمانين ألفاً، ثم انفرد أبغا وذهب إلى الرحبة وجهز جيشه والمقدم عليهم أخوه منكوتمر إلى جهة حمص، وسار السلطان عز نصره بالجيوش الإسلامية من دمشق المحروسة وكان قدم إليها وهم نحو خمسين ألفاً، ورأس الميمنة الملك المنصور محمد بن أيوب، صاحب حماه، ورأس الميسرة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والتقى الفريقان واشتدت الحرب فاستظهر العدو أوّلاً وكسروا الميسرة واضطربت الميمنة وثبت السلطان بمن حوله من الأبطال، واستمروا إلى بعد العصر، وكثر القتل، وأشرف المسلمون على خطة صعبة، ثم تناخى الكبار وحملوا على التتار عدة حملات، وأنزل الله النصر، وجرح منكوتمر، فانهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، ودقت البشائر، وبقي السلطان واقفاً إلى أن نزل بعد هوي من الليل[٢]، وظفروا بالعدوّ المخذول، ثم أذن السلطان للعساكر الشمالية[٣] فانصرفوا، ورجع هو إلى دمشق المحروسة، والأسرى تقاد بين يديه، ثم عاد إلى الديار المصرية مؤيداً منصوراً، ولما بلغ الملك أبغا خبر هذه الكسرة، وهو على الرحبة يحاصرها، نكص على عقبه منهزماً، وكفى الله شرهم بمنه ولطفه.

ثم قال: ومن الكتب الواردة بالنصر والبشارة:

نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين، صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس تعلمه أننا ضربنا مصافاً مع العدوّ المخذول، على ظاهر حمص، يوم الخميس رابع عشر رجب سنة ثمانين وستمائة، وكان العدوّ في مائة ألف فارس أو يزيدون، والتحم القتال من ضحوة النهار إلى غروب الشمس، ففتح الله ونصر وساعدنا بمساعفة القدر، والحمد لله على أن أذل الأعداء وكسرهم وظفر المسلمين[٤] ونصرهم، وكتابنا هذا والفتح قد ضربت بشائره، وحلق طائره، وامتلأت القلوب سروراً وأولى الله المسلمين من تفضله علينا وعليهم خيراً كثيراً، فيأخذ المجلس حظه من هذه البشرى العظيمة، ويتقلد عقودها

(١) يوافق أولها ٢٢ نيسان (أبريل) ١٢٨١م.
(٢) أي ساعة من الليل ـ انظر لسان العرب والقاموس المحيط.
(٣) يقصد بها عساكر حماه.
(٤) في الأصل «الإسلام» وما أثبت هنا من درة الأسلاك ص٦٦ ليتفق وسياق الكلام.

النظيمة، والله تعالى يخصه بنعمه العميمة. (اهـ). وهذا الكتاب هو كالبلاغ الذي يصدر اليوم عن الحكومات.

أشرنا، في ما تقدم، إلى موت «أبقا» سنة ٦٨٠هـ، وعهده بالملك من بعده إلى ابنه أرغون، وما كان من تدبير آل الجويني إقصاء أرغون وتولية أخيه تكودار مكانه بعد أن اعتنق الإسلام، ثم ما كان من تغلب أرغون وعودته إلى الملك. وفي سنة ٦٩٠هـ مات أرغون وخلفه أخوه «كيخاتو»، وخلف كيخاتو «بايدو» الذي لم يستمر حكمه سوى ستة أشهر(١).

وخلف بايدو «غازان بن أرغون» (٦٩٥ ـ ٧٠٣هـ ـ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م) الذي لم يلبث أن أعلن إسلامه وتسمى باسم محمود غازان، وأسلمت الدولة بإسلامه.

كان إسلام أحمد تكودار باعثاً على إيقاف الصراع بين الإيلخانيين والمماليك ولكن إلى حين، لقصر مدّة حكمه. ففي سنة ٦٩١هـ، جهز الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذي كان قد خلف أباه سيف الدين قلاوون جيشاً كبيراً لغزو الايلخانيين في معاقلهم، بعد أن كان قَد أجلى الصليبيين نهائياً عن بلاد الشام، فسار نحو الفرات وحاصر «قلعة الروم» الواقعة على الشاطىء الأيمن من النهر قريباً من البيرة في شمالها، وكان فيها جماعة من الايلخانيين والأرمن يحفظونها.

فتح جيش الأشرف القلعة بعد ثلاثة أيام من المقاومة، وقتل حاميتها كلها وجماعة من سكانها وسماها «قلعة المسلمين» وأحرق كنيستها وهي يومئذ مقر الجاثليق الأرمني. ومن ثم اضطرّ الأرمن منذ ذلك التاريخ إلى جعل مدينة «سيس»، عاصمة كيليكيا، مقر جاثليقهم.

وقد وصل خبر محاصرة الملك الأشرف قلعة الروم إلى «كيخاتو» حين عودته من الأناضول، فأرسل جماعة من المغول لإنجاد حامية القلعة، وكان جيش الأشرف قد احتلّ القلعة قبل وصولهم.

---

(١) كان حكم «أبقا» بن هولاكو من سنة ٦٦٣ إلى ٦٨٠هـ وحكم تكودار بن هولاكو من سنة ٦٨٠ إلى ٦٨٣هـ وحكم أرغون بن «أبقا» من سنة ٦٨٣ إلى ٦٩٠هـ وحكم كيخاتو بن «أبقا» من ٦٩٠ إلى ٦٩٤هـ وحكم بايد بن طرغاي بن هولاكو ستة أشهر.

وبعد بضعة أشهر من هذه الواقعة، بعث كيخاتو؛ سفيراً إلى الملك الأشرف ومعه رسالة يقول فيها: إنه يفكر في اتخاذ مدينة حلب عاصمة له، ويهدده إن لم يسلمها إليه، باحتلال بلاد الشام كلها.

فأجابه الملك الأشرف بأنه اتفق له أن كان، هو أيضاً، يفكر، في ذلك الوقت، باسترداد بغداد من الايلخانيين وإعادتها كما كانت في السابق عاصمة الخلافة الإسلامية.

ولكن المشاكل الداخلية التي عرفها عهد «كيخاتو» وقصر المدّة التي حكم فيها «بايدو» صرفت هذين الايلخانيين عن إنفاذ فكرة الانتقام من سلطان مصر لاحتلال جيشه قلعة الروم وقيامه بأعمال قهر أخرى في نواحٍ أخرى.

وفي سنة ٦٩٣هـ، قتل الملك الأشرف. قتله ثلاثة عشر رجلاً من أمرائه ورؤساء مماليك أبيه، أشهرهم ثلاثة: قراسنقر وكان نائباً عن الملك الأشرف ثم عزله، وبيدرا، ولاشين، وكانا كذلك في منصب نيابة الملك، ثم عزلهما.

واختار الأمراء القاتلون «بيدر» سلطاناً ولقبوه «الملك القاهر»، إلا أن مماليك الأشرف ورئيسهم زين الدين كتبغا ثاروا عليه وقتلوه ونصبوا محمداً أخا الملك الأشرف، وهو في التاسعة من عمره، سلطاناً بلقب «الملك الناصر». وتوارى لاشين وقراسنقر عن الأنظار.

وعين السلطان كتبغا لنيابة السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعي، أحد أمراء الملك الأشرف، للوزارة.

إلا أن الأمراء ـ وقد صعبت عليهم التبعية لطفل ـ لم يلبثوا أن اتفقوا على قتل سنجر الشجاعي، فقتله كتبغا، وحبسوا الملك الناصر في قلعة، واختاروا كتبغا لمنصب السلطان ولقبوه «الملك العادل»، وذلك في ٩ المحرم سنة ٦٩٤هـ. أما قراسنقر ولاشين فقد ظهرا بعد الاختفاء والتمسا العفو من كتبغا، فعفا عنهما وعين لاشين نائباً للسلطان.

كان كتبغا من أسرى المغول، أسره المسلمون في وقعة حمص وربّاه السلطان قلاوون، ثم أعتقه من الرق. ودامت سلطنته سنتين، خالفه بعدهما لاشين وعزم على قتله، ففر كتبغا من وجهه إلى دمشق، واستولى لاشين على زمام السلطنة في المحرم سنة ٦٩٦هـ وتلقب بـ«الملك المنصور»، واختار غلامه منكوتيمور لنيابة السلطنة. ولاشين هذا من الرقيق الصقلبي.

وفي سنة ٦٩٧هـ، توجّه بجيش عظيم من مصر قاصداً حلب وهو ينوي أن يغزو منها

كيليكيا وعاصمتها سيس. وكان في ركابه في هذه الحملة أغلب الرؤساء والأمراء من مسلمي الشام والجزيرة، وهاجم هذا الجيش سيس ودخلها المسلمون مرة ثانية وغنموا كثيراً وأسروا كثيراً.

وكانت كيليكيا يومئذٍ كما كانت في السابق بيد الأرمن وملوكهم أبناء هيثوم. وقد ذكرنا سابقاً أن ليون بن هيثوم أسره الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٤هـ، ثم تخلص من الأسر وخلف أباه بعد وفاته على نحو ما ذكر سابقاً.

أحداث كيليكيا

ولما كان لأحداث كيليكيا ـ وهي المتّصلة بالشام ـ ارتباطات بأحداث الشام كان لا بد لنا من الإشارة إليها بإيجاز.

بعد وفاة ليون خلفه في سلطنة كيليكيا ابنه هيثوم الثاني، وظل في هذا المنصب إلى أول سنة من سلطنة غازان. وفي هذه السنة قام بزيارة لغازان، وبعد عودته لعاصمته سيس ذهب إلى القسطنطينية لزيارة أخته مريم زوجة ميخائيل أمبراطور القسطنطينية وصحب معاه أخاه طوروس، واستخلف أخاه الآخر سنباد (سنباط) نائباً عنه في سيس.

وفي غيابه استمال سنباد أعيان المملكة إليه. وفي سنة ٦٩٦هـ نادى بنفسه ملكاً على أرمينيا الصغرى وكيليكيا. وحسّن له عظيم النصارى في تلك النواحي أن يجعل مملكته في حماية البابا ففعل. وصوّب غازان له تسلطنه وزوّجه إحدى نسيبات الأسرة الإيلخانية.

ولما عاد هيثوم الثاني وأخوه طوروس من القسطنطينية، ورأيا ما آلت إليه الحال، قفلا راجعين إلى القسطنطينية يطلبان المدد من الأمبراطور، ولكنهما لم يحصلا إلا على مبلغ من المال. فاضطرًا للتوجّه إلى بلاذ الإيلخان. وفي هذه الطريق خاب مسعاهما أيضاً، إذ اعتقلهما الموظفون الإيلخانيون في قيسارية، وبعد قليل قتل طوروس وأعميت عينا هيثوم بأمرٍ من غازان.

ولكن إحدى عيني هيثوم شفيت وعادت مبصرة. وإذ كان أخوه سنباد السبب في هذه المصائب كلها فقد عزم على الانتقام منه. وقد ولدت خلافات الأخوين هذه خلافات ودسائس بين أعيان أرمينيا وأمرائها. وحين هاجم عسكر الملك المنصور حسام الدين لاشين كيليكيا وأرمينيا الصغرى سنة ٦٩٧هـ، كانت تلك البلاد على تلك الحال من الخلاف والشقاق.

وأدى هذا الهجوم إلى احتلال المسلمين مدينة سيس وأكثر بلاد سنباد وسقوط هذا الملك عن العرش وتعيين أخيه من قبل حسام الدين لاشين ملكاً على أرمينيا، وتقرر جعل نهر جيحان حداً بين ممتلكاته وبلاد المسلمين. وجدد لاشين عمارة البلاد التي احتلها وسلمها إلى أمرائه، إذ كانت أولى غاياته من هذه الحملة إشغال أمرائه والحصول على بلاد جديدة يسلمها إليهم لعله يشغلهم بذلك ويصرفهم عن تنصيب مملوكه منكوتيمور سلطاناً.

أراد لاشين أن يرتاح من شر أمرائه المقتدرين؛ فأشاع بين الناس أن الايلخانيين قادمون إلى غزو الشام. وجعل ذلك ذريعة إلى إرسال «قبشق» أو «قبشاق» حاكم دمشق إلى حلب، وأمر حاكم حلب بأن يعتقل فريقاً من أمرائه المقيمين فيها ويسمهم. وعرف هؤلاء قصد الحاكم هذا ففرّوا والتحقوا بقبشق، وكان هذا قد تنبّه إلى خطة لاشين.

تحريض غازان على غزو الشام

كان من المؤمّل أن يكون إسلام غازان باعثاً على همود التصارع بين المماليك والإيلخانيين، كما كان الأمر عندما أسلم تكودار. ولكن ما ثار بين المماليك من خلاف جعل فريقاً منهم يلجأ إلى غازان ويحرّضه على الفريق المنافس له.

فبعد لجوء من لجأ من المماليك المغضوب عليهم من لاشين إلى قبشق، سعى هذا إلى حمل لاشين على العفو عنهم، فلم يوفَّق، فسار ومعه أولئك الأمراء فعبروا الفرات في أواخر ذي القعدة سنة ٦٩٧هـ قاصدين إلى غازان ليستجيروا به. ولاقاهم الحكام الإيلخانيون الذين مروا بهم في ديار بكر وماردين بالإكرام وبعثوا معهم مرافقين يصحبونهم إلى بغداد، فلما وصلوها خفّ عمال غازان إلى استقبالهم، فأنزلوهم منزلاً لائقاً، وأحاطوهم بالإكرام والاحترام. وخرج غازان بنفسه مع جماعة إلى الترحيب بهم، وأنعم عليهم إنعامات كثيرة بلا حساب. فحرّضوه على غزو الشام ومصر ووعدوه بأن يكونوا في ركابه محاربين معه إن هو غزاهما.

وهكذا تجدّدت الأحقاد ما بين المماليك والإيلخانيين في عهد غازان الملك المقتدر الطامح إلى السيطرة والجاه، وأثار وصول أولئك الأمراء ما كان كامناً في نفسه من التطلّع إلى الشام ومصر، وجعله يحزم أمره على إنفاذ ما كان طامحاً إليه.

في سنة ٦٩٥هـ، لجأ نحو عشرة آلاف مغولي ممن لم يسلموا من طائفة «أويرات» برئاسة «طرغاي»، إلى المسلمين خوفاً من غازان. وكان طرغاي هذا عوناً لبايدو على قتل كيخاتو، فلمّا وصل غازان إلى السلطنة طلبه ليقتصّ منه. ففرّ طرغاي ومغول «أويرات» إلى

الشام عائذين بالملك العادل كتبغا، فأكرم هذا وفادتهم، وبذل لهم الخلع والمال، وأسكنهم في بلاده.

وفي سنة ٦٩٧هـ، خرج الأمير المغولي سلامش على السلطان في الأناضول، فلما أرسل غازان بعض أمرائه لقمعه استنجد بلاشين فأنجده بالعساكر. ولكن الأمراء الغازانيين قتلوا قائد الجيش المصري وجماعة من عسكره وتغلبوا على سلامش، ثم قبضوا عليه وقتلوه.

هاتان الواقعتان، إضافة إلى لجوء أمراء لاشين إلى غازان وتحريضهم له على غزو الشام ومصر، جعلت الإيلخان يصمّم على مهاجمتهما.

وفيما هو مشغول بتهيئة الأمور وصله خبر بأن عدة آلاف من المسلمين قدموا من الشام وهجموا على ديار بكر واستولوا على قلعة ماردين، وتقدّموا إلى حدّ «رأس العين» وأنهم ارتكبوا شنائع كثيرة في الأهلين المسلمين من القتل والنهب والإغارة حتى على المساجد. وكان ذلكَ سنة ٦٩٨هـ.

أثارت هذه الأنباء غازان كل الإثارة. وبدا واضحاً أن تطوّر الأحداث جعل الصدام بين المملكتين الإسلاميتين أمراً محتوماً.

ولكي يبرّر غازان تحركه إلى الشام، وبما أنه أصبح ملكاً مسلماً، فقد عمد إلى ما يعمد إليه الملوك المسلمون من إسباغ الشرعيّة على أعمالهم باستفتاء الفقهاء والأئمة، فأفتوه كلهم محرّضين له على دفع المعتدين عن البلاد الإسلامية وحمايتهامن المهاجمين. وبهذا لم يعد غازان يجد مانعاً من الهجوم على الشام ومصر. وهي أمنية قديمة في نفسه.

وهنا لا بدّ من أن نشير إلى أن الملك المنصور لاشين قتل على يد جماعة من مماليكه كما قتل مملوكه منكوتيمور، وأعاد أمراء العسكر الملك الناصر محمد بن سيف الدولة قلاوون الألفي إلى منصب السلطنة مرة ثانية، وكان قد خلع قبل مدة قليلة. واختصّ كل واحد من هؤلاء الأمراء بمهمة من مهام الملك.

الزحف إلى الشام

في الخريف من سنة ٦٩٩هـ، سار غازان من تبريز بجيش من ثلاثين ألف جندي قاصداً بلاد الشّام، وجعل قتلغ شاه آمراً على طلائعه، وبلغ الفرات من طريق مراغة واربل والموصل وماردين. وفي أثناء مسيره هذا كانت تتوالى عليه الإمدادات من كل ناحية حتى بلغت عدة جيشه حين وصل الفرات تسعين ألف جندي.

ولما وصل خبر مسير غازان إلى الملك الناصر وأمرائه، جمعوا جيشاً من الشام ومصر

وتوجهوا به إلى دمشق، حيث أقاموا مقر قيادتهم العسكرية. وكان ما يرجع إلى الملك الناصر من شؤون الدولة والعسكر كله بيد بيبرس جوشنكير وسيف الدين سلار نائب السلطنة. ولم يستطع هذان أن يجهزا جيشاً كما يجب أن يكون الجيش، ولا كانا مهيئين لمقابلة عساكر غازان، وذلك بسبب سوء التدبير ومطامع الأمراء.

وتقدم الجيش الإيلخاني، فعبر الفرات وسلك طريق عينتاب وحلب منحدراً إلى دمشق. وفر الناس من البلدان الواقعة على طريقه خوفاً ورعباً، حتى إن «بلبان طباخي» حاكم حلب و«قراسنقر» حاكم حماه فرّا إلى حمص.

وكان همّ غازان قبل كل شيء ضعضعة عسكر الملك الناصر، ومن ثم لم يهتم بمحاصرة قلعتي حلب وحماه، بل خفّ مسرعاً إلى بلدة «السلمية»[١] الواقعة شرقي نهر العاصي، وهناك وقع أول تصادم بين عسكره والعسكر المماليكي.

ولم يكن جيش الملك الناصر على وضع حسن بسبب نفاق الأمراء والمماليك. وكان مغول «أويرات» على الخصوص ناقمين سيئي الظن بسبب تقدم جماعة من عسكريي المماليك عليهم. ولما وصلوا إلى غزة وهم في طريقهم من مصر إلى الشام تواطؤوا على قتل الملك الناصر وكف يد بيبرس وسلار عن التصرّف في أمور الدولة وإعادة الأمير كتبغا.

وهذه المؤامرة، وإن تكن قد انكشفت وقتل جماعة من مغول «أويرات» الذين دبّروها عقاباً لهم على خيانتهم لمخدومهم، كانت سبباً في وقوع الاختلاف والشقاق وأضعفت النفوس في مواجهة العدو. وعلى الضد من ذلك كان وصول تلك الأخبار إلى معسكر غازان سبباً في تقويته. وأيقن غازان أن عسكر مصر والشام تختلف حاله اليوم عنها في أيام الظاهر بيبرس البندقداري وقلاوون اختلافاً عظيماً، وأن خصمه ليس على ما كان عليه أولئك الماضين من قدرة في تجهيز الجيوش والضرب بالسيوف.

ووقعت الحرب بين العساكر الإيلخانية وعساكر الملك الناصر عصر الأربعاء ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ، في «مجمع المروج»[٢]. وكان مع غازان تسعون ألفاً من جنده في

(١) تقع السلمية في سهل مديد على أبواب صحراء الشام من الجهة الغربية في المنطقة الوسطى من سوريا، وهي مع مدينتي حمص وحماه تشكل مثلثاً زاويته الأولى حمص، وإلى الشمال حماه، وشرقي حماه تقع السلمية. وبين حمص والسلمية خمسون كيلومتراً. وبينها وبين حماه خمسة وثلاثون كيلو متراً. فهي تقع إلى الشرق من المدينتين وعلى سيف الصحراء التي كانت تسمى بادية السماوة.

(٢) يحدد المؤرخون القدامى موقعه بأنه: على بعد نصف ميل من مدينة حمص.

القلب، وكان معه أيضاً الأمير شوبان وأمير آخر من أمراء الإيلخانيين وقتلغ شاه على ميمنته ومعه مولاي وآخر من أمراء الإيلخانيين. وعلى ميسرته «كربوغابهادر» وأربعة آخرون من رؤساء العسكر.

وكان العسكر المماليكي يتألف من ٢٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ جندي على اختلافٍ في الرواية. وكان على القلب منه الملك الناصر ومعه سلار وبيبرس، وعلى الميمنة عيسى بن مهنا أمير عرب البادية، وبلبان طباخي حاكم حلب. وعلى الميسرة بدر الدين بكتاش وبعض الأمراء الآخرين.

تزعزت ميمنة العسكر المماليكي على أثر حملة رماة السهام الإيلخانيين، فولّى جنودها الأدبار منهزمين. ولكنّ الميسرة ثبتت وكادت تهزم عسكر غازان إلا أن قبشق ما زال به يثبته ويقوّي قلبه، فثبت واستمرّ في المقاومة، وجمع إليه من كان قد تفرّق من جنده، وحمل على القلب من العسكر المماليكي فضعضعه، وتضعضعت الميسرة أيضاً بعد ثباتها طويلاً، فسارع جنودها إلى الفرار لا يلوون على شيء، وبلغت سرعتهم مبلغاً عظيماً حتى ظن غازان أن في الأمر خدعة، فاحتاط ولم يتعقبهم، فعادوا أدراجهم سالمين.

انهزم الملك الناصر بجنده إلى دمشق. ثم غادرها عائداً إلى القاهرة. وسار العسكر الإيلخاني يتعقّب المنهزمين، فاستولى على دمشق وغزة، وغنم كثيراً، ثم رجع وسلمت دمشق من السلب والقتل إذ كان قبشق قد حصل من غازان على أمان للدمشقيين(*).

(*) قلنا فيما تقدم أن (ابن حبيب) كان معاصراً لهذه الأحداث وهو ملتزم جانب المماليك مشيداً بهم، وقد ألف كتابه (تذكرة النبيه في أيام المنصورو وبنيه) ألفه لخدمة المنصور، وما يذكره عن الأحداث يشبه ما تذكره وسائل أعلام الدولة في هذا العصر.

وقد تحدث عن وقعة (مجمع المروج) بما يلي:

فيها (سنة ٦٩٩هـ ١٢٩٩م) وصل غازان بن أرغون بن أبغا بن هلاكو ملك التتار بجمع عظيم من المغول والكرج وغيرهم إلى الشام ونزل على وادي مجمع المروج، وهو نصف مرحلة من حمص، وتوجه السلطان أيده الله بالعساكر الإسلامية حتى نزلوا ظاهر حمص، ثم ساروا إلى جهة المجمع المذكور، والتقى الفريقان عصر يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الأول منها، وجرى بينهم قتال عظيم كانت عدة القتلى فيه من المسلمين نحو ألف فارس وعدة القتلى من التتار نحو أربعة عشر ألفاً، واشتدّ الخطب وحمي الوطيس فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة، وتأخر السلطان إلى جهة حمص حتى أدلك الليل، فولت العساكر الإسلامية منهزمين وتبعهم التتار إلى غزة والقدس وتلك البلاد، وأخذوا لهم شيئاً كثيراً، ثم دخلوا إلى دمشق، واستولوا عليها، وصادروا أهلها، ونهبوا الصالحية، وأسروا منها جماعة، وجاروا وعسفوا وهربوا وحرقوا، وضبط ماحمل إلى =

وبعد قليل من هزيمة «مجمع المروج» هيأ الملك الناصر جيشاً آخر. وترك قبشق والأمراء الآخرون الذين كانوا قد لجأوا إلى غازان عسكر الإيلخانيين وهربوا من دمشق إلى مصر، وعادوا إلى الملك الناصر مرة ثانية. وجدد سلار وبيبرس في مصر تجهيز عسكرهما وعوَّضا خسائره حتى أصبح مهيأً للنزال.

فأخافت أنباء هذه الاستعدادات الإيلخانيين، وزاد في خوفهم أن غازان كان قد عاد إلى تبريز لرد حملة الأتراك الجغتائيين على حدود خراسان. واشتد الحرّ، فترك عسكر الإيلخانيين الشام.

وأعاد سلار وبيبرس الشام إلى الملك الناصر، وعهدا بدمشق وحلب وحماه إلى مماليك مثل: جمال الدين آغوش، وقراسنقر، وكتبغا وغيرهم.

قال في «حبيب السير»:

«بعد رجوع غازان حاصر قتلغ شاه نويان قلعة دمشق. وادّعى أحد الخبراء المنجنيقيين أنه قادر على احتلال هذا الحصن بضربه بالحجر، فأمر قتلغ شاه بتهيئة ما يحتاج إليه الخبير.

وعرف قائد حامية القلعة أن الخبير المنجنيقي إن أتيحت له الفرصة يستطيع بما له من مهارة كاملة في فنه أن ينقض هذا الصرح. ولذلك قال لبعض الشجعان من جماعته: كل من كفانا شر هذا الشخص أعطيه ألف دينار. فتقدم لهذا العمل أحد مشاهير العيّارين[1] فغيّر لباسه

= خزانة غازان فكان ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم، سوى ما وصل إلى غيره، وأقاموا بالشام نحو أربعة أشهر، ثم رحلوا إلى بلادهم (اهـ).

ونلاحظ هنا أنه يسمى غازان وقومه (التتار) ولا يشير إلى إسلامهم، بل يسمي المماليك (العساكر الإسلامية)، في حين أن الفريقين المتصارعين مسلمون، وكل منهما طامع بالسيطرة على البلاد العربية، وأي منهما انتصر فهو غريب عن البلاد.

ومع أن غازان وقومه أصبحوا يسمون (الإيلخانيين) وانفصلوا عن التتار، فابن حبيب يصر على تسميتهم بالتتار، ليوهم قراءه بأنهم نفس التتار الوثنيين. وهذا يندرج في مصلحة المماليك لتحريض المسلمين على الإيلخانيين المسلمين.

(١) العيّار لغة: الكثير المجيء والذهاب في الأرض، وقيل هو الذكي الكثير التطواف. وحكى الفراء: رجل عيار إذا كان كثير الحركة والتطواف ذكياً. وقال ابن الأعرابي: والعرب تمدح بالعيار وتذم به يقال: غلام عيار نشيط في المعاصي، وغلام عيار نشيط في طاعة الله.

والعيّارون ظهروا في القرن الرابع الهجري ولم تكن حركتهم إلا وليدة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة وقتذاك. والمؤرخون يصمون العيارين بأنهم لصوص وأن حركتهم لم تقم إلا لإكثار الفوضى والفساد. ولكن بإمكاننا أن نتلمس في بعض أعمال كبار العيارين صفات الإنسانية والرجولة.

وخرج من القلعة عند انتهاء صلاة العشاء، إذ كان الخبير المنجنيقي غائباً عن بيته، فدخل البيت وجلس في ركن مظلم. فلما عاد الخبير بادره هذا المغامر بطعنة سكين ثم احتز رأسه، وانطلق راكضاً من البيت شاهراً السكين حتى دخل القلعة بسرعة البرق اللامع.

وعلى هذا توقف فتح دمشق. وأخذ قبشق والمصريون متواطئين هم وأهل القلاع يغيرون متخفين نهاراً ومتسترين بالظلام ليلاً على الإيلخانيين، فيسرقون حوائجهم وأموالهم ويقتلون كل من يلقون منهم. فرأى قتلغ شاه أن المصلحة في التراجع، فعاد وفي صحبته سائر أمراء الشام وحكامها. وحين عبروا الفرات غرق منهم جماعة كبيرة. ووصلوا إلى ولاية الموصل حيث كان غازان». ا هـ.

عاد غازان من الشام فوصل إلى مراغة في ١٥ رمضان سنة ٦٩٩هـ ومنها ذهب إلى «أوجان» ودخل تبريز في شهر ذي الحجة.

الزحف ثانية إلى الشام

كان الاستيلاء مجدداً على الشام هدفاً جعله غازان نصب عينيه، وكان يقضي أوقاته في القيام بإصلاحات داخلية وتنظيم أمور الملك، منتظراً سنوح الوقت المناسب لتحقيق هذا الأمر.

وفي غرّة المحرم سنة ٧٠٠هـ، عزم على تجديد الهجوم على الشام. وفي هذه المرّة اختار فصل الشتاء للهجوم، وبعث قبل أن يخرج من تبريز قتلغ شاه على مقدمة عساكره، ثم سار هو حتى اجتاز الموصل ودخل حلب فهرب أهلها منها، وفرّ حاكمها قراسنقر إلى حماه، وثبت كتبغا مقاوماً في دمشق.

فلما وصل نبأ قدوم الإيلخانيين إلى الشام للملك الناصر بادر إلى توفير المال وجمع العسكر، وهيّأ قوّاته بعجلة وسار بها نحو الشام. إلا أن جيشه لقي صعوبات كثيرة في طريقه من الأمطار المتوالية والوحول، وانسدت الطرق ونفقت العلوفة، فعاد السلطان بعسكره إلى مصر. وابتلي عسكر الإيلخانيين أيضاً بمثل ذلك فمات كثير منهم ونفق كثير من خيولهم، فاضطرّ غازان إلى الرجوع.

وبعد ثلاثة أشهر من تراجع غازان عن الشام، بعث برسالة إلى الملك الناصر مع نصير الدين التبريزي والقاضي قطب الدين الموصلي جاء فيها: إنّ مسلمي مصر والشام يكونون آمنين من تعرض الإيلخانيين لهم إن هم ذكروا اسم غازان في الخطبة ونقشوه على نقودهم

وأدوا الخراج إليه. وإن خالفوا؛ فسلكوا سبيل العصيان حل بهم ما حلّ بشاهات خوارزم على يد الجنكيزيين.

وأنعم الملك الناصر على رسولي غازان هذين وخلع عليهما. وجعل الجواب على مقترحات الإيلخان متوقفاً على إرسال سفراء من قبله إلى معسكر الإيلخان لبحث هذه المقترحات.

وحين كان غازان قاصداً الشام التقى به السفيران، وهو في طريقه عند مدينة الحلة، فأبلغاه نتيجة سفارتهما.

وفي جمادى الأولى، من تلك السنة، حمل رسل من الملك الناصر رسالة جواباً إلى غازان؛ وقد كتب اسم الملك الناصر عليها بالذهب، ولم يراع فيها الاحترام للإيلخان إلا قليلاً. وأخبره فيها أن خراج ممالك الشام ومصر وقف على الجهاد وحفظ الثغور والحدود من الممالك الإسلامية، . وليس فيه فضلة عن ذلك؛ فيتعهد بدفعها إليه. وأما ضرب النقود فلا مانع من أن ينقش على وجهٍ منها اسم الخليفة أمير المؤمنين واسم السلطان محمود غازان، وعلى الوجه الآخر، بعد ذكر لا إله إلا الله، اسم الملك الناصر.

وبعث الملك الناصر مع الرسالة صندوقاً من الأسلحة إلى غازان.

واستنبط الإيلخان، من هذا الجواب، أن سلطان مصر يؤذنه بأنه حاضر لمقاتلته وصدّه. فغضب غضباً شديداً وأمر بأن يتهيأ أمراء الجيش ورؤساؤه للهجوم على الشام.

وفي جمادى الآخرة سنة ٧٠٢هـ، عبر غازان الفرات من مكان قريب من الحلة، ثم انطلق على امتداد شط الفرات نحو الأنبار وسنجار. وفي رجب من تلك السنة نزل «عانه». وهناك قدّم عبد الله وصّاف الحضرة الشيرازي، مؤلف كتاب «تاريخ وصاف» كتابه هذا إلى غازان بتوسط سعد الدين الساوجي ورشيد الدين فضل الله الهمذاني؛ فأنعم عليه الإيلخان وأكرمه. وكان عمر «وصّاف» يومئذ لا يتجاوز الأربعين عاماً.

ومكث غازان معسكراً في «عانة» بضعة أيام، ثم نقل مركز عسكره إلى نواحي قلعة الرحبة في ساحل الفرات الأيمن بين عانة والرقة وضرب حصاراً على أطراف تلك القلعة.

ودعا الأمراء الإيلخانيون، وسعد الدين، ورشيد الدين، الأمير علم الدين سنجر قائد حامية القلعة إلى التسليم والطاعة. فبعث هذا بشيءٍ من العلوفة إلى المعسكر الإيلخاني وامتنع عن تسليم القلعة معتذراً بأن الرحبة حد الشام، وتسليمها يفتح ثغرة في قواعد المسلمين، ومن

يقدم على تسليمها يعتبر خائناً. ووعد غازان بأنه إذا وفق إلى احتلال الشام فإنه لن يمتنع عن تسليمها إليه. وقبل غازان عذره وانصرف عن الرحبة، واتّجه إلى حلب في ٦ شعبان، وانحدر إليها أيضاً الأمير شوبان والأمير مولاي وقتلغ شاه من طريق الرقة.

فلما وصل خبر هجوم الإيلخانيين على الشام إلى الملك الناصر سارع إلى إرسال بيبرس جوشنكير مع عسكر لنجدة حاميتها، فخفّ هذا إلى ملاقاة قتلغ شاه، وكان هذا يقود جيشاً عدته بين أربعين وثمانين ألف جندي على اختلاف في الروايات. وإذ رأى بيبرس أن قوات الإيلخانيين تفوق قواته كتب إلى الملك الناصر يطلب منه الحضور بنفسه إلى الشام.

واتخذت القوات الشامية مدينة حماه مركز اجتماعها، فجاءتها حاميات طرابلس وحمص وعسكر دمشق وتجمعوا فيها محيطين بالأمير كتبغا، وكان مريضاً.

وأرسل الأمير كتبغا جماعة من عسكره بقيادة «أسند مركرجي» لحماية الثغور على ساحل الفرات، والملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء المؤرخ المشهور، وكان أميراً على حماه، لصد الإيلخانيين الذي كانوا يواصلون تقدّمهم.

وفي العاشر من شعبان تمكّن هذا الجيش من كسر الإيلخانيين، فأسروا جماعة منهم وردوا طليعة جيشهم على أعقابها، ثم عادوا إلى معسكرهم.

وكان هذا النصر مقدمة للنصر الكبير الذي أعقبه بعد مدة قصيرة.

وفي الثالث من شهر شعبان، سار الملك الناصر يقود جيشاً جراراً من القاهرة قاصداً الشام، وكان بيبرس جوشنكير قد سبقه إليها، كما ذكرنا من قبل.

أما الإيلخانيّون فإنهم بعد انكسارهم في العاشر من شعبان رجعوا قاصدين حماه. وأقام الأمير زين الدين كتبغا أبا الفداء على حماه وذهب إلى دمشق. وكان كتبغا في هذه الأثناء مريضاً يسار به على محمل.

وفي ذلك الوقت، وقع أهالي دمشق في حيرة كلية لا يعرفون ماذا يفعلون، وشملهم اضطراب وتشتت هائلان، وتردّدوا لا يدرون هل يسارعون إلى صد الإيلخانيين أم ينتظرون العسكر السلطاني. لذلك ترك المدينة جماعة من أهاليها رجالاً ونساءً وأطفالاً وقد وهنت عزائمهم لا يملكون ثباتاً. واغتنم الإيلخانيون هذه الفرصة فتقدّموا إلى أطراف المدينة وعسكروا في الغوطة بالقرب من مرج الصفر. واتفق أن كان وصول الإيلخانيين إلى المرج حين وصول جوشنكير ومقدمة عساكر الملك الناصر.

وكان عدد الجيش الإيلخاني خمسين ألف جندي، وآمره قتلغ شاه يرافقه الأمراء: شوبان وتيتاق ومولاي وسونتاي وغيرهم. وهناك صفوا جيوشهم للقتال.

وتهيّأ الملك الناصر، وقد وصل إلى الميدان في الوقت المناسب، تهيأ للحرب ومعه الخليفة أبو الربيع سليمان المستكفي بالله، وحسام الدين الحاجب سالار، وسيف الدين سالار، وجمال الدين آغوش، وبيبرس جوشنكير والأمير قبشق وغيرهم من أمراء بلاد الشام المختلفة وحكامها.

ونشبت الحرب في الثاني من رمضان سنة ٧٠٢هـ، وهالت كثرة معدات الجيش المماليكي قتلغ شاه في أول الأمر، فعزم على الانصراف ولكن الأمير شوبان منعه، وغامر الإيلخانيون فحملوا على جيش الملك الناصر. وتمكن الأمير شوبان وتيتاق من كسر الجناح الأيمن من الجيش المماليكي وقتل آمره حسام الدين وأسر الإيلخانيون الأمير قبشق وجميع عساكر هذا القسم. ولكن القلب والميسرة من جيش الملك الناصر تغلّبا على الإيلخانيين وأوقعا بهم هزيمة شديدة. وأسر تيتاق وفر الأمير شوبان. واغتنم قتلغ شاه وغيره من الأمراء فرصة دخول الليل فلجأوا بمن بقي معهم من الإيلخانيين تحت جنح الظلام إلى جبل مشرف على مرج الصفر، فأمر الملك الناصر بمحاصرتهم.

ولما طلع الصبح ورأى الإيلخانيون كثرة العساكر المماليكية بادروا إلى الفرار. واتفق أن مرّوا في سبخة فعلق كثير منهم في وحلها وتعقبهم الجيش المماليكي. وأمر الملك الناصر سيف الدين سلار بأن يتبعهم، فتبعهم إلى شاطىء الفرات، وهو في أيام فيضانه، فصعب عليهم عبوره وغرق جماعة منهم، وسلب الأعراب جماعة آخرين، ووصلت بقية قليلة منهم إلى بغداد في ١٩ رمضان والتقت غازان خافضة الرأس.

جبر انتصار «مرج الصفر» انكسار «مجمع المروج» على أحسن وجه، وأُسر من الإيلخانيين عشرة آلاف وغنم منهم عشرون ألف فرس. وكان من الأسرى الأمير سونتاي، وكين جو، وتيتاق وجماعة أخرى من الأمراء. وأطلق الحمام الزاجل وسُيّرت الرسل ينشرون البشرى بالنصر في مختلف النواحي. ودخل الملك الناصر دمشق في غاية الجلال، ثم عاد إلى القاهرة.

تولى بعد محمود غازان أخوه محمد خدابنده أولجايتو، وفي مطلع سنة ٧١٢هـ حدث اختلاف بين الملك الناصر وجماعة من رجاله من الأمراء والقواد أشهرهم قراسنقر حاكم دمشق وآغوش أفرم صاحب حلب، ففروا مع فرسانهم إلى الإيلخان محمد خدابنده أولجايتو

خوفاً من الملك الناصر، وحسّنوا للإيلخان غزو الشام، ولم يكن الأمر بعيداً عن تفكيره، فعزم على ذلك وهيّأ جيشاً سار به من الموصل صوب الفرات حتّى بلغ قلعة الرحبة، وهي عند حدود الشام على شاطىء الفرات، فحاصرها.

وصحبه في هذه الحملة قراسنقر، وأفرم، وكانت بين بدر الدين قائد حامية القلعة وبين أفرم صداقة، فطمأن هذا محمد خدابنده، إلى أنه سيحمل القائد على التسليم. لكن بدر الدين رفض أن يسلم، فاضطرّ خدابنده إلى استعمال المنجنيقات والنفاطات لفتح القلعة. بيد أن المدافعين عنها أحسنوا الدفاع وعجز أولجايتو عن فتحها. وأعوزه الزاد وشق عليه العمل، فضجر من مواصلة الحصار. وانتهى الأمر إلى عقد الصلح بتوسط رشيد الدين فضل الله الهمذاني وقاضي الرحبة، وعاد أولجايتو في ١٦ رمضان. ولم يفكر بعدها بغزو الشام(*).

(*) من أهم مصادرنا في بحث (غارة المغول): (تاريخ المغول لعباس إقبالِ)، وكتاب (ابن الفوطي) للشيخ محمد رضا الشبيبي، وكتاب (جامع التواريخ) لرشيد الدين فضل الله الهمذاني، وما نقل في الدراسات عن كتاب (الحوادث الجامعة)، وكتاب (العراق بين احتلالين) للعزاوي.

الفصل السابع

غـارات الصليبيين[1]

الراهب الفقير الزاهد بطرس، الفرنسي المولد الذي لبس الصوف الخشن وانقطع للعبادة في إحدى المغارات، ثم عنّ له أن يترك ذلك كله ويقصد بيت المقدس لزيارة ما يعتقد أنه قبر المسيح ـ بطرس هذا يمكن أن يعتبر المحرِّك الحقيقي لما عُرف في التاريخ باسم الحروب الصليبية، فإنه لما وصل إلى القدس، ورأى بعينيه أنّ قبر المسيح في أرض تخضع لحكم غير نصراني، لم يكن من همه أن يتحقق عن حقيقة هذا الحكم، وعن التزامه باحترام المقدسات النصرانية، ورعايته لرجالها، بل كان همه الإصغاء بكل جوارحه إلى البطريرك سمعان وهو يحرضه على استنفار

---

(١) الحروب الصليبية لم تلق من الباحثين العرب ما كان يجب أن تلقاه من الدراسات الموسّعة، ولم يُعْنَ المؤرّخون العرب بكتابة تاريخ مفصّل لها، على عكس الأوروبيين الذي كانت هذه الحروب موضع عناية باحثيهم ومؤرّخيهم وشعرائهم، سواء في القديم أو الحديث.

ومن أوسع ما كتب عنها في هذا العصر ما كتبه المؤرخ الفرنسي رينيه غروسيه في كتابه: Histoire des croisades et du royaume franc de Jerusalem الذي نشره ما بين عام ١٩٣٥ و١٩٣٨ في ثلاثة مجلّدات. ويمكن اعتباره أكبر موسوعة في هذا الباب منذ كتب: ويلكن Wilken وميشو Mihaud مؤلفيهما الكبيرين في أوائل القرن التاسع عشر.

وقبيل الحرب العالمية الثانية تكونت لجنة من بعض أعضاء أكاديمية الدراسات الوسيطة الأميركية بالولايات المتحدة، لتنظيم مؤلّف كبير في خمسة مجلدات عن الحروب الصليبية، يشترك في تحرير فصوله جمهور كبير من الأخصائيين في تاريخ العصور الوسطى بأمريكا وأوروبا. ولكن حالت ظروف الحرب العالمية دون تحقيقه. ثمّ بُعِثَ المشروعُ من جديد بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وذلك تحت رعاية جامعة بنسلفانيا بمدينة فيلادلفيا. وكان المقدّر أن يبدأ هذا الكتاب بالظهور سنة ١٩٥٠ ولم نعد ندري إلى أين انتهى أمره.

النصرانية في أوروبا لاسترداد قبر المسيح من سلطة المسلمين. فعاد إلى أوروبا قاصداً روما حيث قابل البابا أُربان الثاني، وأبلغه تحريض بطريريك القدس، واستثار في البابا كوامنه الحاقدة، فأمره البابا بالتجوال في أوروبا محرّضاً، داعياً.

امتثل بطرس لما أُمر به وركب بغله وحمل صليبه هاتفاً في المدن والقرى، في الشوارع والأزقة، في الأديرة والكنائس، في كل مكان يمكن أن يصل إليه ببغله، أو يدخله بقدميه، منادياً بالويل والثبور، غير مقتصر على الدعوة إلى إنقاذ المكان، بل إلى إنقاذ السكان، مصوراً حالهم بكل ما يمكن أن يسعفه به خياله من صور الإذلال والاضطهاد.

فنفرَ الناس إليه حيث كان يحل، مُقبّلين ملابسه، متوزعين للتبرك قطعاً من إكاف بغله، ونتفاً من شعراب الذيل والقوائم، مرسلين دموعهم مُصعّدين زفراتهم، معاهدين له بتقديم ما يملكون حتى حياتهم لإنقاذ أورشليم.

وإذا كانت الحروب الصليبية تُنسب إلى البابا أُربان الثاني، وإذا كان هو المنفذ الفعلي لها، فإن دور الراهب بطرس، الذي اشتهر باسم بطرس الناسك، هو الدور الأول فيها، وهو الذي استطاع إعداد النفوس وإثارة الحفائظ، مما سهّل أمر استجابة دعوة أُربان بعد مؤتمر كليرمون[١] في فرنسا في تشرين الثاني سنة ١٠٩٥م.

ومن الطرائف العجيبة أن بطرس الناسك هذا الذي أثار الناس ودعاهم إلى التضحية والفداء في سبيل المسيح وقبره، والذي يعتبره بعض المؤرخين الفرنسيين نبي الحركة الصليبية، إن بطرس هذا قد ولّى الأدبار منهزماً عند أول شدة نزلت بالصليبيين، وذلك عندما عنف عليهم حصار أنطاكية سنة ١٠٩٨م، فتخلى عنهم بطرس وهرب.

على أنه لا بد من القول إن اندفاع البابا أُربان الثاني لم يكن اندفاعاً خالصاً لوجه النصرانية وحدها، بل لقد خالطته توجهات دنيوية، فإن البابا كان يتوجس من امتداد نفوذ النورمان[٢] فوجد طريقة للتخلص منهم وهي إثارة حماستهم الدينية وتوجيه هذه الحماسة إلى إنقاذ قبر المسيح. في حين أن الهوس الديني وحده هو الذي كان يسير بالراهب بطرس أنّى سار[٣].

(١) **كليرمون**: مدينة في جنوب فرنسا.

(٢) النورمان، أو رجال الشمال، أمة بحرية أصلها من النروج والدانمرك نزلت في القرن التاسع للميلاد على أوروبا الوسطى واستولت بالتدريج على قسم من فرنسا باسم نورمانديا، ثم انتصبت قهراً بجنوب إيطاليا وعلى الأخص في صقلية حيث أسست مملكة قوية مستقلّة.

(٣) لخصت القرارات التي أصدرها المجمع الكنسي الذي عقد في كليرمون سنة ١٠٩٥ المشروع =

وبعد أن توثق البابا من نفاذ دعوة بطرس إلى القلوب، وأيقن من استحواذها على النفوس، دعا إلى مؤتمر كليرمون، ولكن الاستجابة إليه لم تكن بالقدر الذى قدّره البابا، فالأكليروس الألماني كان حضوره محدوداً، وحال ملك إنكلترا بين رجال الكنيسة وبين الذهاب إلى المؤتمر.

وقد تحمّس الجنويون البحريون للأمر وعرضوا تقديم السفن لحاجة الحملة العتيدة[(١)].

ولم يكتف البابا أُربان بمؤتمر كليرمون بل تكررت دعواته متنقلاً في فرنسا من مكان إلى مكان عاقداً الندوات والمجامع، ملاقياً فيها الاستجابة والتلبية، بعد أن شحنت النفوس بما شحنت به من استنهاض واستثارة وحقد.

وعلينا أن لا ننسى أنه كان هناك لطبقة معينة من الشعب دافع دنيوي مضافاً إلى الدافع الديني دعاها إلى أن تكون في طليعة المُلَبّين المُستجيبين.

هذه الطبقة هي التي كان يُلزمها نظام الإقطاع السائد يومذاك بملازمة أرض الاقطاعي، فرأت في مساهمتها بالحروب الصليبية تخلصاً من هذا الالتزام، وانعتاقاً مما تعانيه منه.

مضافاً إلى ذلك ما كانت قد عانته أوروبا كلها خلال عدة سنوات متتابعة من قحط نتجت عنه مجاعات وانتشار للصوصية، مما جعل المدن والقرى تضيق بأهلها، فأسرعوا للرحيل إلى البلاد التي قال عنها كتابهم المقدس إنها تدرّ سمناً وعسلاً.

وإذا كان جمهور المسارعين هو جمهور فرنسي، فقد جاءت جماعات من انكلترا والنمسا وإيطاليا وأسبانيا، ويجمع الجميع على كونهم من الطبقة الدنيا الجاهلة الفقيرة.

وهنا لا بد من القول إنه تم للحركة الصليبية أمران كان لا [illegible] لها منهما لنجاحها، فقد

= الذي قدمه البابا أربان الثاني ودعا فيه لقيام الحملة الصليبية الأولى على النحو التالي: «إن كل من يرتحل إلى القدس بدافع التقوى والورع، وبهدف تحرير كنيسة الرب وليس بغية الحصـ[illegible] على المجد أو المال، فإنه يستطيع بهذه الرحلة أن يكفّر عن ذنوبه وآثامه كافة».

(١) كذلك انضم إلى الجنويين أهل بينرا تحقيقاً لبعض المطامع، مما رأيناه في حصار الأسطول لأرسون وعكا. ويقول جوناثان فيليبس في مقاله المنشور في مجلة (الثقافة العالمية)، وهو المقال المعرّب بقلم: عادل زيتون، يقول: «كان المجموع الكلي لأولئك الذين استجابوا لدعوة البابا أوربان الثاني (Urban) واتجهوا فعلاً إلى الأراضي المقدسة نحو ستين ألفاً من الصليبيين. وإذا علمنا أن عدد سكان أوروبا في أواخر القرن الحادي عشر كان نحو (٢٠) مليوناً، فإن هذا يعني بوضوح أن الغالبية الساحقة من الأوروبيين عزفوا عن المشاركة في هذه الحملة الصليبية».

استطاع البابا أُربان أن يصوغ لها ما يمكن أن نطلق عليه اسم أيديولوجيا تحدد معالمها وتبلور أهدافها، ثم ما كان قد برز من طبقة الفرسان الإقطاعيين الذين كانوا قد تطوّروا وأضحت لهم خلال أحداث العصور الماضية مناقبية أخلاقية مشتركة عن الحدود السياسية سواء في الإقطاعيات أو الحكومات.

وكان البابا أُربان قد وجّه خطابه إلى هؤلاء الفرسان في كليرمون بما يشتركون فيه من سمات ونظم وأخلاق وظروف اجتماعية واقتصادية. وكان اعتماده عليهم، بل إنه لم يكن مطمئناً إلى جمهور العامة، ولم تكن به رغبة بتألبهم الجماعي على الاشتراك في الحملة، بل لم تكن تخطر له مسارعتهم الحاشدة التي تمت.

ويبدو ذلك جلياً في رسالته المؤرخة في ٦ تشرين الأول سنة ١٠٩٦م، الموجّهة إلى أتباعه في بولوني التي يجهر فيها بأن العامة الراغبين في الاشتراك في الحملة «. . . أشخاص غير مناسبين، لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب في هذه الحملة لأنهم يستطيعون كبح وحشية المسلمين. . .».

والسبب الذي جعل البابا أُربان غير راغب بالعامة هو ما كان يعرفه عن فقرهم وجوعهم، متوجساً من انشغالهم بالنهب والسلب في البلاد المسيحية التي سيجتازونها، هذا فضلاً عن أنهم لم يكونوا معدين للحرب، وهو يريد من تمرّسوا بالحرب، وكان ذلك موجوداً في الفرسان الإقطاعيين.

وقد كان الفرسان عند حسن ظن البابا بهم فاستجابوا له استجابة كاملة، مدفوعين إلى ذلك لا بالعامل الديني وحده، فقد كان لهم مثلما كان لغيرهم دوافع دنيوية. فالأزمة الزراعية في جنوب فرنسا وإيطاليا التي بدأت منذ سنة ٨٥٠م، ظلت تشتد حتى تفاقمت كل التفاقم سنة ١٠٠٠م إلى حد شهدت معه أوروبا مجاعات رهيبة.

ولم ينس البابا أُربان الثاني في كليرمون أن يذكر الفرسان بواقع الحال حين خاطبهم فيما خاطبهم فيه: «. . . هذه الأرض التي تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب، تحوطها سلاسل الجبال وتضيق بأعدادكم الكثيرة وهي لا تفيض بالثروات الكبيرة، وإنما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقومون بزراعتها. وهذا هو السبب في أنكم تشنون الحرب بعضكم على بعض وتقتلون بعضكم بعضاً. . .».

وهكذا نرى أن البابا نفسه لم يلجأ إلى إثارة النوازع الدينية وحدها، بل جمع معها إثارة النوازع الدنيوية.

وقد كان فرسان الاقطاع في حال تؤثّر فيها إثارة هذه النوازع. ففي شمال فرنسا مثلاً كان حق الإرث محصوراً بالابن الأكبر، وفي إيطاليا وفرنسا جنوب نهر اللوار اعتمد عدم تقسيم الأرض بأشكال منوعة من الملكيات الجماعية. هذا فضلاً عن أن طبقة الفرسان كان عددها يزداد باستمرار، ومهنة الفارس الإقطاعي الأساسية هي الحرب التي كان يتدرب على أساليبها منذ صباه.

وهكذا اجتمعت لهذا الفارس، الرغبة في ممارسة مهنته، والرغبة في تملّك الأرض في البلاد المفتوحة، فأسرع إلى تلبية نداء المسيح كما صُوِّر له، جامعاً معه تلبية نداء المعدة!..

تقرّر أن يكون انطلاق الحملة يوم الخامس عشر من آب سنة ١٠٩٦م، وكان الأصح أن نقول الحملات، لأنّ الذين شاركوا لم يتجمّعوا في مكان واحد انطلقوا منه، بل خرجوا على دفعات من أماكن متفرقة على أن يلتقوا في القسطنطينية ثم يمضوا في حملة واحدة.

والمدة بين انعقاد مؤتمر كليرمون في تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ وبين تحديد موعد الانطلاق في شهر آب سنة ١٠٩٦م كانت مجالاً للبابا أُربان الثاني للتجوال في غرب فرنسا وجنوبها متنقلاً من مكان إلى مكان داعياً للانضمام إلى الحملة المنتظرة عاقداً أحياناً المجامع، وملقياً أحياناً الخطب، مرسلاً الرهبان إلى كل ناحية دعاة لحملته.

وترددت أصداء الدعوة في الأراضي الواطئة وألمانيا وغرب إيطاليا[١]، وهبّ الفقراء الحفاة يدعون في كل مكان، فكان تأثيرهم في الجمهور أعظم وأكثر نفاذاً من تأثير الأساقفة وأمثال الأساقفة.

ومع طلائع ربيع سنة ١٠٩٦م عزمت الجموع على الزحف غير منتظرة الموعد الذي حُدِّد في شهر آب ١٠٩٦م فمضت أول جماعة بقيادة والتر فلم يكد يبلغ بجماعته بلغاريا حتى انطلقت هذه الجماعة في السلب والنهب، فقام البلغار يهاجمون القادمين ويقتلونهم حتى ألجأوهم إلى الغابات.

وكان بين الحملات الزاحفة حملة سار فيها فوشيه دو شارتر، وهو قسيس فرنسي استجاب لنداء تخليص القدس، وقد تفرد هذا القسيس بأنه سجل الكثير من وقائع رحلته،

(١) استثنى البابا أُربان الثاني شبه الجزيرة الأيبيرية (اسبانيا والبرتغال) من دعوته الصليبية، راغباً في أن ينصرف سكانها إلى الصراع الدائر بيهم وبين المسلمين فيما عرف باسم «حرب الاسترداد». ومع ذلك فإن عدداً من الإسبان انضموا إلى الصليبيين الذاهبين إلى القدس.

فاستطعنا بذلك التعرّف إلى الأحداث من وصف مشاهد لها. فهو حين يتحدث عن وصولهم إلى مدينة باري في إيطاليا، ثم عزمهم على ركوب البحر، واضطرارهم للتأخر حتى انقضاء فصل الشتاء تجنباً لمخاطر هيجان البحر، حين يتحدث فوشيه عن ذلك يقول فيما يقول: «في تلك الفترة وجد كثير من العامة أنفسهم بلا معين وخشوا من الحاجة في المستقبل، فباعوا سلاحهم وخلعوا ثياب الحج ورجعوا بنذالة إلى ديارهم، ولهذا حق عليهم احتقار الله وحل عليهم الخزي والعار».

وهكذا رأينا جماعة والتر، حين طال عليهم الطريق، يلجأون إلى السلب والنهب في بلغاريا المسيحية. ورأينا هنا، الجماعة التي فيها فوشيه تستبطىء الوصول إلى الغنائم فتسرع إلى بيع سلاحها، وخلع أرديتها المقدسة والعودة من حيث أتت.

استأنفت جماعة والتر سيرها حتى وصلت القسطنطينية، فلم يسمح لهم الأمبراطور البيزنطي بدخولها وأمرهم بالانتظار خارجها حتى وصول بطرس الناسك.

وكانت قد تجمعت حول بطرس هذا جماهير شعبية غفيرة، فقيرة بائسة فيها القليل من الفرسان المحاربين، وفيها العدد الأكبر من غير المحاربين رجالاً ونساءً وأطفالاً. ومضوا جميعاً من ألمانيا في ٢٠ نيسان سنة ١٠٩٦م يتقدمهم بطرس على حماره وخلفه الفرسان ثم العربات التي تجرها الثيران حاملة المؤن والأموال التي تبرّع بها الأثرياء استجابة لبطرس، ثم تلك الجموع العجيبة التي ضمّت فيما ضمت المجرمين والأفّاقين وبنات الهوى، وعندما وصلوا حدود المجر لم يعترض ملكها على عبورهم بلاده على أن لا يستفزوا أحداً. وعند حدود المجر مع بيزنطية في مدينة سملين أراق صليبيو بطرس الناسك دماء الألوف من أبناء سملين وعادت المدينة خراباً تغمرها الحرائق وتملأ شوارعها الجثث.

وبالرغم من أن نيكيناس القائد العسكري لمدينة نيش البيزنطية الحدودية كان حذراً من هؤلاء الحاملين شعار الصليب والمتسمين باسم هذا الصليب، فإن حذره لم يُنْجِ القرويين البيزنطيين من أن يحرق البطرسيون منازلهم بمن فيها من الناس، وأن يعملوا يد النهب والسلب. ولكن البيزنطيين كرّوا على جموع الناسك فقتلوا وأسروا واستطاعوا الاستيلاء على ما جمعه بطرس من تبرعات أغنياء غرب أوروبا، وآل أمر بطرس وجموعه إلى التشتت ثم عادت شراذمهم تتجمع متجهة إلى مدينة صوفيا، وفيها أبلغهم مندوب الأمبراطور البيزنطي غضب الأمبراطور اليكسيوس كومينوس لما جرى، وطلبه بأن لا يمكثوا في أية مدينة بيزنطية أكثر من ثلاثة أيام.

وفي مطلع شهر آب سنة ١٠٩٦م، كان ما تبقى من شراذم جيش بطرس الناسك قد وصل إلى أسوار القسطنطينية.

ولما تقابل الأمبراطور البيزنطي وبطرس نصح الأول الأخير بعدم التوغل في البلاد الإسلامية قبل وصول الأمراء بجيوشهم، ولكن بطرس المتحمس أبى ذلك، ومضى بمن معه بعد أن فعلوا الأفاعيل في القسطنطينية سلباً ونهباً وحرقاً.

وفي آسيا الصغرى ساروا السيرة نفسها فكانت مذابحهم في مسيحييها مذابح مروّعة، ووصلت أخبار زحفهم إلى المسلمين فكان أن أعدوا لهم كميناً أوقعتهم فيه فوضاهم وجشعهم، فقتل والتر وهرب بطرس إلى القسطنطينية، وأجهز على الحملة كلها قرب مدينة قونية.

هكذا انتهى أمر ما عانى بطرس الناسك في جمعه وتكتيله مما يمكننا أن نطلق عليه: (الحملة الشعبية، حملة الفقراء والفلاحين) هذه الحملة انتهى أمرها إلى التمزق الكامل.

وفي هذا الوقت كانت أوروبا مشغولة بالإعداد لتتابع الحملات، وكان المتصدون للقيادة يجمعون حولهم طرازاً من الناس لا يختلف عمّا تجمع حول بطرس من الطبقات الشعبية الفقيرة والفلاحين، ولم يكن مصير هؤلاء بأفضل من مصير الحملة البطرسية، ولكن الإجهاز عليهم هذه المرة كان بأيدٍ مسيحية لا إسلامية. إذ أن ملك المجر (كومان) قرر الوقوف في وجه طغيانهم في بلاده فلم يثبتوا وتشتتوا.

راع أوروبا ما حلّ بالصليبيين الذين اعتبروا طليعة الزحف المقدس، وشمل الحزن جميع الأرجاء وكان ذلك باعثاً لا على الاستكانة، بل على التوعد بالثأر للذين تمزقوا بأيدي المسلمين تحت سماء الأناضول، وارتوت بدمائهم سهول آسيا الصغرى، فتقرر الزحف العام في الموعد الذي كان قد حدد له من قبل.

وفي أواخر صيف سنة ١٠٩٦م كانت جموع الفرسان متأهبة للسير إلى فلسطين. وكانت جموعاً من نوع آخر غير نوع الجموع التي احتشدت حول بطرس الناسك، كانت مؤلفة من عدة جيوش مقسّمة إمّا بناءً على الجنس أو اللغة أو الروابط الإقطاعية.

فهناك الجيش الذي تولى قيادته غودفري دي بويون المؤلف من أبناء اللورين، وشمال فرنسا والألمان وشارك في قيادته بلدوين أخو غودفري.

والجيش الذي قاده روبرت كوتهوز ابن وليم الفاتح وأخو هنري الأول ملك ودوق

نورماندي، ومعه زوج أخته ستيفن كونت بلوا، وكان فيه الفرسان القادمون من غرب فرنسا ونورماندي وبعض مناطق الشمال مضافاً إليهم الفرسان الإنكليز من أتباع أخيه الملك، وكان في هذا الجيش أيضاً فوشيه الذي مرّ ذكره، والذي كتب وصفاً لرحلة هذا الجيش. والجيش الذي قاده ريمون السانجيلي كونت تولوز المؤلف من فرسان جنوب فرنسا والبروفنسال، وكان فيه أديمار أسقف لوبوي ممثل البابا.

والجيش الذي قاده هيو كونت فرماندیا شقيق ملك فرنسا فيليب الأول. وكان هذا الجيش أصغر الجيوش على أنه كان أولها وصولاً إلى بيزنطية، بعد أن كان أول الزاحفين، وخامس الجيوش كان الجيش الذي قاده بوهيموند النورمندي، والمؤلف من النورمان الأشداء في جنوب إيطاليا.

أما الجيش الأول بقيادة غودفري فقد اتجه من ألمانيا براً إلى القسطنطينية، وسار الجيش الذي يقوده روبرت عن طريق إيطاليا مجتازاً جبال الألب، وفي مقاطعة لوكا لقيهم البابا وباركهم، ثم ساروا إلى بوليا للإبحار منها. وقد أثار مرور هذا الجيش في إيطاليا حماسة الإيطاليين فانضمت إليه جموع منهم. وقد لقي هذا الجيش أهوالاً من عاصفة بحرية هبت عليه، ولم يصل منه إلى القسطنطينية إلا شراذم.

وسار جيش ريمون السانجيلي من جنوب فرنسا مجتازاً جبال الألب وسهول لومبارديا متجهاً إلى الحدود اليونانية، وقد لقي هذا الجيش مصاعب جمة في دلماسيا. وكانت رحلته مضنية في البلقان، ويعد أكبر جيوش الحملة الصليبية الأولى.

أما جيش بوهيموند النورمندي فإنه ركب السفن في البحر الأدرياتيكي، ويبدو من وصف فوشيه للرحلة أنهم خرجوا من البحر إلى البر على بعد عشرة أميال من مدينة (دايرازو) ومنها مضوا براً عبر بلغاريا.

تلاقت الجيوش كلها على أبواب القسطنطينية، فاضطرب الأمبراطوء اليكسيوس كومينوس لمرأى هذا الحشد الكبير من المقاتلين الظامئين إلى الدم. وكان قد سبق له أن استنجد بأوروبا لتقيه من المد الإسلامي المتقدم في آسيا الصغرى، ولكنه لم يكن يحسب أن من يمكن أن ينجده سيكون بمثل هذه الكثافة والفظاظة، لذلك فقد عاد يفكر بمَنْ ينجده على من حسب أنهم سيكونون المنجدين[1].

(١) بين المؤرّخين خلاف حول استنجاد الأمبراطور البيزنطي بالغرب الكاثوليكي على المسلمين =

فأول تدبير اتخذه كان أن منع القادمين من دخول القسطنطينية، وسمح لهم بإقامة المضارب خارجها، وأذن للقادة وبعض مرافقيهم فقط بالدخول إليها.

ثم إنه منعاً لاتفاق كلمتهم عليه، تعامل مع كل واحد من القادة على حدة، واختلف هذا التعامل باختلاف الشخص وظروفه، فأغدق الهدايا حيناً، ومنع المؤن حيناً، وبرز للقتال حيناً آخر.

وبذلك استطاع أن يحملهم جميعاً على أن يقسموا يمين الولاء لشخصه، وبالرغم من العداء المستحكم بين الأمبراطور وبين الزعيم النورماني بوهيموند فقد استقبل الأمبراطور عدوه اللدود بكثير من الترحاب، ولم يلبث هذا الأخير أن أقسم هو الآخر يمين الولاء.

وكانت العقدة عند ريمون السانجيلي الذي كان يقود أكبر الجيوش، أنه منذ دخوله الأرض البيزنطية لم يستقر الأمر بينه وبين الأمبراطور على حال، حتى آل الوضع مرة إلى القتال ومرة إلى المفاوضة. وبتدخل القادة الصليبيين الآخرين أقسم ريمون على أن يحمي شرف الأمبراطور وحياته، ولكنه رفض أن يقسم يمين الولاء والتبعية كما فعل الآخرون.

على أن أهم ما في الأمر هو أن الأمبراطور كان يطمح إلى عودة السيطرة البيزنطية على البلاد التي فقدتها، فوجد فرصته في وجود الجيوش الصليبية وحاجة هذه الجيوش إليه، فطالب القادة بأن يعدوه أن يعيدوا إليه جميع الأرض التي تسقط في أيديهم. فتعهدوا له بشرفهم ـ باعتبارهم فرساناً مسيحيين ـ وأقسموا بالأناجيل المقدسة برد كافة المدن والقلاع التي كانت من قبل تابعة لامبراطور القسطنطينية بمجرد استيلائهم عليها هي وبقية الأراضي التي تمتد حتى بيت المقدس.

ونريد هنا أن نستبق تسلسل الأحداث لنرى ما آل إليه أمر هذا التعهد عندما تم للصليبيين النصر.

= في أواخر القرن الحادي عشر، ممّا يرى بعضهم أنّ هذا الاستنجاد أدّى إلى نهوض الحملة الصليبية الأولى. ويستند القائلون بوقوع الاستنجاد إلى الرسالة التي بعث بها الأمبراطور إلى روبرت كونت فلاندر (١٠٧١ ـ ١٠٩٣م) وإلى استنجاده بالبابا ضدّ السلاجقة. على أنّ الكونت ريان يشكك في صحة هذه الرسالة فيتساءل مستنكراً: أمن المعقول أن يطلب ألكسيس النجدة من الغرب، وأن يطلبها بالذات من كونت فلاندر؟ وذهب في تحليل فكرة الرسالة إلى أبعد من هذا، فيرى إلى أنّ الأمبراطور لم يقصد بحال من الأحوال الاستغاثة بالغرب على الأتراك، وأنّ لفظ (الوثنيين) الوارد في رسالته إلى روبرت لم يعن به السلاجقة أبداً بدليل أنّ (حنة كومنين) ابنة الأمبراطور لم تسمّهم قطّ بهذا الاسم. ونكتفي هنا بما أوردناه دون الاسترسال في ذكر من يؤيد هذا الرأي، أو يقف وسطاً بين الرأيين.

لقد وصلتهم رسالة من الأمبراطور عندما كانوا لا يزالون في طريقهم إلى القدس، يقول فيها: «إنك تدري أنك وبقية الكونتات الإفرنج قد قطعتم يمين الولاء والإخلاص لي، وأنت يا بوهيمند أوّل من تنقضه باستيلائك على أنطاكية واللاذقية وغيرهما من المدن الأمبراطورية، فاخرج حالاً من هذه المدن إذا كنت راغباً عن إثارة حرب جديدة».

فأجابه بوهيمند: «إن الفرنجة لم ينقضوا عهدهم إلا لأن ألكسيس نفسه قد أخلف عهوده معهم، ألم يقسم بمصاحبة اللاتين في الحرب ومشاركتهم الخطر؟ لقد صادف المسيحيون العذاب في حصار أنطاكية دون أن ينهض الأمبراطور لمساعدتهم».

الشرق الذي كان يحلم هؤلاء الغربيون بالوصول إليه أصبحوا اليوم على أبوابه، ولم يبق بينهم وبين ولوجه إلا خطوة واحدة. هذا الشرق الغامض المثير الذي كانت تتنازع نفوسهم في تذكره شتى النوازع؛ فمن دين ودنيا، ومن خيال وشعر، ومن أمجاد وسلطان، ومن كل ما يعتلج في نفس الإنسان! . . .

ها هو الآن بين أيديهم، وها هي أقدامهم تتحفز لتدوس ترابه لأول مرة! وإذا كان هذا الشرق مطمح أبصارهم ومستودع أحلامهم، فلم يكن أقل من ذلك عند الأمبراطور البيزنطي، فهو لا ينسى أبداً أن راية بزنطة هي التي كانت تظلله، وأن أسلافه القدامى هم الذين كانوا سادته، ثم هو الآن مرعوب من التقدم الإسلامي المنداح في آسيا الصغرى والذي يبدو أبداً متحفزاً للوصول إليه في عاصمته الكبرى.

لذلك فإنه بعد أن أمن شر الصليبيين واطمأن لقرب رحيلهم عنه، راح يهش في وجوههم ويبش، معانقاً لهم متقرباً إليهم، طالباً إليهم أن يكون من أهدافهم حمايته وبلاده من المسلمين، فوعدوه بأن يعيدوا إليه كل ما أخذه المسلمون من أرضه في آسيا الصغرى، وطلبوا إليه أن يتولى هو بنفسه قيادة الحملة الصليبية الزاحفة، ليظهر العالم الصليبي كله صفاً واحداً في الوصول إلى الهدف الأكبر: القدس.

ولكن الأمبراطور اعتذر عن عدم قبول هذا الطلب وأمدهم بالمرشدين والأدلاء وببعض ضباط جيشه، وواصل إرسال المؤن والإمدادات إليهم.

ويجب أن لا ننسى بطرس الناسك الذي أهاب بجماهير العامة فاستجابت له، ثم أُبيدت أمام عينيه في سهول آسيا الصغرى، وكان من العجيب أن يسلم هو فلم يقتل في ذلك المعمعان الرهيب!

إن هذا الراهب كان يحسن الهروب، بقدر ما يحسن الإهاجة، فهو لم يكد يحس

بالخطر الداهم حتى شمر عن ساقيه هارباً، لاجئاً إلى القسطنطينية تاركاً ساحة المعركة ملأى بجثث الذين أهاجهم وقادهم إلى هذا المصير المحزن، ثم سيكون أول الهاربين عندما يلمح اشتداد الأمر في أنطاكية. أما اليوم وقد رأى اجتماع الجيوش حول القسطنطينية، فقد عاودته الحماسة وارتدت إليه الشجاعة فسار مع تلك الجيوش.

يرى بعض المؤرخين أنه بالرغم من تبادل الود بين قادة الصليبيين وبين الأمبراطور البيزنطي (الأرثوذكسي)، وتهادي الوعود الجميلة على ألسنة الجميع، فإن الأمبراطور لم يكن في أعماق نفسه مطمئناً إليهم؛ وإنه لم يكن ليتمنى لهم النصر.

ويرى المؤرخ المصري سيد علي الحريري صاحب كتاب **الأخبار السنية في الحروب الصليبية** الذي طبع في القاهرة لأول مرة في شهر تموز سنة ١٨٩٩، يرى في الصفحة ٣٢ من الطبعة الجديدة التي صدرت سنة ١٩٨٨م «أن الأمبراطور، كان الخوف لم يزل في نفسه، فلذلك أشار على غودفري بأن يكون مسير الجيش إلى آسيا من وراء البوسفور، وهكذا سافرت العساكر الصليبية من طريق وعرة أضاعت فيها زماناً طويلاً ذهب بحماستهم».

وفي السادس من شهر أيار سنة ١٠٩٧م كانت الجيوش الصليبية تشق آسيا الصغرى حتى وصلت أمام مدينة نيقية في هذا اليوم.

وكانت نيقية في ذلك الوقت عاصمة دولة سلاجقة الروم التي كانت في حوزة قلج أرسلان، وعند وصول الصليبيين إليها كان قلج أرسلان هذا غائباً عنها.

وإذ كانت نيقية معدودة عند البيزنطيين من صميم بلادهم، فقد كان جيش منهم مشاركاً للصليبيين في حصارها. ولما عاد قلج أرسلان إليها في الواحد والعشرين من الشهر نفسه، جمع قواته وهجم بها على المحاصرين، ولكن هجومه فشل، وفي ١٩ حزيران كانت المدينة تستسلم للجيش البيزنطي لا للصليبيين حذراً مما اشتهر عنهم من الوحشية والفظاعة.

وسواء استسلمت المدينة للصليبيين أو للبيزنطيين، فقد كان النصر في الواقع نصراً صليبياً شدّ من عزائمهم وقوى نفوسهم وحفزهم على السير قدماً إلى الأرض المقدسة التي ينشدون.

وقد راعى الأمبراطور البيزنطي استسلام المدينة لجيشه فحماها من النهب والسلب الذي كان يعد الصليبيون أنفسهم لهما، فأغدق على الصليبيين الهدايا والهبات تعويضاً لهم.

بعد نصر نيقية انقسمت الحملة الصليبية إلى قسمين: كان على رأس أحدهما بوهيموند

ومعه تنكرد وروبرت أمير نورماندي، وعلى رأس القسم الثاني ريمون السانجيلي، ومعه أديمار مندوب البابا، وهيو، وروبرت كونت الفلاندر.

وبعد الهزيمة الإسلامية في نيقية تم تحالف بين قلج أرسلان وغازي بن الدانشمند، فاصطدمت قواتهما بالقوات الصليبية، فكان النصر للصليبيين. ولم يكن هذا النصر نصراً محدوداً، بل كان في الحقيقة نصراً حاسماً فتح الطريق أمام الصليبيين، وأنهى كل مقاومة منظمة.

وحين تستعرض البلاد الإسلامية، يومذاك، وترى المدى المترامي الذي تشغله، والعدد الجم من الناس الذين تحتويهم، تعجب للهوان الذي صارت إليه حتى لا تستطيع أن تجمع جمعاً يصد هذا الجمع المتدافع إليها، وهو بالنسبة إليها القلة أمام الكثرة!

ومهما كانت الحال فإنّ الواقع كان كما عبر عنه الدكتور قاسم عبده في كتابه **ماهية الحروب الصليبية** في الصفحة ١٢٤ حين قال: «ولكن الصليبيين من ناحية أخرى لم يكونوا في نزهة عسكرية، فقد كلّفتهم المقاومة التي اتخذت شكلاً يقترب من حرب العصابات كثيراً من الخسائر البشرية والمادية نتيجة هجمات الفرسان السريعة من رماة السهام، التي كانت تشيع الرعب في أوصال الصليبيين. أمّا المناخ فكان عدوهم الرئيسي، لا سيما عندما كانوا يعانون من نقص الطعام ونفاد المياه».

وقد وصف فوشيه الجيش الزاحف وتعدد أجناسه بقوله في الصفحة ٥١ من كتابه المترجم إلى العربية في طبعة ١٩٩٠: «فترى من سمع خليطاً من اللغات في جيش واحد كهذا؟ إذ اجتمع فيه الفرنجة، والفلمنجيون، والفريسيون، والجاليون، واللوبرجيون، واللوقارنجيون، والبافريون، والألمان، والنورمان، والإنكليز، والاستكتلنديون، والأكتبانيون، والطليان، والداشيون، والأبوليون، والأسبان، والبريطانيون، والإغريق، والأرمن».

كانت وجهة الزاحفين أنطاكية. وبعد سقوط نيقية ثم سقوط دوريلايوم (اسكي شهر) من السلاجقة، انفصل بلدوين عن الجيش الصليبي الرئيسي وتقدم نحو الرها واستولى عليها بالاتفاق مع حاكمها الأرمني توروس سنة ١٠٩٨م وأنشأ فيها أولى الدويلات اللاتينية. ومنها تقدم الفرنج إلى سميساط وسروج والبيرة وغيرها. فقامت لهم إمارة في حوض الفرات الأعلى بين مرعش في الشمال إلى منبج في الجنوب غربي الفرات، ثم تمضي شرقي الفرات فتشمل بهنسا والرها وسروج.

وكان تمركز بلدوين في الرها تهديداً متواصلاً للموصل وما يتبعها مثل نصيبين وماردين وحران، وكذلك لديار بكر وما إليها من أعالي نهر دجلة، بل كان تهديداً أيضاً لشمال العراق كله. واعتبر بلدوين أنه حقق مهمته ونال بغيته فلم يعد يهمه ما يجري على الجيش الرئيسي الزاحف إلى أنطاكية.

وواصل هذا الجيش زحفه، وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول سنة ١٠٩٨م، كان قد بدأ حصار أنطاكية، على أنها لم تكن لقمة سائغة فقد صمدت لهم صموداً طويلاً، فعادوا وكأنهم هم المحاصَرون، وفي عيد الميلاد كانت المجاعة العامة بعض ما يشكون، فقرروا تشكيل فرق للسلب والنهب مما حولهم من القرى والدساكر والبلدات الزراعية. ولكن المسلمين من العرب والأتراك كانوا قد استعدوا للخطر فحصّنوا مناطقهم، وأحسنوا حراستها، فلم ينل الصليبيون منها منالاً، كما استطاع المسلمون أن يقضوا على فرق صليبية كاملة[1]. وهنا بدأ الهروب، وكان في أول الهاربين ستيفن كونت بلوا، وبطرس الناسك.

وإذا كان بطرس هذا قد ركب في تجواله التحريضي الطويل بغلاً أو حماراً على اختلاف الروايات ـ وإذا كان قد ركب الحمار وهو يزحف في طليعة المشاة المعدمين، ثم لا ندري ما ركب وهو يعاود الزحف مع الفرسان ـ فلا شك أنه لم يجد هنا في هربه عند أسوار أنطاكية ما يركبه، فراح يطوي الأرض طياً على قدميه، ويركض ركضاً يتلفّت معه مذعوراً إلى الوراء!

صمدت أنطاكية أولاً ولكن الخيانة عملت عملها فسقطت أنطاكية، ويصف المؤرخون الأمر على هذا الشكل:

فابن الأثير في **الكامل** (ج٨، ص١٨٦) يذكر أن الخائن كان زراداً اسمه «زوربة». وابن القلانسي في **ذيل تاريخ دمشق**، (ص١٣٥ ـ ١٣٦) يذكر أن قوماً من أهل أنطاكية من حملة الحاكم السلجوقي لأنطاكية الأمير ياغي سيان من الزرادين «... عملوا على أنطاكية وواطؤوا الفرنج على تسليمها لهم، لإساءة تقدمت منه في حقهم ومصادرتهم...».

ويذكر ابن العديم في حوادث سنة ٤٩١هـ (**زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ج٢، ص١٣٣ ـ ١٣٤) أن ذلك الرجل كان يحمل ضغينة على ياغي سيان لأنه صادر أمواله. وفي الليل البهيم تمت الخطة فسقطت أنطاكية.

أما الرواية الصليبية عن الخيانة فتروي الأمر على لسان (فوشيه) القسيس الذي رافق

(١) كان قوام كل فرقة من هذه الفرق يصل أحياناً إلى ما بين ثلاثمائة وأربعمائة فرد.

الحملة كما يلي: عندما رضي الله مستجيباً لدعوات قومه بلا ريب أن يضع حداً لمتاعبهم بعد أن صبوا له التضراعات والابتهالات اليومية فمنحهم بمحبته أن يتسلموا المدينة سراً من خلال خيانة بعض الأتراك. ظهر الرب لتركي معين كانت قد كتبت عليه بركة الله وقال له: انهض أيها النائم إني آمرك أن ترجع هذه المدينة للمسيحيين. استغرب الرجل ذلك ولكنه حفظ أمر الرؤيا سراً.

ظهر له الرب ثانية وقال: إرجع هذه المدينة للمسيحيين لأنني الذي آمر بذلك أنا يسوع المسيح. احتار الرجل فيما يفعل وذهب إلى سيده حاكم أنطاكية وأعلمه بأمر الرؤيا فأجابه هذا قائلاً: أتريد أيها الغبي أن تطيع شبحاً، فعاد الرجل ولزم الصمت.

ظهر له الرب مرة أخرى وقال: لم لم تفعل ما أمرتك به؟ لا تتردد لأني أنا الذي آمر بهذا أنا رب الجميع. فلما زال الشك من نفسه بدأ الرجل يخطط سراً مع رجالنا في مؤامرة تمكنهم من الاستيلاء على المدينة.

عندما تم الاتفاق أعطى الرجل ابنه رهينة للورد بيهمند الذي كان أول من سمع بهذه الخطة وأول من اقتنع بها. وفي الليلة المتفق عليها أدخل الرجل عشرين من رجالنا فوق السور تسلقوا على حبال أدلاها. وعلى الفور وبدون توان فتحوا البوابة ثم دخل أربعون رجلاً آخرون من جندونا عن طريق تسلق الحبال وذبحوا ستين من الأتراك الذين وجدوهم يحرسون الأبراج. وعند ذلك صاح الفرنجة جميعاً صيحة رجل واحد: هذه إرادة الله، هذه إرادة الله. وكانت تلك صيحة الإشارة التي كنا نطلقها حين نوشك على إنجاز أي عمل مجيد. أثر سماعهم تلك الصيحة دب رعب هائل في نفوس الأتراك، وبدأ الفرنجة بالهجوم على المدينة في الحال، إذ أن عتمة الفجر بدأت بالتلاشي.

ولما رأى الأتراك راية بيهمند ترفرف في الأعالي، والفوضى ضاربة أطنابها، وسمعوا أبواق بيهمند تعزف في أعالي الأسوار ورأوا الفرنجة يقتحمون الشوارع بسيوف مشرعة ويقتلون الناس بوحشية أصابتهم الرهبة وأمعنوا في الفرار لا يلوون على شيء. وهرب من الأتراك من استطاع أن يصل إلى القلعة. (انتهى)[١].

وهكذا دخل الصليبيون أنطاكية بخيانة بعض من فيها. وفي اليوم التالي أي في الرابع من حزيران سنة ١٠٩٨ وصل كربوقا بجيشه.

---

(١) الحملة إلى القدس ص٥٧ ـ ٨٥٨.

الفصل الثامن

انفتاح أبواب الشام أمام الصليبيين

يحدثنا ابن الأثير في تاريخه (ج١٠ ص٢٧٦ طبعة ١٩٦٦) عن زحف كربوقا أمير الموصل السلجوقي لإنقاذ أنطاكية كما يلي:

«جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام، تُرْكُها وعربها سوى من كان بحلب. فاجتمع معه دُقاق بن تتش وطغتكين اتابك، وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم، فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم.

وسار المسلمون فنازلوا أنطاكية، وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك واضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة.

وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوماً ليس لهم ما يأكلونه، وتقوّت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان[1] ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم ما طلبوا، وقال: لا تخرجون إلا بالسيف. وكان

(١) المقصود بطلب الأمان أن يلقوا سلاحهم ويستسلموا خارجين بدون سلاح على أن يكونوا آمنين على أرواحهم فلا يقتل منهم أحد، ولا يكونوا أسرى، بل ينطلقوا راجعين إلى بلادهم.
وقد كانت القيادة الصليبية كلّها في أنطاكية، كما يعدد رجالها ابن الأثير، فطلبها الأمان واستسلامها كان معناه انتهاء الحروب الصليبية عند أنطاكية وعودة رجالها إلى بلادهم شراذم جائعةً عارية.

معهم من الملوك: بردويل وصنجل وكُندفري والقُمّص صاحب الرها وبيمُنت صاحب أنطاكية، وهو المُقَدّم عليهم.

وكان معهم راهب مُطاع فيهم، وكان داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقيسان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق.

و كان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفى أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع ومعهم عامتهم والصناع منهم، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة، ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال: لا تفعلوا، أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكّن من معاجلتهم. فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم.

فلما تكامل خروج الفرنج، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافاً عظيماً، فولى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، وثانياً من منعهم من قتل الفرنج. وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سليمان بن أرتق. وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين وانهزم كربوقا معهم.

فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال يُنهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة فقتل الفرنج منهم ألوفاً، وغنموا ما في المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم»، (انتهى ابن الأثير).

كان ابن الأثير واضحاً في تحميل كربوقا والقواد الآخرين مسؤولية نجاح الصليبيين في اختراق بلاد الشام والوصول إلى القدس مع اختلاف نوع المسؤولية بين كربوقا وبين بقية الأمراء والقواد.

لقد استطاع كربوقا أن يجيّش الجيوش الإسلامية ويجمع جموعها من الموصل حتى بلاد الشام، وأن يحرك العرب والأتراك وكل من هو في طريقه الطويل من شمال العراق حتى

شمال الشام، وفي هذا المدى الواسع من القوى البشرية ما تتألف منه جيوش جرارة، وهذا ما كان، وما أكده ابن الأثير في عباراته الصريحة.

وهذا ما أدركه الصليبيون الذين كانوا يعانون الوهن وقلة الأقوات ـ كما يقول ابن الأثير ـ بعد تلك الرحلة الطويلة التي بدؤوها من قلب أوروبا وصولاً إلى أنطاكية.

ومما زاد في وهنهم وانخذالهم ما عانوه في حصارهم لأنطاكية، حتى عادوا وكأنهم المُحاصَرون لا المُحاصِرون. وقد كانت المجاعة قد حلت بهم لانعدام موارد القوت فيهم، فلم يجدوا سبيلاً لاتقاء الجوع سوى التحول إلى عصابات تحاول نهب القرى والمزارع، ولكن أهل هذه القرى والمزارع عرفوا كيف يصدونهم ويفتكون بهم، فدب اليأس فيهم، وبدأوا يتسللون من جيشهم هاربين. وحين نعلم أنه كان في طليعة الهاربين الرجل الأول في الدعوة إلى إشعال الحرب الصليبية، وبطل جمع جموعها وتحريض الجماهير على الانضمام إلى جيوشها، أعني بطرس الناسك...

وحين نعلم أن الفرار من الجيش الصليبي الجائع الواهن قد تعدى العامة إلى القادة ففر أمثال ستيفن كونت بلوا...

حين نعلم ذلك، ندرك إلى أي مدى كان الصليبيون يائسين منخذلين واهنين جائعين وهم حول أنطاكية محاصرين لها.

ولولا خيانة خائن كان داخل أنطاكية لعجز الصليبيون عن دخول أنطاكية.

لقد دخلوها على وهنهم وجوعهم، وظلوا على هذا الوهن والجوع وهم داخلها، لأن أسباب الوهن والجوع كانت لا تزال قائمة، فلا مصادر للقوت تقيهم الجوع وتدفع عنهم الوهن.

صليبي يصف حال الصليبيين

ممن استجابوا لنداء البابا في الزحف إلى القدس، كان القسيس (فوشه دوشاركر) الذي انضم إلى الحملة الأولى التي انتهت باحتلال القدس، ثم قضى بقية حياته في القدس حيث سجل مذكراته عن مرافقته للحملة، ذاكراً وقائعها وأحداثها، فكان ما كتبه تاريخاً للحملة الصليبية مكتوباً بقلم أحد رجالها ـ كما ذكرنا من قبل ـ.

وقد انقطع عن الكتابة سنة ١١٢٧م ويبدو من انقطاعه عنها في هذه السنة أنه توفي فيها.

ويصف فوشه حال الصليبيين التعيسة وهم يحاصرون أنطاكية، ثم يصف استمرار التعاسة فيهم بعد احتلالها فيقول:

بعد أن حاصر الفرنجة المدينة فترة من الزمن وتجولوا في الأراضي المجاورة بحثا عن الطعام ولم يجدوا خبزاً يبتاعونه بدأ الكثيرون يخططون سراً للانسحاب من الحصار والفرار إما عن طريق البحر أو البر.

ولكن لم يكن لهم أموال يعتاشون بها، وقد اضطروا أن يبحثوا عما يقتاتون به في أماكن نائية، والخوف يلازمهم، إذا ابتعدوا أربعين أو خمسين ميلاً عن الحصار. وهناك في المناطق الجبلية قتل الأتراك كثيراً منهم في كمائن نصبوها لهم.

شعرنا أن المصائب قد حلت بالفرنجة بسبب خطاياهم.

وقد أصاب البؤس والشقاء الغني كما أصاب الفقير بسبب الجوع والمذابح اليومية، ولو لم يحفظ الله قطيعه وهو الراعي الصالح، قطيعه متجمعاً لهرب الجميع من هناك على الفور بلا جدال. وبسبب شح الغذاء انطلق الكثيرون إلى القرى المجاورة بحثاً عن الطعام ولم يرجعوا بعد ذلك إلى المعسكر وتركوا الحصار نهائياً.

في عام ١٠٩٨ بعد أن خلت الأراضي حول أنطاكية من الجموع الفقيرة من شعوبنا، تزايد البؤس في نفوس الكبار والصغار بسبب الجوع الشديد.

وأكل الناس جذوع البقليات التي ما زالت تنبت في الحقول وجميع أنواع الأعشاب غير المملحة وحتى الأشواك، التي لم يستطيعوا إجادة طهيها بسبب انعدام الحطب لإشعال النار فألهبت ألسن آكليها. وأكلوا الخيول أيضاً والحمير والجمال والكلاب وحتى الجرذان. بل إن الفقراء أكلوا جلود الحيوانات وبذور الحبوب التي وجدوها في روث الماشية (انتهى).

هذا ما وصف به فوشيه حال الصليبيين وهم يحاصرون أنطاكية، ثم وصف حالهم بعد احتلالها، ويكفي أن نأخذ من كلامه ما يغني عن الإطالة في القول: «لما رأى الفرنجة هذه الأمور وهنت عزائمهم». «في تلك الأثناء أراد كثير من الفرنجة أن يهبطوا ليلاً من الأسوار بالحبال ويهربوا خائفين من الموت جوعاً أو بحد السيف». «لم يستطيعوا أن يطيقوا هذا العذاب أكثر من ذلك، إذ لم يبق لديهم ما يأكلونه مما أوهنهم وأنهك جيادهم» (انتهى).

وصلت حملة كربوقا إلى أنطاكية والصليبيون على تلك الحال، ووصلتهم أخبار عن

ضخامة الجيوش التي أخذت تُحاصرهم لذلك قرروا الاستسلام ـ كما ينص على ذلك ابن الأثير. . .

وهذا يعني أن الحملة الصليبية قد فشلت وأن جيوشها وقوادها قد قرروا الاستسلام، وأن بلاد الشام التي كانت هدفهم قد نجت، وانتهى أمرهم، ولم تعد تقوم لهم قائمة وسيعودون أذلاء إلى بلادهم.

فماذا غيّر ذلك كله، وماذا أحال وهنهم إلى قوة وجوعهم إلى شبع. وماذا غيرهم من موقف طالب استسلام إلى المهاجم المنتصر؟

إن ابن الأثير يفصل لنا ذلك بعبارات مقتضبة، فهو يقول:

«. . . ولما سمعت الفرنج (بقدوم الجيوش الإسلامية الكثيفة) عظمت عليهم المصيبة وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم».

ثم يسترسل ابن الأثير قائلاً:

«وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال وعزموا على إسلامه عند المصدوقة». ا هـ.

عوضاً عن أن تبعث كثرة الجند وضخامة الجيش في نفس كربوقا التواضعَ لله على أن وفقه لقيادة مثل هذه القوة الكبرى، وعوضاً عن أن يحمد الأمراء على استجابتهم لدعوته ويتألفهم ويتواضع لهم، عوضاً عن ذلك، عاد إلى طبيعته فرآى فى تلك الحشود الإسلامية مجرد أتباع له، وفي أولئك الأمراء مجرد مأمورين له، فازدهاه ذلك فتكبر وتجبر وعامل الأمراء بمهانة أحفظتهم وغيرت نواياهم لا عليه وحده، بل على الموقف كله، فانقلبوا من متحفزين لنصرة الإسلام، إلى ناوين خيانة الإسلام.

فالأمر يلخص كما ذكر ابن الأثير كما يلي:

١ ـ كان الصليبيون داخل أنطاكية في منتهى الوهن والجوع.

٢ ـ قرروا الاستسلام بلسان قيادتهم الموجودة كلها في داخل أنطاكية.

٣ ـ رفض كربوقا استسلامهم وقرر دخول أنطاكية حرباً.

٤ ـ بدأوا بالتسلل من أنطاكية فرأى المسلمون مقابلتهم وهم شراذم تسهل إبادتهم تدريجياً، وبالفعل بدأ ذلك المسلمون فقتلوا كل من خرج، فرفض ذلك كربوقا وجاء بنفسه يمنع المسلمين من هذا.

٥ ـ كان كربوقا قد أساء معاملة الأمراء المنضمين إليه وعاملهم بمهانة.

٦ ـ حقد هؤلاء الأمراء عليه وقرروا عدم القتال والانهزام من المعركة عند أول مواجهة مع العدو.

٧ ـ أصرّ كربوقا على منع جمهور المقاتلين معه من تصيد الأعداء وهم شراذم مما أغضب هذا الجمهور فقرروا ما قرره الأمراء من الانهزام دون قتال.

٨ ـ وجدت جماعة في الجيش الإسلامي رفضت ذلك فقررت الاستشهاد تقرباً إلى الله.

فأول ما يطال كربوقا من المسؤولية في ذلك هو تنفيره قلوب الأمراء منه والاستعلاء عليهم.

وثاني ما يطاله ـ وهو الأخطر في الأمر ـ هو رفضه استسلام الصليبيين بلا قتال؛

وثالث ما يطاله ـ وهو ما لا يقل خطورة عن الثاني ـ هو رفضه طلب جمهور المقاتلين عدم السماح للصليبيين بالتجمع كتلة واحدة ومقابلتهم وهم شراذم تسهل إبادتها.

فلماذا فعل كربوقا ذلك؟

يصعب علينا اتهام كربوقا بالخيانة، فإننا هنا لا ننسبها إليه، فتصرفاته كلها منذ أخذ يجيش الجيوش حتى وصوله إلى أنطاكية تدل على الإخلاص والعزم على محاربة الصليبيين.

ولكننا لا نتردد أبداً باتهامه بالأنانية وحب الذات وتغليبهما على كل شيء، مهما تعارض هذا الشيء مع المصلحة العامة.

إن أنانيته وحبه لذاته جعلاه يحتقر الأمراء الذين استجابوا لدعوته، ويحاول بذلك إثبات أنه هو وحده السيد المطلق الآمر الناهي، وأن هؤلاء الأمراء مجرد أتباع لا شأن لهم.

وإن أنانيته وحبه لذاته وحرصه على مجده الشخصي جعلته يرفض استسلام الصليبيين بأمان بلا قتال وخروجهم من أنطاكية ورجوعهم إلى بلادهم.

لأنه ـ وقد أيقن بوهنهم وحلول المجاعة فيهم ـ اعتقد أنه سيخوض معهم معركة سهلة يكون هو بطلها المنتصر، واستسلامهم بلا قتال سيحرمه من التباهي بالانتصار عليهم في معركة حاسمة.

وكذلك القول في منعه جمهور المقاتلين المسلمين من تصيد الصليبيين أفراداً وشراذم وهزيمتهم بهذه الطريقة فإن ذلك سيحرمه من المجد الشخصي والتفاخر بالانتصار.

وهكذا فإن الأنانية وحب الذات وطلب المجد الشخصي عند كربوقا وخيانة الأمراء وجمهور المقاتلين قد حالت بين المسلمين وبين إنهاء الحروب الصليبية عند أنطاكية، وعرضتهم لما عرضتهم من فجائع دخول الصليبيين للقدس فاتحين واستمرار الاحتلال الصليبي لبلاد الشام مئتي سنة، وما اقتضى ذلك من إذلال وسفك دماء.

وهذا في رأينا وفي رأي جميع المنصفين لا يقل جريمة في كربوقا عن تعمد الخيانة.

أما أولئك الأمراء، وأما جمهور المقاتلين، فإنهم جمعوا إلى الصفات الذميمة التي كانت لكربوقا، جمعوا إليها الخيانة الصريحة...

نعم، لولا الخيانة لارتد الصليبيون خائبين ولما تجاوزوا أنطاكية، بل لعادوا إلى بلادهم أذلاء فاشلين. هذا كله يتجاهله مزيفو التاريخ، ويفتشون عن بريء يتهمونه وبطل يخوّنونه وهذا ما نأسف أن يتمسك به في هذا العصر من يقولون إنهم أكاديميون وحملة دكتوراه وأساتذة جامعيون!..

ويصف ابن الأثير احتلال الصليبيين لأنطاكية بعد الخيانة قائلاً:

«... وصعد جماعة كثيرة بالحبال فلما زادت عدتهم على خمسمئة ضربوا البوق وذلك عند السحر، وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة فاستيقظ باغي سيان (حاكم أنطاكية السلجوقي) فسأل عن الحال، فقيل: إن هذا البوق من القلعة، ولا شك أنها قد ملكت - ولم يكن البوق من القلعة وإنما كان من ذلك البرج -، فدخله الرعب، وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه، فجاء نائبه في حفظ البلد فسأل عنه، فقيل إنه هرب، فخرج من باب آخر هارباً، وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من الباب، ونهبوه وقتلوا من به من المسلمين (انتهى).

وهكذا فقد كان مفتاح أبواب بلاد الشام الذي أهدي للصليبيين مؤلفاً من الخيانة والجبن. والذين يطيلون في الكلام ويطيلون... ويطيلون عن المسؤولين عن نكبة بلاد الشام بالصليبيين، ثم ينتهون إلى تخوين الشرفاء!...

إنهم يتعامون عن هذه الحقيقة البارزة وعن حقائق أخرى سيأتي ذكرها، يتعامون عن الخيانة التي انبعثت من قلب أنطاكية، فأمكنت عشرات الصليبيين من دخولها صاعدين بالحبال على الأسوار، ثم هابطين من الأسوار إلى داخل المدينة.

ومع ذلك فقد كان أمر هؤلاء الداخلين سهلاً غير خطر، فيمكن استئصالهم في لحظات لو كان في قيادة المدينة رجال... رجال لا في هياكلهم... بل رجال في عزائمهم...

الحاكم السلجوقي باغي سيان لم يكد يسمع صوت البوق حتى أسرع في الهرب. هذا الحاكم القائد الذي أودع القدر إليه حماية شرف أنطاكية بالدفاع عنها حتى آخر رمق، لم يكن فيه ذرة شرف تجعله أهلاً لحماية ذاك الشرف!...

وبعد أن كان الصليبيون مرهقين من الصعود بالحبال إلى السور، ثم يزدادون إرهاقاً في النزول من السور، فلا يصل إلى داخل أنطاكية، منهم إلا أفراد محدودون، إذا برجل أنطاكية وحامي حماها يهرب بمجرد سماعه صوت البوق، ثم لا يجد وسيلة للهرب إلا باباً من أبواب أنطاكية الموصودة في وجه الصليبيين، فيفتحه على مصراعيه راكضاً منه إلى السلامة!.

لقد فتح باب أنطاكية من كان عليه أن لا يفتح هذا الباب ـ إذا قدر له أن يفتح ـ إلا وقد صبغته الدماء وتكدست عليه الأشلاء...

لقد فتح باب أنطاكية وخرج منه راكضاً، فدخل منه الصليبيون راكضين أيضاً..

ولم يكن الباب الواحد يتسع لجموع الصليبيين المتدفقة، فأسرع نائب باغي سيان، إلى فتح باب آخر خرج منه هو الآخر راكضاً ليدخل منه الصليبيون راكضين.

يقول ابن الأثير فيما تقدم من القول عن هذا الذي فتح الباب وهرب بمجرد سماعه صوت البوق: لو ثبت ساعة لهلك الفرنج...

ولكي لا نظلم باغي سيان فإننا نذكر له أنه حين بلغه توجه الصليبيين إلى أنطاكية بادر إلى اتخاذ ما يقتضيه الموقف من تدابير كان من أهمها حفر خندق حولها، حتى ليصفه ابن الأثير بأجمل الصفات من الشجاعة وجودة الرأي والحزم والاحتياط!.

وإذا أمكن أن نسلم له بهذه الصفات فإننا لا يمكن إلا أن نستثني منها صفة الشجاعة، فالذي ينخلع قلبه بمجرد سماعه بوق الأعداء، ثم يترك البلد المودع إليه حمايته والدفاع عنه، ويتخلى حتى عن أسرته فيه، ويسرع إلى باب أنطاكية فيفتحه أمام الأعداء ويخرج منه هارباً، ليدخل منه الأعداء فاتحين، إن الذي يفعل ذلك لا تكون فيه ذرة من الشجاعة ولا من جودة الرأي ولا من الحزم ولا من الاحتياط...

على أن باغي سيان هذا الذي فر ناشداً السلامة لم يسلم مما فر منه. ونترك الصورة التي رسمها ابن الأثير لما ناله ـ نتركها كما هي لتعبر عن الموقف أحسن تعبير.

يقول ابن الأثير:

وأما باغي سيان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إليه عقله، وكان كالولهان، فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا؟ فقيل: على أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالماً ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يُقتل، وجعل يتلهف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين. فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه، فلما سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يُركبوه فلم يكن فيه مُسكة، فإنه كان قد قارب الموت فتركوه وساروا عنه. واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب، وهو بآخر رمق، فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الإفرنج بأنطاكية . . .

سقوط معرة النعمان

كان الظفر الهين الذي حققه الصليبيون في أنطاكية ففتح لهم أبواب الشام بخيانة الخائنين مشجعاً لهم على الإسراع في التوغل في بلاد الشام، فكانت أول مدينة في طريقهم هي (المعرة)، وكانت أول معركة يخوضونها مع الشاميين هي معركتهم مع أهل المعرة.

وإذا كانت الجيوش التي قادها كربوقا قد أخلت ساحة المعركة للصليبيين وانهزمت منذ تراءوا لها، وبذلك وطأ الصليبيون أرض الشام بلا قتال، وتقدموا فيها دون أن يلقوا مقاومة، فوصلوا إلى مدينة المعرة سالمين غانمين، فإن المدينة الشامية وقفت في وجههم في أول الأمر الوقفة الشامية العربية التي تليق بالعرب الشاميين. فلم ترهب جموعهم التي تفوق جمعها، فحين نازلوها وحصروها، نازلتهم وردت على حصارهم بالثبات على الأسوار تقاتلهم من فوقها وتحول بينهم وبين التقدم إلى داخلها.

ويصف ابن الأثير الحال قائلاً: «وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية، ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهاد في قتالهم».

فعند ذلك عمد الصليبيون إلى تدبير يجعل رماياتهم تصل إلى حماة الأسوار، فأنشأوا في موازاة الأسوار برجاً من الخشب صاروا يقاتلون منه، فلم يفدهم ذلك شيئاً.

وهنا وقع ما يجعلك تقف مندهشاً مذهولاً، فبعد ذاك الثبات، وبعد ذلك الجد في القتال، وبعد أن بدا أن البرج الخشبي لم يغن عن الصليبيين شيئاً، كان دخول الليل مصدر هلع لفريق من المقاتلين، فيبدو أن رؤيتهم البرج الخشبي الموازي للسور قد جعلتهم يتوهمون أنهم قد أصبحوا أمام الصليبيين وجهاً لوجه، وتخيلوا الحشود الصليبية الواقفة حيال السور

فخارت عزائمهم، وتصوروا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار فإنها تحميهم.

وهكذا فالخائر العزيمة يصور له خوره تصورات وهمية يحاول أن يعلل بها انهزامه النفسي، فهم لم يريدوا أن يعترفوا بهزيمتهم وعارها، وإنما أوهموا أنفسهم أنهم إنما يلجؤون إلى ما يقويهم على الثبات!...

لقد نزل الخائرو العزيمة عن السور وأخلوا مكانهم ممن يرد العدو عنه، فلما رآهم غيرهم يفعلون ذلك، فعلوا فعلهم فخلا مكانهم من المدافعين.

يقول ابن الأثير: «ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول حتى خلا السور»، فصعد الفرنج إليه على السلالم، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مئة ألف وسبوا السبي الكثير، وملكوه...».

هذه رواية ابن الأثير. على أن هناك من يرى أن المعريين كانوا يأملون وصول نجدات من رضوان أمير حلب ومن جناح الدولة أمير حمص، ولكن النجدات لم تصل، بل وصلت نجدة صليبية ما أوهن عزائم المدافعين.

هذه الحملة الصليبية الضخمة التي كانت تستهدف المسلمين إذلالاً وإبادة، وتستهدف إزاحتهم من مكان هو ثالث أماكنهم المقدسة.

هذه الحملة التي كان يجب أن تقابل بالحزم والإخلاص والشجاعة، وأن يعد لمقاومتها ما يعد من تصميم على الدفاع واستماتة في القتال. كان الأمر أمامها على العكس من ذلك، فأول ما قوبلت به في أنطاكية خيانة سهلت صعود رجالها إلى الأسوار، ثم هلع وجبن من القيادة فتحت معهما الأبواب هاربة، فدخل الأعداء أنطاكية فاتحين!..

ثم تتالت المخازي: تجبّر على الأنصار ينفرهم، ثم أنانية تحول دون النصر، ثم خيانة عارمة يتعمد فيها المقاتلون الهزيمة لتخلو الساحة للفاتحين!..

ثم خور في العزائم تسقط فيه المعرة في أيديهم!...

لقد قتل الصليبيون في المعرة أكثر من مئة ألف نفس[١] قُتلوا قتلاً ذليلاً، فلو صمدوا على الأسوار وثبتوا في القتال لما احتاج الصمود والثبات إلى هذا العدد من القتلى...

---

(١) ابن الأثير ج١٠ ص٢٧٨.

وكما فر باغي سيان تاركاً المدينة التي عهد إليه بالدفاع عنها، تاركاً إياها للفوضى والاستسلام. . . تاركاً إياها وتاركاً فيها أسرته للسبي والأسر. . . أملاً بأن ينجو بنفسه، ولكنه لم ينج فقتل قتلة الذل.

كذلك فعل أهل المعرة. . . وكذلك كان مصيرهم. . فالذي فروا منه وقعوا فيه. . . وقوعاً ذليلاً. . .

بعد المعرة

بعد إقامة أربعين يوماً في المعرة زحفوا إلى (عَرْقة) فلم تستسلم لهم وأقاموا على حصارها أربعة أشهر فظلت صامدة، ومع أنهم استطاعوا أن ينقبوا سورها في عدة أماكن فلم يستطيعوا النفاد إليها لشدة الدفاع.

فوشيه يصف الموقف

ينسب فوشيه النصر الذي أحرزه الصليبيون على جيوش كربوقا إلى الرعب القاتل المنزل من السماء، ومن حقه أن يقول ذلك بعد أن رأى تلك الجموع الغفيرة تنهزم دون قتال. لقد انهزمت خيانة على الأرض لا رعباً منزلاً من السماء.

يقول فوشيه: «عندما رأى الأتراك صفوفهم وقد اخترفها اقتحام جيش الفرنجة برمته، بدأوا يتدافعون إلى الأمام فرادى ليطلقوا السهام كعادتهم، ولكن الرعب القاتل المنزل من السماء ألقي في قلوبهم فأمعنوا جميعاً في الفرار كما لو أن العالم كله سقط عليهم. وطارد الفرنجة الهاربين بأسرع ما استطاعوا».

ثم يقول: «ولكن لما كانت خيول الفرنجة قليلة العدد ومنهكة من الجوع فإنهم لم يستطيعوا القبض على كثير من الكفار».

ووصفه الخيل بأنها منهكة من الجوع، يدلنا على ما كانوا عليه هم وخيولهم من الإنهاك جوعاً.

وكما قلنا من قبل فإن جيوش كربوقا قد فرت تاركة كل شيء، وهذا ما تحدث عنه فوشيه قائلاً: «ولكن خيام الأتراك بقيت مضروبة في معسكرهم ووجد فيها الفرنجة حاجيات من مختلف الأصناف، كالذهب والفضة والأردية والأثواب المختلفة والأوعية وأشياء كثيرة أخرى تركها الأتراك أو ألقوها في فزعهم وفرارهم المضطرب. وعلى سبيل المثال كان هناك خيول وحمير وبغال وجمال وعمامات فاخرة وأقواس وسهام وكنانات».

ثم يهزأ من كربوقا ناسباً ما أصابه إلى تحديه لله:

«فر كربوقا رشيقاً كالغزال، ذاك الذي طالما ذبح الفرنجة بالكلام وبالوعيد والتهديد. ولكن لماذا فر ذلك الذي ملك جيشاً عظيماً ومعه كل هؤلاء الفرسان المدججون؟ لأنه جرؤ أن يتحدى الله، الرب الذي شاهد أبهة كربوقا من بُعد فدمر قوته تدميراً ساحقاً».

وعندما يتحدث عن خسائر الصليبيين يقول: «ومن ناحية أخرى فإن قليلاً من رجالنا أصيبوا بجراح».

وهذا القسيس رجل الدين لا يبالي أن يقول متباهياً: «أما النساء اللواتي وجدن في خيام العدو فإن الفرنجة لم يمسوهن بأذى».

وهنا تحسب أن هؤلاء الفرنجة بلغوا من الشهامة حداً يمنعهم من التعرض للنساء بأذى. ولكن فوشيه يتابع كلامه قائلاً: «وإنما بقروا بطونهن بالحراب»،

بقر بطون النساء بالحراب ليس بأذى عند أولئك الصليبيين، وعند فوشيه!..

كربوقا يلعب الشطرنج

يصف فوشيه استهتار كربوقا بالموقف وتوهمه بقاء الصليبيين على طلبهم الاستسلام فيقول عن الصليبيين: «وهكذا خرجوا كلهم من المدينة جاهزين للمعركة. تم تنظيم المشاة والفرسان في سرايا وفصائل تسبقها الرايات، وكان معهم الكهنة متشحين أردية بيضاء، يبكون لجميع الناس وينشدون للرب ويصبون الدعاء من أعماق أرواحهم المؤمنة. عند ذلك رآهم رجل تركي وكان فارساً مقداماً فأصابته دهشة عظيمة لمرآهم يتقدمون وراياتهم مرفوعة».

ونقول: دهش هذا الرجل دهشة عظيمة لرؤيته الرايات مرفوعة، لأن رفعها دليل التصميم على الحرب، في حين أن ما يتوهمه كربوقا الذي رفض استسلام الصليبيين وطلبهم الأمان ليفوز بمعركة هينة يدعي فيها شرف الأمجاد، أمجاد الانتصار ـ ما يتوهمه هو أنهم خرجوا مستسلمين، وهذا ما أوهم به رجاله. ومن هنا كانت دهشة الرجل لرفع الرايات التي لا ترفع إلاَّ بنية الحرب، فأسرع يخبر كربوقا بما رأى.

يقول فوشيه: «وأيقن حين رأى رايات قادتنا التي كان يعرفها تتقدم واحدة تلو الأخرى بنظام، أن المعركة لا بد قريبة، فأسرع إلى كربوقا يخبره بما رأى، وقال له: ما بالك تلعب الشطرنج؟. انظر فإن الفرنجة قادمون».

ولكن كربوقا العاكف في تلك الساعات المصيرية على لعب الشطرنج لم يتخيل أن الفرنج قادمون للقتال.

يقول فوشيه: «فأجاب (كربوقا) أهم قادمون للقتال؟ فأجابه: لست موقناً من ذلك حتى الآن ولكن امهلني قليلاً».

نقول: هذا الرجل الذي كان قبل دقائق موقناً أن الفرنجة قادمون للقتال، أثّر فيه وضع كربوقا غير المبالي، فعاد مشككاً، فرجع ليتأكد.

يقول فوشيه: «عندما رأى رايات أمرائنا مرفوعة في الناحية الأخرى تتقدم بشكل حربي وتتبعها الصفوف المتراصة بانضباط عسكري سارع في العودة وقال لكربوقا: أعتقد أن المعركة واقعة، ولكن إنتظر قليلاً لأني لا أميز الرايات التي أراها، وبعد التدقيق شاهد علم أسقف لابوي يتقدم في الفصيلة الثالثة، وبدون أي إبطاء قال لكربوقا: أنظر لقد حضر الفرنجة، أهرب الآن أو حارب بشجاعة لأنني أرى علم البابا متقدماً، إرتجف الآن لئلا يهزمك أولئك الذين اعتقدت أنك ستبيدهم عن وجه الأرض».

نقول: لقد أدرك كربوقا أن الأمر جد كل الجد فظن أنه لا يزال مسيطراً على الموقف فقرر قبول استسلام الصليبيين ـ فقال:

«سأبعث رسولاً للفرنجة يخبرهم أنني سأمنحهم اليوم ما طلبوا مني بالأمس. فقال الرجل: لقد فات الأوان على هذا الكلام. ومع ذلك فإن كربوقا بعث الطلب ولكنه لم يحظ بما ابتغى».

أما عن تقدم الصليبيين بعد أنطاكية فيعترف فوشيه بفظائع الصليبيين بكل مباهاة. ولكنه يختلف في روايته عما رواه ابن الأثير. فابن الأثير يقول إن أول بلد احتله الصليبيون بعد أنطاكية هو: المعرة.

أما فوشيه فيقول إنهم احتلوا بعد إنطاكية مدينتي: البارة[1] ومعرة النعمان، وأنهم احتلوا المدينة الأولى بسرعة فائقة وأفنوا مواطنيها عن بكرة أبيهم وصادروا كل ما فيها.

وفضلاً عن اعتراف فوشيه بفظائع الصليبيين وقوله بكل مباهاة بأنهم أفنوا مواطني مدينة البارة عن بكرة أبيهم، فإنه في الوقت نفسه يعترف بما كان لا يزال عليه الصليبيون من الجوع وانعدام المؤمن لديهم وهم يحاصرون المعرة فيقول:

«ثم سارعوا إلى المدينة الثانية وحاصروها عشرين يوماً عانى خلالها رجالنا من الجوع

(١) سماها مترجم الكتاب: البحترة، ووضع أمامها بين قوسين (بارا) وقال أنها تقع على بعد ٤٢ ميلا جنوب شرقي أنطاكية.

الشديد. ويقشعر بدني إذ أذكر أن كثيراً من رجالنا وقد أضناهم الجوع وعذبهم إلى حد الجنون اقتطعوا لحم العجز من جثث الشرقيين المطروحة وطبخوه وأكلوه ملتهمين اللحم بوحشية قبل أن يتم طهيه».

من هؤلاء الجياع آكلي لحوم أعجاز الجثث الميتة، انهزمت الجيوش عند أنطاكية، وفرت جموع المعريين! . .

بعد المعرة

ينقلنا ابن الأثير من المعرة إلى عرقة ـ كما رأينا ـ وبدلاً من أن يسير بنا مع الصليبيين مرحلة مرحلة إذا به يصل بنا فجأة إلى حمص، فلا نعرف منه ماذا كان قبل الوصول إلى حمص، وما أبعد ما بين عرقة وحمص . .

أما فوشيه فإننا نعلم منه أن الصليبيين بعد أن عجزوا عن فتح عرقة «طووا خيامهم وبدأوا بالرحيل» ثم حدد خطة سيرهم فيقول إنهم مروا بطرابلس، ثم بقلعة جبيل، ثم بصيدا، ثم بالصرفند، ثم بصور، ثم بما يسميه مترجم الكتاب (الزف)، وهي: الزيب، ثم بعكا، إلى أن دخلوا الرملة فبقوا فيها أربعة أيام. ومن الرملة كان تخطيط الوصول إلى القدس، فمرّوا بعمواس، ومنها انفصل مئة فارس فمروا قرب القدس وصولاً إلى بيت لحم، ثم عادوا منضمين إلى الجيش الزاحف إلى القدس الذي كان قد بدأ بحصارها.

ولنا أن نأخذ برواية فوشيه الذي كان شاهد عيان مرافقاً للحملة. واستناداً إلى هذه الرواية نرى أن الصليبيين مروا بما مروا به من مدن دون الدخول إليها، لأن محاولة دخولها تقتضي حصارها وإضاعة الوقت الطويل في هذا الحصار ما يعيق وصولهم إلى القدس، فضلاً عما يخشى من فشل الحصار كما حدث في عرقة، لذلك أرجأوا أمرها إلى ما بعد فتح القدس. ويستثنى من ذلك مدينة الرملة التي دخلوها لأن أهلها فارين منها، فمكث فيها الصليبيون أربعة أيام تزودوا خلالها بكميات وافرة من القمح الذي تركه الأهلون الفارون، فحملوه معهم استعداداً لحصار القدس الذي قد يطول.

ونحن نرى في رواية فوشيه تناقضاً مع رواية ابن الأثير الذي يقتصر في سرده لمراحل سير الحملة بعد عرقة على هذا القول: «وساروا إلى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا فلم يقدروا عليها».

ثم بعد أربع صفحات يذكر وصولهم إلى القدس وفتحهم لها. في حين أن فوشيه لا

يذكر أبداً وصول الصليبيين إلى حمص. ثم ما جاء في رواية ابن الأثير من القفز من حمص إلى النواقير، والنواقير هي الواقعة قرب صور والمعروفة اليوم باسم (الناقورة).

وهكذا نرى النقص بارزاً في سرد ابن الأثير، وهو نقص ـ لو أردنا الاعتماد على ابن الأثير وحده ـ لضاع علينا الكثير من الحقائق.

ويمكننا استناداً إلى عدد من المصادر تحديد سير الحملة الصليبية على الشكل التالي:

في ١٣ كانون الثاني (يناير) سنة ١٠٩٩م (١٧ صفر سنة ٤٩٢هـ) كانت حملة صليبية بقيادة الكونت ريموند تخرج من معرة النعمان فتمر بأمارات عربية مثل كفرطاب وشيزر فتتهيبها هذه الإمارات فلا تلقى منها مقاومة، بل تضطر إلى تزويدها ببعض ما تحتاج إليه أملاً بابتعادها عن أرضها. ولما حطت الحملة رحالها على أبواب شيزر هدد أميرها بقطع الذخيرة عن الحملة فاستجابت له خوفاً من أن تغضب من ستلقاهم بعد ذلك وتثير سخطهم لا سيما وأن طريقها طويل شاق.

وبعد هذا نراها تختار الطريق الساحلي وتتجه إلى جبلة، على أن تقصد منها إلى طرطوس فطرابلس فبيروت فصيدا فصور فعكا.

ولكن هناك من اعترض على هذه الخطة لأنها ستؤدي حتما إلى الصدام العسكري في غير مكان، في حين أنهم في حاجة إلى الاحتفاظ بقواهم سليمة انتظاراً للمعركة الكبرى معركة القدس. فاتجهوا مباشرة إلى مصياف فكانوا حيالها في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٠٩٩م فاتقى شرهم أميرها بموادعتهم، ومنها وصولا إلى بعرين التي يقول ياقوت في معجم البلدان أن اسمها الصحيح (بارين) ثم إلى رفنية[١] وهنا يختلف الأمر عما مروا به من بلاد، فإن أهل رفنية فروا من البلدة فدخلها الصليبيون فوجدوا فيها ذخيرة وافية، ورأوا أن يستريحوا فأقاموا فيها ثلاثة أيام.

ولنا هنا أن نتساءل عن سبب اختلاف تصرف سكان رفنية عن تصرف من سبقهم من سكان المدن الأخرى التي لم يفر أهلها. وليس في أيدينا ما يمكن أن نجد فيه الجواب عن تساؤلنا. وقد أتاح فرار الرفنيين عن مدينتهم وخلوها من السكان ـ أتاح للصليبيين أن يستريحوا أياماً ثلاثة في بيوت المدينة التي كانت بيوتها تحوي وسائل الراحة التي خلفها فيها الفارون.

(١) يقول في معجم البلدان: رفنية: كورة ومدينة من أعمال حمص يقال لها رفنية تدمر، وقال قوم: ـ والكلام لا يزال لمعجم البلدان ـ رفنية بلدة عند طرابلس من سواحل الشام.

ومن رفنية مضوا إلى البقيعة، فكان حال أهلها حال أهل رفنية من الفرار من مدينتهم وتخليتها للفاتحين، ويبدو أن فرار الرفنيين هو الذي روّع البقيعيين فآثروا الفرار مثلهم. وتقول بعض النصوص أن سكان البقيعة كانوا كلهم من العرب والبدو، وأنا لا أدري ما هي حدود التفرقة هنا بين العرب والبدو، ولا ما يقصد صاحب النص بالعرب الذين جعلهم مقابل البدو.

وعلى كل فان كثرة البدو في البقيعة جعلتهم أحسن حالاً في فرارهم من الفارين من رفنية، فهؤلاء نجوا بأنفسهم دون أن يستطيعوا نقل شيء معهم في حين أن ما يملكه البدو من الإبل سهل لهم حمل ما خف حمله وغلا ثمنه، فمضوا لاجئين إلى حصن الأكراد، فتعقبهم الصليبيون إليه وحاصروه واقتحموه.

ويبدو أن اقتحام حصن الأكراد قد بعث الرهبة في النفوس، فبعد أن كانت موادعة الصليبيين تتم عند مرورهم بالمدن، صار أصحاب المدن يستبقون وصول الصليبيين إليهم مسرعين إلى موادعتهم، فهذا جناح الدولة صاحب حمص يرسل إليهم رسله حاملة الهدايا مؤكدة الموادعة والاتفاق، وهكذا فعل غيره من أصحاب النواحي المجاورة.

وتضحكك هذه الألقاب الضخمة التي كان يطلقها هؤلاء الناس على أنفسهم: جناح الدولة، فيا لدولة هذا المستسلم أحد جناحيها!.

ومضت الحملة في تقدمها قاصدة المرور بطرابلس، وكان صاحب طرابلس يومذاك ابن عمار فكان على حذر منهم، وكان يدرك ضعف إمارته أمام قوتهم، فلا هو تحرش بهم ولا هو صانعهم.

وواصلوا السير إلى بيروت فصيدا فصور وعكا واللد والرملة. وفي الرملة توقفوا يشتورون في الخطوة القادمة، فارتأى بعضهم الزحف إلى مصر لأن في الاستيلاء عليها اطمئناناً من هجمات تباغتهم منها، ثم أن في ذلك ما يوفر لهم انطلاقاً تجارياً برياً وبحرياً دون التعرض لمخاطر الأسطول المصري.

أما الرأي الآخر فكان يرى أن لا بد من الزحف إلى القدس والاستقرار فيها، ثم التفكير بغيرها. وتم الأخذ بهذا الرأي وتقدموا فحاصروا القدس في ٧ آيار (مايو) سنة ١٠٩٩م.

الدفاع عن القدس

فوجىء افتخار الدولة حاكم القدس بمقدم هذه الجموع اللجبة، وأدرك قوتها فعمد إلى تسميم الآبار وطم القنوات، وأخرج غير المسلمين من المدينة، وعهد بحراسة الأسواق إلى

جماعة من العرب والسودان. أما الصليبيون فقد قسموا أنفسهم أقساماً حتى يكون حصارهم للمدينة من جميع منافذها فلا يمكنون المسلمين من الاتصال بالخارج. وشرعوا بالهجوم على القسم الجنوبي من المدينة، وطبعي أن تحملهم الحماسة الدينية على الاستبسال فانهارت الأسوار الأولى أمام هجماتهم العنيفة، ولكنهم قاسوا الكثير من نقص الذخيرة وقلة المياه وحرارة الجو وشدة المحصورين في دفعهم عن البلد. وأدرك الصليبيون أنهم يواجهون عدواً عنيداً ليس من السهولة قهره، فقرروا بناء آلات الحصار والقتال ونصبوا الأبراج وأسندوها إلى السور. وجرت الظروف رخاء وفق أهوائهم إذ قدم ثغر يافا في ١٧ حزيران (يونيو) ١٠٩٩ بعض أساطيل جنوية حملت إلى المهاجمين ما هم في حاجة إليه من الذخيرة والأخشاب والعمال. ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا قوة من رجالهم أخذت تجوس خلال بعض النواحي التي تتوفر فيها الأخشاب. وعمل الجميع في البناء فلم يتأخر عنه الزعماء بل عملوا جنباً إلى جنب مع الحجاج والمحاربين مما شدد عزائم الجميع وأدركوا أنهم يحاربون من أجل المسيح. وأقاموا صلاة ردت عليهم هدوءهم الروحي.

وشرع الصليبيون بهجوم شديد، ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعاً أشدّ فقام المدافعون بهجوم مضاد من أجل إحراق آلات الحصار الخشبية التي نجحت في هدم أجزاء كبيرة من سور القدس. فأخذوا برميها بالسهام والأحجار، كما عمدوا إلى قذفها بجرار هشة مليئة بالنار والكبريت والقطران والزيت وكل ما يصلح أن يكون وقوداً. وأجبر المدافعون على التقهقر نحو الأسوار الداخلية بعد سقوط السور الخارجي بأيدي الصليبيين الذين نجحوا أيضاً في تسلق بعض الأسوار الداخلية، لكن المدافعين نجحوا في رد الصليبيين على أعقابهم

دام القتال على القدس ستة أسابيع وتم احتلالها يوم الجمعة ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩م ومما ساعد الصليبيين على النصر أنهم رموا ناراً من الأبراج الخشبية على آلات الحرب المركبة على السور فالتهبت وزادتها الريح التهاباً وتطاير الشرر والدخان على المدافعين فاضطروا للتأخر عن الأسوار. وكان احتلال القدس بعد نحو ستة أشهر من احتلال انطاكية.

الفصل التاسع

غـــارة تيمورلنك

> الدولة المملوكية الثانية بدأت في مصر سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م بالسلطان الظاهر (برقوق) وهي التي تقدم في عهدها تيمورلنك إلى بلاد الشام.

وعرفت هذه الدولة بالبرجية، وبالشركسية، تمييزاً لها عن الدولة الأولى التي عرفت بالبحرية، وذلك أن السلطان المملوكي قلاوون أخذ ابتداء من سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٩١م في جمع جماعات من المماليك الشراكسة وإسكانهم في أبراج القلعة، ومن هنا أخذت الدولة اسميها. وعندما مات قلاوون كان عدد المماليك الشراكسة لا يقل عن ثلاثة آلاف وسبعمئة مملوك، وعندما تولّى بعده ابنه الأشرف خليل سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م. استمر في تجميع المماليك الشراكسة، فبلغ ما جمعه، خلال الآونة القصيرة في حكمه، حوالي الألفين.

وقد غاظ اعتماد قلاوون وابنه خليل على الشراكسة أحد كبار الأتراك (كتبغا) فاغتال الأشرف خليل وأقام مقامه في السلطنة شقيقه الناصر محمد الذي كان لم يتجاوز التاسعة من عمره، وأعلن نفسه نائباً للسلطنة، وراح يضطهد الشراكسة بعد أن عزل الناصر محمد وأعلن نفسه سلطاناً باسم العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ ـ ٦٩٦هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦م).

على أن الأمر لم يدم له، فما لبث حسام الدين لاجين أن خلفه وقام في السلطنة مقامه باسم السلطان المنصور لاجين (٦٩٦ ـ ٦٩٨هـ/١٢٩٦ ـ ١٢٩٨م)، ولكن الشراكسة لم يسكتوا فلم يلبث أحد قوادهم «كرجي» أن قتل السلطان لاجين وأعاد الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة فتولاها ثانية (٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ/١٢٩٨ ـ ١٣٠٨م). وأدّى تتابع الأحداث

إلى تقوية الشراكسة وتنحية السلطان الناصر محمد وتنصيب زعيم الشراكسة ركن الدين بيبرس الجاشنكير مكانه باسم السلطان المظفر (٧٠٨ ـ ٧٠٩هـ/١٣٠٨ ـ ١٣٠٩م). ولكن القوة عاودت السلطان الناصر محمد ما أدى إلى عودته إلى الملك مرة ثالثة وتنحي المظفر بيبرس، واستمر الناصر هذه المرة في الحكم حوالي ثلاثاً وثلاثين سنة (٧٩٠ ـ ٧٤٢هـ/١٣٠٩ ـ ١٣٤١م) عمل خلالها على إضعاف الشراكسة فقتل بيبرس وسجن خمسة عشر أميراً من أمرائهم معلناً أن السلطنة صارت إرثاً في البيت القلاووني يرثها الأولاد فالأحفاد.

وعلى الرَّغم مما حل بالشراكسة فقد ظلوا قوة عسكرية يحسب حسابها لا سيما بعدما بدأ الحكم القلاووني يتدهور اقتصادياً وإدارياً في عهود أحفاد الناصر محمد (٧٦٣ ـ ٧٨٤هـ/ ٣٦١ ـ ١٣٨٢م): المنصور محمد والأشرف شعبان والمنصور علي والصالح حاجي ما أدى إلى بروز «برقوق» الذي كان يعمل للوصول إلى السلطنة بحنكة وتروٍّ، فتخلص أولاً من منافسيه وأحسن التملق إلى الناس، وراح يعمل على إضعاف نفوذ المماليك البحرية الأتراك الذين كانوا قد وصلوا في الشام إلى المناصب الكبرى سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م.

ولم يلبث أن أصبح الخليفة العباسي وكبار رجال الدولة طوع يديه إلى أن انتهى به الأمر إلى خلع السلطان حاجي بن شعبان والحلول محله في السلطنة، فبدأت به دولة المماليك الثانية (البرجية) سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م.

على أن الأمر لم يصفُ له أول الأمر، فقد استطاع الصالح حاجي بن شعبان أن يعود إلى السلطنة سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م). ولكن برقوق عاد إليها بقوة الشراكسة ٧٩١ ـ ٨٠١ (١٣٨٩ ـ ١٣٩٨م).

ظهور تيمورلنك

في الوقت الذي كان فيه أمر برقوق قد انتظم، واستقرت له الأمور في مصر ومعها بلاد الشام، كان ظهور تيمورلنك.

ووردت الأخبار إلى مصر بأن تيمورلنك أخذ تبريز وشيراز، وركب برقوق إلى الشام. وجاءه في حلب قاصد من عند (ابن عثمان)، ومعه مطالعات مضمونها أن يكون هو (ابن عثمان) والظاهر برقوق يداً واحدة على دفع تيمورلنك، فأجابه الظاهر إلى ذلك، ورد له الجواب بما يطيب به خاطره، ثم حضر إليه قاصد طقتمش خان، صاحب بسطام، وعلى يده مطالعات تتضمّن ما قاله (ابن عثمان) فأجابه الظاهر إلى طلبه». وكان تيمورلنك قد كتب إلى الظاهر برقوق يطلب إليه تسهيل الحركة التجارية وإقامة علاقة بين البلدين، لكن سلطان

المماليك استخف بتيمورلنك وَرَدَّ عليه بقتل رسله[1] وقد دارت بينهما المراسلات التالية:

الرسالة الأولى منقولة من كتاب «ظفر نامه» تأليف المؤرخ الفارسي شرف الدين علي يزدي (ج١: ص٦٤٢ ـ ٦٤٣) وهي باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان برقوق وتاريخها سنة ٧٩٥هـ. ويبدو أنها أول خطاب بعثه إلى السلطان برقوق يدعوه فيه إلى مراعاة حسن الجوار، وإقامة العلاقات الطيبة لتأمين طرق المواصلات والتجارة.

والثانية منقولة من المؤرخ المصري أحمد بن علي المقريزي: «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤ ج٤ ص٢٣٧ ـ ص٢٣٨) وهي من تيمورلنك إلى السلطان برقوق ويرجع تاريخها إلى ٧٩٦هـ وهي تختلف عن الأولى من حيث اللهجة والتطويل اللفظي، وتحتوي على تهديد بالحرب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق إذا هو لم يعلن طاعته له.

أما الثالثة فهي جواب السلطان برقوق على الكتاب الثاني من تيمورلنك وهي منقولة كذلك عن أحمد بن علي المقريزي: «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية ج٣ ص٢٣٧ ـ ص٢٣٨) وتاريخها سنة ٧٩٦هـ، وفي هذا الجواب حرص السلطان برقوق على الظهور بعدم الإكتراث لتهديدات تيمورلنك.

والرابعة باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان فرج بن برقوق وتاريخها ٨٠٣هـ، وهي منقولة من كتاب «ظفر نامه» تأليف شرف الدين علي يزدي (ج٤ ص٢٦٧)، واشتملت على تهديد من تيمورلنك إلى السلطان فرج إذا هو لم يطلق أسيراً تترياً كبيراً من أسرة تيمورلنك، هو القائد أطلمش الذي وقع في يد السلطان برقوق سنة ٧٩٥هـ.

وتشتمل الخامسة على تهديد ثان من تيمورلنك للسلطان فرج، ومطالبته بإعلان الطاعة، والدعاء له في خطبة الجمعة بالقاهرة. وهي مكتوبة بالفارسية، ومنقولة كذلك من كتاب «ظفر نامه» تأليف شرف الدين علي يزدي (ج٢ ص٣١٥ ـ ص٣١٦) وتاريخها سنة ٨٠٣ ـ وهي خطاب جاف مختصر، ويبدو أن تيمورلنك أمر بكتابتها، وهو في الطريق إلى دمشق.

وتشتمل السادسة على جواب السلطان فرج على هذا الكتاب التيموري الجاف وهي منقولة من كتاب «ظفر نامه» (ج٢ ـ ص٣١٧) وتاريخها سنة ٨٠٣هـ، ويتضح منها استعداد

(١) السلاطين في المشرق العربي ص٢٩٦.

السلطان فرج لإعلان الطاعة لتيمورلنك بشرط قيام تيمورلنك من جانبه بالإعتذار عما قام به من هجوم على دمشق.

والسابعة رسالة ثانية باللغة الفارسية من السلطان فرج إلى تيمورلنك، وهي منقولة من كتاب «ظفر نامه» (ج٢ ص٣٢٧)، وتاريخها سنة ٨٠٣هـ ويبدو أن السلطان فرج أمر بكتابتها وهو في داخل دمشق وتيمورلنك محيط بأسوارها، وفيها يؤكد السلطان فرج وعده السابق ويطلب وقف القتال.

والثامنة منقولة من مخطوط، «كتاب روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٨ فا ج٦ ص٢٤٦)، وهو من تأليف محمد بن خواندشاه ميرخواند، وهي بالفارسية كذلك، وتاريخها سنة ٨٠٥هـ؛ وهي خطاب من تيمورلنك إلى السلطان فرج بعد انتصار تيمورلنك على السلطان بايزيد العثماني في واقعة أنقرة، وفيها طلب تيمورلنك من السلطان فرج سك نقود مصر والشام باسمه والدعاء له في خطبة الجمعة.

(١)

كتاب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هجرية (شرف الدين علي يزدي: ظفر نامه، ج١، ص٦٤٢ ـ ٦٤٣).

ترجمة الكتاب عن الفارسية:

«لما كان بيت جنكيزخان في حروب مع أسلافكم السلاطين الذين ظلموا شعب الشام، وإن هذه الحروب أنهت بسلام اختلاف الرسل، عاد الأمن والتعاون بين الدولتين؛ غير أنه منذ وفاة الإيلخان العظيم السعيد أبو سعيد بهادر لم يحكم في بلاد فارس حاكم من نسل جنكيزخان الذي نظم أمور الناس، ولكن على العكس قام حكام في كل الإمارات في هذه الإمبراطورية الكبيرة مكان ملوكها، وسببوا متاعب لا نهاية لها لشعوب هذه الأمبراطورية. أما وقد اختارنا الإله الواحد بفضل من عنده لإصلاح ما فسد، وأدان لسيفنا المظفر كل بلاد فارس والعراق العربي الذي تتاخم حدوده حدود بلادكم، فإن المحبة التي ندين بها لشعبنا تتطلب بحكم الجوار أن نتبادل الكتب، وأن يأتي الرسل، ويعودوا في يسر بين بلدينا، وأن ينتقل تجار البلدين في أمن حتى تنتعش البلاد، ويكثر السكان، ويعيشوا في سلام. ولهذا السبب أرسلنا رسولنا إليكم ضارعين إلى الله أن يكلأكم بعنايته إن سلكتم حسب هذا. والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين».

(٢)

كتاب تيمورلنك (الكتاب الثاني) إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٦هـ (المقريزي، أحمد بن علي: السلوك صور شمسية ج٣ ص٢٣٧ ـ ٢٣٨).

«قل اللهم مالك الملك»[١] ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢]. اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه، ومسلطون على من حل عليه غضبه، لا نرق لشاك[٣]، ولا نرحم عبرة باك[٤]، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا. قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها، وملكنا بالشوكة أزمتها، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل[٥] فقل له:

﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[٦]، وذلك بكثرة عددنا وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق وأسنتنا بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرمال، ونحن أبطال وأقيال، وملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام، وعزنا أبداً لسؤود مقام، فمن سالمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جُهل. وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم، فلا تلوموا[٧] إلا أنفسكم، فالحصون منا مع تشديدها لا تمنع، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ولا يسمع، فكيف يسمع الله دعاءكم، وقد أكلتم الحرام، وظلمتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعددتم لكم النار وبئس المصير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٨]، فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك، وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغي

(١) ما بين الحاصرتين من ابن تغري بردى: «النجوم الزاهرة ج١٢، ص٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦).
(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٦.
(٣) (٤) كذا في الأصل.
(٥) كذا في الأصل.
(٦) سورة النمل، الآية: ٣٤.
(٧) كذا في الأصل.
(٨) سورة النساء، الآية: ١٠.

والإسراف، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفي غد ينادى عليكم: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾(١)، فأبشروا بالمذلة والهوان، يا أهل البغي والعدوان، وقد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة، وقد سلطنا عليكم الإله. له أمور مقدرة وأحكام محررة، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل، لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منكم كل سفينة غصباً، وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادي منادي الفراق: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾(٢)، ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزاً، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾(٣). وقد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٤)، وقد أوضحنا لكم الكلام فأرسلوا برد الجواب والسلام».

(٣)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٧٩٦هـ:

(المقريزي، أحمد بن علي: السلوك، صور شمسية، ج٣ ص٢٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾(٥) حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ونزعاتكم الشيطانية، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية وسيرة الفكرة الملائكية، وأنكم مخلوقون من سخط الله، ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذلك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين، وتكفيكم هذه الشهادة الكافية، وبما أوقفتم به أنفسكم ناهية، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ٨.
(٣) سورة مريم، الآية: ٩٨.
(٤) سورة النور، الآية: ٥٤.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

دِينِ﴾[١]، ففي كل كتاب لعنتم، وعلى لسان كل مرسل نعتم، وبكل قبيح وصفتم، وعندنا خبركم من حيس خرجتم، أنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين، من تمسك بالأصول فلا يبالي بالفروع. نحن المؤمنون حقاً لا يدخل علينا عيب، ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلمنا ببركة تأويله، فالنار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[٢]، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت[٣] بالتوت[٤]، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع، نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، وليوثنا مضرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة، ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٥]. وأما قولكم: قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم، ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٦]. الفرار الفرار من الرزايا، وطول البلايا، واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعداء، وإن قتلنا قتلنا شهداء، ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٧]. أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة، لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ففي نظمه تركيك، وفي سلكه تلبيك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان، أم اتخذتم إلهاً ثانٍ، وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم، ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾[٨]، قل لكاتبك الذي وضع رسالته ووصف مقالته، وصل كتابك كضرب رباب أو كطنين ذباب، ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا * وَنَرِثُهُۥ مَا

(١) سورة الكافرون، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة الانفطار، الآية: ١.
(٣) الرتوت جمع رت وهو الرئيس والسيد (المعجم الوسيط).
(٤) كذا في الأصل.
(٥) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ ـ ١٧١.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٨) سورة مريم، الآيتان: ٨٩ ـ ٩٠.

يَقُولُ﴾[1]، إن شاء الله تعالى [لقد خلطتم في الأمر في الذي أرسلتم][2] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[3] والسلام».

(٤)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج كتبه من ملطية في شهر المحرم سنة ٨٠٣هـ (شرف الدين علي يزدي: ظفر نامه ج٢، ص٢٧٦).

ترجمة الكتاب عن الفارسية:

«لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جملتها قتله رسلنا دون سبب، وحبسه أطلمش الذي كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه. ولما أسلم والدك وديعة الحياة فإن سؤاله وجزاءه قد أوكل إلى الباري يوم القيامة. وينبغي عليك أنت أن ترحم نفسك وأهل مملكتك، وأن تعيد أطلمش إلينا حتى تنجي أهل مصر والشام من انتقام جيشنا الذي يتحرق إلى الثأر. وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان اللجاج وعناد الخلاف، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خراباً بمجرد مرور عساكرنا المنصورة وعبورها فيها. وسيكون وزر ووبال دماء المسلمين وأموالهم في عنقك».

(٥)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج في جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ حين تقدم تيمورلنك لحصار دمشق (شرف الدين علي يزدي: طفر نامة، ج٢ ص٣١٥ ـ ٣١٦).

ترجمة الكتاب عن الفارسية:

«لقد علمت آثار حزمنا وعزمنا في الأمور، وعلو همتنا في تحصيل المطالب، وإتمام المقاصد والمآرب، وإن العقلاء ليعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نزع من الغيرة والحمية، سواء كان الرجال ملوكاً أومن أفراد الشعب. وإن الهدف الأصلي للملوك من قيادة الجيوش وفتح الممالك مع كل هذا الرعب والخطر هو رعاية الناموس في الحال وبقاء الذكر الجميل في المآل، وليس هو مجرد جمع المال وتكثير المنال.

إن أهم الأعمال في الدنيا رعاية الناموس وإبقاء الذكر الطيب، وإلا فإن المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز.

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) ما بين الحاضرتين من ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج١٢ ص٥٢ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦).

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

وقد طلبت أطلمش مرات، ولكنكم لم ترسلوه وتعللتم بعلل واهية لتأخير إرساله، حتى ثارت فينا النخوة لنسير إلى بلادكم، وننزل أنواع الخراب والدمار بالناس والأحوال في دياركم.

«إذا نطق الصخر، فسيجيب بأن شجرة الخطأ لا تعطي ثمراً».

وبرغم هذا كله فإنك إذا أرسلت أطلمش، وزينت السكة والخطبة باسمنا وألقابنا، وطويت بساط النزاع بيننا، ورحمت نفسك وأهل ديارك، لانتهى كل شيء، وإلا فإن جيشنا الجرار المتعطش إلى احتساء الدماء سوف يعصف بالمخالفين، ويقهر المعاندين، ويستولي على الديار ويقتلع الرسم المعهود ويبلغ غاية المقصود.

«هناك طريقان طريق المداراة وطريق اللجاج»

«الأول يؤدي إلى الأمن والثاني يؤدي إلى الحرب»

«وقد أظهرت لك العقل فانتصح»

«واختر طريقاً من الطريقين»

(٦)

جواب السلطان فرج على كتاب تيمورلنك السابق وتاريخه جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ (شرف الدين علي يزدي: ظفر نامه ج٢ ص٣١٧).

ترجمة الكتاب عن الفارسية:

«نحن عبيد في مقام الطاعة والإنقياد. وسنرسل أطلمش في خلال خمسة أيام. فإذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فإننا لن نهمل أو نقصر في أداء وظائفنا وإطاعة الأوامر، وإظهار الخضوع وسنفعل كل ما في مكنتنا ومقدورنا لإرضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية».

(٧)

كتاب من السلطان فرج إلى تيمورلنك كتبه من دمشق وقت حصار تيمورلنك لها وتاريخه جمادى الأولى ٨٠٣هـ (شرف الدين علي يزدي: ظفر نامه، ج٢ ص٣٢٧).

ترجمة الكتاب عن الفارسية:

«إن ما حدث أمس كان من فعل بعض الغوغاء دون رغبة منا، إذ أن جمعاً من الجهال والأوباش قد تجرأوا عن جهل للهجوم فلقوا جزاءهم. ونحن باقون على العهد الذي

عرضناه، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم، فإننا سوف ننفذ غداً كل ما تأمرون به، ونقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقة حسب المقدور».

(٨)

كتاب من تيمورلنك بعد واقعة أنقرة إلى السلطان فرج وتاريخه ٨٠٥هـ (مير خواند: روضة الصفا، ج٦، ص٢٤٦).

ترجمة الكتاب عن الفارسية: «أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصرة الله، وعناية السلطان تحت حكم أتباعنا فينبغي أن تزين سكة بلاد الشام ومصر وخطبتها باسمنا ولقبنا العظيم، وأن تطلقوا سراح أطلمش في الحال، وترسلوه إلى بلاطنا الذي هو ملجأ للعالم، وإذا تغافلتم في هذا الأمر أدنى تغافل فتيقنوا أن راياتنا المظفرة ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر وترفرف على ربوعها. وقد قلت كل ما في نفسي وأنت تعرف ما بعد ذلك. وقد أعذر من أنذر». ا هـ.

تعليق لنا

ونقول تعليقاً على الاستهانة من تيمورلنك بالإقرار بأنهم لا يرقّون لشاك ولا يرحمون عبرة باك، وأنهم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم، وبأنهم خربوا البلاد ويتموا الأولاد وأظهروا في الأرض الفساد. والتباهي بهذا، نقول: يدلك هذا على الحال التي وصل إليها حكام المسلمين، والصحيح أن نقول الحال التي استمر عليها أولئك الحكام منذ العام الهجري ٤١ حتى العام ٧٩٦ وما بعده، أي منذ صدور الأوامر إلى بسر بن أرطاة وسفيان بن عوف بالقتل العام والنهب العام في الأنبار والحجاز واليمن، واستمرار ذلك حتى عهد تيمورلنك. والفرق بين من سبق تيمور منذ العام ٤١هـ حتى العام ٧٩٦ أن هذا لم ينافق كما نافق من سبقه ولم يدّع ما ليس فيه، بل كان صريحاً واضحاً معلناً حقيقة نفسه!

صحيح أن هذا الذي يعلنه تيمور إنما يراد به التهديد والوعيد، ولكن الصحيح أن التباهي به شيء فظيع، والذي يتفق فيه الطغاة منذ العام ٤١هـ حتى العام ٧٩٦ وما بعده أنهم جميعهم يقولون إنهم جند الله.

ثم إنا نفهم من مجرى الأحداث ـ كما قلنا من قبل ـ أن تيمور لم يكن البادىء بالشر، ولنا أن نقول: إنه لم يكن في ذهنه غزو بلاد الشام لولا قتل برقوق لرسله، وأن المسؤول عن ذلك الغزو وما جرّه على بلاد الشام من الويلات هو الظاهر برقوق بخروجه على أبسط قواعد الأعراف الإنسانية العالمية، من أن الرسل لا تقتل.

رجوع تيمور

وقد كان الظاهر برقوق قد استعد للقاء تيمور، فعن تاريخ ابن أياس أنه في سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير طغاي، وكان قد توجه إلى بلاد الشرق لمعرفة أخبار تيمورلنك، فأخبر السلطان أن جاليش (أعلام) تيمور قد وصل إلى الرها وكسر قرا محمد أمير التركمان، وأن بوادر عسكره قد وصلت إلى ملطية، فأمر السلطان بعقد مجلس بالقصر الكبير، وطلب القضاة الأربعة والخليفة وشيخ الإسلام عمر البلقيني وأعيان المشايخ المفتين والأمراء، فتكلم السلطان في أخذ مال الأوقاف، فلم يوافق شيخ الإسلام ولا القضاة الأربعة على ذلك، فشكا السلطان خلو الخزائن، فوقع جدال عظيم ودافعوا السلطان وأغلظوا له، ثم اتفقوا على أن يؤخذ من الأوقاف أجرة الأماكن وخراج الأراضي سنة كاملة، ورسم السلطان لمحتسب القاهرة أن يتولى جبي الأموال من الناس، ورسم بأخذ زكاة الأموال من التجار، وندب إلى ذلك القاضي الحنفي. وفي رجب سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، خرجت التجريدة من القاهرة في تحمل زائد واستمرت من الصبح إلى قريب الظهر. واشتد الأمر على الناس، وجبيت الأموال منهم غصباً بالعصا في يوم واحد ثم جاءت الأخبار برجوع تيمور إلى بلاده وأن ولده قتل فسكن الناس ورسم السلطان برد ما أخذ منهم.

وفي هذا النص الذي أخذناه بكامله عدة أمور تلفت النظر:

١ - إن الخليفة يدعى كسائر الناس إلى المؤتمر الذي عقده برقوق، ثم لا يكون له رأي في كل ما يجري، فقد لزم الصمت وترك الآخرين يتجادلون ويقررون.

٢ - وجود منصب ديني كبير يسمى من يتقلّده «شيخ الإسلام». وعلى هذا فليس الأتراك العثمانيون هم الذين أوجدوا هذا المنصب في عهدهم، بل سبقهم إليه المماليك. وإذا كنا قد عرفنا صلاحية شيخ الإسلام العثماني فإننا نجهل صلاحية شيخ الإسلام المملوكي.

٣ - استقلال رأي شيخ الإسلام وآراء القضاة الأربعة وشجاعتهم في الوقوف بوجه السلطان، ومنعه من الاستيلاء على الوقف، في حين أن الخليفة لم يبد ولم يعد في هذا الأمر وسلم به.

ولم يكتفِ شيخ الإسلام والقضاة الأربعة بمعارضة السلطان بل دافعوه وأغلظوا له، بنص ابن أياس.

٤ - غربة الشعب عن هذا كله، فالناس يرون أنه تُطلب منهم الأموال لتغذية حرب لا ناقة

لهم فيها ولا جمل، بل إن السلطان أوقعهم فيها بطغيانه حين قتل رسل تيمورلنك، وكانوا في غنى عن ذلك لهذا تمرَّدوا على دفع الأموال، ولم تُجْبَ منهم إلا بالعصا.

أما رجوع تيمور عن قصد برقوق بعد أن كان متوجهاً إليه، فقد ذكر ابن عربشاه سببه كما يلي: في ٧ ذي القعدة سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م، رحل تيمور واستصحب معه الملك الظاهر صاحب ماردين وحبسه في مدينة (سلطانية) وحبس معه من أمرائه الأمير ركن الدين وعز الدين السليماني واستنبوغا وضياء الدين وضيق عليه ومنعه من مكاتبة أهله بحيث بقي سنة لا يُعرف له خبر. ثم وفدت الملكة الكبرى إلى سلطانية وخففت عنه، وأذنت له بمراسلة أهله ونصحته بالدخول في طاعة تيمور. قال: وكان سبب خروج تيمور أنه بلغه أن فيروز شاه سلطان الهند قد توفي وليس له ولد، وأحوال بلاد الهند مضطربة، فرأى أن توجهه إلى بلاد الهند والاستيلاء عليها أولى من مجيئه إلى الديار المصرية فكرَّ راجعاً إلى بلاد الهند واستولى عليها. ولما بلغ برقوق رجوع تيمور إلى بلاده رجع هو إلى مصر اهـ.

على أن رجوع تيمور عن قصد بلاد الشام كان رجوعاً موقَّتاً، فهو لا يمكن أن ينسى الإهانة التي لحقته بقتل برقوق لرسله وما وجهه إليه من شتائم في رسالته.

إنه في الأصل لم يكن ينوي غزو بلاد الشام التي كانت تابعة لحكم برقوق في مصر، بل على العكس من ذلك، تودد إليه في اول الأمر وراسله مراسلة تحمل طابع التآلف كما رأينا في ما تقدم من القول.

استقرار تيمور

عندما قصد تيمور بغداد هرب السلطان أحمد بن أويس، المتغلِّب عليها، إلى الشام؛ وذلك في شهر شوال من سنة ٧٩٥هـ. ووصلها تيمور في ٢١ منه، ثم خرج منها قاصداً ديار بكر وأذربيجان وتساقطت بعد ذلك عدة مدن في يده.

وسار أحمد بن أويس إلى الرحبة فحلب، فلما بلغ الظاهر برقوق ـ وهو في مصر ـ خبره أرسل إليه الإقامات ووجه إليه من يستقبله من الأمراء، وذلك كرهاً بتيمور.

ووصل إلى برقوق رسول السلطان بايزيد العثماني حاملاً له هدايا عظيمة، وأخبره بأمر تيمور وحذّره من الغفلة في أمره. فأوعز برقوق إلى والي القاهرة بالنداء للعسكر بالعرض في الميدان، وتكررت المناداة ثلاثة أيام بأن لا يتأخر عن العرض كبير ولا صغير[1].

---

(١) ابن أياس.

وكان تيمور قد استولى على ديار بكر والرها، وأرسل إلى القاضي برهان الدين أحمد، حاكم سيواس وقيصرية وتوقات، أن يخطب باسم محمد خان بن (سيور غاتمش خان) واسم تيمور ويضرب السكة باسمه، فلم يجبه القاضي بشيء، بل قتل بعض رسله وقطع رؤوسهم وعلقها في أعناق من بقي منهم وشهرهم وأرسل قسماً منهم إلى الظاهر برقوق وقسماً إلى السلطان با يزيد العثماني، فأرسل إليه با يزيد يشكره على ذلك.

فلما بلغ تيمور ما جرى على رسله غضب غضباً شديداً.

ثم وصل أحمد بن أويس إلى مصر في ربيع الأول سنة ٧٨٦هـ مستصرخاً الظاهر برقوق، فنادى برقوق في عسكره بالتجهيز إلى الشام[1] واستخلف على القاهرة النائب سودون، وارتحل على تعبئة، ومعه أحمد بن أويس، ودخل دمشق آخر جمادى الأولى، وكان قد أوعز إلى جلبان نائب حلب بالخروج إلى الفرات واستنفار العرب والتركمان للإقامة هناك رصداً للعدو، فلما وصل دمشق وفد عليه جلبان ثم رجع، وبعث برقوق العساكر مدداً له.

وكان تيمور قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها شهراً وملكها، وامتنعت عليه قلعتها فارتحل إلى ناحية بلاد الروم ومَرَّ بقلاع الأكراد فأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها. وبرقوق لهذا العهد ـ وهو شعبان سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م ـ مقيم في دمشق. ويقول ابن إياس: إن برقوق وصل دمشق مع القان أحمد بن أويس يوم الإثنين ١٢ ربيع الآخر فنزل بالقصر الأبلق الذي في الميدان، ثم توجه إلى حلب، فحضر إليه قصاد من السلطان با يزيد بن عثمان بأن يكون هو (بايزيد) وبرقوق يداً واحدة على دفع تيمور. ثم حضر إليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام بمثل ذلك فأجابهما بالقبول، وبلغه وهو بحلب أن جاليش عسكر تيمور قد وصل البيرة.

نظرة في هذه الأحداث

نرى، في ما سبق عرضه، أنه إذاكان تيمور قد فعل ما فعل من القتل في بلاد الشام، فإن القاضي برهان الدين أحمد، حاكم سيواس، قد سبقه إلى ذلك وجرّأه عليه وأوجد له المسوِّغ.

فهذا القاضي الحاكم الذي يستحل قتل الرسل، ثم يعلق رؤوس مَن قتلهم في أعناق من

(١) عجائب المقدور.

لم يقتلهم ويشهرهم ويرسل بعضهم بهذه الحالة إلى برقوق، وبعضهم إلى السلطان العثماني، هو نظير لتيمور في ارتكاب الفظائع، ومتفوق عليه في سفك الدماء، ومشجِّع له على المجازر، وقد أوجد له الأعذار في هذا.

والسلطان العثماني والسلطان المملوكي، اللذان سَرَّهما هذا العمل وأرضاهما، هما شريكان في تشجيع المجازر البشرية الجماعية!

فعلينا ألا نصم تيمور وحده، بل أن نصم هذين الحاكمين ـ والحاكم الآخر الذي سيأتي ذكره ـ اللذين هلّلا للمجزرة وأن نوجه الوصمة الكبرى إلى القاضي الحاكم برهان الدين بأشد مما نوجهها إلى تيمور، لأن تيمور، في ما فعل، منتقم لرسله القتلى وغير مبتدىء بالقتل.

ولم يكن القاضي برهان الدين وحده هو الذي قتل رسل تيمور بل إن «برقوق»، هو الآخر فعل الأمر نفسه ـ كما تقدم ـ وكذلك فعله دمرداش نائب حلب (واليها)، ما أثار غضب تيمور ونقمته وجعله يصمم على غزو بلاد الشام.

ولم يخجل هذا الذي لقَّب نفسه باللقب الديني العظيم: برهان الدين، وهو يحمل هذا اللقب، من أن يدنس الدين الذي جعل من نفسه برهانه بسفك دماء الأبرياء وتعليق رؤوس القتلى على صدور الأحياء والطواف بهم من بلد إلى بلد.

عوامل أخرى

وهناك عوامل أخرى حفزت تيمور على غزو بلاد الشام، ومنها ما أشار إليه ابن حجر في ما حكي أنه ذكر في حوادث سنة ٧٩٨هـ. أن «اطلمش»، قريب تيمور، قبض عليه قرا يوسف التركماني، صاحب تبريز وأرسله إلى الظاهر برقوق فاعتقله. وقال في حوادث سنة ٧٩٩هـ: «وصلت كتب من تيمور فعوقت رسله بالشام وأرسلت الكتب التي معهم إلى القاهرة ومضمونها التحريض على إرسال قريبه اطلمش الذي أسره قرايوس. فأمر السلطان برقوق أن يكتب أطلمش إلى قريبه كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه من الخير والإحسان بالديار المصرية. وأرسل برقوق ذلك مع جوابه، ومضمون الجواب: إذا أطلقت من عندك من جهتي أطلقت من عندي من جهتك والسلام».

هذا رأي «ابن حجر»، ولكن يظهر، من غير ابن حجر، أن تيمور كان غاضباً على أطلمش وأنه طلبه ليعاقبه. ويروي صاحب كتاب «عجائب المقدور» قصة قتل رسل تيمور مع روايته قصة «أطلمش»، كما يروي ذلك صاحب «البدر الطالع» قائلاً:

أرسل تيمور، وهو في «عينتاب»، رسولاً إلى النواب في حلب طلب فيه منهم أن يطيعوا أمره ويكفّوا عن القتال وأن يخطبوا باسم محمود خان وباسمه وأن يرسلوا إليه «أطلمش»، زوج بنت أخت تيمور الذي أسره التركمان وأرسلوه إلى مصر، فلم يُجَب إلى شيء مما طلبه وقتل سودون نائب دمشق الذي كان يومئذ موجوداً في حلب، مع بقية نواب البلاد الشامية، رسول تيمور قبل أن يسمع كلامه وضرب رأسه على رؤوس الأشهاد.

وعن ابن حجر أن الكتاب كان إلى نائب حلب وأنه قال فيه: «إنا وصلنا في العام الماضي إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة ثم بلغنا موته (يعني الظاهر برقوق)، وبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد فتوجهنا إليهم فأظفرنا الله تعالى بهم ثم رجعنا إلى «الكرج» فأظفرنا الله بهم، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبي ابن عثمان فأردنا عرك أذنه ـ وكان عمر با يزيد يومئذ فوق الثلاثين ودون الأربعين ـ فشغلنا بسيواس وغيرها من بلاد ما بلغكم، ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها، فنعلمهم أن يرسلوا قريبنا أطلمش، فإن لم يفعلوا فدماء المسلمين في أعناقهم والسلام».

فأمر نائب حلب بضرب أعناق رسل تيمور. فلما علم تيمور أن رسله قُتِلت زحف من عينتاب على حلب، ثم بعد ذلك إلى دمشق، فجرى فيها ما جرى من أهوال الحريق والقتل والنهب. . .

وأقام في دمشق ثمانين يوماً، ثم غادرها عائداً إلى بلاده. وبذلك يتأكد أن غرضه كان الانتقام لقتل رسله لا فتح البلاد وحكمها.

ونحن نعتبر أن المسؤول الحقيقي عن محنة بلاد الشام لا تيمور وحده، بل إن المسؤولية تقع أولاً على القاضي برهان الدين أحمد والظاهر برقوق وسودون نائب دمشق ودمرداش نائب حلب، هؤلاء الذين قتلوا رسله فأثاروه للانتقام لقتل رسله. وقد كان من قبل متودداً لأولئك القتلة طالباً إقامة علاقات تجارية بين بلاده وبلادهم، كما مر.

ومن اللافت للنظر أن ابن الشحنة يروي ما يلي: إنه وجد منقوشاً على رخامة بالجامع النووي بحماه ما خلاصته: «سبب نقش هذا أن الله تعالى يسَّر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهينا إلى بغداد، فأرسلنا قصادنا إلى ملك مصر بأنواع التحف والهدايا، وكان قصدنا أن تتأكد الصداقة بيننا فقتل قصادنا من غير موجب، ثم قبض التراكمة على أناس من جهتنا وأرسلوهم إلى سلطان مصر برقوق فسجنهم وضيَّق عليهم فلزم من هذا أنّا توجهنا لاستخلاص متعلقينا

من أيدي مخالفينا واتفق لذلك نزولنا بحماه في العشرين من ربيع الآخر سنة ٨٠٣» (١٤٠٠). (انتهى).

ونرى أن تيمورلنك الذي لم يكن لديه من وسائل الإعلام في ذلك الوقت ما يجعله يظهر عذره للرأي العام في غزو بلاد الشام، ويسوِّغ فعل ما فعل سوى رخامة في مسجد تقصده الجماهير في كل يوم جمعة، فتقرأ وتطلع وتذيع بين الناس ما قرأت وطالعت.

وقد أبان، في بيانه هذا، أنه قصد أول الأمر مصادقة برقوق والتحبّب إليه، فأرسل رسله حاملين أنفس الهدايا مُعربين عن عواطف الصداقة ومشاعر المحبة، ولكن برقوق قابل ذلك بقتل الرسل الذين تحرم قتلهم جميع شرائع العالم وأعرافه.

ثم إن برقوق رفض إطلاق أقرباء تيمورلنك الذين قبض عليهم التركمان وأرسلوهم إليه، بل ضيَّق عليهم وسجنهم.

ثم يعلن تيمورلنك، في ختام بلاغه، أنه إنما قدم إلى بلاد الشام لتخليص أقربائه. ولكن لماذا اختار حماه لتكون المكان الذي ينقش على جدار مسجده الجامع بلاغه هذا؟ الذي يلوح لنا أن هذا الاختيار إنما كان لأن مدينة حماه يتوسط موقعها بلاد الشام، وهو موقع تتقاطع فيه طرق الذاهبين إلى جميع جهات بلاد الشام.

عودة تيمورلنك إلى بلاد الشام

لم يقدر لتيمور أن يلقى غريمه برقوق في ميدان القتال، فبينما كان تيمور في الهند توفي الملك الظاهر برقوق، وذلك في ١٥ شوال سنة ٨٠١هـ (١٣٩٨م) وأقيم مكانه ولده فرج وعمره عشر سنين ولقب بالملك الناصر.

وبعد أن استتب الأمر ليتمور في الهند غادرها سنة ٨٠٢هـ مخلفاً فيها نائباً عنه، بعد أن أقام فيها نحواً من سنتين، فعبر نهر جيحون إلى خراسان واجتازها إلى آذربيجان واصلاً آلى مدينة تفليس مستولياً على بلاد الكرج (جورجيا).

وفي ٨ رجب سنة ٨٠٢هـ كان في بغداد ومنها اتجه إلى بلاد الشام فاتحاً ما في طريقه من بلاد حتى كان في عينتاب التي حاصرها ثلاثاً وعشرين ليلة ثم أخذها، ومنها أرسل إلى النواب في حلب كتاباً طلب فيه أن يطيعوا أمره ويكفوا عن القتال وأن يخطبوا باسم محمود خان وباسمه وأن يرسلوا (أطلمش) الذي أسره التركمان وأرسلوه إلى مصر. ومما جاء في الكتاب:

إنّا وصلنا في العام الماضي إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة، ثم بلغنا موته ـ يعني الظاهر برقوق، وبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد فتوجهنا إليهم فأظفرنا الله تعالى بهم ثم رجعنا إلى الكرج فأظفرنا الله بهم، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبي ابن عثمان فأردنا عرك أذنه [1] فشغلنا بسيواس وغيرها من بلاد ما بلغكم، ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمهم أن يرسلوا قريبنا (أطلمش) فإن لم يفعلوا فدماء المسلمين في أعناقهم. والسلام

فأمر نائب حلب[2] بضرب أعناق رسل تيمور. وعمد إلى تحصين سور حلب بالمدافع والمكاحل والمقاتلة.

فلما بلغ تيمور قتل رسله زحف من عينتاب إلى حلب فوصلها في سبعة أيام ونزل بحيلان، قرية من قرى حلب، ثم وصل في ٩ ربيع الأول سنة ٧٠٣هـ إلى حلب وحاصرها. وكان نائبها دمرداش، وقد حضرت إليه عساكر البلاد الشامية للدفاع عن حلب: عسكر دمشق مع نائبها سودون، وعسكر طرابلس مع نائبها السيفي، وعسكر حماه مع نائبها دقماق، وعسكر صفد مع نائبها الطنبغا، وعسكر غزة مع نائبها عمر بن الطحان.

وعندما بلغ هؤلاء النواب وصول تيمور إلى عينتاب عقدوا فيما بينهم مؤتمراً عسكرياً لتقرير خطة الدفاع عن حلب. فرأى بعضهم تحصين المدينة وأن يكونوا على الأسوار، فرد آخرون بأن هذا من إمارة العجز، والرأي أن نكون حول البلد فإنه أفسح للمجال. فقال نائب طرابلس ـ وكان ذا رأي سديد ـ: إن عدد العدو كثير، ولكنه أعمى لأنه غريب عن البلاد والرأي أن نحصن المدينة ونكون خارجها في جانب واحد ونحفر حولنا خندقاً ونكتب إلى الأعراب والأكراد والتركمان فيتسلطوا على العدو بالقتل والنهب، فإن أقام ففي شر مقام، وإن رجع فهو ما نريد. فقال دمرداش: الرأي أن نناجزه ولا نطاوله، وإن لم نناجزه أنس منا الوهن. وأخذ يحرضهم على ذلك، ومما قاله: إنا إذا كسرناهم فهو المرام وكفينا عسكر مصر المؤونة، وإن كسرونا نكون قد بذلنا المجهود.

ولم يزل يحسّن لهم هذا الرأي الفاسد حتى أجمعوا عليه لأنه كان صاحب البلد. على أن هناك من يرى أنه كان موافقاً لتيمور، وأنه أتى بهذا الرأي الفاسد تسهيلاً للأمر على تيمور.

---

(١) كان عمر السلطان العثماني با يزيد يومئذ فوق الثلاثين ودون الأربعين.

(٢) **النائب**: هو الوالي الحاكم.

إن المؤتمر العسكري الذي عقده النواب كان يمثل الجيوش الشامية فقط، وهنا نفتقد الجيش المصري وممثليه، فتيمور كان يقصد أول ما يقصد الانتقام من قاتل رسله الأول: الظاهر برقوق صاحب مصر الذي يتبعه نواب البلاد الشامية، والشام ليست المقصد الأساس ليتمور، بل هي طريقه إلى مصر. وإذا كان الظاهر برقوق قد مات فقد بقي ابنه وأصحابه. وهذا يعرفه المصريون، فلماذا لم يكن جيشهم مشتركاً في الدفاع عن حلب التي هي باب الشام الذي يلجون منه للانتقام؟!

ليس لنا هنا أن نحكم بشيء وبيننا وبين تلك الأحداث ما بيننا من الأزمان، على أن الجيش المصري حضر بعد ذلك للدفاع عن دمشق.

في حلب

قام جيش الدفاع بتحصين حلب وإيصاد أبوابها. ووكلوا بكل محلة أهلها وفتحوا البابين المقابلين للجهة التي نزل فيها تيمور: باب النصر وباب القناة.

وفي يوم وصول تيمور وهو يوم الخميس ٩ ربيع الأول سنة ٨٠٣ برز من عسكره ألفا رجل، فبرز إليهم من العساكر الشامية ثلاثمئة فاستطاعوا هزيمة الألفين. وفي اليوم الثاني برز من العسكر التيموري نحو خمسة آلاف فتقدمت إليهم طائفة من العسكر الشامي، فاقتتلوا حتى المساء ثم افترقوا.

وفي يوم السبت ١١ ربيع الأول ركب تيمور في عساكره وكان قد عبأها تحت جنح الليل، وأمامه الفيلة التي قيل إن عددها كان ثمانمئة وثلاثين فيلاً.

وكان دمرداش على ميمنة العساكر الشامية، فانهزم بالميمنة، فعند ذلك عمت الهزيمة. ومن هنا اتهم دمرداش بالمخامرة.

ويصف أحد المؤرخين ما جرى قائلاً: وفر الباقون وجعلوا يلقون بأنفسهم من الأسوار والخنادق والتتار في إثرهم يقتلونهم ويأسرونهم، فقصدوا المدينة من الأبواب المفتوحة وازدحموا عندها والسيوف تأخذهم حتى سدت الأبواب بالقتلى ولم يتمكن الكثيرون من الدخول. وصعد النواب إلى القلعة وتحصنوا فيها.

وهكذا حرمت المدينة العربية الباسلة من دفاع مشرف، ودخل تيمور حلباً بالسيف، واستمر القتل والأسر والإحراق إلى يوم الثلاثاء.

أما أولئك القواد أصحاب هذا الهوان فكل ما فعلوه أن نزلوا وفي أعناقهم مناديل، وتوجهوا إلى تيمور يطلبون الأمان.

وهنا يختلف المؤرخون في مصيرهم: فابن أياس يقول: إن تيمور خلع عليهم أقبية مخمل أحمر وألبسهم تيجاناً مذهبة وقال لهم: أنتم صرتم نوابي.

أما ابن عرب شاه فيقول إنه قبض على سودون ونواب طرابلس وصفد وغزة وقيدهم، وخلع على دمرداش فقط مكافأة له على مخامرته. ولكن ما حدث بعد ذلك لدمرداش ينفي ذلك.

ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة.

حوار تيمور مع العلماء

وفي يوم الأربعاء صعد إلى القعلة وجلس في أبوابها، وطلب العلماء والقضاة فجاءوا إليه فإذن لهم بالجلوس، ومنهم: ابن الشحنة صاحب تاريخ روض المناظر والقاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي والقاضي علم الدين القنصي المالكي.

وكان يصحبه من العلماء عبد الجبار بن نعمان الدين الحنفي فقال له. قل لهم إني سائلكم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهرات وسائر البلاد التي افتتحتها ولم يحسنوا الجواب فلا تكونوا مثلهم، ولا يجاوبني إلا أعلمكم، وليعرف ما يتكلم، فإني خالطت العلماء ولي بهم اختصاص وإلفة، ولي في طلب العلم طلب قديم.

قال ابن الشحنة: فأشاروا إلي، فقال لي عبد الجبار: سلطاننا يقول: إنه بالأمس قتل منا ومنكم، فمن الشهيد؟ قتيلنا أم قتيلكم؟.

فقلت: هذا سؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأجاب عنه، وأنا مجيب بما أجاب به.

فقال عبد الجبار ـ يسخر من كلامي ـ: كيف سئل رسول الله ﷺ وكيف أجاب؟!

فقلت: جاء أعرابي إليه فقال يا رسول الله إن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليعرف مكانه، فأينا في سبيل الله؟

فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. ومن قاتل منا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد.

فاستحسن تيمور هذا الجواب. وقال عبد الجبار: ما أحسن ما قلت..

وبعد أن سألهم سؤالاً مذهبياً انفتح باب المؤانسة ـ كما يقول ابن الشحنة ـ فقال تيمور: إنني رجل نصف آدمي وقد أخذت بلاد كذا وكذا وعدد الممالك التي استولى عليها.

فقال له ابن الشحنة: اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأمة ولا تقتل أحداً.

فقال: والله إني لم أقتل أحداً قصداً، وإنما أنتم قتلتم أنفسكم في الأبواب ووالله لا أقتل منكم أحداً وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم.

قال ابن الشحنة: وسألني تيمور عن عمري فقلت: مولدي سنة ٧٤٩ وقد بلغت الآن ٥٤ سنة وقال للقاضي شرف الدين: كم عمرك؟ قال أنا أكبر منه بسنة.

قال تيمور: أنتم في عمر أولادي، أنا عمري ٧٥ سنة.

هذه عجائب الدهر!. هذا الفاتح الذي استحل أن ينتقم لقتل لرسله بتلك المذابح، لا يشغله التفكير بما سال على يديه من دماء، بل يشغله التساؤل عن مصير أولئك الضحايا، أهم شهداء يدخول الجنة؟ أم أن قاتليهم هم الشهداء الذين يدخلونها!!.

هذا الذي لم يهتم بمصير الناس في الدنيا، يهتم بمصيرهم في الآخرة!...

وهذا الذي لا يرى أن المجازر والإحراق والنهب مما يغضب الله، يرى أن ترك الصلاة هو وحده الذي يغضب الله!.

يتمم ابن الشحنة كلامه السابق قائلاً:

وحضرت صلاة المغرب وأقيمت الصلاة وأمّنا عبد الجبار، وصلى تيمور إلى جانبي قائماً يركع ويسجد، ثم تفرقنا. ويقول ابن الشحنة: وأوصى بي وبالقاضي شرف الدين.

التوجه إلى دمشق

وأقام تيمور بحلب إلى آخر ربيع الأول سنة ٨٠٣، وفي أول يوم ربيع الآخر برز إلى ظاهر البلد للتوجه إلى دمشق. وفي اليوم الثاني أرسل بطلب علماء البلد.

يقول ابن الشحنة: فرحنا إليه، فقيل لنا: إنه يريد أن يستفتيكم في قتل نائب دمشق الذي قتل رسوله، فقلت: هذه رؤوس المسلمين تقطع وتحضر إليه بغير استفتاء!.

وفي الثالث من ربيع الأول سار متوجهاً إلى دمشق، وحمل خبر هذا التوجه إليها كل من استنبوغا الدوادار، والفتح المدعو بعبد القصار، فخوفا أهل دمشق وحذراهم ونصحاهم بالفرار من دمشق. فاضطرب الناس وتشتت آراؤهم، فبعضهم قبل النصيحة وهرب إلى القدس أو مصر، وبعض اتهمهما وأراد قتلهما، وبعضهم بقي في البلد واستعد للقتال.

والتهمة التي وجهت للرجلين هي ـ فيما يبدو ـ أنهما إنما قدما دمشق للتخذيل وإضعاف المعنويات وبث الانهزامية النفسية. وسنرى بعد هذا ما جرى في دمشق.

وبينما الناس في هذا إذ بلغهم أن ملك مصر الناصر فرج خرج من مصر بالعساكر لقتال

تيمور. ولما كان الناصر لا يزال صغير السن فقد صحبه كافله وأتابكه (باش بيك). فكان لهذا الخبر أثره في تطمين الناس، فعاد كثير ممن كانوا قد خرجوا.

ومضى تيمور حتى بلغ حماه، وتابع سيره حتى حمص، وفي الطريق مرض نائب الشام الذي معه ومات، وهب نائب طرابلس فغضب وقتل الموكلين بحفظه. أما دمرداش المتهم بالمخامرة والذي كان مع غيره من النواب فقد هرب هو الآخر. وبقي في أسره علاء الدين الطنبغا نائب صفد وزين الدين نائب غزة وغيرهما. واستولى في طريقه على بعلبك ومضى عنها حتى أشرف على دمشق من جهة قبة السيار. وكان الجيش المصري قد وصل إلى قبة يلبغا عاشر ربيع الآخر سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) ثم دخل دمشق ونزل في دورها.

أما الجيش التيموري فتقدم حتى نزل غربي دمشق وحدد أحد المؤرخين مواقعه فقال: غربي دمشق من داريا والخولة. ونقل مؤرخ آخر هذا القول وعلق عليه قائلاً: «الذي في النسخة بالخاء المعجمة، ولا يوجد ما يسمى الخولة، فالظاهر أن صوابه الحولة بالمهملة، وهو اسم لناحيتين أحدهما بين حمص وطرابلس والأخرى بين بانياس وصور. ثم يقول: على أن وصول عساكر تيمور إلى حولة بانياس أو حولة حمص مستبعد فإنها على كثرتها ينبغي أن تنزل فيما يقرب من دمشق وما يجاورها والله أعلم.

الدفاع عن دمشق

يقول ابن تغري بردي: لما قدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب نودي في الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو، فأخذوا في ذلك، فقدم عليهم المنهزمون من حماه فعظم خوف أهلها وهموا بالجلاء فمنعوا من ذلك، ونودي من سافر نهب فعاد إليها من كان خرج منها.

وحصنت دمشق ونصبت المكاحل على أسوار المدينة واستعدوا للقتال.

ثم نزل تيمور بعساكره على قطنا فملأت عساكره الأرض كثرة. وهنا أراد استطلاع أحوال الدفاع فأرسل من يستكشف له حقيقة الحال، فعادوا إليه مخبرين بأن الناس متهيئين للقتال.

وبعض المؤرخين يتوسع في تحديد المنطقة التي انتشر فيها الجيش التيموري فيجعلها هكذا: نزل عند سفح جبل الثلج (جبل الشيخ) أي غربي دمشق وفي قطنا وإقليم البلان إلى ميسلون.

أما الجيش المصري فقد حفر الخنادق وحصن القلعة، وبعد أن كانت جنوده داخل دمشق صدرت إليه الأوامر بالخروج إلى ظاهر البلد، منضمة إليه عساكر دمشق، وبذلك بدأت المناوشة بين الجيشين. ويقول ابن تغري بردي: وصفت العساكر السلطانية فبرز إليهم التيمورية وصدموهم صدمة هائلة، فعاد الأمر بين كرّ وفرّ، فكانت وقعة انكسرت فيها ميسرة السلطان، وانهزم العسكر الغزاوي وغيرهم إلى ناحية حوران. وحمل تيمور بنفسه حملة عظيمة شديدة فدفعته ميمنة السلطان حتى أعادوه إلى موقعه.

وأمام هذا الدفاع الصامد مال تيمور إلى إنهاء الأمر سلماً وحصر مطالبه بإرسال أطلمش إليه في مقابل إطلاق من عنده من الأمراء المحتجزين في واقعة حلب.

وبدا أن دمشق قد حققت الفوز بصد تيمور عنها. وهنا فوجيء الناس بانسحاب السلطان المصري بعساكره وعوده إلى مصر، إذ اغتنم دخول الليل فمضى إلى وادي التيم في طريق العودة. فلم يشعر الناس إلا والنار تلتهب في مخيم العسكر السلطاني، وبدا أنهم أحرقوا ما لا يستطيعون حمله خوفاً من أن يغنمه اليتموريون.

وكانت الصدمة قوية على المدافعين، ولكنها لم تزعزع عزائمهم وصمموا على الدفاع وحماية شرف المدينة العربية الخالدة. وكان قد اجتمع فيها جموع كثيرة تدفقت إليها من المدن المحتلة ابتداء من حلب فحماه فحمص وأهل القرى الذين مضوا إلى دمشق جافلين من تيمور. فانضم كل ذلك إلى العسكر الدمشقي. فأغلقوا أبواب المدينة وركبوا الأسوار ونادوا بالصمود والثبات.

وبانسحاب الجيش المصري رجع تيمور عن الحل السلمي وزحف بعساكره على دمشق فقاتل الدمشقيون من أعلى السور أشد قتال وردوهم عن السور والخندق وأسروا منهم جماعة ممن اقتحم باب دمشق وأخذوا من خيولهم عدة كبيرة وقتلوا منهم نحو الألف وادخلوا رؤوسهم إلى المدينة.

ويقول ابن أياس إنه كان بين أهل دمشق وعسكر تيمور في أول يوم واقعة عظيمة فقتل من عسكر تيمور نحو ألفي إنسان.

وأمام هذا الصمود أدرك تيمور أنه كان مخطئاً في تقديره أن انسحاب العسكر المصري قد أوهن عزائم الدمشقيين لذلك عاد إلى المساومة الصلحية، فأرسل يطلب من الدمشقيين أن يرسلوا إليه رجلاً من عقلائهم يمشي بينه وبينهم في الصلح، فاختاروا القاضي تقي الدين

ابراهيم بن مفلح الحنبلي الذي وُصف بأنه كان طلق اللسان بالتركية والفارسية، فأرخوه من أعلى السور ومعه خمسة من أعيان دمشق.

يقول المؤرخ بأنه غاب عند تيمور ساعة ثم رجع فأخبر بأن تيمور تلطف معه في القول، وقال له: هذه بلد فيها الأنبياء وقد أعتقتها لهم!..

ونحن نسأل تيمور من وراء التاريخ: إذا كانت دمشق بلد الأنبياء وأنه يعتقها لهم، فلماذا روعها هذا الترويع ولماذا أراد بها هذا الشر؟ وهل إنه كان يجهل ذلك من قبل، ولم يعرفه إلا حين برقت في وجهه السيوف الدمشقية، وصدمته العزائم الشامية؟

ويتابع المؤرخ قائلاً عن رسول الدمشقيين إلى تيمور: وشرح من محاسن تيمور شيئاً كثيراً وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله ويرغبهم في طاعته. ا هـ.

ونحن لا ندري هل كان ذلك القاضي الرسول ضعيف النفس خائر الهمة فهالته قوى تيمور وأثرت في نفسه وهمته فتخاذل؟ أم أن تيمور قد اشتراه بنوع من أنواع الشراء بأن دفع له مالاً أو وعده بمنصب فوقف هذا الموقف الانهزامي؟.

ثم إن المؤرخ لا يحدثنا عن رأي الأعيان الخمسة الذي صحبوا القاضي إلى تيمور، بل لقد اختفى ذكرهم... لقد نجح القاضي بمهمته التخذيلية، ويكفي في نجاحه أن الدمشقيين بعد أن كانوا صفاً واحداً يقف كالبنيان المرصوص في وجه تيمور، صاروا فرقتين: فرقة ترى ما رآه القاضي ابن مفلح وفرقة ترى الدفاع عن دمشق ومقاتلة تيمور. على أن الأكثرية كانت في الفرقة الثانية. فرقة الصمود والدفاع. ولكن الانشقاق وقع فأضعف القوة الواحدة..

واستطاع الانهزاميون بالرغم من أنهم الأقلية ـ استطاعوا أن يتجهوا إلى باب النصر محاولين فتحه، فتصدى لهم نائب القلعة وقال: إن فعلتم ذلك أحرقتُ البلد. ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب ـ كما عبّر المؤرخ ـ سلّم لهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً.

على أن الغموض يكتنف هذا التعبير فلا يبدو لنا الموقف على حقيقته... ما المقصود بباب النصر؟. هل هو باب من أبواب المدينة أرادوا فتحه ليدخل منه التيموريون؟ أم هو باب من أبواب القلعة؟ ثم كيف انقضت هذه الأيام التسعة والعشرون، هل انقضت في جدال ونقاش، أم في تقاتل وتصادم؟ هذا ما لا يبين في عبارة المؤرخ.

والمؤرخ الذي عنيناه فيما تقدم من القول هو ابن الشحنة.

وأمامنا مؤرخ آخر هو ابن عرب شاه الذي كان واضحاً في عبارته التي سجل فيها

أحداث الساعات الأخيرة دون أن يتضح لنا ما كان قبلها مما تحدث عنه ابن الشحنة.

قال ابن عرب شاه: وتقدم تيمور إلى المدينة.

إذاً إن تيمور قد اعتقد استسلامها فتقدم إليها مستسهلاً دخولها.

ويتم ابن عرب شاه كلامه قائلاً: فامتنع أهلها عن تسليمها فبقوا على ذلك يومين.

وهنا لا ندري كيف مر ذانك اليومان؟ هل مرا في نقاش وجدال وتفاوض، أم مرا في قتال وتحارب؟ ثم يقول ابن عرب شاه: ثم خرج أعيانها إلى تيمور طالبين الأمان، وهم قاضي القضاة إبراهيم بن مفلح، ـ وهو الرسول الأول إلى تيمور ـ وقاضي القضاة محمود بن العز الحنفي وولده شهاب الدين وقاضي القضاة محمد الحنبلي النابلسي والقاضي محمد بن أبي الطيب كاتب السر والقاضي أحمد الوزير والقاضي شهاب الدين الحياني الشافعي والقاضي إبراهيم بن لقوشه الحنفي نائب الحاكم. أما قاضي القضاة الشافعي فقد كان هرب مع السلطان.

وقبل أن نتمم السير في موضوعنا فإننا نقول أنه تبين لنا من تركيبة هذا الوفد أن هناك نوعين من القضاة يتميز أحدهما عن الآخر، فأحدهما يقرن اسمه بلقب قاضي القضاة، والثاني بلقب القاضي. وإذا كان المفروض أن يكون قاضي القضاة واحداً، فقد تعدد هنا من يحملون هذا اللقب. ويبدو أنه كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضي قضاة.

وصدف أن ابن خلدون كان في دمشق فانضم إلى الوفد المفاوض، وكان سبب وجوده في دمشق أنه جاءها من مصر مع الجيش السلطاني، ويبدو أنه فاته الالتحاق بالجيش المنسحب فبقي في دمشق وحين دخلوا على تيمور وقفوا إلى أن أذن لهم بالجلوس وهش لهم، فقدم له ابن خلدون هدية فيها علب حلوى مصرية فتحها تيمور وأطعم منها رجاله ولم يذقها وأهداه سجادة صلاة فوضعها إلى جانبه وأهداه مصحفاً فقبله ووضعه إلى جانبه.

ولما رأى شكل ابن خلدون بعمامة خفيفة وبرنس قال هذا الرجل ليس من هنا. وجيىء بالطعام فكوموا تلالاً من اللحم السليق فبعضهم لم يأكل وبعضهم أكل، وتيمور يلحظهم، وكان من الآكلين ابن خلدون.

ثم أخذ ابن خلدون يتزلف لتيمور، فنادى بصوت عال: يا مولانا الأمير الحمد لله لقد شرفت بحضوري الملوك وأحييت بتواريخي مآثرهم ورأيت من ملوك العرب وغيرهم فلاناً وفلاناً ولكن لله المنة قد طال عمري حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة، فإن كان طعام

الملوك يؤكل لدفع الجوع فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف.

هكذا خاطب ابن خلدون فاتح بلاد الشام ومذلها!..

فأعجب تيمور كلامه وأقبل بكله عليه وسأله عن ملوك العرب وأخبارهم فذكر من ذلك الشيء الكثير.

وعن ابن الزملكاني تلميذ ابن خلدون: أن ابن خلدون قال: لما اجتمعت بتيمور في دمشق قال لي: أين بلدك؟ قلت: بالمغرب الجواني. قال: وما معنى الجواني في وصف المغرب؟ قلت: معناه الداخلي، أي الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقة وأفريقيا، والمغرب الأوسط تلمسان وبلاد زناتة، والأقصى فاس ومراكش، وهو معنى الجواني. فقال لي: وأين مكان طنجة من ملك المغرب؟ فقلت في الزاوية من البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ومنها التعدية إلى الأندلس لقرب مسافته لأن هناك نحو العشرين ميلاً. فقال وسجلماسة؟ فقلت في الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب. فقال: لا يقنعني هذا وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها. فقلت يحصل ذلك بسعادتك. فكتبت له بعد انصرافي من المجلس ما طلب، أقمت في كسر البيت فكتبته في أيام قليلة وأوعبت الغرض في مختصر وجيز يكون في اثنتي عشرة كراسة ودفعته إليه فأخذه من يدي وأمر بترجمته إلى اللسان المغلي.

هذا ما كان من أمر ابن خلدون. وأما ما كان من أمر وفد القضاة فإن تيمور خلع عليهم وردهم مكرمين وأعطاهم الأمان لهم ولذويهم بشرط أن يدفعوا له أموال السلطان وأمرائه وقد فعلوا ذلك.

هذا ما رواه ابن عرب شاه. وإننا نلاحظ من هذا النص أن الأمان قد أعطي لرجال الوفد ولذويهم. ومعنى ذلك أن رجال الوفد لم يضمنوا للمدينة شيئاً، وكل ما ضمنوه هو لهم ولذويهم، وإنهم آثروا مصالحهم الشخصية على مصالح المدينة التي أوفدتهم للمفاوضة باسمها، وأن تيمور سيدخل دمشق غير مقيد بشيء من الشروط. وهذا في حقيقته خيانة للمدينة التي ائتمنت هؤلاء على كرامتها وحرمتها وأموالها ودمائها، فلم يكونوا أهلاً لهذا الائتمان.

نعم، لقد ورد في أمان تيمور للوفد شيء يتجاوز أفراد الوفد إلى شؤون المدينة عامة، ولكن لم يكن هذا التجاوز لمصلحة دمشق، بل لمصلحة خزينة تيمور. وذلك أنه شرط عليهم

لقاء ما أعطاهم من أمان أن يؤدوا له أموال السلطان التي بقيت في دمشق وأموال أمراء السلطان.

ويقول ابن عرب شاه إنهم فعلوا ذلك، دون أن يبين الطريقة التي توصلوا بها إلى حيازة هذه الأموال ثم تسليمها إلى تيمور.

وحدث أنه بينما كان القضاة في مجلس تيمور، أن جيء بالقاضي صدر الدين المناوي أسيراً، ويصفه ابن عرب شاه قائلاً: «وإذا هو بعمامة كالبرج واردان كالخرج».

وكان هذا القاضي قد تخلى عن مدينته التي كان أحد قضاتها وآثر تركها لمصيرها والفرار مع سلطان مصر، ويبدو أنه قد تباطأ في اللحاق بالمنسحبين، فأدركه جنود تيمور في ميسلون وقبضوا عليه وأحضروه إلى تيمور الذي كان مشغولاً بالمفاوضة مع زملاء هذا القاضي الموفدين من دمشق.

يقول ابن عرب شاه: فتخطى الرقاب وجلس في صدر المجلس!.

ونقول نحن: إنه لحسن أن يحاول الإنسان بأن يكون له صدر المجلس وأن يرى نفسه أهلاً لذلك. ولكن الذي يفر من مواجهة أخطار مدينته مؤثراً السلامة على تحمل إعماء دفع المعاناة عنها يجب أن يخجل من نفسه فلا يفكر بتخطي الرقاب والوصول إلى صدر المجلس، وليست صدور المجالس لمثل هؤلاء المتخاذلين الفرارين الجبناء الأنذال، الذين يعيشون في كل عصر ويسترون رذائلهم بعمائم كالأبراج واردان كالأخراج.

وفي الوقت الذي كان تيمور يكرم الموفدين زملاء هذا القاضي ويحترمهم، كان يستشيط غضباً من هذا القاضي ويأمر بسحبه، ونعم ما فعل...

تيمور في دمشق

استسلمت دمشق ولكن القلعة لم تستسلم واستعد نائبها (أزدار) للحصار، فلم يهتم بها تيمور أول الأمر وانصرف همه إلى تحصيل الأموال.

ولما كان الوفد الذي فاوض على التسليم لم يضمن لدمشق شيئاً فقد كان الأمر متروكاً لتيمور، فلم يبد منه أي شر، فقد نادى بالأمان وأن لا يبغي أحد على أحد. وعندما خرج بعض جنوده على هذه الأوامر وأغاروا على بعض الناس وبلغ ذلك تيمور أمر بصلب الجنود المعتدين فصلبوا في الحريرين برأس سوق البوزرين. ففرح الناس بذلك واطمأنوا، وانصرفوا إلى جمع ما فرض على المدينة من مال فوزعوه على الحارات. وجاء يوم الجمعة فصلى تيمور في الجامع الأموي وكان الخطيب قاضي القضاة الحنفي.

وكان ما فرضه من المال على دمشق مليون دينار ذهبي. ويقول المؤرخ: ففُرض على الناس فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم.

ثم سُلّمت أموال المصريين (الذين فروا) وسلاحهم وكراعهم، كما سُلّمت أموال الدمشقيين الذين جلوا عن البلد.

ثم ألزمهم بجمع السلاح وإخراجه إليه ففعلوا.

وعند ذلك انصرف إلى إحكام الحصار على القلعة، ومع أنه لم يكن فيها إلا نفر يسير فقد أعياه أمرها ولكنها عادت فسلمت بالأمان بعد حصار ثلاثة وأربعين يوماً.

وكما قلنا من قبل فإن وفد القضاة الذي فاوض على التسليم جعل همه رعاية أمور أفراده ولم يحرص على مصلحة المدينة، فدخلها تيمور متروكاً أمرها إليه.

وبعد أن رأيناه رحيماً بالمدينة إلى الحد الذي أمر فيه بصلب الجنود الذين اعتدوا على الناس، وكل ما فعله أنه فرض أموالاً لا يعسر على الناس جمعها فجمعوها، إذا بالمدينة تحترق. والذين تابعوا سيرة تيمورلنك ووصوله إلى دمشق، كان يثير استغرابهم احتراق دمشق بعد تلك المعاملة التي عاملها بها.

ولكن الوثيقة التي نشرها الأستاذ جهاد الزين في جريدة (النهار) تكشف حقيقة تاريخية كانت مطموسة، وهي أن تيمورلنك لم يأمر بإحراق دمشق.

والوثيقة هي ما دونه ابن خلدون عن لقائه لتيمورلنك وما أعقب ذلك من أحداث، حيث يقول ابن خلدون:

«وخرّب القلعة وطمس معالمها، وصادر أهل البلد على قناطر من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلّفه صاحب مصر هنالك، من الأموال، والظهر، والخيام، ثم أطلق يدي النهابة على بيوت أهل المدينة، فاستوعبوا أناسِيها، وأمتعتها، وأضرموا النار فيما بقي من سقط الأقمشة والخزنى، فاتصلت النار بحيطان الدور المدعمة بالخشب، فلم تزل تتوقّد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم، وارتفعت إلى سقفه: فسال رصاصه، وتهدّمت سُقفه وحوائطه، وكان أمراً بلغ مبلغه في الشّناعة والقبح، وتصاريف الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد، ويحكم في ملكه ما يشاء».

وهكذا تبين أن احتراق المدينة كان بسبب إحراق نفايات المنهوبات، فامتدت النار إلى الخشب المدعمة به الدور، ومنه إلى الدور.

ودور دمشق تبنى من الخشب الذي تُملأ فجواته بالطين مما يجعل سريان النار فيها سريعاً.

وإذا كان هوان دمشق يُمض النفس، وإذا كان تخلي من تخلى عنها يبعث المقت. فإن دمشق الحقيقية قد تمثلت بأولئك الأبطال المذاويد الذين لم يضعفهم انسحاب من انسحب ولم يكسر شممهم تخذيل من خذّل فركبوا الأسوار يصدون العدو عن دمشق ويحمون حماها. وإن الألفي قتيل الذي أردوهم من العدو على أبواب دمشق هم الشاهد على أن الفاتح لم يدخل دمشق إلا مثخناً مدمى...

فإلى تلك القلة من الحماة التي حفظت شرف دمشق تحية الأجيال جيلاً بعد جيل...

السلطان الفار

والسلطان فرج بن برقوق سلطان مماليك مصر الذي ترك دمشق لقدرها بعد أن كان قد جاء لإنجادها، والذي كان أبوه برقوق سبب نكبتها بقتله رسل تيمور، ثم لما جاء تيمور فرّ هو عنها بجيشه وأمرائه. فإنه بعد أن صار في مصر وعاش في بحبوحته واستقر في مترافه عاد يبعث من مصر إلى تيمور بكتاب يقول فيه ما مضمونه:

لا تظن أننا هربنا منك وخفناك ولكن بعض مماليكنا خرج علينا وأراد مثلك الفساد وهلاك العباد والبلاد، والعاقل إذا أصابه مرضان داوى الأخطر منهما. إنك أهون الخطبين وأحقر الرجلين، فثنينا العزم إلى تأديب ذلك الرجل ثم نكرّ عليك كرة الأسد الغضبان ونضيق عليك وعلى عسكرك المسالك وندعكم بين أسير وهالك فتطلبون الخلاص ولات ساعة مناص...

إلى غير ذلك من أمثال هذه الترهات التي هي كالملح على الجروح وكحركة المذبوح ـ كما يقول في كتاب عجائب المقدور ـ

يقول بيسق حامل كتاب فرج بن برقوق إلى تيمور: فلما أعطيته الكتاب وقرىء عليه قال لي: ما اسمك؟

قلت: بيسق

قال: وما معنى بيسق؟

قلت: لا أدري

قال: إذا كنت لا تعرف معنى اسمك فكيف تصلح أن تكون رسولاً؟ ولولا أن عادة

الملوك ألا يهيجوا الرسل بأذى لصنعت معك ما أنت أهله، مع أنه لا لوم عليك بل على من أرسلك. بل لا لوم عليه أيضاً لأن ذلك مبلغ علمه وفهمه.

ثم قال: اذهب وانظر القلعة فذهبت فوجدتها قد دكت دكاً، ثم رجعت، فقال لي: إن مرسلك أقل من أن أراسله. ولكن قل له: إني واصل إليك، فليشمر ذيله للفرار.

ثم أمر بي فأخرجت فذهبت إلى مصر

وقبل أن نختم هذا الفصل لا بد لنا من ذكر أمرين هما جزء من دخول تيمور إلى دمشق:

فقد ذكر المؤرخون أنه أمر بجمع العبيد الزنوج فاعتنى بشأنهم، ولا بد أن لهذا الأمر من دلالة في سيرة تيمور، وأنه يقتضي له توسع في دراسة سيرته مما هو غير متيسر لنا الآن، ولعلنا نعود إليه في مناسبة أخرى. والشيء الثاني هو أنه بنى في مقابر الباب الصغير قبتين متلاصقتين على تربة زوجات النبي ﷺ.

الفاتح الذي استحل أن يقتل من قتل من أتباع النبي ﷺ، ولم يرع للنبي حرمة في سفك دمائهم، أهمه بناء القباب على قبور زوجات النبي!.

رحيل تيمور

رحل تيمور عن دمشق ثالث شعبان سنة ٨٠٣ بعد أن أقام فيها ثمانين يوماً. وكان قد جمع قبل رحيله أهل الصنائع من النساجين والخياطين والحجارين والأقباعية والبياطرة والخنيمية والنقاشين والقواسين والبازدارية وفرقهم على رؤساء الجند ليوصلوهم إلى عاصمته سمرقند.

وكان علماء القدس قد خشوا سطوة تيمور فانتدبوا الشيخ محمد فولاذ بن عبد الله وجهزوه بمفاتيح الصخرة وأرسلوه إلى تيمور. فلما كان في الطريق بلغه رحيل تيمور فرجع.

ولما كان من العوامل التي حملت تيمور على غزو الشام هي احتفاظ المماليك بقريبه (أطلمش)، فقد كان لابد له بعد ما حققه من انتصارات أن يطالب به. ويقول في (خطط الشام) أن تيمور أرسل إلى صاحب مصر سودون نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما جرى ويطلب قريبه الذي كان أسر في أيام الظاهر برقوق وأنه إذا أطلقه يطلق ما عنده من الأسرى، فأطلقه السلطان وكساه وأحسن إليه.

ويتمم خطط الشام: فلما وصلوا إلى تيمور أكرمهم وقبّل مراسيم السلطان وبكى واعتذر مما وقع منه وقال: هذا كان مقدراً!.

الفصل العاشر

غارة مملوكية

محاولة محمد علي باشا قهر الدولة العثمانية واكتساح حكمها في بلاد الشام وإقامة حكم مصري عربي على أنقاضه. ونجاحه في ذلك أكثر مما كان يقصد، إذ تعدى في انتصاراته بلاد الشام وتقدم إلى الأناضول حتى بدا كأن انهيار الدولة العثمانية انهياراً كاملاً بات ذا وقت محدود. لولا تدخل الإنكليز مع مجموعة من الدول الأوروبية وإرغامهم محمد علي على التوقف. وعودة جيوشه المظفرة من حيث أتت.

هذه المحاولة سبقتها أخرى نجحت أول أمرها كل النجاح لولا أمر طارئ. كما سنفصله:

دخل السلطان سليم القاهرة منهياً الحكم المملوكي الذي كان قائماً في مصر وخطب باسمه في مساجد القاهرة في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٥١٧، وخضعت مصر كلها للسيادة العثمانية، وقام عهد جديد افتتح هو أيضاً بالمماليك، فإن السلطان غادر مصر في شهر أيلول من العام نفسه موكلاً الحكم فيها إلى خير بك، من مماليك السلطان الغوري ونائبه في حلب، وكان تخلّى عن سلطانه وانضم إلى السلطان سليم.

وبعد وفاة خير بك سنة ١٥٢٢ كانت الدولة ترسل لحكم مصر (باشا) عثمانياً. لم يكن ينفرد بالحكم الفعلي بل كان يشاطره المماليك الكثير في شؤونه إلى أن استطاع هؤلاء المماليك السيطرة سيطرة كاملة على البلاد في عهد علي بك الكبير الذي دخل في صراعات عنيفة مع غيره من المماليك إلى أن استطاع الانفراد بالحكم سنة ١٧٦٣ ولكنه غُلب على أمره واضطر إلى الفرار إلى القدس، ثم إلى عكا حيث توطدت الصلات بينه وبين ظاهر العمر

الذي ساعده على العودة إلى مصر، ثم انقلبت عليه الأمور ثانية واضطر إلى الفرار وملاقاة ظاهر العمر من جديد، فالعودة إلى مصر سنة ١٧٦٦.

وهنا حاول علي بك الاستقلال نهائياً في مصر وقطع صلاته بالاستانة والتخلص من السلطة الإسمية التي كانت للدولة على مصر. فطرد الباشا العثماني وامتنع عن دفع الجزية للباب العالي، ثم ضرب النقود باسمه سنة ١٧٦٨ وأرسل إلى صديقه ظاهر العمر يخبره بكل ذلك.

وكان ظاهر العمر في صراع دائم مع العثمانيين إلى أن استأثر بالحكم في عكا. وهكذا اجتمع للصديقين سيطرة كاملة على بلديهما فتحت لهما آفاق المطامع الواسعة.

وإلى جانب ظاهر العمر كان يقيم أمير جبل عامل ناصيف النصار، وكان أول الأمر في خصام مع ظاهر ثم تحالفا على أعدائهما المشتركين. وناصيف نفسه يتمتع باستقلال في جبله لا يقل عن مثيليه في القاهرة وعكا.

وهنا تم التفاهم بين علي بك الكبير وظاهر العمر على توحيد قواهما بأن تزحف قوى مصر إلى بلاد الشام فتنضم إليها قوى عكا فتتألف مجموعة تستطيع اكتساح بلاد الشام جميعها. وتم التفاهم بين ظاهر العمر وحليفه ناصيف النصار على توحيد قواهما في هذا المعترك ومساهمة جبل عامل في قيام الدولة الجديدة.

الواقع أن نصوص هذه الأحداث قليلة، والكثير من الموجود يشير إشارات عابرة إلى أحداث ضخام. فنحن لا نعلم تفاصيل الخطة التي اعتزم تنفيذها الحلفاء الثلاثة، ولا تفاصيل ترتيبات التدرج من الكلام إلى الثورة. ولكننا نعلم أنه نحو سنة ١٧٦٨، جهر ظاهر العمر بمطالب صريحة لدى الباب العالي وهي أن يكون له حكم عكا مدة حياته، ثم لأولاده، وزاد فطالب بحكم الناصرة وطبرية وصفد وبلاد الجليل.

وكان يطالب بذلك من مركز قوة بعد انتصاره على عثمان باشا والي دمشق، وكان لهذا الانتصار صدى بالغ عند علي بك الكبير.

ويبدو أن علي بك لما اطمأن إلى مناعة حليفه في بلاد الشام أراد أن ينطلق في ميدان آخر يضمن له بسطة في الملك وسعة في الحكم فاتجهت أنظاره إلى الحجاز، فوجه إليه في شهر صفر سنة ١١٤٨هـ (١٧٧٠م) حملة ناجحة استطاعت الاستيلاء على الحجاز وإقامة شريف في مكة يأتمر بأمر حاكم مصر هو الشريف عبد الله، الذي أعطى بماله من سلطة روحية لقب «سلطان مصر وخاقان البحرين» لعلي بك الكبير.

وبعد هذا النجاح أخذ علي بك يتهيأ لحملة بلاد الشام، وجاء في مخطوط هذا النص: «وكان علي بك عزم على العصيان للدولة وطمع في تملك بلاد العرب». مما يدل على ذيوع أهداف علي بك وأنها عمل يؤدي بالاستقلال في البلاد العربية.

وفكر في الاستعانة على تحقيق أهدافه بالأمبراطورة كاترينا أمبراطورة روسيا على أن ترسل إليه المهندسين لاستخدامهم في الحصار، والضباط لتنظيم جيشه تنظيماً حديثاً، ولكن هذه الفكرة لم تسفر عن شيء عملي.

وأراد علي بك أن يجد المبرر لحملته فأرسل في آذار سنة ١٧٦٧ إلى الباب العالي يشكو من عثمان باشا والي دمشق محتجاً بأن بعض المصريين المطرودين استقبلهم عثمان باشا وشجعهم. كما أراد أن يستغل عواطف الشعب الشامي الذي كان يشكو من مظالم عثمان باشا، فأصدر منشوراً في كانون الأول سنة ١٧٧٠ يبشر به الشاميين بسعيه لإِنقاذهم من الظلم.

وتتشابك الروايات هنا فيبدو من المصادر القديمة المخطوطة أن عثمان باشا والي الشام هو الذي بادر إلى تحدي ظاهر العمر، وربما كان ذلك اتفاقاً مع الدولة رداً على مطالب ظاهر العمر التي ذكرناها، وأن عثمان باشا اتفق مع أمراء الشوف في لبنان وعزموا على غزو ظاهر، وأن هذا أرسل يستنجد بعلي بك وأنه أنجده بحملة يقودها إسماعيل بك قوامها عشرة آلاف مقاتل، طليعة للحملة الكبرى، فأرسل ظاهر أولاده فقدموا مع إسماعيل بك إلى عكا، لكن هذا تباطأ في إنجاد ظاهر العمر وتعلل ببعض العلل وكان علي بك جهز حملة يقودها محمد أبو الذهب زحفت على الشام عبر الصحراء، كما أرسل سفناً لنقل الميرة من دمياط إلى عكا.

ويقول كتاب «الحملة الفرنسية» بأن عدد الجنود المصريين كان أربعين ألفاً، ويقول مصدر آخر: «خرجت العساكر المصرية قاصدة بلاد الشام يقودها محمد بك أبو الذهب والتقى أولاً بالسناجق المرسلة (بقيادة إسماعيل بك). وجاء أولاد ظاهر العمر ومشايخ المتاولة (العامليين) وانضموا إليه فصار جيشه ينيف على ستين ألفاً. وهذا المصدر لم يحدد عدد الجنود المصريين فإذا أخذنا بما جاء في المصدر الأول يكون عدد المنضمين من جنود فلسطين وجنود جبل عامل عشرين ألفاً.

وتقدم محمد أبو الذهب بحملته المصرية العاملية الفلسطينية طالباً دمشق فاشتبك بقوى عثمان باشا فهزمها، ثم خيم حول دمشق، وأرسل إلى الدمشقيين كتاباً أحضره من علي بك يتضمن ذماً لعثمان باشا واستنصاراً بالدين عليه، قائلاً إن المذاهب الأربعة أفتت بقتاله وأن

الأمة لا تجتمع على الضلالة فاستخرنا الله وسألناه أن ينصر دين محمد بعلي (يعني نفسه)، فخرج الدمشقيون إلى أبي الذهب مستأمنين فأمنهم ودخل دمشق في نهاية تشرين الثاني سنة ١٧٧١ وتقدم إلى القلعة وكان جنوده يحاصرونها فاستسلمت وفر عثمان باشا إلى حمص.

كان النصر إلى حد ما حاسماً، إذ استطاع أبو الذهب أن يهزم قوى الدولة متمثلة بعثمان باشا، كما اجتاز فلسطين، وأصبح الطريق مفتوحاً أمامه لاستصفاء بلاد الشام كلها.

وهنا حدثت المفاجأة وكانت وستظل لغزاً من الألغاز، فإن محمد أبو الذهب وهو في قمة انتصاره بدلاً من أن يواصل الزحف متوغلاً في سوريا، إذا هو يعلن الانسحاب إلى مصر وإهدار النصر إهداراً كاملاً.

واختلفت الأقوال في أسباب التراجع فنسبه بعضهم إلى تأثير إسماعيل بك قائد الحملة الأولى الذي رفض من أول الأمر القتال مع ظاهر العمر، وأنه كان يستغل بعض التصرفات ويحذره من ظاهر العمر قائلاً له: «انظر كيف يجلس علي الظاهر في مجلسك كأنه في مجلس بعض الصعاليك».

ومهما يكن من أمر فإن محمد أبو الذهب انسحب من دمشق وعاد في طريقه التي جاء منها متجهاً إلى مصر.

واسقط في أيدي الفلسطينيين والعامليين وعاد كل منهم إلى بلاده.

ولسنا الآن في صدد تدوين الأحداث التي وقعت من بعد بين علي بك وأبي الذهب وإنما نكتفي بالقول، إن عودة أبي الذهب إلى مصر بمثل ما عاد به من الخيانة أدت إلى نشوب صراع بينه وبين علي بك، كانت نهايته انهزام علي بك ولجوءه مع فريق من جنوده إلى حليفه ظاهر العمر وتعاونهما في فلسطين على قتال العثمانيين. ثم عودته إلى مصر مزوداً بنجدات من ظاهر العمر، فتلقاه أبو الذهب وهزمه. ثم لم يلبث أن مات في ١٥ صفر سنة ١١٨٧هـ (١٧٧٣) متأثراً بجراحه التي أصابته خلال المعركة.

اما أبو الذهب فيبدو أن أحلام علي بك الكبير عاودته هو نفسه فطمع بالاستيلاء على بلاد الشام، ولكن لا تحالفاً مع ظاهر العمر وناصيف النصار، بل حرباً عليهما. فخرج في آذار سنة ١٧٧٥ وتقدم إلى فلسطين وانتصر على ظاهر العمر في يافا وتقدم نحو عكا فانسحب منها ظاهر متحاشياً الاصطدام بأبي الذهب. ولم يجد ظاهر ملجأ له إلا عند حلفائه العامليين فقصد جبل عامل وحل في قلعة هونين ضيفاً على الشيخ قبلان.

وبعد انتصار أبي الذهب على الفلسطينيين بقي أمامه ناصيف النصار حليف ظاهر، وفي رواية عاملية، أن ناصيف قصد إلى عكا متصلاً بأبي الذهب وأن أبا الذهب احتفى به وأكرمه. والواقع أنه بعد هزيمة ظاهر العمر لم يكن للعامليين قبل بمحاربة أبي الذهب فكان لا بد لهم من معالجة الأمر بالوسائل السلمية، ولا ندري حقيقة ما حدث في عكا بين ناصيف وأبي الذهب، فإن رواية أخرى تقول أن أبا الذهب منع ناصيف من الرجوع إلى أن يأتي جميع الزعماء العامليين.

على أن ما لا شك فيه أن أبا الذهب كان مصمماً على الزحف على جبل عامل سالكاً إليه طريق الحولة وكان لا بد من إعمال الروية والحكمة فاجتمع كبار علماء الجبل كالسيد أبي الحسن جد آل الأمين والسيد فخر الدين العيناثي، هكذا أسماه المؤرخون ويبدو أنه جد آل فضل الله والشيخ محمد الحانيني والشيخ الخاتوني والسيد حيدر نور الدين وتداولوا مع ناصيف النصار الأمر ويظهر أنهم رأوا أن يتظاهروا بالشدة وأن يتعاملوا باللين، فأضرموا في الليل النيران في الجبل المطل على معسكر أبي الذهب في الحولة، وامتدت النيران من هونين إلى ديشوم، وأرادوا بإضرامها التظاهر بكثافة الجموع المحتشدة. ثم أعقبوا ذلك بأن توجه ناصيف النصار وحده لا يصحبه إلا رجل واحد من بيت الحاج من قرية شحور إلى مخيم أبي الذهب، وتقدم ناصيف إلى «كاخية» أبي الذهب، وقال له: أنا ناصيف النصار، وهذا سيفي في عنقي ولا نريد حرباً مع أبي الذهب، فخذني إليه.

فقال له الكاخية: إن الباشا يموت فاذهب فليس عليك بأس، فعاد ناصيف، ومات أبو الذهب، في ليلته تلك، وحنطت جثته وأرسلت إلى القاهرة ودفنت في المدرسة التي أنشأها تجاه الأزهر.

وكان العامليون حين علموا بتوجه أبي الذهب إليهم خافوا خوفاً شديداً لضآلة قوتهم أمام قوى أبي الذهب، وتحسبوا لكل شر وبلاء، وليس أكثر دلالة على ذلك من أنهم أرخوا تلك السنة وهي سنة ١١٨٩ هجرية، بهذه الكلمات: (سم، هم، غم). كما أن أحد مؤرخيهم قال يصف الواقع: «أبو الذهب تعب في سطوته جميع العجم والعرب [illegible] إلا ونزل به الهم والكرب، وحل بالناس الويل والعطب، وكل يقول: الهرب ثم الهرب ما دام أبو الذهب لنا بالطلب».

الفصل الحادي عشر

غارة نابليون على مصر والشام

القائد العسكري الشاب الذي عاد إلى باريس من انتصاراته الباهرة في إيطاليا ووجد نفسه أمام (حكومة الإدارة) مجرد عسكري من عسكرييها الكبار، محكوماً بإرادتها، ولما فكر أن يكون واحداً من رجالها كان ما يحول بينه وبين ذلك أنه دون الأربعين من عمره ومن كان هكذا لا يحق له مزاملة أعضائها المتجاوزين لهذه السن.

لم يكن نابليون بونابارت في شخصيته القوية الطامحة التي حققت ما حققت لفرنسا من أمجاد في ميادين الحروب ليقنع بأن يكون رجل سلم هادىء قار ينتظر أن تدعو الحاجة إليه مرة أخرى ليقود العساكر الفرنسية في ميدان جديد، فإن لم تدع الحاجة إلى ذلك كان عليه العودة إلى ثكنته والعيش بين جنوده. . .

وفي الوقت نفسه كانت حكومة الإدارة قد أدركت أنها ليست أمام عسكري ككل العسكريين الظافرين منهم وغير الظافرين، يؤمرون فيطيعون، فإذا ظفروا قنعوا بأمجاد الظفر واستكانوا إليها وكانت كل ما يرجون في الحياة.

بل لمحت في عيني هذا العسكري الظافر نظرات حادة إلى أرائكها التي تقتعدها، نظرات لم يخف عليها أنها تجول حولها جولان الراغب في زحزحتها عن الأرائك ودحرجتها عن المقاعد، ليحل محلها سائداً آمراً مطاعاً. . .

وملّ نابليون الانتظار. وصدى النصر الذي ملأ أسماع الفرنسيين فأعجبوا بصاحبه. . . صدى النصر هذا لن يظل مجلجلاً، بل إن الأيام كفيلة بإخفاته يوماً بعديوم فتنسى فرنسا باعثه فيركد ذكره، ويغيب اسمه مع من غاب من أمثاله!.

إذن لا بد من الحركة الدائمة المتنامية ليظل نابليون ملء أسماع الفرنسيين وملء عقولهم وملء قلوبهم . . . كانت حكومة الإدارة ترى في أعماق نفسها أن نابليون يكاد يكون غريمها، فأفضل شيء هو اقصاؤه عن فرنسا.

وكان نابليون يريد أن يظل دائم الحركة . . .

وكان التفكير في غزو مصر . . . فأيد نابليون الفكرة ليكون بطل هذا الغزو، وربما تعدى به مصر وصولاً إلى الهند . . . ربما . . .

ورأت حكومة الإدارة في قيادة نابليون لهذا الغزو فرصتها لإبعاده عن فرنسا.

وهكذا تلاقت الرغبتان واجتمعت المصلحتان فتقرر أن يعهد بقيادة (جيش الشرق) إلى نابليون.

التفكير الفرنسي بمصر

في أواخر القرن الثامن عشر كان يبدو أن الدولة العثمانية ماشية إلى الانهيار، فبدأ التفكير الأوروبي في اقتسام أجزائها بين الدول الأوروبية.

ففي سنة ١٧٦٨ قامت الحرب الروسية العثمانية فتطلعت أنظار الطامعين إلى النتيجة المحتملة لهذه الحرب من تضعضع العثمانيين واقتسام أرضهم لا سيما بين روسيا بقيادة القيصرة كاترين الثانية وبين النمسا بقيادة الأمبراطور جوزيف الثاني. وكان الفريقان يطمعان بمصر باعتبارها الطريق إلى الهند.

وكان من الطبيعي أن يكون لفرنسا موقع بين من يفكرون بالمصير العثماني، ولكن موقعها كان مختلفاً عن مواقع غيرها، فقد كان لملوكها سياسة تقليدية هي المحافظة على صداقة السلطان العثماني. وأمام هذا الموقف الخطير الذي وصلت إليه الدولة العثمانية، كان يتجاذب فرنسا عاملان: العامل الأول: عامل المحافظة على سياستها التقليدية بمحاولة التوسط بين المتحاربين إنقاذاً للعثمانيين من الانهيار. وعامل الرغبة في المشاركة في الاقتسام لتوقع الانهيار. وكان ما تطمع به فرنسا هو مصر على أن الحرب لم تنته بانهيار الدولة العثمانية، ما لا ندخل في تفاصيله لأنه ليس من موضوعنا.

اضطرب ملوك أوروبا من إعدام لويس السادس عشر (٢١ كانون الثاني ١٧٩٣) وتحرجت العلاقات بين الحكومة الفرنسية وبين إنكلترا وهولندا، فأعلن المؤتمر الوطني الحرب على الدولتين في شباط وبدأت النمسا تحركها العسكري على فرنسا على نهر الموز.

وفي آذار كانت النمسا والبرتغال ومشكانيا والصقليتان والولايات البابوية في حالة حرب مع فرنسا، وقد دافعت فرنسا عن حدودها بكل قوة، ثم وفقت في السنوات التالية في تحطيم المحالفة الدولية إذ انتصرت جيوشها سنة ١٧٩٤ وفي سنة ١٧٩٥ كانت نهاية المحالفة الدولية. ولم يبق سوى إنجلترا والنمسا ومعها سردينيا في قتال فرنسا. وقد جددت النمسا وإنجلترا محالفتهما سنة ١٧٩٥.

ولكن حكومة الإدارة هاجمت النمسا عن طريق ألمانيا والدانوب ثم عن طريق إيطاليا الشمالية. وقد عهدت بقيادة جيش إيطاليا إلى القائد الشاب نابليون بونابرت فاستلم القيادة في نيس في آذار سنة ١٧٩٦، وما كاد يبدأ الحرب حتى انتصر انتصاراته الباهرة على السردينيين، ثم تعقب جيش النمسا وعبر جسر (لودي) وألحق بالنمسويين خسائر فادحة ودخل ميلان في آيار. ثم انتصر على النمسويين في (أركولا) و(ريڤولي) وسقطت (منتنوا) في شباط ١٧٩٧ وبسقوطها أصبحت إيطاليا كلها في قبضة نابليون الذي أسرع بالزحف حتى وصل إلى (لوبن) في ٩ نيسان على مسيرة أيام قليلة من (ڤينا). وعندئذ طلب النمسيون الصلح فوقعت مقدمات الصلح بين فرنسا والنمسا في لوبن في ١٨ نيسان سنة ١٧٩٧ وبذلك انفرط عقد المحالفة الدولية. ولم يبق سوى إنكلترا التي أصرت على متابعة الحرب على الجمهورية.

إنكلترا وحدها بقيت تناصب فرنسا العداء، وكان من الطبيعي أن تفكر فرنسا في قهر إنكلترا المعادية، وذلك لا يكون إلا في ركوب البحر إلها والهبوط عليها في عقر دارها. وفي أوائل العام ١٧٩٦ جرت أول محاولة فرنسية لغزو الجزر البريطانية حيث قاد القائد الفرنسي (هوش Hoche) حملة هبطت في إرلندة ولكنها أخفقت. على أنها أثبتت أنه يمكن عبور البحر ومعاودة الغزو إذا أُعد له الإعداد الكافي.

وقد ظلت هذه الفكرة تراود الرأي العام الفرنسي، وكان ممن اعتمدها نابليون نفسه، وقد جاء في إحدى رسائله إلى حكومة الإدارة: «... إن من واجب حكومتنا القضاء المبرم على الملوكية الإنكليزية، وإلا فمصير حكومتنا التدمير على أيدي أصحاب العزلة النشيطين من الإنكليز بفضل ما يدبرونه من مكائد وإفساد. والوقت الحاضر هو خير الأوقات لهذا العمل، فلنركز نشاطنا في بحيرتنا، ولندمر إنكلترا، حتى إذا تم لنا ذلك وقعت أوروبا بأسرها تحت أقدامنا...».

وبعد أن أتم نابليون معاهدة الصلح مع النمسا التي عرفت باسم معاده (كمبو ـ فرميو) وهو اسم المكان الذي عقدت فيه، أرسل المعاهدة إلى حكومة الإدارة في باريس لتصديقها

طالباً عدم التردد في التصديق «لأن الواجب أن تتضافر الجهود لمنازلة غريمة فرنسا الكبرى، وهي إنكلترا». ثم ختم رسالته بالنص المتقدم.

وفي ليل ٢٥ ـ ٢٦ تشرين الأول ١٧٩٧ وصل رسولا نابليون إلى باريس حاملين المعاهدة وقابلا حكومة الإدارة. وفي ٢٦ تشرين الأول ١٧٩٧، تم التصديق على المعاهدة في جلسة غير عادية، عقدت في الساعة السادسة صباحاً، وفي الوقت نفسه اتخذت عدة قرارات لحصر الجهود كلها في الإعداد لقتال إنكلترا، وبينها قرار بالإسراع بحشد جيش قوي على شواطىء المحيط بقيادة نابليون، وبدىء في الحال بإعداد (جيش إنكلترا).

وفي ١٧ تشرين الثاني كان نابليون يغادر ميلان إلى (رشتاد) ليتبادل التصديق على المعاهدة مع النمسا، وفي ٣ كانون الأول غادر (رشتاد) إلى باريس، وفور وصوله إليها التقى رجال الحكم لتدارس أمر غزو إنكلترا في حملة كبيرة سميت «grande expédition». ولم يلبث نابليون أن قام برحلة تفتيش واسعة على الشواطىء الفرنسية الشمالية في أوائل شباط ١٧٩٨.

واستمر الاستعداد من أول العام ١٧٩٨ لتدبير المال وكل ما تقتضيه الحملة من مواد، وبدىء بوضع الخطط الحربية.

غير أنه تبين أن الأمر أصعب مما كان في ذهن الفرنسيين من حيث المال والعدد الكبير من السفن وغير ذلك من الشؤون.

ومن هنا تحول التفكير من غزو إنكلترا مباشرة إلى منازلتها في ميادين أخرى، والتوجه إلى الشرق والنزول في مالطة والوصول إلى مصر.

وكانت عودة نابليون إلى باريس من رحلته التفتيشية في ٢١ شباط ١٧٩٨ وقرار التوجه إلى مصر في ٥ آذار ١٧٩٨ وقد قال نابليون في تقريره أنه لا بد لإمكان إرسال الحملة على إنكلترا من استعدادات ونفقات طائلة وعدد كبير من السفن، ثم تنظيم البحرية الفرنسية وتجهيز وإعداد الموانىء الشمالية.

وقد اختتم نابليون التقرير بما معناه: «فإذا لم يكن في الاستطاعة إعداد الأموال اللازمة أو إذا كان من المتعذر نظراً لحالة البحرية الفرنسية في الظروف الحاضرة إنجاز تنظيمها بالسرعة المطلوبة فمن الواجب حينئذ أن تترك الحكومة كلية أمر غزو إنكلترا».

وإذا كان لابد من منازلة إنكلترا، وإذا كانت هذه المنازلة غير مستطاعة على أرضها،

وإذا كانت مستطاعة في غير أرضها، فكيف يكون غزو مصر، هو غزو لانكلترا في غير أرضها؟!.

هذا ما أوضحه (شارل مكالون) قنصل فرنسا في مصر في تقريره الذي قدمه إلى حكومته في ٩ شباط ١٧٩٨ ويلخص رأيه بأنه في حالة غزو مصر فإما أن ينظم الفرنسيون في مصر أمر طرد الإنكليز من الهند، وإما أن يعملوا على تعطيل تجارة الإنكليز مع الهند والحلول محلهم في هذه التجارة.

أما طردهم من الهند فيكون بإنشاء أسطول في السويس وإرسال جنود فيه يعاونون شعب الهند الثائرة على الإنكليز.

وأما في الحالة الثانية فتنشأ مراكز تجارية في القاهرة وفي الإسكندرية وفي مرسيليا تكون قادرة مع تتابع السنين على شل التجارة الإنكليزية مع الهند.

وفي ١٣ شباط ١٧٩٨ قدم وزير الخارجية تليران تقريراً مطولاً قال فيه: «إن إحياء التجارة بطريق السويس من شأنه أن يحدث ثورة في تجارة أوروبا تصيب آثارها إنكلترا خصوصاً... إن إعادة فتح طريق السويس سوف يؤثر على إنكلترا لدرجة مميتة على غرار ما حدث من التأثير الذي أوقعه على الجنويين والبنادقة في القرن السادس عشر كشف طريق رأس الرجاء الصالح. والواقع أن نتائج هذه الثورة سوف تكون في مصلحة الجمهورية الفرنسية التي تستطيع وحدها من دون بقية الدول الأخرى الاستفادة من هذا الحادث بفضل موقعها الجغرافي ونشاط أهلها وكفاءتهم...».

ثم يقول تيلران عن الفرصة التي تتيحها هذه الحملة لفرنسا حتى تعمل على طرد الإنكليز من الهند بإرسال الجنود إلى الهند بطريق السويس ومن القاهرة، فالإنكليز يمتلكون مساحات شاسعة في الهند ومع ذلك فليس لديهم من القوات اللازمة للدفاع عنها سوى ١٥ أو ٢٠ ألفاً، فيكفي أن يرسل الفرنسيون حوالي الخمسة عشر ألفاً من جنودهم للانضمام إلى الثائر الهندي (تيبو) حتى يتغلبوا على القوات الإنكليزية. والسويس هي الطريق إلى ذلك.

في الجلسات التي عقدتها حكومة الإدارة في ١ و٢ آذار سنة ١٧٩٨ تقرر إرسال الحملة على مصر. وفي ٥ آذار قدم نابليون تقريراً مفصلاً عن وسائل الإنفاذ، فذكر أن ٢٥ ألفاً من المشاة وحوالي الألفين أو الثلاثة آلاف من الفرسان (بدون خيولهم) يكفون للاسيلاء على مالطة ثم على مصر.

وفي ١٢ نيسان ١٧٩٨ صدر قرار حكومة الإدارة بوضع جيش الشرق بقيادة نابليون. وقد طلب في هذا القرار إلى نابليون طرد الإنكليز من كل ممتلكاتهم في الشرق أو في الجهات التي يستطيع الوصول إليها لاسيما القضاء على مراكزهم أو مخازنهم التجارية في البحر الأحمر.

وفي الساعات الأولى من صباح ٤ آيار سنة ١٧٩٨ كان نابليون يغادر باريس سراً إلى طولون فيصلها في ٩ أيار وفي ١٢ أيار كان قد تم إنزال الجنود والعتاد وما يتبع ذلك إلى سفن الأسطول الذي كان بقيادة أمير البحر (برويس Brueys) ولكن عاصفة أخرت خروج الأسطول إلى عرض البحر إلى ١٨ آيار وفي اليوم التالي كان نابليون في سفينة الأميرالية (أوريان l'orient) وكان الأسطول يمخر عباب البحر.

وفي ٩ حزيران كان يصل إلى شواطىء مالطة فأرسل نابليون إلى رئيس الفرسان (هومبش Hompesch) يطلب دخول السفن إلى الميناء، ولكن هذا رفض دخول أكثر من أربع سفن في وقت واحد واستعد للدفاع عن مالطة، على أن الدفاع لم يطل وتمت السيطرة على مالطة. ودخلها نابليون ماكثاً فيها خمسة أيام وواضعاً لها دستوراً جديداً وشكل حكم جديد. وفي ١٩ حزيران كانت جماعة الفرسان قد حُلت واندمجت مالطة في فرنسا اندماجاً تاماً.

وفي صباح هذا اليوم مضت الحملة من مالطة متجهة إلى الاسكندرية وقد أصبح مجموعها بما انضم إليها من السفن من جنوى وأجاكسيو وغيرهما: ٥٥ مركباً حربياً و٢٨٠ نقالة تقل ٣٦٨٢٦ مقاتلاً، وخيولاً ومدافع.

ومع الحملة نخبة من علماء فرنسا أمثال الكيميائيين (برتوليه Bertholet) و(كونتي Conté) والرياضيين (مونج monge) و(لانكري lancret) والمهندس (لوبير Lepére) والطبيبين (ديجنت des genettes) و(لاري Larrey) وغيرهم.

ولخوف القيادة من انكشاف سرها للأسطول الإنكليز وخشية من تتبعه لها والاصطدام بها مع علمها بقوته وضعفها البحري بالنسبة إليه، آثرت التعرج في سيرها ولم تتبع طريقاً مستقيماً فأبحرت باتجاه كريت وفي ٢٥ حزيران بدت لها جبال كريت المكسوة بالثلوج. وفي ٢٦ حزيران مضت باتجاه الجنوب الشرقي متجهة رأساً إلى الإسكندرية.

وعندما أدركت مياه الشواطىء المصرية أرسل نابليون من عرض البحر في ٢٧ حزيران سفينة إلى الاسكندرية لأخبار الجالية الفرنسية فيها بقدوم الحملة وإحضار القنصل الفرنسي،

ولما عادت السفينة إلى نابليون فاجأته بأن الأسطول الإنكليزي المؤلف من ١٤ قطعة بقيادة (نلسن) كان قد وصل إلى الاسكندرية قبل وصول الحملة بثلاثة أيام، وأنه غادرها باحثاً عن الحملة الفرنسية.

فأسرع نابليون في إنزال جنده إلى الإسكندرية وفي ٣ تموز أنزلت بقية الجيش مع القسم الأكبر من المهمات بعد أن كان أنزل قسماً غير بعيد عن الإسكندرية.

احتلال الإسكندرية

ويصف عبد الرحمن الجبرتي الذي كان معاصراً للأحداث ما جرى بما يلي:

يقول أولاً عن السنة ١٢١٣هـ: «هي أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتصاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب».

وبعد أن يتحدث عن وصول الأسطول الإنكليزي إلى الاسكندرية ورحيله عنها يتحدث عن وصول الفرنسيين قائلاً:

«وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأن وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة فأرسوا في البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد، فلما نزلوا إليهم عوقوهم عندهم، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمي وطلعوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح ألا وهم كالجراد المنتشر حول البلد، فعندها خرج أهل الثغر ومن انضم إليهم من العربان المجتمعة وكاشف البحيرة فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان ورجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان ودخلت الإفرنج البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون. فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخذون بكل حال وليس عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال» (انتهى).

فقد الفرنسيون حوالي المئة وخمسين قتيلاً. وكان من بين الجرحى الجنراك (كليبر Kléber) والجنرال (مينو menou) ولم تستمر المقاومة سوى بضع ساعات.

الزحف إلى القاهرة

بعد الاستقرار في الإسكندرية أرسل نابليون من استولى على (رشيد)، وأرسل أسطولاً من المراكب الخفيفة إلى مصب النيل للدخول في النهر عند الاستيلاء على رشيد. وزحف هو بالجيش إلى القاهرة في الطريق الصحراوي. وقد لاقى هذا الزحف شدائد وأهوالاً من شدة الحر وفقدان الماء وقلة الأقوات وتعقب الأعراب ومفاجأتهم للجنود بالهجوم بين الحين والحين.

ويصف الجبرتي الحال في القاهرة بهذا القول:

لما وردت هذه الأخبار مصر[1] حصل للناس انزعاج وعول أكثرهم على الفرار والهجاج، وأما ما كان من حال الأمراء بمصر فإن إبراهيم بك ركب إلى قصر العيني وحضر عنده مراد بك من الجيزة لأنه كان مقيماً فيها واجتمع باقي الأمراء والعلماء والقاضي وتكلموا في شأن هذا الأمر الحادث فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مكاتبة بخبر هذا الحادث إلى إسلامبول وأن مراد بك يجهز العساكر ويخرج لملاقاتهم وحربهم، وانفض المجلس على ذلك، وكتبوا المكاتبة وأرسلها بكر باشا مع رسوله على طريق البر ليأتيه بالترياق من العراق، وأخذوا في الاستعداد للثغر وقضاء اللوازم والمهمات في مدة خمسة أيام. فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن. ثم ارتحل مراد بك بعد صلاة الجمعة وبرز خيامه ووطاقه إلى الجسر الأسود فمكث يومين حتى تكامل العسكر وصناجقه وعلي باشا الطرابلسي وناصيف باشا فإنهم كانوا من أخصائه ومقيمين معه بالجيزة وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود وسار من البر مع العساكر الخيالة. وأما الرجال وهم الإلداشات الغلنجية والأروام والمغاربة فإنهم ساروا في البحر مع الغلايين الصغار التي أنشأها الأمير المذكور. ولما ارتحل من الجسر الأسود أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية الثخن والمتانة طولها مئة ذراع وثلاثون ذراعاً تنصب على البغاز عند برج مغيزل من البر إلى البر لتمنع مراكب الفرنسيس من العبور لبحر النيل. وذلك بإشارة علي باشا وأن يعمل عندها جسر من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع، ظناً منهم أن الإفرنج لا يقدرون على محاربتهم في البر وأنهم يعبرون في المراكب ويقاتلونهم وهم في المراكب وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم في القتال حتى تأتيهم النجدة. وكان الأمر بخلاف ذلك فإن الفرنسيس عندما ملكوا

(١) المقصود بمصر هنا: القاهرة.

الإسكندرية ساروا على طريق البر الغربي من غير مانع. وفي أثناء خروج مراد بك والحركة بدت الوحشة في الأسواق وكثر الهرج بين الناس والأرجاف وانقطعت الطرق وأخذت الحرامية في كل ليلة تطرق أطراف البلد، وانقطع مشي الناس من المرور في الطرق والأسواق من المغرب، فنادى الآغا والوالي بفتح الأسواق والقهاوي ليلاً وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين، وذلك لأمرين: الأول ذهاب الوحشة من القلوب وحصول الاستئناس والثاني الخوف من الدخيل في البلد».

هذه هي الصورة المريعة التي جلاها لنا الجبرتي عن الذعر الذي أصاب الناس لدى سماعهم نبأ احتلال الإسكندرية وعن وسائل الدفاع الهزيلة التي أعدها حكام القاهرة. وهو يهزأ من قرارهم الاستنجاد باستنبول قائلاً: ليأتيه بالترياق من العراق!!..

وكان نابليون قد أرسل منذ وصوله إلى الإسكندرية منشوراً يسبقه إلى البلاد التي يصلها الفرنسيون في طريقهم، وقد وصل هذا المنشور إلى القاهرة. ويصف الجبرتي وصول المنشور قائلاً: «وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندرية كتبوا مرسوماً وطبعوه وأرسلوا منه نسخاً إلى البلاد التي يقدمون عليها تطميناً لهم، ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم وحضر منهم جملة إلى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ومعهم منه عدة نسخ ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس على شكلهم من كفار مالطة ويعرفون باللغات».

وذكر الجبرتي نص المنشور الذي يبدؤه نابليون ببسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه.

ثم يتملق به المسلمين ويقول فيما يقول: «أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام....».

ويصف الجبرتي المقاومة والهزيمة بقوله: «التقى العسكر المصري مع الفرنسيس فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه، ولم يقع قتال صحيح وإنما هي مناوشة من طلائع العسكرين بحث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية واحترق بها رئيس الطبجية خليل الكردلي وكان قد قاتل في البحر قتالاً عجيباً فقدر الله أن علقت نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود فاشتعلت جميعها بالنار

واحترق المركب بما فيه من المحاربين وكبيرهم وتطايروا في الهواء. فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزماً وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره. ونزلت المشاة في المراكب ورجعوا طالبين مصر».

ثم يقول: «ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر فاشتد انزعاج الناس وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق وحضر الباشا والعلماء ورؤوس الناس وأعملوا رأيهم في هذا الحادث العظيم. فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بك وكشافه ومماليكه. وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرؤون البخاري وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف أرباب الأشاير ويعملون لهم مجالس بالأزهر، وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الأسماء».

ثم يتحدث عن خط الدفاع الجديد الذي أنشأه مراد بك في بر أنبابه امتداداً إلى بشتل وكيف «شحنه بالعساكر والمدافع والمتاريس».

ولكن لا العساكر ولا المدافع ولا المتاريس تجدي إذا كانت الحالة النفسية كما وصفها قائلاً:

«ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك فإنهم من حين وصول الخبر لهم من الإسكندرية شرعوا في نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التي لا يعرفها أحد واستمروا طول الليالي ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا أيضاً في تسهيل الأحمال واستحضار دواب للشيل وأدوات الارتحال». ا هـ.

بهذه المعنويات المنهارة وبهذا الايقان بالهزيمة والتأكد من الانكسار كان كبير القوم مراد بك ورفاقه المماليك يواجهون القائد الواثق بالنصر نابليون، وبوسائل دفاعهم البدائية وأسلحتهم الهزيلة يريدون أن يقاوموا الدافق عليهم من أدوات الحديد والنار دفقاً معداً له أحدث أعداد!.

وإذا كان للفقهاء والمشايخ وأصحاب الطرق الصوفية أملهم بالنصر، فلم يكن بأيديهم لتحقيق هذا الأمل سوى الاجتماع في الأزهر وقراءة البخاري وغيره من الدعوات، وذكر اسم اللطيف وغيره من الأسماء الحسنى!.

ولم يهملوا أن يشركوا معهم في ذلك أطفال المكاتب!..

ويتمم الجبرتي وصف الموقف ويرينا إياه بالصورة التالية: «وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة، وصعد السيد عمر أفندي نقيب الأشراف على القلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً سمته العامة البيرق النبوي، فنشره بين يديه من القلعة إلى (بولاق)، وأمامه وحوله العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور».ا هـ.

في حين كان إعداد الفقهاء ومشايخ الصوفية وأرباب الأشاير ـ كان إعدادهم لمقاومة الجيش الزاحف إليهم: قراءة البخاري في الأزهر، ويعملون فيه مجالس يذكرون فيها اسم (اللطيف) وغيره من الأسماء، ويشركون معهم في ذلك أطفال المكاتب، وتسير جموع منهم ومن الفقراء في الشوارع بالطبول والزمور والأعلام والكاسات والضجيج والصياح وإنشاد الأذكار. . .

وفي حين كانت خطط الزعيم الشعبي نقيب الإشراف السيد عمر للدفاع هي إنزال بيرق من القلعة باسم البيرق النبوي واجتماع ألوف العوام أمامه وحوله، وسلاحهم النبابيت والعصي والتهليل والتكبير والإكثار من الصياح وقرع الطبول والنفخ في الزمور.

في حين كان هذا هو الإعداد للدفاع في القاهرة. كان الإعداد للهجوم يجري على الشكل التالي:

قسم نابليون جيشه الزاحف إلى خمس مربعات، يتكون كل ضلع من ضلوع هذه المربعات من ستة صفوف، يصمد ثلاثة منها في حالة الهجوم، بينا يتألف من الصفوف الباقية الاحتياطي. أما في حالة الدفاع فتظل المربعات بتشكيلاتها لمواجهة العدو من كافة الجهات، وكانت المدفعية موجودة بين الفرق، بينما وضع العلماء وسط المربعات ذاتها. وقد احتفظ الجيش بهذا النظام حتى في أوقات الراحة.

وكان كل جندي يحمل مؤونة تكفيه خمسة أيام، وقد منع النبيذ لأن نابليون كان يحاول كسب عواطف المسلمين.

المعركة الحاسمة في وصفين

١ ـ الوصف الفرنسي:

نأخذ هنا ما أخذ عن المصادر الفرنسية[(١)]:

(١) Corresp. t i v no 2834 (an directoire executif) caire 24 Juillet 1798 PP. 355 Bataille des piramides PP. 354 -355.

حدث أول اشتباك هام بين المماليك ـ جيش مراد بك وأسطوله ـ وبين الجيش الفرنسي وأسطوله النهري الذي وصل الرحمانية مع جيش قادم من رشيد في ١٢ يوليو (تموز) في شبراخيت في ١٤ يوليو. ولم يشأ نابليون على ما يظهر منازلة أعدائه في معركة حاسمة، مكتفياً بسبر قوتهم ومتانة ترتيباته العسكرية واختبار صلاحية المربعات وحكمة تشكيلها، وهكذا تقدم الجيش الفرنسي حتى وصل أم دينار في ١٩ يوليو. وكان المماليك قد اتخذوا العدة لمقابلة الفرنسيين ووزعوا قواتهم: قسم برئاسة إبراهيم بك ظل مرابطاً على الضفة اليمنى للنيل في بولاق، والآخر بقيادة مراد بك على الضفة اليسرى.

وكانت قوات مراد بك تمتد منتشرة من بشتيل وامبابه إلى الأهرامات، وكان جيشه يتألف من نحو الخمسين ألفاً من المماليك وممن انضم أليهم من الانكشارية وغيرهم، هذا عدا العربان الذين تألفت منهم إلى حد كبير ميسرة الجيش الممتدة إلى الأهرامات.

على أن نابليون سرعان ما لحظ بمجرد خروجه من أم دينار، ضعف ترتيبات أعدائه، وأظهر ذلك أن المماليك اعتمدوا أكثر الاعتماد على التحصن في أمبابه فأقاموا بها مدافعهم، وهي قديمة مثبتة على أرصفة أعدت لها ولا يمكن نقلها أو تحويل طلقاتها إلى اتجاهات غير تلك الموجهة أصلاً إليها. فأدرك نابليون أهمية عدم التعرض لإصابات هذه المدافع، واعتمد الحركة السريعة في مناورات المعركة المقبلة، وكان كل همه أن يفصل بين القلب وبين ميمنة أعدائه المركزة في أمبابه، واتخذ مراكزه بمحاذاة النيل لسيطرة المماليك على هذا النهر في تلك الآونة بسبب سفنهم المنتشرة في النهر بين أمبابه وبولاق، ولعدم وصول السفن الفرنسية.

وعلى ذلك فقد اتخذت مربعات نابليون قبل بدء المعركة، خطاً ترتكز ميسرته على شاطىء النيل، يتلوها مربع آخر، ثم مربع معه نابليون نفسه، ثم مربع آخر، ثم مربع في الميمنة. وفي ٢١ يوليو اشتبك الفرنسيون بفصيلة صغيرة من المماليك فقضوا عليها. ثم بدأت العمليات العسكرية الكبيرة فتقدم (ديزيه) على جناح الأعداء الأيسر بعيداً عن مرمى مدافع المماليك حتى يفصل بين قلب المماليك وبين ميسرتهم، وكان هدفه الوصول إلى قرية (ميت عُقبة) ثم تبعه مربع (رينيه).

بيد أن مراد بك سرعان ما أدرك خطورة هذه العملية فقرر الخروج بجماعة من الفرسان (حوالي السبعمئة أو الثمانمئة) والانقضاض على الزاحفين كالبرق الخاطف بين مربعي (ديزيه) و(دينيه) والإحاطة بهما. ولوقت قصير كان هجوم مراد عنيفاً لدرجة أن تصدعت صفوف

(ديزيه)، وبدا كأنما النصر سيكون من نصيب مراد في النهاية إذ استطاع فريق فرسانه اختراق المربع، ولكن المماليك ضيعوا الفرصة فلم تشتد هجماتهم كما ينبغي واستطاع (ديزيه) إعادة النظام في مربعه والفتك بالفرسان الذين اخترقوا صفوفه، وعندئذ كان لا مفر من انهزام المماليك.

وفي الوجه التالي من المعركة تقدم مربع (دوكا) ومعه نابليون لمحاولة فصل المماليك المهاجمين عن أمبابه، فاستطاعا ذلك، وانهالت النيران على جموع المماليك من الخلف ومن كل الجوانب، ثم تقدم مربع (بون) بين وراق العرب وبين وراق الخضر. واستطاع مربع (ڤيال) الزحف خلف وراق الخضر لقطع خط الرجعة على المماليك وفصلهم عن النيل. وعند ذلك لم تجد المماليك فروسيتهم نفعاً على الرغم من الشجاعة التي أبداها مراد، ولم يجد مراد بداً من الانسحاب إلى الجيزة. وهكذا عندما أقبل المساء كانت قد انتهت الموقعة.

وقد قدر نابليون خسائره من القتلى بنحو العشرين أو الثلاثين، والجرحى ١٢٠، وخسارة المماليك نحو الألفين.

وفي ٢٤ يوليو دخل الفرنسيون القاهرة، وفي ٢٥ منه دخلها نابليون.

٢ ـ الوصف المصري:

نعود إلى الجبرتي المعاصر للأحداث والمعايش لها لنستمع منه وصف الحال في القاهرة قبل الدخول في المعركة، فهو يقول: «نادوا بالنفير العام وخرج الناس إلى المتاريس وكرروا المناداة بذلك كل يوم فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع إلى بر بولاق، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياماً أو يجلسون في مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك، بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم، فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه، ولكن لم يسعفهم الدهر»...

إلى أن يقول:

«وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصي والمساوق، وجلس مشايخ العلماء بزاوية علي بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر. ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق وأقام بها من حيث نصب إبراهيم بك العرضي هناك إلى وقت الهزيمة سوى

القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى فيرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق».

إلى أن يقول:

«وأما بلاد الأرياف فإنها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً، وكذلك العرب غارت على الأطراف والنواحي، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وإخافة طرق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد الذي لا يحصى». ا هـ.

أما عن الأجانب الساكنين في مصر فقد اعتبروا جميعاً ـ مهما تعددت جنسياتهم ـ منتمين إلى المعتدين، وعن ذلك يقول الجبرتي:

«وطلب أمراء مصر التجار من الإفرنج بمصر فحبسوا بعضهم في القلعة وبعضهم بأماكن الأمراء وصاروا يفتشون في محلات الإفرنج على الأسلحة وغيرها».

وشمل الأمر النصارى فهم على دين المعتدين فهم أنصار لهم، وعن ذلك يقول الجبرتي: «وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنائس والأديرة على الأسلحة». وعن توقعات الناس يقول:

«في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر (القاهرة) وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجيء منها، فمنهم من يقول أنهم واصلون من البر الغربي ومنهم من يقول: بل يأتون من الشرقي، ومنهم من يقول: بل يأتون من الجهتين. هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء المصر. بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل. وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو».

وأما عن المعركة فيقول:

«ولما كان يوم الجمعة وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت فوصلوا إلى أم دينار، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر (القاهرة)، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم ونعمهم ورفاهيتهم مختالون في رئيسهم معتزون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم

مرتبكون في رويتهم مغمورون في غفلتهم. وهذا كله من أسباب ما وقع من هزيمتهم وخذلانهم. وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين، بل أشيع في عرضي[١] إبراهيم بك أنهم قادمون من الجهتين فلم يأتوا إلا من البر الغربي.

ولما كان وقت القائلة ركب جماعة من العساكر التي بالبر الغربي وتقدموا إلى ناحية بشتيل، بلد مجاورة لأنبابه فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمي[٢] وأبلى الفريقان وقتل أيوب بك الدفتر دار وعبد الله كاشف الجرف وعدة كثيرة من كشاف محمد بك الألفي ومماليكهم. وتبعهم طابور الإفرنج في نحو الستة آلاف وكبيره (ويزه). وأما بونابارته الكبير فإنه لم يشاهد الواقعة بل حضر بعد الهزيمة وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير. ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع وكذلك العساكر المحاربون البحرية، وحضر عدة وافرة من عساكر الأرنؤود من دمياط وطلعوا إلى أنبابه وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس. فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم: يا رب ويا لطيف ويا رجال الله ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه، ومن يقرأ ومن يسمع. وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضي الشرقي ومنهم إبراهيم بك الوالي وشرعوا في التعدية إلى البر الغربي في المراكب فتزاحموا على المعادي لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً، فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة به على المحاربين».

«ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معروفة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبراه وأرسل بنادقه المتتاليه والمدافع واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح وصمت الأسماع من توالي الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء

(١) **العرضي**: المقصود به الجيش.

(٢) يبدو أن ما يقصده بالبنادق المتتابعة الرمي، هو الرشاشات.

عليها سقطت. واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع الساعة ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربي، فغرق الكثير من الخيالة في البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا والبعض وقع أسيراً في أيدي الفرنسيس وملكوا المتاريس».

«ولما انهزم العسكر الغربي حول الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقي وضربوها وتحقق أهل البر الآخر من الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وركب في الحال إبراهيم بك والباشا والأمراء والعسكر والرعايا وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هي لم يأخذوا منها شيئاً». اهـ.

هكذا تمت لنابليون السيطرة على القاهرة وهزيمة المماليك، ولسنا هنا في معرض الحديث عن تفاصيل الحكم الفرنسي لمصر، بل سنتجاوز ذلك إلى تتبع أحداث نابليون ومصير هاجسه في قهر الإنكليز.

فهو ـ كما قلنا من قبل ـ إذ رأى استحالة غزو الإنكليز في جزيرتهم المنيعة، فإنه يستطيع غزوهم وغزو مصالحهم في مكان آخر، وقد ارتأى أن يكون هذا المكان الآخر مصر، ما أوضحناه فيما تقدم من القول.

وهذا لا يعني أن مصر ليست بحد ذاتها هدفاً، بل أن مصر ـ ولو لم تكن الغاية ترويع الإنكليز ـ هي هدف لإرواء المطامع الفرنسية.

وفي الحقيقة أن الصراع بين الإنكليز والفرنسيين على الشرق وعلى مصر بالذات يعود إلى عهود أبعد من العهد الذي نتحدث عنه.

إن موقع مصر جعلها طريق المواصلات بين الشرق والغرب منذ أبعد الأزمنة، فبرزخ السويس هو طريق التواصل التجاري بين أوروبا وآسيا براً. وقد ظل كذلك حتى سنة ١٤٩٨ سنة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، على أن هذا الطريق لم ينه إنهاء كاملاً الطريق البري الآخر، فإن استيلاء أسبانيا على البرتغال سنة ١٥٨٤ جعل الأسبان مسيطرين بأساطيلهم على طريق رأس الرجاء الصالح، ما حمل الفرنسيين والإنكليز والهولنديين على التمسك بطريق برزخ السويس، ولم يتحولوا بتجارتهم إلى الطريق البحري إلا بعد ضعف أسبانيا.

على أنه عندما وجدت فرنسا في القرن السابع عشر أن إنكلترا وهولندا تسيطران متزاحمتين على طريق رأس الرجاء الصالح عادت إلى تجديد الطريق البري ليكون لها السبق التجاري والسياسي على المنافسين لها، وأصبح تجديد هذا الطريق أساساً في العمل الفرنسي في عهد لويس الرابع عشر ومن جاء بعده.

ففي القرن السابع عشر جهد الفرنسيون في إقناع العثمانيين لكي يوافقوا على فتح الطريق البري تجارياً. بل إنه وجد سنة ١٦٧٦ من يحرض الملك الفرنسي على إرسال جيش على مصر لتعزيز المكانة الفرنسية في أوروبا، ثم للإمساك بتجارة الشرق، مضافاً إلى ذلك حماية الكنيسة.

وبدون الدخول في التفاصيل نقول إنه بلغ التواصل التجاري بين المرافىء الفرنسية على البحر الأبيض المتوسط وبين القطر المصري إلى حد أن السفن الفرنسية التي أقلعت إلى الاسكندرية ورشيد سنة ١٧٢٥ بلغ عددها ١١٥ سفينة.

ولم يغفل الإنكليز عن هذا النشاط التجاري بعد أن كانوا مطمئنين إلى طريق رأس الرجاء الصالح. وبعد أمور وأمور عقد الإنكليز معاهدة مع محمد أبو الذهب سنة ١٧٧٥ للتجارة والملاحة. ثم تم تنظيم خط من المواصلات من الهند إلى السويس ثم من القاهرة إلى إنكلترا.

والنصر الذي أحرزه نابليون ببسط السيادة الفرنسية على مصر لم ينسه أن الإنكليز سيظلون وراءه، وأن قوتهم الأولى هي في أسطولهم، وأن أسطوله الذي نقله وحماته إلى مصر سيظل هدفاً للأسطول الإنكليزي، لذلك فكر طويلاً في المكان الذي يُرسي فيه هذا الأسطول بعيداً عن المخاطر الإنكليزية، وقد استبعدت الاسكندرية لأنه يسهل سد مينائها بوضع مركب واحد على منافذه، واختيرت (أبوقير) لموقعها المتوسط بين الإسكندرية ورشيد وسهولة رسو الأسطول بها وإنزال المهمات والمدفعية إلى البر، والاتصال بالجيش الزاحف على القاهرة عن طريق فرع رشيد من جانب، ثم عن طريق الاسكندرية والبحر من جانب آخر.

وكانت وصلت الأخبار إلى لندن في منتصف شهر نيسان سنة ١٧٩٨ عن الاحتشادات البحرية الفرنسية في مرسيليا وطولون وجنوى، دون أن تُعلم الغاية من هذه الاحتشادات، أهي غزو انكلترا أو أرلندة أو السير إلى هدف في البحر المتوسط. لذلك وجهت أسطولاً بقيادة (هوراتيونلسن) لمتابعة حركات الأسطول الفرنسي، فاجتاز مضيق جبل طارق في ٩ آيار وراح يجوب البحر المتوسط، ولكنه لم يوفق إلى الاهتداء إلى ذلك الأسطول، وهكذا استولى الفرنسيون على مالطة.

وحدس نلسون بما توصل إليه من معلومات أن هدف الفرنسيين هو مصر لذلك اتجه بأسطوله إلى الاسكندرية، ولكنه لم يعثر في مينائها على شيء، فعاد يجول مستطلعاً مستنجداً

فعلم أن الأسطول الفرنسي قد غادر شاطىء كريت متجهاً صوب الجنوب الشرقي، فبادر نلسن إلى السير إلى الأسكندرية. وفي أول آب سنة ١٧٩٨ تراءت له السفن الفرنسية في خليج أبي قير، وبعد ساعة واحدة من رؤيته لها كان يدخل معها في المعركة، هذه المعركة التي انتهت بالقضاء على الأسطول الفرنسي قضاء تاماً.

فانقطع اتصال الفرنسيين بوطنهم وكان عليهم الاعتماد على موارد مصر ما عجل بالثورة عليهم فيها، وانضمت تركيا إلى الحلف الروسي الانكليزي على فرنسا وشاركت في الحملات التي أرسلت لإخراج الفرنسيين من مصر.

وبعد تحطم الأسطول أصبح نابليون وجهاً إلى وجه مع الشعب المصري، وأصبح أمره الآن أمر التعامل مع هذا الشعب تعاملاً لا يفره منه إذا لم يقربه إليه...

لذلك عزم على أن يزيل الحواجز النفسية التي تفصله عن المصريين وأن يتودد إليهم ما وسعه التودد. وكان يعرف أنه في نظر المصريين كافر اعتدى على بلاد المسلمين، وأن جهاده ودفعه عن البلاد هو ما تفرضه العقيدة على أبناء مصر. لذلك صمم على أن يدخل إلى قلوب المصريين عن طريق الدين، وأن يزيل من نفوسهم أنه الكافر الغازي الذي يجب جهاده.

وقد حفظ لنا (الجبرتي) نص المنشور الذي بعث به نابليون إلى المصريين.

قال الجبرتي في الصفحة ١٨٢ من المجلد الثاني:

وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم في الاسكندرية كتبوا مرسوماً وطبعوه وأرسلوا نسخاً منه إلى البلاد التي يقدمون عليها تطميناً لهم. ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسرى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم. وحضر منهم جملة إلى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ومعهم منه عدة نسخ. ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار مالطة ويعرفون باللغات. وصورة ذلك المكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه. من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد مثله في كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم.

يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين أنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم، وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساوون عند الله إن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فما يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم. ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها. وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم أن الفرنسوية هم أيضاً مسلمين مخلصين وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه، ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم. طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم. طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفوا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب. لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى لهم أثر. اهـ.

وبعد أن استقر نابليون في القاهرة أقبل على الاحتفال بالمناسبات الوطنية والأعياد الدينية، فمن ذلك أنه احتفل (بوفاء النيل) ويقول الجبرتي: «كان وفاء النيل المبارك فأمر صاري عسكر (نابليون) بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين ونادوا على الناس بالخروج إلى النزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم، وأرسل

صاري عسكر أوراقاً لكتخذا الباشا والقاضي وأرباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور في صبحها، وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد وكسروا الجسر بحضرتهم وعملوا شنك مدافع ونفوطا حتى جرى الماء في الخليج، وركب وهم صحبته حتى رجع إلى داره».

ولكن ماذا كان أثر ذلك عند الناس؟.

على ذلك يجيب الجبرتي متابعاً كلامه:

«وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه في المراكب على العادة».

وجاء يوم المولد النبوي سنة ١٢١٣ والمصريون في شاغل بما هم فيه من هموم الاحتلال ـ في شاغل عن الاحتفال به ولكن نابليون المتتبع لشؤون المصريين العارف بحلول يوم المولد والعارف أنه يوم يحتفل به المصريون، سأل عن هذا اليوم «ولماذا لم يعملوه كعادتهم؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل، وقال: لا بد من ذلك، وأعطى له ثلاثمئة ريال فرنسا معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل. واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكري واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره، وهي عبارة عن طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة. وعملوا في الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصور في الهواء»[1].

وكذلك فعل في مولد سنة ١٢١٤ إذ أرسل يطلب إلى الحكام الفرنسيين في المديريات توزيع المنشورات العربية على الأهلين لإخبارهم بالاحتفال العظيم الذي أقيم في القاهرة: «عندما استمع القائد العام لقصة المولد ثم أقبل على الصلاة يحف به كبار المشايخ».

كما جاء في الجريدة التي يصدرها نابوليون (الكوريبه Courrier de l'egypte) بمناسبة المولد النبوي سنة ١٢١٥ «إنه مهما تكن آراؤنا الدينية الأخرى فالواجب يقضي بأن نعتبر محمداً رجلاً يسمو كثيراً فوق بقية الرجال الذين وجدوا في العصر الذي عاش فيه، ويمتاز عليهم وهو بفضل عبقريته ومعارفه وشجاعته أهل لإعجاب الأجيال التالية».

كما ذكرت (الكوريبه) نبذاً عن حياة الرسول ولخصت أركان الإسلام. كما احتفل نابليون بتعيين أمير الحج.

---

(١) الجبرتي م٢ ص٢٠١.

وبعد ثورة القاهرة عليه في تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٩٨ وجه إلى سكان القاهرة منشوراً قال فيه: «إنه قدر منذ الأزل أنه بعد القضاء على أعداء الإسلام وتحطيم الصلبان يحضر بونابرت من الغرب حتى يؤدي المهمة التي كلف بأدائها، وأن في كتاب الله الحكيم من الآيات ما يشير إلى كل ما حدث وما يحدث في المستقبل».

ثورة القاهرة

يبدو جلياً من النصوص التي كتبها الجبرتي أن العامل المباشر للثورة كان هو ثقل الضرائب التي فرضها نابليون على المصريين فالجبرتي يقول:

«عملوا الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرنسا والأوسط ستة والأدنى ثلاثة وما كان أجرته أقل من ريال فهو معافى، وأما الوسائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخمسة والرواج والاتساع، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخاً للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا في الضبط والإحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها. ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين»[١].

ويقول صاحب التاريخ العلمي[٢] «إن رسل مراد وإبراهيم كانوا يأتون إلى الأزهر، وحول هؤلاء التف كافة المشايخ الذين استاؤوا من عدم استخدام بونابرت لهم، وأذاعوا أن بونابرت إنما يريد إرغام المسلمين على اعتناق المسيحية، كما أذاعوا أن جيشاً من المماليك والعثمانيين سوف يحضر قريباً على الشاطىء المصري لطرد الفرنسيين».

وهكذا نرى أن ما أذيع عن الضرائب المفروضة على الناس هو الذي أثار النقمة، وأما رسل المماليك فقد استغلوا هذه النقمة، وكذلك فعل المشايخ الذين لم يستخدمهم نابليون، فقامت الثورة.

ويصف الجبرتي وقائع الثورة بهذا الوصف:

«فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم

(١) الجبرتي م٢ ص٢١٨.

(٢) Reyleand, P.P. 139 - 142.

الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح. وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم، ويقولون بصياح في الكلام: نصر الله دين الإسلام. فذهبوا إلى بيت قاضي العسكر وتجمعوا وتبعهم من على شاكلتهم نحو الألف والأكثر فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب. وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر».

من هذا النص ندرك فوضوية الثورة، فلا قيادة تخطط وتأمر بالتنفيذ، ولا إعداد مسبق ولا تحديد للهدف، ولا شعار مرفوع ينادي به الثائرون. ومع أن الجبرتي صريح في أنه «لما أشيع ذلك (أمر الضرائب) في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك». وأنه نتيجة لهذا «انتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك»، ـ مع ذلك فلا نسمع في صياح الثائرين شيئاً من هذا. بل كل ما سمعناه: «نصر الله دين الإسلام». وبذلك ندرك ان إشاعة: «أن بونابرت إنما يريد إرغام المسلمين على اعتناق المسيحية» التي لم يشر إليها تاريخ الجبرتي، وذكرها التاريخ العلمي، ـ إن هذه الإشاعة قد طغت على عواطف الثائرين فنسوا ما ثاروا من أجله وتمسكوا بها.

وإذا كانت الثورة قد بدأت بألف من الحشرات وزعر الحارات، فقد اجتمع بعد ذلك في الأزهر العالم الأكبر.

وحاولت قطعة عسكرية محدودة العدد مهاجمة مهاجمي بيت قاضي العسكر فمرت ـ كما يقول الجبرتي ـ بشارع الغورية وعطفت على خط الصنادقية ذاهبة إلى بيت قاضي العسكر، فرأت أن التجمعات هناك أكبر مما ظنت وأن لا طاق لها بتفريقها فتراجع قائدها بها فانقض عليه الثائرون «وضربوه وأثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه»[1].

هذا الصدام الدموي حول الأمر من أمر (حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية) إلى أمر شعبي عام، وعادت الحال حال ثورة حقيقية تداعى فيها من تداعى لمواجهة الأمر الواقع. فالفرنسيون لن يسكتوا على ما جرى، بل سيواجهون الدم بالدم، فعلى الجميع التضافر والإعداد للصدام المحتوم، ومع ذلك فلم يساهم بالقيام جميع القاهريين، بل اقتصر الأمر

(١) الجبرتي م٢ ص٢١٨ ـ ٢١٩.

على باب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حاذاها[١] ويصف الجبرتي وسائل الدفاع التي قام بها الثائرون: «مسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة، وهدموا مساطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجم العدو، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس»[٢].

لم يشارك في هذا كل من: «الجهات البرانية والنواحي الفوقانية فلم يفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم ولم يسارع. وكذلك مصر العتيقة وبولاق، وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر».

ويقول عن الفرنسيين: «وأما الإفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنبات ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين».

ولم يطل الانتظار فإن الفرنسيين صبوا قنابل مدافعهم على (البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين).

وأمام هذا البلاء يقول الجبرتي: «ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل». وانتهى الأمر كما يقول الجبرتي إلى أن دخل الإفرنج المدينة كالسيل . . .

والواقع أن إقامة الفرنسيين في مصر تحتاج إلى دراسات مفصلة ليست هي من موضوعنا هنا لذلك فإننا نتجاوز الأحداث لنصل إلى تحفز نابليون لغزو الشام وأحداث ذاك الغزو.

(١) الجبرتي م٣ ص٢١٩.

(٢) ن. م.

الفصل الثاني عشر

مقدمات غـزو الشـام

كتبت حكومة الإدارة في باريس إلى نابليون في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٩٨ رسالة جاء فيها: إنه ما دام الإنكليز والروس أصحاب السيطرة في البحر الأبيض المتوسط، فمن المستحيل إنشاء أية مواصلات بين مصر وفرنسا وإرسال الجند والذخائر إلى نابليون، لذلك فإن عليه الاعتماد على موارده في مصر فقط. وهي تقترح عليه ثلاثة حلول:

١ ـ البقاء في مصر مع تدعيم مركزه بشكل يمنع عنه هجوم الأتراك.

٢ ـ التقدم إلى الهند.

٣ ـ السير براً إلى القسطنطينية.

وأما العودة إلى فرنسا فهي متعذرة في الظروف الراهنة.

تلقى نابليون هذه التعليمات في ٢٥ آذار سنة ١٧٩٩. وكان قبل ذلك قد حاول إقناع العثمانيين والولاة المجاورين له بأنه لم يأت إلى مصر معادياً للعثمانيين. فكتب بذلك إلى باشا القاهرة الذي كان قد هرب مع فلول المماليك بزعامة إبراهيم بك أن يعود إلى القاهرة ليظل نائب السلطان العثماني.

كما كتب إلى الصدر الأعظم وإلى عبد الله باشا العظم باشا دمشق. ويعنينا هنا أكثر ما يعنينا كتابته إلى أحمد باشا الجزار حاكم عكا الذي سيصطدم به عند الزحف إلى الشام، والذي كانت رسالته إليه أهم رسائل نابليون.

فقد كتب إليه في ٢٢ آب سنة ١٧٩٨ يوضح السبب الذي دعا إلى حضوره إلى مصر، وهو معاقبة المماليك وقتالهم، الأمر الذي يتفق مع مصلحة الجزار نفسه لأن المماليك كانوا من أعدائه. وقد ذكر أنه لم يحضر لقتال المسلمين وهو الذي اهتم بمجرد استيلائه على مالطة بإطلاق سراح الألفين من الأتراك الذين يرسفون في أغلال الاسترقاق من سنوات عديدة. . .

إلى غير ذلك من الأمور التي ذكر أنه فعلها في مصر.

وقد حمل هذه الرسالة إلى الجزار (بوڤوازان Beauvaisins) المفوض الفرنسي لدى الديوان في القاهرة. وكانت مهمة بوڤوازان أن يعرف الجزار ويؤكد له أنه لا يوجد في أوروبا أكثر صداقة للمسلمين من الفرنسيين، وأن ينفي الإشاعات الذائعة في بلاد الشام عن نابليون الذي يعزى إليه زوراً وبهتاناً أنه يريد الاستيلاء على القدس وتهديم الإسلام، وأن يعرض على الجزار صداقة الفرنسيين ويسرد له ما وقع في مصر من الحوادث وينصحه بالعدول عن التسلح أو التدخل في النزاع القائم[١].

وغادر (بوڤوازان) بولاق في طريقه إلى مهمته في ٢٤ آب فوصل إلى المنصورة ومنها إلى دمياط، ثم ركب البحر في ٣٠ آب (أغسطس) فوصل عكا.

ولكن حيل بينه وبين الوصول إلى الجزار، وهُدّد بقطع رأسه إذا نزل إلى الأرض فاضطر إلى العودة على السفينة نفسها التي أقلته إلى عكا[٢] فوصل دمياط في ٧ أيلول (سبتمبر).

وقدم تقريراً إلى نابليون بعد وصوله إلى القاهرة في ١١ أيلول بما جرى له وما تحمله من إهانات وما تعرض له من أخطار وما آلت إليه مهمته من إخفاق.

ولم ييأس نابليون فعاود الكتابة إلى الجزار في ١٩ تشرين الثاني (نوڤمبر) سنة ١٧٩٨ مؤكداً له أنه لا يرغب في الحرب معه لأن الجزار لم يكن من أعدائه، ولكن على الجزار أن يوضح موقفه فإذا كان سيستمر بالسماح لإبراهيم بك بالوصول إلى الحدود المصرية فإن نابليون يعتبر ذلك عملاً عدائياً فيضطر للزحف إلى عكا. فإذا أراد الجزار السلام مع نابليون فعليه إبعاد إبراهيم مسافة ٤٠ فرسخاً من الحدود المصرية وأن يترك التجارة حرة بين دمياط وسوريا. وفي مقابل ذلك فإنه يعد الجزار بعدم مهاجمته ويترك التجارة حرة بين مصر وسوريا براً وبحراً.

ولكن هذا لم يجدِ شيئاً.

(١) الحملة الفرنسية للدكتور محمد فؤاد ص١٩١ ـ ١٩٢.

(٢) reyleand. t. i.v. P. 247.

رسالة نابليون إلى سلطان عُمان

عندما احتل نابليون مصر أرسل إلى سلطان عُمان رسولاً يحمل كتاباً هذا نصه: «اكتب إليكم هذا الكتاب لأبلغكم مما لا شك أنكم علمتموه وهو وصول الجيش الفرنسي إلى مصر. ولما كنتم أصدقاء لنا فعليكم أن تقتنعوا برغبتي في حماية جميع سفن دولتكم وعليكم أن ترسلوها إلى السويس حيث تجد حماية لتجارتها».

وكان الكتاب مؤرخاً في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٧٩٩.

ويبدو أن غاية نابليون من الاتصال بالسلطان كانت أبعد من مجرد إبلاغه خبر وصوله إلى مصر وتطمينه على السفن العمانية التي يراد إرسالها إلى السويس. بل إن الغاية كانت اتخاذ السلطان وسيلة للاتصال بالمناضل الهندي (تيپو) الذي كان يقاتل الإنكليز دفاعاً عن بلاده واستقلالها. وكان من أحلام نابليون الوصول إلى الهند، لذلك أراد تشجيع تيپو على محاربة الإنكليز العدو المشترك ثم التمهيد للنزول في الهند.

ولم يكن اتصال نابليون بتيپو سهلاً، لذلك اختار نابليون سلطان عُمان ليكون طريق الاتصال، فأرسل مع رسالته إلى السلطان رسالة إلى تيپو يحرضه على الاستمرار في قتال الإنكليز حتى وصوله إلى الهند. وكانت عيون الإنكليز المبثوثة في كل مكان قد علمت بأمر المحاولة الفرنسية إحكام العلاقة مع سلطان عمان. فأرسل الإنكليز في الحال مندوباً هندياً مسلماً إلى مسقط أتم الاتفاق بين السلطان والإنكليز.

ولابد هنا من التعريف بالمناضل الهندي فتح علي تيپو لتتوضح محاولة اتصال ناپليون به: يقول محمد حسن الأعظمي:

النواب (حيدر علي) المولود سنة ١١٣٤هـ سلطان إقليم «ميسور» جنوب الهند يمت بالنسب العريق إلى العروبة وإلى قريش خاصة، هاجر أسلافه الأولون من مكة المكرمة ثم إلى عاصمة الخلافة العباسية، ومنها إلى الأراضي الهندية. وهو ابن الشيخ «فتح علي بن محمد علي» واشتهر حيدر علي بالشجاعة، وتجلت بطولته في عدد من المواقع فقلده على أثرها الأمبراطور المغولي الحكم في إقليم ميسور.

ومنذ أنشأ الإنكليز «شركة الهند الشرقية» لم يكن لهم عمل سوى الدسائس ومؤامرات التفريق وإغراء فريق بفريق، ولم يكن هنالك شجى في حلوقهم ولا قذاً في عيونهم سوى حاكم «ميسور» وقائدها الأعظم، فقامت مؤامرة اشترك فيها «نظام حيدر آباد» وحاكم «بونا»

الهندوكي، واتحدا على حرب القائد، وتقسيم «ميسور» بينهما وبين الإنكليز، وهاجمت الجيوش المتحدة الولاية واستطاع القائد المظفر أن يردهم بالهزيمة خاسرين، وفي سنة ١٧٨١م تجددت الحرب بين حيدر علي والجيش الإنكليزي بقيادة جنرال انكليزي اسمه «سيرهكز متروكو» وتلاقى الجيشان قرب «بولى بور» وبعث حيدر علي جيشاً بقيادة ولده (فتح على تيپو) وقاد بنفسه جيشاً آخر وهاجم به من ناحية أخرى وفرالكولونيل (بيلى) أحد الضباط الإنجليز، واختفى في أحد البساتين، واستمرت الحرب حتى أسرالكولونيل «بيلي» وقتل عدد كبير من الإنكليز فيها.

ويقول السير «الفرد لايل» لم يصبب الإنكليز بخسائر فادحة في الهند مثل ما أصيبوا به في هذه الحروب.

بدأت الحرب، بين الإنكليز والمواطنين، ولم يكن «فتح على تيپو» قد تجاوز السادسة عشرة وكان والده قد ولاه قيادة جيش قوامه سبعة آلاف من الجنود الأقوياء وأرسله إلى «نگر» ولما بلغ الأمير ميناء «كوريال» تبين أن جيش العدو يضم عدداً ضخماً لا قبل لجيشه به فكتب إلى أبيه يطلب المدد، ولم يكد أبوه يتسلم الخطاب حتى قدم بنفسه على رأس جيش آخر وأمر ابنه أن يهاجم القلعة، فاستولى عليها واضطر القائد الإنكليزي إلى الفرار عن طريق الساحل، حيث استقل سفينة هرب بها. وكم كانت غبطة الوالد حين رأى ابنه القائد الفتى وقد أحرز انتصاراً حاسماً في أشد معركة وفي أقصر وقت. وكلما اتحد الإنكليز مع «نظام حيدر آباد»، و«راجا بونا» الهندوكي لمحاربة السلطان، كان يتصدى السلطان بنفسه لمواجهة قوات الأعداء فيهزمهم حتى إن الإنكليز اضطروا في النهاية إلى طلب الصلح من السلطان، وقبلوا شروطه القاسية التي فرضها للصلح.

وقد زوج «حيدر علي» ابنه «تيپو» في سنة ١٧٧٤م من «رقية بانو» ولم تكد تتم حفلات القران حتى نقض الإنكليز عهودهم واحتشدوا مع حلفائهم، وتجددت الحرب عند قلعة «جتى» سنة ١١٨٧هـ (١٧٧٦م) فاستولى الأمير عليها. وفي المدة بين ١١٨٨هـ (١٧٧٥م) و١٩٩١هـ (١٧٧٩م) استولى على عدة قلاع بعد حربهم ثلاثة أعوام.

وهذه القلاع هي «جتل رج» و«كوبه» و«لنجى كوته» وبعد فترة عاودوا الحرب سنة ١٧٨٠م وفي كل هذه الحروب كان لتيپو مشاركة فعالة. وكان يقود الإنكليز كبار القواد مثل الكولونيل «بيلي» و«سيرايد كوت» وفي خلال هذه الحروب المستمرة توفي حيدر علي سنة

١٧٨٢م. وكان الأمير مشغولاً بإدارة المعارك المستمرة فأسرع إلى المخيم الذي كان على مسافة تسعة عشر ميلاً من «أركات» وتولى بعده منصب الحكم.

وبعد أن تولى العرش توالت الحروب بينه وبين الإنكليز وحلفائهم التقليديين. وكان قد استعان في المعارك عليهم بعدد كبير من المجندين الفرنسيين الذين ضمهم إلى جنوده، فانتصر على أعدائه فعادوا إلى طلب الصلح من جديد، وقد سجل المؤرخ الإنكليزي «ستكلير» في تاريخ في سنة ١٧٨٢م أن الإنكليز حين طلبوا الصلح قبل السلطان ذلك.

وكانت شركة الهند الشرقية التي سبقت الاستعمار البريطاني على الهند أداة طيعة في يد الحكومة البريطانية فكانت تستغلها لتحقيق أهدافها الاستعمارية ببث سموم التفرقة وتشتيت شمل الصفوف القومية، فأغرت حاكم ولاية حيدر آباد وألبت دويلات أخرى على السلطان تيپو، وتقدمت جيوش الإنكليز ومن حالفها إلى ولاية «ميسور» فواجههم «تيپو» وهزم الأنكليز بقيادة «ميدوز». وفي أربع حروب مع الإنكليز توالت انتصاراته على أعاظم قوادهم وعلى الخونة من الخارجين على إجماع الشعب.

ولما تبين السلطان حقيقة أهدافهم وأنهم قد أخذوا يعملون على احتلال الهند عن طريق العملاء من حكامها حاول أن يستعين بقوات خارجية لطرد الأنكليز من الهند. فأرسل سفراء إلى الخليفة في تركيا، وإلى الشاه في إيران، وإلى الملك في أفغانستان.

وما كاد الإنجليز يشعرون بذلك حتى ساورتهم المخاوف والتجأوا إلى الدس والمكيدة فأغروا «مير صادق» وبعض وزراء السلطان بالغنم، وبواسطتهم استطاع الإنكليز وحلفاؤهم أن يحاصروا عاصمة السلطان، واشتدت الحرب بين المعتدين والسلطان، ولكن الخونة طلبوا من السلطان أن يقبل الهدنة من الإنجليز، وذلك تثبيطاً لعزيمته فقال لهم سنمضي في حربنا (واليوم من حياة الأسد خير من حياة الغنم ألوف الأعوام) وامتشق حسامه ونظر إلى الخونة قائلاً لهم: سوف ترون أثر خيانتكم وثمرة جنايتكم حين يسام أبناؤكم وأحفادكم وذريتكم بالذلة والصغار، ويدمغ تاريخكم بالعار. وظل يحارب حتى أصابته رصاصة فسقط عن جواده شهيداً في الميدان، وقد بلغ الخمسين من عمره. (انتهى).

الإنكليز يعملون

الإنكليز لم يكونوا غافلين عن تصرفات نابليون، فإن أحد أخصائيهم في الشؤون التركية

السير سدني سميث Sir Sidney smith كان قد انتدب للتعاون مع الأتراك والاتفاق على برنامج للعمل العسكري والبحري فعقد الاجتماعات مع وزراء الباب العالي ثم أبحر إلى رودس ثم إلى عكا للاتفاق مع حسن بك حاكم رودس وأحمد باشا الجزار حاكم عكا لإعداد برنامج العمليات الحربية.

وكان نابليون قد كتب إلى حكومة الإدارة منذ ١٧ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٩٨ يخبرها بأن الأتراك في سوريا يعدون العدة لأعمال عدوانية.

ولما امتنع الجزار عن الرد على رسائله ووصلته تقارير عن زحف إبراهيم بك وأحمد الجزار نحو الحدود المصرية قرر المبادرة بالهجوم والزحف على بلاد الشام.

والخيارات الثلاث التي قلنا إن حكومة الإدارة في باريس قد كتبت إلى نابليون بها وصلت إليه في ٢٥ آذار (مارس) ١٧٩٩ وكان قد بدأ فعلاً بالزحف واستولى على مراكز هامة في حملته.

الزحف إلى الشام

كانت الأوامر قد صدرت للجيش في ١١ كانون الثاني ١٧٩٩ بأن تبدأ مقدمته بالسير إلى العريش. وفي شباط (فبراير) بدأ الزحف وفي ٩ منه احتل الفرنسيون العريش.

وفي اليوم التالي كان يكتب إلى حكومة الإدارة مبرراً زحفه بأنه من أجل حماية مصر ومنع أي جيش من مهاجمتها من الشرق. ثم حرمان الأسطول الإنكليزي في البحر المتوسط من التزود بالمؤمن من الشواطىء السورية.

وقد برر تفرده بهذا القرار بانقطاع الرسائل عنه منذ شهرين.

وتقدمت الحملة الفرنسية فاحتلت غزة والرملة ثم حاصرت يافا فسقطت بعد أربعة أيام في السادس من آذار (مارس) بعد خسائر فادحة أصيبت بها يافا.

وفي خلال حصاره ليافا كتب إلى نابلس يطلب إليها أنها إذا أرادت السلام فعليها طرد المماليك وجماعة أحمد الجزار. كما كتب إلى الجزار يطلب إليه الانضمام إليه في حرب الأعداء المشتركين: المماليك والإنكليز.

وكان في قبضته ٣٠٠٠ أسير من يافا ففاجأه الوباء وهو لا يزال في يافا فحار في أمرهم وخشي أن يكون وجودهم عاملاً في ازدياد انتشار الوباء بين جنوده، كما أن وجودهم يزيد في

حاجته إلى المؤن، فعقد مجلساً عسكرياً فاتجه الرأي إلى إرسالهم إلى مصر، ولكن اعترض ذلك عدم كفاية المؤن والحاجة إلى الجنود الذين يخفرونهم، كما كان هناك خوف في حالة إرسالهم في البحر من أن يتعرض لهم الأسطول الإنكليزي، فكان أن تقرر إعدامهم رمياً بالرصاص، وأن ذلك أفضل من أن يموتوا جوعاً، أو تركهم فينضموا إلى الأعداء! . . .

ونترك التعليق على هذا إلى معلق فرنسي هو صاحب تاريخ الحملة العلمي والعسكري الذي قال: «إن هذه المذبحة كانت ولا شك وصمة في جبين أولئك الذين كان في استطاعتهم منعها، فإنه مهما انتحلت الأعذار لهذا العمل الشنيع فقد سلّم هؤلاء الأسرى أنفسهم، ولا ينبغي في حال من الأحوال ومهما كانت الأسباب تحطيم الوعود ونسيان قوانين الحرب المعمول بها». ا هـ.

وفي ١٨ آذار (مارس) ١٧٩٩ ابتدأ حصار عكا وامتد هذا الحصار ثلاثة أشهر صمدت فيها عكا، وكان سبب صمودها إنجاد الأسطول الإنكليزي لها بما كان يمدها به من رودس، وبتشتيته السفن الفرنسية التي كانت تحمل مدافع الحصار إلى نابليون، كما أن مهندساً فرنسياً من أعداء الجمهورية هو الكلونيل فيليبو Phelippeaux قد ساعد الجزار في تقوية الدفاع عن عكا.

وقد اجتمع كل ذلك على إفشال حصار نابليون لعكا. والهجمات التي شنها نابليون للاستيلاء عليها عنوة، والتي توالت في ٤ أيار (مايو) و٨ و١٠ منه كلها فشلت، فقرر في ١٧ أيار فك الحصار.

وكان قد كتب خلال الحصار إلى ابن الشيخ ظاهر العمر والأمير بشير الشهابي وشيخ نابلس طالباً التعاون دون أن يستجاب له.

على أنه اشتبك حول عكا مع الأعداء في عدة معارك أهمها جبل طابور في ١٦ نيسان (أبريل) ١٧٩٩ التي انتصر فيها انتصاراً كبيراً مما فتح له طريق ولوج بلاد الشام، ولكن صده عن ذلك وجود الصامدين في عكا في مؤخرته. وقد كلفت تلك الوقائع نابليون خسائر كبيرة في رجاله.

وبدا جلياً أن نابليون قد قرر العودة إلى مصر فمهد لذلك بأن أرسل في ١٦ آيار (مايو) إلى ديوان القاهرة ينبئهم بعزمه على مغادرة الشام إلى مصر، زاعماً أن أهل عكا غادروها بطريق البحر وأن الجزار جريح وقد تراجع إلى إحدى القلاع على شاطىء البحر.

ثم أذاع بياناً إلى الجند ذكرهم فيه بانتصاراتهم المجيدة وأخبرهم بقرار العودة إلى مصر. ثم أصدر أوامره بتنظيم انسحاب الجيش إلى مصر. وفي ٢١ آيار (مايو) كان الجيش يتراجع من أمام عكا فيصل إلى يافا فغزة. وفي أول حزيران (يونيو) وصل إلى العريش وفي ١٤ منه دخل القاهرة.

دخلها بكل مظاهر النصر تمويهاً للانكسار أمام أسوار عكا.

الفصل الثالث عشر

غـارة الفرنـسيين
بعد الحرب العالمية الأولى

إذا كنا نسجل هذه الأحداث فلا لأننا نريد أن نثير حقداً على من الفرنسيين، فالأمر بيننا وبين الفرنسيين اليوم قد آل إلى ما آل إليه الأمر بين الشاعر (جميل) وبين حبيبته (بثينة)، فقد تعاديا وتباغضا وتشاتما، ثم عاد حالهما إلى غرام متبادل وحب متداول.

وإننا نقول لفرنسا ديغول ما قاله جميل لبثينة قبل اليوم:

وأول مـا سـاق الـمـودة بـيـنـنـا ... بـوادي بـغـيـض يـا بـثـيـن سـبـاب
وقـالـت لـنـا قـولاً أجـبـنـا بـمـثـلـه ... لـكـل مـقـال يـا بـثـيـن جـواب

وإذا كان قد مثّل فرنسا فينا يومذاك الجنرال (غورو)، فرأينا فيه الصورة النكراء، فقد عاد يمثلها الجنرال ديغول مودة وصفاء.

وإذا كنا نشكو ما نشكو من الجنرال غورو ونتحدث عما أقضنا منه ومن زبانيته، فالجنرال ديغول نفسه قد عانى ما عانى من الجنرالات زملاء غورو يوم اعتصبوا عليه في الجزائر وأرادوا زواله والنكاية به. وفي الكتاب الذي سبق هذا الكتاب وهو (سراب الاستقلال في بلاد الشام) كتبنا الأحداث حتى دخول الفرنسيين دمشق. وإننا هنا نكتب أحداث ما بعد ذلك من أيام.

أول صوت

هناك مجهولون في مقاومة الاحتلال الفرنسي بعد معركة ميسلون ودخول الفرنسيين

دمشق، وقد تكون أفعال هؤلاء المجهولين محدودة الزمان والمكان، ولكن أهمية بعضها تعود إلى أنها كانت فاتحة النضال، وأنها شجعت الناس على أن لا يستكينوا، بل أن يستهينوا بجبروت المستعمرين وطغيانهم.

وها هنا حادثة ليست بذات شأن أمام ما تأخر عنها بزمن من أحداث، ولكن شأنها كبير في أنها كانت أول صوت يرتفع في وجه الفرنسيين في دمشق، فتبرهن على أن دمشق ليست التي استطاع من استطاع إخراج جماهيرها لاستقبال سفاحها الجنرال غورو بعد أيام من يوم ميسلون. بل إن دمشق هي القارة إلى حين الواثبة في كل حين.

وقعت معركة ميسلون يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ وفي ٢٥ منه كان الجنرال (غوابييه) يخترق شوارعها على رأس جنوده فاتحاً مزهواً بأنه بعد تلك القرون الطويلة قد استطاع أن يثأر لأحد أجداده القدامى الذي أسر في إحدى معارك الحروب الصليبية وجيىء به إلى دمشق أسيراً ذليلاً وعبداً رقيقاً(١) كما ذكر غوابييه في مذكراته، ناقلاً أن ذلك متداول في أسرته جيلاً عن جيل منذ ذلك الزمن إلى هذا الزمن.

بهذا الزهو وهذا الحقد كان (غوابييه) يقتحم دمشق على حصانه ووراءه من ورائه من الجنود المدججين بالسلاح. . .

وينسى هذا الجنرال المنتصر المزهو بانتصاره أن جده القديم كان حين أُسر غازياً معتدياً حاملاً نفسه من أرضه البعيدة إلى أرض ليست أرضه وقوم ليسوا قومه، وأن من حق من غزاهم في أرضهم أن يقاوموه، وإذا انتصروا عليه أن يأسروه ويسترقوه. . .

---

(١) قال الجنرال غوابييه في مذكراته بعنوان: (أنا في دمشق): إن هذا الاسم كان يمثل لي شيئاً خرافياً عندما كنت أقرؤه في سجلات عائلتي، وأنا بعد في سن الطفولة.
إن (جان منغولفيه) الجد البعيد لجدتي من جهة أبي (لويز) كان قد وقع في الأسر خلال الحروب الصليبية الثانية سنة ١١٤٧م ونقل إلى دمشق، إنه كان من السواد الأعظم، لذلك لم يعامله (السراقون) المعاملة الحسنة التي كانوا يختصون بها الفرسان اللامعين. وأهل دمشق جعلوا منه في ذلك الحين عبداً يشتغل في أحد المصانع التي يصنع فيها الورق من القطن. فاشتغل جان المسكين هناك شغلاً شاقاً خلال ثلاث سنوات. وبعد ذلك فرّ من دمشق وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي بعد اجتياز آلاف المخاطر، وعندما عاد إلى مسقط رأسه بعد غياب دام عشر سنوات، أسس أول طواحين الورق التي عرفتها أوروبا. أوليست (العدالة العليا) هي التي سمحت لحفيد أسير الحروب الصليبية أن يدخل المدينة المقدسة ظافراً منصوراً. . .

وأن القتال كان متكافئاً بين الفريقين عدة وعديداً، فالمنتصرون على أجداده انتزعوا انتصارهم من أقوى الأقوياء، فإذا ازدهاهم الانتصار، فمن حقهم أن يزدهوا به.

أما هو ـ الجنرال ـ فقد كان كأجداده معتدياً، ولم يقاتل قتال المتكافئين، بل كان يقاتل مئات صمدوا بأخف سلاح، فقاتلهم بألوفه الجرارة بأثقل سلاح!.

صموداً له ببنادقهم، فتقدم إليهم بمدافعه ودباباته وطائراته، ولم يتزحزوا حتى نفدت ذخائرهم وقتل قائدهم.

فهو ليس جديراً بالزهو، ولا حقيقاً بالشموخ... ثم هو لم يقاتل بقومه، بل قاتل بمن استعمرت بلاده بلادهم من سنغاليين وجزائريين ومراكشيين، ووفر قومه للتنعم بالأسلاب والغنائم...

وانقضى يوم ٢٥ تموز يوم الجنرال (غوابييه) في دمشق، وتتالت أيام الصيف بقيظها، وجاء شهر تشرين الأول، وانفتحت أبواب المدارس الدمشقية للتلاميذ الدمشقيين، فولجوها على كآبة وانغلاق نفوس...

ولم يراع الجنرال غورو عواطف الناس المفجوعين بكرامتهم واستقلالهم، ولم يحترم شعور المقهورين القارين على جراحاتهم، بل أمر بأن توزع صوره على المدارس فتعلق على قاعاتها!..

وجيء بصورة (غورو) إلى مدرسة حي (البحصة) الدمشقي الابتدائية، ورأى التلاميذ صورة غورو تعلق في غرفة مدير المدرسة (أديب التقي)، فهاجوا وماجوا، وتقدموا لاقتحام الغرفة، فكان من أمر المدير أن أغضى فلم يزجر ولم يمنع، فاعتبروا ذلك تشجيعاً، فازدادوا حماسة واندفاعاً فاقتحموا الغرفة وأمسكوا بصورة غورو ورموها أرضاً، ومزقوها، وخرجوا إلى الشارع صاخبين ضاجين، ثم انصرفوا إلى بيوتهم وادعين راضين..

كان من أمر السلطة أن أغلقت المدرسة، واعتبرت مديرها مسؤولاً عما حدث، ففصلته من عمله.

أديب التقي الذي يجب أن يعتبره مؤرخ النضال الوطني في سورية الجندي المجهول في هذا النضال، وأن يعتبره كذلك الفاتح الأول لباب هذا النضال، بما كان قد غرس في تلاميذ (مدرسة البحصة) الابتدائيين الصغار من كره للأجنبي الفاتح، حملهم على أن لا يتحملوا

صورة الرمز الأول لهذا الفتح في غرفة مدير مدرستهم، وبما أغضى به عن هيجانهم لمرأى تلك الصورة، وعن اقتحامهم لغرفته وتحطيمهم للصورة.

أديب التقي هذا لم يكن يوم (مدرسة البحصة) أول أيامه النضالية، لذلك أقول: إنه الجندي المجهول، وإن اسمه يجب أن يتصدر صفحات تاريخ تلك الفترة النضالية الشامخة.

لقد راعه استقبال الجنرال غورو على أبواب دمشق ذاك الاستقبال الشعبي الحافل بعد انقضاء أسبوع على معركة ميسلون، وأدمى قلبه أن تخرج الجماهير المفجوعة باستقلالها وكرامتها ووطنها للترحيب بفاجعها!..

وكان أديب التقي شاعراً، لا يزال في مقتبل الشباب، وفي أول عهده بالشعر، فكان له عزم الثائر كما كان له وجدان الشاعر فنظم أبياتاً تعبر عن شعوره بما جرى على باب دمشق الغربي الذي ولجه فاتح دمشق الجنرال (غوابييه) المنتصر في ميسلون، ثم جاء الجنرال الآخر رأس الهرم في جنرالات الجيش الفرنسي الملقي بجرانه على ساحل بلاد الشام، والآمر الناهي فيها، والقاذف بـ(غوابييه) وجنوده إلى ميسلون ثم إلى دمشق.

جاء ليلجه في أعقاب من دفعهم لولوجه قبله، فبدلاً من أن يُستقبل في دمشق بالإعراض، وهو أضعف الإيمان، استُقبل بالإقبال والتحشد والتدافع.

بل بما هو أفظع من ذلك إذ تقدم أبو شكري الطباع وزمرته وفكوا حصاني المركبة وربطوا أنفسهم مكانهما وجروا العربة المركوبة بغورو...

والجماهير الحاشدة حول غورو لم تكن مذهولة بالمنظر، بل ربما زاد المنظر حماستها، لأنها هي الأصل وجر المركبة هو الفرع.

الشاعر الدمشقي الفتى راعه ما جرى، ولم يكن يملك الاقريحة وقادة وقلماً دفاقاً فنظم قطعة شعرية تحمل كل ما في النفس الدمشقية الصحيحة من تفجع وأسى:

أأهل دمشق كيف سالمتم العدى ... وكيف رضيتم بالمذلة والأسر
ونمتم على شوك الهوان وتلكم ... ضحاياكم في ميسلون قرى النسر
بلادكم اجتيحت وتلكم رجالكم ... موزعة الأشلاء في مهمه قفر
أتغفون والأقذاء ملء جفونكم ... ولم تثأروا بالهالكين بلاوزر

أهل دريتم أنكم إذ خرجتم تلاقون (غورو) قد صبأتم إلى الكفر
ومن عجب أن تخرجوا للقائه وتلك دماكم في الربى لم تزل تجري

إذا كان يوم (مدرسة البحصة) أول أيام النضال الدمشقي، بعد ميسلون، وإذا كان رجل ذلك اليوم هو أديب التقي، فإن قصيدة أديب التقي هذه كانت أول قصائد ذلك النضال، وأول شعر افتتح به الشعر الوطني الحماسي في بلاد الشام. ولم تسبقها إلا قصيدة أستاذه السيد محسن الأمين التي نظمها قبل معركة ميسلون، يوم انكشف أمر معاهدة (سايكس ـ بيكو) وعرفت حقيقة نوايا الإنكليز والفرنسيين والتي قال فيها:

إن الحياة تنازع وخصام هيهات ما بسوى السيوف سلام
والعدل كالعنقاء فينا فالذي لم ينف عنه الضيم فهو يضام
قالوا السلام نريده بفعالنا والأمن تدركه بنا الأقوام
إن كان هذا أمنكم وسلامكم فعلى السلام تحية وسلام
قالوا الشعوب نفكها من رقها كلّا بل استعبادها قد راموا

وإلا قصيدة الشيخ سليمان ظاهر التي نظمها عندما بلغه نبأ معركة ميسلون والتي ذكرنا بعضها في كتابنا (سراب الاستقلال في بلاد الشام).

اشتهر في الكتب العربية موضوع (الأوائل)، وذلك أنهم يقولون: أول من فعل كذا، هو فلان. وأول من قال كذا، هو فلان. وأول من ألف في كذا، هو فلان... إلى آخر الأوائل التي يكثر عدها.

أما عند أديب التقي فالأوائل أكثر من واحدة، فإذا كان الأول في الأمرين الذين مرا، فقد كان الأول في أمر ثالث:

انقضى يوم ميسلون واستشهد بطله يوسف العظمة، وسكت الناس، ولكن أديب التقي لم يسكت إنه شاعر، لقد نطق بالشعر الأول في استفظاع استقبال غورو....

ويوسف العظمة شهيد ميسلون، أيُطل دمه فلا يرثى، ولا يكون هذا الرثاء جهورياً صخاباً يضج بالحماسة ويزخر بالوجد؟!

أيُقتل يوسف العظمة على روابي ميسلون برصاص المستعمرين... ثم لا تنشد الجماهير مراثيه إنشاداً علنياً يحفز للثأر، ويبعث على الثورة؟!

أديب التقي: الأول في النضال، والأول في شعر الاستنهاض، كان الأول في الرثاء الحماسي...

كان يريد نشيداً يعلّمه لتلاميذه في المدرسة، ينشدونه كل يوم، فيظل يوم ميسلون مطبوعاً في ذاكرتهم، موصولاً في أيامهم، فكيف يفعل؟

كيف يفعل وسيف الفرنسيين مسلط على الرقاب يتحفز لمن يتحرك أقل حركة لينقض على عنقه فيذبحه من الوريد إلى الوريد؟!

ولكنه فعل، فنظم نشيداً حماسياً رثائياً لم يسم فيه يوسف العظمة، بل رمز إلى اسمه باسم (أمين الشهيد)، فقال كل ما يريد أن يقول رثاءاً وحماسة واستثارة، دون أن يلفت نظر الفرنسيين وعملائهم إلى شيء، ودون أن يدركوا من يعني، وماذا يقصد!...

ودخل علينا يوماً غرفة الدرس[1] وقال اكتبوا، وأخذ يملي علينا النشيد الذي نظمه بعد أن أفهمنا أنه يعني بأمين الشهيد: اسم يوسف العظمة، ثم أودع لمعلم الأناشيد أن يلحّنه وأن يصوغ ألحانه صياغة تتناسب مع موضوعه الرثائي الحماسي الاستثاري.

وجاء اليوم الذي لا أنساه... اليوم الذي وقفنا فيه نحن جميع تلاميذ المدرسة... وقفنا صفوفاً في باحة المدرسة، ووقف حيالنا مدير المدرسة ومعلمو المدرسة جميعاً، وأشار معلم النشيد ببدء الإنشاد فانطلقنا بصوت واحد:

في كل صوب حُشّدت عساكر مدججون
يُخال كل منهم من هيبة ليث العرين

إلى آخر النشيد

كنت أحسب أننا وحدنا في المدرسة الذين نستظهر هذا النشيد وننشده. ولكنني بعد ثلاث سنين من اليوم الذي أنشدنا فيه النشيد لأول مرة سنة ١٩٢٠ كنت أمضى مع من مضوا في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٣ إلى ميسلون للاحتفال لأول مرة بذكرى يومها المشهود وشهيدها الصنديد متحدّين الفرنسيين بهذا الاحتفال.

وإذا بالجمهور الحاشد حول قبر الشهيد ينشد كله بصوت واحد نشيد (أمين الشهيد) فعرفت عند ذلك بأن النشيد قد عم الناس جميعاً.

---

(١) صار بعد فصله من وزارة المعارف مديراً لمدرسة أهلية هي المدرسة العلوية التي كنت من تلاميذها وأصبح اسمها بعد ذلك (المدرسة المحسنية).

على أن أديب التقي انفك بعد ذلك عن إدارة مدرستنا، وكانت حكومة الأردن في أول إنشائها وكانت بحاجة إلى مدرسين لمدارسها الثانوية المنشأة حديثاً، ولم يكن في الأردن من يكفي لسداد هذا الفراغ فاضطرت لاستدعاء مدرسين من مناطق أخرى، فكان أديب التقي في عداد من ذهبوا إلى الأردن.

ومضت الشهور الأولى في غيابه عن دمشق وغوطتها. دمشق التي كان قد ودعها قبل ذلك يوم استدعي إلى الجندية في أوائل الحرب العالمية الأولى فغادرها ضابطاً إلى جبهة القتال في قفقاسيا ـ ودعها بقوله من قصيدة:

شذاك أم المسك الفتيت يضوع	له بيتنا أنى نحل سطوع
أجلق هل للعيش فيك ودوننا	وهاد النوى، عود بنا ورجوع
أحن إلى عيشي لديك وإنما	يحن إلى الأم الرؤوم رضيع
تنكرت الأيام فيك وفرقت	بها ندوات بعدنا وجموع
فيا ليت شعري والزمان مفرق	أيرجع فينا الشمل وهو جميع

ويصل إلى قفقاسيا ويدخل في جحيم الحرب، وزمهرير البرد فيقول من قصيدة:

هي الخيل تضويها الربى والبسابس	ضوابح تنزو بالشكيم عوابس
على قنن القفقاس شعثاً كأنها	بمفرقها حين استدارت قلانس
تريك شكول الموت حمراً حجولها	إذا صبغت بالطعن منها القوانس(١)
مَن الفليق الجرار كاليم زاخراً	تدافع كالأمواج فيه الفوارس؟
سروا والبنود الحمر فوق رؤوسهم	خوافق تحميها الكماة الأشاوس
أسود تلاقي الموت وهي بواسم	ووجه الردى في الروع أسود عابس
ورب فجاج لاحبات إذا بدا	لها الصبح ردت وهي بيد طوامس
مضائق سدت بالجبال فروجها	سبائخ من ندف السما وكبائس
كأن ركام الثلج بحربها طما	كأن الذرى فيه سفين قوامس
كأن الضياع المقفرات جزائر	أحاط بها بحر من الثلج قالس
ترى الأرض مما حاكت السحب فوقها	زرابيها مبثوثة والطنافس

(١) **القوانس**: جمع قونس، وهو أعلى الرأس.

لقد حشدوا فيها الجيوش تتابعت   كتائب قد ضاقت بهن المتارس
فما لقي الخيل المغيرة دارع   ولا اقتحم البيض الصوارم تارس
لجنديهم خلق الغزاة إذا غزوا   ونفس على ورد الحمام تنافس
صبور على الجلى ترى منه راجياً   من العز ما يصبو له وهو يائس
ولا مثل تلك الشوس هيماً إلى الوغى   إذا قيل يوم الروع أين الأحامس
ليوث عرين غالها البرد والطوى   قضت مثلما في الغار تقضي الهجارس
ومن كان يوماً للنيوب فريسة   فإنّا لناب الجوع فيه فرائس

وهو الآن غائب عن دمشق في الأردن، فقال فيما قال من قصيدة طويلة:

نسمات الشام وغوطتها   هبي فالوجد بنا برّح
سكن الليل الداجي وسكنت   وثائر همي لم يبرح

❊ ❊ ❊

مري بالوادي يا نسمات   وجوزي بالمرج الأخضر
وارتادي الروض ففي أدغال   الروض لنا خبر يذكر
وإذا جئت الدوح احتملي   من رياه نشر العنبر
كم نجوى تحفظها لي فيه   الأنجم والقمر الأزهر
ومواقف سال الدمع بها   فجرى منه سيل الأبطح

❊ ❊ ❊

أوما تنفك ترود الروض   لدى الآصال الآرام
وهل الوادي والسفح على   ما نعهده والآجام
أمسارح آرام الغزلان   أترجع فيك الأيام
ما غير منا جارحة   حزن في النفس وآلام
الحب الصدق كعهدكم   فيه والصبر وإن قرّح

❊ ❊ ❊

الليل وفحمته احترقت   أتراه يسفر عن فجر
في الكوة منه خيال شج   رثت أحشاه من الصبر

لم يبق الوجد سوى رمق ... منه يتردد في الصدر
شخصت لمهبك عيناه ... وتلفتتا نحو القبر
قد ظل يراوح بينهما ... لا يدري أيهما الأروح

* * *

نسمات الشام وغوطتها ... هبي فالوجد بنا برّح
سكن الليل الداجي وسكنت ... وثائر همي لم يبرح

وتقوم الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ وهو في الأردن وتُضرب دمشق بالمدافع والطائرات وتتهدم منازلها وتحترق معاهدها ويشرد أهلها فيقول فيما يقول من قصيدة:

البرق هيج منك الذكر فاهتاجي ... وناشدي جلقاً ماشئت أو ناجي
في ذمة العرب والتاريخ ما لقيت ... وما تكابد من عجم وأعلاج
تلك العقائل من أدمى أناملها ... من راع آمنها في الحندس الداجي
من نضّ برقعها من حلّ مئزرها ... من ساقها حاسرات بين أفواج
هذي المنازل أنقاض مدمرة ... وكن في منعة أمثال أبراج
تحت الخرائب أشلاء ممزقة ... وفوقها قبسات ذات إيهاج
دمشق سيري إلى العلياء خافقة ... منك البنود بتأويب وإدلاج
فقبل راياتك الخفاقة افترعت ... هام الربى بين وادي السند والتاج
ورفرفت فوق سد الصين وانبعثت ... إلى المحيط فماجت فوق أمواج

إن مؤرخ حركات النضال الوطني السوري لا يستطيع ـ إذا كان منصفاً ـ إلا أن يفتتح صفحات تاريخه باسم أديب التقي، وإلا أن يبدأه بحادث (مدرسة البحصة) وثورة طلابها وتمزيقهم صورة الجنرال غورو.

فقد كان ذلك أول غضبة على الاحتلال وأول ثورة عليه.

ـ ١ ـ

لقد كان من أعاجيب دمشق أن يخرج رجالها لاستقبال غورو في أعقاب معركة ميسلون، وأن يثور أطفالها لمجرد رؤية صورته معلقة في مدرستهم بعد معركة ميسلون! . .

لم أكن في سن الحادية عشرة التي كنتها يومذاك مستطيعاً استيعاب ما كان يعلل به

الناس ذلك الاستقبال الجماهيري لغورو. وإن كنت سمعت بعد ذلك بسنين وسنين أن (أبو شكري الطباع) قد علل ما فعل هو وزمرته بأن له أخاً محكوماً بالإعدام، أراد بما فعل إنقاذه من الإعدام، ولم أعرف هل استطاع أنقاذ أخيه أم لا.

ويخيل إلي في تعليل ما حدث: أن كهول السياسة التي كانت لهم الكلمة النافذة أيام الحكم التركي، ثم لم يعد لكلمتهم هذا النفوذ في العهد الاستقلالي الجديد، لم تعدلهم هذه الكلمة لأنهم لم يكونوا رجال قضية وطنية يناضلون من أجلها، بل كانوا رجال طاعة للحكم التركي القائم فاكتسبوا بذلك نفاذ الكلمة، ثم جاء عهد الاستقلال فقام على أساس الاصطدام بالفرنسيين، فلم تتحمل نفوسهم تصور هذا الاصطدام، فساد الاصطداميون وهم في جلهم من الشبان المتحمسين، وانخذل الكهول القاعدون عن التصايح للنضال، فرأوا أنفسهم شبه أذلاء بعد عز. وكانت لا تزال لهم هيبتهم في الأوساط الشعبية، وهي أوساط في جمهورها غير واعية، تستثار فتثور دون أن تعي حقيقة ما أثارها، فكما أثارها من أثارها للقتال في ميسلون فلبته بعد أن كان وحده في الساحة باعتكاف الكهول في منازلهم، أثارها بعد ميسلون من أثارها لاستقبال غورو بعد أن فر من فر إلى خارج البلاد أو اعتكف من اعتكف في البيوت بعد الانخذال وضياع الآمال، فخلت الساحة للفريق الآخر الذي برز نفوذه بعد أن كان متوارياً إلى حين.

ولكي نعرف أثر هؤلاء في الأوساط الشعبية نأخذ هنا النص الذي وصف به رشيد رضا في أواخر العهد التركي في دمشق وصف به أحد هؤلاء وهو عبد الرحمن باشا اليوسف، إذ قال عنه:

«عبد الرحمن باشا اليوسف أمير الحج الذي هو أوسع أهل دمشق ثروة وأعلاهم جاهاً ومنزلة»[١].

وإذا كان عبد الرحمن هذا بذلك الموقع، فأمثاله كثيرون في دمشق. وقد كان من الطبيعي أن لا تزول هذه الثروات وينقضي هذا الجاه وتضيع هذه المنزلة في تلك الفترة القصيرة التي مضت ما بين الجلاء التركي وقيام الحكم الاستقلالي.

وقد وجد هؤلاء الوجهاء أنفسهم مزويين في العهد الجديد، متقدماً عليهم في تسيير الأمور وتقرير المصير من هودونهم، فكتموا غيظهم إلى حين. فلما حانت لهم الفرصة بزوال

---

(١) رحلات رشيد رضا. الصفحة ٢٧.

الاستقلال ورحيل رجاله وتفردهم بالأمر، أهابوا بالناس الذين اعتادوا على تبعيتهم لهم فاستجابوا لهم.

وكانوا خلال فترة الاستقلال القصيرة قد جمعوا شملهم وأحكموا أمرهم بتأليف حزب لهم سموه (الحزب الوطني) كان معروفاً بميوله الفرنسية، فلما استشعروا في أواخر العهد الاستقلالي ضعف الحكومة وقلة حزمها، أخذوا يتحركون فقال عنهم رشيد رضا الذي كان شاهداً للأحداث ما يلي:(١)

«فقوي الحزب الوطني المتهم بموالاة فرنسا وهو الذي كان يرأسه عبد الرحمن باشا اليوسف، حتى إنه بلغ الحكومة أنهم عزموا على تأليف وفد فيه سبعة من حملة العمائم وسكنة الأثواب العباعب يرسلونه إلى باريس بطلب الانتداب الفرنسي على جميع البلاد السورية».

فإذا كان هذا أمرهم وحكومة الاستقلال قائمة فلا عجب أن ينجحوا بعد يوم ميسلون في تأليب الأتباع على استقبال الجنرال غورو بمثل ما استقبلوه به.

ويقول يوسف الحكيم وهو شاهد لأحداث تلك الفترة عائش في صميمها ـ يقول واصفاً الحال يومذاك (الصفحة ٨٧) من مذكراته (سوريا والعهد الفيصلي):

منذ بدء الاستقلال السوري العربي أثر جلاء الترك عن سوريا، نزل ميدان الاجتماع والسياسة أبطال الجهاد الوطني وزعماء الأحزاب وقادة الفكر والرأي العام من مختلف الطبقات ولا سيما منهم من كان محرزاً درجات عالية من الثقافة والنفوذ الشعبي. فأخذوا ينافسون الذوات القدامى الأولية في المجتمعات الوطنية والسياسية والعلمية والخيرية، مما جعل معظم أولئك الذوات ينقمون على فكرة التحرر من كل مساهمة أوروبية ويبتعدون عن الشبان الأحرار الذين أحاطوا بالأمير فيصل وقصره وعن الجميعات الوطنية المتطرفة في حريتها ودعاياتها، بل كانوا يخشون أن يؤدي تنشيط العصابات على حدود المنطقة إلى اضطرابات واصطدامات جدية مع الجيش الفرنسي على قوته التي لا يجهلها أحد. لذلك كانوا خلافاً لغيرهم على اتصال دائم بالكولونيل (كوس) ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق. وقد أثبتت الحوادث التي ظهرت بعدئذ أنهم كانوا يفضلون الانتداب الفرنسي على الانتداب البريطاني بل على الاستقلال التام الناجز إذا كان مصيره ـ حسب تعبيرهم ـ بين هؤلاء الشبان

(١) الرحلات، الصفحة ٣٠١.

دون سراة القوم، ولكنهم لم يجرؤوا على الجهر بآرائهم إلا بعد دخول الجيش الفرنسي دمشق.

ويقول في الصفحة ٩١ من المذكرات:

دعا محمد فوزي (باشا) العظم إلى قصره في دمشق من كان قد وصلها من النواب، فلبوا الدعوة وتبادلوا بحث الفكرة الوطنية بصورة عامة، من استقلال ووحدة أو اتحاد، وتكرر مثل هذا الاجتماع في منزل عطا باشا البكرى، ولما أتى الخطباء في هذين الاجتماعين على ذكر الجبهة الشعبية ونشاطها وتعليق سمو الأمير فيصل الأمل على جهودها في سبيل الوحدة والاستقلال في المناطق الثلاث، بدا الفتور على وجوه الارستوقراطيين المحافظين، وفي مقدمتهم محمد فوزي العظم وعبد الرحمن اليوسف اللذان انسحبا من المؤتمر واعتزلا كل عمل سياسي. (انتهى).

لقد غطى الأطفال بثورتهم على خزي الرجال، وبدأ الأطفال يكبرون بريئين من علة الآباء، يكبرون على رؤية الأجنبي الغاصب، وبدأت الأجيال تنمو جيلاً بعد جيل، وبدأ عذاب فرنسا الطويل.

ـ ٢ ـ

لم يهنأ فيصل بالنصر العسكري الذي أحرزه سوى أيام معدودات، بدأت بدخوله دمشق مع خيالته، شاقاً شوارعها في ابتهاج الدمشقيين به، ووقوفهم على الأرصفة والشرفات يرشقونه وخيالته بالورود والرياحين والعطور، ويملأون سمعه بهتافات التحية وتصفيق الفرح.

وامتد ذلك في اتجاهه إلى شمال البلاد ماراً بحمص وحماه وصولاً إلى حلب في مهرجانات شعبية متصلة الحلقات. وفي حلب جاءته ـ وهو في قمة سعادته ـ برقية من والده تطلب إليه السفر إلى باريس لتمثيل العرب في مؤتمر فرساي المنعقد لتصفية نتائج الحرب وتوزيع المغانم على المنتصرين، وتقرير مصير المنهزمين...

ولا شك أن فيصلاً قد ازداد سعادة بوصول هذه البرقية، وأنه خيل إليه أنه كما قاد العرب إلى النصر الحربي سيقودهم إلى النصر السلمي. وإنه إذا كان قد أغمد السيف فإن عليه الآن أن يشحذ اللسان.

ولم يكن فيصل بالعيي، ولا كانت حجته بالضعيفة، ولا كانت مطالبه بالغريبة، لذلك كان واثقاً بنفسه، متيقناً من عوده من باريس إلى دمشق بالظفر السلمي بعد أن عاد إليها من أيام بالظفر الحربي.

على أن تنغيصاً كان قد أطبق على فرحته، ولا ندري إن كان فيصل وهو يخترق بموكبه الباسم المدن والدساكر والقرى السورية من دمشق حتى حلب، قد كان يفكر في هذا التنغيص، وما يرمي إليه في مستقبل الأيام من تطويح بالآمال، أم أن موجة الفرح العارمة كانت تحجب عن ذهنه ما وراء هذا التنغيص!

فقد كان بعيد وصوله إلى دمشق منتصراً قد أوفد إلى بيروت وجبل لبنان من يعلن الحكم العربي الاستقلالي فيهما، ويرفع في سمائهما العلم المربع الألوان، المستمدة ألوانه من شمائل العرب الأصيلة التي عبر عنها الشاعر العربي بقوله:

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

فمضى موفدوه إلى بيروت وأعلنوا الاستقلال العربي ورفع علمه على الصارية العالية، ولكن الحلفاء الذين قاتل وإياهم معاً وانتصر وإياهم معاً، جبهوا موفديه وألزموهم إنزال العلم من عليائه، والعودة من حيث أتوا.

وكان ذلك نذيراً أي نذير بغموض المستقبل وتلبده بالغيوم وامتلائه بالعوارض والموانع. ولا ندري إذا كان فيصل وهو يغذ السير من دمشق إلى حلب بين أهازيج المرحبين، وبشائر المستقبلين ـ إذا كان قد ترسخ في ذهنه شيء من صدمة بيروت فشاب فرحته شيء من الكدورة، أم أنه كان قد زوى من ذهنه آثار تلك الصدمة فمضى بآماله العراض واصلاً إلى حلب، ثم ملبياً الدعوة إلى حضور مؤتمر فرساي.

ومها يكن من أمر فإن ساعة النزوح من حلب، والإقلاع فيها إلى باريس كانت آخر ساعات الفرح، وإيذاناً بولوج ظلام لا بصيص فيه من نور، حتى انتهى الأمر بيوم ميسلون ودخول الفرنسيين دمشق، وانطواء سراب الاستقلال ما تحدثنا عنه في كتابنا (سراب الاستقلال في بلاد الشام).

ـ ٣ ـ

يروي الوزير يوسف الحكيم الذي خرج مع من خرجوا مع فيصل أثر تلقيهم نهاية معركة ميسلون، خرجوا إلى (الكسوة) قريباً من دمشق للتفكير فيما يجب أن يعملوا بعد الذي جرى.

يروي يوسف الحكيم أن فيصلاً قال له ـ وهما يمشيان معاً ـ فيما قال: «لم تنته القضية السورية ولن تحل بمجرد احتلال أجنبي».

قال فيصل هذا القول وهو في ساعات المحنة الباعثة على اليأس المطلق! . . .

وكان فيصل حكيماً فيما قال. . . كان عميق التفكير، بعيد الغور. . . لم تنه معركة ميسلون القضية السورية. بل إن القضية السورية بدأت بداية جديدة بعد معركة ميسلون. . .

كان رجل القضية السورية قبل معركة ميسلون وقائد مسارها فيصل، يسير بها مفاوضاً هنا ومطالباً هناك، محاوراً في المنتديات، ومحادثاً في المجتمعات. يتكلم بالمنطق ويطالب بالحق. وظل كذلك حتى تلقى البرقية الأخيرة من الجنرال غورو التي يخبره فيها أن الجيش الفرنسي سيتقدم من جديد حتى يستقر في خان ميسلون، وهناك تتابع المفاوضات.

إذا كان فيصل وحكومته قد قبلوا تنفيذ إنذار الجنرال غورو بعد أن تبين لهم أن كل ما لدى الجيش السوري من ذخيرة لا يصل إلى ٣٠٠ رصاصة لكل بندقية، وثمانين قنبلة لكل مدفع، وأنه بهذه الذخيرة لا يستطيع الصمود أمام الفرنسيين أكثر من ساعة[١].

إذا كانوا قد فعلوا ذلك مرغمين، وذلك للحقيقة المرة التي بدت لهم، فلم يكونوا بذلك هلوعين متخاذلين ضعافاً.

أما الآن أمام المطلب الجديد الذي جاء به رسول الجنرال غورو، والذي يجعل الجيش الفرنسي على هذه المسافة القريبة من دمشق وفي موقع لا حاجز طبيعياً بينه وبين دمشق يصلح للدفاع، بل بينه وبينها سهول مديدة، في حين أن بينه وبينها في موقعه الحالي حاجز عقبة الطين وما إليها من هضاب وأودية وتلال.

إن معنى قبول المطلب الجديد هو الاستسلام وتسليم دمشق لغورو تسليماً هيناً لا ترويه دماء. أما الآن فلم يعد الأمر أمر تفكير بين عواقب الحرب الخاسرة وعواقب قبول الإنذار. بل صار الأمر أمر الكرامة الوطنية والشرف القومي، ويوم يصير الأمر إلى هذا الحال، لا يبقى التفكير تفكيراً بالمصائر والنتائج، بل يكون التفكير بصون الكرامة وحفظ الشرف، لذلك رفض فيصل ورفضت حكومته قبول الطلب الجديد، وقرروا الدفاع عن دمشق بهذه القلة القليلة التي بقيت من الجيش، وبهذه الذخيرة المحدودة العدد التي يملكها.

وبذلك ظلت الدماء التي أريقت في ميسلون تستسقي الدماء، ظلت تستسقيها حتى رحيل آخر جندي فرنسي عن دمشق.

فالجيش الذي مر في ميسلون هابطاً منها إلى دمشق مخلفاً وراءه النجيع القاني على

(١) راجع كتابنا (سراب الاستقلال في بلاد الشام).

الهضبات السورية: نجيع يوسف العظمة وجنوده المذاويد ـ هذا الجيش كان آخر أمره أن مر في ميسلون صاعداً إليها من دمشق مخلفاً وراءه النجيع القاني في أزقة دمشق وبساتين الغوطة وهضاب جبل الدروز، وفي كل مكان من شمال سوريا إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها: نجيع ضباطه وجنوده...

وبذلك صح قول فيصل لوزيره يوسف الحكيم في ساعة الهزيمة واليأس: «لم تنته القضية السورية ولن تحل بمجرد احتلال أجنبي».

وإننا لنقول: إن في تاريخ سوريا الحديث مرحلتين: المرحلة الأولى تنتهي يوم ٢٣ تموز سنة ١٩٢٠، وهي مرحلة التفاوض والتحاور. والمرحلة الثانية تبدأ يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠، وهي مرحلة التصادم والتقاتل. فيوم ٢٤ تموز ليس خاتمة عهد، بل هو فاتحة عهد.

ولقد أصاب الشاعر الدمشقي خليل مردم حين قال:

أيوسف والضحايا اليوم كثر ... ليهنك كنت أول من بداها

وحين قال:

وليست ميسلون وإن أمضت ... أشد فجيعة مما تلاها

في تلك الأيام: أيام ما قبل يوم ميسلون وأيام ما بعد يوم ميسلون كان في دمشق الشيخ محمد رضا الشبيبي العالم، والمؤرخ، والشاعر، والزعيم السياسي، فلم يلبث بعد دخول الفرنسيين دمشق إن غادرها عائداً إلى بلده العراق المحتل من الإنكليز: فنظم هناك قصيدته العصماء التي يقول فيها:

ماذا بنا وبذي الديار يراد ... فقدت دمشق وقبلها بغداد

بردى وأودية الفرات ودجلة ... والنيل غص بمائك الوراد

حال العلوج من الأحامر بيننا ... وتعذر الإصدار والإيراد

لا ساغ يا بردى الشراب ولا هنا ... عذب من الماء القراح براد

نبأ بأعلى (قاسيون)[1] تجاوبت ... بدويه الأغوار والأنجاد

وأصاب بحر الروم حتى عبرت ... عن شجوه الأمواج والأزباد

حولان حال الشرق حالت فيهما ... لا تلكم الأحقاب والآباد[2]

---

(١) قاسيون هو الجبل المطل على دمشق.

(٢) المقصود بالحولين: ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ وهما اللذان أرخنا لهما في كتابنا: (سراب الاستقلال في بلاد الشام).

شل العداة جموعنا فتفرقت ... في الخافقين كأنها اذواد
آحادهم فينا جموع جمة ... مرهوبة وجموعنا آحاد
في كل يوم للعدو مهابة ... فينا تقوم وقوة تزداد
يا راكبين إلى دمشق تزودوا ... مني السلام لكل ركب زاد
الملك مضطرب النظام كأنه ... جسد دمشق الشام منه فؤاد
هل في مروج الغوطتين لأهلها ... ولرائديها مربع ومراد
وهل الربى حلل ضواف طرزت ... وطرازها الأزهار والأوراد
وشيت من الروض الأريض مطارف ... خضر الأديم وفوفت أبراد
تلك القصور كأنهن قلائد ... فوق الشطوط كأنها أجياد
أو ما تزال على معاهد جلق ... ترد الضيوف وتصدر الورّاد
يحلو لها هذ القريض مهذباً ... ويروقها الإنشاء والإنشاد
غدت العواصم خطة مغزوة ... لا الخيل تعصمها ولا الأجناد
لا آل حمدان ولا أيامهم ... فيها لهاتيك الثغور سداد
كانت حفائظ يعرب إن صوليت ... ناراً ونار الآخرين رماد

ـ ٤ ـ

الذين صمدوا في ميسلون كانوا الرجال. كانوا وجه دمشق الحقيقي ومظهر سوريا الصحيح.

والذين شوهوا دمشق باستقبال غورو كانوا أشباه الرجال. ولم يطل الوقت حتى نحتهم دمشق، وتقدم لغسل العار أطفال دمشق. . . أطفال مدرسة (البحصة).

إن معركة أطفال مدرسة (البحصة) هي امتداد لمعركة ميسلون. ففي ميسلون كانت المعركة الأولى، وفي (البحصة) كانت المعركة الثانية.

وبين المعركتين كان الفرنسيون قد أخذوا يوطدون سلطانهم ويبسطون سيطرتهم، فكان أول ما اتخذه الجنرال غورو من إجراء أن أنشأ في دمشق ما أسماه (البعثة) برئاسة مندوبه مؤلفة من قسمين رئيسين، أولهما عسكري يشرف على قوى الأمن العام من شرطة ودرك، وعلى إدارة شؤون العشائر البدوية المقيمة أو المتنقلة في الأراضي السورية.

والثاني مدني يضم مستشارين للعدلية والمالية والأشغال العامة والصحة.

وأقيم مدير فرنسي للأمن العام مع وجود مدير شرطة سوري، كما أقيم ضباط فرنسيون في الدرك مع وجود الضباط السوريين.

هذا مع وجود الوزارة السورية بجميع أعضائها، وهي التي ألفت إثر معركة ميسلون برئاسة علاء الدين الدروبي.

ومن الإجراءات التي اتخذت بعد يومين من احتلال دمشق أي في ٢٧ تموز وضع الرقابة على الرسائل والبرقيات، وترك ظروف الرسائل مفتوحة وأن لا تتجاوز الرسالة صفحة واحدة.

وبعد مرور أسبوع على معركة ميسلون واحتلال دمشق قدم إليها الجنرال غورو فاستقبل بما استقبل به مما مر ذكره، وقبل أن ينطلق موكبه الحاشد رأى أن يكافىء من عسكرييه من مهدوا له الوصول إلى دمشق، ومن سفكوا بأمر منه دماء الذادة الأحرار على الصعيد العربي في محاني ميسلون، فقلدهم الأوسمة مشجعاً لهم على التمادي في سفك الدماء، ومعداً لهم لتضريج الأرض بالدم القاني في كل مكان سيتلظى بنار الإباء... وما أكثر ما فعلوا ذلك يوماً بعد يوم...

وقد سار موكبه على النظام التالي:

عند مدخل دمشق حيث استقبل الاستقبال الصاخب، امتطى المركبة محاطة بالخيالة العرب شاهري السيوف. خيالة نوري الشعلان أمير أعراب (الرُوَلة)، والخيالة المغاربة المجندين من شمال أفريقيا.

نوري الشعلان الذي لم يطل العهد على خيّالته الحافة بموكب جمال باشا، ثم بموكب فيصل، ثم ها هي تحف بموكب غورو!...

نوري الشعلان هذا هو نفسه الباني للمسجد المعروف باسمه في الحي الدمشقي الذي صار يعرف باسمه...

يستقبل الجنرال الفرنسي فاتح دمشق ـ يستقبله بخيالته الشاهري السيوف فتخب خيولهم العربية الأصيلة حول المركبة الزاحفة لإذلال العاصمة العربية الأصيلة!...

هذه الخيول الحافة اليوم بالجنرال الفرنسي محطم كيان المملكة العربية الناشئة، هذه الخيول سلالات الجيادالتي طالما صهلت في الميادين العربية فأثارت النخوات وهاجت الصبوات وحمت الكرامات!..

هذه الخيول تطأ بحوافرها اليوم شرف العرب! . . .

نوري الشعلان: تتقدم خيوله مركبة غورو بسيوف فرسانها اللماعة، فيكون عبداً للشيطان، ثم لا يبالي أن يبني مسجداً متقرباً من الرحمان!. إن عبيد الشيطان يا نوري الشعلان مقصوون من الرحمان. . .

مضى غورو، وعلى يساره جنرال فرنسي، مضى على رأس الموكب، وتلاه رئيس الوزارة السورية مصحوباً برئيس البعثة الفرنسية، ثم الوزراء والمستشارون. وبذلك سجلت لأول مرة تبعية سوريا لفرنسا، وحدد مقام رجالها من مقام الرجال الفرنسيين.

لا يعدو غورو مهما علا شأنه العسكري أن يكون تابعاً من اتباع رئيس الوزارة الفرنسية، يأتي مقامه في موكب الرئيس الفرنسي بعد عشرات المقامات.

وها هو يضع مقام رئيس الوزارة السورية وراءه، ويتقدمه مع جنرال فرنسي آخر، فيكون ذلك مفتاح الهوان وأول الإذلال. . .

إن هذا الفرنسي الذي هو في بلاده مجرد موظف في الجيش هو الآن هنا كما قيل فيه: «يملك صلاحيات قيصر روماني. . . سلطات تشريعية وتنفيذية لا يحد منها شيء. إنه يتمتع بصلاحيات أهم من تلك التي يتمتع بها في فرنسا رئيس الجمهورية ومجلس الوزراء ومجلس النواب مجتمعين».

وكان قد أُعد لنزوله قصر الحلبوني، فتوافد للسلام عليه جميع الطبقات الدمشقية وفي الطليعة منهم بعض المعممين ورجال الدين المسيحيون والوجهاء وكبار الموظفين.

وفي اليوم الثالث أولم ظهراً وليمة دعي إليها رئيس الوزراء والوزراء والمفتي والقاضي والبطاركة وفريق من الوجهاء وأركان جيشه.

واقتصر الأمر على تبادل الأحاديث.

وفي الرابع من شهر آب أولمت الحكومة السورية وليمة عشاء تكريماً للجنرال خطب فيها رئيسها علاء الدين الدروبي فرحب بالجنرال ولم يسىء إلى ذكر فيصل عند ذكره، ولكن نعته بالشريف فيصل ناسياً أنه تولى منصبه بمرسوم من الملك فيصل لا من الشريف فيصل. وإذا كان لم يسىء إلى ذكر فيصل فقد أساء إلى ذكر من كانوا حول فيصل ناعتاً إياهم بفئة من غلاة الوطنيين وأكثرهم دخيل على سورية. وخطب بعده رئيس البلدية يحيى الصواف مرحباً باسم الدمشقيين بالقائد العظيم الجنرال غورو، قائلاً أن سورية تأمل من الانتداب الفرنسي مستقبلاً زاهراً. . .

ولم يُرض نعت الملك فيصل بالشريف فيصل بعض الوزراء، فعلل رئيس الوزراء ذلك بأنه تجنب إغضاب الجنرال الذي لم يعترف لا هو ولا حكومته بملكية فيصل. بل كان يخاطبه برسائله بالأمير فيصل، وأن في ذكره بلقب الشريف ذكر له باللقب الذي لا ينفك عن اسمه في جميع أدوار حياته سواء كان ملكاً أو أميراً.

وقد كان ذكر رئيس الوزراء ما ذكره في صفة فيصل، ونعت العاملين مع فيصل بما نعتهم به، مثار نقمة عارمة عليه في داخل سورية وخارجها. وقد انتهت حياته قتلاً بأيدي الثوار الحوارنة بعد أيام من هذا الخطاب.

وخطب غورو مبرراً تصرفاته، مخاطباً رئيس الوزراء والوزراء بقوله وهو يشير إلى وقعة ميسلون: «ولولا حكمتكم في قبولكم الأمر الواقع لما كانت مدينة دمشق تخلصت من التدمير تحت وابل القنابل».

وكان بهذا القول يعرب عن أنه ما كان ليتورع عن ضرب دمشق وتدميرها بقنابل طائراته ومدافعه. وقال متباهياً بقوته: «إن الحاجز قد أزاله مدفع خان ميسلون...».

ـ ٥ ـ

ذكرنا في كتابنا (سراب الاستقلال في بلاد الشام) الذي كانت بحوثه مقتصرة على الأحداث الواقعة ما بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢٠، ذكرنا فيه حدثين تجاوزا ذلك التاريخ لأنهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بأحداث سنة ١٩٢٠ وهما حادث محاولة اغتيال الجنرال غورو، وحادث زيارة (كراين) لدمشق وما نتج عنها من مظاهرات واعتقالات. وكذلك أشرنا إلى ما أثاره وصول (بلفور) إلى دمشق من مظاهرات صاخبة وقلنا في الكتاب أن نجيب الريس سمى في جريدته (القبس) أبطال ذلك الحدث الوطني، يوم عادوا بعد تشريد عن الوطن أكثر من عشر سنوات لتصدرهم الدعوة إلى الثورة السورية الكبرى التي أثارها أول ما أثارها وقادها (سلطان الأطرش)، ومساهمتهم مساهمة فعالة في تلك الثورة التي يمكن أن يقال عن الدكتور عبد الرحمان شهبندر أنه كان زعيمها السياسي. ـ سماهم نجيب الريس بعد عودتهم من التشرد: (أصحاب الصرخة الأولى). وقد عثرنا ـ ونحن نكتب هذا الكتاب ـ على ذلك المقال فآثرنا أن نأخذه هنا، وهذا هو:

حينما وقف الزعيم شهبندر يلقي خطابه ليل أمس من شرفة البلدية، كانت ساحة الشهداء وحدها أقدس مكان في هذا الوطن، يحتفظ بأمجد الذكريات وأشرف الصفحات، ففي هذه الساعة فقط وفي ظل المشانق التي نصبت على جوانبها منذ عشرين سنة ونيف،

أعلن استقلال البلاد العربية إعلاناً معنوياً، وحررت أول وثيقة بهذا الاستقلال، وكان اليوم هو اليوم السادس من أيار عام ١٩١٦.

وفي هذه الساحة المقدسة ومنذ سبعة عشر عاماً، أعلن استقلال سورية إعلاناً حقيقياً، وكان اليوم هو اليوم الثامن من آذار عام ١٩٢٠.

وجاء يوم بعد ذلك على هذه الساحة، فطمست منها معالم الاستقلال، ونكس العلم الذي ارتفع باسم المشانق والضحايا، وارتفع مكانه علم آخر هو علم الاحتلال. وكان ذلك اليوم هو اليوم الرابع والعشرون من شهر تموز عام ١٩٢٠، فقد اكتُسح الاستقلال، وذهب الملك، وانهارت الدولة، فلم يبق من هاتيك الذكريات الضخمة لهذه الأمة المقهورة سوى قبر واحد في «ميسلون» أبى صاحبه أن يعود مع المنكسرين.

وبسط الاحتلال ظله على الأمة، وجثم كابوسه فوق الصدور، وطورد الوطنيون في كل مكان، وامتلأت بهم السجون والمنافي حتى أصبحت الوطنية همساً وراء الجدران، ولكن ساحة الشهداء التي جثم الخوف على جوانبها واحداً وعشرين شهراً سمعت في ضحى يوم من أيام الربيع أول صرخة ينادي بها أصحابها على ملأ من الناس، وبين سمع الاحتلال وبصره، وعلى مقربة من دور المحتلين وأعوانهم، وعلى قيد خطوات من مكان المشانق: الهتاف للاستقلال، والحياة للحرية، والاحتجاج على الاحتلال.

أما اليوم فهو اليوم السادس من نيسان عام ١٩٢٢، وأما الصرخة، فصرخة الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر.

وهنا نقف قليلاً وبحرمة وخشوع، لنسجل الساعة التي اخترق فيها ثلاثة رجال رهبة الاحتلال وظلمة سجونه، وشبح المشانق، فقد خرجت الوطنية من وراء الجدران والبيوت إلى الساحات والميادين، وفي اليوم الثاني كانت دمشق تردد صدى هذه الصرخة، وتنادي بحياة الاستقلال وبحياة الزعيم الشهبندر وإخوانه. كان هذا الزعيم وهؤلاء الإخوان في السجن، وكان المجلس الحربي العسكري في بناية العابد يعقد جلسته الرهيبة ليحكم على الزعيم وإخوانه بأقسى ما في قوانين الاحتلال من عقوبة، ثم كانت «أرواد»، وكانت القوافل إلى أرواد، فقد علّم الشهبندر وإخوانه الناس أن الإسلام لم ينتشر منذ ألف وثلاثمائة سنة إلا بعد أن خرج الأذان من كهوف مكة إلى ساحاتها، وأن الوطنية التي تكون همساً في البيوت تختنق في صدور أهلها، ثم يختنقون معها.

هكذا كانت صرخة الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر أول صرخة ارتفعت

في وجه الاحتلال، ثم كانت بعدها صرخات ومواقف ومعارك ودماء وشهداء وقبور، فإذا سمعت ساحة الشهداء ليل أمس صوت الشهبندر وقد عاد إلى الوطن وعاد معه إخوانه الأولون، فإنها تسمع صوتاً حفظت لصاحبه التمرد على الظلم، والدعوة إلى التحرير، والهتاف للحق يوم كان هذا الحق مظلوماً مضطهداً، ويوم كان أهله يتهامسون في طلبه، ويتشاكون في سبيله.

لست أريد أن أقول إن اليوم السادس من نيسان هو وحده الذي حرر الوطن من ربقة الاحتلال، وأسبغ عليه نعمة الحرية، فلقد كانت بعده لهذه الأمة أيام كثيرة وليال رهيبة، كلها بطولة وشهادة، امتلأت فيها جوانب الغوطة والجبل وقلمون والعاصي بالرفات والدماء، ولكني أريد أن أقول إن اليوم السادس من نيسان كان يوماً له ما بعده، لأنه ألهب الشرارة الأولى، ولأن أصحابه ضربوا أول مثل على إمكان التمرد على الاحتلال الأجنبي مهما كان المصير، وعلى أن طلب الحق يجب أن يكون علناً وبكل الوسائل مهما كان أصحاب هذا الحق ضعفاء أمام القوي المحتل.

هذا هو مغزى يوم الشهبندر وإخوانه، وهذه هي نتائج الصبر عند الصدمة الأولى، فقد كانت للقوة خشية فزالت، وللسجون رهبة فاقتحمت، وللحياة قيمة فرخصت حتى أصبح الموت في سبيل هذا الوطن أول واجب على الذين يطلبون استقلال أوطانهم.

فإذا كرمت دمشق الشهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم فإنما تكرم رجالاً ضربوا الضربة الأولى، وقد تكون القاتلة لهم، وقد يكون مصيرهم ثلاث مشانق تنصب في هذه الساحة التي تعودت على رؤية أحرار الأمة معلقين من فوقها، ولكن شعارهم كان «إن الضربة التي لا تميت تشجع». وقد كانت هذه هي الحقيقة، لأنهم ضربوا فما ماتوا، وحُكموا فما رهبوا، وخرجوا فما استكانوا حتى كانت الثورة الدامية، فكانوا أول من ضمتهم مناطقها، وكان وجودهم إلى جانب سلطان أول إعلان لاشتراك سورية بهذه الثورة الوطنية، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.

هذه هي ذكريات ساحة الشهداء ليلة أمس تطيف بنا من حول دار البلدية ساعة كان الزعيم يلقي خطابه، فإذا رحبنا به وبإخوانه فإنما نرحب بأصحاب الصرخة الأولى الذين أخرجوا الوطنية من الهمس إلى العمل فالنضال. (انتهى).

الفصل الرابع عشر

نضـال متتابع

ونعود هنا إلى استئناف الحديث عما أعقب احتلال دمشق من تحركات ثورية.

فالشيخ صالح العلي الذي ثار على الفرنسيين منذ احتلالهم المنطقة الساحلية، تابع الثورة عليهم بعد يوم ميسلون، وأمامي الآن ما كتبه عنه وعن ثورته (صبحي العمري) في القسم الثالث من كتابه (أوراق الثورة العربية) وهو القسم الذي خصه بميسلون وما تلاها، فقد قال في الصفحة ٢١٣ ما آخذه هنا بنصه. وهو قول ضابط عسكري عارف بقضايا الحرب وفنونها:

«ولنضرب على ذلك مثلاً بثورة جبل العلويين التي قام بها ذلك الرجل والبطل العظيم الشيخ صالح العلي[١] لاعتقادنا أنها تمثل النموذج الكامل لإمكانية الشعب السوري واستعداده

---

(١) ولد سنة ١٨٨٣ في قرية (الشيخ بدر) وتوفي سنة ١٩٥٠ ودفن فيها هو ابن الشيخ علي سلمان المريقب رئيس عشيرة (البشارغة). وكان الشيخ صالح ينظم الشعر فمن ذلك قوله:

الله يشهد والملائك تشهد ... ما زلت أدعو للصلاح وأنشد
طوراً بواسطة اليراع وتارة ... بين المحافل بالخلاف أندد
وقضيت من عمري نضارة عوده ... وصرفت منه ما يلذ ويحمد
والهف نفسي هل أموت ولا أرى ... أبناء شعبي عصبة تتوحد

ومما قيل في مدحه من الشعر:

الصالح الأفعال لا برحت لنا ... تروي رواة الخير عن أفعاله
في لفظه غرر السنا وبكفه ... غيث الحيا والبحر في أسماله =

للتضحية والفداء إذا ما تحققت له القيادة المخلصة. وفيها أيضاً النموذج الكامل الأمثل للقائد الذي قاد ثورة على أقوى دولة في ذلك الوقت على قلة منه في العدة والعدد. قادها لمدة اثنين وثلاثين شهراً بكريم سجاياه ونبل مزاياه وشجاعته وقوة إرادته وصدق عزيمته ومتانة خلقه ونبله وكرمه وقوة شخصيته وكفاءته العسكرية. لقد تفوق على جميع من قاتلهم من القادة والجنرالات العسكريين برسم خطط المعارك وكفاءته العسكرية التي كان لا ينقصها شيء من قواعد القتال المقررة في فنون الحرب. كان حديدي الإرادة شديد المراس في إعماله وشؤونه الحربية، وكان متديناً عظيم الثقة والإيمان بالله وبما يقوم به من جهاد في سبيله. إنني لم أبالغ في وصف مزايا هذا الرجل العظيم ولا أضفت إليه من عندي شيئاً. عندما بدأت بدراسة ثورته التي استمرت أكثر من سنتين ونصف السنة[1] على قلة وسائلها وقوة وشراسة خصمها قمت أفتش عن سر هذا الاستمرار وذلك التوفيق الذي رافقها، فقرأت أكثر ما كتب عنها وسألت بعض من شارك فيها أو عاصرها. *أقول إنني فتشت عن ذلك السر فوجدته في شخص الشيخ* صالح العلي وفي مزاياه التي ذكرت بعضها.

إلى أن يقول:

وفي ثورة صالح العلي دروس للقادة العسكريين والزعماء بأن الوسائل والأسلحة الحديثة من طائرات ودبابات ومدافع ليست كل شيء في تأمين الظفر، فإن لحسن التدبير والشجاعة والإقدام والإيمان والصبر المقام الأول في ذلك وكلها تنبثق من شخصية القائد. (انتهى).

وقد تعاون الشيخ صالح العلي في ثورته مع ثورة إبراهيم هنانو[2] التي سنعرض لها في الآتي من القول، واستطاع هذان الثائران إقلاق الفرنسيين مدة طويلة.

= وقد أقيم له بعد وفاته حفل تأبيني في مدينة اللاذقية كان مما قيل فيه عنه:

من شاعر نسق الرياض ونظما   أكبرت فيه العبقري الملهما
حمل المشاعل لا يمر بربوة   إلا وخضب باللهيب وضرما
تعب الجهاد من الطواف فلم يجد   شرفا أعز ولا مقاماً أكرما
فرمى الأكاليل التي ضفرت له   لما رآك معمما... وتعمما

(١) من هذه المدة أحد عشر شهراً واثنا عشر يوماً بعد معركة ميسلون واحتلال دمشق.

(٢) ولد سنة ١٨٦٩ في بلدة «كفر حارم» غربي حلب وتخرج من المدرسة الملكية في استنبول وتوفي سنة ١٩٣٥ خاض مع الفرنسيين ٢٧ معركة لم يهزم فيها. وألف في منطقة بيلان شمال حلب =

وفي ٣ أيلول من سنة ١٩٢١ أصدرت السلطات الفرنسية البلاغ التالي:

منذ شهر آذار حتى شهر تموز سنة ١٩٢١ كان عدد كبير من الكتائب يعمل بملء النشاط ويقاوم بدون انقطاع عدداً شديد المراس من العصابات مسلحاً في أراض جبلية وينازله في معارك كبيرة تنتهي بالانتصار حتى استتبت السكينة وانتظمت الأمور الإدارية وطاردت الجيوش بين ٦ نيسان و٢٣ أيار سنة ١٩٢١ عصابتي إبراهيم هنانو والشيخ صالح العلي وكانتا متحالفتين ولم تدع لهما وقتاً للراحة فتفرقت العصابتان منسحبتين نحو الشرق، وقد أفضت هذه المعارك الشديدة إلى احتلال البلاد وإنشاء مراكز ثابتة في كفر تخاريم ودركوش وجسر الشغور ومعرة النعمان. ومن ثم زحفت قوى الكلونيل نيجر العديدة بعدما وضعت الحواجز من البحر إلى نهر العاصي وطافت بلاد العلويين من الشمال إلى الجنوب واشتبكت في معارك طويلة من ١٠ أيار حتى ١٩ حزيران حيث نشبت معركة بالقدموس وانتهت هذه المعارك العنيفة بطاعة العلويين وهزيمة الشيخ صالح العلي وقد تخلى عنه أعوانه. (انتهى).

هذا هو البلاغ الفرنسي الذي يعلن انتهاء ثورة الشيخ صالح العلي، وفيه اعتراف صريح بقوة تلك الثورة وعنفها، فهو يعلن بأن عدداً كبيراً من الكتائب هو الذي كان يقاتلها، وأن الثوار كانوا شديدي المراس، وأن المعارك كانت كبيرة وشديدة وطويلة وعنيفة.

لقد بدأ الشيخ صالح العلي ثورته سنة ١٩١٩ وأعلنها من قرية الشيخ بدر. ومن أشهر معاركه مع الفرنسيين معركة وادي ورور سنة ١٩١٩ ومعركتا القدموس ووادي العيون سنة ١٩٢٠ التي استطاع بعدها احتلال مدينة بانياس في تموز سنة ١٩٢٠.

وقد أرسل الكولونيل نيجر إلى مجلة (العالم الإسلامي) الفرنسية ما أسمته (وثائق) تعرض للدور والمنهج المتبعين من قبل فرنسا، نأخذ منها ما يتعلق بثورة الشيخ صالح العلي، وهو ما يلي:

= حكومة وطنية وتلقب بالمتوكل على الله. ثم لجأ إلى عمان، وزار فلسطين فقبض عليه الإنكليز وسلموه للفرنسيين، فقدم للمحاكمة في حلب على أنه رئيس عصابة، وانتهت المحاكمة باعتباره ثائراً وطنياً وبريء. ولم يلبث أن أصبح في سوريا الزعيم الوطني المناضل ذا الكلمة الأولى.

قبل عام ١٩٢١ لم يعرف العلويون أبداً إلا الفوضى في الاستقلال. وكانت عمليات السلب والاغتصاب بين العشائر المتخاصمة وأحياناً المتحالفة تجتاح المنطقة. ولم يكن جنين المجتمع الاقطاعي الذي استطاع بعض المراقبين أن يلمحه هناك قد تجاوز في الطور المقابل له في فرنسا نهاية المرحلة الـ (mérovingenne).

ومنذ وضعت بلاد العلويين تدريجياً، هي وباقي الساحل السوري تحت الانتداب الفرنسي (١٩١٨ ـ ١٩١٩)، لم تخضع في البداية لأية عملية منهجية من قبلنا. وكان ينبغي مواجهة أكثر الأمور إلحاحاً، سواء في الشمال (حادث أنطاكية) أو في الجنوب (تل كلخ، الحصن)، والاقتصار على وقاية هذه القبائل الجبلية ـ التي لم يستطع الأتراك أبداً أن يخضعوها ـ من الدعاية الشريفية[١] المعادية للفرنسيين والتي تهاجم من الشرق. من جهة أخرى وفي البادية، فـإن العشائر العلوية التزمت الهدوء نسبياً لأنها لم تدرك بعد من يكون الأقوى، واكتفت بمتابعة بعض النزعات المحلية ضد السنة والإسماعيليين، أو مع السنة والإسماعيليين ضد مسيحيي البلد. وشيئاً فشيئاً بدأت الدعاية الشريفية والعروبية الوحدوية التي تغذ بها دمشق تقوى حول ثلاثة مراكز. تل كلخ، والرستة، والجسر، وحيث جهدت أن تصل الشاطىء الذي تحتله فرق فرنسية ضعيفة. وبما أن تل كلخ كانت على الطريق الكبرى طرابلس ـ حمص، فلم تخط إلا بنشاط متقطع وثانوي. أما (رستة) فكانت مركزاً أكثر خطورة بسبب وجود الشيخ صالح رئيسها الوراثي (إذ كانت قبة برستة تضم قبة والده) وكانت أوكلت إلى الشيخ صالح منذ البداية من قبل الأمير فيصل نيابته عن بلاد العلويين، وكان (الشيخ صالح) يتلقى منه العون الواسع والمعلومات الدقيقة (تابع فيصل بعد نقله إلى بغداد مراسلته له) وقد تذرع في البداية بثأر علوي مستحق على الإسماعيليين المسالمين في منطقة (قدموس) فنهبها، ثم خلع قناعه وكبّد الطابور المرسل لمواجهة المهاجمين أول خسارة. وعندما اضطر إلى إخلاء الرستة مرغماً فيما بعد، أثار الـ Sramtas وعرف كيف يثير اهتمام الكماليين في الحرب المقدسة التي يبشر بها، كما نجح في حملة (عين الشرقية) ضد قواتنا في حيلة (٣ كانون الأول ١٩٢٠) وهي الواقعة العابرة التي ضخمت من قبل الصحافة في باريس.

وكان برج جسر الشغور الواقع على كوع مفترق العاصي، على مقربة من الزاوية

(١) كان الفرنسيون ينعتون الحركات الاستقلالية بـ(الشريفية)، نسبة إلى الشريف) فيصل.

الشمالية ـ الشرقية من بلاد العلويين مركزاً خارجياً للمحرضين الذين يثيرون ضدنا سكان المنطقة الداخلية السنية في صهيون باسم رشيد بك طليع الحاكم السابق للاذقية والحاكم الشريفي لمقاطعة حلب. وبعد تمرد أول كانون الثاني ـ آذار ١٩١٩ أعلن الثوار استقلال الجسر (آذار ١٩٢٠) ومنها أتوا لمحاصرة حاميتنا في بابنا Babanna (١٦ ـ ٢٢ نيسان ١٩٢٠ وبعد انكسارهم أخذوا يرحلون وجهاء سنة صهيون إلى الجسر، ومنها بدأوا يوجهون حملات ضد العلويين الذين بقوا مخلصين (تموز ـ أيلول ١٩٢٠).

وبعد اختفاء فيصل في أواخر تموز ١٩٢٠ أخذت الحركة الكمالية التركية انطلاقاً من مرعش على عاتقها التنظيم الموجه ضدنا من قبل الوحدويين العرب، والتي بدأ من تشرين الأول ١٩٢٠ إلى كانون الثاني ١٩٢١ دعمت الشيخ صالح ودفعت سنة الجسر وصهيون لغزو الشاطىء كما نجحت في تسرين فوج تركي عبر قضاء حارم وصولاً إلى الجسر.

وبعد بداية ١٩٢٠ أصبح ضرورياً إجراء عملية تهدئة منهجية حاسمة. فالاحتلال لم يكن يشمل إلا مدن الشاطىء: طرطوس، وبانياس، وجبلة، واللاذقية، بالإضافة إلى مركز متقدم في بابنا Babanna التي كانت تمون مرة كل ١٥ يوماً.

إن التجارب السابقة كانت أظهرت عدم فعالية الطوابير الكبيرة التي تواجهه عادة بفراغ. كذلك فإن الفصائل الصغيرة سرعان ما تفهكها حرب الجبال. ولكي ندخل نهائياً في علاقة مع السكان العلويين ولإرغامهم على الإقرار بتسويات نهائية كان لا بد من العودة حسب المبادىء المطروحة من قبل gallieni et lyautey إلى عملية شاملة ولمرة واحدة، ومن خلال دمج السياسة مع العمليات العسكرية، والاستعمار التدريجي للعشائر المخضعة تباعاً ضمن كوادر المهيأة مسبقاً، وبعدم إبقاء أية جيوب متمردة.

وقام التحضير السياسي على عزل البلاد من جهة الشمال الشرقي وعلى إقامة حاجز وقتي في هذه الجهة ضد التسلل التركي، مع ربط الأقليات السنية في الشمال صراحة بقضيتنا وتعويدهم على أسلوبنا الانضباطي وبإقناعهم بالدخول إلى فرقنا غير النظامية. عندها نعود إلى الجنوب ونستطيع أن نهاجم كل كتلة العلويين، مع التأكيد على أننا نجبرهم على الدخول في علاقة معنا إذا قطع عليهم كل انسحاب من الغرب بواسطة البحر، ومن الجنوب والجنوب الشرقي بواسطة السكان المعادين: المسيحيين والسنة. أما بالنسبة للشرق، فإن وادي العاصي يشكل حاجزاً طبيعياً كافياً مدعماً ببعض القوات للمراقبة. وفي

داخل هذا الموقع المربع المرسوم آنفاً، تتصرف القيادة بثلاثة أرتال مجموعاً من ٩ إلى ١١ كتيبة، ٣ بطاريات وسريتين صغيرتين. وهذا مما يسمح بالهجوم تدريجاً على كل عرض الجبهة بدون السماح للعدو بتجميع قواه أمام رتل واحد. أما الأرتال فتمشي متوازية مع الحفاظ على الصلة وفي اتجاه شمال ـ جنوب، مع التزود بالتموين عن طريق الوديان المعترضة الموصلة إلى المراسي المكشوفة للشاطىء، مؤمنة الاتصال على قمة الشرق بواسطة فصيلة خاصة، مع القوات الموضوعة على طول العاصي، ودافعة نحو مصياف. إن التقدم يجري كحركة الحمشاط المترابطة: فجواته تمسك بالتتابع، كالأصابع، بواسطة المسيطر عليها (أيار ـ آب ١٩٢١).

التقدم الأول سمح باحتلال قرداحة ـ حرف ـ كتف البير ـ عين الكروم ـ شيخ ريح، وهو مخيم روماني قديم يشرف على العاصي، على الجسر الواقع على الزاوية نحو سافلة نهر شيزر.

المرحلة الثانية: كانت الخط رقم ١٤١٠ Bechraghi-kadamous.

والمرحلة الثالثة: وصلت مع وادي العيون ورستة إلى عمق الشبكة. ذلك أن العشائر العلوية الأخيرة في الجنوب، صوب طرطوس، التزمت حدها عند جيرانها السنة والمسيحيين، وامتثلت إلى النصائح العاقلة التي قدمها جابر العباس وأحمد حميد. وقد التحقت هذه العشائر واستمرت خاضعة منذ بدء العمليات.

إن نتائج هذه العملية كانت أولاً تسريع عملية جمع الأسلحة (٣٠٠٠ بندقية سلمت من كانون الأول إلى أيار سنة ١٩٢١) ومن ثم السماح بفرض الضرائب التي تجبى الآن بانتظام. فميزانية البلاد تكفي نفسها من الآن وصاعداً وبدون مساعدة المفوضية العليا. (انتهى).

وجاء في تقرير فرنسي آخر:

.... ومع ذلك إن جهداً عسكرياً جدياً كان ضرورياً لإعادة السلام إلى المنطقة. وكانت ثلاثة طوابير من اللاذقية وبانياس وحماه تحاصر المرتفعات (أيار ١٩٢١) وأمام التفوق الساحق للوسائل المستعملة لم يعد هناك تقريباً أية مقاومة.

وكانت المهمة الأساسية هي تجريد القرويين من السلاح. وفي تشرين الأول ١٩٢١ كان استسلام الشيخ صالح يعلن نهاية العصيان. ومنذ ذلك الوقت ساد الهدوء الكامل في كل البلد.

أما ثورة إبراهيم هنانو التي يشملها البلاغ الفرنسي، المتقدم ذكره والذي صدر متحدثاً عن الثورتين اللتين تحالفتا في قتال الفرنسيين. أما هذه الثورة فقد عنفت واتسعت، وقامت منذ قام الاحتلال الفرنسي واستمرت بعد معركة ميسلون. ففي أواخر العام ١٩١٩ ذهب إبراهيم هنانو إلى مدينة (أدلب) والتقى هناك بجماعة من إخوانه الذين توافدوا إليه من: كفر تخاريم وحارم وجسر الشغور ومعرة النعمان وصهيون وأماكن أخرى وقرروا إعلان الثورة على الاحتلال الفرنسي، وتألف من ثواره أربع فرق: الأولى بقيادة الشيخ يوسف سعدون فعهد إليها بالعمل في منطقة القصير، والثانية بقيادة نجيب عويد وعهد إليها بالعمل في منطقة كفر تخاريم، والثالثة بقيادة مصطفى الحاج حسين وعهد إليها بالعمل في منطقة الزاوية، والرابعة بقيادة مصطفى البيطار وعهد إليها بالعمل في منطقة صهيون قريباً من اللاذقية ومرجع الجميع القائد العام إبراهيم هنانو.

ومن أشهر المعارك التي خاضتها هذه الثورة معركة (حارم) في ١٨ نيسان ١٩٢٠ حيث احتل الثوار بلدة حارم بعد هزيمتهم للقوات الفرنسية المدافعة عنها، وحاصروا قلعتها التي لجأ إليها القائد الفرنسي الكابتن (لروا) وظلوا على حصارها حتى سقوط دمشق بعد معركة ميسلون.

وكان إبراهيم هنانو قد نظم أمر الثورة تنظيماً جعلها وكأنها امتداد للحكم الاستقلالي القائم في دمشق، وكأن إبراهيم هنانو قائد من قواد ذلك الحكم لا مجرد عصابة متمردة، حتى كانت تقوم بينه وبين الفرنسيين هدنات، ويتبادل الأسرى معهم. وقد امتدت ثورته من منطقة (العمق) شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، مشتملة على عدد من الحواضر، منها: حارم وأدلب ومعرة النعمان وجسر الشغور وصهيون. وكانت ذخائر السلاح تتناقص يوماً بعد يوم، وما من مدد يسد تناقصها، فكان ذلك من أسباب تراجع أمرهم، بل كان السبب الأول. فاضطر إبراهيم هنانو بعد معارك ضارية إلى مغادرة جبل الزاوية في ١٢ تموز سنة ١٩٢١ أي بعد سنة من معركة ميسلون، مع فريق من رجاله باتجاه (سلمية) وكان الفرنسيون قد أعدوا له في شرقيها كميناً للقبض عليه فنجا منه بعد أن وقع أربعة من رجاله أسرى بيد الفرنسيين الذين أعدموهم في الحال.

ومضى إبراهيم هنانو على جواده متابعاً السير جنوباً في بادية الشام مستضيفاً منازل البداة نهاراً ومواصلاً السرى ليلاً حتى وصل (عمان) في ٣١ تموز سنة ١٩٢١ فحماه الأمير عبد الله بن الحسين الذي كان قد توطد أمره في الأردن. وفي شهر آب قصد زيارة القدس

فقبضت عليه السلطة البريطانية بعد تدخل القنصل الفرنسي، وأرسل مخفوراً إلى بيروت ومنها إلى حلب.

فتألف مجلس عسكري فرنسي لمحاكمته فتذرع إبراهيم هنانو بأنه لم يكن رئيس عصابة متمردة، بل كان قائد ثورة وطنية، وبصفته هذه عقد هدنات مع الجنرال (غوبو) وتبادل معه الأسرى. وقد أحسن الدفاع عنه المحامي فتح الله الصقال الذي كان حديث تخرج من كلية حقوق السوربون في باريس مجيداً للغة الفرنسية، فأخذت أكثرية المجلس العسكري بهذا الاتجاه وحكمت ببراءته من جرم العصيان والتمرد المسلح.

ومنذ ذلك الحين توطدت زعامة إبراهيم هنانو للحركة الوطنية السورية.

وننشر هنا البلاغ الذى أصدرته القيادة الفرنسية عن انتهاء ثورة إبراهيم هنانو: في ١٢ أيار خرجت حملة من اللاذقية بقيادة الكلونيل نيجر فتوجهت إلى جبلة والمرقب حيث مركز العصابات وفي ١٣ منه زحفت حملة أخرى من محردة (محطة من محطات القطار بين حمص وحماه) بقيادة الكولونيل (دوم) وسارت في الوقت نفسه حملة ثالثة من الحمدانية (محطة من محطات القطار بين حماه وحلب) بقيادة الكولونيل (فيك). ومشى الجنرال (غوبو) قائد اللواء الثالث من حلب على رأس لوائه لتأديب العصابات فبلغ معرة النعمان يوم ١٥ منه ودخلت قوة الكولونيل فيك في اليوم التالي إلى (حبيط) وتقدمت قوة الكولونيل دوم فاستولت على جسر الشغور وزحفت قوة أخرى بقيادة الكولونيل (فونيه) على قلعة المضيق فاحتلتها ودارت معركة عنيفة في جسر الشغور بين الثوار وحملة الكولونيل (جراد كور) انتهت بانسحاب الثوار والاستيلاء على القرية وقد ارتدت العصابات أمام هذه القوات العظيمة ولا يقل عدد رجالها عن ثلاثين ألف مقاتل فغادر إبراهيم هنانو مقره في جبل الزاوية يوم ١٢ تموز سنة ١٩٢١ ومعه ٥٥ جندياً وضابطاً قاصداً عمان فلاقاه الفرنسيون شرقي سلمية.. ودارت معركة بينه وبينهم انتهت بأسر أربعة من ضباطه أما هو فواصل السير فوصل عمان يوم ١١ منه. (انتهى).

وهكذا نرى أن البلاغ الفرنسي يعترف بأنهم احتاجوا إلى ثلاثين ألف جندي لينهوا ثورة إبراهيم هنانو.

الفصل الخامس عشر

محاولة اغتيال الجنرال غورو

أشرنا في كتاب (سراب الاستقلال في بلاد الشام) إلى محاولة اغتيال الجنرال غورو وهو في طريقه من دمشق إلى القنيطرة وصولاً إلى مقر محمود الفاعور في الجولان، ونشير هنا إلى تفاصيل في تلك الواقعة:

كان بين رجالات سوريا النازحين عنها بعد معركة ميسلون، (أحمد مُرَيْود) أحد كبار منطقة الجولان المناضلين في سبيل الاستقلال[1] وقد استقر في شرق الأردن مقيماً في مدينة إربد. وكان وهو هناك يتلقى أخبار سوريا وما يجري فيها على يد الفرنسيين المحتلين. فبلغه يوماً أن الأمير محمود الفاعور أمير عشيرة الفضل في الجولان سيقيم للجنرال غورو وليمة في بلدته (واسط) في ٢٣ حزيران سنة ١٩٢١ فقرر اغتنام هذه الفرصة لاغتيال الجنرال غورو.

ويقول محمود عبيدات في كتابه (أحمد مريود) طبعة ١٩٩٧ في الصفحة ٢٤٨ عن التفاصيل ما يلي:

- بدأ مريود يرسم خطة الهجوم على موكب غورو فجاءت على الشكل التالي:

أولاً: تشكل المجموعة من المجاهدين: محمد ضاهر من شبعا، ومحمود [illegible] من جباثا الخشب، وأبو دياب البرازي من دمشق، وشريف شاهين من جباثا الزيت، وخليل مريود من جباثا الخشب.

ثانياً: يكون خط سير المجموعة على الطرق والمناطق التالية: كفرسوم ـ عقربا ـ نهر

(١) بلدته هي (جبّاثا الخشب).

اليرموك ـ الزوية ـ جباثا الخشب ـ طرنجة ـ مفرق ماعص، وهو موقع الكمين على الطريق المؤدية إلى القنيطرة على بعد ١٢ كيلو متراً تقريباً.

ثالثاً: يرتدي أفراد المجموعة اللباس العسكري المشابه تماماً للباس الذي يرتديه رجال الدرك السوري ويمتطون صهوات الخيل.

وكانت التعليمات تقضي بالانسحاب الفوري إلى شرقي الأردن بعد تنفيذ العملية مباشرة، وعدم اللجوء إلى منازل الأهلين خوفاً من ممارسة الإرهاب والتنكيل بهم وأن يتم سحب جثث من يستشهد أو يصاب بجرح بليغ، وفي هذه الحالة يستعان بالأهلين.

تحركت المجموعة في الوقت المحدد لها من قرية (كفرسوم) وكان في وداعها أحمد مريود وتركي العبيدات[(١)]. ثم انتقل أحمد مريود إلى أربد مباشرة. (انتهى).

والجنرال كاترو الذي كان يومئذ لا يزال (كلونيلاً) يروي في مذكراته التي نشرها بعنوان: (مهمتان في الشرق الأوسط) ـ يروي الحادث كما يلي:

كان غورو يحب كثراً المجييء إلى دمشق. كان يحب جوها التاريخي، وكانت الايحاءات الطالعة من حجارتها العتيقة توقظ فيه الرجل الرومانطيقي والعسكري معاً... كان غورو يتذوق عطر الشباب الخالد وعطر المخيلة الكبرى... إن الرجل الذي دمّر ميسلون هو أيضاً ذلك الرجل الذي كان يقوم بدور الدليل السياحي لأقربائه وأصدقائه كلما جاءوا إلى دمشق، ومن بين هؤلاء شقيقته ماري تيريز غورو غير أن إحدى هذه الجولات السياحية تحولت إلى مأساة يوم حلت في دمشق شقيقة غورو وإحدى بنات عمه... وسألني غورو إلى أين يذهبون، فاقترحت عليه زيارة القنيطرة القريبة من دمشق.

كان من المستحيل الإبقاء على الزيارة سرية كما كنت آمل وذلك لأسباب تتعلق بأمن المفوض السامي نفسه. فقد كانت حياته مهددة دون شك من قبل أولئك الذين لجأوا إلى مناطق الانتداب البريطاني، وأقصد بذلك شرق الأردن. وقد كان الوطنيون السورين بزعامة متطرف يدعى أحمد مريود يلاحقون تحركات غورو منتظرين المناسبة لاغتياله. والمعروف أن الطريق بين دمشق والقنيطرة لم تكن بعيدة من مدينة إربد الأردنية، حيث كان يقطن مريود،

---

(١) يظهر أن راوي التفاصيل لمؤلف الكتاب هو تركي العبيدات، لأن المؤلف يقول في الحاشية إن تركي حدثه سنة ١٩٦٤ أن أمر اغتيال غورو كان بغاية السرية وأن تركي وحده يعرف. وأن التخطيط والتفكير كانا من أحمد مريود وحده.

أكثر من ٦٠ كيلومتراً. وفي ضوء ذلك يجب الحؤول دون مثل هذه المحاولة بإقامة حراسة مشددة على تلك الطريق.

وهكذا أصدرت الأمر بأن يتولى الحراسة على طول الطريق رجال درك سوريون على أحصنتهم، يكون كل واحد منهم على مرأى من الآخر.

ويقول كاترو إن غورو أراد أن يصطحب شقيقته وابنة عمه في سيارته، فنصحه كاترو بأن لا يفعل قائلاً له:

إنك يا سيدي الجنرال تقوم برحلة رسمية في بلد مسلم حيث لا تعطي التقاليد للنساء أكثر من دور بعيد. ومطلوب منك أكثر من غيرك ألا تتحدى مشاعر المواطنين. ولذا من الأفضل أن تستقل السيدات سيارة أخرى من سيارات الموكب.

قبل غورو الاقتراح متردداً. وهكذا استقل سيارته المكشوفة ومعه فيها إلى جانب السائق مترجمه عن العربية الكولونيل (بارنيت) وخلف السائق على كرسي صغير (كاترو). وفي المقعد الخلفي جلس حقي العظم حاكم دولة دمشق وإلى يمينه جلس غورو.

وخلف سيارة غورو كانت سيارة القائد العام للقوات العسكرية في دمشق ومساعد الأمين العام للمفوضية العليا. وفي نهاية الموكب كانت سيارة الآنسة غورو وقريبتها المدام لونغمار.

يقول كاترو:

انطلق الموكب في سرعة تتقدمه سيارة الجنرال القوية. وكانت السماء مشعة، وفي الأفق بدا جبل الشيخ طاغياً، وكان رجال الدرك كل في مكانه... وما إن تخطى الموكب الطريق السهلة وابتدأ يتخذ طريق الجبل حتى بدا أربعة من رجال الدرك بثياب مهلهلة وهم يحملون بنادق الموزر وقد هرعوا إلى المكان الذي يفترض أنهم يحتلونه... وفكرت بمعاقبتهم فيما بعد على نوعية ملابسهم. لكن ما إن تخطى الموكب المنعطف الجبلي حتى فتح الفرسان الأربعة النار يدعمهم شريك خامس كان مختبئاً وراء الصخور. وفي الطلقات الأولى أصيب الكولونيل بارنيت الذي هب واقفاً إصابة قاتلة وسقط على الطريق. وأصيب حقي العظم إصابة خفيفة غير مميتة. أما غورو فكانت حصته ثلاث رصاصات. وحين سمع الرصاص قال لي غورو بكل هدوء. إنهم يطلقون النار علينا من فوق فهل معنا رشاش؟ وكنت بردة فعل عفوية قد التقطت رشاشاً لكنني وجدته فارغاً. وكانت جيوبه في مكان ما من هذه السيارة التي لم آلفها كثيراً. وشعرت أن السرعة وحدها يمكن أن تنقذنا فصرخت في أذن

السائق: أسرع يا بني إعطني الذخيرة، فدلنا عليها بإشارة منه. لكننا كنا ابتعدنا عن مرمى الاغتياليين ووصلنا إلى مركز درك حقيقين. وهنا غيرنا عجلة السيارة وتفقدناها فوجدنا فيها آثار ١٤ رصاصة، فقال لي غورو: إني مدين لك لأنك أنقذت حياة شقيقتي التي كان لا بد أن تجلس هنا. فأجبت: سيدي الجنرال لقد أنقذت الآنسة غورو لكننا لا نعرف مصير بقية الموكب، وبارنيت قتيل، وأنت نفسك نجوت بأعجوبة. إنني أتحمل المسؤولية لأنني مسؤول عن كل شيء على أراضي الانتداب ولذا أرجو أن تقبل استقالتي.

لكن غورو رفض استقالة كاترو، وأعفاه من المسؤولية، وجدد ثقته به..

يقول كاترو: ليس هناك شك بأن الذي دبر الاعتداء هو أحمد مريود، هذا الوطني السوري المتطرف الذي لجأ إلى إربد، وأقام على الحدود نفسها. وقد عرف من عملائه موعد زيارة غورو للقنيطرة وقرر المحاولة. وكان يعتقد أن الاغتيال سوف يعطي نتائج ممتازة بالنسبة إلى أهل الاستقلال في المشرق وفي العالم. ومن أجل هذا العمل جنّد أحمد مريود خمسة من الذين حصلوا على ثياب الدرك المستعملة وحلوا محل أحد مراكز الحراسة ثم أطلقوا النار.

يذكر الجنرال كاترو في مذكراته أن سيارة شقيقة غورو انقطعت عن الموكب وأعيدت إلى دمشق خوفاً على حياتها وحياة ابنة عمها. أما موكب غورو فتابع طريقه إلى القنيطرة. ولم يعد إلا في المساء بعد إقامة الحواجز ونقاط التفتيش على الطرقات من القنيطرة حتى دمشق.

أما الثوار فبعد أن استطاعت سيارة غورو الفرار نزلوا إلى جثة الكولونيل بارنيت الملقاة على الطريق ظناً أو أملاً منهم بأن تكون جثة غورو. وأخذوا معهم قبعة بارنيت كدليل على أنهم أدوا مهمتهم. (انتهى).

رأينا فيما تقدم أن مؤلف كتاب (أحمد مريود) ذكر أن عدد المنتدبين للاغتيال كان خمسة وأنه ذكر أسماءهم واحداً واحداً. كما رأينا أن الجنرال كاترو قال إنهم كانوا خمسة.

ولكن المؤلف نفسه يقول: بعد أن مضى أقل من شهر وردت إلى حكومة شرق الأردن مذكرة من المعتمد البريطاني في عمان يقول فيها: «إن السلطة الإفرنسية في سوريا كتبت إلى المندوب السامي في فلسطين تطلب تسليم المتهمين بإطلاق الرصاص على الجنرال غورو ورفاقه. وفي ذيل المذكرة قائمة بأسماء الأشخاص الذين يتهمهم الفرنسيون وهم: أحمد مريود، أحمد الخطيب، الملازم محمد الخطيب، صادق حمزة، أدهم خنجر، محمود حسن، شريف شاهين، محمد الظاهر، أبو دياب البرازي، خليل مريود.

وقد أجاب رئيس حكومة شرقي الأردن على هذا الطلب بما يلي:

١ - إن الجرم سياسي ولا يحق لحكومة أن تطلب فاعليه من حكومة أخرى.

٢ - إن بين الأشخاص المطلوبين أفراداً ثبت وجودهم يوم الحادث في بلدة إربد.

٣ - إن أغلب الأشخاص الواردة أسماؤهم مجهولون لا يعرف مقرهم.

ويروي الأستاذ منيف الخطيب في كتابه (شبعا) هذا الحدث في الصفحة ١٠٥ وما بعدها من طبعة ١٩٩٥ ومنيف الخطيب هو ابن أحمد الخطيب خال أحمد مريود وعنه أخذ منيف، وعن كتابه نأخذ نحن ما يلي:

«كانت تعقد اجتماعات برئاسة أحمد مريود في الأردن يحضرها العديد من الرجالات الذين غادروا سوريا بعد سيطرة الفرنسيين عليها لإعداد العدة ورسم الخطة لمحاربة الفرنسيين. وقد وصلتهم أنباء عن نية الجنرال غورو زيارة القنيطرة تلبية لدعوة الأمير محمود الفاعور. فوجد أحمد مريود أن الفرصة مناسبة لتنفيذ هذا الأمر الخطير والمهم والقضاء على الجنرال غورو حاكم سوريا ولبنان. ووقع اختياره على ستة من الرجال الشجعان الذين يثق بهم وبشجاعتهم وكفايتهم. وقد انطلقوا سراً من (عجلون) في الأردن في ١٨ حزيران ١٩٢١ وكمنوا لموكب الجنرال غور عندما كان في طريقه من دمشق إلى الجولان في موقع بين (خان أرنبة) و(الشوكتاية) في ٢١ حزيران سنة ١٩٢١ وأطلقوا الرصاص على سيارة غورو الذي أصيب في يده الاصطناعية بعد أن انبطح في أرض السيارة وأصيب حقي العظم رئيس حكومة دمشق في فخذه ويده وشفتيه وقتل الضابط المرافق (برانيه) فاعتقد الثوار الأبطال أن القتيل هو الجنرال غورو نفسه فعادوا إلى حيث انطلقوا ومعهم (برنيطة) القتيل. وسرت إشاعات أول الأمر مفاها أن الجنرال غورو قتل، فقال أحمد مريود كلمته المشهورة: الآن ليعلم العالم من هم العرب. «وأما الأبطال الستة الذي نفذوا هذه المهمة الجليلة فهم كل من المناضلين الأبطال: محمد ضاهر من شبعا، وخليل علي مريود من جباثا الخشب، ومحمود حسن من جباثا الخشب، وشريف علي شاهين من جباثا الزيت، وأبو ذياب أحمد البرازي من حي الصالحية في دمشق، وعبد الهادي الحماد من تسيل في حوران». ويعزو الأستاذ منيف الخطيب في الحاشية هذه الرواية إلى مخطوطة لوالده أحمد الخطيب ص٥٥ ـ ٥٦ الذي هو خال أحمد مريود.

ثم يقول منيف الخطيب إن أحمد مريرد هو الذي أعد الخطة وطلب من خاله أحمد الخطيب أن يشرف عليها (انتهى).

وقد أصدر الفرنسيون البلاغ التالي عن الحارث:

في يوم ٢١ يونيو ظهرت على طريق القنيطرة عصابة قادمة من شرقي الأردن وبعد أن قضت مأربها عادت في اليوم نفسه إلى عجلون. وهذه نتائج التحقيق والعقوبات: حملة بقيادة الكولونيل (روكور) من دمشق يوم ٢٢ يونيو فوصلت القنيطرة في ٢٣ منه فدمرت بأمر المندوب السامي قرى جباثا الخشب، المنشية، أوفاني، طرنجة، تل الأحمر، تل الشيخة، لأنها آوت مجرمي القنيطرة فأصبحت شريكة لهم في الجناية. وقد حجزت أموال أهاليها، فوق كل ذلك على كل قرية غرامة ٥٠ جنيهاً إلى مئة جنيه ذهبي. ودمرت الحملة ١٧ مزرعة من جباثا الخشب والحمرا وأوفاني وطرنجة وفي ٢٦ فيه زحفت على مجدل شمس وجباثا الزيت ومغر شبعا. وفي ٣٠ منه عادت إلى القنيطرة حيث باعت الأشياء المحجوزة (انتهى البلاغ).

وهكذا نرى أن البلاغ تجاهل الهدف الذي قصد إليه هؤلاء الأبطال وهو اغتيال الجنرال غورو خوفاً مما يحدثه من أثر في نفوس الناس. ولكنهم لم يستطيعوا بهذا التجاهل إخفاء الأمر، فانتشر الخبر في كل مكان.

أما ما اعترف به البلاغ من تدمير للقرى ونهب لأموالها، بأمر من المندوب السامي (غورو)، فهو ما نترك الحكم عليه للتاريخ.

وفي محاولة اغتيال غورو قال خير الدين الزركلي وقد شاع أن غورو قتل:

نَطقَ الرصاصُ فأسكتَ القلما ... ودعا الصريخُ فرنَّح العلما
ظمئتْ دِيارُكَ من دم فسقىٰ ... أهلُ الحِفاظِ ثرى الديار دما
يَومُ «لغورو» في قنيطرة ... كان العقابُ به لما اجترما
نَهضتْ بأبناءِ الحِمى هِممٌ ... فَتدرعوا الإقدامَ والهَمَما
ما بالُ «حقي» غيرَ مُعتبر ... بمصير صاحبِهِ الذي ظَلَما[1]
سَيَرون أياماً محجَّلةً ... بيضاً لنا نَجلو بها الظُّلَما
إن النفوسَ إذا غلىٰ دَمُها ... ألَماً شفت بزنادها الألَما

(١) حقي: هو حقي العظم عميل الفرنسيين الذي نصبه غورو حاكماً لدولة دمشق.

الفصل السادس عشر

صراع على الاستقلال

الحال التي انتهت إليها سوريا من تقطيع أوصالها وجعلها دولاً لكل دولة لها حكومتها وعلمها ومجلسها، كما بيناه في كتابنا (سراب الاستقلال في بلاد الشام) كان المخطط له والمحرض لباريس على الأخذ به، هو الجنرال غورو.

ففي أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية أنه في ٢٩ كانون الأول ١٩١٩ أرسل الجنرال غورو برقية سرية إلى رئيس الوزراء ووزير الخارجية يبدي فيها رأيه في كيفية التعامل مع فيصل وحكمه الاستقلالي القائم، فهو يرى أنه يجب إنهاء هذا الحكم والقضاء على القائم على رأسه، لأنه بغير ذلك لا يمكن ضمان السيطرة الفرنسية على ما نال فرنسا من معاهدة (سايكس ـ بيكو)، وأن للحكم الاستقلالي الفيصلي مطامح قومية توحيدية بعيدة المدى.

فهو يقول في برقيته فيما يقول:

إن أهداف الشريفيين هذه التي تحول في حال تحقيقها دون إجراء التنظيم السوري الموافق لمصلحتنا، هي في تناقض تام مع الاستعدادات التي أبدتها وفود قادمة من مختلف نواحي المنطقة الشرقية نفسها إن بعض وجهاء حماه القادمين إلى بيروت تحت ستار الترحيب بالأمير فيصل الذي أعلن عن وصوله منذ عدة أيام، قد أعلنوا بأنهم لا يحتاجون إلى هذا الغريب للاتفاق مع فرنسا التي أعربوا عن استعدادهم للتفاهم معها مباشرة. حتى إنهم قد طلبوا مني تعيين ضابط ارتباط. ولقد أكدوا أيضاً أن المظاهرات المناهضة لفرنسا التي جرت في المدن الداخلية الكبرى، كانت فقط حصيلة أعمال الرشوة والضغط التي مارستها الحكومة الشريفية. كما أعلنت لي تصريحات مماثلة من قبل وجهاء دمشق الذين رغبوا في أن تحصل

مدينتهم على مساعدة وإشراف فرنسا بدون وساطة فيصل. إنني أبلغكم هذه الوقائع لأظهر لكم كيف تتضح حقيقة الوضع هنا منذ أن حرم ذهاب الإنكليز الحكومة الشريفية من الدعم الذي وطد نفوذها شكلياً في كل المناطق الداخلية. فالجماعات التي أغرتها لفترة ما النزعة القومية المتصلبة الممثلة بالشريف، لا ترى الآن مبرراً لخضوعها لفيصل بعد أن قبل هذا الأخير التعاون مع فرنسا، وهو الأمر الذي طالما رفضه بشكل واضح للغاية. إن بعض المتطرفين يتبرأون من فيصل باعتباره خائفاً، ولا يرى الباقون حاجة إليه لإقامة سياسة التقارب مع فرنسا. يضاف إلى ذلك أن سكان المناطق الداخلية المسالمين قد خابت آمالهم من الاضطراب الذي أحدثته التحريضات الشريفية التي ولّدت في عدد من المناطق أوضاعاً فوضوية أتاحت أعمال نهب، لم تكن القومية المناهضة لفرنسا التي ليست لها سوى القليل من الأنصار، غير ذريعة لها. كل ذلك يدفع وجهاء كل مدينة إلى أن يستلهموا فقط النزعة الإقليمية الذاتية التي هي واقع هذا البلد، لمحاولة استمالة فرنسا دون المرور بسلطة تبدو لهم عديمة الجدوى.

ثم يتحدث في برقيته عمن يسميهم (النصيريين) الذين حاول الأتراك تذويبهم وأنهم يرغبون بإنشاء اتحاد نصيري مستقل، ممهداً بذلك لطلبه موافقة باريس على تقسيم سوريا.

ويواصل غورو الكلام في برقيته قائلاً:

إن انقسامات سوريا التي ينبغي أن تساعدنا على تنظيم البلاد بشكل عملي وملائم لسلطتنا. هي الآن ذات فائدة كبيرة لنا من أجل احتواء الحركة المنظمة ضدنا. وسيكون من المؤسف في الوقت الحاضر والمستقبل طمس هذه الانقسامات في وحدة السلطة الشريفية التي تجسد بنظر السكان العداء ضدنا والتي لا ترى في التفاهم معنا سوى وسيلة موقتة تناقض المبادىء التي قامت عليها.

وفي النهاية يطلب غورو من الحكومة الفرنسية أن لا تتساهل مع فيصل لأن من شأن ذلك إنقاذه. إنه يقول في برقيته:

أنني أشدد على هذه الوقائع كي لا تمنحوا الأمير فيصل شيئاً لا تكون المصالح الدولية قد أملته بشكل صارم. ففي سوريا نفسها تتضاءل السلطة التي يمثلها شيئاً فشيئاً. وأن أنصاره والمستفيدين منه لا يتوقعون دعمها أو إحياءها إلا من خلال العهد الذي ستقطعه فرنسا لفيصل. إنهم يلحون كي أستقبل الأمير هذه المرة في منزلي ببيروت حيث لا يزال ضيفاً عند أحد الوجهاء المسلمين، وذلك من أجل إحاطته بالرعاية. إن سورية نفسها لا تفرض علينا أي تنازل للحكومة الشريفية التي لم تعرف الارتكاز إلى قواعد اجتماعية وسياسية ومحلية وأشكال

الضبط الفعالة من جهة، والتي تجنب المواجهات الحادة والمباشرة مع الجيش الفرنسي من جهة ثانية. (انتهى).

كان هذا تفكير الجنرال غورو منذ الأيام الأولى لوصوله إلى بيروت، وكان هذا هو منهجه الذي خطط له منذ وطأت قدماه تراب تلك الأرض العربية العريقة.

ولكن نداءه هذا لم يلق في باريس الاستجابة السريعة لأن (كليمانصو) كان هو الذي يرأس الوزارة الفرنسية وكان عازماً على إنالة سوريا استقلالاً محدوداً لا تنفصم فيه وحدتها، فشرع في التفاوض مع فيصل على غير الأسس التي نادى بها غورو. وكان من نتيجة هذا التفاوض ما عرف باتفاق (فيصل ـ كليمانصو) الذي كان أقصى ما استطاع فيصل أن يفوز به من فرنسا. وهو لا يحقق الاستقلال الكامل ـ وأن حقق الوحدة ـ ولم يشأ فيصل أن يبت به لأن البت به لا يتأتى لشخص بمفرده، ولأن فيه ما فيه من ضياع الآمال بالدولة المستقلة استقلالاً لا شائبة استعمارية فيه، ولا انتقاص لسيادة في الداخل والخارج. وهو ما لم يحوه هذا الاتفاق، وهو ما يمكن أن نسميه شبه استقلال، لا استقلالاً.

وأحسب أن مقولة (الاستقلال التام) التي شاعت أول ما شاعت في مصر لما بدأ المصريون عند انتهاء الحرب العالمية الأولى بمطالبة الإنكليز باستقلالهم وتلويح الإنكليز لهم بتبديلات في النظام القائم في مصر يومذاك تخفف من مظاهر الاستعمار لا من حقائقه، ويمكن أن توصله إلى شبه استقلال. فنادى المصريون بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، فشاع وصف الاستقلال بالتام وامتد هذا الوصف بعد ذلك إلى الشام.

وإلا فالاستقلال هو الاستقلال، فلا حاجة لإضافة وصف إليه وجعل هذا الوصف هو كلمة: (التام)، فلا يمكن مثلاً أن تقول لبلد أنت مستقل، مع حرمانه من التمثيل الخارجي، كما حاول كليمنصو مع فيصل.

لذلك أصر المصريون ثم السوريون على وصف الاستقلال بالتام، مما لا سابقة له في تاريخ الاستقلالات. ونقف هنا قليلاً لنرى كيف أن الأماني العربية أخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً أمام قوى الاستعمار الغربي المتألب عليها.

ففيصل عندما بايعته الجماهير في دمشق فور وصوله إليها، ثم فور وصوله إلى حلب، كانت تبايعه على أنه ممثل لوالده (ملك العرب)، وكان هو يتلقى البيعة بهذه الصفة.

وفي اليوم الثاني لدخوله دمشق نشر بلاغاً إلى الشعب يعلن فيه تأسيس حكومة عربية باسم (جلالة مولانا أمير المؤمنين الشريف الحسين).

وفي الاجتماع الكبير الذي عقد في منزل محمود البارودي وحضره العلماء ورؤساء الدين والوجهاء وجميع العاملين في الحقل الوطني، كان فيصل في هذا الاجتماع يعلن كذلك باسم والده صاحب الجلالة قيام حكومة عربية[1] وعندما أرسل رضا الركابي بصفته الحاكم العسكري العام ـ عندما أرسل شكري الأيوبي ورستم حيدر لإعلان الحكم العربي في بيروت، جاء في كتاب التكليف هذا النص: «... تبليغ الأهلين تأسيس الحكومة العربية باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين الشريف حسين....»[2].

وعندما جاء نسيب جنبلاط على رأس وفد إلى دمشق للمبايعة، استحصل له فيصل من والده على وسام الاستقلال مع لقب باشا، استحصل ذلك من ملك العرب لأحد رعاياه العرب.

أما لما عاد فيصل من باريس بعدما لقي ما لقي من الصد والغدر، فإنه وجّه رتبة أمير اللواء الفخرية مع لقب باشا لزعيم الهرمل سعيد حمادة، وأوسمة النهضة لفريق من ذويه، ولقب بك لكل من آغاوات الدنادشة في حمص وتلكلخ ـ منح ذلك باسمه هو، أمير سوريا، لا باسم والده ملك العرب.

وفيصل بعد ذهابه إلى أوروبا ممثلاً للعرب المنتصرين مع حلفائهم، إنما ذهب ليطالب بالاستقلال العربي الشامل. وعندما فوجىء بغدر الخلفاء، اضطر إلى الانحدار من المطالبة باستقلال العرب موحدين إلى المطالبة باستقلال سوريا، لأن المطلب الأول لم يعد له من يسمعه في ذاك الصخب الدولي، ثم بدأ التصامم حتى عن سماع صوت التنازل!..

وعندما غادر سوريا في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٨ غادرها مندوباً عن العرب وملكهم الملك حسين، وحضر مؤتمر الصلح في فرساي وتكلم فيه بهذه الصفة، فلما صودم بما صودم به وعاد إلى سوريا في أواخر نيسان ١٩١٩ واستقبل أولاً في بيروت، ثم في دمشق ذاك الاستقبال الذي يصفه يوسف الحكيم بقوله[3]:

«ولما وصل العاصمة دمشق واجه استقبالاً منقطع النظير لم ترفيه العين من المحطة[4]

(١) مذكرات يوسف الحكيم (سوريا والعهد الفيصلي) الصفحة ٢٣.
(٢) مذكرات رستم حيدر.
(٣) م. ن الصفحة ٧١.
(٤) وصل من بيروت بالقطار.

حتى القصر الأميري سوى الجماهير والبشر ملء وجوههم ولم تسمع الأذن سوى الهتافات المتعالية إلى السماء بنصر الأمير».

وفي الخامس من حزيران لقي في بهو دار الحكومة جمهرة المدعوين الممثلين لجماعات الشعب على اختلاف صنوفهم، فخطبهم خطاباً مطولاً عن مساهمته في مؤتمر فرساي، قائلاً فيه:

«وبديهي أني قمت بالواجب المترتب على ذمتي بمقتضى نيابتي عن جلالة والدي وعنكم أيها السادة. مؤكداً أن كلاً من سوريا والعراق لن يرضى عن استقلاله بديلاً وأن سوريا العريقة في الحضارة مستقلة بحدودها الطبيعية».

وتلك أول مرة يكون فيها الحديث عن سوريا وحدها، بعد أن كان الحديث عن العرب جميعاً، كان الحديث عن سوريا وحدها، وإن ربط هذا الحديث بما بين سوريا والعراق من روابط.

ثم الإشارة بعد ذلك إلى العرب باعتبارهم: (أمة واحدة).

ولأول مرة يسأل فيصل الحاضرين عن موافقتهم على كل ما قام به، طالباً أن يجيب كل واحد منهم بملء الحرية والصراحة.

فعل ذلك لأن واقعاً جديداً واجهه وواجه العرب في مؤتمر المنتصرين!...

فقام كل واحد ممن حضروا معلناً موافقته على ما قام به الأمير وعلى ما سيقوم به.

ولا نستطيع القول بأن الحاضرين جميعاً قد وعوا ما في كلام الأمير من تطور، ولكن نستطيع القول أنه حتى الواعون كان لا بد لهم من الإقرار بالواقع الجديد، وأنهم ساروا بعد ذلك في طريق الاستقلال السوري والوحدة السورية وحدهما.

على أن يوسف الحكيم يقول: «افترق السوريون حول خطاب الأمير فيصل. نشأ ذلك عن درجة تفكيرهم ووعيهم السياسي. فالفريق الجامد التفكير، البعيد عن الثقافة العصرية والخبرة السياسية رأى في تحول الأمير عن الوحدة العربية إلى الوحدة السورية خروجاً عن العهد العربي لا مبرر له» إلى آخر ما قال...

ونحن لا يهمنا رأي يوسف الحكيم في تسمية هذا الفريق من الناس بما سماهم به ووصفه لهم بما وصفهم، وإن كنا نتساءل عن المقاييس التي يقيس بهاالناس، ولماذا يرى في هؤلاء الذي ذكرهم: جمود التفكير والبعد عن الثقافة العصرية والخبرة السياسية؟!..

لا يهمنا رأيه، ولكن الذي يهمنا هو أننا عرفنا أن هناك من أدرك خفايا خطاب الأمير، وأن بين هؤلاء من صدمته هذه الخفايا، وأصابته بالخيبة، ولم يسلّم بالأمر الواقع.

وكاتب تاريخ العرب لا يستطيع إلا أن يقف طويلاً أمام هذه الفترة من تاريخهم، وأن يفكر كثيراً في هذا التحول الذي كان العامل فيه طغيان الاستعمار وجبروت المستعمرين.

نحن لا نقول إنه كان للعرب قبل هذه الصدمة تخطيط وحدوي استقلالي كانوا يكافحون في سبيله كفاحاً طويلاً مبرمجاً، ثم جاءهم ما حجز بينهم وبين متابعة السير في طريق كفاحهم الوحدوي الاستقلالي. فالعرب لم يكونوا قد خطوا في طريق هذا الكفاح خطوات بعيدة المدى، فإن أول عهدهم بالتفكير الوحدوي الاستقلالي، والعمل في سبيله لم يتجاوز السنوات المعدودة التي لا تعد شيئاً في تاريخ الأمم.

فهم قبل سنة ١٩٠٨ سنة قيام الحياة الدستورية العثمانية لم يكن في ذهن جماعاتهم أي تفكير وحدوي استقلالي، فلما قامت تلك الحياة وكان (الاتحاديون) العنصريون هم القيمين عليها وهم الذين أقالوا السلطان عبد الحميد وسيطروا على الدولة، وكان حزبهم (الاتحاد والترقي) هو المظهر العلني الذي يموهون به تنظيمهم العنصري الطوراني (تركيا الفتاة)، وأخذت صحافتهم لا تخفي نواياهم العنصرية، وبعض رجالهم يتجاهرون بنية التتريك.

عند ذلك تنبه المتنبهون لما يراد بالعرب، ولم يكن هؤلاء المتنبهون إلا أفراداً معدودين لا يزالون في مطالع شبابهم وعلى مقاعد دراستهم، فأنشأوا فيما بينهم ما أسموه (العربية الفتاة)، مقابل تركيا الفتاة.

وكان أول تجمع عربي هو التجمع الذي التقى في باريس قبيل الحرب العالمية الأولى باسم (المؤتمر العربي) الذي كان في حقيقته تجمعاً شامياً، وإذا كان بين من دعوا إليه من يحمل في ضميره فكرة الوحدة والاستقلال، فلم تكن هذه الفكرة فكرة المؤتمر، بل كانت فكرة المؤتمر مطالب عربية معينة.

ثم قامت الحرب وعرف (الاتحاديون) من يختارون لإنفاذ التتريك. فبعثوا إلى بلاد الشام سفاحاً من أعرق سفاحيهم في سفك الدماء، ومن أكثرهم إيغالاً في الطورانية، ومن أشدهم فتكاً في تطبيقها، وجعلوا سلطته تمتد إلى الحجاز. فراح جمال باشا ينتقي الرجال انتقاء محكماً ويرسل بهم إلى أعواد المشانق دفعة بعد دفعة. فكانت الدفعة الأولى في بيروت، ثم تلتها الدفعة الثانية في دمشق وفي بيروت.

وكان فيصل يومذاك في دمشق وراح يحاول إنقاذ رجالها، فلم يترك وسيلة توصله إلى

إنقاذهم إلا سلكها، فطلب ذلك بنفسه من جمال باشا، وراح يحرض الدمشقيين على مقابلة جمال باشا، ودعي جمال باشا إلى وليمة في (القابون) ضاحية دمشق دعاه إليها فيصل، كانت المحاولة الأخيرة لإقناع جمال باشا بإنقاذ الرجال من المشانق، فنفر جمال باشا وأعلن إصراره على شنقهم[1].

ولما بلغ فيصل نبأ شنقهم وكان في أحد المنازل، رمى بكوفيته وعقاله إلى الأرض، وصاح: طاب الموت يا عرب.

وكانت في سجون جمال باشا قافلة ثالثة تُعد لمحاكمة صورية يحكم عليهم فيها بالشنق، فأسرع فيصل للتخلص من جمال باشا، واستطاع خدعه والعودة إلى الحجاز وإقناع والده بالإسراع في إعلان الثورة لإنقاذ من في سجون جمال باشا من رجال العرب المعدين للشنق، وإيقاف تهجير الجماعات العربية، جماعة بعد جماعة إلى الأناضول، فاقتنع والده وأسرع في إعلان الثورة، واستطاع في أيامها الأولى أن يأسر فريقاً من كبار الأتراك عسكريين وغير عسكريين، وأن يهدد بشنقهم إن لم يوقف جمال باشا مجازره في العرب.

والذين يأخذون على الشريف حسين أنه لم يُحكم أمر مواثيقه مع الإنكليز، هؤلاء لا يدركون أن توقيت إعلان الثورة لا صلة له بالمفاوضات والمواثيق.

لقد تقررت الثورة في ذهن فيصل ساعة تبلغ إعدام القافلة الثانية، وكان رميه بكوفيته وعقاله إلى الأرض وصياحه: طاب الموت يا عرب، هو إعلان قيام الثورة العربية.

وسواء نجح التفاوض مع الإنكليز أم لم ينجح، وسواء تحددت الشروط معهم أم لم تحدد، فقد كان لا بد من القيام بالثورة لإنقاذ رجال العرب من المشانق. لقد كان هدف الثورة الأول هو الحؤول دون استمرار المذابح في كهول العرب وشبانهم، وإبادة مفكريهم. ونجحت الثورة في تحقيق هذا الهدف.

(١) روى فيصل لرستم حيدر في إحدى (السهرات) المنزلية في باريس بعض وقائع تلك الأيام، وهي مما سجله رستم في مذكراته حيث قال: وقبل الشنق بأربعة أيام جاء الشقيري إلى الأمير وقال له: إن الأمر قد انتهى وتم القرار بالشنق فما العمل؟ وكان الأمير يفكر بعمل شيء. فتم القرار بناء على رأي الشقيري أن يدعى جمال إلى وليمة ويعرض له الأمير علّه يكتفي بالنفي، فدعوه إلى القابون، وبعد الأكل اختلى الأمير وجمال والشقيري. فكلمه الأمير في ذلك. فقال جمال: لو علمت أنكم تريدون أن تكلموني بهذا الأمر لما قبلت ولا أحب أن يكلمني أحد فيه فأنا أدرى بسياستي.

وقامت الثورة وأوقفت المذابح. . .

وبعد أن كان مقاتلو الثورة جماعات بداة وأفراداً غير نظاميين، بدأ التنظيم العسكري وتكوين الجيش العربي، وصار لهذا الجيش شعاره الذي كان لا بد منه، وهو الاستقلال العربي والوحدة العربية. وكان لا بد لهذا الجيش ولهذا الشعار من رمز له، ومن الطبيعي أن يكون الرمز هو الشريف حسين، وهكذا بعد أن كان الشريف حسين مجرد ثائر على سلطات المذابح، يقود ثواراً لإيقاف المذابح، أصبح على رأس جيش، وفي قمة عصبة لها هدفها الواضح البين، وهو استقلال العرب ووحدتهم. فكان ذلك أول تخطيط وحدوي استقلالي عربي.

وكان بين بزوغ هذا التخطيط، وبين اصطدامه بالواقع الاستعماري سنوات لا تتجاوز الثلاث عداً.

والشريف حسين كان يرفض الأخذ بالثورة واستعجالها، ولكن بعد أن كشر جمال باشا عن أنيابه في سوريا حاول ردعه فلم يرتدع، فكان لا بد من الثورة لإنقاذ سوريا من أيدي السفاح جمال باشا.

يقول رستم حيدر في مذكراته (الصفحة ٣١٩) وهو يتحدث عن سهرة منزلية في باريس حدثهم فيها فيصل عن أشياء ما قبل الثورة حين عودته من دمشق في سفرته الأولى إليها. قال رستم عن لسان فيصل: لما ترك دمشق بعد أن رأى فكرة الثورة سائدة ضد الأتراك وأن الجمعية[١] والجيش قائمان على الأتراك، ذهب إلى مكة وتفاوض مع والده وطلب إليه أن يرسله إلى دمشق لأجل القيام، والحقيقة أن الجمعية كانت قوية والجيش في البلاد عربياً[٢] متحفزاً للوثوب بواسطة ضباطه الناقمين.

فلم يوافق والده على ذلك متعللاً بعدم الثقة، فأصر فيصل قائلاً إني أريد أن أخاطر بحياتي فأرسلني، فلم يقبل، وبقيت المسألة ستة أشهر، في خلالها فرّ العريسي وجماعته واشتدت الحكومة التركية بعد أن أرسلت الجنود العرب إلى ساحات الحرب في الأناضول وأوروبا.

وهنا استدعى الحسين فيصلاً وقال له تهيأ للسفر إلى دمشق. فقال له: لم ترسلني أولاً

(١) جمعية العربية الفتاة.

(٢) كانت الكثرة الكاثرة في الجيش المرابط في سوريا بضباطه وجنوده من العرب.

عندما كان يمكن أن نستحصل على ثمرة. أما الآن فمعنى إرسالي إلى دمشق هو وضعي في أيديهم رهينة يتصرفون بي كيف شاؤوا، فقال له والده أنت خائف، وإذا لم تذهب فسأرسل مكانك رجلاً آخر. وكان قد استحضر على كتاب طويل فيه مطالب هي: حقوق الحرمين، لزوم معاونته، إحسان معاملة السوريين والعفو عن المنفيين والمسجونين... فعندها قال الأمير لا بد إذاً من سفري ولو أدى ذلك إلى ضياع حياتي. (انتهى).

وهكذا نرى أن الشريف حسين لم يبادر إلى إعلان الثورة في أول الأمر بالرغم من كل المشجعات على الثورة، بل راح يفكر ويطيل التفكير.

أما لما بلغته أنباء بدء المجازر، وبدء التهجير، وبدء الترويع، بادر إلى إرسال ولده فيصل حاملاً مطالبه، والمهم فيها الكف عن المجازر...

فلما رفض جمال باشا طلبه لم يبق مجال للتفكير وتقدير النتائج، بل لا بد من العمل السريع لردع جمال باشا وإيقاف مذابحه... وهذا ما كان.

الفصل السابع عشر

الإنكليز يتنصلون

ما كان الإنكليز ليغضبوا فرنسا من أجل فيصل والسوريين، وقد كانوا مرتبطين بكل واحد من الفريقين بميثاق. وكان الميثاق الذي يربطهم بهذا الفريق يناقض الميثاق الذي يربطهم بالفريق الآخر. ولما بدا التصادم بين المطامح السورية والمطامع الفرنسية، حاول الإنكليز إيجاد مخرج لهم، فدعا لويد جورج رئيس الوزارة الإنكليزية فيصلا إلى لندن، فلبى فيصل الدعوة، فكان لويد جورج صريحاً معه حين قال له: لا يمكننا أن نتخلى عن حليفتنا، وعليكم أن تتفاهموا مع كليمانصو (رئيس الوزارة الفرنسية). ثم كرر هذا القول في جوابه على المذكرة الخطية التي بعث بها إليه فيصل، فقال في جوابه الخطي ناصحاً بقبول التفاهم مع فرنسا التي ضحت كثيراً في سبيل الانتصار على ألمانيا الحليفة الكبرى لتركيا.

على أن الإنكليز لم يلتزموا جانب فرنسا مجاناً، بل تنازلت لهم فرنسا عن الموصل التي كانت من نصيبها في الاتفاقات المعقودة بينهما، كما تنازلت لهم عن شرق الأردن التي كانت تابعة لسوريا.

ولكي يضع الإنكليز فيصلا والسوريين أمام الأمر الواقع، أذاعوا الاتفاق بين الدولتين فرنسا وإنكلترا في ١٧ أيلول ١٩١٩ في باريس، في الوقت الذي كان فيه فيصل لا يزال في أوروبا يفاوض ويحاور.

لقد نفض الإنكليز يدهم من الأمر السوري فلم ير فيصل بداً من قصد فرنسا والتفاوض مع كليمانصو. وقبل أن يبدأ التفاوض أرسل رسولاً إلى دمشق يطلع السوريين على الواقع الذي صار إليه أمر القضية السورية وأنه بعد تخلي الإنكليز صار الأمر بين السوريين

والفرنسيين، وأنه يريد أن يعرف رأي ممثلي الشعب في الموقف الذي ربما أدى إلى حرب مع الفرنسيين.

فالتقى الرسول بزعماء الأحزاب والجميعات الوطنية وأركان الحكومة والجيش وعرض أمامهم الموقف على حقيقته. وبعد تجادل وتداول طويلين كان رأي أكثرية الحاضرين عدم التنازل عن الاستقلال التام ورفض الانتداب الفرنسي ومقاومته وإن أدى ذلك إلى كل ما يمكن أن يؤدي.

وكان في رأس الآخذين بهذا الرأي عسكريان كبيران كانا بين الحاضرين هما: مصطفى نعمة ويوسف العظمة.

وكان رأي الأقلية وعلى رأسها العسكري الأكبر يومذاك: رضا الركابي الحاكم العسكري العام، أن لا قدرة على قتال الفرنسيين بعد تخلي الإنكليز عنا، وأننا حين نقاتلهم فإننا سنقاتل جيشاً من أقوى جيوش الدنيا، وهذا ما لا طاقة لنا به، وأنه يجدر الاعتماد على إحكام المفاوضات والتدرج بها إلى أفضل النتائج.

وانفض الجميع على غير اتفاق على رأي موحد. ولما كان ما سمي (المؤتمر السوري) معتبراً مجلساً نيابياً ممثلاً لبلاد الشام كلها، وهي ما نستطيع هنا أن نطلق عليه هذه الأسماء:

١ ـ المنطقة الغربية، وهي المنطقة الساحلية المحتلة من الفرنسيين.

٢ ـ المنطقة الشرقية، وهي المنطقة الداخلية المحكومة بأهلها العرب.

٣ ـ المنطقة الجنوبية، وهي فلسطين المحتلة من الإنكليز.

فقد ارتئي أن يعرض الأمر على المؤتمر ليقول كلمة الشعب باعتباره ممثله الشرعي، فدعي المؤتمر إلى جلسة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٩ ألقى فيها الحاكم العسكري رضا الركابي خطاباً قال فيه ما خلاصته: إن ما تقرر في باريس لا يخرج عن كونه تطبيقاً لمعاهدة (سايكس ـ بيكو) التقسيمية المجحفة بحقوق البلاد والمخالفة لوعود الحلفاء. وقد دعاكم سمو الأمير[(١)] لبيان رأيكم بصفتكم ممثلي الأمة لتوحيد الآراء والعمل، بينما يثابر الأمير فيصل بمقتضى تفويضكم على مساعيه في سبيل الوطن.

وفي ٢٤ تشرين الثاني اجتمع المؤتمر لاتخاذ القرار الذي يجب اتخاذه في هذا الشأن الخطير، فحمل الخطباء على فرنسا وبريطانيا وتقرر رفض ما اتفقتا عليه وإعلان الاستقلال

(١) المقصود بالأمير هنا: الأمير زيد الذي كان ينوب في إدارة البلاد عن أخيه الأمير فصيل.

السوري بمناطق سوريا الثلاث: الغربية والشرقية والجنوبية، في ملكية دستورية نيابية، والدفاع عن هذا الاستقلال بكل وسائل الدفاع.

وإذا كان هذا هو قرار المؤتمر المستجيب للخطب الحماسية، فيجب أن لا نغفل القول بأنه كانت بين أعضاء المؤتمر جماعة لا ترى هذا الرأي، بل ترى مراعاة الواقع الذي لا يحتمل هذا الاندفاع، ولكن هذه الجماعة لم يكن لديها الشجاعة على إظهار رأيها والدفاع عنه، وفضلت الصمت أمام هذا التداعي الحماسي الصاخب.

وفي الوقت نفسه كانت التظاهرات الشعبية تعم المدينة، وشعاراتها لا تخرج عن مضمون قرار المؤتمر وفي خلال هذه الوقائع كان الجنرال غورو قد وصل إلى بيروت في ١٨ تشرين الثاني. وكان لإرسال عسكري شرس لتولي الشأن الفرنسي مؤدى واحد هو التهديد والوعيد.

وفي ٢١ كانون الأول أصدر مجلس المديرين[١] قانون التجنيد. وكان في إصداره معنى الإصرار على الصمود، بانتظار عودة الأمير فيصل.

وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٢٠ وصل فيصل إلى بيروت على باخرة فرنسية فاستقبل حكومياً وشعبياً وعني الفرنسيون باستقباله، وأقام له الجنرال غورو في قصره مأدبة غداء، وأقام المجلس البلدي حفلة شاي حضرها رجال السلطة عسكريين ومدنيين، وكبار الوجهاء.

وفي اليوم الثاني غادر بيروت إلى دمشق فاستقبل فيها بما يليق به.

وإثر وصوله وبعد شيء من الراحة من وعثاء السفر دعا أرباب الحكم وقادة الحركة الوطنية وأطلعهم على ما عرف باتفاق (فيصل ـ كليمانصو) بعد أن شرح لهم معاناته مع الفرنسيين، وطلب إليهم أن يبقى ما أطلعهم عليه سراً بينه وبينهم دون العامة إلى أن يعرضه عرضاً عاماً.

وغداة اليوم الثاني من وصوله قامت مسيرة شعبية كبرى زاحفة إلى قصر الأمير مرحبة بقدومه هاتفه له، فأشرف عليها من القصر شاكراً، معلناً بأن أمر البلاد لم يبت به بعد.

هذه المسيرة المرحبة الهاتفة، كان قد أغنى عنها الاستقبال الشعبي الذي جرى أمس، والترحيب والهتاف كانا عاليين في ذلك الاستقبال، وشهود المسيرة كانوا شهود الاستقبال. فعلام إذاً قامت المسيرة؟.

(١) كان يحكم البلاد مجلس مديرين لا مجلس وزراء.

إذا كانت المسيرة في ظاهرها مسيرة ترحيب وهتاف، فقد كانت في حقيقتها مسيرة استعلام واستفسار. تريد أن تعرف الحقيقة عما تسرب للناس من أنباء اتفاق لا يحقق الاستقلال... الاستقلال الذي أصبح لا يذكر إلا موصوفاً بالتمام، ثم بصفة لاحقة، هي الإنجاز... الاستقلال التام الناجز!..

وأدرك الأمير بفطنته حقيقة المظاهرة، وأدرك أنه مطلوب منه الجواب على الاستعلام والاستفسار، لذلك رأيناه يقول: أن الأمر لم يبت بعد...

وقد كان صادقاً في هذا القول، إذا كان المقصود بنفي البت، أنه هو لم يبت، لأنه ينتظر رأي الشعب ليبت...

غير أن الصحيح أن الأمر قد بت به من يملك أمر البت. لقد بت به المستعمرون الذين قسموا في أول الأمر: البلاد بمعاهدة (سايكس ـ بيكو)، ثم بإقرارهم حكم الاستعمار الذي خلقوا له اسماً جديداً هو الانتداب!.

وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٠ دعا فيصل إلى اجتماع عام في حديقة قصره حضره أركان الهيئات الوطنية وذوو الرأي المسموع من شتى الطبقات والنزعات. فشرح ما فوجىء به من مصادمات قائلاً ما مضمونه: تخلت عنا انكلترا وأسلمتنا إلى فرنسا، ولما لم يجد نقاشي مع الإنكليز واحتجاجي عليهم، كان لا بد من الرجوع إلى الإفرنسيين فغادرت لندن إلى باريس ولقيت كليمانصو وبعد مداولات عرض عليّ شروطاً للاتفاق تجعل من فرنسا حليفة تضمن لسوريا استقلالها ووحدتها بين الساحل والداخل عدا لبنان، واعتراف جمعية الأمم باستقلالنا، وتمدنا بما نحتاجه من مال وتبعث إلينا بمن نطلبه من خبراء فنيين، دون أن يتدخلوا في إدارة أمورنا الداخلية، وتدرب جيشنا العربي إلى أن يستطيع النهوض بأعباء الدفاع عن الوطن ويستغني عن الجنود الفرنسيين، فلا يبقى منهم جندي واحد عندنا.

فرأيت قبل البت في الأمر أن أرجع إلى رأي الأمة التي أنابتني عنها، ولما أفصحت عن رأيي هذا إلى كليمانصو وافقني عليه راجياً مني إفهام الشعب السوري حين عودتي إليه حسن نوايا فرنسا...

والآن فإن الرأي المعول عليه هو رأيكم أنتم، وجهاء الأمة وقادة مفكريها. فهل ترون في الحالة الراهنة إمكان مقاومة فرنسا للحصول على الوحدة والاستقلال التام الناجز، أم ترون في التفاهم معها خطوة أولى لتحقيق أمانينا. (انتهى).

لقد أطيح بالحلم الأكبر حلم الدولة العربية الواحدة، أطيح به في عنفوان توهجه.

فالثورة التي أعلنت في الحجاز كان اسمها (الثورة العربية)، والذين قادوها عسكريين ومدنيين كانت قوميتهم عربية، والجيش الذي تبنته كان اسمه الجيش العربي، والعلم الذي رفعته كان مقتبساً من الماضي العربي.

وعندما دخل جنودها ظافرين إلى دمشق أعلنوا قيام الدولة العربية، والولاة الذين أرسلتهم إلى الساحل تلقاهم الساحل ولاة عرباً.

هذا الذي كان في أذهان العرب حلماً، رأوه لأيام حقيقة، ولكن هذه الحقيقة لم تلبث أن تبخرت بين عشية وضحاها. وبقي الحلم. . . . ولكنه لم يلبث هو الآخر أن أطيح به وتبخر!.

إذا كان قد أطيح بحلم الدولة العربية الواحدة، فقد صبر العرب السوريون على هذه الإطاحة، فوجموا أول الأمر ثم لم يلبثوا أن أفاقوا من وجومهم ليتعللوا بالاستقلال السوري التام، الذي رأوا فيه تحقيقاً غير قليل لأمل كان بالأمس بعيداً. فحسبهم اليوم مملكة سورية مستقلة استقلالاً تاماً تكون خطوة كبرى في السير إلى المملكة العربية الكبرى. . .

فإذا برائد خطواتهم وقائد توجهاتهم يصارحهم علانية بأنه كان أضعف من القوى الاستعمارية التي تألبت عليه وجابهته بعنفوانها الجبار، فلم يستطع أن يستنقذ من أنيابها إلا هذا الذي حمله إليهم وأن الرأي أصبح لهم بأن يقبلوا أو يرفضوا.

وانتظر الأمير سماع الأجوبة المتابعة، وطال انتظاره دون أن يسمع كلمة لا سلباً ولا إيجاباً.

فعاود القول: أنبقى كريشة في مهب الريح أم نجني ثمرة جهادنا في الحرب وما قدمنا من ضحايا، أياً كان حليفنا، فكروا معي في الأمر وليتقدم كل منكم برأيه بملء الحرية والصراحة، فالوطن لنا كلنا لا للبريطانيين ولا للفرنسيين[١].

فظل الصمت يرين على الجمع الممثل للشعب فلم ينبس أحد منه ببنت شفة. كان فيصل صريحاً ملحاً في سماع آراء الحاضرين فرداً فرداً، ولكن أحداً لم يدل برأي ولا نطق بقول.

هذا الصمت الذي أطبق على أولئك الناس المدعوين لتقرير مصير بلادهم، لم يكن عياً، فبين الحاضرين من هم ملوك الكلام!. . .

---

(١) سوريا في العهد الفيصلي. الصفحة ١٢٨.

وإذا كانت البلاغة في القول هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإن صمت أولئك الصامتين كان قمة البلاغة! . . .

كانوا في صمتهم يعبرون عما اعتراهم من خيبة، وليس أبلغ في التعبير عن تلك الخيبة من الصمت، وعدم الإجابة على ما طرحه فيصل من سؤال! .

ماذا يقول المتحمسون لاستقلال بلادهم الناشدون لحرية وطنهم؟ ماذا يقولون وقد سمعوا أن الأمر بين خيارين: إما الرضا باستقلال منقوص، وهم الذين كانوا ينادون بالاستقلال التام، ويقودون الجماهير في الدعوة إليه، وتملأ أصواتهم أجواز الفضاء بالإصرار عليه . . .

أيمتلكون الساعة الصوت الذي يقول: نعم لما عرض عليهم من استقلال أين منه الاستقلال الذي كانوا ينشدون؟! . .

استقلال؟ وهل هذا استقلال الأباة الأحرار المذاويد؟! .

وإذا قالوا: لا، فليس في أيديهم ما يذودون به عن أمانيهم، ولا يملكون إلا دماء الشجعان التي ستراق بنار الغاصبين العتاة! .

لذلك صمتوا، وكان صمتهم هو الجواب البليغ! . .

وماذا يقول الراضون بما يصل إلى اليد، على أن يطالب بالباقي في الغد؟ ماذا يقولون وهم القلة التي يروعها أن تقابل الجلة بتسليم للواقع المفروض؟

لذلك صمتوا وكان صمتهم هو الفصاحة والبيان! .

الفصل الثامن عشر

التصميم على وعد الاستقلال

ورُفض الاتفاق في سوريا، ثم سقطت وزارة كليمانصو في فرنسا وجاءت وزارة ميلّران (Millerand) وانفسح المجال أمام غورو ليطالب بما يشاء على أن ميلّران نفسه كان أشد استعمارية من غورو، فلم يكن بحاجة إلى أن يحرضه غورو على سوريا ووحدتها واستقلالها.

في ٦ آب ١٩٢٠ أي بعد اثني عشر يوماً من يوم ميسلون أرسل ميلران إلى غورو برقية سرية بعنوان (مخطط لتنظيم الانتداب الفرنسي في سوريا) ـ وهو ما وصل إليه الدكتور وجيه كوثراني من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ـ يقول فيها:

إن خرافة حكم شريفي تحت أشرافنا لم تصمد أمام التجارب الواقعية. فلقد فرض تلك التجربة علينا الواقع التنظيمي الناتج عن الاحتلال والسياسة الإنكليزيين. بيد أنه تبين بسرعة أن خضوع سوريا لسلطة مصطنعة تتمثل بملكية شريفية غريبة عن طموحات البلاد والانقسامات التقليدية فيها لا يمكن أن يستمر إلا باستبعادنا. ا هـ.

إن ميلران هنا يستنكر حتى اتفاق فيصل ـ كليمانصو الذي لم ترضه سوريا وبعد أن يهاجم دولة الاستقلال التي قامت ثم هوت... يتابع بيان المنهج الذي يقتضي تطبيقه في سوريا قائلاً:

إن النظام الذي يستجيب بصورة أفضل لمصالح سوريا ومصالحنا أيضاً هو سلسلة دول مستقلة جمهورية الشكل (une série d'autonomies à républicine) تتناسب مع تنوع الأعراف والديانات والحضارات، وتتحد في فدراليته تحت السلطة العليا للمفوض السامي ممثل الدولة المنتدبة. وبذلك لا تكون الوحدة وحدة إدارية مركزية بل وحدة اقتصادية.

ويفصل ميلّران خطته الاستعمارية التقسيمية بانياً إياها على أساس معاهدة (سيفر) التي مزقت تركيا وقضت لفرنسا بما قضت من المناطق الواقعة في شمال سوريا والمتصلة بحدودها.

وكان ميلران يخطط في باريس ويبرق بخططه إلى بيروت، في الوقت الذي كان القَدَر يخطط في عالم الغيب بما يمحو خطط ميلّران في الجزء التركي من تخطيطه!..

كان القَدَر يُعد مصطفى كمال في الأناضول...

يسترسل ميلّران في برقيته محدداً ما ينبغي الأخذ به بشأن الأتراك والأكراد الذين شملهم الحاكم الفرنسي فيما شمل.

يقول ميلران: قبل كل شيء لا يمكننا أن ندخل في هذه الفدرالية مباشرة أراضي تركيا (عين تاب، وبيره جك، وكلس. ولا أراضي كردية (شرق الفرات مع أورفه وماردين) وهي مناطق تقع في الشمال والشمال الشرقي وتفتقد إلى أية رابطة قومية مع سوريا، فهذه البلاد التركية لا يمكن السيطرة عليها إلا بالقوة بانتظار اللحظة التي تقبل فيها تركيا حدودها الجنوبية. وقد يكون من الممكن، ولكي نتجنب إقامة إدارة عسكرية مباشرة، تسليم الحكم لمدة من الزمن لباشا تركي تجري مراقبته بصورة دقيقة. والشيء نفسه يمكن أن يحصل بالنسبة للبلاد الكردية، ففور حدوث العمليات العسكرية المعادية التي يقوم بها القوميون الأتراك يمكن أن نسلم البلاد إلى زعماء محليين أذكر منهم بصورة خاصة محمد بك زعيم قبيلة الـmilli (الملّي) المقيمة في: verancheir [1] وينبغي أيضاً تعديل رسم الحدود كي لا تقسم

(١) إذا كان غير واضح ما يقصده (ميلران) بهذه الكلمة الفرنسية التي لم نجد ما يعادلها بالعربية لنعرف مكانها في الخريطة ـ إذا كان الأمر كذلك فإن كل معلوماتنا عن الكلمة الأخرى «milli» هو ما ذكره فائز الغصين في مذكراته التي يصف فيها فراره من مدينة (ديار بكر) التي كان قد نفاه إليها السفاح جمال باشا، ففر منها مشياً على قدميه حتى وصل إلى مدينة «الناصرية» في جنوب العراق. قال فائز الغصين:

كنت أفكر منذ وصولي إلى ديار بكر بالهرب منها والتخلص من حالة الأسر التي لا تطاق وقد أثرت بي أخبار سجن وجوه العرب وشبابهم وصار لا يهنأ لي عيش ولا يهدأ لي بال. وقد زادني قلقاً قضية وجود مفكرات مع عبد الغني العريسي وعارف الشهابي. فإذا كان ما قيل لي صحيحاً فمن المحقق أن يكون لي ذكر في هذه المفكرات، وعندما يرى اسمي جمال باشا أو الديوان العرفي سيطلبني مرة ثانية لعاليه وتكون القاضية إذ ذاك، لذلك صممت على الهرب... إلى أن يقول:

الطريق الذي وجدته يساعد على الخلاص هو طريق الذهاب لقرية (حسين قنجو) من حاشية

الـmilli إلى قسمين. إن مثل هذا الوفاق مع الأكراد وتوطين عناصر كلدانية وآشورية على طول خط سكة الحديد في شرق الفرات يضعانا في وضع سياسي مثالي حيال كردستان.

ويتم ميلران كلامه قائلاً: إن تنظيم الأراضي التركية والكردية متبوعاً بتنظيم حلب وجرابلس على أساس صيغة التهدئة السياسية لمنطقة عين تاب وصيغة التغلغل الحذر في منطقة شرقي الفرات يسمح لنا بالتقرير عما إذا كان يجب توجيه هذه المناطق نحو نظام مستقل أو دمجها مع الاتحاد السوري. ومهما يكن، يجب في الوقت الحاضر إقامة تمييز واضح بين هذه المناطق والبلاد السورية.

ثانياً: بالنسبة للقبائل العربية: ينتقل ميلران إلى اقتراح صيغة للتعامل مع القبائل البدوية العربية، فيقول:

إن الوفاق مع القبائل البدوية التي تنتشر شرقي المدن الأربع من الشمال إلى الجنوب لا يطرح مشاكل حقيقية. فهذه القبائل ليس لديها تعاطف مع النظام الحجازي، وتبدو أنها مستعدة للتفاهم معنا. وبما أنه ليس لدينا أية نية للتدخل في شؤونها أو ممارسة سلطتنا على الصحراء التي تفصل سورية عن بلاد ما بين النهرين، يسهل أن ننظم علاقتنا بها عن طريق «التكليف» (Investiture) وأن نعالج بدون إلحاح أو تسلط ما نطلبه منهم، ألا وهو الأمن على أطراف المدن الأربع وفتح طرق الصحراء أمام التجارة. وهنا نذكر أن الخدمات التي يمكن أن يقدمها لهم ضباط الارتباط المعنيون بالقرب منهم والهدايا والاعتبارات التي تقدم لهم، من شأنها أن تضمن العلاقات الجيدة التي تؤمن مصلحة الجميع. وبالنسبة للضريبة البسيطة التي يمكن أن تجبى في المدن الداخلية على تجارة الأغنام، وهي الثروة الحقيقية الوحيدة للبدو فمن غير الممكن أن تلقى المعارضة».

ثالثاً بالنسبة للبنان: وينتقل ملران إلى وضع لبنان، فيؤكد على ضرورة «استقلاله» عن

= إبراهيم باشا الملي رئيس عشائر الملية الكردية، حيث تأتيه القوافل من عشيرة شمّر لشراء الحبوب وتعود للجزيرة فأرافق هذه القوافل إلى حيث تقطن عشائر شمّر ومن هناك أذهب إلى المحل الذي أريد.

وبعد أن يتحدث فائز الغصين عن سيره الطويل من قرية إلى قرية، يقول:

وسافرنا صباحاً من قرية (كاني سبي) إلى قرية (كولي كولا) وكانت المسافة بينهما ست ساعات، ورأينا في الطريق أكثر من خمسمئة كردي من عشيرة الملية مرسلين متطوعة بقيادة أحد أبناء إبراهيم باشا لينضموا للجيوش العثمانية التي تحارب جيوش الروس الزاحفة من جهات تبليس وموش لأطراف ديار بكر.

الكونفدرالية السورية، لفترة من الزمن وتوسيعه باتجاه الساحل، والبقاع وعكار والجنوب.

يقول: «كان لبنان قد أكد بصورة قاطعة رغبته في الاستقلال الكامل تحت الانتداب الفرنسي. فهو اعتقاداً بأنه أكثر ثقافة، وانطلاقاً من موقف الحذر من الأكثرية المسلمة في المنطقة لا يرغب بالدخول مباشرة في الاتحاد السوري (Confedération syrienne). لذلك قد ينتج بعض المساوىء من جراء فرض إرادتنا على الشعور اللبناني. فمن خلال الواقعية ومن خلال نجاح الرقابة الفرنسية على الاتحاد السوري يمكننا ضمناً أن نقود لبنان للارتباط به».

ويستدرك ملران، فيذكر المحاذير التي قد تنتج عن ضم لبنان إلى «الاتحاد السوري» بالنسبة لمصالح فرنسا فيقول: «بيد أنه ليس لدينا الآن مصلحة في هذا الدمج. فلبنان يقدّم أكبر عدد في حجم الهجرة السورية، وهؤلاء المهاجرون يقدمون أنفسهم كجزء من رعايا ممثلينا في الخارج. وبذلك يصبح لبنان عنصراً ممتازاً من عناصر نفوذ وتوسع تجارة بلادنا. ومن هنا تبقى لنا مصلحة في «فرنسة» السكان المسيحيين بأكبر قدر وتحويلهم نحو الخارج».

«وعلى العكس فإنه في حال تحول الطموحات اللبنانية نحو داخل سورية فإن هذه الطموحات ستسوق حتماً إلى تقديم موظفين لسكان أقل تقدماً، وبذلك نخاطر بخلق أشكال من المقاومة وبجعل السياسة الفرنسية أكثر صعوبة. ونكون عندها قد أضعنا العنصر اللبناني الموالي لنا، وجازفنا بعملنا في بقية المناطق السورية الأخرى».

«إذن تقتضي مهمتنا «فرنسة» لبنان بأكبر قدر ممكن. ومن أجل هذا ينبغي أن تقوم سلطة فرنسية مهمة وتمثيلية، تتمتع باستقلالية واسعة، تبقى في بيروت ولبنان حتى ولو جعل مركز المفوضية العليا في مكان آخر».

«وهناك شرط أساسي آخر: تكوين لبنان كبير بإلحاق البقاع (أي السهل الضروري لحياة الجبل) وجبل عكار (أي شمالي السلسلة الجبلية حيث أكثر سكانها من المسيحيين) حتى النهر الكبير عازلين بذلك طرابلس المركز السني. ويبدو أنه من الصعب أن لا ندمج بلبنان ـ وذلك بالرغم من اعتراضات الموارنة ـ سنجق صيدا، أي المسلمين الشيعة سكان بلاد صور وصيدا الذين لا يمكن أن نتركهم معزولين بين لبنان وبين المستعمرات الصهيونية التي تجتاح شمالي فلسطين. فأقل ما يمكن: أن يربط سنجق صيدا بلبنان بشكل فدرالي مع بعض الاستقلالية».

ويتابع ملران «أما بشأن مسألة المرافىء فلا يبدو أنها ستطرح بالنسبة لنا مشكلة. ففي ظل نظام الاتحاد الجمركي يمارس لبنان تجارته بحرية. ثم إن نظام «المدن المستلحقات

المستقلة» (Régime de Municipe) يتناسب تماماً مع وضع طرابلس. وهي مركز إسلامي سني لا يرغب في الالتحاق ببلاد مسيحية. أما بالنسبة لبيروت فنظراً لكونها مدينة مهمة ومكتظة فإنها لا يمكن أن تكون إلا عاصمة لبنان. بيد أن ذلك يؤدي إلى مجازفة: هي ابتلاعها للبنان، ويطرح محذوراً هو معارضة سكانها لهذا الإجراء. وعلى كل حال، في الحالة التي نقرر فيها ربط بيروت بلبنان: ينبغي لبيروت أن تحتفظ باستقلالية بلدية ومالية (Municipale et budgétaire).

رابعاً: الكونفدرالية السورية: بعد هذا العرض الذي يقدمه ملّران بشأن أوضاع المناطق التي يعتبرها ذات طابع «خاص» ينتقل إلى تنظيم المناطق التي يرشحها «كوحدات» «للكونفدرالية السورية» المقترحة.

يقول: «يمكن أن نتصور منذ الآن ثماني مجموعات مستقلة (Groupes autonomes) هي من الشمال إلى الجنوب: سنجق الإسكندرون، مستلحقة (Municipe) حلب، مجموعة العلويين، مستلحقة حمص، مستلحقة طرابلس، مستلحقة دمشق، وأخيراً حوران. وتتضمن هذه الأخيرة مجموعتين: الدروز والمسلمين.

ويرى ملران أن تنظيم هذه المجموعات يختلف باختلاف أوجه عديدة «ناتجة بالنسبة للبعض عن الموقع الجغرافي، وبالنسبة للبعض الآخر عن تمركز المصالح، وبالنسبة لآخرين، عن كونهم تجمع ديني متماسك».

ويضيف: «بما أننا نقبل بمبدأ الاستقلالية الواسعة «للكانتونات» تفقد العوائق التي يثيرها الاختلاف ما بين المجموعات من حيث الثقافة، أو المساحة، أو السكان أو الثروة، من أهميتها. والتعداد الذي قدّمناه على كل حال للمجموعات لا يدّعى أنه نهائي: لكنه يخيل أنه يتضمن المجموعات المتشكلة عفوياً هكذا في بلاد تفتقد إلى التقليد السياسي والرأي العام كما أنها اعتادت على تلقي كل شيء من السلطة. إذن يجب أن تكون سياستنا مرنة جداً: أن نشكل «مجموعة حيث هي موجودة. وأن نقبل بأن يكون لكل «مجموعة» تنظيمها الخاص الذي يناسبها».

ويستعرض ملران بشيء من التفصيل الخطوط العامة لتنظيم هذه «المجموعات»: بالنسبة لسنجق الأسكندورن، يقول: «ينقسم سكانه على أساس الدين، والتابعية القومية Nationalité بحيث نجد أتراكاً وأكراداً وجركسا، وعرباً علويين، و١٥ ألف أرمني أيضاً. لذلك ننظم فيه كما هو بالنسبة للبنان هيئة تمثل مختلف المجموعات الطائفية. وقد يغير

استيطان الجاليات الذي سيتكاثر بسبب زراعة القطن نسبة هذه المجموعات إلى بعضها».

ثم يتحدث ميلران عن العلويين حديثاً انفصالياً بحتاً.

أما بالنسبة للمدن الخمس: (حلب، حماه، حمص، طرابلس، دمشق): «فتشكل كل واحدة منها في رأي ملران مركز جذب لمنطقة محيطة، ويمكن أن تشكل بالتالي «كانتونا» أو «Municipe»، مستقلة. وأما السكان فهم مسلمون سنيون، يطمحون إلى حكم أنفسهم بأنفسهم، ويحترمون سلطة العائلات «النبيلة» «Patricienne» التي تملك أراضي الريف والتي يمكن أن يتشكل منها في كل مدينة «مجلس أعيان» (Conseil de Notables) تحت إشراف حاكم سوري يختار من قبلنا. وفيما بعد يمكن أن ندرس المسألة الزراعية، وكيف نساعد الفلاحين على الوصول إلى ملكية الأرض التي يزرعونها».

وأما بالنسبة لحوران: «فإنه يضم الدروز في الجبل والمسلمين السنيين في المسطحات. ولهؤلاء زعماؤهم الإقطاعيون الذين ينبغي علينا أن نستخدمهم ونحسّن وضعهم.». ويكتفي ملران بطرح المسألة بصيغة السؤال: «أيجب أن نترك لجبل الدروز استقلاليته أو أن نضمه إلى حوران؟ تلك مسألة ينبغي حلها عن طريق التجربة».

أشكال التنظيم الإداري والرقابة المركزية:

وينتقل ملران إلى الأشكال التنظيمية التي من شأنها أن «تضبط» هذه «الأجزاء» المقترحة تحت سلطة واحدة تتمثل بالإدارة الفرنسية.

يقول: «لتكوين وحدة سورية، تستجيب للرأي العام الدولي ولرغبة القطاع المتقدم من الرأي المحلي، ثمة مجال لخلق رابط فدرالي بين مختلف هذه الكيانات المستقلة، هذا الرابط يتمثل بالمفوضية العليا ممثلة الدولة المنتدبة. وتكون هي الجهاز التنفيذي لا تهيمن عليها أية سلطة محلية.

«وإلى جانب ذلك، يستحسن في الوقت نفسه. إنشاء جهاز فدرالي سوري أو مجلس دول (Conseil des Etats) يكون له في البداية صلاحية استشارية بحيث يجري التداول فيه حول المصالح الاقتصادية المشتركة. وهذا المجلس لا ينتخبه الشعب في المرحلة الأولى، بل يعين بواسطة حكومات مختلف المجموعات المستقلة وعلى أساس عدد متساو من الممثلين عن كل مجموعة».

ويستبعد ملران مؤقتاً مفهوم النظام البرلماني والاتجاهات الديمقراطية لدى مثقفي المدن فيقول: «إنه (أي النظام البرلماني) لا يستجيب لأي حقيقة في الظرف الراهن من تطور التربية العامة للبلاد. والدولة المنتدبة تعتبر أن الهدف من تنظيم سورية هو أن ينطبق هذا التنظيم واقعياً على مصلحة جماهير السكان، لا على مصلحة الجماعات المسيسة».

ثم ينتقل ملران إلى شرح توزيع الصلاحيات والمهمات في الفدرالية المقترحة فيقول: «وسيكون لكل مجموعة ميزانيتها المحلية تغذيها الضرائب المباشرة، وتستخدم الأموال للإنفاق على الخدمات المحلية والأشغال ذات المصلحة المحلية» ويعلق ملران: «وهكذا يرى السكان أن الضرائب التي يدفعونها تكرس مباشرة لاحتياجاتهم الخاصة».

ويتابع: «سيكون هناك (جندرمة) يعاونهم ما يلزم من موظفين فرنسيين. وسيمثل المفوضية العليا في كل كانتون أو «مستلحقة» مستشار مشرف، يساعده معاون وعدد من الأفراد وفق أهمية المجموعة. وبالإمكان مد كل مجموعة بتقنيين في الأمور المالية والأشغال العامة والتعليم. على أن تخضع الأجهزة التقنية المحلية التي يعمل فيها أهل البلاد لمراقبة الأجهزة المختصة في المفوضية العليا».

«وسيكون من صلاحية هذه الأخيرة الإشراف على بعض المصالح ذات الطابع العام:

سكك الحديد، المرافىء، الجمارك، القضاء، الفرق العسكرية السورية (في حال ارتأينا ضرورة تشكيل قوة عسكرية من أهالي البلاد غير رجال الجندرمة المحليين). وسيوضع تحت تصرفها ميزانية فدرالية تغذيها الجمارك والضرائب غير المباشرة. أما فائض هذه الإيرادات فسيسد عجز الميزانيات المحلية وميزانية لبنان بما يتناسب مع عدد السكان. وستشكل الجمارك بشكل أساسي ميزانية الإيرادات. أما ميزانية النفقات فتشكلها الأشغال العامة (سكك الحديد والطرقات ذات المنفعة العامة).

وفي مسألة ضبط الأمن الداخلي يقترح ملران ما يلي: «ستتوازر رجال البوليس، قوات محلية صغيرة مطعمة بفرنسيين. وتساندها في الحالات الخطيرة فرق فرنسية سوف يخلص عددها إلى عشرين ألف رجل يتمركزون خارج المدن في معسكرات مجهزة بصورة رائعة كما كانت تجهز قديماً الفيالق الرومانية.» «وسيؤمن وحدة القضاء محكمة قضاء أعلى تحسم في الخلافات القضائية كما في الخلافات ما بين كانتون وآخر».

وينهي ملران برقياته المتتالية إلى غورو «بطرح مسألة دقيقة» هي اختيار عاصمة

الكونفدرالية السورية، والمراكز الأساسية الأخرى التي تناسب الحواضر الكبرى في سورية. يقول في ذلك: «إن بيروت تناسب أن تكون مقراً لمحكمة القضاء الأعلى (Haute cour) حيث يهيمن العنصر الفرنسي. كذلك. فإنها تصلح لأن تكون مركزاً اقتصادياً للعلاقات مع الخارج».

ويحتار ملران بين الحواضر الثلاث لاختيار عاصمة للكونفدرالية. يقول: «بين دمشق، حلب، بيروت يصعب الاختيار. وعلى كل حال وبما أنه لن يكون هناك إدارة سياسية مركزية لا يعود اختيار العاصمة أمراً حاسماً. ويمكن بناء عليه، اعتماد حل مزيج: تكون حلب مقر المفوضية العليا. وبيروت مقر محكمة القضاء الأعلى، وأما دمشق فإنها لما كانت دائماً مركزاً ثقافياً إسلامياً فقد نجعلها مقراً لجامعة، ذلك أنه يبقى دائماً أن نحذر من خطر أن تتحول دمشق إلى مركز ديني للمعارضة».

وجهة نظر الجنرال غورو:

هذه المسائل التي يعرضها الرئيس ملران في «مخططه» شكلت موضوعات للنقاش عبر برقيات متتالية بعث بها الجنرال غورو رداً على اقتراحات الرئيس الفرنسي بين ١٣ و٢٠ آب.

في مسألة لبنان والمدن التي ينبغي أن تضم إليه:

يبدأ غورو برقياته التي يرد بها على مخطط ميلّران، بطرح مسألة لبنان(١) والمناطق والمدن التي ينبغي أن تضم إليه. ويشير أولاً إلى طرابلس فلا يوافق على رأي ملران في جعلها «كانتونا» أو «مستلحقة» مستقلة بل يرى أن تضم إلى لبنان في إطار مشروع دولة لبنان الكبير».

ويورد في برقيته الأسباب الموجبة لذلك:

يقول: «منذ بضعة شهور ارتئي هنا أيضاً في أن يجعل من طرابلس «مستلحقة مستقلة» وهذا الرأي كان قد أعلن أمام تجمع سني وقد نال استحسانه. وكان من شأن ذلك أن يغوي في حينه لا سيما أمام ضعف وسائل عملنا في سورية، وفي وقت كان نفوذ الأمير فيصل في ذروته».

---

(١) برقيات تحمل تاريخ ١٣ آب، والأرقام ١٥٧٧ ـ ٨٤.

«بالإضافة إلى ذلك كان مطلب استقلالية طرابلس الشام هو مطلب أنصار الأمير فيصل، على اعتبار أن ذلك قد يسمح ضمنا بالارتباط بدمشق. وكانت فكرة إلحاق طرابلس بلبنان تثير آنذاك أيضاً شكوك المسلمين لأنه يلغي كل فرصة للارتباط بمملكة دمشق التي تأمل بدورها في أن تكون طرابلس منفذها على البحر».

ويفسر غورو موقف دوكيه (De Cail)[1] الذي أوحى للحكومة الفرنسية بهذه الفكرة فيقول: «إنها ذكرى تلك الفترة التي سمحت للسيد دوكيه أن يقول لسعادتكم أن طرابلس الشام لا ترغب بالالتحاق بلبنان الكبير. لكن اختفاء الأمير قد عدّل كلياً شكل المسألة. وبصورة خاصة أنقص حماس وأهمية هذه المطالب. أن مسلمي طرابلس الشام يقبلون اليوم طوعاً الارتباط بلبنان الكبير على أن يحافظوا على استقلال إداري من السهل أن نضمنه لهم».

«يكفي أن تشكل مدينة طرابلس ـ الشام بحد ذاتها مجموعة إدارية مستقلة في محافظة هي مركزها وتتألف من الأقضية التالية: عكار، زغرتا، البترون». ويضيف غورر: «يعني ذلك على وجه الإجمال تطبيق مبدأ المستلحقة المستقلة Municipe autonome على القاعدة ذاتها التي تتصورها الحكومة، ولكن في إطار لبنان الكبير لا في إطار تبعيتها المباشرة للدولة الفدرالية السورية».

ويستمر غورو في برقياته المتتابعة التي تحمل تاريخ ١٣ آب ١٩٢٠، عرض الأضرار التي تنتج عن اقتراح الرئيس ملّران في جعل طرابلس مستلحقة في فدرالية سورية، فيقول: «إن المفهوم الذي يتصوره سعادتكم يترتب عليه ضرر كبير وهو أننا نجازف بأن تمارس سورية الداخلية على التجمع (الطرابلسي) تأثيراً دينياً وسياسياً جاذباً، تأثيراً تندفع نحوه على كل حال نزعات هذا التجمع، وهي نزعات ينبغي صوناً لمصالحنا تجنبها».

وبالمقابل يعرض الجنرال غورو حسنات ضم طرابلس وملحقاتها إلى لبنان فيقول: «ينبغي ألا ننسى أيضاً أن المدينة ومنطقتها عامة تشتمل على تجمعات مهمة من الأرثوذكس والموارنة بحيث أن إلحاق المدينة مع أراضي عكار وحمص التابعة لسنجق طرابلس ـ بلبنان، يترجم نفسه بمد هذه الدولة بحوالي ٦٧ ألف مسيحي مقابل ٥٧ ألف مسلم سني».

«ومن جهة أخرى من الواجب أن نغطي بصورة أكيدة للدولة اللبنانية التي ترتبط مصالحها بصورة لا تقبل الفصل بمصالحنا، أكبر قدر ممكن من الامتداد والقوة المنسجمين

(١) هو روبير دوكه Rober de Cai أمين عام المفوضية العليا.

مع الضرورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي لا يتعارض أي منها مع ضم طرابلس الشام إلى لبنان».

«ومن وجهة نظر اقتصادية أن ضمها إلى لبنان لن يمنعنا من أن نؤمن لسورية الداخلية عبر سهل عكار والخط الحديدي لحمص، منفذاً طبيعياً على البحر. إن ما منعنا عن ذلك سابقاً اعتبارات سياسية زالت مع زوال فيصل. وأرى من جهة أخرى أيضاً أنه من المستحسن أن نجعل من بيروت عاصمة لدولة لبنان الكبير. وهنا أضم رأيي إلى رأيكم في تصوركم الاستقلالية البلدية autonomie municipale الواسعة التي ينبغي أن تعطى لبيروت».

ويقترح غورو أن تكون بيروت مقر المفوضية العليا الفرنسية. «فدمشق مستبعدة للأسباب التي ذكرتها الحكومة، وحلب غير مقبولة من الناحية الهندسية بسبب ضعف مواصلاتها مع الساحل فهي لا تتصل بالأسكندرون إلا عبر ١٠٠ كلم من الطرقات الجبلية، وببيروت إلا عبر ٥٠٠ كلم من الخطوط الحديدية...

وينهي غورو برقيته المؤرخة في ١٣ آب بما يلي: «أني أطلب اليوم من سعادتكم بشكل خاص وملح أن تسمحوا لي وفق الشروط المذكورة آنفاً بإعلان قيام لبنان الكبير في وقت قريب جداً وجعل بيروت عاصمته وطرابلس الشام ملحقة به».

«إن هذه الترضية التي نقدمها لأصدقائنا اللبنانيين سيكون لها بالضرورة نفع كبير، إذ ستسمح لنا أن نتقدم نحو تقسيم أفضل لوسائل عملنا وذلك بإلغاء (المنطقة الغربية) التي لم يعد لها مبرر وجود تحت الانتداب منذ دخولنا إلى دمشق...».

«إني عازم في أن تكون بداية العمليات حذف المنطقة الغربية وإعلان دولة لبنان الكبير في ١٥ آب».

وفي ١٩ آب يرسل غورو سلسلة برقيات يلح فيها على فكرة ضرورة إعلان دولة لبنان الكبير، إذ يقول: «إن العرائض والمظاهرات تتضاعف معبّرة عن الرغبات الشعبية ذات الطابع الملح والعام والتي تريد قيام دولة لبنان الكبير. وكما سبق وذكرت لسعادتكم فإن إعلان لبنان الكبير كان يجب أن يتم في بيروت بتاريخ ١٥ آب وبحضور وفود عن كل مناطق الجبل... لهذه الأسباب ولكل الأسباب التي عرضتها في برقياتي السابقة التي وجهتها إلى الوزارة، وجدت أنه من المستحيل تأخير الإعلان المنتظر... لذا عدت فحددت يوم الأثنين ٢٣ آب ليكون موعد إعلان لبنان الكبير...».

ويتابع غورو مشيراً إلى مشروع فصل ولاية حلب عن دولة دمشق بعد هذا التاريخ فيقول:

«لقد أخرت إلى ما بعد هذا التاريخ موعد سفري إلى حلب الذي أصبح ضرورياً وسيشتمل على إعلان انفصال ولاية حلب عن دولة دمشق. وهذا أول تقسيم كبير ارتأته الحكومة على حساب دولة فيصل القديمة . . .

«وإني أطلب موافقة سعادتكم وتأييدكم في إنجاز مهمتي وتنظيم البلد الذي ينتظر الكل هنا نجاحه . . .».

كما يصر الجنرال غورو على أن يتلقى جواباً مؤيداً لبرقيته رقم ١٥٧٧، التي يطرح فيها ضرورة إعلان لبنان الكبير وبضمه إليه بيروت، وطرابلس وعكار وصيدا وصور ومرجعيون.

موقف غورو من صيغة التجزئة التي يطرحها ملّران وصيغة علاقة لبنان بالداخل السوري:

بينما كان ملران يقترح تعددية واسعة في تجزئة سورية إلى كيانات يتم ضمها في اتحاد كونفدرالي أو فدرالي واحد، وبينما كان يرى أيضاً ضرورة إعطاء لبنان استقلالية مرحلية خارج هذا الإطار الفدرالي، كان الجنرال غورو يرى ضرورة قيام تجزئة محدودة لسورية وضرورة أن تقوم فدرالية سورية ـ لبنانية أو أن يدمج لبنان بالكونفدرالية السورية.

هذا الموقف تحمله برقياته المرسلة إلى الرئيس ملران بتاريخ ٢٠ آب والتي تحمل الأرقام ١٦٣١ ـ ٣٦. يقول: «. . إني أعتقد أننا إذا أردنا اليوم طرح الاستقلال التام للبنان حيال الكونفدرالية المجاورة فإن أهمية مصالح الطرفين المشتركة من وجهة النظر الاقتصادية، سوف تقود حتماً إلى اتحاد لبناني سوري يترجم نفسه أخيراً باندماج شبه كامل للبنان في الكونفدرالية».

وبشأن عدد الكيانات السياسية التي يقترحها ملران في سورية يجيب غورو: «أما فيما يتعلق بتقسيم هذه الكونفدرالية إلى ثماني أو تسع مجموعات، فإن ذلك يترتب عليه نتائج خطيرة. فمن وجهة النظر السياسية بشكل عام. قد يخدم هذا التدبير فكرة الوحده بدل أن يقضي عليها وذلك أن إنشاء مجموعات صغيرة لا تستطيع تأمين وجودها بنفسها، يجعلها تتكاتف وتتقارب بدافع الإحساس المشترك بوحدة المصالح».

ويقترح غورو بالمقابل أن تنحصر التجزئة في ثلاث أو أربع دول. يقول: «وعلى العكس فإنه من السهل الإبقاء على التوازن بين ثلاث أو أربع دول كبيرة، يتيح لها وضعها أن

تكفي نفسها بنفسها، ويساعدنا عند الحاجة على تأليب بعضها على بعضها الآخر. وهذا واقع حساس تبدو بوادره بين دمشق وحلب».

ويناقش غورو أخيراً النتائج التي تترتب على مشروع تقسيم ملران بشأن تضخم جهاز الإدارة والموظفين الذي يقتضيه تعدد الدويلات.. والذي سيؤدي إلى «عراقيل جمة سوف تواجه إدارة الشؤون المالية وإدارة الميزانيات المتعددة لكل هذه المجموعات الصغيرة التي قد يعتبر نظامها كما لو أنه تراجع عن التقسيم التركي بصيغة الولايات الواسعة».

ويطلب غورو إعادة النظر «بمخطط» الرئيس ملران في هذا الشأن.

ردود الرئيس ملّران على ملاحظات غورو:

وفي ٢٣ آب ١٩٢٠ يرسل الرئيس ملران مجموعة من البرقيات المتتالية جواباً على برقيات الجنرال غورو السابقة.

بالنسبة لعدد الدويلات المقترح إنشاؤها يترك الرئيس ملران للجنرال غورو أمر تحديد العدد، مبدياً بعض الملاحظات العامة وطارحاً بعض الاستفسارات والاستيضاحات والتحفظات.

يقول: «لن أستطيع أن أحدد لك نهائياً عدد المجموعات المستقلة التي يجب إنشاؤها منذ اليوم بشكل مؤقت. كما أن ذلك يرتبط بالظروف الراهنة التي بإمكانك تقديرها حيث أنت. إلا أني أحرص على إبداء الملاحظات العامة التالية:

١ ـ «إن النظام الفدرالي الذي لدينا أكثر من مبرر لإنشائه في سورية قد يفقد الكثير من واقعيته ومرونته إذا ما قصرنا عدد الدول إلى اثنين أو ثلاث خارج لبنان، الذي علينا إلا نستعجل دخوله في الكونفدرالية السورية إلا إذا أيد ذلك بوضوح أعيان لبنان الذين ما زالوا يعارضون ذلك حتى اليوم».

٢ ـ «إن الحذر من تقليص عدد الدول الكونفدرالية إلى ثلاث يتأتى من أن هذه الدولة وبسبب اتساعها النسبي تصبح أقل انقياداً ـ إلا في حال إيجاد جهاز مراقبة دقيق جداً ـ من مجموعات مؤطرة في مدن مستقلة وكانتونات (Groupes municipaux et cantonaux.) ثم إن الدول الكبيرة يمكن أن تشكل إطاراً لتحرك سياسي تقوم به مجموعات سورية تتهيأ لذلك. وهذا أمر يستبعد أن يحصل في إطار مجموعات متباينة نضع على رأسها «مجالس أعيان» يعينون من قبلنا تعيينا بانتظار القوانين الدستورية

السورية التي سيكون لدينا من أجل وضعها مهلة سنتين أو ثلاث. وأنه لمن الضروري هنا أن توضحوا لي الطريقة التي تعتقدون أنه من خلالها يمكن التعبير عن الإرادة الشعبية. ذلك أنه ينبغي أن نكون حذرين جداً حيال هذا الأمر حتى لا نذهب عكس اتجاه المبادىء الدولية».

٣ - وفي النقطة الثالثة يرد ملّران على وجهة نظر غورو القائلة: بأن جهاز الإدارة الفرنسي يتطلب في إطار دول قليلة وواسعة، عتاداً ونفقات أقل من الجهاز الذي يتطلبه تعدد هذه الدول وكثرتها فيقول: «لا أظن مهما كانت الحسابات النظرية للميزانيات، أن الجهاز الفرنسي للإدارة الذي ينبغي إرساله إلى الدول الكبيرة والمعقدة نسبياً، يتطلب عملياً أقل عدداً من الموظفين ونفقات أدنى من تلك التي تستوجبها إدارة المجموعات المستقلة الأقل تعقيداً والتي تتقاسم ساحة الأرض نفسها».

٣ - ويبدي الرئيس ملران تحفظاً على صيغة إلحاق القبائل العربية البدوية بدولتي دمشق وحلب؛ فيقول: «إن صيغة إلحاق القبائل البدوية العربية التي علينا احترام استقلالها، بدولتي حلب ودمشق ليست أفضل من صيغة إخضاع هذه القبائل لدائرة خاصة Service speciale من دوائر المفوضية العليا حيث تنتدب هذه المفوضية ضباط اتصال بشيوخ القبائل. هذا في حين أن إلحاق القبائل بهذه الدول ينزع إلى زيادة تعقيدها ولا يجعل منها مجموعات مرتكزة إلى (وحدة ذاتية على صعيدي المصلحة والتنظيم).».

٥ - ويستفسر ملران عن اختلاف صيغ التعابير التي يستخدمها الجنرال غورو بخصوص دولتي حلب ودمشق و«بلاد العلويين» (Territoire) فيتساءل: «هل يعكس ذلك فكرة التفاوت بين أعضاء الكونفدرالية؟»..

ويرى: «أن تتمتع المجموعات مهما اختلفت في مساحة أرضها وتركيبها الداخلي بوضع تساو في عضوية الكونفدرالية وممثليها الدائمين».

٦ - ويبدي أيضاً تحفظه على صيغة إلحاق طرابلس وبيروت بلبنان. فيقول: «إن دمج طرابلس وبيروت بلبنان لا يعود بفائدة أكيدة لا على هذه المدن ولا على لبنان بحد ذاته. ومن المستحسن أن نخصص فترة تجربة تحتفظ خلالها طرابلس (وضاحيتها المسلمة)، وكذلك بيروت، باستقلالية إدارية ومالية واسعة إلى أن نرى كيفية تفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض».

٧ - «والشيء نفسه بالنسبة لإلحاق جبل الدروز بحكومة دمشق. فقد ارتأينا سابقاً استقلالية

في إطار لقاءات تمت مع زعماء الدروز، لا سيما في آذار ١٩١٩».

٨ ـ «وعلى وجه الإجمال أعتقد أنه من المرغوب به أن نتدبر الأمور بالشكل التالي: حتى ولو أن تصفية التجربة الشريفية قادتنا أولاً لخلق دول واسعة يجب أن نحتفظ خلال تشكيل الاستقلالات الواسعة المحلية بإمكانية أن نقيم فيما بعد كونفدرالية بعناصر أكثر تعددية. أنه من المستحيل أن يكون لدينا منذ الآن، ولم يمض على وجودنا في داخل سورية سوى بضعة أيام، تصور محدود نهائي للنظام الذي ينبغي أن نعطيه لسورية.

«بدون شك إننا ملزمون بخلق هيئة قادرة على العمل بصورة مباشرة، ولكن دون أن نترك لأنفسنا الانحباس نهائياً فيما يمكن أن يكون حلاً ظرفياً. بل ينبغي أن نترك لهذا الحل تعددية في الإشكال ومرونة تسمحان بإدخال كل الرتوش (التعديلات) التي تقتضيها التجربة».

«وإنه بالتحديد ولهذا الغرض بالذات ارتأت القرارات التي وزعت بموجبها الانتدابات مهلة ثلاث سنوات لإعداد دساتير للبلاد».

«ومن المناسب أن نأخذ بعين الاعتبار في إجراءاتنا التنظيمية وفي تصريحاتنا وجود هذه المهلة. فالتنظيم الحالي لا يمكن أن يكون إلا مؤقتاً ولا يمكن أن تكون قاعدته خلق ثلاث دول كبيرة بقيادة عسكرية: يجب ألا يغيب عن نظرنا أنه لا يمكن الاستمرار بنظام الاحتلال وأن نعرض أنفسنا لانتقادات خطيرة إذا ما حاولنا أن نمدده. فضلاً عن أن نظام الاحتلال هذا، أكثر تعرضاً للمواجهة وأقل مرونة من الرقابة المدنية».

«أرجو أن تطلعني على أي إجراء أو تصريح قبل تنفيذه، إلا في الحالة التي تتطلب قراراً عاجلاً. وأنه من الأفضل في هذه المرحلة من التنظيم أن تكون وجهات نظرنا متناسقة لا بواسطة برقيات مستعجلة وإنما بواسطة تقارير ممنهجة وموسعة ترسل بالبريد ويمكن أن تدرس بتمعن في باريس من قبل الوزارة»(١). (انتهى).

تعليق

وهكذا فإن ميلران هو الذي قرر تقسيم سوريا إلى دول، زاعماً أن في سوريا تنوعاً للأعراف والديانات والحضارات.

وأي أعراف وأي ديانات وأي حضارات متنوعة بين مدينتي دمشق وحلب، ليجيز ميلران لنفسه تقسيمهما إلى دولتين؟!

(١) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية التي وصل إليها الدكتور وجيه كوثراني.

وأين ذلك في سوريا كلها؟!

وهو يسمي فترة الحكم الاستقلالي خرافة شريفية، ويعتبرها مفروضة على الفرنسيين نتيجة الاحتلال الإنكليزي والسياسة الإنكليزية!.

وينسى أن العرب هم الذين احتلوا ما احتلوا في سوريا بجيشهم الذي قاتل من أجل هذا الاحتلال أشد قتال... وأن الإنكليز هم الذين فرضوا على الحاكم العسكري العربي في بيروت إنهاء حكمه!..

وهو يرى أن الحكم الاستقلالي كان سلطة مصطنعة، وأنه كان ملكية شريفية غريبة عن طموحات البلاد!.

ويتجاهل أنه كان نتيجة طموحات البلاد المتمثلة بقرارات المؤتمر السوري الممثل لجميع الأطراف السورية، وأن الملكية لم تكن غريبة لأن العرب أمة واحدة...

وقد صدق في أن ذاك الحكم العربي الاستقلالي ما كان ليقوم ولا يمكن أن يستمر إلا باستبعادهم!... ويتكرم ميلران على سوريا بأن ما يفرضه عليها من تقسيم وتجزئة، يمكن أن تربطه (فدرالية)!...

ولكن أي فدرالية؟ أنها فدرالية (تحت السلطة العليا للمفوض السامي الفرنسي)!. إنه يصفها في أول الأمر بأنها: (سلسلة دول مستقلة)!. ثم ينتهي بها إلى أنها يجب أن تكون تحت سلطة المفوض السامي الفرنسي!. هذه السلطة التي يصفها بأنها (العليا)!.

هذا هو الاستقلال الذي يعنيه ملران رئيس الوزارة الفرنسية... الاستقلال الذي يتظاهر بأنه يمن به على سوريا!..

تجزئة سوريا إلى دول!. وربط تلك الدول بخيط (فدرالي)!.

كل ذلك (تحت) لا يستطيع أن يمد يده إلى (فوق)!.

أما الذي هو (فوق) أما (السلطة العليا) التي تحتها(سلسلة دول مستقلة جمهورية الشكل)، أما ذلك فهو موظف فرنسي هو في بلاده: تحت التحت!..

ويتشدد ملران في أمر (الفدرالية) فلكيلا يحسب الحاسبون أنها رباط إداري فيه نوع من الوحدة، وأنه ذو مركزية جامعة، يؤكد بأن ما يوحّد هو الاقتصاد وحده!.

وطبق غورو المنهج الذي اتفق عليه مع ملران، فأصدر قرارين مؤرخين في ٣١ آب أغسطس ١٩٢٠ يقضي أولهما بتأسيس دولة لبنان الكبير، ويقضي الثاني بتأسيس دولة العلويين[١].

وفي المناطق السورية الأخرى أقام غورو دولتين، هما دولة دمشق ودولة حلب، وترك في دولة حلب لسنجق أسكندرون نظام خاص[٢].

وفي ٤ آذار/ مارس سنة ١٩٢١ أعلن قيام دولة خامسة هي دولة جبل الدروز.

وتطبيقاً لتعليمات ملّران الفدرالية، فقد أعلن غورو في ٢٢ حزيران/ يونيو سنة ١٩٢٢ قيام اتحاد بين الدويلات الثلاث: دولة دمشق ودولة حلب ودولة العلويين، وجعلت حلب عاصمة للاتحاد. وكان المقصود بذلك توهين أمر دمشق وإذلالها. وانتهى الأمر بعد زمن إلى إعادة دمشق عاصمة للاتحاد.

(١) أعلن قيام دولة لبنان الكبير في أول أيلول سنة ١٩٢٠، وأعلن قيام دولة العلويين في ٢٣ أيلول.

(٢) أعلن قيام دولة حلب في ٨ أيلول ١٩٢٠ وقيام دولة دمشق في ٣ كانون الأول سنة ١٩٢٠.

الفصل التاسع عشر

النضـــال السـياسي

كان في مصر جمهرة من السوريين النازحين إليها، وكانوا قد ألّفوا فيما بينهم أحزاباً سياسية منها حزب الاتحاد السوري. وبعد سنتين من سقوط حكومة الاستقلال في دمشق، أي سنة ١٩٢٢ قرر هذا الحزب أن يدعو الأحزاب السورية الاستقلالية إلى عقد مؤتمر سوري في مدينة جنيف مقر جمعية الأمم، للمطالبة بحق سوريا بالحرية والاستقلال، فأذاع الدعوة التالية:

إن لجنة حزب الاتحاد الدستوري المركزية بمصر واثقة أنكم كنتم وما زلتم مواظبين على مبادئكم القومية الوطنية ومساعيكم الشريفة إلى أن تكلل بالنجاح ويتحرر الوطن المحبوب ويصبح كما يريده أبناؤه الأحرار العاملون وطناً حراً مستقلاً زاهراً برجاله ناهضاً بهممهم سائراً كل يوم إلى الأمام بفضل ما يبذله الأحرار العاملون في سبيله من التضحيات العديدة والمساعي الجليلة.

وبعد فقد رأت لجنة حزب الاتحاد السوري التي كانت وما زالت تجاهد بجميع الطرق المشروعة للحصول على استقلال البلاد التام الذي هو أمنية كل سوري أبي النفس أن تتآزر جميع الأحزاب والجمعيات السورية التي تعمل لغاية الاستقلال التام ووحدة البلاد سواء في سوريا نفسها أو في المهاجر البعيدة المتفرقة وتتفاهم فيما بينها على أسس المبادىء والمساعي معاً وترفع صوتها في وقت واحد للعالم المتمدن بأسره بجميع الطرق المشروعة طالبة الحصول على حقها الوطني الطبيعي المؤيد بكثير من الوعود والعهود من أقطاب السياسة في العالم المتمدن كله.

ولما كان مجلس عصبة الأمم سيجتمع قريباً وينظر في شروط الوصاية المفروضة على

سوريا وغيرها من البلاد المنفصلة عن تركيا فقد قررت لجنة حزب الاتحاد السوري أن تدعو الجمعيات والأحزاب السورية إلى عقد مؤتمر سوري عام في جنيف مركز عصبة الأمم في ١٠ حزيران المقبل لتبرهن بكل ما لديها من الوثائق والحجج والأدلة على ما لسورية من الحق بالحرية والاستقلال وتتوسل بالوسائل المشروعة لدى مجلس عصبة الأمم لسماع رأي البلاد قبل إبرام الحكم عليها، فلجنة حزب الاتحاد السوري تدعوكم وتدعو سائر الجمعيات السورية للاشتراك في هذا المؤتمر وترجو منكم إشعارها بأسماء مندوبيكم وبميعاد سفرهم وبما ترغبون الاشتراك فيه من نفقات المؤتمر العامة.ا هـ.

انعقاد المؤتمر

وقد عقد المؤتمر في ٢٧ آب وشارك فيه وفد فلسطيني، ولكي نعطي صورة عن التفكير العربي يومذاك نشير إلى أنه جرى خلاف على تسمية المؤتمر فالسوريون قالوا بتسميته (المؤتمر السوري) فاعترض الفلسطينيون طالبين بأن يسمى: (المؤتمر السوري الفلسطيني).

وكانت حجة السوريين أن الداعي إلى المؤتمر هو حزب الاتحاد السوري وأن دعوته مبنية على قواعده الأساسية في استقلال البلاد السورية وحريتها وشكل حكومتها.

فقال الفلسطينيون إن الدول قد فصلت بعض مناطق البلاد عن بعض ووضعت لكل منها اسماً، فإذا أطلق اسم سوريا الآن لا تدخل فلسطين في مسماه، فالأولى أن يسمى: المؤتمر السوري الفلسطيني واشترطوا في مشاركتهم في المؤتمر تسميته بهذا الاسم.

وبعد جدال طويل قُبل طلبهم.

ومن أعاجيب الدهر أن الوفد الفلسطيني كان واثقاً من نيل فلسطين استقلالها قبل أي بلد عربي آخر. ويروي أحد أعضاء الوفد السوري الأمر على هذا الشكل: «إن وفدهم (الفلسطينيون) يرجح التفاؤل على التشاؤم في قضيتهم، وأنه يرجو رجاءً قوياً أن تكون فلسطين أسبق البلاد العربية إلى نيل الاستقلال».

وكان الوفد الفلسطيني قادماً إلى جنيف من لندن حيث كان مقيماً فيها للمطالبة باستقلال فلسطين..

وكان من رأي الوفد الفلسطيني أن الوحدة السورية قد تتعارض مع الوحدة العربية التي يطلبها أهل فلسطين، وإذا استقلت فلسطين دون سوريا أو قبلها كما ينتظر، فإن ارتباطها بالوحدة السورية يكون ارتباطاً ببلاد غير مستقلة فينافي استقلالها، فلا بد إذاً من طلب الوحدة

العربية أو طلب الاستقلال لكل من سوريا وفلسطين بصورة منفصلة.

كما كان من رأي الوفد الفلسطيني السكوت عن الانتداب البريطاني والحملة على وعد بلفور بالوطن القومي لليهود عسى أن يستميلوا إليهم كثيراً من البريطانيين الذين يكرهون أن يكون لليهود نفوذ ممتاز في مهد النصرانية. فلم يوافق المؤتمرون على ذلك.

وقد برزت مشكلة أخرى هي المشكلة التي عني بها العضو اللبناني سليمان كنعان الذي أصر على ذكر أن لبنان كان مستقلاً منذ أربعة عشر قرناً.

ولما رأى الأكثرون أن العضو اللبناني متمسك بهذه الدعوى وافقوه عليها.

وقد انجلت جلسات المؤتمر عن قرار يرفع إلى جمعية الأمم المنعقدة في جنيف يتضمن الاعتراف بحق سوريا ولبنان وفلسطين في طلب الاستقلال التام المطلق بمقتضى القواعد العامة لحقوق الشعوب والعهود الخاصة المقطوعة لها في السنوات الأخيرة.

وأنهى المؤتمر بيانه بذكر مطالبه المرفوعة إلى جمعية الأمم كم يلي:

١ ـ الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريا ولبنان وفلسطين.

٢ ـ الاعتراف بحق هذه البلاد في أن تتحد معاً بحكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخبه الشعب وأن تتحد مع باقي البلاد العربية المستقلة في شكل ولايات متحدة (فيدراسيون)

٣ ـ إعلان إلغاء الانتداب حالاً.

٤ ـ جلاء الجنود الفرنسية والإنكليزية عن سوريا ولبنان وفلسطين.

٥ ـ إلغاء تصريح بلفور المتعلق بوطن قومي لليهود في فلسطين.

هذه هي المطالب التي انجلى عنها مؤتمر جنيف.

ويلفت النظر فيها أن مندوب لبنان سليمان كنعان قد وافق على أن يقوم بين سوريا ولبنان وفلسطين اتحاد فدرالي. ثم يقوم بين هذا الاتحاد وبين البلاد العربية الأخرى اتحاد فدرالي عربي عام.

وإذا قارنا بين هذه المطالب التي كانت في حقيقتها مطالب العرب في كل أقطارهم منذ سبع وسبعين سنة وبين مطالبهم اليوم نرى أن الاستقلال قد تحقق. وأنه بعد أن أصبح تحقيق الاتحادات في أيديهم تراجعوا عن تحقيقها وأحلوا محلها الشحناء. وأنهم بعد أن كانوا يطالبون باستقلال فلسطين العربية، تراجع هذا الطلب إلى طلب سلطة ذاتية للضفة وغزة.

رحيل غورو

وفي أوائل نيسان سنة ١٩٢٣ أنهت الحكومة الفرنسية مهمة الجنرال غورو فغادر بيروت إلى باريس. وجاء مكانه الجنرال ويغان maxime weygand في ٩ آيار سنة ١٩٢٣ وفي الخامس من كانون الأول ١٩٢٤ أعلن إنهاء الاتحاد السوري وقيام وحدة سورية بين دولتي دمشق وحلب، وظلت دولة العلويين قائمة بذاتها يحكمها حاكم فرنسي مرتبط مباشرة بالمفوضية العليا الفرنسية. كما أعلن فك لواء أسكندرونة بأقضيته الأربعة عن ولاية حلب وربطه مباشرة برئيس الدولة السورية على أن يحتفظ له بالإدارة الخاصة المقررة له.

ثم استدعي الجنرال ويغان إلى فرنسا ليحل محله الجنرال ساراي الذي وصل إلى بيروت في ٢ كانون الثاني سنة ١٩٢٥. وفور نزوله إلى الأرض بادر الجنرال فندبنرغ حاكم لبنان الذي كان بين مستقبليه قائلاً له: تهيأ لترك مركزك إلى حاكم وطني. فاعتبر هذا التصرف بإبدال حاكم فرنسي بحاكم وطني دليلاً على نوايا طيبة يحملها المفوض السامي الجديد.

ثم دعا المجلس التمثيلي اللبناني لانتخاب ثلاثة لبنانيين ليختار واحداً منهم حاكماً للبنان. ولما عجز المجلس عن الاتفاق على الثلاثة أصدر في ١٣ كانون الثاني ١٩٢٥ قراراً بحله على أن يُبدأ بانتخاب مجلس جديد خلال ستة أشهر. وفي ١٥ منه ألغى الأحكام العرفية التي كانت سائدة في البلاد منذ العام ١٩٢٠ ثم أصدر عفواً عن خمسين محكوماً من المحاكم العسكرية الفرنسية وأصدر بلاغاً قال فيه إنه مستعد لسماع الشكاوى وإجابة المطالب.

هذا التصرف دعا المخلصين في دمشق إلى تأليف وفد يقابل المفوض السامي الجديد حاملاً إليه المطالب الوطنية التي دونت في عريضة موقع عليها من جمهرة من الناس بهذا النص:

نحن الموقعين أدناه من مختلف طبقات الشعب السوري العربي قد أنبنا عنا الوفد الحامل لهذه المطالب ليبلغها إلى الجنرال ساراي المفوض السامي للجمهورية الفرنسية وليعرب له عن أماني الأمة التي تطلب تحقيقها وهي:

١ ـ نطلب أن تكون البلاد السورية بحدودها الطبيعية التي كانت عليها قبل الحرب العالمية بما فيها بلاد العلويين وجبل الدروز ولواء الأسكندرون والأراضي الملحقة بلبنان الصغير وطناً واحداً في اللغة والقومية.

٢ ـ دعوة الجمعية التأسيسية وأن تنتخب انتخاباً حراً لتضع للبلاد قانونها الأساسي وحل المجالس التمثيلية الحالية لأنها لا تنطبق على القواعد النيابية وحصر حق التشريع

بالمجلس النيابي وإلغاء القوانين الاستثنائية الصادرة بشكل قرارات إفرادية.

٣ ـ لما كانت سوريا بلاداً معترفاً باستقلالها في العهود الدولية فنطلب تأييد قاعدة مسؤولية الحكومة أمام البرلمان وإلغاء الإدارة العسكرية ومنع تدخل المستشارين حتى في الأمور الجزئية.

٤ ـ الحرية الشخصية حق طبيعي لكل فرد وهي مقدسة في نظر الشرائع العامة في جميع البلاد المتمدنة فليس ما يبرر عمل السلطة في تضييق نطاق هذه الحرية فلذلك نطلب احترام الحرية الشخصية بجميع أنواعها لأنها من الحقوق الطبيعية المقدسة.

٥ ـ بما أن السلطات السابقة اعتقلت بعض الوطنيين وأبعدت آخرين بلا محاكمة أو إثبات استناداً إلى وشاية الجواسيس الذين يصمون الوطنيين بأنهم صنيعة الدول الأجنبية فنطلب وضع حد لهذه الأعمال المنافية للقوانين وإصدار عفو عام عن جميع المحكومين والمبعدين السياسيين.

٦ ـ توحيد القضاء بإلغاء المحاكم الأجنبية واحترام صناعة القضاء واستقلال المحاكم وجعل اللغة العربية لغة المحاكم الرسمية فقط.

٧ ـ لما كانت الأوقاف والمؤسسات الخيرية الدينية المحضة للأعمال الخيرية والشعائر الدينية وكانت أوقاف بقية الطوائف غير المسلمة تدار بمعرفة الطائفة نفسها وكانت الإدارة السابقة قد ضمنت إدارة الأوقاف الإسلامية إلى المفوضية العليا فلم تحترم بذلك إرادة الواقفين حتى إنها استولت على الخط الحديدي الحجازي الذي هو أعظم وقف إسلامي وسلمته إلى شركة أجنبية رغماً عن احتجاج الأهلين فإنا نطلب إعادة هذه الإدارة إلى الطائفة الإسلامية وإرجاع الخط الحجازي إلى استقلاله السابق.

٨ ـ منع الهجرة الأرمنية إلى البلاد السورية.

٩ ـ توحيد أسعار النقد وجعل الذهب أساساً لجميع المعاملات الرسمية وغير الرسمية.

١٠ ـ إلغاء الزيادة الجمركية واتباع قاعدة الحماية تبعاً للخطة الاقتصادية والإسراع في عقد اتفاقات جمركية مع الحكومات المجاورة بالاشتراك مع الحكومة المحلية والغرف التجارية.

١١ ـ جعل الشركات ذات الامتيازات تابعة لمراقبة الحكومة المحلية وحصر حق إعطاء الامتيازات بالحكومة الوطنية وإلغاء مصلحتي احتكار الدخان والديون العامة.

١٢ـ توحيد الأنظمة الإدارية وإلغاء قانون العشائر الاستثنائي.

١٣ـ الاقتصار على أهل البلاد في الوظائف الرسمية. (انتهى).

من مراجعتنا لهذه المطالب نرى أنها صدى لما كانت تشكو منه البلاد، ولما كان حتى تلك الساعة غير مباح لها الإعراب عنه جهرة.

فأمرّ ما عانته سوريا هو تقسيمها إلى دويلات مما لم يكن له شبيه في أي مستعمرة من المستعمرات التي قضى سوء طالعها أن يحكمها أولئك الأوروبيون الذين يرون أنهم حملة المدنية في هذا العصر، ولا يرون أن استعباد جماهير الناس يتنافى مع أبسط قواعد المدنية.

لذلك رأينا أول مطلب سوري كان توحيد البلاد. وإذا كانت المطالب لم تتضمن طلب الاستقلال بلفظ الاستقلال، فإن تضمينها طلب دعوة الجمعية التأسيسية لوضع القانون الأساسي (الدستور) هو أوضح تعبير عن طلب الاستقلال.

وهكذا رأينا أن المطلب الأول للسوريين كان وحدة البلاد. لقد قدموا طلب الوحدة على طلب الاستقلال، وهذا يشعرنا بالمرارة التي كان يحسها السوريون من تمزيق بلادهم ذلك التمزيق الذي لا نظير له في أي بقعة من بقاع العالم.

ولما قابل الوفد الجنرال ساراي قال لهم: «يظهر لي أنكم تمثلون طبقات الشعب المختلفة وأراني سعيداً جداً بالتحدث إليكم فأعتقد أن لكم ثقة بي فآمل أن نتحد معاً على العمل لتحقيق المطالب التي تريدونها وإذا كان ما اتصل بي صحيحاً من المعلومات فإنكم تمثلون الفكر النير والعقيدة الحرة وأعتقد أنكم تتمكنون من مساعدتي على جعل الثمرة ناضجة في بلادكم».

وعدما دار البحث عن الوحدة أجابهم: «إن الوحدة في يدكم فاتحدوا ثم طالبوني بتطبيقها».

فأجابوه إن البلاد بأسرها مجمعة على طلب تحقيقها وما عليه ليطمئن من قولهم إلا أن يجري استفتاء فعند ذلك يتأكد مما يقولون. فأعاد قوله: وحدوا الصفوف أولاً وبعد ذلك لكل حادث حديث. ثم قال لهم: أسسوا حزباً سياسياً وليتقدم هذا الحزب بمطالبه لأفاوضه على أساسها.

حزب الشعب:

وقد كان ذهاب الوفد الدمشقي إلى بيروت ورفع ما رفع من المطالب إلى الجنرال

ساراي حافزاً على تأليف وفد حلبي حمل هو الآخر إلى الجنرال مطالب لا تختلف عما طلبه وفد دمشق. وكان جواب سراي لا يختلف عما أجاب به الوفد الدمشقي.

وعاد الوفد الحلبي من بيروت ماراً بدمشق فقضى فيها أياماً تذاكر فيها مع إخوانه الدمشقيين، فأجمعوا جميعاً على توحيد الجهود وتنظيم الصفوف.

لما عاد الوفد الدمشقي إلى دمشق تنادى الوطنيون إلى تأليف حزب سياسي وتم تأليف الحزب الذي ضم ما يزيد على خمسمئة عضو من المثقفين الواعين، اجتمعوا وانتخبوا الذكتور عبد الرحمن شهبندر رئيساً للحزب، فكان هذا أول تنظيم وطني بعد يوم ميسلون، يسعى علنا لتحقيق أهداف وطنية محددة.

والإنصاف يقتضينا أن نقول إنه قبل تأليف الحزب كان الشقيقان يوسف حيدر وسعيد حيدر قد أصدرا جريدة (المفيد)، وكان نجيب الريس أبرز محرريها، فكانت أول جريدة وطنية بعد الاحتلال تجاهر بالمطالب الوطنية وتدعو للتمسك بها. فالتف حولها جمهور العاملين في الحقل النضالي مؤلفين أول تكتل وطني يلتقي في مكاتبها ويتذاكر في شؤون البلاد. وفي تلك المكاتب انعقد الاجتماع الذي تقرر فيه إرسال الوفد الوطني لمقابلة المفوض السامي الجديد الجنرال ساراي. وكان سيف التعطيل مصلتاً فوق الجريدة يهددها في كل حين، فإذا شعرت السلطة بأن المفيد تمادت في القول صدر القرار بتعطيلها مدة تطول وتقصر حسبما تهوى السلطة.

ونموذجاً للصحف التي كانت تصدر قبل صدور (المفيد) نذكر جريدة (المقتبس) التي كان يصدرها صاحبها محمد كرد علي في العهد التركي ثم واصل إصدارها بعد الاحتلال الفرنسي. وتولى الوزارة في هذا العهد وظلت الجريدة تصدر بإدارة أخيه أحمد.

ولإعطاء صورة واضحة عن محمد كرد علي وجريدته نذكر هنا ما حرره قنصل فرنسا في دمشق قبل الحرب العالمية الأولى، وذلك في تقرير له إلى وزراة الخارجية الفرنسية مؤرخ في ٧ نيسان سنة ١٩١٣ وهذا التقرير من محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، المجلد ١٢٠ ص١٤٩ وهو تقرير مطول خلاصته أنه محمد كرد علي تعرض لسياسة فرنسا في شمال أفريقيا بالنقد[١].

يقول القنصل العام في رسالته الموجهة إلى السيد بيشون Pichan وزير الخارجية:

(١) كان ذلك ليلفت نظر الفرنسيين إليه فيسترضونه.

أتشرف بإبلاغ معاليكم أنني استقبلت بتاريخ ٢٧ آيار المنصرم محمد كرد علي رئيس تحرير المقتبس الذي أتيت مراراً على ذكر حملاته على فرنسا.

إن هذا الصحفي الذي أظهرنا نحوه عطفاً وأدينا له خدمات إن في القسطنطينية أو في باريس قد عاد منذ فترة من الزمن يبدي لنا أسمى عواطفه. وإذا لم يقم بزيارتي قبل هذا التاريخ فالسبب كما قال لي بعفويته أنه لا يريد سماع من يردد أنه باع نفسه للأجانب.

إلى أن يقول القنصل: سوف أستفيد من أول مقال يصدر في المقتبس ويكون مؤيداً لفرنسا ويعالج مثلاً الازدهار في الجزائر أو النتائج التي حصلت في المغرب... فأقدم إلى صاحب المقتبس سراً مكافأة أولى إما لحساب هيئة التحرير أو لحساب صندوق التقاعد.

وعندما نخطو الخطوة الأولى تتوالى المقالات إما بناء على طلب محمد كرد علي، أو بإيعاز منا عندما تدعو الحاجة، ثم أننا نكافىء كاتبي المقالات عن طريق رئيس التحرير.

بهذه الطريقة لا نتوسل أحداً، ولا يكون هناك عقد واضح ويقتصر كل شيء على تبادل الخدمات بشكل مطاط وفق الضرورة وقابل للفسخ في أية لحظة.

وإذا تفضل معاليكم بالموافقة على رأيي فإني له من الشاكرين إذا تكرم وحدد لي بنفسه استناداً إلى رسالتي رقم ٥ بتاريخ ١٧ كانون الثاني التي أتيت على ذكرها سابقاً، المدى الذي يراه مناسباً لمنحي وسائل استغلال حسن استعداد الجريدة المذكورة تجاهنا.

إلى آخر ما ذكر القنصل العام في رسالته إلى وزير الخارجية.

هكذا كان محمد كرد علي أيام الحكم التركي يتظاهر بانتقاد سياسة الفرنسيين في شمال أفريقيا ليلفت نظرهم إليه، ثم يعود فيزور قنصلهم العام ليقبض منه المال ليتحدث عن ازدهار الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي مبدياً للفرنسيين (أسمى عواطفه).

هكذا كان محمد كرد علي والفرنسيون لا يحكمون سوريا، وهكذا كانت جريدته تلك الأيام، فكيف يمكن أن يكون وتكون جريدته والفرنسيون هم اليوم الحاكمون المسلطون.

ومن طرائف نفاق محمد كرد علي أن الفرنسيين بعد احتلالهم دمشق وقضائهم على الاستقلال العربي السوري كافأوا عميلهم محمد كرد علي بتعيينه مديراً للمعارف في الحكومة التي ألفوها على أنقاض الاستقلال.

وقد أوفدت هذه الحكومة مدير عدليتها بديع المؤيد ومدير معارفها محمد كرد علي إلى باريس بمهمة الاتصال بذوي الاختصاص بشؤون القضاء والتربية والتعليم. وبعد وصولهما

نقلت جريدة ال(فيغارو Le figaro) الباريسية حديثاً جرى بين المديرين السوريين وبين مندوبها ومما جاء فيه قولهما: «إن سوريا أصبحت بفضل الانتداب الفرنسي جنة الله في أرضه».

ثم افترقا فعاد بديع المؤيد إلى سوريا، وعرج محمد كرد علي على القاهرة، وفيها التقى بفريق من السوريين اللاجئين إليها فراراً من الحكم الفرنسي، وفيهم من يعتبرهم محمد كرد علي أصدقاء له، فعنفوه أشد تعنيف على تصريحه لمندوب الجريدة الفرنسية، وأقسموا بأنهم يقاطعونه أن لم ينشر تنصلاً من هذا التصريح في إحدى الجرائد العربية الصادرة في القاهرة فاستجاب لهم ظاناً أن ذلك لا يصل إلى الفرنسيين في دمشق.

فلما وصل إلى دمشق كان أول ما قام به زيارة مندوب المفوض السامي الفرنسي، الكولونيل كاترو Catraux. وبعد تبادل التحية والمجاملة، أخرج المندوب من (جارور) منضدته نسخة من (الفيغارو) وقرأ على محمد كرد علي الحديث المنسوب إليه فيها، وسأله: أصحيح هذا؟. فأجابه محمد كرد علي: «هذا أقل ما يقال في الانتداب الفرنسي». ثم أخرج المندوب الجريدة المصرية التي نشرت تنصله من الحديث وقدمها له، ثم قال له: هل يتفق هذا التناقض مع الصفة المفروض وجودها في شخص المسؤول عن التربية والتعليم في الناشئة؟!(١).

صدرت (المفيد) في هذا الجو الصحفي الهامد، فكان مكتبها نواة التجمع الوطني المناضل، ولما تألف حزب الشعب كانت لسانه المعبر عن أهداف الوطنيين العاملين.

ويصف لطفي الحفار الذي كان أحد أعضاء اللجنة الإدارية لحزب الشعب ـ يصف ما كان بهذه العبارات: «وقد بذلنا جهدنا لأصلاح المفاسد الأدارية والاقتصادية في البلاد، وإقرار حقها بالحياة النيابية والدفاع عن سيادتها القومية. وكان سعينا ينحصر بالطرق السلمية المشروعة، ولكن المفوض السامي الجديد لم يهتم كثيراً بمطالبنا الإصلاحية وبالشكاوى التي قدمناها إليه وفي طليعتها كثرة الضرائب واستيلاء السلطة الفرنسية على جميع المصالح الأدارية وخنق الحريات والتجزئة السياسية وسلوك الموظفين الإفرنسيين ما أدى إلى نشوب الثورة السورية(٢).

(١) سوريا والانتداب الفرنسي ليوسف الحكيم ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) لطفي الحفار مذكراته، حياته وعصره ص ١٣٥.

الفصل العشرون

الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥

سبق هذه الثورة التي قادها سلطان الأطرش ثورة قادها هو نفسه سنة ١٩٢٢ وذلك أن الثائر العاملي أدهم خنجر كان قد لجأ إلى شرق الأردن. وفي خلال إقامته في عمان جاء إلى جبل الدروز وقصد بلدة سلطان الأطرش (القريّة) وذهب إلى بيته، وصدف أن كان سلطان غائباً عن البيت، وعلم الجند بوجود أدهم في البيت فقبضوا عليه.

أما أسباب قدوم أدهم إلى (القريّة) فيرويها حسن أمين البعيني في كتابه دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي، ص٥٩ طبعة١٩٩٣ نقلاً عن أسعد سليم في مقابلة شخصية معه كما يلي:

التجأ أدهم إلى شرق الأردن واحتمى بفؤاد سليم[1] إلى أن شعر هذا أن المخابرات

(١) من المناضلين المستشهدين في سبيل الاستقلال. ولد سنة ١٨٩٣ في بلدة (بعقلين) في لبنان ودرس في الجامعة الأمريكية ببيروت ومارس التعليم فترة في المدرسة العباسية. وفي سنة ١٩١٦ التحق بالثورة العربية في الحجاز ودخل دمشق مع الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل فكان من ضباط هذا الجيش، وكان ممن قاتل الفرنسيين في يوم ميسلون وكاد يؤسر لثباته في القتال. وبعد انهيار الحكم الاستقلالي في سوريا لجأ إلى شرق الأردن فيمن لجأ إليها من الهاربين من الحكم الفرنسي، ولما قامت الإمارة فيها برئاسة الأمير عبد الله بن الحسين انضم إلى جيشها فكان ممن أحسنوا تأسيسه. ثم تركها إلى مصر فنشر في صحفها عدة مقالات في سياسة البلاد العربية. ولما نشبت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ انضم إليها فكان أركان حرب الحملة التي قادها زيد الأطرش ووصل بها حتى جديدة مرجعيون في لبنان، ثم بدأ تراجعها بعد فشل الاستيلاء على قلعة راشيا. وفي الدفاع عن بلدة (مجدل شمس) أصيب بشظية قنبلة قضت عليه. =

البريطانية علمت بوجوده وعزمت على أن تقبض عليه. فنصحه بالالتجاء إلى مكان آمن، وأرسله بصبحة شكيب وهاب إلى (القريّة) ليحتمي بحمى سلطان الأطرش. وعند وصوله إلى (القريّة) في ١٧ تموز ١٩٢٢ اعتقلته السلطة وأرسلته مخفوراً إلى سجن السويداء. وكان سلطان آنذاك في بلدة أم الرمان فأعلمه شكيب وهاب بما حصل فأسرع يطالب بإطلاق سراح أدهم الذي لم يكن يعرفه، ولكن قضيته تعنيه وتعني قومه لأنه جاء إلى داره ضيفاً مشهَّداً[١].

فأرسل سلطان شقيقه علي إلى المستشار الفرنسي في السويداء (ترانكا) يطالب بإطلاق أدهم فرفض ترانكا ذلك متحدياً سلطان بقوله لعلي: إن أدهم في القلعة، ليأت أخوك ويأخذه، لقد صار في حوزة الجند الفرنسي. عندكم المحافظة على الضيف، وعند الجند المحافظة على الجاني.

ولما جوبه سلطان بهذا الجواب أبرق إلى الجنرال غورو في بيروت مطالباً بإطلاق المحتمي به، فلم يستجب له.

فمضى سلطان إلى (المقرن القبلي) والسويداء مستثيراً قومه فلباه الكثيرون. ولكن السلطة الفرنسية كانت محكمة أمرها في الجبل، فسليم الأطرش كان معيّناً من قبلها حاكماً للجبل وله أتباعه، وللسلطة أعوانها.

= ولما أراد الخروج من مصر والالتحاق بالثورة لم يكن يحمل جواز سفر، فقطع صحراء سيناء راكباً جملاً، وعبر نهر الأردن سباحة، وأبدى في معارك الثورة من البسالة وحسن التدبير ما جعل فقدانه خسارة للثورة أي خسارة.

وقد رثاه الشاعر خير الدين الزركلي بقصيدة لا يزال في ذهني منها حين كتابة هذه السطور هذه الأبيات:

صدقت والله وعدك — لا جف دمعي بعدك
آليت ميتة حر — ومت تحمل بندك
يا يوم مجدل شمس — ليت الزمان استردك
ما كان أقساك يوماً — مفجعاً وأشدك
أعملت في كل قلب — حداً ولم تثن حدك

ثم يخاطب الشهيد:

والهفتاه لأخت — في الحي ترقب عودك
تساءل الناس أنى — قصدت تجهل قصدك

(١) الضيف المشهد هو الذي يُعرّف الناس أنه لاجىء إلى دار امرىء وفي حمايته فيصبح لزاماً على هذا المرء أن يدافع عنه حتى لو لم تطأ أقدامه أرض الدار.

وقد استطاعت السلطة الفرنسية أن تحمل رجال الدين الدروز (شيوخ العقل) على إصدار بيان بشجب حركة سلطان الأطرش جعلوه صادراً عن المحكمة المذهبية وموقعاً بتواقيعهم ووزعوا منه مئات النسخ على القرى.

كما أن سليم الأطرش دعا إلى اجتماع في السويداء بحضور المستشار (ترانكا) لاستنكار حركة سلطان وأرسلت البرقيات إلى الكلونيل كاترو بذلك.

ولما أدرك سلطان عقم مطالباته بإطلاق أدهم صمم على القتال في سبيل استنقاذ ضيفه المحتمي به، فقاد أنصاره إلى (تل الحديد) ليقطع الطريق على الفرنسيين الناقلين أدهم إلى دمشق فينقذه من أيديهم، فاشتبك هناك بقوة فرنسية كانت معدة لنقله فتغلب عليها، وكاد يشتبك مع قوة الدرك الدرزية التي خفت إلى المكان، ولكن وصول سليم الأطرش قادماً من دمشق التي كان يزورها حال دون ذلك، على أن الفرنسيين الذين أدركوا تحركات سلطان لم يرسلوا أدهم على الطريق البري، بل أرسلوه في طائرة إلى دمشق ثم مضوا به إلى بيروت.

ومضى سلطان بعد معركة تلك الحديد إلى قرى (المقرن القبلي) يستنفر الناس ويستثيرهم، وكانت الطائرات الفرنسية تطارده وتلقي قنابلها على تجمعاته وتهدم البيوت. كما كان الجنود في البر يتابعونه فيشتبك بهم، ويداهمون قرى أنصاره فيصادرون غلالهم ومواشيهم وينسفون منازلهم بما فيها منزل سلطان نفسه.

فلجأ سلطان إلى شرق الأردن، وأخذ من هناك يناوش الفرنسيين برجاله الذين يرسلهم إلى الجبل فيقاتلونهم، أو يتقدم هو بنفسه على رأس رجاله فيصادمهم.

فرأى الفرنسيون أن يفاوضوه لا مباشرة بل عن طريق وفد درزي، ذهب إليه برئاسة متعب الأطرش يعرض عليه العودة مكرماً فأبى ذلك، ثم عاودوا الإرسال، فذهب إليه وفد من زعماء الجبل فاقتنع بالعودة لعاملين اثنين: هو خشيته من تقارب إنكليزي فرنسي يؤدي إلى القبض عليه، ثم لأنه رأى أنه يستطيع العمل في الداخل أكثر مما أصبح مستطيعاً أن يقوم به في الخارج. فعاد إلى الجبل في ٥ آذار سنة ١٩٢٣ عودة كريمة.

عاد بعد أن أصبح رمز الشهامة وبطل الحمية.

مقدمات الثورة

عندما قرر الجنرال غورو جعل جبل الدروز دولة منفصلة كان فيما تقرر أن يكون حاكم الجبل من أهله، وقد اختير سليم الأطرش حاكماً للجبل، وظل كذلك طيلة حياته. ولما مات

عمد الفرنسيون إلى تعيين حاكم فرنسي مكانه ناقضين بذلك اتفاقهم مع الدروز.

وكان (كاربييه) حاكم الجبل من أشرس الرجال وأفظهم، وأشدهم طغياناً وإرهاقاً، فعامل الناس أسوأ معاملة.

وفي ١٧ آيار (مايو) سنة ١٩٢٥ سافر الكابتن كاربييه إلى فرنسا مجازاً. وفي ٥ نيسان نمي إلى زعماء الجبل بأن الجنرال ساراي سيزور الجبل، فألفوا وفداً طلب موعداً من ساراي، فأُوعز إليهم بأن يحضروا إلى دمشق. وفي دمشق لم ينالوا منالاً بالتخلص من (كاربييه). ومع أنهم طالبوا بتنفيذ الاتفاق المعقود بينهم وبين غورو، الذي ينص على كون حاكم الجبل يجب أن يكون من أبناء الجبل، فقد كان يرضيهم أن يكون فرنسياً ولكن غير الكابتن كاربييه وقد أعلنوا ذلك بأن طلبوا بأن يبقى (برينو) ـ الذي ناب عن كاربيه أثناء غيابه ـ بأن يبقى هو حاكماً أصيلاً للجبل. فلم يلتفت ساراي إلى طلبهم، وزاد على ذلك بأن أمرهم بتركهم دمشق خلال ساعتين، ومن يتأخر يعتقل.

وقبل ذلك وخلال التذمر من كاربييه دارت في بعض الأذهان فكرة الثورة، فعُقد في أوائل شهر أيار سنة ١٩٢٥ في دمشق بمنزل قاسم الهيماني اجتماع ضم بعض الشخصيات الدرزية وبعض الشخصيات الدمشقية، كان التفكير بالثورة مدار الحديث فيه.

ثم عقد اجتماع أوسع في منزل الدكتور عبد الرحمن شهبندر حضره قادة دروز فاعلون أكدوا أن الوحدة والاستقلال ستكونان هدفهم، وجرى التداول بأمر الثورة.

ولما أمر الجنرال ساراي زعماء الدروز بمغادرة دمشق خلال ساعتين عادوا إلى جبلهم غاضبين أي غضب...

فتألفت لجان لتوحيد الصفوف وجمع الكلمة، كانت الرئيسية منها في السويداء ويتفرع عنها خمس لجان في المجيدل وشهبا وتعله وقيصما وساله. فنظمت هذه اللجان عرائض وقعها الأهلون وفيها يطلبون أن لا يرجع كاربييه إلى الجبل. كما وقع الموظفون عريضة يطلبون أن تُقبل استقالتهم في حال رفض إقالة كاربييه من حاكمية الجبل لأنه يتعذر العمل معه.

وأرسلت برقية إلى ساراي بهذا النص: «الوفد الدرزي الممثل بشخص الزعماء والشعب وجهته ببيروت يلتمس مقابلة فخامتكم».

فأحنقت هذه البرقية ساراي، وعندما وصل الموفدون إلى بيروت رفض مقابلتهم. وبعد

توسط زعماء دروز لبنان سمح لهم بمقابلة سكرتير المفوضية العام، فلم تنتج المقابلة شيئاً.

وبلغ الهياج في الجبل أثر ذلك أقصاه، وتم تشكيل جماعة من الشبان باسم الجمعية الوطنية برئاسة سلطان الأطرش قررت ما يلي:

١ ـ بذل كل مرتخص وغال في سبيل الاستقلال.

٢ ـ مواصلة السعي في عدم قبول كاربييه لحاكمية الجبل.

٣ ـ تذكير أعضاء المجلس التمثيلي بتنفيذ مقررات الشعب.

٤ ـ رجم وضرب وإهانة كل نائب لا يعمل بهذه المقررات.

٥ ـ بذل كل عضو من أعضاء الجمعية دمه في سبيل مساعدة أي فرد من أفراد الجمعية والسير على خطة معتدلة بطريقة قانونية.

الخطوة الأولى نحو الثورة الكبرى

في ٣ تموز سنة ١٩٢٥ دعي المجلس التمثيلي الدرزي للاجتماع، فعقد أعضاء الجمعية الوطنية اجتماعاً في دار حسين مرشد قرروا فيه الاتصال بأعضاء المجلس ودعوتهم إلى إصدار قرار بإقالة كاربييه من حاكمية الجبل فوافق النواب على ذلك ما عدا واحداً.

وما إن بلغ المسامع صدور القرار حتى تجمهر فريق من الشبان هازجين متحمسين ففاجأهم الضابط الفرنسي (موريل) وانهال عليهم ضرباً بالسوط، فقابل حسين مرشد ضربه بالضرب وانهال عليه بعصاه، وأطلق يوسف الأطرش عياراً نارياً نحوه. فولى (موريل) الأدبار وأحجار المتظاهرين تلاحقه، ولجأ إلى دار الحكومة.

فرأى وكيل الحاكم (رينو) أن يتلافى الأمر فدعى الوجوه إلى اجتماع طلب فيه أربعة مطالب حسماً لنتائج ما وقع:

١ ـ إن يعتذر الوجوه للضابط عن الإهانة التي لحقت به.

٢ ـ إن تدفع السويداء مئة ليرة ذهبية غرامة.

٣ ـ إن ينفى عشرة من آل مرشد إلى صلخد.

٤ ـ أن تهدم دار حسين مرشد (ضارب الضابط بالعصا).

فوافق الحاضرون على الشروط الثلاثة الأولى ورفضوا الشرط الرابع لما فيه من امتهان وخرق حرمة. ولوحوا ـ في حال الأصرار على تنفيذه ـ بالعصيان المسلح، فتنازل عنه (رينو).

وهكذا طوي أمر هذا الحادث، ولكن لم يطو أمر الإصرار على عزل كاربييه.

ورأى المفوض السامي أن ينحي (رينو) عن الجبل وأن يحل محله في النيابة عن كاربييه عسكري غيره هو (تومي مارتان) ليمهد السبيل لعودة كاربييه.

وقال (تومي مارتان) إنه قادم للتحقيق وسأل الناس عما يطلبون. فانحصرت مطاليبهم بإقالة كاربييه، وقدموا له عريضة بأفعال كاربييه طالبين رفعها إلى المفوض السامي.

وفي ١١ تموز ١٩٢٥ عمد المفوض السامي ساراي إلى أسلوب الغدر فأرسل كتاباً سرياً إلى مندوبه في دمشق يطلب إليه فيه دعوة الزعماء الدروز إلى دمشق لاستماع شكواهم ومطاليبهم، حتى إذا حضروا أبلغهم أنه يعدهم مسؤولين عن كل اضطراب في الجبل وأبقاهم محتجزين.

فدعا المندوب كلاً من عبد الغفار ونسيب وحمد آل الأطرش فأبلغهم مآل أمر المفوض السامي ثم أبعدهم إلى (تدمر).

أما سلطان ـ وقد كان ممن يُطلب حضورهم ـ فلم يقع في الفخ، بل كان قد توجه إلى قرية (رساس)، فلما بلغه ما جرى على الجماعة صمم على إعلان الثورة.

وحاول المفوض السامي استدراجه فأوعز إلى (تومي مارتان) بطلب مقابلته، فرفض سلطان الطلب فأرسل (تومي مارتان) قوة مؤلفة من مئة وتسعين جندياً بقيادة الضابط (نورمان) لإقناع سلطان بالحضور طوعاً، وإلا فالقبض عليه وإحضاره قسراً.

فمضى (نورمان) يقصد سلطان في بلدته (القريّة)، على أن سلطان كان في قرية (رساس) يجمع الجموع ويعد للثورة. فحذر شقيقه علي (نورمان) من التعرض (للقريّة)، فمضى (نورمان) إلى (الكفر) ونزل بقوته عند مائها، فأنذرهم شيخ الكفر أسعد مرشد بمغادرة المكان، فمضى نورمان إلى مكان وعر يطل على الطرقات.

المعركة الأولى واشتعال الثورة

كان سلطان في هذه الأثناء ينتقل من قرية إلى قرية شاحذاً الهمم مثيراً الحماسة، فقصد أم الرمان، فأمتن، فملح، فعرمان، فصلخد. وواصل تنقله فكان يقابل في كل مكان يقصده بالأهازيج الحماسية.

وبلغ سلطان خبر الكابتن (نورمان) فقصد إليه، فشبت معركة انتهت بإبادة قوة نورمان عدا بضعة أفراد حملوا النبأ إلى (تومي مارتان) في السويداء، فأسرع هذا إلى الاحتماء بقلعتها مع الموظفين الفرنسيين ونسائهم.

وزحف سلطان إلى السويداء وحاصر القلعة. فكان ما جرى إيذاناً بقيام الثورة الشاملة وأصبح اشتعالها أمراً محتوماً.

نتيجة معركة الكفر والهزيمة التي لحقت الفرنسيين فيها نبهت الجنرال ساراي إلى أن الأمر أخطر مما كان يحسب فراح يعد حملة كبرى للثأر لهزيمة الكفر، وإنقاذ الفرنسيين المحاصرين في قلعة السويداء وإعادة السيطرة على جبل الدروز.

على أنه كان يؤمل بإنهاء الأمر سلماً فأطلق عبد الغفار الأطرش من معتقله وأرسله وسيطاً بينه وبين الثوار.

وكان الثوار عندما علموا بالإعداد للحملة الفرنسية أبقوا فريقاً منهم محاصراً للقلعة وانتقلوا بجمهورهم إلى نبع (قرّاصة) وهناك التقوا بعبد الغفار الأطرش فحاول إقناعهم بالتفاوض سلمياً فرفضوا وأصروا على القتال.

فأكمل الجنرال ساراي إعداد الحملة التي فاق عدد رجالها على السبعة الآلاف بقيادة الجنرال (ميشو) الذي زحف بها من بلدة (ازرع).

وما بين ٣١ تموز و٢ آب ١٩٢٥ جرت معركة (المزرعة) بين الحملة الزاحفة وبين الثوار المتربصين بها، وفي المناوشات الأولى في ٣١ تموز وقتال صباح الأول من آب انهزم الثوار. على أنهم عادوا فسحقوا مؤخرة الجيش الفرنسي في مساء الأول من آب، وأجهزوا عليه في صباح الثاني منه فكانت هزيمته هزيمة ماحقة[١].

ولو أن الثوار بعد هذا النصر الحاسم اتجهوا حالاً إلى دمشق لما وقف في وجههم شيء ولوصلوها سالمين غانمين.

ولكن يبدو أن النصر الكبير فاجأهم، ولم يكونوا قد خططوا لما بعد المعركة.

ولما حاولوا بعد ذلك الزحف إلى دمشق كان الفرنسيون قد أفاقوا من هول الصدمة وأعدوا طائراتهم التي هاجمت بنارها من السماء فرسان الثوار الزاحفين فصدتهم عن التقدم

(١) أوحى لقب سلطان الأطرش لشاعرين عربيين بهذه البيتين:
قال الشيخ محمد رضا الشبيبي شاعر العرب في العراق من قصيدة في الثورة السورية:
وتعالى في العراقين صدى   من بني (الأطرش) حتى اسمعا
وقال رشيد سليم الخوري الشاعر اللبناني المهجري الملقب بـ(الشاعر القروي من قصيدة:
فيا لك (أطرشاً) لما دعينا   لثأر كنت أسمعنا جميعا

بعد أن وصلوا إلى جبل المانع في ٢٣ آب واصطدموا بالقوى الفرنسية. هذا فضلاً عن أن الفرنسيين كانوا قد أحاطوا دمشق بالأسلاك الشائكة ونصبوا الرشاشات وحصنوا مواقعهم وجمعوا ما أمكنهم جمعه من القوى.

تأجيج الثورة

إذا كان نصر معركة الكفر قد نبه الجنرال ساراي إلى خطورة الحال، فإن النصر المؤزر في معركة المزرعة قد نبهه إلى أن الحال هي أخطر مما فكر، فعمد إلى طلب النجدات العسكرية من باريس. وفي الوقت نفسه عمد إلى مواجهة الأمر سلمياً فكلف وفداً من دروز لبنان الذهاب إلى الجبل لمفاوضة الثوار على شروط تحفظ كرامة الطرفين.

كما أطلق من المعتقل الزعماء الدروز الذين كان قد أعتقلهم في تدمر والحسكة إظهاراً لحسن نيته.

وإذا كان الجنرال ساراي قد أخذ يحاول إطفاء النار التي أشعلها، فإنه كان هناك من يحاول زيادة تلك النار ضراماً.

فبينما كان الوفد الذي أرسله ساراي من دروز لبنان يفاوض للسلام، كان وفد آخر يفاوض لإدامة الحرب.

فنصر معركة المزرعة قد شحذ همة حزب الشعب في دمشق وحرك مطامحه لتعميم الثورة في سورية.

وكانت قد عقدت قبل ذلك في دمشق، عندما بدأ تململ الدروز وتحركهم ـ عقدت عدة اجتماعات في دمشق بين دروز الجبل الناقمين، وبين جماعة حزب الشعب لتوحيد الجهود والتحرك الثوري.

وجاء انتصار المزرعة مثبتاً إمكان النصر الثوري العسكري، فعقد اجتماع سري في دمشق في منزل آل الحلبوني حضره الدكتور عبد الرحمان شهبندر رئيس حزب الشعب وعدد كبير من أعضاء الحزب وغيرهم وتعاهدوا على القيام بالثورة، وأرسلوا وفداً إلى الجبل، محرضاً على دوام الثورة.

وهكذا كان في الجبل وفدان: وفد دروز لبنان الذي أرسله الجنرال ساراي للتفاوض على السلم، ووفد حزب الشعب الموفد للتفاوض على الحرب والمؤلف من أسعد البكري وتوفيق الحلبي وزكي الدروبي، وبوصول الوفد الثاني قويت وجهة نظر سلطان والقائلين بقوله بدوام الثورة وامتدادها.

وتم التوافق على أن يزحف الثوار من الجبل صباح ٢٣ آب، وفي الوقت نفسه ينتقل الثوار المعدون في دمشق فيلتقي الجميع في بلدة (الكسوة) غير البعيدة عن دمشق ومنها يباشرون جميعاً الانقضاض على دمشق.

تم هذا التوافق في ١٧ آب، ولكنه لم يصل خبره إلى دمشق إلا في ٢٠ من هذا الشهر ولم يكن قد بقي من الوقت إلا يومان تعذر فيهما الإعداد في دمشق لقصر الوقت.

فعقد اجتماع في منزل الحاج عثمان الشراباتي حضره الشهبندر وبعض جماعة حزب الشعب لمحاولة إنفاذ ما اتفق عليه.

وبعدما تبين حراجة الموقف قرر الشهبندر وفريق من صحبه بينهم العسكري المتمرس في العهد التركي يحيى حياتي الانطلاق من دمشق لعل تجمعاً يكون احتشد خارجها، فباتوا في (حوش المتبن) فلم يجدوا شيئاً، فانطلقوا إلى بلودان، ثم عادوا سراً إلى دمشق ومنها مضوا إلى الغوطة في طريقهم إلى الجبل فالتقوا في ٢٥ آب بسلطان الأطرش في قرية (كفر اللحف).

وأدرك الفرنسيون دور حزب الشعب في حدوث ما حدث، فأصدر المفوض السامي قراراً في ٢٦ آب باعتقال الهيئة الإدارية للحزب ومصادرة أوراقه وإغلاق مكتبه، فاستطاع بعض الأعضاء النجاة من الاعتقال ملتحقين بالثورة، واعتقل آخرون فنفوا إلى أرواد وإلى الحسجة.

موفدان إلى شقرا

خلال هذه الأحداث كنا في جبل عامل في قريتنا (شقرا) إذ كان من عادة الوالد في أكثر السنين أن ينتقل بالأسرة خلال فصل الصيف من دمشق إلى شقرا لتمضية فصل الصيف فيها.

وتتابعت الأحداث في جبل الدروز ابتداء من أوائل تموز في الوقت الذي كنا فيه في شقرا.

وبعد النصر الكبير في معركة المزرعة وبدء التداول في تحويل الثورة الدرزية إلى ثورة سورية شاملة وانعقاد الاجتماع في منزل آل الحلبوني وإرسال الوفد إلى جبل الدروز، وما كان يعد من قرارات خطيرة، كانت دمشق تفتقد وجود السيد محسن الأمين فيها، وكان الوطنيون السوريون الذي اعتادوا أن يذاكروه في أمور نضالهم الوطني وأن يصغوا إلى آرائه ـ كانوا في تلك الأيام الحاسمة يشعرون بحاجتهم إلى وجوده في دمشق ومشاورته فيما هم مقدمون عليه.

وفي يوم من أيام شهر آب سنة ١٩٢٥ كنت أقف أمام باب منزلنا في شقرا فأبصرت عن بعد فارسين قادمين من جهة الغرب على فرسيهما لا يشك الناظر إليهما أنهما غريبان عن المنطقة، إذ كانا يعتمران (الطربوش)(١) ويندر جداً في جبل عامل أن يمتطي الفرس في تنقلاته من يعتمر الطربوش. فأخذت أحدق فيهما فلما أصبحا غير بعيدين عني عرفت أحدهما ولم أعرف الآخر.

كان أحدهما عبد الحميد اللحام من أبناء حيّنا في دمشق، وبيته مجاور لبيتنا في (دخلة الشرفا)، فدهشت لرؤية عبد الحميد اللحام قادماً إلى شقرا على فرس لم يعتد في حياته من قبل التنقل على مثلها(٢).

ووصل الفارسان إلى باب المنزل فأسرعت إلى السلام على عبد الحميد ورفيقه مبتهجاً به. فأسرّ إليّ عبد الحميد بأنه يريد أن يلقى والدي مع رفيقه منفردين لا رابع بينهم، وأن لا يخرج والدي إلى (الديوان) للقائهما، بل يبقى حيث هو في الداخل وأن لا نُدخل أحداً عليهم خلال اجتماعهم.

فأسرعت إلى والدي أخبره بالأمر، وعدت إليهما فأدخلتهما عليه، فبقوا مجتمعين على انفراد وقتاً طويلاً. ثم خرجوا جميعاً إلى (الديوان)، وبات الضيفان ليلتهما في شقرا، وفي الصباح ركبا الفرسين عائدين من حيث أتيا.

ولم يحدثنا والدي عما جرى بينه وبين ضيفيه، ولا نحن طلبنا إليه أن يحدثنا لأن هذا ليس من شأننا.

وبقينا في شقرا لم نبرحها إلى دمشق، لأن الدمشقيين القادرين على ترك المدينة تركوها نجاة بأنفسهم من مخاطر الحرب فيها.

وفي سنة ١٩٢٨ وكان أمر الثورة قد انطوى ـ كنت في دمشق فالتقيت عبد الحميد اللحام، فبادرني هو قائلاً: أتعلم ماذا ذهبنا نفعل في شقرا، ولماذا التقينا بوالدك سراً؟

«لقد ذهبنا إليه موفدين من قادة الحركة الوطنية في دمشق لننقل إليه تفاصيل الأحداث ونأخذ رأيه فيما كان يجري الإعداد له من إدامة الثورة وجعلها عامة شاملة».

ومما يجدر ذكره هنا أنه لما ضربت دمشق بعد ذلك بمدافع الفرنسيين وطياراتهم عند

(١) **الطربوش**: هو لباس الرأس الذي كان متعارفاً على اعتماره في المدن العربية.

(٢) لم تكن طريق السيارات المعبدة يومذاك قد وصلت إلى شقرا فلا بد من الوصول إليها من امتطاء الدواب.

محاولة الثوار احتلالها، كان مما تعمدت الطائرات ضربه بقنابلها، (دخلة الشرفا) حيث منزل السيد محسن الأمين فأصيب بالقنابل منزل الحاج زاهد بيضون الملاصق منزله لمنزل السيد محسن وقتل ابنه يوسف، وأصيب منزل الشيخ علي الجمال القريب جداً منه وقتل ولده صالح.

وقيل يومذاك أن المقصود بضرب قنابل الطائرات كان بيت السيد محسن ولكن الله نجّى البيت ونجى المكتبة فيه.

النداء

النداء الذي أذاعه سلطان الأطرش في ٢٣ آب سنة ١٩٢٥ بدعوة السوريين إلى الثورة ونشرته أول ما نشرته الصحف المصرية. ونحن قرأناه في الصحف البيروتية منقولاً عن الصحف المصرية. ومن أجل أن لا تؤاخذ الجريدة البيروتية التي نشرته، فإنها نشرته بشكل انتقادي قائلة فيما قالت: إن الجماعة تمردوا لغير هذا. وقد كان ذلك قبل فرض الرقابة على الصحف:

إلى السلاح إلى السلاح

يا أحفاد العرب الأمجاد هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملهم هذا يوم انتباه الأمم والشعوب فلننهض من رقادنا ولنبدد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكت القلم ولا يضيع حق وراءه مطالب.

أيها السوريون لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولا يعطى فلنأخذ حقنا بحد السيوف ولنطلب الموت توهب لنا الحياة.

أيها العرب السوريون

تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي تذكروا أن يد الله مع الجماعة وأن إرادة الشعب من إرادة الله وأن الأمم المتحدة الناهضة لن تنالها يد البغي لقد نهب المستعمرون أموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد وقسمونا إلى شعوب وطوائف ودويلات وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير وحرية التجارة والسفر حتى في بلادنا وأقاليمنا.

إلى السلاح أيها الوطنيون إلى السلاح تحقيقاً لأماني البلاد المقدسة إلى السلاح تأييداً لسيادة الشعب وحرية الأمة إلى السلاح بعد ما سلب الأجنبي حقوقكم واستعبد بلادكم ونقض عهودكم ولم يحافظ على شرف الوعود الرسمية وتناسي الأماني القومية.

نحن نبرأ إلى الله من مسؤولية سفك الدماء ونعتبر المستعمرين مسؤولين مباشرة عن الفتنة يا ويح الظلم لقد وصلنا من الظلم إلى أن نهان في عقر دارنا فنطلب استبدال حاكم أجنبي محروم من مزايا الإنسانية بآخر من بني جلدته الغاصبين فلا يجاب طلبنا بل يطرد وفدنا كما تطرد النعاج.

إلى السلاح أيها الوطنيون ولنغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولة إن حربنا اليوم هي حرب مقدسة ومطالبنا هي:

١ ـ وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.

٢ ـ قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

٣ ـ سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش ملي لصيانة الأمن.

٤ ـ تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء.

إلى السلاح ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجدادنا من قبلنا.

إلى السلاح والله معنا والإنسانية معنا ولتحي سورية حرة مستقلة

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

تم إذاع منشوراً آخر، هذا نصه:

منشور عام إلى اخواننا السوريين

باسم الوطن السوري المقدس وباسم استقلاله المبارك أحييكم وأحيي فيكم العروبة الصادقة والأنفة القومية واستصرخ منكم أمة عربية مشت على مناكب الدهر محمية الذمار ما حملت عاراً ولا كان بحماها قرار واستنفركم لحومة الجهاد الوطني يا خير من حمى الوطن

وكنتم عنه ذادة أبطالاً ونفرتم إلى موطن الشرف القومي خفافاً وثقالاً وأناديكم من معاقل الجبل المنيع وهو داركم وسلاحكم وحرزكم وملاذكم أن هبوا إلى المنافحة عن أوطانكم أوطان أبائكم وأجدادكم وحطموا أغلال الاستعمار في دياركم فقد هبت رياحكم فاغتنموها ودرت ضروع أيامكم فاحلبوها:

أما بعد أيها المواطنون العرب: إن ثورتنا الدموية هذه هي بعروتها وزرها ثورة القائم لتحرير البلاد من المغتصبين المستعمرين هي ثورة سورية بعيدة المدى شريفة الغاية نصابها النفوس والأرواح والسلاح والعزمات الصادقات خالصة لوجه الاستقلال العربي ففي سبيل استقلال بلادنا السورية حياة الأعزة نحيا وفي هذا السبيل موت الكرام نموت.

لقد أوقدنا نار هذه الثورة الاستقلالية بعد أن رزحت البلاد تحت كابوس الاستعمار أعواماً خمساً ثقالاً ولسنا بتاركين من أيدينا سلاحاً ولا باغين من الفرنسيين سلماً ولا اصطلاحاً حتى نبلغ بحد الحسام تمام المراد وهو تخليص كامل البلاد السورية العزيزة من احتلال المحتلين ونحن على مثل اليقين أن الوصول إلى هذه الغاية من السهل المستطاع ولا سيما وهي الغاية التي تفديها الأمة بما عز لديها وهان ولذلك ادعو سائر البلاد السورية ساحلاً وداخلاً سهلاً وجبلاً لقدح زناد الثورة العامة في وجه الفرنسيين فمن أجاب هذه الدعوة الوطنية وسارع إلى القيام بهذا الواجب فهو العربي المخلص الأمين ومن تقاعس عن ذلك فهو الخائن لأمته وبلاده وسيلقى جزاء الخائنين.

فيا أيها العرب الأماجد أهل النجدة والنخوة وحدوا مساعيكم وتعاقدوا بعهودكم وتقلدوا سلاحكم والشروا ألويتكم واركبوا خيولكم وصادموا العدو الجاثم خلال دياركم ببارود الثورة وخذوا عليه الطرق وارصدوا له في المكامن واقطعوا الأسلاك واسعفوا الجرحى واهبطوا على مخافره في كل مكان وافتكوا به حيث ثقفتموه واغنموا سلاحه وعتاده وكونوا عليه جميعاً يداً واحدة واصبروا في القتال والجلاد إن الله مع الصابرين لقد جاء اليوم الذي جاد الدهر به علينا لتنجية بلادنا بلاد أولادنا وأحفادنا من عدنا من العدو الذي كم ما أنزل بالبلاد من ضرر وخسارة ودمار وتجارة وإرهاق وتعذيب وقتل وتغريب وهو اليوم في بلادنا أضعف ما كان غداً وأقل سلاحاً وجنداً فقد توالت بميادين المغرب هزيماته ونكست فيه أعلامه ورايته وهو اليوم في الوطن السوري على حال أرق من الخيال وأقرب ما يكون إلى الزوال ودوام الحال من المحال فسارعوا إلى يومكم فهذا هو اليوم وهذا هو المجال فالثورة العامة منجاة البلاد والعباد من الاستعباد وقد بلغنا إلى الآن من هذه الثورة العربية مبلغاً عظيماً محفوفاً بالنصر

مؤيداً بالظفر فطردنا الفرنسيين من ديار الجبل وجواره ونجد لدركهم في مفرهم ومحو آثارهم وقد كان لنا معهم معارك دموية ما الكلام عنها بمثل العيان فقتلنا جند العدو تقتيلاً وغنمنا أسلحته وذخائره وأسرنا ضباطه وقواده وأسقطنا من أعالي الجو طياراته وافترسنا بالفوارس العربية دباباته وأعلنا الحكومة العربية الموقتة لتقوم بتدبير البلاد ريثما يتم طرد العدو فيجتمع إذ ذاك مجلس تأسيسي ليعين شكل الحكومة الذي تختاره الأمة ورفعنا العلم العربي المربع الألوان على السويداء قاعدة الجبل وفي السويداء رجال. وأقمنا الحكم ووطدنا الأمور والآمال بقوة من المولى المتعال وها قد أجمعنا أمرنا وأعددنا عدتنا وواصلنا الزحف على قوات العدو في كل جهة هو فيها حتى نأتي عليه فلا نذره إلا أثراً بعد عين وهذا بلاغنا إلى جميع الموظفين على اختلاف درجاتهم ومراتبهم أن يكونوا أمناء على وظائفهم وأعمالهم على شريطة أن لا يعاونوا السلطة المحتلة معاونة مهما قلت في جمع ضرائب ولا تجنيد ولا سوق عسكري، ولا في أي خدمة تكون للعدو نوعاً من المدد والعون فمن أقدم من أصحاب الوظائف الملكية أو العسكرية على هذا عد خائناً للبلاد يعاقب عقاب الخيانة الكبرى ثم يجب على أولي الأمر بذل الجهد فلا يدعوا في هذه الآونة العصيبة التي تجتازها البلاد في حريق النار والدم مجالاً لوقوع الاعتداءات فيجب صيانة الأموال والنفوس ورعاية المصالح والمحافظة على الأقليات وتظل القوانين الحالية سارية مرعية الحرمة ومن يجسر على ارتكاب الخيانة للبلاد وللثورة يحاكم عسكرياً. فإلى اليوم الذي لاح صبحه وفيه تتحرر البلاد السورية العربية يا أباة الضيم وعياف الذل إلى اليوم الذي تتوحد فيه البلاد مستردة استقلالها المسلوب.

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

ثم أذاع هذا المنشور:

الاستقلال يؤخذ ولا يعطى

الحرية والمساواة والإخاء

يا بني الوطن:

لا تنافس في الأهواء ولا خصومات ولا أحقاد طائفية بعد اليوم إنما نحن أمة عربية سورية أمة مستضعفة قوية في الحق قد انتبهت إلى المطالبة بحقها المهتضم أمة عظيمة التاريخ نبيلة المقاصد قد نهضت تريد الحياة والحياة حق طبيعي وشرعي لكل الأمم قد قسمها الاستعمار الأجنبي فوحدتها مبادىء حقوق الإنسان وأعلام الحرية والمساواة والإخاء نعم

ليس هناك درزي وسني وعلوي وشيعي ومسيحي ليس هناك إلا أبناء أمة واحدة ولغة واحدة وتقاليد واحدة ومصالح واحدة ليس هناك إلا عرب سوريون.

يا بني الوطن:

ليس لكم بعد الآن على اختلاف المذاهب والفئات إلا عدو واحد هو الحكم العسكري الجائر والاستعمار الأجنبي فانفروا إلى إنقاذ البلاد من أوضاعها السيئة وارفعوا علم الاتحاد والتضامن والتضحية إن حركتنا اليوم هي حركة مقدسة غرضها المطالبة بالحرية والاستقلال وضمان حقوق البلاد على مبدأ سيادة الأمة فليتحد الدرزي والسني والعلوي والشيعي والمسيحي اتحاداً وثيقاً وليؤلف بين قلوبنا الإخاء القومي ومحبة الوطن ولتكن إرادتنا إرادة حديدية واحدة.

إن قائد جيوش الثورة الوطنية السورية المقدسة يطلب إلى كل العرب السوريين:

١ ـ إعلان الإخاء الوطني بين كافة الطوائف.

٢ ـ قيام الأحياء ـ الحارات ـ في كل مدينة بصيانة الأمن الداخلي كل بحسب جهته عند دخول جيوش الثورة الوطنية وانهزام المستعمرين.

٣ ـ تأليف دوريات ومخافر وطنية يمشي على رأسها الزعماء المخلصون المحترمون من الأمة لتأسيس الاتصال الداخلي لحفظ الأمن وصيانة الأموال ومنع التعدي.

٤ ـ إرسال قوة محلية من المتطوعين إلى خارج المدينة أو القرية لاستقبال كتائب الثوار الوطنيين بالأهازيج الحماسية عند وصولهم باعتبار جميع الأمة جيشاً واحداً لهذه الثورة المقدسة.

هذه هي التعليمات التي يجب أن يتبعها الشعب العربي السوري في المدن والقرى تأييداً للأخوة القومية والثورة الوطنية: ولتحي سورية حرة مستقلة.

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

وقد ألقت الطائرات الفرنسية في ٢١ آب سنة ١٩٢٥ رسالة موقعة من الكابتن رينو أجاب عليها سلطان الأطرش بهذا البيان:

تتهمنا الرسالة أننا لم نف بالوعد بقولها أننا استسلمنا للنفوذ الأجنبي فقبلنا في منطقتنا عصابات مسلحة وشاركناها بالهجوم على دمشق إننا لا نسمح لأي نفوذ أجنبي مهما كان نوعه

أن يمتد إلى منطقتنا لأننا من طلاب الاستقلال وطلب الاستقلال لا يتفق بوجه من الوجوه مع طلب النفوذ الأجنبي وإذا عبرت منطقتنا بعض العصابات المسلحة فإنما هي عصابات أبناء عمنا سمعت بالضيم المشين الذي أصابنا من أمثال الكابتين كاربييه فخفت لمساعدتنا وهي عادات العرب تنفر لرفع الضيم عن ذويها منذ ألوف السنين وأما كون الدمشقيين الذين هم أكبر أنصار الحرية والاستقلال هزأوا بنا وانسلخوا عنا فهو كلام الواشي الذي يريد إلقاء بذور الشقاق بين أفراد الأسرة الواحدة تتهمنا الرسالة بالإبطاء والمماطلة وهي تهمة خالية من البراهين لأن كل من عرف أحوال الجبل ووعورة مسالكه وصعوبة مواصلاته يدرك تعذر إنجاز الاتفاقات بالسرعة الواجبة وأما إطلاق النار على الطيارات فليس بالأمر الغريب لأن أولادنا الذين لهم شغف بالرماية لا يملكون نفوسهم عن الرمي حين يرون مثل هذه الآلات الغدارة التي جعلت اسم المدنية الحديثة هزءاً وسخرية تحلق في سماء الجبل الآمن ـ ثم ـ إن شتم العيال الذين جاءوا لدفن الموتى في ساحة القتال هو أمر لا نعلم منه شيئاً بل نحن بالعكس من ذلك مستعدون في كل آن لتسهيل دفن هؤلاء المساكين الذين ذهبوا في سبيل المطامع الاستعمارية وذكرت الرسالة تخريب خط الهاتف بين بصرى وأذرع ومهاجمة محطة خربة الغزالة إن تخريب خط الهاتف ليس بمستغرب بل بقاؤه في بلاد تلاشت السلطة منها هو من الغرابة بمكان ونحن لم نأمر أحداً قط أن يتعرض لخربة الغزالة أو لغيرها وإذا جرى شيء من ذلك فيكون على أيدي العصابات التي تسرح في طول تلك البلاد وعرضها.

وقالت الرسالة إن دولة فرنسا المعروفة في التاريخ بالإنسانية والشرف والرحمة مستعدة أن تعفو إننا نرد كلمة العفو رداً مطلقاً لأننا طلاب عدل وإنصاف والذين طلبوا في بادىء الأمر تغيير موظف فرنسي بموظف فرنسي آخر مكانه لا يستحقون كلمة العفو بل يستحقها الذين سببوا بما أسدوه من النصائح الطائشة للجنرال ساراي سفك هذه الدماء البريئة على جانبي الطرق المؤدية إلى موقع المزرعة. ثم تذكر الرسالة رغبة كاتبها في حقن الدماء بين أمتنا والأمة الفرنسية وتسألنا هل لنا مصلحة حقيقية في دوام الحرب؟ إننا من أحرص الناس على السلم وأكثرهم ما لم يكن لها غرض شريف كالغرض الذي ألجأنا إلى امتشاق الحسام بعدما طفح الكيل بل صرنا لا نحجم عن أن نمد يدنا إلى من يمد لنا يده بعدما يعترف بحقوقنا الصريحة المشروعة المنشورة في بياناتنا وقد علمتنا الاختبارات الماضية أن العهود قصاصات من الورق تلقى تحت الأرجل فهل تقدم لنا الضمانات الكافية يا ترى إذا نحن عاهدنا وعقدنا الاتفاقات التي تضمن مصلحة الطرفين إننا نطلب مثل هذه الضمانات على مذاكرات الصلح وما دام هذا

الشك في الأنفس فلا يتيسر الاطمئنان ولا تحصل الثقة المتبادلة فعلينا أن نواجه الحقائق كما هي ونستكشف الدواء الناجع للأمراض الماضية التي أدت إلى الحالة الحاضرة المؤسفة أن كل تدبير موقت سينتهي بالفشل ولا بد من وضع أسس ثابتة ترضي أهل البلاد إرضاءً تاماً من جهة ولا تضير دولة الجمهورية الفرنسية من جهة أخرى وهذا الأمر لا يتعسر إذا كان وراءه حسن النية وإعطاء الضمانات التي لا تحتمل شكا.

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

حادث الجنرال سوليه

ظل خطر تقدم الثوار إلى دمشق قائماً فراح الفرنسيون يحصنون المدن والقرى الموصلة إلى دمشق كدرعا وازرع وبلدات حوران ويحشدون فيها ما لديهم من قوى. وفي يوم ذهب الجنرال (سوليه) لتفقد المواقع العسكرية بين دمشق ودرعا، فلم يكد يصل بسيارته إلى قرية (المرجانية) حتى اعترضه حاجز من الأحجار، فلما توقفت السيارة انهال عليها الرصاص فجرح الجنرال (سوليه) ومرافقه الكابتن (دوكوتيل) كما جرح سائق السيارة، على أن السائق استطاع الوصول بالسيارة إلى أقرب محطة قطار وهي (المسمية) فامتطى الجنرال منها القطار عائداً إلى دمشق. وتقدمت قوة فدمرت قرية المرجاينة وأحرقتها.

معركة المسيفرة

هذه المعركة معركة المسيفرة أول معركة يساهم فيها الدمشقيون في القتال.

كان الفرنسيون يعملون على حشد ما لديهم من قوى وكان الثوار يراقبون ذلك، فقرروا أن يبادؤوا بالهجوم ولا يتركوا للجيش فرصة مهاجمتهم، فجمعوا في ١٧ أيلول ما يستطيعون جمعه من الرجال ليباغتوا ليلاً القوى المحتشدة في (المسيفرة) فمشوا تحت الظلام وكان من الممكن أن يأخذوا الفرنسيين على غرة ويفتكوا بهم لولا أن رصاصة انطلقت من بينهم فنبهت النائمين من الجند فأخذوا أهبتهم وراحوا يطلقون الأسهم النارية في الفضاء لإنارة الظلام، وقامت معركة كانت من أشد معارك الثورة، وكانت ضحاياها من الفريقين كثيرة. ووصل الثوار إلى القرية ملتحمين بالجند، ثم تركوها عائدين.

وقد ادعى كل من الفريقين النصر في هذ المعركة، فالفرنسيون باهوا بصد الثوار عن التقدم وبما ألحقوه بهم من قتلى قالوا إنهم خمسمئة قتيل والثوار أعلنوا أنهم غزوا الجيش في عقر داره وأنهكوه وأعاقوه عن التقدم.

وقد كان بلاغ الفرنسيين عن المعركة ـ كما لا أزال أتذكره حتى الآن ـ مفعماً بالتفاخر رنّان الكلام ـ وكأنه يشير إلى الثأر لمعركة المزرعة. وكان رد الثوار عليه لا يقلّ تفاخراً...

وكان الفرنسيون بعد أن استقر أمر الثورة وبدا أنها تتقدم يوماً يوماً، قد أرسلوا لقيادة الجيش الفرنسي لقمعها الجنرال (غاملان gamelin)[١] وواصلوا إرسال الجنود.

فكان هم غاملان إنقاذ (تومي مارتان) المحصور هو ومن معه في قلعة السويداء. وكان المدد بالغذاء يأتيهم طول مدة الحصار بالطائرات التي تلقي إليهم بالطعام، وبألواح الماء المجمد.

واستطاع غاملان أن يشق طريقه إلى السويداء وأن يعود بتومي مارتان، دون أن يستطيع المكوث في السويداء.

معركة الزور الأولى[٢]

وبعد أن تجمع من تجمع في الجبل من الدمشقيين كان لا بد من تخفيف الضغط عن الجبل بمد الثورة إلى خارجه والحؤول دون زحف الفرنسيين إليه بتجمعاتهم الذي أخذوا يعدونها بقيادة غاملان.

وكان ممن التحقوا بالثورة حارس ليلي ممن يحرسون الأزقة والأسواق ليلاً في دمشق اسمه حسن الخراط. فلما تقرر التغلغل في غوطة دمشق وإشعال الثورة فيها كان هو ممن انتقل إليها. وقامت العصابات الدمشقية في الغوطة، فإذا بهذا الحارس البسيط المغمور يعود في الغوطة بطلاً مغواراً على رأس مجموعة مقاتلة يخوض بها المعارك مع الفرنسيين، وبالرغم من وجود عدد من الزعماء المدنيين والعسكريين في قيادات الثوار، فقد غدا اسم حسن الخراط ألمع الأسماء وأبرزها، وأول بروز له كان في معركة (الزور) الأولى، التي كانت أولى معارك الغوطة وأول معركة يخوضعها حسن الخراط وتبرز فيها شجاعته وحسن قيادته.

---

(١) هو الذي أصبح بعد ذلك رئيساً لأركان الجيش الفرنسي في فرنسا وقاد هذا الجيش في أوائل شهور الحرب العالمية الثانية إلى الهزيمة العامة الشاملة، وناله من الذل والهوان ما ناله. وفيه يقول الشاعر السوري خلال الثورة السورية:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... وليس بسوريا مقر لغملان

وقد تم إخماد الثورة السورية بقيادته، وسفكت دماء السوريين على يديه، فأذاقه الله شراً مما أذاقه للسوريين.

(٢) **الزور**: مكان في الغوطة.

وهذه المعركة كانت مع الدرك السوري لا مع الجند الفرنسي، فقد بوغت الفرنسيون بظهور الثوار في الغوطة ولم يكونوا أعدوا جنداً لمقاومتهم، فأرسلوا حملة من الدرك السوري بقيادة رفيق العظمة لمواجهة الثوار فقامت معركة عرفت باسم معركة الزور الأولى انتصر فيها الثوار بقيادة حسن الخراط.

معركة الزور الثانية

أراد الفرنسيون الانتقام لمعركة الزور والقضاء على عصابة حسن الخراط التي بدأت تتعاظم فأعدوا قطعة من الجيش أرسلوها في ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٥ لحصار حسن الخراط وعصابته (في الزور) والقضاء عليها، مزودة بأقوى الأسلحة وبينها الطائرات، فقامت معركة شديدة فشل فيها الفرنسيون في حصار حسن الخراط.

وكانت نهاية حسن الخراط بعد ذلك الاستشهاد في معارك الغوطة.

ثورة حماه

كان الفرنسيون قد أنشأوا جيشاً من المتطوعة، كان بجنوده وضباطه من السوريين وسموه جيش الشرق. وكان بين ضباط هذا الجيش، فوزي القاوقجي[1] الذي كان معهوداً إليه

---

(١) هو من مدينة طرابلس اللبنانية، تخرج من المدرسة الحربية في اسطنبول برتبة ملازم خيّال عام ١٩١٢. وخلال الحرب العالمية الأولى، خاض أولى المعارك في «كوت العمارة» وجرح. ثم اشترك في معارك الدردنيل، ومنها انتقل إلى معركة بئر السبع في فلسطين وجرح أيضاً. ونال عدة أوسمة من تركيا وألمانيا والنمسا بسبب بلائه في القتال. بعد الحرب التحق بالجيش العربي في دمشق واشترك في معركة ميسلون. ثم انتمى إلى جيش الشرق الذي أنشأه الفرنسيون. ولما قامت الثورة السورية ثار في حماه. وبعد خمود الثورة سافر إلى السعودية. وبقي هناك حتى العام ١٩٣٢ حيث انتقل إلى العراق، والتحق بالكلية العسكرية معلماً فيها. وكانت الحالة على أشدها في فلسطين عام ١٩٣٦، فترك القاوقجي العراق ليقود الثورة المسلحة في فلسطين، طوال ثلاثة أعوام. وحين خمدت نيران الثورة، عاد قائدها إلى بغداد، ليشترك عام ١٩٤١ في حركة رشيد عالي الكيلاني. وقاد معركة «الرطبة» في الصحراء. وبعد فشل الحركة انتقل مع بعض رجاله إلى سوريا فاصطدم بالأنكليز في تدمر، فأصيب من المتفجرات بما يزيد على أربعين إصابة. وكانت فرنسا منهزمة ولجنة ألمانية متمركزة في سوريا، فنقل بطائرة إلى ألمانيا واستمر فاقد الوعي مدة طويلة. وبقي في ألمانيا خلال الحرب وبعدها، فتزوج من مواطنة ألمانية، وعاش معها في القطاع الذي احتله الروس، في حالة فقر مدقع. ثم انتقل إلى سوريا، ولما صدر قرار تقسيم فلسطين تقدم إليها على رأس الجيش الذي سمي (جيش الإنقاذ) وظل يقاتل اليهود هناك إلى أن دخلت الجيوش العربية وكان ما كان.

قيادة موقع حماه. فثار بمن في قيادته من الجند، ولكنه فشل في السيطرة على حماه بسبب تخاذل بعض من كان متفقاً معهم داخل حماه وخارجها. فانطلق بثورته صوب الشمال فهاجم المعرة وتعطلت بذلك المواصلات الحديدية بين حماه والشمال، والطريق البرية بين دير الزور وحلب.

وكان من نتائج ثورة فوزي القاوقجي أن اضطر الجنرال غاملان الذي كان يعد العدة لاكتساح الجبل وكان قد بدأ توغله في المقرن الجنوبي، اضطر لأن يتخلى عن الجبل ويوجه قسماً كبيراً من قواته إلى الشمال، ما فتح الطريق أمام الثوار إلى غوطة دمشق والسيطرة عليها وجعلهم على أبواب دمشق.

وقد عانت حماه ما عانت من ضربها بالمدافع والطائرات واحتراق البيوت وتساقط القتلى.

في الغوطة

أخذ الثوار في السيطرة على الغوطة وقبل أن تتم سيطرتهم التامة، كان الفرنسيون يبعثون بقطعات من الجيش لا يتعدى وصولها مداخل الغوطة، ولإرهاب الدمشقيين قبضوا في أوائل طلعاتهم في العاشر من تشرين الأول ١٩٢٥ على من صادفوه من القرويين المسالمين العزّل وبعض الدمشقيين الذين اتفق وجودهم خارج دمشق وقتلوهم رميا بالرصاص وشدّوا جثثهم على الدواب وادخلوها دمشق وطافوا بها في الشوارع ثم رموها في ساحة المرجة لبضع ساعات. ورداً على ذلك استطاع الثوار قتل بعض الأرمن والشركس المتطوعين في الجيش الفرنسي وبعض الفرنسيين وحملوا جثثهم حتى أبواب دمشق وألقوها هناك.

كما أحرق الفرنسيون ما طالته أيديهم من القرى مثل جرمانا، والمليحة وزبدين، وداريا، ودير مجدل، وجسرين، والبلاط.

ثم ساد الثوار في الغوطة وحالوا بين الفرنسيين والخروج من دمشق، وكلما كان الفرنسيون يحاولون الخروج منها بقطعاتهم العسكرية، كانت هذه القطعات ترتد منهزمة أمام كرّات الثوار.

وكثيراً ما كان الثوار يتغلغلون بمجموعات صغيرة في المدينة فيروعون الفرنسيين ويذعرون عملاءهم ويختطفون بعضهم.

في دمشق

وأخيراً صمم الثوار على اقتحام دمشق وكانوا قد عرفوا أن الجنرال ساراي موجود فيها

وأنه يحل في قصر العظم الواقع في قلب دمشق في البزورية. وفي حين تقدم ما يقرب من ٤٠٠ ثائر بقيادة نسيب البكري لاحتلال المدينة ودخلوها من عدة جوانب وقضوا على جنود المتاريس الفرنسيين في الشاغور والميدان، وانسحب بقية الجند الفرنسي المبعثر في المدينة وأطرافها ملتجأ إلى القلعة أو معتصماً بأبراجها مع الموظفين الفرنسيين ونسائهم، كان (حسن المقبعة) يتقدم من جهة الشاغور مستهدفاً قصر العظم، وأدرك الفرنسيون ما يرمي إليه الثوار، فتمكن (ساراي) من الخروج من القصر، وبقي فيه قطعة من الجند اشتبك معها الثوار في معركة عنيفة استشهد فيها حسن المقبعة.

ولما أيقن الفرنسيون بسيطرة الثوار على معظم أحياء المدينة، وأن دمشق أصبحت في قبضتهم، وأنهم عاجزون عن استردادها في ساحة القتال، عمدوا إلى مدافعهم المنصوبة في تلال (المزة) وفي القلعة فصبوا حممها على أحياء المدينة، وإلى طياراتهم الجوالة في السماء فرموا بنيرانها في كل مكان. وقد استمر ذلك من منتصف يوم الأحد ١٨ تشرين الأول حتى مساء الثلاثاء ٢٠ منه.

وفي هذا المعمعان الناري رميت (دخلة الشرفا) ـ كما ذكرنا من قبل ـ التي فيها منزل السيد محسن الأمين ـ رميت بقنابل الطائرات فأصيب بيت الحاج زاهد بيضون الملاصق لبيت السيد محسن، وقتل ولده يوسف، وأصيب بيت الشيخ علي الجمال القريب منه وقتل ولده صالح. وقيل يومذاك أن المقصود كان بيت السيد محسن نفسه...

فقنابل المدافع انصبت على أحياء بعينها فدمر قسم كبير من حي الميدان وحي الشاغور وحي سيدي عامود. أما الطائرات فكانت تتقصد أماكن محددة متفرقة.

ولما رأى الثوار ما رأوا آثروا الانسحاب إلى البساتين المجاورة لدمشق والمحيطة بها من جهاتها الأربع.

وانطلق وفد دمشقي من المقربين من الفرنسيين إلى الأركان العامة للتوسط في إيقاف النار، فوافقت على ذلك على أن يدفع الدمشقيون غرامة حربية مئة ألف ليرة ذهبية وأن يسلّموا ثلاثة آلاف بندقية مع كل بندقية مئة رصاصة، وأن يتم ذلك خلال أربعة أيام.

وأعلنت الأحكام العرفية بالبلاغ الذي أذيع مساء ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٥ بهذا النص:

١ ـ تعلن الإدارة العرفية في دمشق وسنجقي دمشق وحوران اعتباراً من ظهر يوم الأربعاء الواقع في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٥.

٢ ـ تخول السلطة العسكرية في المناطق التي أعلنت فيها الإدارة العرفية حسب المادة الأولى من صلاحيات القضاء والضابطة التي تقوم بها السلطة الملكية وذلك في الجنايات والجنح التي تقترف ضد سلامة الدولة وسلامة المنطقة وجيوش الدولة المنتدبة والنظام والأمن العام وفقاً لنصوص القرار رقم (٤س) تاريخ ١٠ يناير سنة ١٩٢٥.

٣ ـ تقوم السلطة العسكرية بتطبيق الصلاحيات الملمح إليها بالاتفاق مع حضرة المفوض السامي أو مندوبه.

٤ ـ الواجبات الناجمة عن أحكام هذا القرار أو أحكام القرار رقم (٥س) تتناول جميع الأشخاص الموجودين بأية صفة كانت في المناطق المعلنة فيها الإدارة العرفية.

٥ ـ تثابر الإدارة الملكية على القيام بالصلاحيات التي لم تجرد عنها بموجب هذا القرار.

٦ ـ أمين السر العام والسلطات الملكية والعسكرية من فرنسية وسورية مكلفون كل فيما يختص بتنفيذ أحكام هذا القرار.

ثم عينت السلطة الفرنسية الجنرال (أندريا Anderia) حاكماً عسكرياً على دمشق وجبل الدروز.

ومما يذكر أن تسليم البنادق المطلوب تسليمها كان متعذراً فكان متطوعو الأرمن والشركس في الجيش الفرنسي يسرقون البنادق من مستودعات الجيش ويبيعونها للدمشقيين بأثمان باهظة(١).

وقد بدت الحمية الدمشقية في ذلك الزمن الفاجع على حقيقتها، ففي تلك الظروف القاسية التي تشغل كل إنسان بنفسه عن غيره تنادى الدمشقيون لإعالة المنكوبين المشردين،

---

(١) كافأ الأرمن والشركس البلاد التي استضافتهم بأن تطوعوا لقتالها في ثورتها على الفرنسيين بأعداد كثيرة. وفي ذلك يقول الشاعر القروي إبان الثورة من قصيدة:

زعموا الشآم بحاجة لمجدد ... نعم المجدد مدفع ومسدس
وابن الشآم بحاجة لممدن ... نعم الممدن للشعوب الشركس

ويقول الشاعر الدمشقي أديب التقي:

جنات الشام وغوطتها ... نهب للأرمن والشركس

وبرصاص الشركس قتل أحمد مُرَيْود حين اعتصم مع ثواره بقريته (جُبّاثا الخشب) خلال الثورة، فهاجمتهم جماعة الشركس بقيادة قائدها الفرنسي.

فألف جماعة منهم جميعة منهم باسم (جميعة إغاثة منكوبي الثورة)، ويقول لطفي الحفار في مذكراته: كانت تلك الجمعية تقوم بإطعام وإكساء ثمانية آلاف نفس ما بين عاجز وامرأة وطفل، وبإيواء المشردين منهم في المدارس والمؤسسات المتاحة.

ويقول: وقد وجدت تجاوباً عظيماً من الميسورين وحتى من متوسطي الحال[١].

وقد وصف مراسل جريدة التيمس اللندنية ما جرى قائلاً:

«. . . إن الانكسارات التي أصيب بها الفرنسيون والمقاومة التي لاقوها في جبل الدروز قد أحدثت اضطراباً عاماً فانتشر الثائرون خارج دمشق وانصرف الجيش إلى معالجة القرى التي اشتبهوا بأنها تلجيء رجال العصابات ومنذ أسبوعين أحرق الفرنسيون قرى عديدة في الجنوب الشرقي من دمشق وجلبوا أربعة وعشرين جثة وطافوا بها على ظهور الجمال في شوارع دمشق الرئيسية وعرضوها في ساحة المرجة، وكانوا يقصدون من هذا الذي يثير كوامن الصدور أن يحذروا العناصر المقلقة ولكنه أفضى إلى تأثير يعاكس التأثير المقصود منه على خط مستقيم فقد هاج غضب الجمهور وسخطه ومما زاد الطين بلة أن كثيرين من القتلى الذين عرضت جثثهم هم من أهالي دمشق. وبعد ثلاثة أيام من هذا العمل وجدت خارج باب شرقي ١٢ جثة من جثث الشراكسة الذين يستخدم الفرنسيون الكثيرين منهم في القتال جنوداً غير نظاميين فهذا الجواب على عمل الفرنسيين يدل على الروح السائد بين الذين أراد الفرنسيون أن يرهبوهم. وفي ليل ١٧ أكتوبر هوجم جنود من الفرنسيين وقتلوا في أحد الأحياء المتطرفة وبعد قليل أطلقت النار على عدد آخر من الجنود وفي صباح اليوم التالي ظهر في حي الشاغور ستون ثائراً وبعد قليل ظهرت عصابة من دروز جرمانا في حي الميدان وذهبت العصابات إلى الأسواق في وسط المدينة وشجعها على ذلك أناس من أحياء أخرى هاجموا الشرطة وجردوهم من سلاحهم وجعلوا يطلقون بنادقهم في الفضاء فبثوا الذعر والرعب ولم يكن أحد يعرف في الحقيقة ما كان يجري وكان عدم الوقوف على حقيقة الحال سبباً في ازدياد القلق ويظهر أن الفرنسيين كانوا يعتقدون من قبل أن الجمهور يوشك أن يقوم بحركة مهمة وأن القوات التي تعمل ضدهم أكبر مما هي في الحقيقة على أن الذين راقبوا الحال مراقبة دقيقة يرون أن عدد المغيرين لم يزد على خمسمئة.

وفي ظهر اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر أرسل الفرنسيون الدبابات فجعلت تخترق

(١) لطفي الحفار ـ مذكراته، حياته وعصره ص١٤١.

الأسواق بسرعة هائلة وتصب نيرانها ذات اليمين وذات اليسار. وفي الساعة السادسة مساء بدأ الفرنسيون بضرب المدينة العريقة في القدم. إلى آخر ما قال. . .

تقرير الجنرال غاملان

إذا كان الجنرال ساراي هو المسؤول الأول عن مسار الأمور فإن الجنرال غاملان، هو شريكه في المسؤولية الكاملة. وقد كان عليه أن يقدم تقريراً مكتوباً لمراجعه في باريس فأرسل إلى وزارة الحربية الفرنسية في ٣٠ تشرين الثاني التقرير التالي:

ثارت الاضطرابات في دمشق يوم الأحد في ١٨ تشرين الأول فأحدثت أزمة شديدة دامت ٤٨ ساعة. وقد دلت العمليات على أن هذه الاضطرابات قد ثارت بدافع خارجي من جهة وبدافع بعض العناصر الدمشقية التي تغتنم كل فرصة للمشاغبة على السلطة من جهة أخرى.

فقد دخلت بعض العصابات المسلحة الأحياء والأسواق وخاصة الشاغور والميدان فتبعهم قسم من الغوغاء في هذه الأحياء بقصد السلب والسرقة ولولا حزم السلطة لكانت الحالة خطيرة. وقد أطلقت القلاع مدافعها على الأحياء الثائرة واشتركت الطائرات في هذه العملية فأرغم هذا التدبير طائفة من الوجهاء على مراجعة السلطة والموافقة على الشروط المفروضة. ومنذ ذلك التاريخ ازداد عدد العصابات في ضواحي دمشق وحماه، وكان الثائرون في القرى الدرزية: (المليحة وجرمانا وجسرين) يلقون كل مساعدة وقد اضطر القائد العامل في هذه الظروف أن يحشد قسماً من الجيش في دمشق لملاحقة الثائرين في ضواحيها فوصلت إلى دمشق في ١٥ تشرين الأول الفرقة الثانية وكتيبة من الشراكسة وفي ١٥ منه وصلت فرقة من الكتيبة السادسة ثم وصلت في ١٦ منه فرقة أخرى من الكتيبة السادسة وكتيبة من السباهيين وكانت هذه النجدات كلها بمثابة فرق محافظة في بادىء الأمر ثم أصبحت بعد أمد قريب مكلفة بمقاومة الثائرين وتوطيد الأمن في دمشق وضواحيها.

وفي ١٣ منه أرسلت قوة من الجيش إلى جسرين حيث يقيم بعض الثائرين فتوفقت إلى القبض على ١٠٦ منهم وعادت بأربعة وعشرين جثة. أما خسائرنا فقد كانت طفيفة وأعيدت الحملة في ١٤ منه فأحرق الجيش قرية المليحة بعد أن ثبت ثبوتاً لا يحتمل الشك اشتراكها من الثائرين في معظم أعمالهم.

وقد طلب إلى قرية جرمانا أن تسلم بنادقها فلم تفعل فاضطررنا إلى إحراقها في ١٥ وفي ١٧ منه أرسلت فرقة ١١ ـ ٢١ إلى دوما باكراً وزارت قرى سقبا وجسرين وسواهما بينما

كانت كتائب الشركس تحتل جرمانا وتقاتل بعض الذين أقدموا على احتلالها وقامت الثورة في دمشق في ١٨ منه بهجوم على قصر العظم وأطرافه كان القصد منه كما تبين الوصول إلى المفوض السامي وقد استمرت ٤٨ ساعة. وقد وضع تحت تصرف نسيب البكري ورمضان شلاش منذ أمد غير قريب عدد لا بأس به من العصابات كان من الصعب ملاحقتها والقضاء عليها بالرغم من كل التدابير ثم بدأت منذ ذلك الحين الاعتداءات على رجال الجيش المنفردين وقد ثبت الآن أن تلك العصابات كانت تدخل دمشق من جهة الشاغور والميدان بمساعدة بعض الأهالي الذين يشاركونها في أعمالها وكانت تهاجم الجند المنفرد في الأحياء والأسواق وفي ١٨ منه وصل المفوض السامي قادماً من بيروت وذهب تواً إلى أزرع ودرعا يزور مراكز الجيش وبرفقته الجنرال غاملان فكان الثائرون يحاولون بشتى الوسائل الوصول إليه وقد تأكد لنا إذ ذاك أن كميناً هيء في القدم لمهاجمة القطار الذي يقل المفوض السامي من درعا إلى دمشق وبناء على أوامر المسيو أربوار في اتخاذ كل تدبير يؤدي إلى إنهاء الثورة ساد الهدوء في المدينة بأقل من أربع وعشرين ساعة وقد اضطررنا في هذه الظروف لاستعمال المدفعية لأن هؤلاء الذين يطلقون رصاصهم علينا من النوافذ والأسطحة لا يمكن الوصول إليهم بغير هذه الوسيلة فأطلقت مدافع القلعة قنابلها على جوار قصر العظم وألقت الطائرات قذائفها على الشاغور أما حامية قصر العظم فقد أحاطت بها النيران من كل حدب وصوب وانقطعت عنا أخبارها وقد أنذرنا العائلات الأوروبية بالالتجاء إلى المراكز العسكرية قبل إطلاق القنابل ولم يكف الثائرون رغم كل هذه الإنذارات عن إطلاق رصاصهم في سوق الحميدية ومدحت باشا والشاغور والميدان والعمارة فاضطررنا لإعطاء الأوامر للقلعة بمتابعة إلقاء القنابل على جوار قصر العظم وعلى الشاغور والميدان وأشرنا على قائد المدفعية بأن يجعل القنابل شبيهة بقنابل التجارب شديدة الصوت قليلة الأذى لإلقاء الرعب في نفوس السكان ويظهر أن متابعة إلقاء القنابل قد هدأت الحالة كثيراً وأوصلتنا إلى النتائج المطلوبة ففي الساعة الثامنة صباحاً جاء وفد إلى مركز القيادة العليا وعلى رأسه الأمير سعيد حفيد الأمير عبد القادر ثم جاء وفد آخر على رأسه حقي العظم وطلبا إيقاف إطلاق القنابل فعقد اجتماع برئاسة مندوب المفوض وافق فيه مندوبو دمشق على دفع غرامة قدرها مئة ألف ليرة تركية ذهباً وتسليم ثلاثة آلاف بندقية وقد اشترطنا عليهم أن يتم تسليم هذه الغرامة صباح السبت في ٢٤ منه وإلا عدنا إلى إطلاق القنابل وقد دفعت الغرامة في الوقت المعين ولم يتمكن المندوبون من جمع البنادق في الوقت المحدد فتدخلت دائرة الاستخبارات في الأمر وأخذت تبحث عن البنادق وتفتش الدور ومنذ ذلك الحين ودمشق هادئة وقد عاد التجار إلى فتح حوانيتهم بعد

تردد طويل وقد أصيبت بعض الأحياء بالخسائر وكان القسم الأكبر منها من جراء النيران التي أضرمها الثوار والسالبون أما الطيارات والمدافع والمصفحات فليست مسؤولة إلا عن قسم ضئيل من هذه الخسائر وقد عنيت القيادة العامة بأن لا تعمد إليها إلا عند الحاجة الماسة وتمكنت مع هذا من أن تصل إلى النتيجة المطلوبة في حصر الحركة بأقل النفقات والخسائر والحيلولة دون تحرك الأفاعي الدمشقية الحقيقية (انتهى).

من تقرير ساراي إلى وزارة الخارجية

«فأنا أعترف بخطأي لقد تركت في المراكز الهامة وفي الجيش موظفين وضباطاً يكرهونني كل الكره ويحاولون الإيقاع بي ولقد كنت أعرف ذلك ولكني لم أتخذ في حقهم أي تدبير ظناً مني أن هؤلاء إذا كانوا يكرهونني فإنهم لا يكرهون فرنسا وقد كنت مخطئاً في هذا الظن وأنا لا أتهم دون أن أذكر الأسماء فإني مضطر في مثل هذه الظروف للتصريح بتلك الأسماء وها أنا أذكر هؤلاء واحداً بعد آخر: إن الخطأ الذي ارتكبته في سورية هو إبقائي على بعض الموظفين الذين يكرهونني ويسعون للإيقاع بي وأول هؤلاء المسيو غوتيه المندوب المساعد في دمشق ورئيس الغرفة السياسية في المندوبية فقد كان هذا الموظف رئيس جماعة تعمل على مخالفة تعليماتي في الجبل وتأييد سياسة الكابتين رينو وهي سياسة التعاون مع عائلة الأطرش التي يرغب رجالها في الوصول إلى الحكم ذلك الكابتن الذي أثار الشغب في دمشق وحاول مفاوضة الدروز الثائرين لتوطيد السلام بأي ثمن ولو قضى هذا السلام على مركز فرنسا ومكانتها ولقد أشرت إليكم في تقرير سابق أن السبب الأساسي في اضطرام نيران الثورة الدرزية كان عبارة عن خلاف بين ضباط الاستخبارات فقد كان أحدهما يريد مركز الآخر وهو الكابتن رينو نفسه وكان يرغب في الوصول إلى أغراضه بالتقرب من عائلة الأطرش وكان كاربييه يبعدها عنه ولقد كان في عمل هذا الضابط بالنسبة لنفسه على الأقل شيء من المنطق فهو يريد مركز الآخر والوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا المركز هو أن يبدل سياسة هذا الموظف الآخر ومن هنا نشبت الثورة على أن من يظن أن الدروز وخاصة عائلة الأطرش سيعمدون إلى الهدوء والسكينة إذا عين الكابتن رينو حاكماً في الجبل لا يعرف الدروز ولا يعرف أحوالهم فلو عين الكابتن رينو حاكماً لوجد الدروز حجة أخرى لإثارة الثورة».

عزل ساراي

وفي ٨ تشرين الثاني كان ساراي يركب البحر عائداً إلى فرنسا بعد أن تبلغ نبأ استدعائه إليها.

الفصل الواحد والعشرون

الشعر في المعركة

قصيدة شوقي في نكبة دمشق

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي ... جلال الرزء عن وصف يدق
وذكرى عن خواطرها لقلبي ... إليك تلفت أبداً وخفق
وبي مما رمتك به الليالي ... جراحات لها في القلب عمق
دخلتك والأصيل له ائتلاق ... ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جناحك الأنهار تجري ... وملء رباك أوراق وورق
وحولي فتية غرّ صباح ... لهم في الفضل غايات وسبق
على لهواتهم شعراء لُسن ... وفي أعطافهم خطباء شدق
رواة قصائدي فاعجب لشعر ... بكل محلة يرويه خلق
غمزت إباءهم حتى تلظت ... أنوف الأسد واضطرم المدق

* * *

لحاها الله أنباء توالت ... على سمع الولي بما يشق
يفصلها إلى الدنيا بريد ... ويجملها إلى الآفاق برق
تكاد لروعة الأحداث فيها ... تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل معالم التاريخ دكت ... وقيل أصابها تلف وحرق
ألست دمشق للإسلام ظئراً ... ومرضعة الأبوة لا تعق

وكل حضارة في الأرض طالت ... لها من سرحك العلوي عرق
سماؤك من حلى الماضي كتاب ... وأرضك من حلى التاريخ رق
رباع الخلد ويحك ما دهاها ... أحق أنها درست أحق
وهل غرف الجنان منضدات ... وهل لنعيمهن كأمس نسق
وأين دمى المقاصر من حجال ... مهتكة وأستار تشق
برزن وفي نواحي الأيك نار ... وخلف الأيك أفراخ تزق
إذا رمن السلامة من طريق ... أتت من دونه للموت طرق
بليل للقذائف والمنايا ... وراء سمائه خطف وصعق
إذا عصف الحديد أحمر أفق ... على جنباته واسود أفق
سلي من راع غيدك بعد وهن ... أبين فؤاده والصخر فرق
وللمستعمرين وإن ألانوا ... قلوب كالحجارة لا ترق
رماك بطيشه ورمى فرنسا ... أخو حرب به صلف وحمق
إذا ما جاءه طلاب حق ... يقول عصابة خرجوا وشقوا
دم الثوار تعرفه فرنسا ... وتعلم أنه نور وحق
جرى في أرضها فيه حياة ... كمنهل السماء وفيه رزق
بلاد مات فتيتها لتحيى ... وزالوا دون قومهم ليبقوا
وحررت الشعوب على قناها ... فكيف على قناها تسترق
بني سورية اطرحوا الأماني ... وألقوا عنكم الأحلام ألقوا
فمن خدع السياسة أن تغروا ... بألقاب الإمارة وهي رق
وكم صيد بدا لك من ذليل ... كما مالت من المصلوب عنق
نصحت ونحن مختلفون داراً ... ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد ... بيان غير مختلف ونطق
وقفتم بين موت أو حياة ... فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان في دم كل حر ... يد سلفت ودين مستحق
ومن يسقي ويشرب بالمنايا ... إذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا

ولا يبني الممالك كالضحايا ... ولا يدني الحقوق ولا يحق
ففي القتلى لأجيال حياة ... وفي الأسرى فدى لهم وعتق
وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرحة يدق
جزاكم ذو الجلال بني دمشق ... وعز الشرق أوله دمشق
نصرتم يوم محنته أخاكم ... وكل أخ بنصر أخيه حق
وما كان الدروز قبيل شر ... وإن أُخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف ... كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل اشم له شعاف ... موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبوءة ولكل شبل ... نضال دون غايته ورشق
كأن من السموأل فيه شيئاً ... فكل جهاته شرف وخلق

قصيدة الشاعر الدمشقي خليل مردم:

أمده الدمع حتى غاض جائده ... فمن بأدمع عينيه يرافده
الروح والدم والأحداق ودّ لها ... لو تستحيل إلى دمع يناجده
مشرد النوم ما قرت مضاجعه ... وهل تقر بموتور وسائده
باتت دمشق على طوفان من لهب ... يا دين قلبي من خطب تكابده
موج من النار لا تهدا زواخره ... يمده آخر ما ارتد وافده
ترى القباب بها غرقى فتحسبها ... سفناً تهادى ببحر ثار راعده
في ذمة الله والتاريخ ما لقيت ... وفي سبيل الأماني ما تصامده
أمسى الذي كان في جناتها فرحاً ... بمارج من سعير فار واقده
النار من فوقه والنار دائرة ... به فإن فرّ أردته رواصده
في كل زاوية رام ومن نفروا ... شيباً وحوراً وأطفالاً طرائده
قف في الخرائب وابك المجد معتبطاً ... فإنها يا لأحزاني مراقده
الذكريات من التاريخ قد درست ... وطارف المجد موؤود وتالده
يا آسي الجرح بادر ضمد سائله ... إذا تريثت لم تنجع ضمائده
إن الذين تولوا كبر نكبتها ... أخطاهم من صحيح الرأي راشده

لو يفعل الله ـ جل الله ـ ما فعلوا بأهل جلق لم يعبده عابده

* * *

بلت دمشق بنيها يوم محنتها فلم تجد غير من صحت عقائده
بقية السيف والنيران إن لكم شأناً تراءت على قرب شواهده
لكم وإن مسكم قرح وطول أذى من طيب الذكر بعد اليوم خالده
لله يومكم يوماً فإن له ما بعده وإن اشتدت شدائده
لله معقلكم من معقل أشب على الوئام لقد شيدت قواعده
عالي البروج تعالى فوقه علم الحق رافعه والحق عاقده

* * *

فتى دمشق اصطبر للخطب تجبهه إن العروبة جيش أنت قائده
لا عذر في اليأس مما كان ممتنعاً إذا تقصيت أمراً أنت واجده
أما دمشق فلا ترجو لنجدتها سوى فتاها الذي شاعت محامده
فلوعة الثكل تدعوه لينصرها وبالجراح التي تدمى تناشده

وقال الشاعر العاملي الشيخ سليمان ظاهر من قصيدة:

في الشام قوم أضاق الدهر آمنهم ورروعتهم أفانين السياسات
بالأمس كانوا وظل العيش منبسط منعمين بغدوات وروحات
يجري لهم بردى خفضاً وينزلهم من غوطتيه بروضات وجنات
وآمنات عوادي الدهر غافلة مد الزمان إليها كف روعات
ترى مقاصيرها من بعد منعتها يدكها القذف من جو السماوات
كأنما النار فيها وهي ساطعة وللدخان دخان بالردى شات
من صدرها حر أنفاس تدفعها من قلبها زفرات أثر أنات
وصرحها مثلها هاو ومنهدم على جسوم تفدى بالحشاشات
أخرجن صفر أكف غير مالكة إلا بقية أنفاس ولوعات

وقال الشاعر الدمشقي خير الدين الزركلي ـ وقد كان مهاجراً في مصر ـ من قصيدة:

الأهل أهلي والديار دياري وشعار وادي النيربين شعاري

ما كان من ألم بجلق نازل ... واري الزناد فزنده بي واري
إن الدم المهراق في جنباتها ... لدمي وإن شفارها لشفاري
دمعي لما منيت به جار هنا ... ودمي هناك على ثراها جاري

* * *

يا وامض البرق اطمئن وناجني ... إن كنت مطلعاً على الأسرار
ما ذاك هناك فإن صوتاً راعني ... والصوت فيه جفوة الإذعار
النار محدقة بجلق بعدما ... تركت (حماة) على شفير هار
تنساب في الأحياء مسرعة الخطى ... تأتي على الأطمار والأعمار
والقوم منغمسون في حمآتها ... فتكاً بكل مبرأ صبار
الطفل في يد أمه غرض الأذى ... يرمى وما للطفل من أوزار
والشيخ متكأ على عكازه ... يرمى وليس بخائض لغمار
صبرت دمشق على الثكال لياليا ... حرم الرقاد بها على الأشفار
لهفي على المتخلفين برحبها ... كيف القرار ولات حين قرار
يترقبون الموت في غدواتهم ... فإذا نجوا فالموت في الأسحار
أمجالس السمار ضاحكة بهم ... ضحك الهوى ما حلّ بالسمار
أم القصور نواعم رباتها ... ما للقصور دوائر الآثار
أم الجنان الكاسيات رياضها ... حلل الثنا ما للرياض عواري
ويح الحضارة كيف يمتهن اسمها ... متكالبون على الضعاف ضواري
هم أوردوك وأصدروك على صدى ... فشقيت في الإيراد والإصدار
طارت بألباب الفرنجة صيحة ... في الشام فاندفعوا إلى الأسوار
عموا بمضطرم القذائف كل ذي ... ضعف وخصوا كل ذات أزار
ستروا بضرب الآمنين فرارهم ... فاعجب لعار ستّروه بعار
الوابل المدرار من حمم اللظى ... متواصل كالوابل المدرار
والظلم منطلق اليدين محكم ... يا ليت كل الخطب خطب النار

وتقدمت أبيات من قصيدة الشاعر الدمشقي أديب التقي.

الفصل الثاني والعشرون

الثـورة إلى لبـنان

بعد أن حققت الثورة ما حققته من الاطمئنان إلى وضعها في الجبل وتركزها في الغوطة تقرر التقدم بها في خطوات أبعد. وكان أقرب مكان إليها هي الجهة المعروفة بإقليم البلان التي يكثر فيها الدروز. فالمنطقة الممتدة غربي دمشق الجنوبي المؤلفة يومذاك من قضاء وادي العجم وقاعدته قطنا، وقضاء القنيطرة وفيه الجولان وما يتبع القضاء من سفوح جبل الشيخ الشرقية. إن سكان السهل من هذه المنطقة هم من السنيين والنصارى والأعراب (المعروفين بعرب الفضل) والشركس، وما بقي من ذلك فسكانه جميعاً من الدروز.

إلى هذه المنطقة تقرر مد الثورة، وكان قد وفد إلى الجبل بعض دروزها يطالبون بإنجادهم لإشعال الثورة. فتألفت بقيادة زيد الأطرش شقيق سلطان حملة انضم إليها عدد من الدمشقيين والقائد العسكري فؤاد سليم الذي مر الحديث عنه في حاشية الفصل المعنون (الثورة السورية الكبرى).

وفي نهاية تشرين الأول سنة ١٩٢٥ تم إعداد الحملة فتوجهت إلى الغرب واصلة إلى بلدة (مجدل شمس) دون أن يعيقها أي عائق. وفي ٨ تشرين الثاني دخلت بلدة حاصبيا دون أن تلقى أية مقاومة بعد أن استسلمت حاميتها ولم تقاتل فأرسلها شيخ حاصبيا حسين قيس إلى جديدة مرجعيون بأمان. وبدخول الحملة حاصبيا تكون الثورة قد قامت في لبنان.

وللتدليل على حسن تعامل الثائرين مع الأهلين ننشر هنا بعض ما قالته الصحف الصادرة يومذاك، فمراسل جريدة المقطم القاهرية قال: «لم يتعرض الثائرون للأهلين بشيء ما، بل قاموا تجاههم بكل عطف وإنصاف».

وقالت جريدة (ألف باء) الدمشقية بعددها الصادر في ١٢ تشرين الثاني: «إن عصابة زيد الأطرش احتلت حاصبيا وهي تقدر بألف ثائر ولم تمس المسيحيين بسوء».

وقالت جريدة (الأحرار) البيروتية في عددها الصادر في التاريخ نفسه: «إن الثوار لم يتعرضوا للأهلين بل احتلوا دوائر الحكومة وانتشروا في المدينة وقراها».

وقالت جريدة الصحافي التائه: «يجب الاعتراف للثائرين أنهم يسيرون بطرق منظمة وأنهم بحاصبيا أظهروا كل عطف على المسيحيين، وكانوا يسمحون للنساء والأطفال بالسفر ولم يتعرضوا لأحد مطلقاً بسوء وجل ما فعلوه أنهم أعلنوا حكومة سورية مستقلة وصرح زعماؤهم أنه لا مأرب لهم مع الأهالي وأن مأربهم مع الفرنسيين».

على أن السلطة أرادت التشويه فقالت في بيانها: «ارتكب عصاة يقيمون في حاصبيا أعمال نهب وسلب في تلك المقاطعة دون أن يشرعوا في أقل عمل عسكري».

وعندما تقدم الثوار خارجين من حاصبيا إلى جديدة مرجعيون كان طريقهم يمر على بلدة (كوكبا)، فوصلت طلائعهم إليها في ١١ تشرين الثاني بقيادة حمزة الدرويش فدعاهم كاهن البلدة وبعض رجالها إلى دخول البلدة لتناول الطعام إظهاراً لحسن النية وتجنباً لكل سوء، فاستجابوا له لنفس الغاية. فلم يرق هذا التصافي والتواد لبعض عملاء الفرنسيين فقرروا تكديره وقلبه على عكس ما أريد له، فرابطوا في مداخل البلدة مطلقين الرصاص على القادمين فقتلوا ثلاثة منهم. فصاح حمزة الدرويش: ما جئنا لقتالكم، وسنغضي عن دماء القتلى الثلاثة ونعتبرهم فدية للوفاق.

فلم يُستجب له وتوالى إطلاق الرصاص، فعند ذلك اضطر الثوار لاقتحام البلدة وسقطت الضحايا واحترقت البيوت وتهجر السكان فاتخذ الفرنسيون ومن إليهم ذلك ذريعة لتشويه صورة الثورة والثائرين وصوروا الأمر اعتداء طائفياً واستُغل أسوأ استغلال.

وكنت يومذاك في بلدة (شقرا) في جبل عامل ووصلتنا صحف أبواق الاستعمار، وفيها أبيات شعر لمتفرنس يذكي فيها الفتنة الطائفية ويباهي بمن اعترضوا الثوار. وكنت أستظهر الأبيات ثم أنسيتها ولم يبق في ذهني منها وأنا أكتب هذا الكلام في الثاني من كانون الثاني سنة ١٩٩٨ سوى بيتها الختامي وهو:

أوشـئـت تـشـهـد مـعـقـل الأ   بـطـال فـاقـصـد كـوكـبـا

فرددت على الأبيات بأبيات باهيت فيها ببلدة مجدل شمس وثوارها الذين كانوا يؤلفون حيزاً كبيراً في مجموع الثوار فقلت:

إن شئت تظفر بالألى — بذلوا النفوس وما غلا
من كل أروع باسل — متن الفخار قد اعتلى
يحمي بصفحته إذا — حمي الوطيس المعقلا
يرد الوغى وشعاره — إما الممات أو العلا
أو شئت تشهد معقل الأبـ — ـطال فانح (المجدلا)

وقد وصل صدى ما حدث إلى المهاجر الأمريكية فاختلف التأثر به باختلاف النوازع، وعلّق عليه المعلقون كل بحسب ميوله. فمن ذلك ما كان من الشاعر المسيحي الكاثوليكي اللبناني الياس فرحات حيث قال من قصيدة:

ورب مولول ذبحوا النصارى — وما حفظوا الذمام ولا الجوارا
فقلت له وقد ملت ازورارا — إذا كانوا نظيرك لا خسارا
لأنك خنت موطنك المفدّى

ثم تابع الثوار سيرهم إلى جديدة مرجعيون، ومع أن الفرنسيين جلوا عنها كما فعلوا في حاصبيا، فإن ضابطاً في ما كان يسمى بالقناصة اللبنانية، وهم لبنانيون مرتزقة يتجندون عند الفرنسيين بقيادة ضباط لبنانيين ـ إن ضابطاً في القناصة اللبنانية أبى إلا أن يقاتل الثوار عند مداخل جديدة مرجعيون، ولم يلبث أن هزم بعدما تسبب بإحراق عدة بيوت في الجديدة.

وكان الناس يحسبون أن الثوار سيتقدمون إلى جبل عامل لأن النبطية مفتوحة أمامهم، بل إن الطريق إلى صيدا كان ممهداً لدخولهم إليها، فلا قوى تقاتلهم حتى بيروت.

على أن القوى العسكرية التي كان قد طلبها ساراي لإخماد الثورة كانت قد بدأت بالوصول إلى بيروت وأخذت تتأهب للزحف إلى مناطق الثورة.

والثوار عوضاً عن أن يتوغلوا في جبل عامل اتجهوا إلى (راشيا)، فتحصنت القوة الفرنسية في قلعتها، فحاول الثوار اقتحام القلعة صاعدين على السلالم التي أحضروها فكثرت فيهم القتلى وأبدوا من ضروب البطولة ما لا مثيل له. وبعد محاولات استطاع فريق منهم دخول القلعة فدارت معارك في داخلها، وقد كان سقوطها وشيكاً لولا أن الطائرات الفرنسية ألقت إلى داخل القلعة رسائل بتوقيع الجنرال غاملان تحض المدافعين عنها على الصمود لأن النجدات في طريقها إليهم. وبالفعل بدأت طلائع النجدات بالوصول والتمركز، وبدأت المدفعية تصب قنابلها على الثوار خارج القلعة. وأدرك الثوار أنه سيحاط بهم فانكفؤوا منسحبين، عائدين إلى حاصبيا.

وقد كان هذا الانكفاء بداية الانكفاء التدريجي للثورة، فانسحب الثوار من جديدة مرجعيون إلى حاصبيا. وتعتبر معركة قلعة راشيا من أعنف معارك الثورة وأشدها، كما أنها من أبعدها أثراً في مصير الثورة.

ويمكن القول أن حملة زيد الأطرش قد تفككت واختفى اسمه نهائياً من الأحداث، ثم تبين أنه قد عاد إلى الجبل. أما عن اختيار الثوار الزحف إلى راشيا وترك جبل عامل، مع أن التوقعات كلها كانت توحي بأن خطوتهم الثانية بعد جديدة مرجعيون كانت (النبطية)، وبذلك يتقدمون من أرض عاملية هي (جديدة مرجعيون) إلى أرض عاملية أخرى هي (النبطية). ـ أما عن ذلك فإن بعض ما فُسّر به هذا التصرف هو التالي:

إن خطتهم الرئيسية هي قطع طريق بيروت ـ دمشق، وهاجموا قلعة راشيا لتأمين طريق زحفهم ولمنع تعديات حاميتها على دروز راشيا.

ذكر ذلك الدكتور حسن أمين البعيني في كتابه: (دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي) (ص١٧١).

ثم نسب القول في حاشية الصفحة ١٧٢ إلى زيد الأطرش في حديث مسجل له. بعد أن قال المؤلف في المتن: «أحدث انتقال الثورة إلى لبنان تطوراً مهماً في مسارها، وكان له أبعاد عسكرية وسياسية. وتتلخص الأولى في أن قادة الثورة استهدفوا إشغال الفرنسيين في الجنوب اللبناني والبقاع كما في سورية، وقطع طريق بيروت ـ دمشق لمنع وصول النجدات إليهم، فالتغلب عليهم في جزء استراتيجي من لبنان يسهل التغلب عليهم في سورية».

على أنه يعود فيلحق بقوله هذا قولاً آخر هو: «واستهدف بعض القادة نتيجة لانتصارات الثورة الأولية في الجنوب اللبناني، الوصول إلى جبل عامل وجبل لبنان تمهيداً لنشوب الثورة فيهما وإمداد الثورة بآلاف المقاتلين وتهديد بيروت وصيدا» ويعلق في الحاشية على هذا القول، قائلاً: «من المعولين على الخطة المذكورة أعلاه لنجاح الثورة، فؤاد سليم. انظر محمد سعيد العاص (صفحة من الأيام الحمراء) ص٢٠٩ ـ ٢١٠ (انتهى).

وعلى هذا فإنه يمكن القول بأن تخطيط فؤاد سليم الذي كان القائد العسكري للحملة، هو الاستيلاء على قلعة راشيا أولاً، ثم التحول إلى جبل عامل، وإلى جبل لبنان وإثارة الألوف فيهما ما يؤدي إلى تهديد صيدا وبيروت نفسها بعد أن يصبحوا على أطرافها.

ولكن انكفاء راشيا قضى على هذا الطموح الثوري البعيد، وقضى فيما قضى بعد ذلك

على فؤاد سليم نفسه في الزحف الفرنسي على مجدل شمس، كما أشرنا إليه فيما تقدم من القول.

رحم الله الشهيد البطل فؤاد سليم الذي بدأ الكفاح الاستقلالي أول ما بدأه مقاتلاً في جيش الثورة العربية الأولى بقيادة فيصل بن الحسين، ثم ختمه شهيداً في بطاح مجدل شمس. وكان الشاعر الزركلي صادقاً حين قال فيما قال في رثائه من قصيدة مر بعض أبياتها:

آليت ميتة حر ومت تحمل بندك

وقال أيضاً في رثائه:

سَنْ ذلك المُزجي المَطِيةَ خائضاً ... لُجَجَ السَّباسب قد علاه قَتامُ
أَلقى على (النيلِ) السَّلام مودّعا ... وبهِ إلى وِزد الدماءِ أُوامُ[1]
أَمضى على لُقْيا المَنيةِ عَزمهُ ... وَمَضى فلم يُنقض له إِبرامُ
ما انقضَّ في كَبِد الجُموع مُرَوِّياً ... صَمْصامه حتى انتشى الصمصامُ
بَهر العُداةَ صِيالُه فتفرقوا ... عنه، وَلَمَّهُمُ النفيرُ فحاموا
لم يقتلوهُ ولم تُمزِّقْ صَدْرَه ... حُمَمُ اللَّظى لو لم يَرُمْ ما راموا
آلى (فؤادُ) أن يموت مُكافحاً ... بين الصُفوف وَبَرَّت الأَقسامُ

الموقف في لبنان

في الوقت الذي كانت فيه الثورة تتمدد في الأرجاء السورية ثم تصل إلى أطراف لبنان، كان السياسيون اللبنانيون يرون في ذلك رسيلة لتملق الفرنسيين والازدياد في الحظوة لديهم. فاجتمع المجلس التمثيلي اللبناني في أول كانون الأول سنة ١٩٢٥ وأصدر قراراً باقتراح النائب شبل دموس. خالفه كل من النواب: فؤاد أرسلان وعمر بيهم وعمر الداعوق وجميل تلحوق.

وهذا نص القرار:

لما كانت حوادث العصيان التي ابتدأت في جبل حوران قد تطاير شررها إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من لبنان فتناولت حاصبيا وراشيا وما يتبعهما من القرى المجاورة فألحقت بالبلاد ضرراً فادحاً بالأموال والأرواح. ولما كانت هذه الحوادث في قرانا التي على الحدود غير مستندة إلى مبدأ يبررها.

(١) ذكر النيل لأن الشهيد انطلق من مصر ملتحقاً بالثورة.

ولما كانت حكومة لبنان المحلية غير مجهزة بجيش نظامي يرد غزوات الطامعين، وكانت على ثقة تامة من حماية الدولة المنتدبة للبلاد عند الحاجة قياماً بعهدها الذي قطعته مع جميعة الأمم.

ولما كانت قوة الجندرمة المحلية على قلة عددها قد قامت بواجبها أثناء مهاجمة الحدود. ولما كان لبنان بانفصاله سياسياً عن جارته سوريا وجبل الدروز يرغب في عزلته وحياده التامين، ويعتبر تصدي الخوراج لمهاجمة أطرافه تعدياً على استقلاله وافتئاتاً محضاً على حريته ومصالحه فإن هذا المجلس يقرر ما يلي:

١ - إن هذا المجلس يعتبر هجوم الثوار على حاصبيا ومرجعيون وراشيا تعدياً على استقلال لبنان وحرية سكانه.

٢ - يرفع هذا المجلس شكره بالنيابة عن البلاد إلى الدولة المنتدبة الكريمة لما قامت به حتى الساعة من التضحيات بالأرواح والأموال للذود عن حياض لبنان والعمل على سلامة سكانه وضمان استقلاله.

٣ - يقدر مفاداة الجندرمة اللبنانية حق قدرها ويثني على ثباتها وشجاعتها.

٤ - يؤكد هذا المجلس للدولة المنتدبة بقاء البلاد على ولائها لها وسحبتها التقليدية غير المتزعزعة.

٥ - يطلب هذا المجلس من دولة الحاكم إبلاغ الدولة المنتدبة هذا القرار بالصورة الرسمية (انتهى).

والسياسيون اللبنانيون الذين أصدروا هذا القرار هم أخلاف السياسيين اللبنانيين الذين بدأوا بالبروز منذ الاحتلال الفرنسي للبنان سنة ١٩١٨ وهم أسلاف السياسيين اللبنانيين الذين تلوهم منذ سنة ١٩٢٥ حتى هذه السنة التي نكتب فيها هذا الكلام سنة ١٩٩٨...

السياسيون اللبنانيون هم هم منذ ذلك التاريخ حتى هذا التاريخ، وسيظلون هم هم إلى ما لا يعلمه إلا الله من تاريخ!...

إلا من عصم ربك من أمثال أولئك الأربعة الأبطال الذين تمردوا على قرار العبودية والذل والخيانة...

وظل لهؤلاء الأربعة أمثال في كل عهد حتى هذا العهد...

ولترى الحقيقة في السياسيين اللبنانيين، ولترى الصورة المتمادية لهم في كل زمان، نريك بعض ما جرى في هذا الزمان...

إن عين ما جرى في المجلس التمثيلي اللبناني في كانون الأول سنة ١٩٢٥ من نزول نواب لبنان على رغبات السلطات وإيثارهم الخنوع لها ظل يجري مثله طوال العهود التي تلت هذا التاريخ، على اختلاف السلطات وتنوع أهدافها. . .

ونحن هنا نذكر بعض ما جرى في عهدنا في هذه السنين:

عندما اشتدت وطأة جماعة ياسر عرفات الفاسطينيين على لبنان واشتد التذمر في تفاصيل ليس هنا مكان شرحها، استدعي إلى القاهرة وفد لبناني، فكان أن ذهب قائد الجيش اللبناني، وعُقد هناك ما سمي (اتفاق القاهرة)، وكان لا بد من الموافقة عليه من المجلس النيابي اللبناني، فأسرع النواب إلى الموافقة عليه بأكثرية فائقة.

ولم يلبث هؤلاء النواب أنفسهم بعد حين أن ألغوه بنفس الأكثرية وبنفس الحماسة التي وافقوا فيهما عليه. والنواب اللبنانيون هم الذين وافقوا بأكثريتهم على ما اصطلح على تسميته باسم (اتفاق ١٧ آيار) وهو اتفاق الصلح مع إسرائيل. وهم أنفسهم الذين عادوا فألغوه بأكثريتهم. وعندما طرحت فكرة التمديد لرئيس الجمهورية الياس الهراوي، أعلنت أكثرية النواب أنها تعارض هذا التمديد، ثم إن هذه الأكثرية مددت له ثلاثة سنوات! . .

وشبل دموس الذي تبنى الاقتراح، لم يجرؤ على تبنيه إلا بعد أن عرف بانكفاء الثوار عن راشيا، وأيقن ببدء تراجعهم. أما يوم كانوا يقرعون أبوابِ لبنان ويدخلونها إلى حاصبيا ومرجعيون وراشيا، وبدا أنهم متقدمون، فقد كان يعد نفسه للترحيب بهم في مدينته زحلة.

وكذلك كان حال النواب في المجلس التمثيلي الذين تقدم باقتراحه إليهم، فلو حاول التقدم بالاقتراح والثوار يتقدمون إلى راشيا للوى النواب أعناقهم عنه وأداروا وجوههم وفضوا جمعهم وردوه خائباً.

أما الأبطال الأربعة الذين رفضوا الاقتراح، فليس في وصفهم بالبطولة أي مغالاة. لقد رفضوا الاقتراح ولا سند لكل واحد منهم إلا قوة جنانه ورسوخ إيمانه والاعتزاز بكرامته. .

لقد رفضوا الاقتراح وهم يعرفون أنهم معرضون لشر ما يمكن أن يتعرض له إنسان. وإذا كانوا قد سلموا فلم يكن في حسبانهم وحسبان أي أحد أن يسلموا.

ولكن يبدو أن الفرنسيين قد فكروا بما للعُمَرين من منزلة بين المسلمين، وإذا كانت الثورة قد تراجعت في لبنان، فإنها لا تزال في عنفوانها خارج لبنان وعلى مقربة من لبنان، وهي لا تزال تهدد بالامتداد إلى كل مكان. فآثروا أن يكبتوا غيظهم ولا يثيروا عليهم نقمة المسلمين بالإساءة إلى العُمَرين: الداعوق وبيهم.

وكذلك الحال مع الأمير فؤاد أرسلان وجميل تلحوق وهما من هما في المناطق الدرزية اللبنانية. وقد كانت خشية الفرنسيين من التواصل بين ثوار جبل الدروز الذين وصلوا إلى مقربة من دروز لبنان، كانت خشية الفرنسيين من هذا التواصل لا تزال قائمة، لذلك أغضوا على الضيم، فلم يتعرضوا للنائبين البطلين. . .

ووصلت أصداء مواقف السياسيين اللبنانيين ومواقف غيرهم من الثورة والثوار إلى المهاجر الأمريكية فكان من أثرها قصائد للشعراء، فمن ذلك القصيدة العينية التي نظمها رشيد سليم الخوري الذي اشتهر بلقب (الشاعر القروي) والتي كان من أخف أبياتها قوله:

ألم ترهم ونار الحرب تصلى كأن دماءهم جمدت صقيعا

وفيها الكثير من التقريع العنيف ما لا نحب أخذه هنا.

وكذلك قصيدته السينية التي كانت رداً على موقف المجلس التمثيلي، وجاءت إحدى قوافيها كلمة (المجلس) مقرونة بما لا يشرف ذلك المجلس. . .

ومن طرائف الشاعر القروي في هذه القصيدة، أنه كان بين نواب ذلك المجلس، إبراهيم المنذر، وهو شاعر وعالم لغوي، معروف بتعمقه في دراسة اللغة العربية ودفاعه عنها، فكان ذلك شفيعاً له عند القروي، وعزّ عليه أن يحشره بينهم وأن يناله ما ينالهم من المذام. ومع أن الشاعر القروي قال في المجلس ونوابه ما هو أشد إقذاعاً من اللعن، فقد قال:

والله لولا (منذر) للعنتهم فليحي شاعرنا الجريء الكيس

وفي تلك القصيدة يقول:

وحسام (سلطان) وهل من سامع بحسام (سلطان) ولا يتحمس

ومن لطائفه أنه ألقى القصيدة في حفلة حافلة. وفي مثل هذه الحفلات لا بد ممن يحضرها لينقل أخبارها إلى من يهمهم معرفة تفاصيل ما جرى. فكان مما قاله القروي:

ولعل وسط الجمع منهم زمرة جاءت توصوص بيننا وتوسوس

تسعى لسادتها بنقل حديثنا وتكاد للإصغاء لا تتنفس

وفي تلك الأيام كانت قيمة النقد الفرنسي (الفرنك) قد هبطت هبوطاً ذريعاً فأكمل البيتين المتقدمين بهذا البيت:

يا من بسحتوت يبيع بلاده مات (الفرنك) إلى متى تتجسس

وختم القصيدة بهذا البيت:

وليحي كل مدافع عن قومه وبلاده وليسقط المتفرنس

على أن هؤلاء السياسيين اللبنانيين هم الذين عادت الثورة عليهم بالخير، وقطفوا ثمار قوتها وتقدمها إلى الأرض اللبنانية، فإن المفوض السامي الجديد (دو جفنيل) حاول إغراء الثوار بمثال يقيمه في لبنان لعلهم يصالحون وينثنون عن الثوران، فحول لبنان - بفضل قوة الثوار - من بلد محكوم مباشرة من الفرنسيين، إلى جمهورية لها رئيسها اللبناني ووزارتها ومجلس نوابها ومجلس شيوخها!. وإن كان ذلك كله خاضعاً لأوامر المفوض السامي الفرنسي...

كان صد الثوار عن راشيا عاملاً على تعقبهم إلى حاصبيا فتقدم الفرنسيون فقاتلهم الثوار بضعة أيام دفاعاً عنها، ولكنهم خشوا التطويق فآثروا الانسحاب إلى مجدل شمس للدفاع عنها. وقد ظلت مجموعات من الثوار تعمل في وادي التيم والبقاع الغربي وكانت لها وقائع ظافرة لا سيما في البيرة والرفيد، وكانت موقعة الفالوج أعظمها.

الفصل الثالث والعشرون

بـــداية النهايـــة

توالت الامتدادات من فرنسا، وأخذ الفرنسيون يقوّون مواقعهم، فأقاموا في مدينة حمص حامية قوية بإمرة الجنرال (مارتي). كما تكاثرت قواهم في دمشق بأمرة الجنرال أندريا، حيث أخذوا يعدون حملتين تتجه احداهما إلى شمال الغوطة بأمرة الكولونيل (ماسيت) وتتجه الثانية إلى شرقها بأمرة الكولونيل (فرن).

كما استطاعوا أن يقيموا خلال الشتاء ست مخافر عسكرية قوية في داخل الغوطة: الأولى في دوما، والثاني في أوتايا والثالث في شبعا والرابع في خرابو والخامس في بويضان من المرج والسادس في براق على حدود جبل الدروز الشمالية للحيلولة دون اتصال ثوار الجبل بثوار الغوطة.

كما أنهم نشروا على طول السكة الحديدية في حوران قوات كثيفة، وأقاموا مخفراً عسكرياً في بصرى أسكي شام وآخر في بصرى الحرير، وكذلك في كل من المسمية والمسيفرة. أما في درعا وفي أزرع فقد أقاموا في كل واحدة منهما معسكراً كبيراً. وأعدوا حملة لمطاردة الثوار في وادي التيم وإقليم البلان.

ولم يأت فصل الربيع حتى كانوا قد أحكموا أمرهم وأعدوا مخططاتهم الحربية وتدابيرهم العسكرية.

أما الثوار فقد كانوا خلال الخريف والشتاء قد رسخوا أقدامهم في الغوطة وأخذوا يغيرون على دمشق ويدخلون أزقتها وأسواقها ويعودون إلى معاقلهم. كما أنهم سيطروا على سكة حديد دمشق ـ بيروت. واتصل ثوار الشمال بثوار القلمون وسيطروا على المنطقة الممتدة

من شمالي حمص حتى جبل الدروز متخذين من مدينة النبك قاعدة لهم. أما في منطقة دمشق الغربية التي تمتد من أبواب دمشق حتى الزبداني فقد كانوا سادتها.

كما أنهم عادوا فسيطروا على وادي التيم وإقليم البلان ووادي العجم.

وبانقضاء فصل الشتاء بدأ الفرنسيون زحوفهم، وكان في أوائل ما قصدوه منطقة القلمون وقاعدتها بلدة (النبك) حيث مضت إليها حملة كبيرة بقيادة الجنرال (مارتي) المتمرس بالحروب الجبلية، فتلقاها الثوار في الرابع عشر من آذار سنة ١٩٢٦ في مضيق عيون العلق وصمدوا لها حتى أوشك رصاصهم على النفاذ عند ذلك انسحبوا ودخل الفرنسيون النبك.

وكان ممن شهد هذه المعركة من قادة الثوار العسكريين كل من فوزي القاوقجي وسعيد العاص. كما شهدها منير الريس الذي كان يومذاك في نضارة العمر، ثم صار من كبار الصحفيين في سوريا وأصدر في دمشق جريدة بردى.

وبعد القلمون أعد الفرنسيون حملة لاقتحام إقليم البلان ووادي التيم، وكانت هذه الحملة ذات ثلاث شعب، واحدة بقيادة الجنرال مارتي بقوة رافقته من حمص، والثانية بقيادة الكولونيل ماسيت التي اتجهت إلى سعسع فمجدل شمس، والثالثة بقيادة الكولونيل (ليمانغرانكور) التي تجمعت في صيدا ثم عابرة بعد ذلك جسر الغجر متجهة إلى مجدل شمس.

وفي الثالث عشر من نيسان كانت هذه الحملات تحتل مجدل شمس بعد معارك طاحنة.

ثم حشد الفرنسيون قواهم في أزرع وبصرى الحرير وأحكموا تطويق جبل الدروز من الشمال والغرب، وتقدموا في ١٩ نيسان ١٩٢٦ بحملة مؤلفة من عشرة آلاف جندي بقيادة الجنرال أندريا نحو السويداء، فدافع الثوار عنها ما استطاعوا الدفاع. ولكن قواهم كان ينقصها ما تتزود به القوى الفرنسية من سلاح ثقيل وذخيرة لا تنتهي، فاستطاع الفرنسيون احتلال السويداء، ما كان إيذاناً ببدء الانهيار العام.

وعاد الثوار جماعات متفرقة تقاتل هنا وهناك. وأصبح للفرنسيين قاعدتهم وسط الجبل التي ينطلقون منها لإخضاع مقارن الجبل الأربعة. على أن الأمر لم يكن سهلاً على الفرنسيين فقد استمر القتال استنزافاً من نيسان ١٩٢٦ إلى حزيران ١٩٢٧ وقد تحصن الثوار في اللجاه الذي حدثت فيه معارك عنيفة كانت فيها خسائر الفرنسيين كبيرة.

ويصدق في معارك الجبل منذ معركة المزرعة حتى معركة السويداء ما قاله أحد شعراء الثورة:

رمونا بديناميت حتى تقلقلت ... جبال على حوران كانت رواسيا
ودبوا بأبراج الحديد كأنها ... سلاحف ما يمشين إلا تهاديا
دوارع يلقاها الفتى وهو حاسر ... يصادمها بالفأس جذلان حاديا

ظهور أحمد مُرَيْوِد

ذكرنا فيما تقدم من القول ما كان من تنظيم أحمد مريود محاولة اغتيال الجنرال غورو. وكان ذلك بعد سقوط الحكم الاستقلالي في دمشق ولجوء أحمد مريود إلى الأردن مع من لجؤوا إليه من الأحرار السوريين نجاة مما حكم عليهم به الفرنسيون من أحكام كان الإعدام أحدها.

ثم تفرق اللاجئون إلى الأردن، فغادره فريق منهم إلى شتى الأقطار العربية، وكان أحمد مريود ممن تركه إلى العراق فأقام في مدينة (خانقين) مشتغلاً بالزراعة.

وبلغته أنباء الثورة وكان من أجدر الناس بالالتحاق بها[(١)]. فغادر العراق إلى الأردن ومنه إلى جبل الدروز فوصله في أواخر نيسان سنة ١٩٢٦ وفي الجبل لقي النازحين إليه من

(١) يزعم نبيه العظمة فيما نشرته له خيرية قاسمية من (أوراق) في الصفحة ٣٧ - يزعم أنه هو الذي دعا أحمد مريود من العراق ليلتحق بالثورة. ويوغل في المزاعم فيقول أنه هو الذي جرّ إلى الثورة فلاناً وفلان وفلان... وأنه هو الذي سعى إلى تجميع رفاقه للمشاركة فيها. وأنه وأنه وأنه...
وما أكثر دعاوى هذا الرجل وما أكثر تبجحاته، وما أكثر افتراءاته. وكنا نود أن نسأله لو كان لا يزال حياً عن المعارك التي خاضها في الثورة، وهو العسكري المتمرس خريج المدارس العسكرية، وعن المواقف البطولية التي وقفها فيها؟!
إن أحمد مريود الثائر البطل لم يكن بحاجة لمثل نبيه العظمة ليدعوه إلى الالتحاق بالثورة. لقد التحق بالثورة بدافع من وطنيته وإخلاصه وشجاعته فحمل السلاح وخاض المعركة وصمد فيها ولم يتراجع حتى استشهد. لقد كان رصاص أحمد مريود يلعلع في صميم المعمعان حتى أسكته الاستشهاد، في نفس الوقت الذي كان فيه لسان نبيه العظمة يلعلع في (الصالونات) الوادعة الآمنة وظل يلعلع حتى أسكته الموت..
وتأخذ خيرية قاسمية من أوراقه وصفاً لحالته: «ومع ازدياد سوء أحواله وجفاء الأصدقاء وتفرقهم عنه شعر باليأس والاضطراب والكدر....».
وهذه المصائر مصائر محتومة لأمثاله...

الجولان وغيره بعد تقدم الفرنسيين في تلك المناطق، فقرر معهم العودة إلى أرضهم ومعاودة الثورة هناك ومضوا إلى الغوطة ومنها إلى الجبل وكانوا خليطاً من دمشقيين فيهم فريق من آل العسلي وغير دمشقيين من بقايا الفلول التي تجمعت بعد الهزائم ومضت لإحياء الثورة في الجولان والإقليم وما إليها. وكان أول صدام للثائرين مع الفرنسيين عند مشارف قرية (بيت سابر)، تمكن بعده الثوار من مواصلة التقدم. وعند مشارف قرية (بيت تيما) جرى صدام آخر نجح فيه الثوار، وكذلك في قرية (عرنة)، ومنها تقدموا إلى (بيت جَنْ) حيث استقروا أربعة أيام. وفي كل مكان كانوا يمرون فيه كانت تنضم إليهم جماعات، وفي إقامتهم في بيت جن اقترح بعضهم توزيع الثوار على ثلاثة مراكز وطبق اقتراحه:

١ - مركز جباثا الخشب وفيه يكون أحمد مريود مع أبناء المنطقة.

٢ - مركز الشوكتلية وفيه يكون أبناء دمشق والغوطة.

٣ - مركز بيت جن وفيه يكون أبناء الجولان من قطنا إلى جباثا.

وعدا هذه المراكز الثلاثة تمركزت في قرية (حَضَر) القوى الدرزية التي عادت من الجبل مع أحمد مريود.

وكان في تصور أحمد مريود تجميع الثوار في هذه الأرض التي هي أرضه التي نبت فيها والتي يعرفها حق المعرفة، ومعاودة النهوض فيها بالثورة من جديد بعدما بدأت تتلاشى.

ولكن الفرنسيين كانوا بالمرصاد ومقدرين ما يمكن أن تسفر عنه مساعي أحمد مريود. فحين مضى إلى بلدته جباثا الخشب بصحبته ما يقرب من أربعين ثائراً ليتخذ من البلدة مقراً لتحشيد ما يستطيع تحشيده من قوى، كان الفرنسيون يسرعون بقواهم من القنيطرة، هذه القوى التي كانت في معظمها مؤلفة من الشراكسة المتطوعين في الجيش الفرنسي، مصحوبة بالدبابات والمصفحات والطائرات. ويهاجمون جباثا في ٣٠ آيار ١٩٢٦ فقامت معركة ضارية ثبت فيها أحمد مريود ثبات الأبطال، وقاتل ومن معه قتال المستميتين. وانجلت المعركة عن استشهاد أحمد مريود وفريق من الثوار ودخول الفرنسيين بلدة جباثا.

فعمد الفرنسيون إلى حمل جثة الشهيد وجثث رفاقه الشهداء من جباثا إلى دمشق وعرضها في ساحة المرجة وقتاً طويلاً، تشفياً...

وقد رثاه خير الدين الزركلي بهذه القصيدة ذاكراً فيها الشهيد فؤاد سليم:

لـم نَـعُـدْ بـعـدَمـا لَـقـيـنـا نُـبـالـي ... بـنِـصـالِ رَمـىٰ الـعِـدى أم نِـبـالِ

مُـهَـجـاتٌ تـعـرَّضـت لِـلْـمَـنـايـا   وَصُـدورٌ تـكـشَّـفـتْ لِـلْـعَـوالـي
يـأخـذُ الـغَـدرُ مـا يـشـاءُ وَيُـبـقـي   ما على الغَـدْر مَغتَـب في حالِ
وَجُسُوم الأَحرار تَرخُصُ في الرَّوْ   ع، وأمَّـا نـفـوسُـهـم فـغـوالـي
للطماح النفوسُ، والقلبُ للإيـ   ـمان بالفوز، والشَّلا[1] للنضالِ
لا يَـضِـيـرُ الـعَـريـنَ ـ تَـزأرُ فـيـه   أُسْـدهُ ـ أن يُـصـاب بـالأَشـبـالِ

* * *

مَصْرَعُ الأكرمين في «مَجْدَل الشَّمْـ   ـس» وَ «جبَّـاثـةِ» مَـنـارُ الـرجـالِ
مَصْرع الأكرمين في «أَكم الشَّام»   نَـذيـرُ الـعُـداةِ بـالآجـالِ
إن يكن ماتَ «أحمدٌ» و«فُؤادٌ»[2]   فـالـضَّـحـايـا مَـعـارجُ الآمـالِ
الـضَّـحـايـا رَمْـزُ الـحَـيـاةِ، وَمَـعْـنـى   وَثـبـات الأَقـوام فـي الأَوجـالِ
ليس مَنْ ماتَ في ظِلالِ المقَاصيـ   ـرِ كمنْ ماتَ في ظِلالِ النِّصالِ

* * *

أَقْبَلوا يَحْملون «أَحمدَ» وضَا   حَ الـمُـحَـيَّـا، مُـضرَّج الـسِّرْبـالِ[3]
شَـهِـدَ الله أنَّـهـم حَـمَـلـوا مَـوْ   ئِـلَ مُـسـتـصـرخٍ ولـيـث صِـيـالِ
حَملوا النُّبل والمَهابةَ والحَزم   وصِـدق الأعـمـال والأقـوالِ
حَملوا البأس والنَّدى، حَملوا أفْـ   ـضَلَ ما في ابنِ حُرَّة من خِلالِ
ما رأى الناسُ مثله لَيلةَ الهَوْ   لِ، ولا مثلها رَأوا في الليالي
زحفَ الصفُّ يتبعُ الصَفَّ إفرنـ   ـجاً، وَصُفرَ الوُجوه شُقْر السِّبالِ
مَـن رأى قـبـلـه مُـغـيـراً بـآحـا   دٍ عـلـى أَلْـفِ غـاشـمٍ خَـتَّـالِ
وَهْـوَ لـو حـاولَ الـزِّيـالَ تَـنَـحَّـى   كـبُـرتْ نـفـسُ أحـمـدٍ عـن زِيـالِ
شَقَّ جُنْحَ الظلامِ يَمْشي إليهم   رابـطَ الـجـأش مِـشـيـةَ الـرِئـبـالِ

---

(١) **الشلا**: الجسد.
(٢) فؤاد سليم.
(٣) إشارة إلى نقل الفرنسيين جثة الشهيد من قرية «جباثة» حيث استشهد، وعرضها في دمشق بالقميص والسروال.

قائلاً للحياة: غيريَ غُرّي.. قائلاً لِلنعيم: غيري والِ
ليس ما يُشترى بغير الدَّمِ الحُرِّ بِحُرِّية أو استقلالِ

* * *

ما على هذهِ القلوبِ إذا لم تَتماسكْ جِراحُها باندمالِ
ما على هذهِ العَجَاجةِ إن لم يَجلُها غيرُ ثأرِ أحمدَ جالِ
تُستفزُّ النفوسُ إن هي صَحَتْ وَمِراضُ النفوس في إجفالِ
وإذا اعتلَّت القُلوبُ اضمحلّتْ مَا لمرضى القُلوب من إبلالِ
إنَّ في موتِ أحمدِ لكِ بَعْثاً يا أمانيَّ لم تكن بِخيالِ

وقال أيضاً في رثائه من قصيدة:

وأهابَ بالنائي مُهيبُ ضميرِهِ ومن الضمائر عُذَّلٌ لُوّامُ
لم يستحلَّ العيشَ، منفرداً به وعلى الرَّدى تتزاحم الأقدامُ
خلّى ببغدادَ النعيمَ وأهلَهُ ولقد يُعافُ على النَّعيم مقامُ
مِسْعارُ ملحمة إذا انتُضيتْ ظُبىً صَدْقُ البيانِ إذا استُعيد كلامْ
جسم يكاد يشفُّ عما دُونه رَقَّ الحسام وليس فيه سَقامْ
لِلْمُعضلات الدُّهْم كان مُريْودُ ولكلّ ما تعيا به الأفهامْ
لبس الدجى بردا وأقبل ينتحي آكامه فمشت له الآكامْ
ألقُ رأيتَ به الهلال فلم يلُح حتى توارى والغمام رُكامُ
هتف النذيرُ بأحمدٍ وترادفتْ ألب الطُغاة يَسُوقها نمَامْ
لم ينجُ أحمدُ من رصاص عُداته دَمُه على غير الرَّصاص حَرامْ

وكان ممن رافقوا أحمد مريود في مسيره إلى جباثا وقاتلوا واستشهدوا معه آل (العسلي) الدمشقيون، وهما (حكمة) بن علي العسلي و(فائق) حفيد علي.

وعلي العسلي هو والد شكري العسلي الذي استشهد فيمن استشهد على مشانق السفاح جمال باشا، وهكذا فإن علي العسلي أب لثلاثة شهداء عاش بعدهم حتى توفي سنة ١٩٣٠ بعد أن قارب المئة سنة من عمره.

وحفيده (فائق) كان حين استشهد في حوالي الثامنة والعشرين، وكان معروفاً بين من

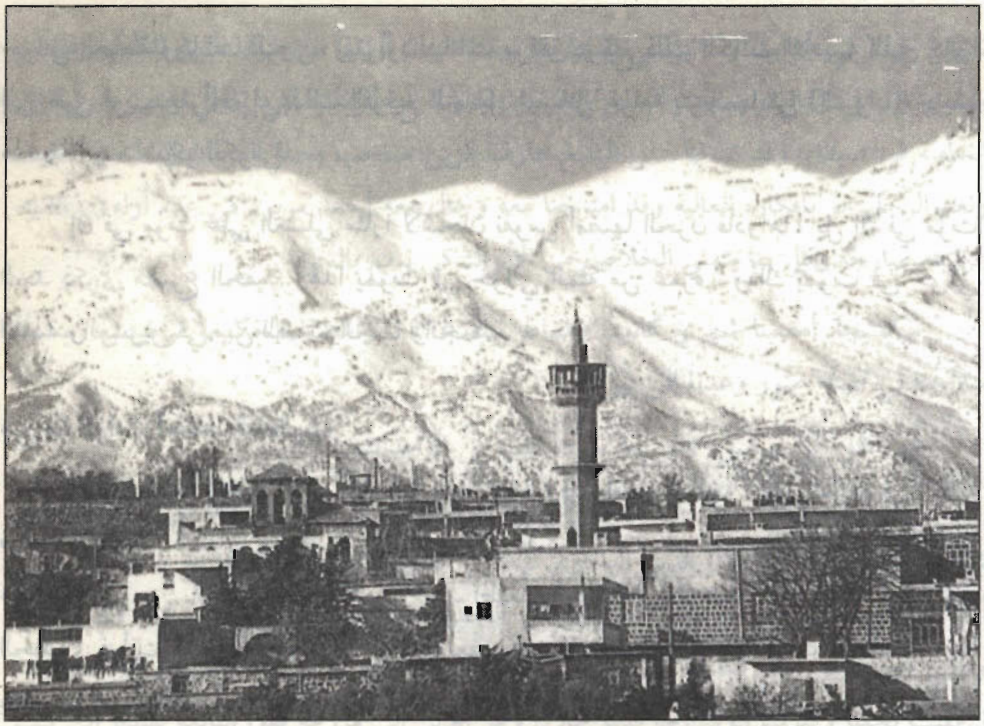

جبّاثا الخشب . . بلدة أحمد مريود ووراءها جبل الشيخ (حرمون)

عرفوه ـ كما قال نجيب الريس وهو يرثي جده ـ بأنه الشاب الناعم اللاهي. وقد كان قبيل الثورة يترجم لمجلة الميزان (رسائل غرام).

قال نجيب الريس صاحب جريدة القبس فيما قال في رثاء علي العسلي: «إن موت العسلي يطوي معه ذكرى نهضة أمة كاملة في رجل واحد. ففي مقتل شكري العسلي ذكرى الوطنية الأولى التي أيقظت في نفوس هذه الأمة حب التضحية والشعور بالكرامة القومية، وفي ذكرى حكمة وفائق الابن والحفيد ذكرى أمجد صفحة يسجلها تاريخ الجهاد القومي للأمم الصغيرة المجتاحة بلادها. وفي مقتل العم وابن الأخ أسمى معنى من معاني البطولة في هذه العائلة الكريمة، وفي أبناء ذلك الشيخ المائت الذين تسابقوا إلى الموت في العمر الذي تحب فيه الحياة وما في الحياة من شباب وجمال! . عم وابن أخ، كلاهما شاب في أنضر أيام الصبا والمرح، يصمدان لمقاتلة حملة عسكرية مجهزة بالمدافع والرشاشات. . . وهكذا يسقط الاثنان معاً، يجمع الموت بينهما كما جمعت الحياة. وهكذا فالشباب إذ يذكرون فائق العسلي يفجعون عندما يذكرون رفيقاً لهم انسل من بينهم صامتاً، فإذا بهم يسمعون صوت بندقيته في

خمائل الغوطة وغابات الزور، ويقرأون بيانات موقعة بتوقيع ذلك الكاتب الأديب الذي كانوا إلى حين قريب يقرأون له بذلك التوقيع الجميل «رسائل غرام» يترجمها في (الميزان) جريدة صديقه أحمد شاكر الكرمي.

إن في موت علي العسلي مثاراً لأشجان نفوس أمضها الحزن فأذواها، بل إن في موت الجد ذكرى مصرع الحفيد. هذا يموت في حوالي المئة من عمره، وذاك يموت في حوالي الثامنة والعشرين في سن الصبا والحب والجمال.

من مذكرات أحمد الخطيب

الشيخ أحمد الخطيب هو خال أحمد مريود، وقد رافق ابن أخته خلال تشرده في البادية فراراً من مظالم السفاح جمال باشا، فسجل في مذكرات له ـ لم تطبع ـ ما عايناه مع أحرار عرب آخرين من بلاء في ذلك التشرد. وقد أطلعني نجله الأستاذ منيف على تلك المذكرات الخطية، فرأيت فيها ما يجهله الناس عن بعض شؤون تلك الأحداث فآثرت أن ألخص هنا بعض ما أورده الخطيب، وهو جزء من تاريخ أحمد مريود وتاريخ تلك الفترة.

وأول ما نعرفه في مذكرات الخطيب أنهم حاولوا عند إعلان تركيا الحرب، التخلص من التجنيد، فعرضوا أنفسهم للتطوع في عمل لا يخرج عن النطاق العسكري، وهو أن يمضوا إلى شواطىء البحر لمراقبة السفن الأجنبية التي قد تحاول العمل الضار.

ويبدو أن صاحب الفكرة هو أحمد مريود الذي يمكن أن يكون قد قصد منها عدا التخلص من التجنيد، الاتصال بالأوساط الشعبية في مختلف المناطق.

يقول الخطيب فيما يقول:

بما أنا كنا نتهرب من التجنيد التركي عرضنا أنفسنا للتطوع للخدمة البسيطة كي نبقى في بلادنا. فطلبنا أن نذهب للسواحل لمراقبة السفن الأجنبية بقيادة أحمد مريود. ذهبنا من القنيطرة إلى صفد ومنها إلى الرامي ثم إلى عكا فهناك استقبلنا قائد حامية عكا وجمع من الأهالي. وسلمتنا الحكومة أسلحة قديمة صنع فرنسا التي تُعرف بأم أصبع مع كل بندقية خمسة علب خرطوش كل علبة تحوي عشر طلقات وكنا ستين خيالاً عشرة من خان أرنبة وخمسة وعشرين من جباثا الخشب وخمسة من شبعا وخمسة أكراد وخمسة شوام هم والأكراد والشوام من القاطنين في القنطيرة. وذهبنا من عكا إلى صور ثم إلى صيدا وقد وضعوا منا

ثلاثين خيالاً في عدلون وثلاثين في النجارية. وكنا نستلم أرزاقاً من صيدا عليق للخيل وطحين وسمن وبرغل وكانت مراقبتنا للسفن الحربية إنكليزية أو أفرنسية كي نعطي عنها خبراً لقائد الحامية في صيدا. وقد تعرفنا على الشيخ عارف الزين صاحب مجلة العرفان ومطبعتها بصيدا ونعم الرجل هو بأفكاره العالية وقد امتزجنا معه وجال معه أحمد مريود في عدة أراء، وكانت عروبته صارخة وكل منا يتمنى الخلاص من الأتراك كي ننعم بالحرية.

وبالنتيجة أمضينا شهري كانون وشباط سنة ١٩١٥ وأعطتنا الحكومة ترخيص وسلمنا سلاحنا في قضاء صور وعدنا إلى بيوتنا.

ثم ينتقل إلى موضوع آخر بعد سرده كثيراً من الأحداث:

وفي ذات اليوم وصل جمال باشا إلى القنيطرة ثم واصل سيره إلى القدس ونحن كنا قبل شهرين أعددنا محلاً لجلال الدين البخاري ليختبيء به ورافقه إلى جباثا الشيخ سعيد المسوتي أمام قرية ببيلا من الغوطة وبعد حين فر من الجندية عز الدين آل علم الدين وأحضرناه أنا وأخي محمد من عند الشيخ المسوتي إلى المخبأ الموجود به جلال البخاري ثم لما اشتد التعقيب بحقنا وكثرت الوشايات نقلنا جلال وعز الدين إلى مزرعة قفوا التابعة لشبعا إلى بيت إبراهيم قاسم الخطيب ثم نقلناهم إلى وادي العسل محل يدعى حرف الغبرة بيت لمحمود نبوث من شبعا وكنا في هذه الأثناء اجتمعنا مع نواف الشعلان بن نوري الشعلان وتوافقنا معه أننا سنذهب إلى عنده للجوف ومعنا شبان مسعاهم لخدمة العرب وأخيراً نقلناهم من وادي العسل إلى شرقي الأردن إلى عند العبيدات الذين لنا معهم صلة قديمة، وقد أرفقنا أخي محمد وحسين العائدي لإيصال جلال وعز الدين إلى عند بني حسن حيث يتيسر لهم الطريق بواسطة عربان بني صخر والحويطات للوصول إلى الجوف. وأحمد مريود بدوره تقابل مع حديثة الخريشة وأفهمه قصدنا وتواعدنا وإياه لإرسال أخيه عرقوب الخريشة لدمشق كي نقابله هناك لتيسير طريق بعض إخوان لنا ولما عدنا إلى جباثا من الأردن ذهبنا إلى بلدة ببيلا وأخذنا معنا مصطفى النابلسي من شبعا لنرسله لدمشق حيث هو لم يكن مطلوب للخدمة العسكرية ويُمكنه التجول بدمشق فذهب إلى دمشق وعاد إلينا إلى ببيلا ومعه الشيخ عرقوب الخريشة وتواعدنا وإياه أن نلتقي بالهزيم بوادي السرحان وأن رفاقنا الذين كنا نود مساعدتهم هم عبد الغني العريسي والأمير عارف الشهابي وعمر حمد وتوفيق البساط الذين وصلوا إلى جبل الدروز ونحن قد اطمأنينا لوصولهم إلى الجبل وعدنا نحن كي نعد العدة للرحيل إلى البادية فهيأنا أسباب السفر من شبعا أحمد مريود وأحمد الخطيب وأخي محمد الخطيب ثم سافرنا

ووصلنا إلى (ضمير) نظن أننا سنجد عرب الزَوَلَه ولكن وجدنا عرباناً غيرهم وجدنا رشيد السمير وعربه ولد علي وسلطان الطيار أقمنا بضيافة رشيد السمير يومين وأشار علينا بإعادة الخيل إلى أهلنا ونشتري هجن أخف مصرف لنا فأعدنا الخيل مع أخي محمد واشترينا لكل منا هجيناً واستأجرنا (خوي) أي رفيق دليل وذهبنا وإياه بطريق البادية إلى عرب الغياث الذين يقطنون بالصفا شرقي جبل الدروز واللجاه، مشينا يومين من ضمير واليوم الثالث وصلنا عربان الغياث وكان عندهم عبد الغني العريسي والأمير عارف الشهابي وعمر حمد وتوفيق البساط فأخبروا عبد الغني ورفاقه أن هذا أحمد مريود فأتونا فرحين أقمنا نحن وإياهم أسبوعين عند عرب الغياث بينما اشتروا ناقتين وضعوا على كل ناقة شعداد وله وتر حتى يركبوا كل اثنين على هجين. طلبنا من العرب (خوي) يذهب معنا لعند بني صخر الذين تواعدنا مع حديثه الخريشة أن نجدهم على الهزيم اعتذروا عن ذلك وأرشدونا إلى السردية ذهبنا لعند السردية وجدناهم بالغزو ولكن أتانا شخص وقال أنا (خوي) على بني صخر وأرافقكم عملنا له شرط ومشى معنا على راحلته فصرنا على خمسة هجن ثلاثة مفرد واثنين مراديف مشينا ثلاثة أيام إلى أن وصلنا إلى الهزيم بعد الغروب بساعتين وصلنا أول النزل وأردنا أن نضيف عند أول بيت فطلع صاحب البيت وقال أنا شراري من عرب الشرارات لا يمكن أن أضيفكم بوسط هذه النجع فسألناه العرب من هم؟ قال السرحان إلحقوني أدلكم على معزب يضيفكم مشينا بأثر الشراري إلى أن أوصلنا إلى بيت فهيد الجادر أي القادر نوخنا الهجن ودخلنا البيت وطرحنا السلام والمعازيب مدوا الفراش وأوقدوا النار إلى أن تبين لهم رفاقنا بأثوابهم المطرزة على الدائر وقافهم المقلقلة فظنوهم دروز وكانت عشيرة السرحان منذورة بغزو الدروز وهنا المصيبة الكبيرة فحاولنا إقناعهم أنا عرب مثلهم. فهجموا المعازيب على الهجن نهبوا الهجن والخراج وكان معي ومع أحمد بارودتان موزر وفرد مع عبد الغني، ثم أحضروا لنا شخص يدعى الأدهم ولكنه يعرف بلاد حوران والجولان فقال من أي قرية أنتم الله يحيكم فخشينا أن نقول من قرية حورانية أو جولانية ويكون هو أخبر منا فيها فقلنا له نحن من بانياس قال أم الطواحين بلد العرقاوي ما الذي أودعكم توصلون البادية قلنا لنا ابن عم ذبحناه ونهجنا (هربنا) قال والله أنتم تقولوا وحظي بزبن الله عنهم يعني لا يحط بذمته أنهم غير دروز، إلى أن رجع وقال بانياس وهفوفها عين قنيا بلاد شعلان الدروز، وجب الزيت، وبقاع طويل الفلج، مجدل بيت أبو صالح جباثا مريود وعن قرى كثيرة. ولما قال جباثا مريود انفرجت أسارير رفقائنا وكل منهم يهمس بأذن أحمد لماذا لا تقول: أنا فلان فقال لهم: لا يصدقونا ويحقرونا أكثر.

بقينا لآخر السهرة نقنعهم وهم لم ينثنوا عن درزيتنا وأخيراً إن كنتم فرارات (فارين) يكون معكم الذهب أظهروا الذهب أو ندوحكم، وهنا المصيبة الكبرى وقاموا للتفتيش وجدوا مع أحمد ثمانين ليرة ذهباً ومع عبد الغني والأمير عارف خمسين ليرة أخذوهم منا كان معي ثلاثماية ليرة ذهب مخيطهم بهدومي الداخلية ومعي ليرتين وبعض النقود الفضة بجزذان بعد أن أخذوا النقود التي معنا قالوا يمكننا أن نبقيكم عندنا ترعون الإبل ومثل هذه الأحاديث وبقينا نرجوهم أن يتركونا وشأننا فأبوا علينا ذلك وهددونا إذا لم ننصع لأوامرهم يسلمونا لجميل باشا (يقصدون جمال باشا) بقينا هاتيك الليلة إلى الصباح في دار المضيف المشين فهيد القادر وشيخ القبيلة محمد بن بالي وكانت ليلة ليلاء لم يذق أحد منا طعم النوم خوفاً من أن يغدروا بنا ليلاً، وفي الصباح أوقدوا النار واجتمع العرب حولنا ليعلموا ماذا نحن، هل منقطعين عن الغزو، أو نحن دروز، أو نحن أسرى حرب. وكان ذلك في بحر تشرين الأول سنة ١٩١٥. واجتمع القوم من أطراف النجع وهم يقلبون الآراء بينهم، بين أننا أعداء لهم، أو عيال مارين أو يسلموننا لجمال باشا ويأخذون لقاء ذلك مفكافأة مالية. ولكن غلب رأي المعزّب (صاحب البيت) إبقاءنا حيث أخذ منا من النقود ما يكفيه. لما أضحى النهار حطّ رجل في أطراف النزل شأنه شأن كل قادم كي يرى أسرى الحرب. وقبل أن يستقر به المقام نظر يميناً وشمالاً ومشى إلى أحمد مريود وسلّم عليه مقبلاً له وعاد إلى مكانه وجلس، وما إن حدّق بي حتى نهض ثانية وتقدم إليّ وسلم عليّ مثل السلام الذي سلمه على أحمد مريود، وعاد إلى مكانه وجلس يستمع حديث القوم. ونحن لم نعلم من هو. وبعد أن سمع الحديث وفهم مغالطة القوم، نهض وأخذ الشيخ محمد بن بالي وأسرّ إليه أن المرابيط هم من قوم مريود، وهذا أحمد مريود، وهذه المعاملة ستدفع ثمنها غالي عشيرة السرحان وستغزوهم عربان البادية بسبب عملهم هذا. وتخاصم معه بالكلام، والشيخ محمد بين مصدق ومكذب حديث الرجل من أنه من عنزة من عشيرة العبد الله، ولعدة سنين كانت العشيرة بأيام الصيف تنزل على عين البيضا وتأتي إلى جباثا الخشب ويعرفنا كما نعرف بعضنا. وأما نحن فإننا لم نعرفه.

وهذا البدوي من عشيرة عنزة من العبد الله، وصدف أنه دخيل عند السرحان ونازح عن ربعه وصار عندهم منذ شهرين تقريباً.

وبعد هذا عاد الشيخ محمد إلى مكانه وجلس يحدث حديثاً أخف من الأول ويشرح الأمثال ويقول لأحمد مريود لي معك كلام سري، فرفض أحمد ذلك وقال له: حدّث الحديث الذي تريده في المجلس علناً. فقال له: أن قلبي أحبك ونريد نوصلكم لقرايا الملح.

فأجابه أحمد مريود إذا كانت نيتكم سليمة فنحن لم نطلب منكم أداء، بل نطلب منكم أن تتركونا وشأننا.

وأخيراً قرر القوم إرسالنا إلى قرايا الملح بشرط أن لا نطالبهم بالمال ولا بشيء من سلاح وملابس، وهذه حسنة منهم.

ونحن رضينا بهذه الشروط مرغمين وكل ما نريده: الهجن والخلاص من بين أيديهم وأن نصل إلى قرايا الملح، وقد استمهلونا للغد أو بعد الغد كي يحضروا لنا الهجن حيث ألحوقها بإبلهم.

وثالث يوم من ضيافتنا عندهم أحضروا لنا الهجن.

سرنا من الهزيم صباحاً وصلنا إلى قرية كاف من قرايا الملح قبل العصر ولما التقينا العامل الذي أقامه نواف الشعلان وجدناه قائماً قاعداً لأنه كان يعلم ترابطنا مع نواف الشعلان ونحن ضيوفه وقد عرف بما جرى علينا. ورأيناه يكتب مكاتيب لعموم الروَلَة وإلى نواف ليجتمعوا لغزو السرحان الذين سرقونا وغدروا بنا، أي بضيوف نواف أمير الرولة فبتنا تلك الليلة في ضيافة العامل وليلاً دخل علينا محمد بن كعيبر شيخ مشايخ السرحان ومعه الشيخ ذياب بن معيوف وبعض الشيوخ من السرحان دخلوا علينا دخول الحريم وهم يؤدون لنا سلاحنا والأغراض التي أخذوها منا وقت وصولنا لضيافة فهيد القادر ويبدون العذر بأنهم لم يعرفونا وظنونا دروز وهم مستعدون لتقديم كل شيء يرضينا كي لا تنتقم منهم العربان.

وعوضاً عما كنا نريد التشديد عليهم اضطررنا أن نتشفع بهم فرجونا العامل أن لا يخبر نواف الشعلان بذلك وأن لا يجمع العرب حتى نرى ماذا يجد من الشيوخ الذين دخلوا علينا.

وفي أوائل تشرين الثاني وصل إلى عندنا عثمان القاضي ابن أخ فارس القاضي ودعا أحمد مريود وأنا معه للعودة إلى الهزيم وبقي رفاقنا في قرايا الملح وبعد عودتنا إلى مضرب فارس القاضي برفقة ابن أخيه عثمان وجدنا القوم بانتظارنا جبور بني خالد وعلى رأسهم فارس القاضي وبني صخر وعلى رأسهم الخرشان والفايز والعيسى وعلى رأسهم رشيد وعبطان وبقينا ثلاثة ليالي بضيافة كل من الزعماء ليلة وكانت الأحاديث أن نختار من نريد لتحصيل حقنا من السرحان، فشكرنا الجميع لما أبدوه من عطف نحونا. ولكن السرحان بدورهم قاموا بعضهم على بعض ودار يصيح فهيد القادر: ما هو الذي بيض صحيفتي بين العربان فقالوا له أن تؤدي على ضيوفك دون أن يقوم عليك أي طالب والعرب جميعها بكتت فهيد وقالوا له

أنت مطرود لا [يؤكل له زاد ولا أحد يتزوج ابنته ولا يتجاور]. . وعلى هذا الأساس بدأ يرجونا بعد أن قامت شيوخ السرحان عليه وجاء الشيوخ يطلبوا السماح منا ومن القوم الذين نحن عندهم وكذلك نحن صرنا نرجوهم بذلك حيث لا نريد خصاماً يقع بين العربان وعلى هذا الأساس أحضروا لنا البندقيتين: بندقيتي وبندقية أحمد مريود والمسدس والليرات الذهبية إلا قليلاً منها وبقية الأمتعة التي لبسوها والقنابيز الحرير والبدلات التي كنا واضعيها بالخراج والدخان الصمصون وغير ذلك وأصروا علينا أن نكتب المتأخر لنا من الأمتعة وقد كتبناها وبلغت أثمانها ما يقارب خمسة آلاف قرش (نوخوا عليها خمسين غليظة) أي خمسين ناقة، فأبينا أخذها إلا عشرة نوق بقيت عند فارس القاضي وبعد إقامتنا بضعة أيام طلبنا السماح من المعازيب وعدنا لقرايا الملح فلم نجد رفاقنا وذلك أنهم اتفقوا مع بعض الحويطات للوصول إلى الجوف ونحن وجدنا شخصاً من عنزة يدعى عقيل كنا عرفناه في الجولان عند الأمير محمود الفاعور فرحب بنا وأخذنا لضيافته ونزلنا في مكان يدعى [قراقر] يوجد فيه أبار للماء وبعد مقام يومين أوجد لنا دليلاً وزودنا بقليل من الدخان والطحين والسمن والدبس من التمر وذهبنا والدليل قاصدين الجوف ومشينا أربعة أيام وبحال وصولنا رحب بنا رفاقنا وهم عبد الغني العريسي والأمير عارف الشهابي وعمر حمد وتوفيق البساط وجلال البخاري وعز الدين شيخ السروجية[1] الذين أوصلهم عودة أبو تايه للجوف وكنا نحن أوصلناهم من قبل إلى بني حسن فاجتمعنا ثمانية أشخاص وكلنا بضيافة نواف الشعلان الذي أكرم وفادتنا. وعندما اجتمعنا بالشيخ نواف الشعلان ودار الحديث بيننا لتأليف قلوب أمراء الجزيرة وأن هذا وقت مناسب لوقوع حرب عالمية كبيرة وقد يجوز رضوخ الترك لمطلب أمراء الجزيرة إذا اتحدوا. .

وكان عز الدين أنشد قصيدة من نظمه مدح فيها نواف الشعلان وكذلك عمر حمد نظم قصيدة ولكن لم ينشرها حيث لسانه لم يطاوعه على مدح شخص لا يعرف خيره من شره ومطلع قصيدة عمر حمد هو:

كم ذا يكابد من أسى وهوان	عند الوداع المستهام العاني
يممت بعد رحيلهم أطلالهم	أبكي بدمع دائم التهتان

والإخوان لم يدركوا ذهنية نواف بل كان قصدهم التوفيق ما بين محمد بن الرشيد

(١) كان معروفاً بهذا الاسم، ثم غيره إلى عز الدين السروجي، ثم إلى عز الدين علم الدين.

وعبد العزيز بن السعود وإمام اليمن والحسين بن علي شريف مكة فنواف مع شريف مكة تأفف من ابن الرشيد وشُمَّر ثم انتقد ابن السعود باعتباره معتنق المذهب الوهابي ويقول إنهم لا يرحمون من يغزونهم بل يكفرون كل المسلمين بقولهم لكل واحد من العشيرة التي يغزونها: أسلم يا كافر وهم مسلمون. والخلاصة أن ذهنيته بعيدة عن الاتفاق ولذا نحن صرفنا النظر عن ابن الرشيد بسرنا وقررنا أن يذهب منا أناس للحجاز وأناس لليمن وأناس للرياض وآخرون للبصرة بطريقهم إلى مصر.. وعلى هذا الاتفاق قررنا وقد أفسد الاتفاق عز الدين السروجي الذي يريد النجاة فقط وذهب الأمير عارف وعبد الغني وعمر وتوفيق ووجهتهم الحجاز واليمن وبعد بضعة أيام سافرنا: أحمد مريود وجلال البخاري وأحمد الخطيب ووجهتنا الرياض وما كدنا نسير أسبوعاً حتى شاعت أخبار القبض على رفاقنا الأربعة بمحطة الدار الحمراء للقطار قرب مدائن صالح..

وكنا نحن ترافقنا مع قافلة كانت تمتار من الجوف فحاولنا الرجوع إلى الجوف كي نسلك طريقاً آخر يوصلنا إلى الرياض عند ابن السعود فأبت القافلة علينا ذلك، وقصدت عرب ولد علي [الفقرا] وكان شيخهم شهاب الفقير وصلنا عند عرب الفقرا وكانت حالتنا يرثى لها وقد أضعنا كل النقود التي كانت معنا للشيوخ كي لا يسلمونا لإحدى حاميات محطات القطار الحديد الحجازي وأعادونا أدراجنا ولا تسل عما جرى علينا في رجوعنا من احتقار وجوع وعري وأمطار غزيرة. وكنا إذا أردنا الترفيه عن أنفسنا نطلب إلى جلال البخاري أن يقرأ لنا دعاء، وكان له صوت عامر وحنجرة أوتارها رنانة. وكان ينشد لنا:

حي الغضا والساكنيه وإن هُم شبوه بين جوانحي وعظامي

فيعارضه أحمد مريود بقوله من نظمه:

إذا غنت الأعراب بالعيس والغضا تغنيت بالأحراج والضُمّر الجرد

وأعرضت عن تيما وحييت جلقاً تحية صب لا يحول عن العهد

ولم يبق لدينا سوى عباية واحدة لأحمد. وأنا لا يوجد على جسمي سوى ثوب واحد وكذلك جلال البخاري وفي إحدى الليالي هبت رياح شرقية شديدة ولما أصبحنا وجدنا جراداً كثيفاً في الأرض فجمعنا ما قدرنا على جمعه من الجراد وأوقدنا ناراً ورمينا الجراد في النار وملأنا أوعيتنا بالجراد لنقتات به بسفرنا. وثاني يوم أمطرتنا السماء أمطاراً غزيرة برعود وبرق وبعد يومين صحا الجو ومشينا بطريقنا نواصل عودتنا إلى الجوف وأتينا محلاً يدعى الشاش والدليل الذي معنا يقول هنا يوجد مندا أي قاع يوجد به ماء من المطر ولما أقبلنا على الشاش

وجدنا أثر إبل فخفنا أن يكون هذا أثر غزو فخالفنا الطريق كي لا يتبين من أثرنا شيء فأقبلنا على جمع يقارب العشرين شخصاً فإذا هم قافلة من عرب الخماعلة بطريقهم إلى الجوف فتفاهمنا وإياهم أن طريقنا واحد وهم أنسوا بنا ونحن كذلك وبقينا عشر ليال إلى أن وصلنا الجوف وبعد وصولنا للجوف وجدنا عبداً من عبيد نوري الشعلان يدعى عامر ونواف طُلب لعند أبيه النوري ابن شعلان للبادية أقمنا بضعة أيام بالجوف حتى استجمعنا قوانا مع الهجن وسافرنا أثر نواف مع الرولة وكان العبد عامر سجن الدليل الذي معنا من الفقرا وأعطانا ذلوله أي ذلول الدليل فركبته أنا وركب جلال الهجين الذي كنت أركبه وكان جلال مردوفاً على ذلولي وأمضينا أسبوعاً إلى أن وصلنا إلى عند نواف ووالده النوري بن شعلان.

وقد وجدنا عند النوري رجلاً قبيسياً راعي ذلول قادماً رسولاً من عند جمال باشا يطلب النوري أن يذهب إلى دمشق لمقابلة جمال باشا وكنا نحن معلقين أمالاً على نواف الشعلان بعد عودتنا للجوف يعطينا دراهم ثم يسيرنا بطريق آخر للرياض فوجدنا الحالة معكوسة مع نواف والنوري فبحثنا مع نواف لنسلك طريقاً آخر فقال لا يمكنني ذلك بل أنتم تذهبون لديرتكم وتجدون مخرجاً لأنفسكم ولكن بعد عودتكم للمعمورة لا تركنوا لكلام النوري يقول لكم أترجى بكم جمال باشا. يضيعكم ويضيع جاهه فوقكم. فهمنا أن الأمر معكوس مع نواف ووالده..

وسبب دعوة جمال باشا للنوري أنه بعد إلقاء القبض على عبد الغني العريسي وُجد معه مذكرات مدوناً بها رحلته منذ أن تزارى عن السلطة يوماً بعد يوم بالتاريخ لكل يوم وفيها بعض الأحاديث مع نواف وقد ارتاب جمال باشا من هذه الرحلة ومن تلك الأبحاث التي أنارت الطريق لجمال باشا وديوان عرفي عاليه لمعرفة كثير من الذين كانوا يعملون للقضية العربية وقد قررنا العودة لبلادنا وربك فعال لما يريد...

عدنا مع النوري ومعه مئة وخمسون هجاناً من الزكرت، والزكرت لدى النوري ونواف مثل الدرك لدى الحكومات المدنية، قوى تنفيذية بالجوف. وكنا وجدنا الأمير طاهر الجزائري عند النوري لأنه هرب للبادية بعد أن ألقي القبض على عبد الغني العريسي ورفاقه وظهرت مذكراته التي دون بها رحلته وأحاديثه وعدنا نحن والأمير طاهر مع النوري وقد ساق النوري بطريقه ما يقارب الخمسين أو الستين بعيراً من إبل الرّولة أخذها معه هدية لجمال باشا وكلما مر بعرب ينهب منهم بعيرين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة.

وثاني يوم انتحى بنا النوري للجنوب إلى عذرة وهي قرية بمشاريق الغوطة وحلّ على

متمول من دمشق يدعى داوود النبكي ومن هناك أرسل خبراً لدمشق إلى عميله سعيد الصفدي. فحضر الصفدي بمركبة على الخيل وأسر للنوري بسبب طلب جمال باشا له، وقال للنوري إن خير هدية تقدمها لجمال لتبرئة نواف هم الأشخاص الأربعة الذين معك ثم ذهب النوري لدمشق بعد أن أقام الزكرت الذين رافقوه من البادية حرساً علينا وقال لجمال باشا ألقيت القبض على الأمير طاهر الجزائري، ونواف ألقى القبض على أحمد مريود وأحمد الخطيب وجلال البخاري وهم موجودون في عذرا وهرب أربعة أشخاص من الجوف بعد أن اشتبه بهم نواف وأراد إلقاء القبض عليهم وتوغلوا في نجد ولا يزال نواف يبث الأرصاد لإلقاء القبض عليهم وتسليمهم لدولتكم فقال جمال باشا: نحن ألقينا القبض عليهم في مداين صالح وهم الآن في السجن كي ينالوا جزاءهم، فأخبر نواف أن لا يتعب نفسه بتعقيبهم وجمال باشا يعلم أنه لم يكن يستطيع شيئاً مع نواف، ونواف بالبادية ولا يمكن يد جمال باشا أن تناله..

ولقاء الهدية التي قدمها النوري لجمال باشا قدم له نيشاناً وعباءة وفلوساً ذهبية واطمأن النوري لذلك وفي اليوم الثاني أرسل قوى من دمشق على رأسهم ضابط درك مع بضعة عشر دركياً استلمونا من زكرت النوري وأتوا بنا إلى دمشق وأبقونا باستلام الدرك بضعة أيام وبعد هذا أرسلونا لديوان عرفي عاليه.

فقال في ذلك أحمد مريود:

حديث القوم أصبح في النوادي ... نفاقك يابن شعلان الرذيلْ

فخلت المجد نيشاناً وبرداً ... أضعت المجد في هذا السبيلْ

وانتهى الأمر بالحكم بإعدام جلال البخاري ونجا أحمد مريود ورفيقه من الإعدام.

في الغوطة

بقيت الغوطة منيعة فعزم الفرنسيون على التخلص منها وأعدوا لذلك عدة حملات تطوقها من كل جهة، وبدأوا بالزحف عليها في ١٩ تموز سنة ١٩٢٦، فأقبلت حملة بقيادة الجنرال ماسيت من ناحية جبل الدروز وحملة من حوران وحملة من جبل قاسيون في دمشق هابطة في طريق برزة وحملة سارت من دمشق في طريق الغوطة العام وخامسة من النبك والقطيفة.

وفي صباح التاسع عشر من تموز ١٩٢٦ نشبت المعارك على طريق دوما، وعسكرت الحملة الثالثة في أوتايا وراحت تضرب القرى بمدافعها زاحفة على حوش الفارة فامتد بذلك

خط القتال من حوش الريحاني حتى خرابو وأوتايا. وظلت المعارك محتدمة من ١٩ تموز حتى ٢٥ منه.

وعدا عن القوى الزاحفة فقد كانت المدافع المنصوبة على روابي المزة وفي البرامكة ومعمل الزجاج وقصر البلور تنهال بقنابلها على مواقع الثوار.

وتمت للفرنسيين السيطرة على الغوطة.

ومن المناطق التي كانت الثورة قد اشتعلت فيها منطقة بعلبك بقيادة توفيق هولو حيدر واستطاع في ١٨ آيار سنة ١٩٢٦ احتلال مدينة بعلبك لفترة. وفي ١١ حزيران سنة ١٩٢٦ زحفت عليه حملة فرنسية كبيرة من رياق ورأس بعلبك فلم تستطع إخضاعه. وظل يناوش حتى شتاء سنة ١٩٢٧ حيث كان الفرنسيون قد وطدوا أمرهم في مناطق الثورة، فغادر منطقة بعلبك إلى الجبل.

كما أنه قامت في المنطقة نفسها تجمعات ثورية بقيادة حسن طعان دندش، وتقاسم الثوار المنطقة على الشكل التالي: جماعة بعلبك من رياق إلى بعلبك، وجماعة حسن طعان دندش من بعلبك حتى رأس اللبوة وجماعة أولاد جعفر من اللبوة إلى القصير.

وهناك ثوار أكروم بقيادة زين مرعي جعفر. وقد تجردت لهم في أواسط أيار ١٩٢٦ حملة فرنسية اتجهت إليهم من ثلاث جهات: من حمص ومن الهرمل ومن وادي خالد. وفي الثامن عشر من أيار كان الصدام في فيسان فانتصر الثوار. ثم كان أمرهم بعد توطد أمر الفرنسيين في كل مكان أمر غيرهم.

وحاول سعيد العاص وعز الدين الجزائري معاودة الثورة في الغوطة فتسللا في العاشر من آذار سنة ١٩٢٧ من جبل الدروز مع جماعة من الثوار، فوصلوا قرية (الهيجانة) ومنها إلى بحيرة العتيبة فالعبادة فالقاسمية، وفي منافذ الغوطة اصطدموا بالقوى الفرنسية واستطاعوا دخول القاسمية، ومنها ساروا إلى النشابية ثم اتجهوا إلى زور بالا، وهناك كانت قوة فرنسية كبيرة فقامت معركة حامية، كان من نتائجها أن اتجه فريق من الثوار بقيادة سعيد العاص إلى القلمون. واتجه فريق ثان بقيادة عز الدين الجزائري إلى عين الصاحب. وفيها حاصرته قوة فرنسية فظل يقاتل حتى استشهد مع فريق من رجاله.

وقد راعت بطولته مقاتليه، فلما نقل جثمانه إلى المستشفى العسكري في دمشق رثاه الجنرال (فالييه) منحنياً رافعاً قبعته.

وكانت هذه المعركة آخر معارك الثورة، والبطل عز الدين الجزائري آخر أبطالها.

بين الثورة السورية والثورة الجزائرية

ليس ما دوناه هنا تفاصيل لوقائع الثورة السورية، بل هو شذرات محدودة من بعض تلك الوقائع، ولو قيض للثورة السورية ما قبض بعد ذلك للثورة الجزائرية من إمدادات بالسلاح والمال من الدول العربية لكان لها من الشأن غير ما كان، ولانتهت بالنصر المؤزر.

لم يكن ينقص الثورة السورية البطولات، ولم يكن ينقصها الكفاءات، فقد انضم إليها نخبة من العسكريين السوريين خريجي مدارس أركان الحرب في تركيا وألمانيا من أمثال يحيى حياتي ومصطفى وصفي وغيرهما من أقرانهما. ولم تنقصها التضحيات... ولكن الذي كان ينقصها السلاح والمال. فكانت المعارك تنتهي بانتصار الفرنسيين وانسحاب الثوار لا لأن الثوار انهزموا عسكرياً، بل لأن رصاص بنادقهم قد نفد وهم في إبان المعركة وعلى أبواب النصر.

الفصل الرابعْ والعشرون

مفوض سامي جديد وأحداثه

آثرت السير بذكر أخبار الثورة السورية حتى نهايتها دون التطرق إلى ذكر ما جرى خلالها من أحداث غير حربية، حرصاً على اتساق تسلسل الأحداث الحربية، وأعود هنا إلى ذكر ما تخلل مسار الثورة من أمور هي من صميم حياة تلك الفترة:

ذهب الجنرال ساراي، وأُعلن عن تعيين مفوض سامي جديد محله، وكان اللافت للنظر أن هذا المفوض ليس عسكرياً، على عكس ما جرى قبله من تتابع وصول المفوضين العسكريين منذ غورو حتى ساراي. وقد بدا للناس أن هذا التبديل ربما كان تبديلاً في أسلوب السيطرة الفرنسية، وأن فرنسا تريد حلاً سلمياً للثورة لذلك لم ترسل مفوضاً عسكرياً، بل أرسلت دبلوماسياً متمرساً بالسياسة.

بدأ المفوض السامي الجديد (دي جوڤونيل Henri de Jouvenel) عمله بزيارة لندن لما للإنكليز من تماس بالموضوع السوري بحكم وجودهم في فلسطين.

ثم انتقل إلى القاهرة بحكم وجود جماعة سورية فيها عاملة مع العاملين للاستقلال السوري باسم (اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني) وقد أشرنا من قبل إلى بعض جهود هذا الفريق السوري في مؤتمر لهم عقدوه في سويسرا.

وسمعنا دوجوڤونيل لأول مرة يردد من القاهرة شعاراً طال بعد ذلك ترديده له وهو: السلم لمن يريد السلم والحرب لمن يريد الحرب. وانتظرنا لنرى ما هو هذا السلم الذي يدعو إليه.

كان هذا الشعار تمهيداً لاتصاله باللجنة التنفيذية، فلما استعلمهم عن المطالب الوطنية

قدموها له مكتوبة، ممهدين لها بالأسباب التي أدت إلى اشتعال الثورة، معلنين أن إزالة تلك الأسباب يؤدي إلى السلم الذي يدعو إليه.

أما المطالب فهذا ملخصها:

أولاً: إعطاء سوريا استقلالها على قاعدة السيادة القومية في الداخل والخارج.

ثانياً: إعلان الوحدة في البلاد الواقعة تحت الانتداب الإفرنسي ما عدا لبنان.

ثالثاً: إلغاء الانتداب وعقد معاهدة بين فرنسا وسوريا تضمن مصالح الطرفين.

رابعاً: جلاء الجيوش الأجنبية عن سوريا.

خامساً: إعلان العفو العام.

سادساً: إنشاء حكومة وطنية موقتة تقوم بدعوة الجمعية التأسيسية بالانتخاب الحر لتضع الدستور للبلاد.

وفي حال إعلان قبوله هذه المطالب فإنهم يقترحون أن يذهب وفد منهم إلى جبل الدروز للتفاهم مع الثوار على إيقاف الثورة.

ولكن دوجوڤونيل رفض هذه المطالب، وواصل سيره إلى بيروت.

وكان وجهاء دمشق ومفكروها قد اجتمعوا في دار البلدية في ٢١ كانون الأول ١٩٢٥ وتذاكروا فيما فيه البلاد وانتخبوا وفداً يذهب إلى بيروت ويقابل المفوض السامي لوضع حد للقتال.

وكان الوفد مؤلفاً من حوال عشرين رجلاً، فقابلهم دوجوڤونيل مجتمعين ثم منفردين فقدموا له لائحة تتضمن الأسس التي يستطيعون بها التوسط بينه وبين الثوار. وهي الوحدة السورية ما عدا لبنان الصغير على أن يستفتى سكان البلاد الملحقة به، والعفو العام، ودعوة المجلس التأسيسي لوضع الدستور على قاعدة السيادة القومية، واستبدال الانتداب بمعاهدة بين فرنسا وسوريا وتأليف حكومة موقتة لإنفاذ هذا البرنامج.

وقد تناقش الفريقان نقاشاً طويلاً حول هذه المطالب. وفي النهاية قرأ لهم دوجوڤونيل تصريحاً منه بالأجوبة على ما قدموه من مطالب، أهم ما جاء فيه: أنه يأمر بالانتخاب حالماً تضع الحرب أوزارها ويترك وضع الدستور لنواب الأمة المنتخبين ويعفو عن الثائرين الذين يقدمون سلاحهم ويسلمون للسلطة ضمن خمسة عشر يوماً ما عدا الزعماء فإنه يضمن لهم الحياة فقط.

وكان صبحي بركات رئيس الحكومة السورية قد اعتقد أنه معزول لا محالة لذلك بادر

إلى الاستقالة، فاختار دوجوڤونيل الجنرال (أندريا Andrea) حاكماً عسكرياً على منطقتي دمشق وجبل الدروز.

ثم أذاع قرارين أحدهما يعلن العفو على الصورة التي بينها للوفد مزيداً عليها إعلان مصادرة أموال زعماء الثورة، والثاني بإجراء الانتخابات في مناطق حلب وحماه وحمص ودير الزور وأسكندرونة على أن يجتمع بعد ذلك كل نواب كل منطقة على حدة ويقرروا علاقة منطقتهم مع المناطق الأخرى.

وهكذا عاد الوفد إلى دمشق دون أن يحقق شيئاً.

وكان وفد آخر قد ذهب من دمشق إلى جبل الدروز لمفاوضة الثوار فعاد من دون طائل إذ تساءل الثوار عن الشروط التي يحملها الوفد، فلما علموا أن كل ما وعد به دجوڤونيل هو أنه يدعو للانتخاب الحر ويترك تقرير مصير المقاطعات لقرارت نوابها، رفض الثوار ذلك وطالبوا بالوحدة السورية والعفو العام واستبدال الانتداب بمعاهدة وجلاء الجيوش الفرنسية.

ثم فاوض دوجوڤونيل فريقاً من الوطنيين ليساهموا بحكومة برئاسة الداماد أحمد نامي[1] لتعمل على تحقيق ما يمكن تحقيقه من المطالب، فتألفت الحكومة من ستة وزراء ثلاثة منهم ممن يمثلون الحركة الوطنية، وأعلنت في بيانها أنها تقدم على الحكم على أساس دعوة جميعة تأسيسية لوضع الدستور وتحويل الانتداب إلى معاهدة وتحقيق الوحدة وتوحيد النظام القضائي وتأليف جيش وطني وإصدار العفو العام.

«يقول لطفي الحفار الوزير الوطني في الوزارة في مذكراته، (ص١٥٤): تسلمنا الحكم في ٥ مايس سنة ١٩٢٦ وبدأنا بالعمل والمطالبة بتنفيذ هذا البرنامج الذي أصبح بمثابة عقد رسمي عقده معنا المفوض باسم حكومته».

ويقول في حاشية الصفحة (١٥٧):

«لم نستطع أن نصرّخ في هذا البرنامج بتفاصيل الاتفاق الذي عقد بيننا وبين المسيو دوجوڤونيل بشأن تحقيق الوحدة السورية بناء على إصراره وقوله لنا: إن بيان ذلك يعرقل أعماله ويثير عليه اللبنانيين. فقد اتفقنا أن تدخل طرابلس الشام ضمن الوحدة السورية وأن تكون الميناء البحري للداخل وأن تدخل أيضاً بعلبك والطريق الحديدي الذي يصلها بطرابلس

(١) الداماد أحمد نامي: من مواليد بيروت سنة ١٨٧٨ درس في استنبول وعين أمين سر ولاية بيروت وتزوج بنت السلطان عبد الحميد فلقب بالداماد، وهو اللقب الذي كان يطلق على من يتزوج إحدى الأميرات.

الشام والبلاد التي على جانبيه وأن ينضم جبل الدروز وبلاد العلويين للوحدة السورية على أن نقوم نحن بمفاوضة الحكومات المجاورة وهو يسهل العمل ويوعز بالقبول. وقد أخذنا منه كتاباً يتضمن هذا الوعد حفظه أحمد نامي عنده. وقد بلغني أن اسكندر البستاني سكرتيره الخاص سرقه من عنده بناء على تشويق بعض الدوائر اللبنانية والموارنة وأخذ لقاء ذلك مبلغاً كبيراً من المال».

وفي آخر أيار سافر دوجوڤونيل إلى باريس ليعرض على حكومته صورة الموقف وما اتفق عليه مع الوطنيين على أن يعود سريعاً ومعه موافقة باريس على ما تقرر.

ولكن باريس لم توافق فاستقال ولم يعد. . .

على أنه قبل سفره كان قد وضع دستوراً للبنان وأنشأ فيه جمهورية ورئاسة وزارة ومجلس شيوخ إلى جانب مجلس نواب(١).

ولكن ذلك كله كان مظاهر لا حقيقة استقلالية وراءها، إذ أن كل شيء يخضع لموافقة الفرنسيين ويسير بتوجيههم! . . .

ولما خلا الجو للجنرال (أندريا) أخذ يعرقل عمل الوزراء الوطنيين ويعلن أن الثورة يجب أن تقمع بالقوة ولا سبيل للتفاوض.

فلما رأى ذلك الوزراء الوطنيون الثلاثة: فارس الخوري ولطفي الحفار وحسني البرازي قرروا الاستقالة: وفي ١٣ حزيران سنة ١٩٢٦ كانوا يتركون مناصبهم.

وفي الليل داهمت بيوتهم قوة عسكرية واعتقلتهم واعتقلت معهم سعد الله الجابري وفوزي الغزي وأديب الصفدي وبدر الدين الصفدي. وأرسل الجميع إلى قرية (الحسجة) في قلب الصحراء على الحدود العراقية محاطين بحراسة مشددة.

وفي آخر صيف سنة ١٩٢٦ نقل الوزراء إلى قرية (أميون) بمنطقة (الكورة) في لبنان الشمالي. ونقل سعد الله الجابري وفوزي الغزي والصفديان إلى قرية (دوما) اللبنانية.

وكان قد وصل المفوض السامي الجديد (بونسو) الذي أصدر أمراً في شهر تموز بإطلاق حريتهم للإقامة في مكان يختارونه في لبنان ما عدا طرابلس فاختاروا بلدة (بشري).

وفي خريف سنة ١٩٢٧ أذن لهم بالانتقال إلى بيروت والإقامة فيها. وفي ١٨ شباط سنة ١٩٢٨ أطلق سراحهم.

---

(١) يصف لطفي الحفار في مذكراته (ص١٨٠) دي جوڤنيل بأنه كان رجلاً شريفاً حراً بعيداً عن المناورات الاستعمارية والمراوغة.

الفصل الخامس والعشرون

تنظيم العمل الوطني السلمي

بعد انحسار الثورة كان لا بد من مواصلة السعي لتحقيق المطالب الوطنية سلماً بعد أن تعذر تحقيقها حرباً، فتنادى الوطنيون لعقد مؤتمر في بيروت في العشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٧ كان من أبرز من حضره: كل من هاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو مع إخوان لهما من سوريا، وعبد الحميد كرامي وعبد اللطيف البيسار وإخوان لهما من لبنان، وبعد عدة جلسات أصدروا بياناً مطولاً قدموه إلى المفوض السامي (بونسو) حوى المطالب الوطنية.

وبعد إطلاق سراح المعتقلين التقى الوطنيون جميعاً في دمشق وأعلنوا تأسيس (الكتلة الوطنية) وانتخبوا هاشم الأتاسي رئيساً لها فقادت (الكتلة) الحركة الوطنية في البلاد طيلة أيام الانتداب الفرنسي.

وكان أحمد نامي قد صُرف من الحكم وجيء مكانه بالشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للوزراء.

في العاشر من شهر آذار سنة ١٩٢٨ أصدر المفوض السامي قراراً بالدعوة إلى انتخاب مجلس تأسيسي في سوريا وعين موعد إجراء الانتخابات يوم العاشر من نيسان.

وكانت الانتخابات يومذاك تجري على درجتين، ينتخب في الدرجة الأولى منها من يعرفون بـ(المندوبين الثانويين)، وينتخب هؤلاء النواب المطلوب انتخابهم.

وتحدد موعد الانتخاب الثاني يوم الرابع والعشرين من نيسان.

وكان هناك ميل لدى الوطنيين إلى مقاطعة الانتخابات لما يخشى من التدخل لتزويرها، فقررت الكتلة الوطنية الدعوة إلى مؤتمر وطني عام يشمل مندوبين وطنيين عن جميع المدن

السورية، فدرس المؤتمر الأمر دراسة شاملة وانتهى إلى قرار بوجوب خوض الانتخابات والعمل على حمايتها من التزوير. ثم انصرف المؤتمرون كل إلى منطقته استعداداً لليوم الموعود.

وانجلى هذا اليوم عن فوز بيّن للوطنيين الذين بدا واضحاً أنهم سيسيطرون على المجلس.

وفي التاسع من شهر أيار جرى افتتاح المجلس التأسيسي الذي كان عدد نوابه سبعين نائباً، بحضور المفوض السامي (بونسو).

وكان أول مظهر للإرادة الوطنية المنبعثة عن عهد جديد للسيادة القومية، أنه حين أقبل المفوض السامي، همّ بعض نواب الأرياف بالوقوف تحية له فأشار إبراهيم هنانو إليهم بالجلوس، وقال لهم: إن السيادة هنا للأمة دون سواها، فجلسوا ممتثلين.

وانتخب هاشم الآتاسي رئيساً للمجلس، وانتخب نائباً أولاً له فوزي الغزي، ونائباً ثانياً فتح الله أسيون.

وكان فوزي الغزي قد بدأ يتلألأ في دمشق زعيماً للوطنيين فيها، فكان هو محور الحركة، ورأيه الرأي الأول في مقرراتها، ولولا موته المبكر الفاجع لكان له شأن أي شأن في المستقبل السوري كله.

وقبل أن نسترسل في تدوين الأحداث لا بد من وقفة عند موت فوزي الغزي لما في هذا الموت من عبر.

موت فوزي الغزي

بينا فوزي الغزي يزداد تألقاً يوماً بعد يوم، وقد انعقدت له زعامة دمشق، ولولا جلال السن في هاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو لانعقدت له زعامة سوريا كلها.

لقد انتخب هاشم الأتاسي لرئاسة المجلس التأسيسي وانتخب هو نائباً له، وما كان هو ليتقدم على هاشم الأتاسي رئيس المؤتمر السوري ورئيس الوزارة أيام الاستقلال الأول، ثم رئيس الكتلة الوطنية التي ينتمي هو إليها. وقد كان معلوماً لدى الناس أنه لولا ذلك لانعقدت الرئاسة لفوزي الغزي.

يروي لطفي الحفار فيما دونه عن بعض أحداث تلك الأيام أنه في اليوم الخامس من تموز سنة ١٩٢٩ فوجيء بالخبر الفاجع على هذا الشكل:

بينما كان يمر في شارع النصر في الطريق إلى مكتبه إذا به يسمع صوتاً ينادي: لطفي! لطفي! فالتفت فإذا بزكي الخطيب يدنو منه مضطرباً وهو يرتجف، فسأله ما بك؟ قل لي ما بك؟! فأعلمه بأن فوزي توفي هذا الصباح..

يقول لطفي الحفار: فاضطربت وأسرعنا إلى السيارة متوجهين إلى بيت الفقيد نستطلع الخبر الذي نزل علينا نزول الصاعقة... قبيل وصولنا إلى بيته بقليل شاهدنا محمد إسماعيل الطباخ خارجاً منه فأوقفنا السيارة ورأيناه يبكي، فقلنا والدموع في أعيننا: الخبر المشؤوم إذن صحيح فأخبرنا بما حدث قائلاً:

«لم يكن مريضاً، كما تعلمون، ولقد علمت أنه ذهب هذا الصباح مع عائلته وأولاده إلى قرية أخيه فريد في الغوطة، وكانت فيها والدته، وبعد أن تناول فطور الصباح جلس وراء المنضدة ليكتب دفاعاً في قضية أحد موكليه، وبينما كان يكتب شعر باضطراب وارتعاش في يديه ورجليه فصرخ، فأتى إلى جانبه أهله ولم ينقض على ذلك ثلث ساعة حتى أتته نوبة شديدة أصبح بعدها جثة هامدة... هذا ما أخبرني به أخوه فريد».

ويقول لطفي الحفار إنه اقترح على الإخوان الذين التقى بهم تشريح الجثة. وهكذا يكون لطفي الحفار أول من استراب بهذا الموت المفاجىء، وأيده في هذا الطلب بعض الكتلويين. فكانت نتيجة التشريح أنه مات مسموماً بمادة (الستريكنين) وأن ما تناوله منها يكفي في تقدير الأطباء لقتل عشرة أشخاص..

وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع على وفاته، كان خلالها رجال القضاء يراقبون المشبوهين، تبين أن الشبهة تحوم على ثلاثة: زوجته وابن أخيه رضا الغزي وابن عمه وجيه الغزي، فقبض على الثلاثة، وفي التحقيق معهم اعترفت الزوجة بأنها أعطته (برشانة) السم قبل وفاته بنحو ساعة، وذلك أنه كان يتناول يومياً دواء في (برشانة)، وأنها هي التي كانت تعطيه (البرشانة). فأعطته في ذلك اليوم (برشانة) السم بدل برشانة الدواء. واعترف وجيه بتحضير السم بالاتفاق معها ومع رضا الغزي (ابن أخ فوزي) الذي لا يتجاوز عمره العشرين سنة وقد كان عشيقها...

ومع أنه لم يكن هناك ما يمنعها من لقاء عشيقها ساعة تشاء، فقد أقدمت على تسميم زوجها لأنه كان عازماً على أن تقضي الصيف هي وأولادها في (بعلبك) بعيداً عن حرّ دمشق، فلم تطق فراق العشيق طيلة الصيف!..

وتحدث نجيب الريس في مقال له عن حب فوزي لزوجته وهو ما عرفه عندما كان رفيق فوزي في سجن جزيرة(أرواد):

«... وجاء أول بريد وردنا من دمشق جواباً على أول بريد أرسلناه إليها من أرواد....» إلى أن يقول نجيب الريس إن الرجل الذي يقوم ببعض حاجاتهم أخبره أنه ترك فوزي وهو يبكي، وحين كلمه لم يرد عليه، ولم يقطع عن البكاء..

ويسترسل الريس في الحديث إلى أن يقول إنه سأل فوزي عن سبب بكائه فأجابه:

«لقد جاءني كتاب من البيت فأثر في نفسي أن زوجتي وحدها وقد بعدت عنها وعن أولادي، ولقد قرأت هذا الكتاب أكثر من عشرين مرة، فكنت أبكي كلما أعدت قراءته لأنني أتذكر الآن كيف حيل بيني وبينها».

ثم يقول الريس: وهنا أفاض واسترسل في شرح حبه وإخلاصه لهذه الزوجة، وكيف أنه منذ تزوج بها لم تمل عينه إلى امرأة، ولم تستهوه امرأة. وأقسم أنه سافر إلى باريس سنة ١٩٢٢ وكان في نزوة شبابه وعنفوان نفسه وجودة صحته، ومكث فيها ما مكث وعاد إلى دمشق فما حاول ولا فكر أن يأتي أمراً لا ترضى به الرابطة الزوجية. ثم قال: إن من يطلب إلى امرأته أن لاتخونه يجب عليه هو أن يكون كالعذراء. وختم حديثه بتأكيد حبه لزوجته وسعادته بها وهنائه بهذا الحب...».

خرجت دمشق كلها تشيع جنازة فوزي الغزي، وتعطلت الأسواق وأغلقت المتاجر وأقفلت المدارس، وعم سوريا كلها حزن رهيب.

ووقف فارس الخوري على القبر يلقي قصيدة كان قد انتهى من نظمها قبل قليل. يقول فيها في بعض ما يقول:

سلوا القبور عن الصحب الألى ذهبوا فخر العروبة والصيابة النجب

ولوا غضاباً عن الدنيا وما ظلمت وخلفوا رفقة تبكي وتنتحب

عاشوا وللحق في أفواههم رسل ماتوا وللعهد في أيمانهم كتب

ماتوا كراماً وما في موتهم عجب حياة من عاش مظلوماً هي العجب

* * *

لا كان يوم تلا الناعي به خبراً ثرنا عليه وقلنا إنه كذب

قالوا قضى المدره المحبوب طالعه قضى الزعيم الجريء الفيصل الأرب

فيا له من حادث تستثار به ... كوامن النفس والآلام والنصب
حتى فشا فرأينا الشام واجمة ... تكاد من مسعر الأنفاس تلتهب
مصيبة ضاق عنها طوق واصفها ... عم البلاء بها والويل والحرب
لئن تكن نابت الفيحاء ما سلمت ... بيروت منها ولا حمص ولا حلب
يا راحلاً وقلوب الناس تتبعه ... وكل قلب له في سعيه إرب
يبكيك أحرار سوريا وأنت أخ ... يبكيك دستور سوريا وأنت أب
من للصعاب إذا اشتدت معاضلها ... من للخطابة يا ملسان من خطبوا
من للشؤون إذا ضاقت مسالكها ... من للكتابة يا نحرير من كتبوا
فكم أصبت ورب الرأي مرتبك ... وكم عصمت وحبل الأمن مضطرب
عرفت فيك سجايا كلها شمم ... عرفت فيك حديثاً كله أدب
شهدت فيك نشاطاً ما به حذر ... وهمة صلبة ما شابها تعب
كهوف (أرواد) مدت بيننا نسباً ... يا حبذا السجن بل يا حبذا النسب
حر الجزيرة أذكى من مودتنا ... فزاد حر قلوب حشوها لهب
أخا السجون أخا المنفى أخا وصبي ... ها قد فرق الموت ما ألف الوصب

* * *

يا خازن الدمع ها قد جاء موعده ... أخلق بدمعك هذا اليوم ينسكب
لمن بعمان وصنو الروح مضطجع ... بين الصفائح تحثى فوقه الترب
هذا الذي كان نوراً يستضاء به ... في صمته حكمة في نطقه ذهب
أولى النيابة تشريعاً وتضحية ... ورب نواب قوم كلهم نوب
ما بات عنا بهذا الخطب محتجباً ... من المكاره إلا اليأس واللغب
إن مات (فوزي) فما ماتت قضيتنا ... ردى المطالب لا يردى به الطلب
إن أدركت سيداً منا منيته ... فما علينا ونحن السادة العرب
قد عودتنا البلايا خوض لجتها ... إلى الحناجر إما غاصت الركب
لنا من الصبر درع لا ينهنهه ... ريب المنون ولا السيف الذي خضبوا

ولما أقيمت بعد أكثر من سنة حفلة تأبينية كبرى شارك فيها (شوقي) بقصيدة جاء فيها:

يا فوز تلك دمشق خلف سوادها ترمي مكانك بالعيون وترمق
ذكرت ليالي بدرها فتلفتت فعساك تطلع أو لعلك تشرق
والطير في جنبات (دُمّر) حوم يجد الهموم خلّيهن ويأرق
ويقول كل محدث لسميره أبذات طوق بعد ذلك يوثق

ويقول عن القاتلة:

عشقت تهاويل الجمال ولم تجد في العبقرية ما يحب ويعشق

ولم يكن فقدان فوزي الغزي نكبة آنية، بل كانت نكبة لها ما بعدها. فالكتلة الوطنية في دمشق كانت تنقصها القيادة الحاسمة، فأصبح رجال الكتلة بعده كلهم رؤوس. وعندما جاءت سنة ١٩٤٣ وجاء معها الاستقلال كان أبرز الكتلويين في دمشق شكري القوتلي، والقوتلي لا مغمز في وطنيته ونزاهته ونظافة كفه، ولكنه لم يكن رجل تأسيس دولة. فالاستقلال الذي وصلت إليه سوريا كان مؤداه قيام دولة لم تكن قائمة، وقيام دولة يحتاج إلى رجل دولة مما لم يكنه شكري القوتلي فعندما تولى رئاسة الجمهورية بدأ التخبط والتعثر، ولم يكتف بما حدده الدستور من مدة الرئاسة، بل سعى إلى تعديل الدستور فانتخب للمرة الثانية، وظلت الجمهورية في تخبطها وتعثرها حتى أدى الأمر إلى انقلاب حسني الزعيم وكان بعده ما كان . . .

ولو طالت الحياة بفوزي الغزي إلى يوم الاستقلال لأرسى قواعد الدولة أفضل إرساء. . .

ولنعد بعد هذا إلى سير الأحداث.

الدستور

كلف المجلس التأسيسي كلاً من هاشم الآتاسي وإبراهيم هنانو وفوزي الغزي أن يضعوا قواعد الدستور، فتولى ذلك فوزي الغزي مذاكراً فيما يدون زميليه، وكان الفرنسيون قد انتدبوا المسيو موغرا (Maugras) للمداولة مع الوطنيين في الأسس التي يبنى عليها الدستور، وراح رجالهم ينصحون بتوخي الاعتدال، ولكن الوطنيين صمموا على أن يكون الدستور دستور دولة مستقلة، وهكذا كان.

وفي السابع من شهر آب كان الدستور يطرح على المجلس التأسيسي للمناقشة مادة مادة فوافق عليه المجلس كما هو.

وكانت مواده مؤلفة من مئة وخمس عشرة مادة، فعقد المجلس جلسة في التاسع من آب حضرها المسيو موغرا وكيل المفوض السامي وخطب فيها طالباً حذف ست مواد من تلك المواد. وكان في حذفها ضياع الاستقلال المنشود.

والمواد التي طالب بحذفها هي التي تنص على أن سوريا البلاد المنفصلة عن الدولة العثمانية هي وحدة سياسية لا تتجزأ، ولا عبرة بكل تجزئة طرأت عليها بعد نهاية الحرب العالمية، وبأن لرئيس الجمهورية التي سيُنتخب حق إصدار العفو الخاص وعقد المعاهدات. أما العفو العام فلا يمنح إلا بقانون يصدره المجلس النيابي، وأن رئيس الجمهورية يختار الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم، ويعين الممثلين لخارج البلاد، ويقبل الممثلين الأجانب فيها، وأن تنظيم الجيش الذي سيؤلف لا بد من وضع قانون خاص به، وأن لرئيس الجمهورية أن يعلن الأحكام العرفية في الأماكن التي تحدث فيها اضطرابات عند الضرورة.

وقد اعتبر الفرنسيون أن هذه المواد تناقض الانتداب القائم فلا بد من حذفها. واكتفى موغرا بإلقاء خطابه وبادر إلى الخروج من الجلسة، فكان الخطاب قنبلة مزلزلة فاجأت النواب الذي رفضوا المس بأي مادة من مواد الدستور وأصروا على إقراره كما هو.

وهنا قام التباين بين رئيس الحكومة الشيخ تاج الدين الحسني وبين الوطنيين ووقعت الواقعة بين الفريقين. فعندما رد أحد النواب على خطاب (موغرا) وقف الشيخ تاج يقول: «ماذا يضرنا إذا أرجأنا البحث في هذه المواد إلى وقت عقد المعاهدة مع فرنسا». فرد عليه النواب وقال أحدهم: ماذا تكون قيمة هذا الدستور إذا جردناه من هذه المواد الأساسية؟ سوف يكون كالهيكل العظمي لا لحم فيه ولا دم.

وانتهت الجلسة بقرار المجلس بالتمسك بهذه المواد.

وكان رد المفوض السامي (بونسو) أن أصدر قراراً بتعطيل أعمال المجلس ثلاثة أشهر ابتداء من اليوم الحادي عشر من شهر آب.

وبعد مداولات ومطاولات، ولقاءات بين هاشم الآتاسي والمفوض السامي (بونسو) لم تسفر عن شيء فوجىء الوطنيون بقرار أصدره (بونسو) بتأجيل اجتماعات المجلس التأسيسي إلى أجل غير مسمى، فقرر الوطنيون إغلاق المدينة إغلاقاً عاماً ليوم واحد إعلاناً للسخط العام على هذا القرار.

وفي العاشر من تموز ١٩٢٩ كان موت فوزي الغزي.

وبعد الركود الذي أعقب تعطيل المجلس التأسيسي تنادى الوطنيون إلى عقد مؤتمر لهم في ١٩ تموز ١٩٢٩ في عين زحلتا بلبنان، وكان أول لقاء بينهم في غياب فوزي الغزي، فشعروا جميعاً بالفراغ الذي أحدثه هذا الغياب.

ويبدو جلياً مما دونه لطفي الحفار عن مداولات هذا المؤتمر ومقرراته أن الوهن هو الذي سيّرهم فيه، وأن اليأس هو الذي سيطر عليهم.

فبعد فشل الثورة المسلحة، وبعد تعطيل أعمال المجلس التأسيسي، وعدم وجود بارقة أمل بزحزحة الفرنسيين عن مواقفهم دب الضعف إلى النفوس! . . .

لقد تساءلوا بهذا النص: (هل حصلنا على شيء نافع للبلاد من سياستنا السلبية؟!)

ثم إنهم بعد ثلاث جلسات مطولة قرروا الاتفاق (على أن أساليب العنف والقوة ليست في مصلحة البلاد وأن المواقف السابية التي اتخذوها حتى الآن لم تؤد إلى نتيجة وأن الحكمة تقضي باتخاذ مواقف إيجابية).

وكان مؤتمرهم هذا بعد مرور حوالي عام على إغلاق المجلس التأسيسي (١١ آب) فلم ينسوا أن يقرروا الاحتجاج على إغلاق المجلس[١].

إنني أدون هذا الكلام في اليوم الحادي عشر من شهر آب ١٩٩١، وأنها لمصادفة طريفة أن يكون الشهر نفس الشهر الذي أعلن فيه إيقاف المجلس التأسيسي، وأن يكون تاريخ اليوم (١١) نفس ذلك التاريخ . . .

وأكثر من ذلك أن يكون الرقم (٨) من العشرينات هو نفس الرقم من التسعينات . . .

لقد عشت تلك الأيام تلميذاً في الدراسة الثانوية، وكنت مع رفاقي التلاميذ نعي تمام الوعي ما يتوالى على البلاد من شجون وما تكابد من محن. وندرك تمام الإدراك معالجة الوطنيين لما تجتازه البلاد من السيطرة الاستعمارية. ونعرف ما هم فيه من يأس يحملهم على تجنب العنف ويقودهم إلى اليقين بنيل الحقوق بالتفاهم والتفاوض! . . .

وأتذكر تمام التذكر أن تلك الفترة عرفت باسم فترة (التفاهم النزيه)، وهو اسم أطلقه عليها الوطنيون أنفسهم، ويعنون به أنهم يريدون بالتفاهم مع الفرنسيين أن يوصلوا البلاد إلى حقوقها، وقد قرنوا صفة (النزيه) بالتفاهم إشارة إلى أنه تفاهم لا على تجاهل الحقوق كما يفعل الحكام الذين نصبهم الفرنسيون، بل تفاهم على الوصول إلى تلك الحقوق . . .

---

(١) مذكرات لطفي الحفار. الصحفة ٢١٥.

لقد كنا نحن التلاميذ نؤمن بوطنيتهم وإخلاصهم، ولكننا لم نكن نؤمن بأسلوبهم الذي انتهوا إليه في مناضلة الفرنسيين.

لقد كان يعز علينا أن ننشق عنهم وننقلب عليهم لأنهم كانوا الصفوة التي لا تعوض... وفي الوقت نفسه كنا لا نستسيغ تفكيرهم الوهني، وأسلوبهم التفاهمي، ونؤمن بالكلمة الخالدة التي أطلقها فيصل بن الحسين أيام صراعه مع الفرنسيين، وهي: (الاستقلال يؤخذ ولا يعطى). فالفرنسيون لن يعطونا الاستقلال تفاهماً، بل نحن الذين يجب أن نأخذه منهم تقاتلاً، فإذا لم نستطع ذلك اليوم فإننا سنستطيعه غداً، أولا فبعد غد، أو بعد بعد غد...

لقد كنا نجادلهم فيتحملون منا الجدال، وينسبوننا إلى حماسة الشباب، وينسبون أنفسهم إلى حكمة الكهول...

إذا كان الصراع مع الاستعمار سنة ١٩٢٨ قد أدى في سنة ١٩٢٩ إلى الوهن واليأس، فمال المصارعون العرب السوريون إلى الإيجابية بعد السلبية وإلى التفاهم بعد العنف ـ كما عبروا هم عن ذلك بأنفسهم، فإننا سنرى أن الإيجابية مع الاستعمار لم توصل إلى نتيجة، وأن التفاهم قد آل إلى الخيبة. وأنه عندما عاد الأمر إلى السلبية، ورجع إلى العنف بعد ذلك بسنين بالإضراب الخمسيني سلّم الفرنسيون لتلك السلبية، ونزلوا على حكم العنف، ما سنأتي على ذكره في يوم من الأيام.

كاظم الصلح

ومؤرخ تلك الفترة النضالية يجب أن يدون ما كان لصوت وطني رفيع من وقفات قيادية بطولية، وتضحيات بالمال والجهد لا في سبيل بلاد الشام وحدها، بل في سبيل العروبة حيث كانت العروبة.

ذلك الصوت هو صوت (كاظم الصلح) الذي أصدر متعاوناً مع إخوته وشركاء نضاله: عادل وتقي الدين وعماد ـ أصدر جريدة (النداء)، فكانت صرخة العرب المدوية في وجه الاستعماريين الفرنسي والإنكليزي.

كان كاظم الصلح أحد أبرز صانعي الفكر القومي وبُناته وموجهي مؤسسات وحركات النضال العربي المختلفة الهادفة إلى تحرير الأفكار العربية وأهلها وإلى تحقيق وحدتها الشاملة وتقدمها الحضاري. وكان كاتباً بليغاً مبرزاً في الأدب السياسي يقل نظيره، ومقالتاه في رثاء فيصل بن الحسين ورثاء يوسف العظمة وغيرهما من المقالات تعتبر من عيون الأدب العربي

الحديث ولو جمع ما كتبه لكان منه كتاب خالد في الأدب الوطني والسياسي.

عام ١٩٣١ أسس كاظم الصلح جريدة النداء في بيروت فهذه الجريدة لعبت في أيامها دوراً فريداً تأسست لتنطق باسم الحركات التحررية القومية العربية في جميع ديار العرب وفي طليعتها لبنان. وكانت أكثر صحف العالم العربي انتشاراً وأبرزها أثراً في معركة التحرير والوحدة. وكافحت الاستعمار بحماسة وجرأة مثالية بجميع أشكاله، من حماية وانتداب، وقاومت المتخاذلين في كل قطر عربي. وحاربت الانقسامات العنصرية والطائفية والمذهبية. وأحدثت في الصحافة العربية الحديثة بما جندته من أقلام الطليعة المثقفة كثيراً من التطور والتقدم، واعتبرت بذلك لسان حال الحركة العربية الجديدة في المشرق والمغرب. فكان من الطبيعي أن تتعرض لضربات السلطات الاستعمارية بالتضييق على صاحبها وكتابها ومحرريها حتى كانت سنة ١٩٣٨ حين توقفت عن الصدور رازحة تحت أعباء ثقيلة من مختلف «الضغوط». ولم يؤسس كاظم الصلح الجريدة وحده إنما أسسها معه إخوته عادل وتقي الدين وعماد. وكانت جريدة النداء تمثل نتاج الأخوة الأربعة لا سيما كاظم وتقي الدين الذين قاما معاً بالدور الريادي الذي كانت تمثله هذه الجريدة وكان الاثنان يعتبران من حيث جدة الرأي القومي ومن حيث الفكر ومن حيث الكتابة الفنية قمة ما كانت فيه الصحافة العربية والفكر الوطني العربي في ذلك الوقت.

وقد اضطر كاظم الصلح حين بلغت نقمة السلطة الفرنسية عليه مداها وقررت اعتقاله إلى الخروج سراً من لبنان واختار العراق حيث اتخذ منه ساحة أخرى للنضال. ولم يعد إلى بيروت إلا بعد انهيار فرنسا في وجه الألمان وبروز أمل جديد في إمكان استئناف العمل العلني في بيروت حتى كانت سنة ١٩٤٣ المرحلة الفاصلة التي تم فيها النصر للوطنيين وانتزع المناضلون في لبنان وسوريا استقلالهما من يد فرنسا.

وفي تاريخ المؤتمرات الساحلية التي كانت تعقد في لبنان من أجل الوحدة السورية لعب كل من كاظم الصلح وتقي الدين الصلح أدواراً مرموقة ملحوظة ومسجلة. وجميع هذه الأدوار قد تتفق بصورة مشابهة، وكانت تدفع باتجاه السياق التاريخي المستقبلي ففي العام ١٩٣٥ حضر تقي الدين الصلح في مؤتمر الساحل ورفض التوقيع على بيان هذا المؤتمر وعلل هذا الرفض بأن البيان يجب أن يخلو من النعرة الطائفية وأن يفسح المجال للبنانيين من جميع الطوائف بالدخول معاً في عملية عربية تطويرية مشتركة ضد فرنسا بحيث لا يشعر فريق من اللبنانيين بأنه مقصي عن المعركة ضد الانتداب. وعام ١٩٣٦ بلغ هذا الاتجاه الصلحي ذروته

في الموقف الذي وقفه كاظم الصلح في أهم سنة من سنوات مؤتمر الساحل، صحيح أن مؤتمر الساحل كان يتكرر عقده، ولكن الجلسة الأهم أو المؤتمر الأهم كان عام ١٩٣٦ لأسباب عديدة عربية ودولية.

قام فريق من أعيان البلاد التي كان تعرف بمنطقة الساحل أي ساحل لبنان الحالي ومنطقة البقاع وجبل عامل ودعوا إلى مؤتمر عقدوه في بيروت وفيه عبروا بلسان سكان هذه المناطق عن مطالبتهم بضمها إلى سوريا مجددين بذلك الدعوة نفسها التي أطلقها مؤتمر الساحل الأول المنعقد سنة ١٩٣٣. ولكن حدث أنه في صميم خطة السير هذه وقف شاب وطني «كاظم الصلح» ممن اشتركوا بالمؤتمر ودعا إلى الأخذ بنظرة جديدة في المطالبة بالوحدة وخلاصتها تكييف هذا المطلب مع ضرورات كانت قائمة يومئذ منها تسهيل مهمة الوطنية السورية في تحرير سوريا من الاستعمار الفرنسي ثم استمرار تعبيد الطريق أمام الفئات اللبنانية لتمضي مجمعة في تحرير لبنان كله من الاستعمار على أن يستتبع هذه الخطة الجديدة تكريس للأهداف القومية العربية في مؤسسات أكثر شمولاً ومرونة تقوم بين البلاد العربية قاطبة بما فيها سوريا ولبنان بشكله الراهن وهذه النظرة تضمنتها رسالة بعنوان «مشكلة الاتصال والانفصال» التي كانت في الواقع أساس الميثاق الوطني اللبناني. وكان صاحب هذه الرسالة هو كاظم الصلح الذي كتبها كوجهة نظره من مقررات مؤتمر الساحل عام ١٩٣٦.

إن الرسالة المعروفة «بمشكلة الاتصال والانفصال» هي أحد أهم وثائق العمل الوطني والسياسي في لبنان، وهي من الرسائل التي تمثل بمجملها وتفاصيلها نظرة مستقبلية لا إلى لبنان كما هو بل إلى لبنان كما يجب أن يكون من حيث استقلاله وديمقراطيته وعروبته وكيفية تعامله مع المنطقة العربية وكيفية تعامل المنطقة العربية معه.

كان كلام كاظم الصلح جديداً في زمنه، ولم يلبث فيما بعد أن أصبح الفكر السائد في الحياة الوطنية اللبنانية.

وقد أوجس الفرنسيون من هذه الحركة البارعة التي أخذ يقودها الصلحيون الأربعة، إذ استطاعت أن تجذب الكثيرين من أهل الرأي والسياسة والمثقفين المسيحيين إلى صفوف النضال ضد الانتداب، والمطالبة بالاستقلال التام والاتجاه نحو عروبة لبنان والتعاون مع بقية الدول العربية في نضالها المشترك ضد الاستعمار بكل ألوانه.

وكانت جريدة «النداء» هي حاملة هذه الفكرة إلى الشعب حيث كونت تياراً وطنياً لا طائفياً يجمع الفئات الشعبية بمسلميها ومسيحييها فقامت حركات وانتفاضات متعددة تتمثل

بالاضرابات والمظاهرات برزت فيها وحدة اللبنانيين كعنصر جديد لم يعرف من قبل. ولذلك كان الفرنسيون كما هو شأن اللبنانيين والعرب، ينظرون إلى هذه الجريدة على أنها حركة، ويسمونها كذلك، مما يفسر القمع الشديد الفريد الذي كانت تتعرض له وقد بلغت الأيام التي عطلت فيها الجريدة من قبل السلطة الفرنسية نصف سني صدورها، حتى أقفلت سنة ١٩٣٨ نهائياً إذ لم تعد السلطة تتحمل صدورها في ظروف الحرب التي كانت على الأبواب.

وقد كان على لبنان أن ينتظر حتى العام ١٩٤٣ لتُطبق أفكار كاظم الصلح فيكون «الميثاق الوطني» سياسة رسمية للدولة فالمقصود بكلمة «الميثاق الوطني» الآن والمفهوم منها شعبياً هو أن الميثاق يعني الاتفاق الذي جرى في الدولة اللبنانية عام ١٩٤٣ على السياسة الاستقلالية والسياسة العربية.

عام ١٩٤٥ أسس كاظم الصلح في لبنان حزب النداء القومي وهذا الحزب أنشىء ليحمل الرسالة التي حملتها جريدة النداء أيام الانتداب وقد ضم الحزب لبنانيين من جميع الفئات وكانت الطليعة فيه تلك المجموعات من الشبان ومن المفكرين الذين قادوا حركة الاستقلال أثناء الانتداب ثم أزمة الاستقلال سنة ١٩٤٣ وفيما بعده هذه المجموعة التي كات تمثل استمرار الروح الوطنية كانت تتطلع إلى إقامة الدولة اللبنانية على أسس وطنية متطورة في الاجتماع وفي الاقتصاد وفي الثقافة. فالاستقلال لا يمكن أن يأتي ملبياً لأحلام المناضلين أيام الانتداب ما لم يكن له دور خاص تقوم به الطليعة اللبنانية وعلى هذا الأساس قام هذا الحزب.

فشل التفاهم

ظل الوطنيون السوريون (الإيجابيون) و(اللاعنفيون)، يلتقون برجال فرنسا مطالبين، وظل هؤلاء يماطلون ويجادلون. وقابل رئيس الوطنيين، المفوض السامي (بونسو)، فعاد يائساً فأصدروا في ١٣ نيسان ١٩٣٠ بياناً يشرح الأوضاع، قدمت له جريدة الشعب بقولها: (ها هو البيان الذي انتظرته الأمة بفارغ الصبر، وها هو يسرد لها مراحل المفاوضات التي دارت بين الجمعية التأسيسية وبين الفرنسيين، فمنها يتضح إلى أي حد مشى الوطنيون في سياسة التفاهم، وإلى أي نقطة وصلت إليها مجهوداتهم ومساعيهم...) إلى آخر ما قالت جريدة الشعب...

وأخيراً كانت نتيجة (التفاهم النزيه) و(اللاعنف) أن أصدر المفوض السامي بونسو في ٢٤ آيار ١٩٣٠ قراراً بحل المجلس التأسيسي.

ونقف عند هذا الحدث، تاركين الحديث عن تسلسل الأحداث بعده إلى كتاب آخر.

الفصل السادس والعشرون

الغــارة الصهيـونية

> الصهيونية عرفت في أوروبا باسم (سيونيزم) المأخوذة من كلمة (سيون) التي هي (صهيون). وصهيون في الأصل اسم جبل في القدس، ولكنها تعني القدس وما إليها.

وقد اتخذ اليهود (الصهيونية) شعاراً لهم انتساباً إلى القدس التي هي رمز فلسطين كلها، وأصبحت هذه الكلمة تعني عندهم تأسيس دولة لهم في فلسطين يهاجرون إليها من كل مكان.

وأول انبعاث علني لها كان في القرن التاسع عشر في أوروبا الشرقية لا سيما في روسيا ورومانيا، ووصفنا الانبعاث بالعلني، لأنها كانت قبل هذا العلن مكتومة في صدورهم منذ القرون الأولى.

ففي سنة ١٨٨١ عانى اليهود حملة عليهم في روسيا أدت إلى إجلاء ستمئة ألف يهودي وإسكانهم في أماكن خاصة، وجرى عليهم مثل ذلك في رومانيا، وامتد هذا الأمر إلى أوروبا الغربية، كما طوردوا في الجزائر.

وكانت النزعات القومية قد تحركت في البلقان وأخذت شعوبه في بلغاريا ورومانيا وبلغاريا واليونان وصربيا تستقل وتؤلف كياناتها الموحدة، كما كانت قد قامت الوحدتان الإيطالية والألمانية.

وهذا كله كان حافزاً لهم على التفكير العلني بإقامة دولة لهم ينكفؤون إليها متجمعين فيها.

وفي أوائل ستينات القرن التاسع عشر برزت الكتابات الصهيونية داعية إلى العودة إلى فلسطين، وكان أول كتاب صدر لليهود في ذلك هو كتاب (البحث عن صهيون) الصادر سنة ١٨٦١ لمؤلفه (هيرش كاليشر). وبعده بعام صدر كتاب (روما والقدس) لمؤلف آخر، وفيه الدعوة الصريحة إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين. كما أن (دافيد غوردن) جاهر بما سماه (دين العمل) مؤكداً على وجوب استعمار اليهود لفلسطين والممارسة الفعلية لتكوين اليهود أمة كغيرها من الأمم.

على أن أقوى ما صدر في هذا الموضوع هو كتاب (التحرير الذاتي) (auto-emancipation) الصادر ١٨٨٢ لمؤلفه (ليون بينكر) الذي درس الوضع اليهودي العالمي وانتهى إلى الدعوة إلى وطن قومي يهودي، ولكنه لم يحدد مكانه في فلسطين. بل قال: في فلسطين أو أمريكا.

على أن الأمر لم يكن أمراً جماهيرياً بل ظل محصوراً في كتابات الكاتبين وتفكير المفكرين حتى كان العام ١٨٨١ الذي أشرنا إليه فيما تقدم من القول، ففيه اغتيل القيصر الروسي الكسندر الثاني ما أدى إلى مجازر يهودية وإجلاء مئات الألوف من اليهود، وانهيار الحركة الاندماجية اليهودية (Haskalah) وتأليف جمعيات صهيونية محلية بدلاً عنها باسم (حب صهيون)، ونودي بالهجرة إلى فلسطين والدعوة إلى إحياء اللغة العبرية.

ونجحت حركة الشباب الصهيوني التي عرفت باسم (البيلو)، والتي كان هدفها السعي إلى هجرة يهودية إلى فلسطين ـ نجحت في فتح باب الهجرة واستطاعت سنة ١٨٨٢ تهجير عشرين يهودياً إلى فلسطين كانوا طليعة الهجرة الأولى.

وقد استطاعت هذه الهجرة امتلاك قرى عربية حولتها إلى مستعمرات صهيونية كانت هي قواعد الاستيطان الزراعي فيما تلا ذلك من مراحل.

ولم ينتظم أمر (الصهيونية)، ولم تخرج عن كونها اتجاهات مبعثرة إلا يوم برز اليهودي النمسوي (تيودور هرتزل) رسولاً لها فدعا إلى عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة (بازل) بسويسرا في ٢٧ آب ١٨٩٧م فحضره ٢٠٤ مندوبين يمثلون شتى الجماعات الصهيونية المنتشرة في أنحاء العالم.

ولد تيودور هرتزل سنة ١٨٦٠ من أسرة مجرية وعكف على التعمق في دراسة اللغة الألمانية وتفوق في علومها وآدابها وعمل محرراً في جريدة (نوفيل بره سي ليبر) التي كانت

تصدر في ڤينا. وأقام في باريس سبع سنين مراسلاً لها وأصدر كتاباً باسم (سراي بوربون) تحدث فيه عن السياسيين الفرنسيين، ثم كتب في القصص والروايات التمثيلية. ولم تكن له عناية بعلوم الدين اليهودي ولا باللغة العبرية قليل الاختلاط بأحبار اليهود. وخلال إقامته في باريس حدثت قضية (دريفوس) واشتدت النقمة على اليهود في الجزائر بسبب إفلاس بعض اليهود فادُّعي عليهم بأن إفلاسهم احتيالي، وأثار عليهم الصحفي (مكس ريجيس) عداء شديداً ما أدى إلى مهاجمتهم ونهبهم. وامتد الأمر إلى فرنسا وغرب أوروبا بعد ما كان في شرقها وحده مما نبه هرتزل فألف وهو في باريس رسالة (الدولة اليهودية) سنة ١٨٩٥.

الفصل السابع والعشرون

قيام الدولة اليهودية

قلنا أن أمر الصهيونية لم ينتظم إلا بعد انعقاد مؤتمر (بازل)، وقد انجلى المؤتمر لا عن مقررات نظرية تنتظر التطبيق العملي بل عن مقررات عملية بإعلان قيام الدولة اليهودية، ومباشرة التقدم بها حتى تستقر خطوة بعد خطوة في فلسطين.

كان المؤتمر في حقيقته مجلساً تأسيسياً وضع دستور العمل وشكل قوة تشريعية وقوة تنفيذية على رأسها هرتزل، ثم خلفه بعد موته (ماكس نوردو). كما اعتمد على الأخص قيام وزارة مالية تجبى إليها الضرائب المفروضة على اليهود، وهي (شاقل) على كل يهودي يدفعه سنوياً[1] ووضعوا طوابع بريد تلصق على رسائل اليهود، وفتحوا باب التبرع. وأنشأوا المصرف اليهودي برأس مال قدره مليونا جنيه إنكليزي مقره الرئيسي في لندن وله فروع في استنبول والقدس ويافا وحيفا وبيروت. وسموا الفروع بأسماء لا تلفت النظر، فكان اسمه في استنبول (إنكلوليفانيتن) وفي القدس ويافا وحيفا وبيروت (إنكلو بالسناين). كما أنشأوا مصرفاً آخر باسم (البنك اليهودي القومي).

وهكذا صارت الدولة اليهودية حقيقة قائمة تنقصها الأرض التي بدأوا بالاستيلاء عليها شيئاً فشيئاً. وبدىء بتنفيذ ما سمي (برنامج بازل)، وبنيت هيكلية تنفيذه وحددت اهدافها وهي استعمار فلسطين بالعمال الزراعيين والصناعيين وإذكاء الشعور القومي اليهودي وتنظيم اليهودية العالمية والسعي للحصول على الموافقة الحكومية التي لا بد منها.

(١) **الشاقل**: هو الوحدة النقدية في الدولة اليهودية القديمة، كما هو اليوم.

وصرفوا جهداً كبيراً في (الإعلام) وركزوا في ذلك على استنبول عاصمة الدولة التي يسعون إلى موافقتها على أهدافهم، فبذلوا المال لجرائد استنبول وخصوا جريدة (جون ترك) بالقدر الأكبر من المال.

وأقبل أغنياؤهم أمثال البارون (هرش) والبارون (دي روتشيلد) على التبرع بالمال لشراء الأرض في فلسطين فأنشأوا المستعمرات التي أقبل إليها يهود روسيا وأوروبا الشرقية.

وأول مستعمرة صهيونية أنشئت هي مستعمرة (ريشون له زيون) أنشأها سنة ١٨٨١ مهاجرو يهود روسيا.

وفي سنة ١٨٨٢ تدفقت من روسيا أعداد كثيرة من اليهود إلى فلسطين فأسسوا فيها الجميعات الاستعمارية باسم (شوفيفي زيون) ومعناها: (الغيورون على صهيون) وراحوا يجمعون المال وينشؤون الشركات ويشترون الأراضي لا سيما في أرباض القدس وغيرها من المدن. وكانت طريقتهم في إنشاء المستعمرات أن يشتروا أرضاً واسعة بحيث تتسع لخمسين منزلاً أو أكثر، ويبنون عليها المنازل المؤلف كل واحد منها من غرفتين أو ثلاث غرف ومطبخ، ويسلمونه إلى المهاجر ليدفع ثمنه مقسطاً على خمس عشرة أو عشرين سنة.

وانتشرت جمعيات (شوفيفي زيون) في أوروبا الشرقية وراحت تحرض اليهود على الهجرة إلى فلسطين معينة لهم بالمال.

وراح كتاب اليهود يكتبون في الكتب وفي الجرائد داعين إلى الهجرة، فمن ذلك الرسالة الشهيرة (أروهات بات أمي) ومعناها: (مجموعة بنت أمتي) لكاتبها (إسحاق رولف). وقامت في القدس جريدة (الهاشهار) تجاهر بالدعوة إلى الاستعمار الصهيوني في فلسطين وامتلاكها تدريجياً. وقد كان في هذا الجهر خيانة للدولة وخروجاً على القانون ما أدى إلى محاكمة المسؤول عن الكتابة في الجريدة (شرين يهودا) والحكم عليه، فاستأنف الحكم إلى بيروت فوسّط الوجهاء المسلمين والمسيحيين فأعانوه لدى الحكام على التبرئة فتبرأ وبطل الحكم.

وكما حدث في عصرنا من تدفق اليهود إلى فلسطين بسبب اضطهاد (هتلر) لهم في ألمانيا، حدث تدفقهم يومذاك بسبب اضطهاد روسيا ورومانيا ودول أوروبا الشرقية لهم. وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٨٤ عقدت جمعيات (شوفيفي زيون) وجمعيات يهودية أخرى مؤتمراً حضره مندوبون عن خمسين جماعة يهودية جرى البحث فيه في أمر شؤون المستعمرين وتنظيم مساعداتهم وفي ١٥ حزيران سنة ١٨٨٧ عقد مؤتمر آخر في (درسغنك

drusgenik) لنفس الغاية. وفي سنة ١٨٨٩ عقد مؤتمر ثالث في (فيلنا) ببولندا حضره ٣٨ عضواً عن ٣٥ جميعة من الجمعيات العاملة على تهجير اليهود واستعمار فلسطين.

وكان من مساعي هرتزل إنشاء الدولة اليهودية على ما تقدم ذكره، ومن أهم مؤسساته فيها إنشاء برلمان لها ينعقد في كل سنة على شكل مؤتمر وإيجاد موارد مالية سنوية دائمة لها، وحدد نظريته في رسالته باسم (يودن شتات Yudenstaat) أي: (الدولة اليهودية).

وكما قلنا من قبل فإن ما كان ينقص هذه الدولة هو: الأرض. وقد تكفلت جميعات (شوفيفي زيون) بإيجاد الأرض، وأخذت هذه الأرض تتسع يوماً بعد يوم.

وركز الصهاينة على الإعلام لترويج دعوتهم في العالم كله فأنشأوا صحفاً في روسيا والنمسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا وبلغاريا وفي مصر. كما أصدروا في القدس عدة صحف بالعبرانية، ووجهوا أقصى اهتمامهم في هذا الأمر على الدولة العثمانية، فأصدروا في استنبول وسلانيك وأدرنة جرائد بالأسبانية والفرنسية، وأشهر جرائدهم الفرنسية في استنبول جريدة (أورور) ومعناها الشفق. على أنهم عمدوا إلى رشوة الصحف التركية، وأشرنا فيما تقدم إلى جريدة (جون ترك)، ونشير هنا إلى جريدة (إقدام) التي أقنعوا صاحبها أحمد جودت بأن يصدر جريدة باللغة الفرنسية باسم (أوريان) وقام بالإشراف على تحريرها (أبرفوا).

أما جريدة (جون ترك) التي صدرت بالفرنسية فخصصوا لصاحبها جلال نوري راتباً شهرياً وعينوا واحداً من يهود روسيا مشرفاً على تحريرها فراجت الجريدة رواجاً كبيراً وغدت أقدر جرائد استنبول على تقصي الأخبار، وعدا اليهودي المشرف على تحريرها، فقد جعلوا محرريها من غير اليهود لئلا يسيء الناس الظن بها. وعدا عما خصوا به صاحبها من مال، فقد جعلوا لها في بنك (أنكلو ليفنانتين) اعتماداً سنوياً ١٥٠ ألف فرنك يستطيع صاحب الجريدة أن يسحب منه ما يشاء لتأمين نفقات الجريدة.

وامتدوا إلى الجرائد العربية فرشوا جريدة (النصر) الصادرة في بيروت وجريدة النفير الصادرة في القدس وجريدة الأخبار الصادرة في يافا وغيرها من الجرائد.

وعمدوا في ذلك إلى طريقة شيطانية فكانوا يوحون للجرائد العربية بالدفاع عن الصهيونية، فتعمد جريدة (جون ترك) إلى ترجمة ما نشر في هذه الجرائد. . .

وغدا مكتب جريدة (جون ترك) الذي أقاموه في أعظم شارع من شوارع استنبول، وهو شارع تقسيم، وفرشوه بأنفس ما يفرش به مكتب ـ غدا ملتقى للوزراء والكبراء ورجال السياسة، يتحركون كلهم بمحرك صهيوني.

قلت إن مؤتمر بازل الأول أعلن قيام الدولة اليهودية ببرلمانها وقوتها التنفيذية وضرائبها، فأخذت هذه الدولة تكمل كل مظاهر الدولة فأصدرت طابعاً بريدياً، ولحنت نشيداً وطنياً سمته (هاتكوه) ومعناها الأمل، صار يعزف في الحفلات والأعياد، وهذا مطلعه مترجماً إلى العربية:

بعد لم يضع أملنا
الأمل الروحاني
لنكون أمة حرة بأرضنا
أرض صهيون والقدس

كان هذا بعد ما بدأ إنشاء المستعمرات في فلسطين. أما قبل ذلك، فقد كان المقطع الثالث هكذا:

لنرجع إلى أرض أبائنا

ولم ينقص الدولة، العَلَم، فقد أعدوا العلم ورفعوه في مجتمعاتهم ومنتدياتهم

تنبه العرب وبدء الكفاح

وما بين سنة ١٩٠٥ إلى ١٩٠٧ بدأ ما سمي باسم (الهجرة الثانية)، وكان من أبرز قادتها (دافيد بن غوريون). ومهاجرو هذه الهجرة كانوا يتمتعون بالتنظيم ويتصفون بالتعصب ما أدى بهم إلى مقاطعة العمالة العربية، وهو ما أغضب الفلاحين العرب، وإلى تنبيه الناس لما يجري فثارت النقمة على الإقطاعيين بائعي الأرض الواسعة وفيهم من هم غير فلسطينيين.

وجاء العام ١٩٠٩ فكان عام اليقظة وتفهم حقيقة ما يجري، فساد الحديث عن خطر الهجرة اليهودية، وأخذت جريدتا: الأصمعي، والكرمل، وكانتا يومذاك الصحيفتين الوحيدتين في فلسطين ـ أخذتا في التنبيه إلى هذا الخطر والدعوة إلى مقاومته، وانتقل الأمر إلى صحف بيروت ودمشق.

وقام نواب فلسطين في المجلس النيابي العثماني (المبعوثان) بالإعراب عن معارضة العرب للصهيونية ولهجرة اليهود. ويروي روحي ياسين الخالدي الذي كان نائباً في مجلس المبعوثان أن محاولة جرت لعقد المؤتمر الصهيوني في استنبول أو أي مدينة من مدن الدولة العثمانية وجرت مفاوضة رئيس مجلس المبعوثان أحمد رضا، فنبهه الخالدي إلى مخاطر ذلك وعارض في عقد هذا المؤتمر فاستجاب أحمد رضا للخالدي ورفض البحث في هذا

الموضوع ما أثار نقمة (البرفوا) اليهودي المشرف على جريدة (جون ترك) فشن حملات شعواء على أحمد رضا.

ومن أهم ما أقامه اليهود في هذه المرحلة من مؤسسات: (مكتب فلسطين) الذي أسس سنة ١٩٠٨ وتولى إدارته البروسي القدير (أرثور روبين ١٨٧٦ ـ ١٩٤٣)، فصار هذا المكتب الهيئة العليا المشرفة على كل النشاطات الصهيونية في فلسطين لا سيما أمر شراء الأراضي ما تجريه منه المؤسسات الصهيونية الرسمية أو الشركات الخاصة أو الأفراد.

ووضع منهجاً لشراء الأراضي يقضي بالاستيطان على محاور ثلاثة: الأول السهل الساحلي بين يافا وحيفا، والثاني السهل الداخلي بين حيفا وطبريا، والثالث حوض الأردن من طبريا إلى أعالي النهر.

وكان الانتباه إلى الخطر الصهيوني قد أدى إلى الاحتجاجات العربية وإرسال البرقيات. وفي العام ١٩١٠ ظهرت دعوة إلى مقاطعة البضائع اليهودية. وفي العام ١٩١١ أُسس (الحزب الوطني العثماني) الذي كرس جهوده لمحاربة الخطر الصهيوني. وفي شهر آب سنة ١٩١٣ أعلنت جريدة فلسطين أنها ستزيد عدد صفحاتها لتتمكن من نشر ما يفد إليها من العرائض والاحتجاجات الكثيرة على الصهيونية. وفي الشهر نفسه نشرت جريدة الكرمل في صفحتها الأولى نبأ قيام تظاهرة كبيرة في نابلس احتجاجاً على عزم الحكومة على بيع أراضي بيسان المملوكة من الدولة. وما لبثت الجريدة أن أعلنت عن قيام (جميعة مكافحة الصهيونية) في نابلس وإنشاء فروع لها في بعض المدن. وفي السابع من تموز سنة ١٩١٣ نشرت الكرمل نداء إلى الفلسطينيين تلقته من القدس جاء فيه:

«. . . هل تقبلون أن تصبحوا عبيداً للصهيونيين الذين جاءوا لطردكم من بلادكم مدعين أنها بلادهم؟ . . . أيرضيكم ذلك أيها المسلمون والسوريون والعرب؟. إننا نؤثر الموت على أن نسمح بأن يحدث ذلك. . .».

وحث النداء الشعب على الضغط على الحكومة لحظر بيع الأراضي الحكومية للأجانب وتشجيع الصناعات الوطنية ومحاربة الهجرة الصهيونية. . .

وعبرت الانتخابات النيابية التي جرت عام ١٩١٤ لمجلس المبعوثان عن جو البلاد حيث أعلن جميع المرشحين معارضتهم القوية للصهيونية.

وفي الحرب العالمية الأولى نشطت الحركة الصهيونية للحصول على فلسطين بإعلان يصدر عن الدول المتحاربة بما ينطبق على معاهدة (سايكس ـ بيكو) في تجزئة البلاد العربية،

فحصلت على وعد بتأييد بريطانيا لأمانيها في إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين عرف بوعد بلفور (٢ تشرين الثاني ١٩١٧).

وسعت الإدارة العسكرية الإنكليزية التي حكمت فلسطين من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٢٠ إلى تهدئة عرب فلسطين وذلك بإخفاء الحقائق عنهم والتوفيق ما أمكن بين الزعماء العرب والصهاينة تمهيداً لفصل فلسطين عن سوريا وتمكين السيطرة الاستعمارية عليها.

وقد كان الفلسطينيون جزءاً من النهضة العربية العاملة قبيل الحرب وخلال الحرب، وهم اليوم جزء من حملة الأماني العربية في الاستقلال والوحدة، لذلك كان العلم العربي المربع الألوان علمهم الذي رفعوه في شهر آيار سنة ١٩١٨ والنشيد القومي العربي نشيدهم الذي أنشدوه.

ثم انطلقوا في إنشاء النوادي والجمعيات، فكان لهم أول ناد نسائي عربي. وفي مطلع العام ١٩١٩ عقدوا مؤتمراً للنظر في أمورهم والبحث في مصيرهم ورفع مطالبهم إلى مؤتمر السلام المنعقد في باريس، هذه المطالب التي تتمحور حول رفض تطبيق وعد بلفور، واعتبار بلدهم الجزء الجنوبي من سوريا. ثم كان لهم ممثلوهم فيما سمي (المؤتمر السوري) المنعقد في دمشق باعتباره (برلمانا) للدولة العربية الناشئة في سوريا الداخلية، كما كان منهم وزير في أول وزارة قامت عندما نادى هذا المؤتمر بقيام الاستقلال وإعلان ملكية فيصل في ٨ آذار سنة ١٩٢٠.

وفي شباط سنة ١٩٢٠ قامت تظاهرة عربية كبرى، ثم تلاها في آذار تظاهرة تأييداً لإعلان الاستقلال وملكية فيصل الشاملة لسوريا الشمالية وسوريا الجنوبية (فلسطين).

ثم قام أول صدام مسلح مع اليهود والإنكليز، وذلك بهجوم تنظيمين فلسطينيين سريين على مستعمرتين صهيونيتين تقعان قرب الحدود السورية قتل فيهما الكابتن (جوزف ترا مبلدور) وستة يهود.

وتكاثر احتشاد جماهير الزوار المسلمين في القدس، وهم القادمون للمشاركة في احتفال موسم النبي موسى في نيسان ١٩٢٠ وتأجج الغضب في الحشود فأثار انتفاضة دامية استمرت طوال ما بين الرابع من نيسان والعاشر منه فأعلنت الأحكام العرفية، وانجلت الوقاع عن ٢٥١ إصابة معظمها في اليهود، وجرح سبعة جنود بريطانيين بأيدي المتظاهرين العرب، وأصيب العرب بثمان وعشرين إصابة بينها أربعة قتلى بالرصاص، وحكم بالسجن على ٢٣ إنساناً.

وبدأ تصميم الإنكليز على تهويد فلسطين بتسليمهم الحكم فيها إلى يهودي صهيوني إنكليزي هو (هربرت صموئيل) بتعيينه أول مندوب سام إنكليزي في فلسطين، فأخذ ينفذ خطة إنكليزية هي التطبيق التدريجي للتهويد عن طريق الهجرة والاستيطان.

ثورة العرب

وجاء تشرشل وزير المستعمرات لزيارة فلسطين سنة ١٩٢١ فجوبه بمظاهرات عربية تنادي بسقوط وعد بلفور ورفض التهويد. وأصر الوزيد على إعلان إنفاذ وعد بلفور. فتحدى العرب قرار الحكومة منع المظاهرات وتظاهروا واصطدموا بالشرطة وكثرت الإصابات.

وفي يافا قامت في شهر آيار ١٩٢١ ما يمكن تسميته ثورة امتدت من المدينة إلى الريف وانجلت عن ٩٥ قتيلاً بينهم ٤٨ عربياً و٤٧ يهودياً.

وفي تشرين الأول ١٩٢١ وقعت اصطدامات دامية في القدس قتل فيها خمسة يهود وثلاثة عرب وأصيب ٣٦ شخصاً بجراح.

وفي آب سنة ١٩٢٩ التقى العرب واليهود في القدس بمواجهات ضارية امتدت إلى مناطق أخرى ووصلت إلى المستعمرات الصهيونية نفسها أسفرت عن ١٣٣ قتيلاً يهودياً و٣٢٩ جريحاً، وعن ١١٦ شهيداً عربياً و٢٣٢ جريحاً.

وعرف هذا الحدث بثورة البراق.

وفي أواخر هذا العام تألفت عصابة العلم الأخضر المؤلفة من سوريين وفلسطينيين وقامت بهجمات مسلحة على الإنكليز واليهود معاً، فتعاون عليها الإنكليز والفرنسيون فقضوا عليها بعد شهور من بروزها.

وفي العام ١٩٣٣ نظم العرب سلسلة تظاهرات عنيفة كان أهمها تظاهرة يافا في تشرين الأول، فاستشهد فيها ١٢ عربياً وجرح ٧٨ وقتل شرطي واحد وجرح ٢٥.

وكان لمعمعة يافا دوي عنيف في أنحاء فلسطين فأعلن الإضراب العام في البلاد وحدثت صدامات في حيفا ونابلس وأقيمت المتاريس في شوارع حيفا وهوجمت محطة سكة الحديد فأطلقت الشرطة النار على الجماهير فأصيب العشرات بالجروح، وفرضت السلطة منع التجول.

وفي ٢٩ تشرين الأول وقعت في حيفا صدامات قذف فيها المتظاهرون العرب القنابل اليدوية على الشرطة، فأطلقت الشرطة النار عليهم فأصيب الكثيرون إصابات فادحة.

وكان اليهود قد اشتروا أراضي وادي الحوارث الواسعة. وفي كانون الثاني سنة ١٩٣٥ جاءت الشرطة لتقتلع فلاحيها الساكنين فيها منها، فقاومها الفلاحون ووقعت معركة بين الفريقين انجلت عن قتل عربي وإصابة سبعة شرطيين إنكليز وخمسة شرطيين عرب بحجارة الفلاحين. وتم إجلاء الفلاحين بقوة السلاح.

وقد كان لحدث وادي الحوارث أصداء أليمة في النفوس ما أوحي لي يومذاك بقصيدة قلت فيها:

يا نازلاً بالواد أبن عن الحمى	**تلك السيوف البيض والأعلام**
أين العراب الجرد في حلباته	**أين الأغاني ثم والأنغام**
لهفي له لا الخيل تردي حوله	**مرحاً ولا العرب الكرام قيام**
خف القطين فلا القباب كعهدهم	**فيه ولا تلك الخيام خيام**
نار القِرى بعد الرحيل خبت فما	**يرجى لها بين البيوت ضرام**

وكان الشيخ عز الدين القسام قد آمن بالثورة المسلحة على الإنكليز لأنهم أصل البلاء، فأخذ يعد لها سراً، والقسام سوري المولد قدم إلى يافا سنة ١٩٢١ لجوءاً إليها من الفرنسيين الذين كانوا يطاردونه واستقر فيها، وبمرور الوقت عمل في المحكمة الشرعية، واستغل عمله هذا للتجول في القرى والاتصال بالناس وتوعيتهم واستثارتهم. وفي مطالع الثلاثينات أخذ ينظم الخلايا الثورية ويجمع التبرعات لشراء ما يستطيع شراءه من السلاح متكتماً عاملاً في سرية صارمة.

وفي سنة ١٩٣٥ بلغ عدد المهاجرين اليهود حداً كبيراً واصلاً إلى الستين ألفاً. كما أن اليهود كانوا قد باشروا التدريب العسكري، وأخذ أتباع (جابوتنسكي) يهاجمون القرى العربية فصمم القسام على تعجيل قيام الثورة المسلحة على الإنكليز وعلى الصهاينة معاً، وأخذ يُعدلها، وفيما هو متوجه مع ٢٥ من أنصاره المسلحين إلى مدينة (جنين) لدعوة أهلها إلى حمل السلاح للانقضاض على حيفا، وقع صدام عرضي بينهم وبين الشرطة ما نبّه السلطة إلى وجود عصابات مسلحة، فاستنفرت الجيش وحاصرت المنطقة حصاراً محكماً وبدأت التوغل فيها، فأبى القسام الاستسلام وواجه الجند بنار البندقية مؤثراً الاستشهاد.

أما العديد من أنصاره فقد استطاعوا اللجوء إلى الجبال والاستتار فيها.

وقد كان لهذا الاستشهاد البطولي صداه العميق في فلسطين كلها، وصار القسام رمز

التضحية والفداء. ونقل جثمانه إلى حيفا فشيع فيها بجماهير حاشدة كانت تظاهرة حماسية عارمة.

وفي نيسان سنة ١٩٣٦ قامت صدامات بين العرب واليهود فأعلنت السلطة حالة الطوارىء وانتهى ذلك بأن أعلن العرب الإضراب في جميع المدن الفلسطينية وقالوا إن الإضراب لا ينتهي إلا بتحقيق أمور ثلاثة: وقف الهجرة اليهودية ومنع بيع الأراضي وإقامة حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس تمثيلي. وكان الإضراب شاملاً تخللته اصطدامات بين العرب والشرطة، وقامت في القدس أعمال عنف.

وفي الثالث والعشرين من شهر آيار قبض على ٦١ عربياً من المشرفين على الإضراب، فهاج الناس وقامت المظاهرات فأطلقت الشرطة النار على المتظاهرين فقتل منهم أربعة وجرح سبعة. وقام قرويون مسلحون بالتقدم إلى مدينة (طول كرم) فاصطدموا بالشرطة وجرح أربعة أشخاص. فكان ذلك إيذاناً بقيام ثورة مسلحة في لواء السامرة، فأدى ذلك إلى طلب الحكومة النجدات فبدأ توالي وصول القوى الإنكليزية إلى فلسطين من مصر ومالطا.

وأقيمت المتاريس في شوارع نابلس وطول كرم وغزة وهوجمت حافلات الركاب اليهودية، وأطلق الرصاص على مواقع الشرطة والجيش في كل القرى والمدن.

وفي حزيران وتموز كان القائد العسكري السوري الثائر فوزي القاوقجي يقوم على رأس الثوار وانضم إليه من الثوار السوريين الشيخ محمد الأشمر والقائد العسكري سعيد العاص، واتخذت الثورة منحى قتالياً شاملاً، فثوار الجبال المتفرغون للثورة يصادمون الجيش الإنكليزي. وفدائيو المدن العاكفون على أعمالهم ينفذون أعمالاً معينة فيغتالون الضباط البريطانيين والجواسيس المتعاونين مع السلطة. والقرويون في قراهم يراقبون المحارك فيهبون لإنجاد الثوار ثم يعودون إلى مساكنهم، ولهم مهمة أخرى هي إمداد الثوار بالطعام.

وطال الإضراب ستة أشهر فتنادى سياسيون للاتصال بالمقامات العربية لإيجاد مخرج له، فأصدر الملك عبد العزيز بن سعود والملك غازي والأمير عبد الله في العاشر من تشرين الأول نداء مشتركاً دعوا فيه إلى إنهاء الإضراب ووقف الثورة. وفي اليوم التالي قررت القيادة السياسية للجنة العربية العليا دعوة «الأمة العربية الكريمة في فلسطين للعودة إلى الهدوء ووضع حد للإضراب».

ولكن الثورة المسلحة عادت فتجددت أثر اغتيال حاكم الجليل الإنكليزي اندروز Andrees في أواخر أيلول ١٩٣٧ في عملية فدائية جريئة، فاستهدفت السلطة القيادات

والهيئات السياسية، ما أدى إلى نفي عدد من السياسيين والقبض على المئات من المشتبه بهم. وكانت الثورة تزداد حدة صيف ١٩٣٨ وكان تنظيمها أشد إحكاماً من ١٩٣٦ واستطاعت أن تحافظ على استمراريتها، ووصلت الثورة ذروتها في صيف وخريف ١٩٣٨ فشملت الريف كله من أقصى الشمال حتى بئر السبع.

وفي ليل ١٤ ـ ١٥ من تشرين الأول شن الثوار العرب هجوماً عاماً في مختلف أنحاء البلاد شمل خطوط النفط والهاتف والخطوط الحديدية، وهوجمت حافلتا ركاب يهوديتان في القدس، كما هوجمت دوريات الشرطة في جبال القدس والخليل، وفي الليلة التالية أحرق الثوار مرافق مطار اللد، فردت السلطة على ذلك بفرض الغرامات الجماعية الباهظة وهدم المنازل وإقامة مراكز السلطة على نفقة السكان في القرى.

وقد انضمت إلى الثوار أعداد من الناس، ونظم الثوار أمرهم، فألفوا في دمشق اللجنة المركزية للجهاد وأنشأوا محاكم ثورية ومراكز إدارية ودوائر استخبارات وأخذوا يجبون الضرائب. وقابلت السلطة ذلك بإقامة أسلاك شائكة على طول الحدود الشمالية والشمالية الشرقية من فلسطين وإنشاء الحصون ومراكز للشرصة لعزل الثوار وقطع طرق تموينهم، وسلحت اليهود لمعاونتها في مهاجمة الثوار، وشنت حملات عسكرية استعملت فيها المدرعات والطائرات، واحتلت القرى لحرمان الثوار من قواعدهم.

كما اضطهدت غير الثوار فكانت تعتقل العشرات وتفرض منع التجول لفترات طويلة وتجبي الغرامات الجماعية، ونسفت مئات البيوت في القرى كما نسفت أحياء بكاملها في يافا القديمة.

ومع ذلك فقد بقي زمام المبادرة بيد الثوار، ونشبت حرب شوارع في القدس ويافا وحيفا، ولولا تدخل الأسطول البريطاني في حيفا لانقلب الأمر إلى انتفاضة خطيرة.

وقد تجلى الالتحام البريطاني اليهودي بتنظيم مفارز ليلية مؤلفة من عناصر يهودية تهاجم الثوار، واعترف القائد الإنكليزي الجنرال هايننغ في تموز سنة ١٩٣٨ بأن عدد الثوار في ازدياد، وأن تنظيمهم آخذ في التحسن.

واستطاع الثوار أن يسيطروا على مدن كثيرة بما فيها بئر السبع والقدس القديمة. وقد أدى ذلك إلى أن يطلب الجنرال هايننغ إرسال فرقة جديدة من الجند، ما أدى إلى دعوة الاحتياط البريطاني إلى الخدمة، وإعلان التعبئة العامة الجزئية لقوات الأمبراطورية وأرسلت خيرة قادتها لقمع الثورة وعلى رأسهم الجنرال ويفيل (wavell) الذي قاد بعد ذلك الجبهة

المصرية في مقاتلة الألمان في الحرب العالمية الثانية، والعميد مونتغمري (montgomery) الذي انتصر على روملٍ في تلك الحرب بعد أن صار الجنرال مونتغمري.

ويذكر عزت دروزه أن عدد المعتقلين بلغ خمسين ألفاً وعدد الشهداء سبعة آلاف وعدد البيوت المنسوفة ألفين.

وأدى التعب من القتال المتواصل، والافتقار إلى السلاح والذخيرة، إلى تراجع الثورة. وبإعلان الحرب العالمية الثانية مشت الثورة إلى نهايتها.

الفصل الثامن والعشرون

تقسيم فلسطين

أدت نهاية الحرب العالمية الثانية وبروز أمريكا قوة كبرى ـ أدت إلى إعلان تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. ولم يكن قرار التقسيم هذا أول قرار، فقد سبقه قرار للتقسيم صدر سنة ١٩٣٧ نتيجة للثورة التي اندلعت في نيسان سنة ١٩٣٦. وكان من عوامل قيام تلك الثورة العدد الكبير من المهاجرين اليهود الزاحفين إلى فلسطين بتأييد من الإنكليز. فقد ارتفع عدد القادمين من ٤٥٦٥ يهودياً سنة ١٩٣١ إلى ٩٥٥٣ ستة ١٩٣٢ إلى ٣٠٣٢٧ سنة ١٩٣٣ إلى ٦١٨٥٤ سنة ١٩٣٥.

هذا في الإحصاء الرسمي للهجرة التي يسمح القانون بها. وكانت هناك هجرة غير قانونية تجري تهريباً أما عن طريق الشواطىء البحرية الفلسطينية أو على الطريق البري اللبناني وغيره من الطرق.

معاناة لي مع الهجرة اليهودية

وقد جرت لي تجربة شخصية في هذا الأمر، إذ كنت صيف سنة ١٩٤٤ قاضياً لمحكمة النبطية التي تنظر في القضايا الجزائية والحقوقية معاً، ولم يكن في النبطية موظف إداري سوى ضابط الدرك إذ لم تكن النبطية يومذاك قد صارت مركز قضاء يديره قائمقام، ثم صارت مركز محافظة.

وفي جلسة لي في منزل أحد الأصدقاء فهمت من بعض الحاضرين ـ عرضاً ـ أن تهريباً يومياً لليهود يجري على طريق النبطية الموصل إلى مرجعيون، فهالني ذلك، وأكبرت أن يجري هذا وأنا الموظف الأول في النبطية.

صحيح أن ليس لي صفة إدارية تخولني التدخل في هذه الشؤون، وصحيح أني لست مسؤولاً عما يجري خارج نطاق عملي في القضاء، ولكني رأيت أن الصحيح أيضاً هو أنني بصفتي القضائية مسؤول مسؤولية معنوية عما يجري، فضلاً عن مسؤوليتي الوطنية.

فتركت المجلس في الحال وذهبت إلى بيتي وأرسلت إلى ضابط الدرك أدعوه لتناول الشاي في بيتي. ولم يكن من الممكن استثارة هذا الضابط من الناحية الوطنية فقد نشأ دركياً مبتدئاً، ثم أخذ يتدرج في وظيفته من مجرد دركي إلى عريف إلى رقيب حتى وصل إلى درجته الحالية التي هي أول درجة في الضباط، ولم يكن على شيء من الثقافة، بل كان أقرب إلى الأمية. لذلك كان عليّ أن ألوّح له بالتهديد.

فلما وصل إلى البيت، قلت له أني عرفت يقيناً أن تهريباً لليهود يجري على طريق النبطية، وأن قوافل اليهود المهرَّبين تمر ليلاً في وسط النبطية غير بعيد عن مخفر الدرك، وأنت تعلم أننا اليوم في حكم وطني استقلالي يرئس الوزارة فيه رياض الصلح الذي يغضبه أن يعرف أن اليهود يمرون في النبطية مطمئنين. وأنا ليست لي صفة إدارية تخولني التدخل في هذا الأمر وأنت وحدك المسؤول عنه، لذلك حرصاً على مصلحتك أردت أن أنبهك إلى ما يجري.

فبدا عليه الاضطراب، وأقسم أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر.

فقلت له: إن عدم معرفتك بما يجري هو الذنب الذي تؤاخذ به، لأن من هو في مثل موقعك يجب أن تكون له عيون مبثوثة في كل مكان تتعرف على ما يجري، فيحول دون وقوع الجريمة.

فقال لي: ماذا ترى أن عليّ أن أفعل.

فقلت له: عليك أن تسير (دورية) ليلية تقضي الليل سيراً من مدخل النبطية من جهة صيدا إلى مخرجها باتجاه مرجعيون، فتوقف كل سيارة عابرة وتتحقق من حقيقة من فيها.

فقال سأفعل ذلك.

جرى هذا عصراً في منزلي، وانقضى العصر ومضى الغروب ودخل الليل، وانقضى الهزيع الأول من الليل وأويت إلى فراشي.

وكان منزلي قريباً من الطريق العام الذي تجتازه السيارات في اتجاهها إلى مرجعيون، وبينما أنا أغط في نومي إذ أيقظني ضجيج على الطريق وتصايح من هنا وهناك، فأرقني ذلك ولم أنم إلا بعد سكون الضجيج وانطفاء التصايح، وتساءلت في نفسي عما جرى في هذا الليل فتسبب في هذا الضجيج وهذا التصايح.

وفي الصباح إذا بالباب يقرع، وإذا بالضابط هو القارع، وإذا به يدخل عليّ متهللاً مستبشراً، قائلاً أنه قبض في الليل على قافلة سيارات يهودية، وأن من في القافلة هم الآن في السجن بانتظار ما أتخذه أنا من إجراءات.

ثم مضى إلى شأنه، وقمت إلى شأني أُعد نفسي للذهاب إلى المحكمة، فلم أكد أتوسط المعبر الموصل من باب البيت إلى الشارع حتى رأيت رجلين غريبين مقبلين نحوي فتابعت سيري حتى التقيتهما، فتقدم مني أحدهما وقال إنه صابح فندق في بحمدون (وهو فندق شهير) وأن من معه عراقي.

وكنا في فصل الصيف، وكان بعض الأخوان العراقيين المصطافين، ممن لي سابق صحبة معهم، أو ممن لا سابق تعارف بيننا، بل يعرفون أنني موجود في النبطية فيشرفونني بزياراتهم فآنس بهم كل الأنس ويذكرونني بأيامي العذبة في العراق، فحسبت أن هذا القادم واحد منهم، فاستبشرت به وأقبلت على مؤانسته ودعوتهما إلى أن يعودا معي إلى البيت فنجلس قليلاً، ثم أذهب إلى عملي وبعد انقضاء العمل نعود فنلتقي طويلاً. فرأيت أنه قد بدا عليهما الارتباك، وقال صاحب الفندق مرتبكاً إن لرفيقه مشكلة عندي وأنه جاء إلى منزلي يرجوني في حلها، ولوّح تلويحاً خفياً بالمال.

فأدركت في الحال أن الأمر يتعلق باليهود الموقوفين، فقلت له بحدة: إن مشكلته تتعلق بمن قبض عليهم ليلاً، أليس كذلك؟

فقال: نعم. وبعد أن كان تلويحه بالمال أول الأمر تلويحاً خفياً، عاد هذه المرة إلى شيء من الإظهار فصحت به طارداً لهما.

وذهبت إلى مكتبي فوجدت أمامي أوراق القضية، وفيها تحقيقات الدرك الأولى، فعرفت منها أن المقبوض عليهم يهود سوريون من حلب بينهم امرأة ويهود عراقيون.

فاتخذت ما يجب اتخاذه من إجراءات لإيقافهم، وبينما أنا منهمك في العمل إذ فوجئت بدخول صديق من أهل النبطية إلى مكتبي، فعجبت من دخوله، إذ أنني كنت قد أفهمت موظفي المحكمة أن يمنعوا الناس من دخول مكتبي صباحاً أياً كان طالب هذا الدخول، لذلك عجبت من السماح لهذا الصديق بالدخول إلى مكتبي في هذه الساعة الصباحية. وقد عرفت بعد ذلك أنه خدع الموظف المسؤول بأن قال له: بأنه يريد الذهاب إلى دمشق ـ حيث والدي هناك ـ وأنه يهمني أن أوصيه بشيء لوالدي، فعند ذلك سُمح له بالدخول.

أما سبب منعي الدخول عليّ صباحاً، فقد كان أمراً طريفاً، ذلك أنني بعيد وصولي إلى

النبطية ومباشرة عملي القضائي كان يدخل عليّ صباحاً بعض محترفي الوجاهة في القرى، فيسلم أحدهم دون أن يجلس، ويقول أنه جاء (لسؤال الخاطر فقط) ثم يمضي إلى حال سبيله.

وقد فهمت بعد أيام أن محترفي الوجاهة هؤلاء يوهمون أصحاب المصالح بأنهم داخلون عليّ ليتوسطوا لهم عندي، فإن جاء الحكم مطابقاً لادعاء صاحب المصلحة، قالوا له: بأن ذلك كان لتوسطهم لدي، وإن لم يجيء مطابقاً قالوا له بأني أفهمتهم بأن القضية معقدة صعبة لا يمكن حلها لمصلحته.

لذلك منعت أياً كان من الدخول صباحاً إلى مكتبي. وكان دخول هذا الصديق موضع استغرابي الشديد. وهو لم يدعني أسأله، بل بادر في الحال إلى الكلام قائلاً ما مؤداه: إنه مكلف بإبلاغي أن اليهود مستعدون لدفع مبلغ كبير من المال (حدده) إذا أنا أطلقت القافلة كلها، وإلا فهم يدفعون مبلغاً أقل منه إذا أنا أطلقت اليهودي العراقي وحده.

وقد عاملت هذا الوسيط بما تستحقه وساطته فخرج مطروداً مهاناً. . . .

وقد أثار دهشتي سرعة وصول خبر إيقاف اليهود إلى من يهمهم أمرهم بهذه السرعة، فقد جرى القبض عليهم بعيد منتصف الليل، وفي الصباح كان الوسطاء عندي. ثم سرعة اهتدائهم إلى أحد أصدقائي ومعرفتهم أنه صديق حميم.

فأدركت أن لهم شبكات منظمة تعي كل شيء وتتصرف بسرعة وحكمة، على أنني لم أدرك ما لهم من تغلغل في كل الأوساط إلا في اليوم الثاني، إذ أنهم لما يئسوا مني مباشرة عمدوا إلى وسائل أخرى من التوسيط الضاغط فقد تدخل لمصلحتهم أناس لم يكن يدور في خلدي أنهم يمكن أن يتوسطوا لهم.

فلما رأيت ذلك عمدت إلى تمتين موقفي فهاتفت المدعي العام في صيدا ـ وكان اسمه ڤيكتور عيسى ـ وقلت له: إننا في منطقة حدودية يكثر فيها التهريب على أنواعه، وقد أمكن القبض على جماعة يريدون اجتياز الحدود بصورة مخالفة للقانون، وأنني سأحاكمهم موقوفين عبرة لغيرهم، فوافقني على ما فعلت.

ولكن المدعي العام هذا نفسه هاتفني بعد يومين طالباً إليّ إطلاقهم بسند إقامة وإلا فبكفالة، فقلت له أنني عند رأيي الأول الذي شجعني هو عليه، فسكت.

وفي اليوم الثاني عاود المهاتفة مصراً على إطلاقهم، فرددت عليه بشيء من الحدة قائلاً: إنني استشرته أول الأمر احتراماً لموقعه وعلى اعتبار أننا وظيفياً مرتبطون به. ولكن ليس معنى ذلك أنني ملزم باتباع تعليماته، فأنا لي رأيي الذي أصر عليه.

فرد بصراحة تامة قائلاً: إن ما وافقني عليه أول الأمر كان هو رأيه، ولكن بيروت تضغط عليه لإطلاقهم.

قال: بيروت، ولم يحدد من هو الضاغط في بيروت.

فقلت: قل لبيروت أني مصر على محاكمتهم موقوفين.

وكان سبب إصراري هذا أني أعرف إني حين أطلقهم فإنهم لن يعودوا إلى المحكمة ولن ينفذ فيهم أي حكم ولن ينالوا اي عقاب.

والإصرار على إطلاقهم كان من وجهة النظر القانونية صحيحاً، لأنه لا يشترط في أن يكون المحاكم موقوفاً إلا في الجنايات.

وقد عز عليّ أن يقع في يدي صهاينة في طريقهم إلى الإغارة على فلسطين، ثم يفلتوا دون أن أوقع بهم، لذلك صممت على سجنهم قدر ما أستطيع، ولم أكن أستطيع إلا سجنهم من يوم توقيفهم إلى يوم إصدار الحكم عليهم، لذلك تعللت بوجوب طلب سجلاتهم العدلية. لأنه لا بد من الاطلاع عليها قبل الحكم في الدعاوى الجزائية، وبذلك يتاح لي أن أجعلهم يقضون في السجن لا أقل من شهر.

وكما كان يهمني عقاب الصهاينة، كان يهمني عقاب اللبنانيين الذي ساعدوهم على جريمتهم، وهم سائقو السيارات التي أقلتهم.

وتوالى ضغط الوسطاء القادمين من بيروت، وتوالى الإصرار على الإيقاف، إلى أن جاء يوم هاتفني فيه مدعي عام الاستئناف في بيروت، قائلاً ما مؤداه: إن لديك موقوفين أجانب مدعى عليهم بمحاولة اجتياز الحدود بصورة غير قانونية، وهذه جريمة لا يشترط محاكمة أصحابها موقوفين لذلك نرى أن تطلقهم بكفالة أن لم يكن بسند إقامة.

فأجبته بأن القانون يجيز لي محاكمتهم موقوفين، والتقدير يعود لي، وأنا ارى ذلك لأسباب أنا أدرى بها.

ومع أن توسط مدعي عام الاستئناف كان صدمة لي، فقد كانت هذه الصدمة أخف من الصدمة الكبرى التي فاجأني بها حين أجاب:

أنني أهاتفك من غرفة الرئيس الأول وبحضوره وبرأيه.

وكلمة (الرئيس الأول) رهيبة لدى القضاة، فلم يكن يومذاك ما عرف بعد ذلك باسم (مجلس القضاء الأعلى) الذي صار إليه أمر القضاة، بل كان ذلك محصوراً بالرئيس الأول، وليس للقاضي من يحميه منه. وكان الرئيس الأول يومذاك: أنفرد ثابت.

فهالني أن يتدخل الرئيس الأول لمصلحة متهمين مهما كانت تهمتهم.

وكنت عندما قيل لي في الهاتف أن مدعي عام الاستئناف يريد أن يكلمني قد أدركت أنه يريد أن يتوسط لليهود لذلك أسرعت بدعوة ضابط الدرك ليسمع ما يقال.

وذلك أنه لم تكن الهواتف الآلية قد وجدت بعد، بل كانت الهواتف القديمة لا تزال هي المستعملة، وكان لكل هاتف منها مع أداة الاستماع والتخاطب، أداة للاستماع فقط يستعين بها المستمع على وضوح الاستماع بوضعها على إذنه الثانية.

فناولت هذه الأداة للضابط واكتفيت بالأداة الأصلية فكان الضابط يسمع كل ما يقال. وقد فعلت ذلك ليكون شاهداً على الحديث. وقد كان بعد ذلك هو الذي يتحدث للناس عما جرى. فأجبت المدعي العام: بأن هذا لا يغير من الأمر شيئاً، فرأيي هو رأيي.

وبعد هنيهة صمت قال المدعي العام: إن الرئيس الأول يريد أن يكلمك بنفسه.

وجرى حوار بدأه هادئاً، فلما أصررت، علا صوته، فرددت عليه بصوت أعلى. وقد هال الضابط هذا التصايح، فأخذ يشدني من بزتي قائلاً: طوّل بالك... طول بالك...

ولكن الذي (طوّل باله) هو الرئيس، إذ رأى أنه قد تورط في التوسط فعز عليه أن يفشل في وساطته، ولما رأى أن التهويل لم يجد عاد إلى الهدوء واللين، فعدت إلى الهدوء واللين مع الإصرار على عدم إطلاق الموقوفين، وعلى محاكمتهم موقفين.

وعند ذلك سمعت سمّاعة الهاتف تضرب على قاعدتها بشدة.

وكان الأمر قد ذاع وشاع فلما كان يوم المحاكمة ازدحمت المحكمة بالقادمين من بيروت وصيدا ومن النبطية نفسها.

وقدم محاميان للدفاع عن المدعى عليهم، واحد من بيروت وواحد من صيدا وقد كان الفرنسيون عندما قامت الثورة المسلحة في فلسطين وأخذ فريق من اللبنانيين يقصدون فلسطين جماعات إما للانضمام للثورة أو لامدادها ـ كان الفرنسيون بقصد مقاومة ذلك قد أصدروا قانوناً شديداً يعاقب على نية عبور الحدود بدون جواز سفر، وإن لم يقع هذا العبور. وجعلوا العقوبة عقوبتين تطبقان معاً: شهراً سجناً ودفع خمسين ليرة لبنانية.

هذا إذا كان محاول العبور واحداً، أما إذا كانوا أكثر، فجعلوا العقوبة ثلاثة أشهر سجناً ودفع مئة وخمسين ليرة.

وعندما عقدت جلسة المحاكمة كان قد مضى على إيقاف المدعى عليهم شهر وبضعة أيام. فكان الحكم عليهم بسجن كل واحد منهم ثلاثة أشهر ودفع مئة وخمسين ليرة.

وكان بين المحكومين فتى عراقي من آل شماش وهي أسرة يهودية بغدادية من أكثر الأسر ثراء، فلما سمع الحكم أخذ يبكي.

والله وحده يعلم كم تفعل الدموع في نفسي، وكيف أضعف أمامها وأحنو على أصحابها مواسياً مشاركاً، والله وحده يعلم أي قلب بين جنبي، قلب ينفعل للمهمومين وينفطر للموجعين...

ولكن هذا الدمع المترقرق من العيون الصهيونية كان له في نفسي أثر غير الأثر الذي عرفته من قبل، ولأول مرة في حياتي أجد للدمع مثل هذا الشعور اللطيف!.

ماذا؟!. أتبدلت إنسانيتي؟! أتحجرت عاطفتي؟! أعدت رجلاً غير الرجل الأول المرهف الحس؟!

أبعد أن كنت أبكي للدموع، عدت أنا نفسي أثير الدموع!..

وتطلعت في حناياي، وجلت في أعماقي، وتلفت في خاطري، وحدقت في وجداني، فرأيت أني لا أزال ذاك الرجل العريق في إنسانيته، الرجل الذي يبكي للباكين!.

الرجل الذي لا يطيق احتمال الدمع في عيني إنسان، بل يحس وكأنه شهب من نار تنصب على جوانحه!.

وأدركت للتو أن إنسانيتي وحدها هي التي جعلتني أستطيب الدمع هذا النهار!. وأنني وأنا أفجّر الدموع في هذه العيون الصهيونية إنما أحاول أن أحبسها في عيون الألوف من العرب الذين سيبكيهم هؤلاء الأوغاد على أرضهم وأهلهم...

وبمجرد صدور الحكم استأنفه المحامون، فكان علينا أن نرسل المحكومين موقوفين إلى صيدا، وشاقني أن أتتبع أمرهم. وكان الفصل صيفاً، ورئيس محكمة صيدا وأعضاؤها متفرقون في مصايفهم بسبب العطلة القضائية: فواحد في بلدة سير الضنية في الشمال وواحد في بلدة (روم) في الجنوب، وآخر في البترون. وبقدرة قادر جمعوهم في نفس اليوم من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، فلما اجتمعوا نظروا في طلب إخلاء السبيل المتقدم من المحكومين الموقوفين فقرروا بالإجماع إخلاء سبيلهم فانطلقوا أحراراً.

ولم يمكث القضاة الذين أطلقوا المحكومين ـ لم يمكثوا في صيدا إلا ما اقتضاه وقت إصدار القرار وتوقيعه، ثم انطلقوا هم الآخرون عائدين إلى مصايفهم، مخلفين صيدا في حرها الساحلي، ناشدين في الجبال رقة النسيم. . .

التقسيم

كان التصويت في اللجنة السياسية للأمم المتحدة لصالح تقسيم فلسطين بين العرب واليهود بأكثرية ٢٥ صوتاً مقابل ١٣ صوتاً واستنكاف أو تغيّب ١٩ دولة أما الدول التي صوتت ضد التقسيم فكانت الدول العربية الأعضاء الست (السعودية ومصر والعراق واليمن ولبنان وسورية) مع الدول الإسلامية (إيران وتركيا والباكستان وأفغانستان) وسيام والهند وكوبا.

هكذا كانت حصيلة توصية اللجنة السياسية للهيئة العمومية مشروع التقسيم.

وفي يوم الأربعاء في ٢٦ تشرين الثاني اجتمعت الأمم المتحدة بصفتها هيئة عمومية (General assembly) بعد أن كانت تجتمع بصفتها لجنة سياسية خاصة (AD HOC Committee)، إنما الفارق بين الصفتين كان أن التصويت بالهيئة العمومية يجري على أساس ثلثي الأصوات التي تدلى بينما كان على أساس الأكثرية في اللجنة السياسية ومع أن التقسيم حصل على أكثرية أصوات اللجنة السياسية (٢٥ صوتاً مقابل ١٣ صوتاً) في اليوم السابق (الثلاثاء في ٢٥ تشرين الثاني) فإن هذا العدد من الأصوات لم يكن بنسبة الثلثين وكان ثمة إجماع في الهيئة العمومية على ضرورة الانتهاء من التصويت قبل منتصف الليل يوم الأربعاء في ٢٦ تشرين الثاني. وفي هذا اليوم اعتلى المنصة مندوب اليونان وشجب التقسيم بشدة وأعلن أنه سيصوت ضده فارتفع عدد المناهضين إلى ١٤ كذلك فعل مندوب الفيليبين فارتفع إلى ١٥ وتبعه مندوب هاييتي فارتفع إلى ١٦ وجاء مندوب ليبيريا لمندب الباكستان ووعده بالتصويت ضد التقسيم فارتفعت أصوات المناهضين إلى ١٧. وشاءت الظروف أن يحدث انقلاب في ذلك اليوم في سيام ويناقي أثره مندوبها برقية تسحب أوراق اعتماده فيهبط عدد المناهضين إلى ١٦ ويثبت عنده لغاية الساعات الأولى من بعد الظهر مما يتطلب ٣٢ صوتاً عكسها ويعلن ممثلو كل من بلجيكا ونيوزيلندا وهولندا أنهم سيصوتون مع التقسيم فيرتفع عدد مؤيدي التقسيم إلى ٢٨ ويثبت عنده وهو لا يزال أقل من الثلثين ويشعر المندوبون العرب وحلفاؤهم للمرة الأولى بأنهم أفشلوا التقسيم ويدوّن غراندوس (Granados) ممثل غواتمالا الصهيوني في مذكراته «شعرت ظهر هذا اليوم (الأربعاء ٢٦ نوفمبر) بانقباض شديد نتيجة ما حدث».

وتسري إشاعة حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر بأن النية تتجه لإلغاء جلسة المساء وتأجيل اجتماع الهيئة العمومية إلى يوم الجمعة في ٢٨ تشرين الثاني ويذهب ظفر الله خان مندوب الباكستان بصحبة فاضل الجمالي مندوب العراق إلى رئيس اللجنة البرازيلي الصهيوني أوزولدو أرانها (Oswaldo Aranha) للاستفسار فيؤكد الخبر فيسأل ظفر الله عن السبب فيقول أرانها إن قائمة المتكلمين لجلسة المساء طويلة. فيقول طفر الله إنه يسحب اسمه من القائمة كذلك يفعل الجمالي ويتذرع أرانها بأن يوم الخميس في ٢٧ هو يوم عيد الشكر (Thanksgiving) الأميركي فيقول ظفر الله بأن الهيئة العمومية اجتمعت في يوم الشكر في السنة الماضية ويصر أرانها على موقفه وتلغى جلسة المساء ويؤجل اجتماع الهيئة العمومية إلى يوم الجمعة ٢٨ تشرين الثاني.

وتلقي الإدارة الأميركية والكونغرس الأميركي والماكينة الصهيونية والحزب الديموقراطي والرئيس ترومان بكامل ثقلهم خلال ما تبقى من يوم ٢٦ وطوال ٢٧ تشرين الثاني على الدول المستضعفة وخصوصاً ليبيريا واليونان والفيليبين وهاييتي ويرسل وايزمان إلى ترومان رسالة «استغاثة» في ٢٧ نوڤمبر وما أن ينبلج صباح ٢٨ حتى تكون ليبيريا وهاييتي والفيليبين قد تحولت بسحر الساحر وقدرة القادر من دول مناهضة للتقسيم إلى مؤيدة له وتصمد اليونان ويهبط عدد المناهضين إلى ١٣.

وفي اليوم ذاته، الجمعة ٢٨ تشرين الثاني يقترح مندوب كولومبيا إعادة القضية إلى اللجنة السياسية عسى أن تصل إلى صيغة توفيقية فيرفض الاقتراح وتقترح فرنسا التي لم تكن قد قررت موقفها بعد تأجيل التصويت إلى اليوم التالي فيقبل الاقتراح على رغم معارضة الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي. وتجتمع الهيئة العمومية للتصويت على التقسيم يوم السبت ٢٩ تشرين الثاني فتقترح إيران تأجيل التصويت إلى ١٥ كانون الثاني (يناير) لإفساح المجال للمساعي التوفيقية ويرفض الاقتراح ويقترح كميل شمعون باسم الدول العربية مشروعاً فيديرالياً بديلاً للتقسيم ويرفض الاقتراح.

ويطلب رئيس الجلسة التصويت فيحصل التقسيم على ٣٣ صوتاً مقابل ١٣ صوتاً وتستنكف عشر دول الأرجنتين وتشيلي والصين وكولومبيا والسلفادور والحبشة وهندوراس والمكسيك وبريطانيا ويوغوسلافيا وتغادر وفود الدول العربية دفعة واحدة القاعة غضباً واحتجاجاً.

كيف تطورت الأمور

صدم الرأي العام العربي لتوصية أكثرية أعضاء لجنة التحقيق الدولية (UNSCOP) بتقسيم فلسطين وسارع رئيس الوزارة العراقية صالح جبر إلى الدعوة إلى انعقاد اللجنة السياسية لمجلس الجامعة العربية التي كانت تضم رؤساء الحكومات وانعقدت اللجنة في صوفر، لبنان ما بين ١٦ ـ ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧ بحضور كل من الرؤساء صالح جبر (العراق) رياض الصلح (لبنان) جميل مردم بك (سوريا) سمير الرفاعي (شرق الأردن) يوسف ياسين وزير خارجية المملكة العربية السعودية بالنيابة، وإبراهيم دسوقي أباظة وزير خارجية مصر بالنيابة، وعلي المؤيد عن مملكة اليمن، ومعين الماضي عن فلسطين.

واحتدم النقاش في اللجنة السياسية حول مقررات بلودان السرية حزيران (يونيو ١٩٤٦) بشأن إعادة النظرة في الامتيازات البترولية للدول الأجنبية وهل تُبلّغ إلى الدولة المعنية (بريطانيا وأميركا) ومتى، كما تناول البحث ضرورة الإسراع إلى نجدة عرب فلسطين أمام خطر التقسيم الداهم وأسفر النقاش عن مقررات سرية جديدة فحواها أن مقترحات لجنة التحقيق «تنطوي على إهدار فاضح لحقوق عرب فلسطين الطبيعية في الاستقلال كما تنطوي على خرق لجميع العهود التي قطعت للعرب» وأن اللجنة ترى فيها «خطراً محققاً يهدد أمن فلسطين والأمن والسلام في البلاد العربية جميعاً وأن اللجنة وطدت العزم على «أن تقاوم بجميع الوسائل العملية الفعّالة تنفيذ هذه المقترحات».

واتفق أن ينظر مجلس الجامعة في دورته العادية في أول تشرين الأول (أكتوبر) في تبليغ مقررات بلودان بشأن الامتيازات البترولية إلى كل من بريطانيا والولايات المتحدة.

أما بالنسبة لمساعدة عرب فلسطين فأوصت اللجنة بتقديم «أقصى ما يمكن من معونة عاجلة لأهل فلسطين من مال وعتاد ورجال» على أن تقوم بتنظيم وتنسيق جهود الدول العربية في هذا السبيل لجنة فنية دائمة قوامها مندوب عن كل من البلاد الأعضاء في الجامعة وعلى أن تقدم اللجنة تقريرها الأول إلى الحكومات العربية خلال مدة لا تتجاوز ثلاثة أسابيع، وبالفعل تألفت اللجنة من أمير اللواء الركن إسماعيل صفوت (عن العراق) والعقيد محمود الهندي (عن سورية) والمقدم الركن شوكت شقير (عن لبنان) وعن فلسطين صبحي الخضرا وكان تأليف اللجنة أول عمل جدي إلى ذلك الحين قامت به الجامعة العربية في مجال الاستعداد العسكري وانعقد مجلس الجامعة العربية في دورته العادية للنظر في توصيات اللجنة السياسية لمجلس الجامعة العربية التي اتخذت في اجتماع صوفر ١٦ ـ ١٩ أيلول.

أعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من فلسطين وأعلنت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي عن تأييدهما لتوصية أكثرية لجنة التحقيق بتقسيم فلسطين وألفت اللجنة السياسية في نيويورك (AD HOC Committee) لجنة فرعية لدراسة هذه التوصية ورفع توصية بشأنها إلى الهيئة العمومية فماذا فعل المجتمعون في عاليه إزاء كل هذا؟

حضر اجتماع عاليه في ٧ ـ ١٥ تشرين الأول الرؤساء رياض الصلح (لبنان) وجميل مردم بك (سورية) والنقراشي باشا (مصر) وسمير الرفاعي (شرق الأردن) وصالح جبير (العراق) ويوسف ياسين (السعودية) وعلي المؤيد (اليمن) ومعين الماضي (فلسطين) وعبد الرحمن عزام (الجامعة العربية) وكان أمامهم بندان رئيسان أولاً: مقررات بلودان السرية بشأن امتيازات البترول وثانياً: تقرير اللجنة الفنية (العسكرية) التي ألفها اجتماع صوفر وهو تقرير رفعه باسمها إسماعيل صفوت.

وبالنسبة للبند الأول اتفق على قرار سري آخر فحواه أن مقررات بلدوان «واجبة التنفيذ في حالة تطبيق أي حل في شأنه أن يمس بحق فلسطين في أن تكون دولة عربية مستقلة».

وتضمن تقرير اللجنة الفنية شقين أحدهما وصف شامل لتنظيم اليهود وطاقاتهم العسكرية والآخر توصيات بالتدابير اللازمة المضادة وكانت خلاصة التقرير «أن للصهيونيين منظمات وتشكيلات سياسية وعسكرية وإدارية على درجة قصوى من التنظيم والأحكام. . . وأن ليس لعرب فلسطين من القوة على اختلاف أنواعها (رجال، سلاح، عتاد، تنظيمات) ما يقبل القياس مع القوة الصهيونية بوجه من الوجوه. . . وأن ما لا يقل عن ٣٥٠ ألف عربي بكتل وقرى متفرقة مهددين بالقتل الجماعي والفناء. . . وأن عزم بريطانيا على الانسحاب ينذر بوقوع أحداث خطيرة جداً».

وإزاء كل هذا أوصت اللجنة بالآتي: ١ ـ دعوة متطوعين وتسليحهم وتدريبهم سواء بواسطة الحكومات أو الهيئات الشعبية. ٢ ـ حشد الدول العربية لأقصى ما يمكن من قواتها النظامية في مناطق قريبة من الحدود الفلسطينية. ٣ ـ تأليف قيادة عربية عامة ترتبط بها جميع القيادات النظامية وغير النظامية. ٤ ـ إمداد عرب فلسطين بما لا يقل عن عشرة آلاف بندقية وتوابعها. ٥ ـ وضع مبلغ من المال لا يقل عن مليون جنيه تحت تصرف اللجنة العسكرية الدائمة. ٦ ـ شراء أكبر كمية من السلاح من الخارج. ٧ ـ حشد ما يمكن من الطائرات الحربية لمراقبة السواحل الفلسطينية.

وأثناء مناقشة الوضع العسكري أفهم النقراشي باشا زملاءه بصراحة بأن ظروف مصر لا

تسمع لها بالتدخل عسكرياً في النزاع ولكنها لن تتأخر عن القيام بسائر واجباتها.

وأسفر اجتماع عالية عن قرار واحد ملموس تلبية لتوصيات اللجنة الفنية فأقر رصد مبلغ مليون جنيه فوراً يدفع بنسبة حصص الدول من موازنة الجامعة ويوضع بتصرف الأمانة العامة للجامعة العربية.

الاقتتال

مرت حرب ١٩٤٨ في فلسطين، بمرحلتين رئيسيتين: الأولى، مرحلة الحرب الأهلية، التي بدأت بعد فترة وجيزة من صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة القاضي بتقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨ واستمرت حتى ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨، الموعد الرسمي لانتهاء الانتداب البريطاني. والثانية، مرحلة الحرب النظامية، التي استمرت من ١٥ أيار/مايو (أيضاً تاريخ إعلان قيام دولة إسرائيل) حتى توقيع اتفاقيات الهدنة بين إسرائيل والدول العربية خلال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩.

وفي الواقع، كانت أولى المرحلتين هي المرحلة الحرجة والحاسمة. ففي أثنائها شنت القوات الموجودة في تصرف الوكالة اليهودية، والتي كانت أوفر عدداً وأفضل تسليحاً وتنظيماً وقيادة، قياساً بأي شيء متوفر للفلسطينيين، هجومها الرئيسي الذي جرى الإعداد له والتفكير فيه طويلاً في إطار الخطة دالت. وقد أتاح توقيت الهجوم (الأسبوع الأول من نيسان/أبريل ١٩٤٨) للقوات اليهودية الاستفادة من المرحلة المتقدمة التي كان بلغها تفسخ الحكم البريطاني، مع أن بريطانيا كانت لا تزال هي القوة صاحبة السيادة في البلد حتى ١٥ أيار/مايو. وكان هدف الخطة دالت أن تقيم بقوة السلاح الدولة اليهودية في الأراضي اليهودية والفلسطينية التي خصصها لها قرار التقسيم، وأيضاً احتلال أقصى ما يمكن احتلاله من أراضٍ إضافية (وخصوصاً القدس).

ولم يمض على قرار التقسيم أسبوع حتى أعلنت بريطانيا في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ أنها ستسحب إدارتها المدنية وجيوشها من فلسطين وتنهي انتدابها عليها نهائياً في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، وبذلك حددت ساعة الصفر و«روزنامة العمل» للأطراف كلها خلال الأشهر الخمسة المتبقية من عهدها في البلاد.

وفي ٨ كانون الأول ١٩٤٧ اجتمعت اللجنة السياسية لمجلس الجامعة العربية في مبنى وزارة الخارجية في القاهرة لمجابهة هذا الوضع الخطير، وكان أمامها تقرير كان «اللجنة الفنية» التي كانت قد تألفت سابقاً رفعه باسمها رئيسها اللواء إسماعيل صفوت.

وأعاد صفوت ما كان قاله في تقريره الأول الذي قدم لمجلس الجامعة عند انعقاده في عاليه (٧ ـ ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر) قبيل قرار التقسيم من أن ليس للعرب في فلسطين ما يقبل القياس بوجه من الوجوه بما لدى اليهود من القوة عدداً وتنظيماً، وتدريباً، وسلاحاً وعتاداً وقوات احتياطية وامدادات من وراء البحار وأن التغلب عليهم بعصابات وقوات غير نظامية «أمر أشبه بالمستحيل ولا بد من مجابهتهم بقوات نظامية مدربة ومسلحة تسليحاً عصرياً».

وناقشت اللجنة السياسية تقرير صفوت بحضور محمود فهمي النقراشي (مصر) والأمير فيصل آل سعود (السعودية) وسمير الرفاعي (وزير خارجية شرق الأردن) وصالح جبر (العراق) ورياض الصلح (لبنان) وجميل مردم بك (سورية) وعلي المؤيد (اليمن) وعزام باشا (الأمانة العامة) واتخذت قرارات سرية أهمها «العمل على إحباط مشروع التقسيم والحيلولة دون قيام دولة يهودية في فلسطين والاحتفاظ بفلسطين عربية مستقلة موحدة وتزويد اللجنة الفنية (التي تقرر تسميتها اللجنة العسكرية الدائمة) حالاً بـ١٠,٠٠٠ بندقية توزع على الدول العربية كالآتي: شرق الأردن (١٠٠٠) سورية (٢٠٠٠) العراق (٢٠٠٠) السعودية (٢٠٠٠) مصر (٢٠٠٠) لبنان (١٠٠٠) على أن تصحب كل بندقية بـ٥٠٠ طلقة على الأقل، وعمل جميع التسهيلات اللازمة لإرسال ٣٠٠٠ متطوع على الأقل إلى معسكر التدريب في سورية كاملي العدة قبل نصف شهر كانون الثاني (يناير) وموزعين على الدول العربية كالآتي: فلسطين (٥٠٠) شرق الأردن (٢٠٠) سورية (٥٠٠) العراق (٥٠٠) السعودية (٥٠٠) مصر (٥٠٠) لبنان (٣٠٠) ورصد مليون جنيه ثان يوضع تحت تصرف الأمانة العامة التي تشرف بدورها على اللجنة العسكرية الدائمة واختيار اللواء إسماعيل صفوت قائداً عاماً لجميع قوات عرب فلسطين ومتطوعي البلاد العربية.

التدابير الصهيونية

تبين من إحصاء أجرته الوكالة اليهودية في نهاية ١٩٤٧ أن عدد الذكور اليهود الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٥٠ هو ١٨٥,٠٠٠، وفي اليوم التالي لصدور قرار التقسيم دعت الهاغانا فئة الأعمار بين ١٧ ـ ٢٥ للخدمة العسكرية، وتعينت أماكن حشد ألوية الهاغانا التسعة حسب الخريطة. ويقول تاريخ الهاغانا الرسمي أن الأسلحة التي كانت في حيازة الهاغانا يوم قرار التقسيم كانت كالآتي: ٨٤ مدفع هاون (٣ بوصات)، ٦٧٠ مدفع هاون (٢ بوصة)، ١٦ بندقية مضادة للدروع، ٩٣٢ مدفع رشاش (machine gun)، ١٧٥٠٢ بندقية، ٣٨٣٠ مسدساً، ٣٦٦٢ رشيشاً (machine gun sub)، ٥٣,٠٠٠ قنبلة يدوية. وأعلنت الوكالة

اليهودية في ١٧ كانون الأول ١٩٤٧ أنها ستقوم بحملة لجمع ٢٥٠ مليون دولار تبرعات من الجالية اليهودية الأميركية، وفي ٦ تشرين الأول أي قبيل قرار التقسيم أصدر بن غوريون أمراً إلى الصناعة الحربية التابعة للهاغانا (التي كان قد جلب آلاتها من الولايات المتحدة) بإنتاج ٢٠,٠٠٠ بندقية و١٠,٠٠٠ رشيش و١٠,٠٠٠ مسدس و٤,٥ مليون طلقة بأسرع وقت ممكن. وكان بن غوريون كما يذكر في مذكراته أوفد إلى تشيكوسلوفاكيا بعثة لشراء الأسلحة عقدت في ١٥ كانون الثاني ١٩٤٨ صفقة مع شركة سكودا الشهيرة لشراء ٢٤٥٠٠ بندقية، و٥٠٢١ مدفع رشاش (machine gun) و٤٦ مليون طلقة وصل معظمها قبل ١٥ أيار ١٩٤٨، وكانت قيادة الهاغانا أعدت منذ سنوات كما أسلفنا خططاً عامة للسيطرة العسكرية على البلاد، أهمها خطتان: خطة «ج» Gimmel وخطة «د» Dalet، وفور صدور قرار التقسيم أخذت قيادة الهاغانا بتنفيذ الخطة الأولى ووضع اللمسات الأخيرة على الخطة الثانية، وكانت خطة «ج» مبنية على افتراض وجود القوات البريطانية في البلاد وعدم وجود قوات عربية من خارج فلسطين بينما كان سيناريو الخطة «د» غياب بريطانيا ووجود قوات عربية نظامية، واستهدفت الخطة «ج» ضرب القيادات الفلسطينية العسكرية والمدنية والتجمعات الشعبية والنوادي والمقاهي والقرى والإحياء والمزارع المقاومة ووسائل النقل والمنشآت الحيوية (خزانات المياه، والمطاحن) بغية وضع حد «للشغب» ومنع الجماهير الفلسطينية من الالتفاف حول «المحرضين»، وظل العمل في نطاق الخطة «ج» من يوم قرار التقسيم لغاية مطلع نيسان (أبريل) ١٩٤٨ عندما بدأ العمل على أساس الخطة «د».

وهكذا أخذ نطاق الاقتتال يتسع واتخذ خلال الأشهر الأربعة التالية لقرار التقسيم أنماطاً معينة، فمن ناحية ثابرت الهاغانا في تنفيذ الخطة «ج» وأردفت «الأرغون» و«ليحي» (منظمة الشتيرن) هذه العمليات بعمليات من قبلها وكانت المبادرة في أيدي هذه القوات طوال شهر كانون الأول. ففي ١٣ منه مثلاً قامت الأرغون بخمس غارات على الأحياء العربية في القدس ويافا وحيفا قتلت خلالها ٣٥ عربياً. وفي ١٩ منه هاجمت الهاغانا قرية الخصاص (قضاء صفد) وقتلت ١٠ من سكانها. وفي ٢٩ منه فجرت الأرغون لغماً في حي عربي بالقدس قتل من جرائه ١٧ عربياً. وفي ٣٠ كانون الأول ألقت الأرغون قنابل يدوية على العمال العرب في معامل التكرير في حيفا فقتلت منهم ٦ وجرحت ٤٢ فانقض العمال العرب على العمال اليهود وقتلوا منهم ٤١ عاملاً «فانتقمت» الهاغانا لذلك في اليوم التالي بقتل ١٧ عربياً وجرح ٣٣ من أهالي قرية بلد الشيخ المجاورة.

واتبعت القوات الصهيونية النمط نفسه من العمليات خلال كانون الثاني ١٩٤٨ وفجرت «ليحي» في ٤ كانون الثاني سيارة «مفخخة» في مبنى سرايا يافا واستشهد في الحادث ٢٦ من زهرة شباب العرب وأعقبت الهاغانا ذلك في ٥ كانون الثاني بنسف فندق عربي بالقدس (سميراميس) قضى على ٢٠ عربياً بما في ذلك معظم أفراد عائلة أبي صوّان المسيحية المقدسية وتلى ذلك تفجير لغم في باب الخليل بالقدس أودى بحياة ٢٥ عربياً.

وفي هذه الأثناء كانت مفارز من المتطوعين بقيادة فوزي القاوقجي تدخل فلسطين من سورية أطلق عليها اسم «جيش الإنقاذ» ودخلت أول مفرزة عدادها ٣٣٠ في ٨ كانون الثاني تبعتها مفرزتان عدادهما ٣٦٠ و٤٠٠ في ٢١ و٢٨ كانون الثاني، وباشرت هذه المفارز الاشتباك مع المستعمرات اليهودية لكنها اصطدمت بالقوات البريطانية، واستمرت الهاغانا في ضرب القرى العربية فضربت شفا عمرو وتمرا وسعسع في الجليل في ١٩ كانون الثاني و١٤ شباط (فبراير) وقرية سُكرير في قضاء غزة في ٢٦ كانون الثاني.

وباشرت قوى التدمير التابعة «للجهاد المقدس» بقيادة عبد القادر الحسيني الرد بالقدس في أول شباط فنسفت مبنى جريدة «البلستين بوست» اليهودية، فقتل فيه ٢٠ يهودياً وأعقبت ذلك بنسف شارع بن يهودا التجاري في ٢٢ شباط وقتل فيه ٥٧ يهودياً وجرح ١٠٠.

القوات اليهودية[١]:

كان لليهود في فلسطين قوات لا تقل عن (٥٠) ألف مقاتل ـ وهي مجموع قوات الهاغاناه وشتيرن والأرغون ـ وكان نصف هذه القوات قبل أشهر كامل التسليح والتجهيز ومهيَّأً للقتال أمّا النصف الآخر فكان مهيَّأً للتسليح والتجهيز والالتحاق بالوحدات خلال مدة قصيرة ثم إن هذا النصف أكمل تسليحه وتجهيزه.

ومن ضمن قوة الهاغاناه (فرقة البلماخ) المدرعة التي تقدر قوتها بخمسة أو ستة آلاف مقاتل وهي فرقة آلية وعلى درجة عالية من التدريب ويعتبرها اليهود بمثابة فرقة المغاوير الممتازة (كوماندوس).

---

(١) عن التقرير الذي رفعه اللواء إسماعيل صفوت رئيس اللجنة العسكرية إلى رئيس لجنة فلسطين التابعة للجامعة العربية. وقد قسّمت اللجنة العسكرية فلسطين إلى ثلاث مناطق: الجبهة الشمالية، بقيادة أديب الشيشكلي، وكانت تشتمل على الجليل؛ الجبهة الوسطى بقابدة فوزي القاوقجي، واشتملت على بقية البلد باستثناء النقب الذي كان نظرياً تابعاً للقيادة المصرية؛ منطقة القدس التي كانت تابعة لقيادة عبد القادر الحسيني.

وتدل المعلومات الأخيرة أن اليهود شكلوا في الأيام الأخيرة أي بعد بدء المناوشات قوات محلية من سكان المستعمرات يُطلَق عليها القوات الدفاعية المحلية موزعة على المستعمرات بقصد الدفاع عنها ضد هجمات العرب ويقدر مجموع هذه القوات بما يقارب العشرين ألف مقاتل ثلثهم تقريباً من الفتيات.

القوات العربية:

كانت القوات العربية تتألف من العناصر التالية:

أولاً ـ وحدات نظامية (الأصح أنها شبه نظامية) مؤلفة من المتطوعين الذين تم تدريبهم في معسكر قطنا[١] وهم ينتسبون إلى مختلف الأقطار العربية.

ثانياً ـ وحدات أو مفارز نظامية (أو شبه نظامية) مؤلفة من متطوعين ينتسبون إلى مناطق خاصة كالدروز والجراكسة ومعظمهم ممن سبق لهم خدمة عسكرية في أحد الجيوش.

ثالثاً ـ جماعات مسلحة من المجاهدين الفلسطينيين يستخدمون بصورة دائمة لقاء رواتب معينة.

ويبلغ مجموع الوحدات والمفارز المنوه عنها في الفقرتين أولاً وثانياً ٥٢٠٠ متطوع تقريباً دخل منهم فلسطين ما يقارب الـ(٤٠٠٠) متطوع (بما فيهم فوج جبل الدروز ومفرزة مجدل شمس[٢] على وشك الدخول) أمّا الباقون فهم قيد التدريب والتشكيل وفي النية تأليف قوة احتياطية منهم وتحشيدها في منطقة طوباس[٣].

أمّا مجموع المجاهدين الذين تم تسجيلهم حتى الآن فبلغ ما يقارب الـ(٢٥٠٠) مجاهد فيكون مجموع جميع القوات العربية المقاتلة لا يزيد على (٧٧٠٠) مقاتل وفي النية إبلاغ عدد المجاهدين الفلسطينيين إلى (٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠) مجاهد فيما إذا تيسر السلاح والعتاد المطلوب لذلك.

ويتضح من هذه الأرقام أن النسبة بين القوات العربية والقوات اليهودية من حيث العدد تكاد تكون مفقودة وأن الفرق كبير جداً.

ويمكن القول نفس القول عن حال السلاح بين الفريقين.

---

(١) قرب دمشق.
(٢) بلدة في جنوب غرب سوريا.
(٣) قرية شمال شرقي نابلس.

الفصل التاسع والعشرون

تساقط المدن والقرى

أصدرت هيئة الأمم قرارها بتقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧م وأعلنت بريطانيا أنها ستنسحب من فلسطين في أيار سنة ١٩٤٨م، وكان عدد الدول العربية المستقلة في ذلك الحين خمس دول هي: مصر وسورية ولبنان والعراق والأردن، فقررت هذه الدول اقتحام فلسطين للحؤول دون تقسيمها.

وكان لدى اليهود في ذلك الحين نحو ٦٧ ألف مقاتل يعتمدون في تسليحهم على ما يستوردونه من أوروبا بطرقهم الخاصة وما يحصلونه من القوات البريطانية، عدا عما يصنعونه محلياً من الأسلحة الخفيفة (راجع ما تقدم في هذا الموضوع).

وفي يوم ١٤ أيار سنة ١٩٤٨، أعلن دافيد بن غوريون قيام (دولة إسرائيل) بحكومة مؤقتة لها، فأسرعت أمريكا للاعتراف بها وتلاها الاتحاد السوفييتي، ثم توالت الاعترافات.

ودخلت الجيوش العربية على الشكل التالي: خمسة آلاف جندي مصري، و١٥٠٠ جندي عراقي، و٤٥٥٠ جندياً أردنياً و١٨٧٦ جندياً سورياً، و١٠٠٠ جندي لبناني.

وهكذا كان عدد مقاتلي الجيوش العربية التي دخلت فلسطين في منتصف ليلة ١٥ أيار سنة ١٩٤٨م حوالي ١٤٩٢٦. وهناك رأي آخر في هذا العدد نذكره فيما بعد.

وعلى هذا فإن تسمية هذه القوة بالجيوش العربية كانت تسمية غير صحيحة، فهي في المقياس العسكري لا تعدو أن تسمى جيشاً متواضعاً غير مهيىء لدخول حرب، لا تدريباً ولا سلاحاً، فضلاً عن ضعف بل انعدام التنسيق والتعاون بين قطعاته، وعدم وجود خطة عمليات موحدة، إذ كان كل جيش يعمل بأوامر دولته.

وقبل دخول القوات العربية كان اليهود ابتداء من أوائل نيسان ١٩٤٨م هم المهاجمين وكانوا بمذابحهم قد أفزعوا العرب فغادرت أعداد كبيرة منهم بيوتها وأراضيها، وبذلك سيطر اليهود على معظم المدن الفلسطينية الكبرى مما مكنهم من توزيع قواتهم على مختلف الجبهات للتصدي للهجوم العربي المنتظر.

معركة القسطل واستشهاد عبد القادر الحسيني

كان هجوم البلماخ على قرية القسطل الاستراتيجية في ٣ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ نذيراً ببدء عملية نَحْشون في ٦ نيسان/أبريل؛ وهي العملية الأولى في خطة دالِتْ، خطة الهاغاناه العسكرية الموضوعة لحماية الدولة التي خصصتها خطة التقسيم الصادرة عن الأمم المتحدة لليهود، وأيضاً لاحتلال أقصى ما يمكن احتلاله من المناطق التي خصصتها خطة التقسيم للعرب. وكان الهدف المحدد لعملية نَحْشون احتلال القرى الفلسطينية الواقعة على طرفي طريق يافا ـ القدس و«تطهيرها» من سكانها الفلسطينيين، وبذلك ضمان إمكان وصول القوات اليهودية من الساحل إلى القدس، وفي الوقت نفسه شق الجزء الأوسط من الدولة المخصصة للفلسطينيين بموجب خطة التقسيم. رسمياً، كان قبول الوكالة اليهودية التقسيم يعني قبولها أيضاً استثناء القدس (التي كان من المقرر أن توضع تحت وصاية الأمم المتحدة) من الدولة اليهودية. وفي الواقع كان هذا الموقف، كما أظهرت عملية نَحْشون ومعركة القسطل، موقفاً لفظياً فحسب.

عندما بدأ تنفيذ عملية نَحْشون، كانت وحدات جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي قد انتشرت في المنطقتين الشمالية والوسطى من فلسطين، وكانت المسؤولية عن العمليات نظرياً في يد قيادة جيش الإنقاذ، والتنسيق فيما بينهما من مسؤوليات اللجنة العسكرية في دمشق، التابعة للجامعة العربية. لكن، عملياً، كانت اللجنة العسكرية قد وضعت منطقة القدس تحت قيادة عبد القادر الحسيني، قائد القوات الفلسطينية غير النظامية «الجهاد المقدس». وكانت قوة تابعة لجيش الإنقاذ، مكونة من ١٢٠ مقاتلاً، متمركزة في القدس، موضوعة أيضاً تحت قيادة عبد القادر.

في نيسان/أبريل ١٩٤٨ بدأت آثار تفوق اليهود في السلاح والعتاد وعدد المسلحين تظهر للعيان. وعزز ذلك دعم الإنكليز لهم بشتى الوسائل، وبدأ زمام المبادرة ينتقل إلى أيديهم. ففي منطقة القدس كانت البداية أن وضع اليهود خطة نَحْشون التي هدفت إلى السيطرة على طريق تل أبيب ـ القدس، خصوصاً في منطقة باب الواد ليتمكنوا من فك

الحصار عن يهود القدس وتموينهم بعد أن كادوا يموتون جوعاً. وكانت هذه الخطة تقوم على أساس احتلال القرى العربية التي تقع على المرتفعات التي تتحكم في الطريق عند مدخل وادي علي من ناحية الغرب، وهي التي يرابط فيها المناضلون الذين دأبوا على إغلاق الطريق ومهاجمة القوافل اليهودية، وهي قرى بيت محسير وساريس ودير محيسن وخلدة من جهة الغرب، والقسطل ودير ياسين من جهة الشرق.

تقع القسطل على بعد عشرة كيلومترات إلى الغرب من القدس على قمة مرتفع استراتيجي يسيطر على طريق القدس ـ يافا وعلى المنطقة المحيطة به. وترتفع ٧٥٠ متراً عن سطح البحر بينما يكون ارتفاع الطريق العام قرب القسطل ٥٠٠ متر فقط. وتلتف الطريق حول القسطل على شكل نصف دائرة.

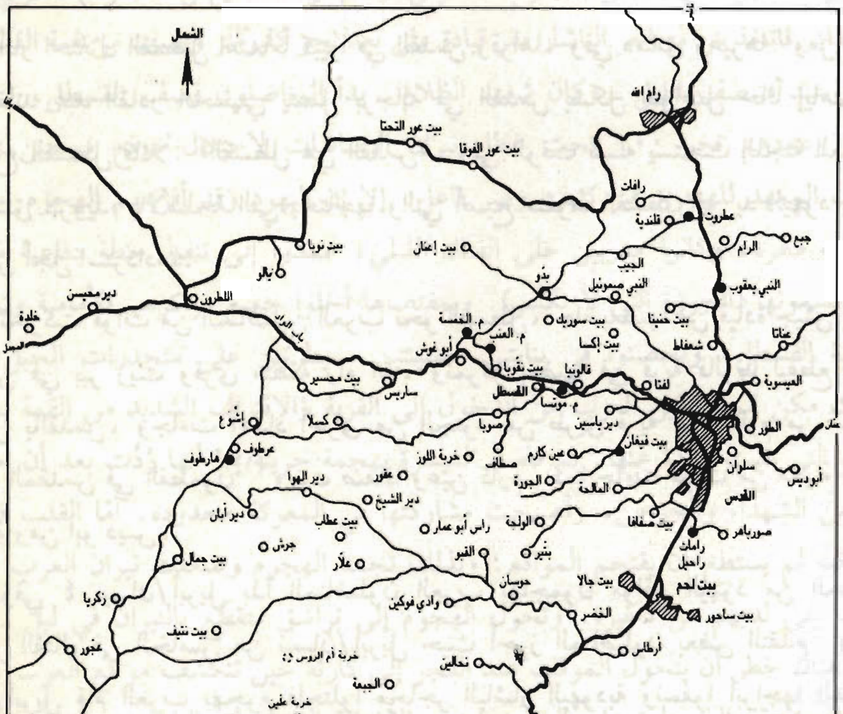

وفي سنة ١٩٤٨ كانت القسطل قرية صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ٣٠٠ نسمة، ولم تكن فيها حامية عسكرية عربية سوى عدد قليل من أبنائها المسلحين ببعض البنادق الخاصة.

وفي يوم السبت ٣ نيسان/أبريل ١٩٤٨ هاجمتها قوة كبيرة من رجال البلماخ مزودة بالمصفحات ومدافع المورتر واحتلتها بعد معركة قصيرة مع سكانها. وقامت بإجلاء جميع سكانها، وبدأت بجلب اللوازم لتحصينها، من أسلاك شائكة وحديد وأسمنت وألغام وعتاد حربي وكميات كبيرة من المتفجرات. ولم يتدخل الجيش البريطاني بأي شكل من الأشكال ليمنع اليهود من احتلالها أو إجلاء سكانها، مع أن تعليمات القائد العام للجيش البريطاني للعرب واليهود كانت تمنع وجود مسلحين أو مظاهر عسكرية على طريق القدس - يافا، الأمر الذي طبق على العرب مراراً.

التحرك لاسترداد القسطل

أثار احتلال القسطل اهتماماً كبيراً في القدس وقراها، وفي دمشق وغيرها. ومن دمشق كان القائد عبد القادر الحسيني يتصل برجاله في القدس بشكل متواصل حاثاً إياهم على استرجاع القسطل قائلاً: «القسطل هي القدس». وفي الوقت نفسه يستحث اللجنة العسكرية في دمشق لتزويده بالأسلحة التي يحتاجها والتي أصبح سقوط القسطل في يد اليهود يستلزم ذلك من أجل استردادها.

تحركت قوات من المناضلين العرب نحو القسطل، جاء بعضها من قيادة جيش الجهاد المقدس في بير زيت، وقوات منطقة رام الله، وتمركز بعضها في قرية قالونيا ليقطع اتصال القسطل بالقدس، وجاءت أعداد أخرى من الجنود عن طريق قرية عين كارم من مناضلي الجهاد المقدس في القطمون(١) وبيت صفافا وعين كارم. كما جاءت قوات من مدينة القدس نفسها ومن أبو ديس.

وفي ٤ نيسان/أبريل بدأ المناضلون العرب يهاجمون مواقع اليهود من الجنوب والشمال واستمر القتال في الخامس من نيسان/أبريل حيث أحرز المناضلون بعض التقدم. وفي ٧ نيسان/أبريل قام العرب بهجوم فاحتلوا محاجر الباشا اليهودية ونسفوا أبراجها العسكرية ومنشآتها. غير أن اليهود جلبوا نجدات كبيرة وقاموا بهجوم معاكس، وتحركت قواتهم من المستعمرات المجاورة والمحيطة بالقدس لمنع وصول نجدات إلى العرب، واستخدموا طائرة

---

(١) كان القطمون حياً سكنياً فلسطينياً في القدس الغربية.

هاجمت مواقع المناضلين قرب القسطل. ومن ناحية ثانية تمكن اليهود في ٦ نيسان/أبريل من احتلال قريتي دير محيسن وخلدة القريبتين من باب الواد[١] وتمكنوا من شق طريق وإيصال قافلة من المؤن والإمدادات إلى القدس مؤلفة من ٤٠ شاحنة كبيرة. وتحرج الموقف وكادت ذخائر المناضلين العرب تنفذ.

عبد القادر في دمشق

في هذه الأثناء كان القائد عبد القادر الحسيني في دمشق يتميز غيظاً ويتحرق شوقاً للعودة إلى القدس. ولكنه لم يحصل حتى ذلك الوقت من اللجنة العسكرية على أي سلاح فعاد إلى القدس.

وضع عبد القادر خطة لاحتلال القسطل وللهجوم على ثلاثة محاور، فبعد القصف بالمورتر، تتقدم الميمنة من الجنوب الشرقي والميسرة تتقدم من الجنوب الغربي. أمّا عبد القادر فاتخذ من محاجر الياشار مقر قيادة على بُعد نحو كليومتر ونصف من قمة القسطل.

وعند منتصف الليل ـ وكان شديد الظلام ـ بدأ المناضلون قصف القسطل، ثم تقدم المشاة وعددهم نحو ٢٠٠ تحت غطاء نيران الرشاشات لاحتلال موقع محصن. وكان القصف الممهد للهجوم غير كثيف وغير فاعل. إلا إن اليهود وقد أفزعهم الهجوم وشعروا بجديته وخطره، وكانوا مدربين على القتال الليلي، عمدوا إلى تنفيذ خطة دفاعية معروفة لديهم يسمونها (الجوزة التي لا تكسر). وبمقتضاها أخلوا جميع مراكزهم الأمامية وتجمعوا في قمة القسطل، وتحصنوا في بنايتين حصينتين مسيطرتين على منحدرات الجبل. هذا التكتيك مكن المهاجمين العرب من الدخول إلى القرية والاقتراب الشديد من القمة باستثناء الميمنة التي بقيت بعيدة عنها. ثم قامت الميسرة بهجمة جريئة إلا أنها رُدّت بعد أن خسرت عدداً من الشهداء والجرحى، وأصبحت مشاركتها في المعركة محدودة. أمّا القلب فاقترب جداً لكنه لم يستطع أن يقتحم المواقع. وبذلك تجمد الهجوم وضعفت نيران العرب حرصاً على ما بقي لديهم من ذخيرة. وتحول الهجوم إلى تراشق متقطع بالنيران في [illegible]. وصار هناك خطر أن يتحول الموقف عند الفجر إلى كارثة حين تنكشف مواقع [illegible] لمواقع العدو المرتفعة والمسيطرة على المنحدرات، بالإضافة إلى أن اتصال اليهود المتحصنين في

(١) كانت هاتان القريتان أولى القرى الفلسطينية التي سقطت في سياق عملية نحشون، العملية الأولى في خطة دالت. وجرى توقيت احتلالهما مع احتلال القسطل والقرى العربية الأُخرى الواقعة على الطريق الرئيسي بين يافا والقدس في الجزء ما بين باب الواد والقدس.

القمة بالمستعمرات الغربية كان لا يزال مؤمناً من خلال حرج كثيف. وهناك روايات كثيرة تؤكد أن عبد القادر غادر مقر قيادته ودخل القسطل وفي نيته أن يصل إلى مجموعة الميمنة ليدفع بها إلى الأمام. وقيل إن من معه حذره من دخول القرية في هذه الظروف فنهره ودخل القرية وحيداً.

وعند اقتراب الفجر وصلت لليهود إمدادات عن طريق الحرج، وأصبح الموقف حرجاً.

وأصبح عبد القادر في حكم المفقود أو المحاصر داخل القرية. فأصيب المقاتلون بالإحباط فَهُم لا يستطيعون إعادة الكرَّة في النهار والهجوم على القرية من جديد، وذخائرهم قليلة. وأخيراً قرروا أن يرسلوا في طلب نجدات من كل مكان لإنقاذ عبد القادر المحاصر داخل القسطل. فتوجهت الرسل على جناح السرعة إلى القدس ورام الله والخليل والرملة وجميع القرى القريبة، تستنهض همم المقاتلين. فسارعت النجدات في التوجه إلى القسطل. فجاءت من القدس مجموعة من جيش الإنقاذ ومجموعة من قوات حي باب الساهرة ومجموعة من حي وادي الجوز، ومجموعة من قرى الوادية، وفريق من حرس الحرم الشريف وجاءت من الخليل مجموعة، وجاءت من منطقة الرملة مجموعة، وأصبح مجموع المناضلين يزيد على خمسمئة رجل.

وفي صباح الخميس ٨ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ بدأ التقدم إلى القسطل بانتظام ونجحت الخطة وترك اليهود مواقعهم ودخل العرب القسطل ووجدوا عبد القادر الحسيني فيها شهيداً. وعاد اليهود فاستردوا القسطل.

دير ياسين

في ٩ نيسان (أبريل) وكان يوم جمعة، وقبل أن ينبلج فجره، انقضّت فجأة، وبمعرفة قيادة الهاغانا، التابعة للوكالة اليهودية، قوات منظمتي الشتيرن (بالعبرية ليحي) والأرغون (ايتل) الإرهابيتين على قرية دير ياسين في ضواحي القدس الغربية، على بعد أقل من خمسة كيلومترات من مقر حكومة الانتداب البريطانية السياسي والعسكري في عاصمة فلسطين، وما إن غربت شمس ذلك اليوم، بعد قتال عنيف دام أكثر من ١٢ ساعة، اشتركت فيه إلى جانب المهاجمين وحدات من قوات البالماخ الضاربة التابعة للهاغانا، حتى تم للمعتدين ما عقدوا النية عليه واحتلت القرية واستشهد من سكانها (البالغ عددهم حوالي ٧٥٠ نسمة) ١٥٠ شخصاً معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال وهُجّر الناجون كافة ليدخلو شتاتاً لا نهاية له. وغدا اسم دير ياسين عبر الآفاق والعقود رمزاً لدموية الصهيونية وبربريتها.

لم تكن دير ياسين أول قرية فلسطينية عام ١٩٤٨ تعتدي عليها القوات الصهيونية نسفاً وقتلاً فقد سبقتها بالتسلسل الزمني كل من الطيرة (قضاء حيفا) والخصاص (صفد) وقزازة (الرملة) وبلد الشيخ وأبو شوشة وشفا عمرو (حيفا) وتمرا (الناصرة) وعرب صُقرير (غزة) وسعسع (صفد) وبيار عدس وأبو كبير (يافا) والحسينية (صفد)، ولم تكن دير ياسين أول قرية فلسطينية تحتلها القوات الصهيونية عام ١٩٤٨ وتطرد سكانها منها بعد أن استشهد منهم من استشهد فقد سبقتها كل من خُلدة ودير مُحَيْسني (الرملة) ولفتا والقسطل (القدس)، كذلك لم تكن دير ياسين آخر قرية فلسطينية عام ١٩٤٨ يصيبها ما أصابها من قتل ونسف وتهجير واحتلال فقد تبعها خلال العام ذاته ٤٥٠ قرية دُرست معالمها ومنازلها درساً ووزعت أراضيها ومزارعها نهباً على سكان مستعمرات يهودية أنشئت على أنقاضها ولم تنفرد دير ياسين من بين قرى فلسطين بروعة صمودها ومقاومتها فقد شاركها في ذلك العديد من القرى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر إجْزِم وجَبَع وعين غزال (حيفا) وسلَمه والعباسية، وأبو كبير وتل الريش، ويازور (يافا) وخُلدة ودير محيسن (الرملة) والواقع أنه لو قاومت معظم سائر القرى كما قاومت دير ياسين وشقيقاتها لكان اختلف الوضع عما انتهى إليه في ريف فلسطين وفي ٣ نيسان (أبريل) ابتدأت معركة القسطل التي تبعد حوالي كيلومترين إلى الشمال الشرقي من دير ياسين ويفصل بينهما واد سحيق واحتلتها قوات البالماخ وبهذه الخطوة بدأ العدو في تنفيذ عملية «نحشون» وهي أولى العمليات في تنفيذ «خطة دال» الكبرى للهاغانا بعد قرار التقسيم لإقامة الدولة اليهودية بقوة السلاح وكان هدف نحشون «تطهير» طريق يافا القدس من القرى العربية كافة على جانبيها من السهل الساحلي غرباً إلى ضواحي القدس شرقاً ورافق الهجوم على القسطل هجوم ضخم على قرى السهل غربي باب الواد.

وتحتدم معركة القسطل طوال ٤ و٥ و٦ و٧ نيسان وفي صباح ٧ نيسان يصل عبد القادر الحسيني إلى القدس عائداً من دمشق خالي الوفاض حانقاً غاضباً ويتوجه إلى القسطل لتوه عن طريق عين كارم ليصلها عصر ذلك اليوم ويستشهد فيها في ١٨ أبريل، وكان مناد قد وصل في ٦ نيسان إلى دير ياسين ينادي ويستنجد بالقرى المحيطة لنجدة القسطل وتعتبر دير ياسين أن ليس في وسعها إلا الاستجابة ويتجه اثنا عشر مسلحاً منها إلى القسطل عبر عين كارم وتشترك نجدة دير ياسين في معركة استرداد القسطل في ٧ ـ ٨ أبريل وشاهد أعضاؤها قدوم عبد القادر ورفاقه وكيف رفض دعوة عين كارم للغداء أو حتى شرب القهوة فيها ويجرح منهم أربعة وهم يساعدون في حمل جثمانه لوضعه في المصفحة التي نقلته إلى القدس، ويعود رجال دير ياسين السالمون إلى قريتهم عصر ٨ نيسان ويشاهدون تجمعاً كبيراً للمجاهدين في عين كارم

يستعدون لمواكبة جثمان عبد القادر ويكون سكان دير ياسين قد تابعوا سير معركة القسطل من أسطح منازلهم عبر الوادي السحيق ويلفّ القرية شعور بالغمّ والقنوط لاستشهاد عبد القادر.

وتبكي بعض نساء دير ياسين رجالهن الذين جرحوا في القسطل وأُرسلوا إلى مستشفى الرملة وغيره للمعالجة فيزورهن أحد «اختيارية» دير ياسين وهو عضو في لجنة الطوارىء ليقول لهن: «لا تبكين الآن لأن الصراخ والبكاء سيكون لاحقاً».

سقوط طبريا

كانت طبريا حسب تاريخ الهاغانا الرسمي «أولى المدن» التي قررت القيادة الصهيونية احتلالها وفق الخطة «د» وهي الخطة الكبرى (Master Plan) لتأسيس الدولة اليهودية.

وكان عدد سكان طبريا عام ١٩٤٨ حوالي ١٢٠٠٠، يشكل اليهود أكثر من نصفهم بقليل، وكانت منازلها ومبانيها الحديثة العربية واليهودية منتشرة على منحدر باتجاه شاطىء البحيرة بينما لامست البلدة القديمة الشاطىء ذاته، وكانت الطريق الوحيدة التي تصل الجليل الشرقي الأعلى (وبالتالي مستعمراته اليهودية) بسائر فلسطين تمر عبر منتصف المنحدر.

ولم يكن لدى سكان طبريا العرب عند قرار التقسيم أي نوع من أنواع السلاح، بيد أن اللجنة العسكرية في دمشق أرسلت إليهم ٢٥ بندقية بتاريخ ٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، أعقبتها بـ٣٦ أخرى بعد عشرة أيام، ونشب أول اقتتال بين الطرفين في ١١ آذار (مارس) واستمر لغاية ١٤ منه عندما اجتمع بعض أعيان البلدة العرب بأعضاء «لجنة الطوارىء» اليهودية واتفقوا على هدنة دامت حوالي ثلاثة أسابيع.

وتأزم الوضع ثانية في العشر الأول من نيسان (أبريل) وأنشأت خلاله لجنة قومية عربية للإشراف على الدفاع عن المدينة وارتفع عدد الحامية العربية إلى حوالي المئتين لكن سلاحها اقتصر على البنادق مع نقص فادح ومزمن في العتاد بينما كان لدى اليهود وفرة من الرشيشات الأتوماتيكية ومدافع الهاون وعتادهما وهما السلاحان المثاليان في حرب الشوارع.

وفي ١٢ نيسان بدأت قوات الهاغانا هجومها العام الذي كانت قد مهدت له بإخلاء الحي اليهودي في البلدة القديمة من المدنيين اليهود وإحلال قوات من لواء الغولاني Golani Brigade محلهم عن طريق التسلل، وافتتحت الهجوم العام باحتلال قرية ناصر الدين أقرب القرى العربية إلى طبريا وهدم منازلها وحرقها وطرد سكانها وقتل العديد من الأطفال والنساء فيها مما أشاع الرعب بين السكان العرب في طبريا. وتلا ذلك قصف شديد ومتواصل بمدافع

الهاون على المناطق العربية وهجوم مزدوج متزامن من قبل قوات الغولاني داخل البلدة القديمة وقوات البالماخ الضاربة التي استولت على الطريق العام المشرف على سائر المدينة باتجاه البحيرة. واستمر القصف وتقدم القوات اليهودية طوال يومين الأمر الذي أدى إلى انهيار تام في معنويات المدنيين العرب، وبعد أن وصل الوضع إلى هذا الدرك تحركت في ١٦ نيسان القوة البريطانية، التي كانت مرابطة بأعالي طبريا، وهددت القوات اليهودية بالقصف إذا لم تتوقف عن الهجوم، وفي الوقت نفسه اتصل القائد البريطاني بقائد الحامية العربي ونصحه بوقف القتال وبإجلاء السكان العرب، وأبدى استعداده لتوفير وسائل النقل بحمايته. وكان قد تبقى لدى المناضلين العرب ذخيرة تكفي لمواصلة القتال لساعة ونصف الساعة فقط، فلم ير القائد العربي بداً من قبول العرض البريطاني، خصوصاً أن القوات الصهيونية استأنفت هجومها ليل ١٦ نيسان على رغم وساطة القائد البريطاني، واستمرت به خلال يوم ١٧ نيسان، فما أن حل ليل ١٨ نيسان حتى كانت طبريا قد أقفرت من سكانها العرب وبات هؤلاء مشردين لاجئين.

انقضت أنباء سقوط طبريا على العواصم والشعوب العربية انقضاض الصاعقة، ذلك أنها كانت أول مدينة فلسطينية تسقط بيد اليهود.

سقوط حيفا

كانت أول مدينة هوجمت طبريا، التي سقطت في ١٨ نيسان/ أبريل. وكانت المدينة الثانية على قائمة الهاغاناه حيفا. وكان عدم تدخل الجيش البريطاني (الذي كان من المفروض أن يحافظ على الأمن والنظام حتى موعد انتهاء الانتداب في ١٥ أيار/مايو) في القتال في طبريا وإجلاء السكان العرب عنها حدثاً لقي ترحيباً كبيراً من قيادة الهاغاناه وفتح عيونها على حقيقة الموقف البريطاني.

وكان جرى إعداد خطة لهجوم ضخم على الأحياء العربية في حيفا أُطلق عليه اسم «عملية مِسْبَرايم» (المقص). لكن وضع حيفا كان مختلفاً عن وضع طبريا، مع أن المدينتين كانتا من نصيب الدولة اليهودية في قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧. فقد كانت حيفا هي الميناء الرئيسي في فلسطين والمدينة المقرر أن تلتقي فيها القوات البريطانية لدى انسحابها من بقية أنحاء البلد من أجل تجميعها ونقلها بحراً إلى بريطانيا. وفي الواقع، كانت الحكومة البريطانية أعلنت مراراً أن الجلاء العسكري عن البلد لا يمكن إتمامه في ١٥ أيار/ مايو لأسباب لوجستية، وأن جزءاً من قواتها سيبقى في حيفا

وجوارها حتى أول آب/ أغسطس. علاوة على ذلك، أخبرت بريطانيا الحكومات العربية، في سياق شرحها لخطط الانسحاب، أن حركة الانسحاب ستكون من «الجنوب إلى الشمال» عبر حيفا. وكانت مشكلة الهاغاناه في حيفا، خلافاً لما كان عليه الحال في طبريا، هي أن عملية بحجم «مِسْبَرايم» من شأنها أن تؤدي إلى مجابهة مباشرة مع الجيش البريطاني، الذي كانت دورياته تحرس المنطقة الفاصلة بين الأحياء العربية والأحياء اليهودية في المدينة.

تبددت مخاوف الهاغاناه من هذه الناحية في ١٨ نيسان/ أبريل، عندما استدعى الجنرال هيوت ستوكويل، القائد البريطاني في القطاع الشمالي، إلى مقر قيادته هاري بيلين، ضابط الارتباط في الوكالة اليهودية مع الجيش البريطاني في المدينة؛ وكان ذلك في اليوم نفسه الذي سقطت فيه طبريا وأجلى الجيش البريطاني السكان العرب عنها. ومن دون شك، كان ذلك الحدث البالغ الأهمية حاضراً بقوة في ذهن ستوكويل، كما في ذهن الهاغاناه. ولدهشة بيلين وقيادة الهاغاناه (التي قدم بيلين تقريراً إليها عن اجتماعه إلى ستوكويل)، أعلم الجنرال [ستوكويل] بيلين أنه ينوي الشروع فوراً في سحب قواته من المناطق الفاصلة بين الأحياء العربية والأحياء اليهودية في حيفا وأن الانسحاب سيكون قد استكمل يوم الثلاثاء، في ٢٠ نيسان/ أبريل.

كان عدد سكان مدينة حيفا ١٤٠,٠٠٠ نسمة، أكثر من نصفهم بقليل يهوداً. وكانت الأجزاء العربية من المدينة ممتدة بمحاذاة شاطىء البحر من الشمال إلى الجنوب على مسافة نحو ٣٥٠٠ متر، وتشرف وتسيطر عليها الأحياء اليهودية الحديثة في المرتفعات العليا من جبل الكرمل (هدار هَكَرحمل). وكان عرض الأحياء العربية ١٠٠٠ متر في أقصى نواحيه، ومتوسط عرض المسافة بين الأحياء اليهودية والبحر بين ٣٥٠ و٤٠٠ متر. وفي نقطة قريبة جداً من السوق القديمة الواقعة بالقرب من الميناء (حيث كانت توجد قوة سرّية للهاغاناه متخفية في هيئة عمال ميناء)، كانت الأجزاء العربية الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية من المدينة متصلة بعضها ببعض بخصر ضيق جداً لا يكاد يبلغ عرضه ٢٠٠ متر. وكان الاتصال البري للسكان العرب ببقية أجزاء فلسطين يتم عبر جسر روشيما في الجنوب الشرقي.

لم يكن هناك قوات من جيش الإنقاذ في حيفا، وإنما مواطنون متطوعون فقط، وكان عدد أفراد الحامية الفلسطينية نحو ٤٥٠ شخصاً، مسلحين ببنادق بريطانية وفرنسية، معظمها من مخلفات الحرب العالمية الأولى، ويشكون نقصاً مزمناً في الذخيرة. ولم يكن لدى الحامية بأكملها سوى خمسة عشر رشيشاً، وهو سلاح أساسي في حرب المدن.

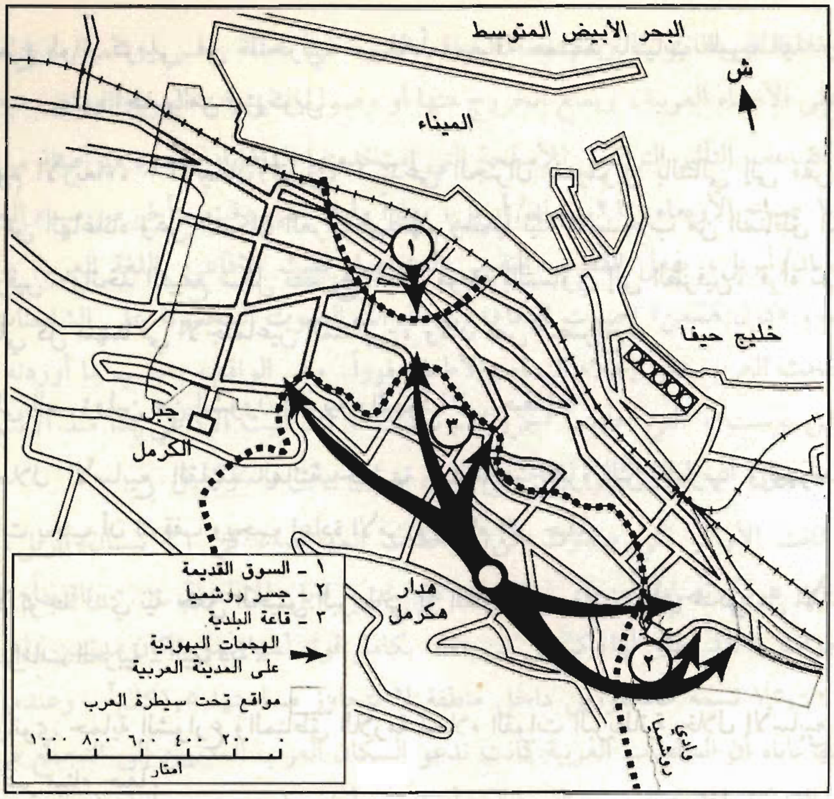

حيفا، ٢١ نيسان/ أبريل ١٩٤٨

في المقابل، كانت حيفا مقر وقاعدة تجنيد لواء كرملي (اللواء الثاني) البالغ تعداده ٣٠٠٠ مقاتل، والذي كان واحداً من الألوية السبعة التي كان يتألف منها سلاح الميدان التابع للهاغاناه. وكان لواء كرملي يمتلك عربات مصفحة، ومدافع هاون من عيار ٢ إنش و٣ إنشات، ومدافع رشاشة، وستنات ورشيشات، وبنادق، وقنابل يدوية ـ جميعها متوفرة بكميات كبيرة ـ ومخزوناً من قذائف الهاون والذخيرة غير محدود عملياً. واستخدم اللواء في حيفا أيضاً سلاحين أُطلق عليهما اسم «دافيدكا» و«رصاصات باراك». وكان السلاح الأول راجمة قذائف من صنع محلي شبيهة بمدفع الهاون تطلق قذائف وزنها ٦٠ رطلاً، وتحدث لدى انفجارها دماراً كبيراً ودوياً هائلاً. وكان السلاح الثاني براميل نفط وألغاماً بحرية كروية محشوة بالمواد المتفجرة كانت تدحرج من المناطق اليهودية المرتفعة على الأحياء العربية الواقعة إلى الأسفل منها. ولم يكن الـ«دافيدكا» و«رصاصات باراك» سلاحين دقيقين، لكنهما كانا يحدثان تأثيراً نفسياً مدمراً عند السكان المدنيين بسبب القتل العشوائي والدوي الهائل الناجمين عن انفجار عبواتهما.

شرع لواء كرملي في التحرك، مسلحاً بمعرفة مسبقة بالنيات البريطانية وخطط الانسحاب وبضوء أخضر من ستوكويل.

يوم الأربعاء، ٢١ نيسان/أبريل، استدعى الجنرال ستوكويل بالتتالي إلى مقر قيادته ممثلين عن الهاغاناه وعن السكان العرب ليبلغهم رسمياً نيّته الانسحاب من المناطق الفاصلة بين الطرفين. واتخذ التبليغ شكل تصريح خطي موجه بالتساوي إلى الطرفين، قرأه ثم سلمه إلى ممثلي كل منهما في الاجتماعين المتتاليين، وكان نص التصريح:

إلى المسؤولين عن الشؤون العربية واليهودية في حيفا:

خلال الأسابيع القليلة الفائتة حدثت صدامات كثيرة بين العرب واليهود. هذه الصدامات يجب أن تتوقف ويجب إعادة الأمن والنظام إلى حيفا.

لا توجد لديّ نيّة جعل الجيش البريطاني أو الشرطة يتدخلان، بأي شكل من الأشكال، في الصدامات العربية ـ اليهودية.

وأنوي حماية الشوارع والمناطق اللازمة لجلاء القوات البريطانية خلال الأسابيع الثلاثة المقبلة عبر ميناء حيفا.

تبع ذلك قائمة طويلة بالطرق، وشرايين المواصلات، والأحياء في المدينة التي سيسحب قواته إليها، والتي أظهرت بوضوح ودقة، بعد استثنائها، المناطق التي ستنسحب قواته منها.

لكن بينما كان ممثلو الهاغاناه، الذين اجتمع ستوكويل إليهم في الساعة العاشرة صباحاً، يعرفون أن الانسحاب كان قد استكمل مع غروب شمس اليوم السابق، الثلاثاء ٢٠ نيسان/أبريل، كانت تلك هي اللحظة التي علم فيها الطرف العربي بما كان يجري. وقد أدرك النقيب أمين عز الدين، الذي كان يرافقه جورج معمّر، ضابط الارتباط العربي مع الجيش البريطاني، على الفور، مغزى التصريح عندما قرأه ستوكويل. وعندما خرج عز الدين من الاجتماع الذي عقد في الساعة الحادية عشرة صباحاً، توجه على الفور إلى دمشق لتنبيه اللجنة العسكرية إلى ما أصبح واضحاً، بعد أن سلم قيادة الحامية العربية إلى نائبه، يونس نفاع.

في الساعة العاشرة صباحاً، حتى بينما كان ستوكويل يقرأ تصريحه أمام ممثلي الهاغاناه، كان لواء كرملي قد أصدر أوامره ببدء عملية «بعور حَميتس»، وبالتحرك إلى المواقع

التي أخلاها البريطانيون، وبمهاجمة المواقع العربية في منطقة جسر روشميا. وبذلك يطبق الفخ على الأحياء العربية، ويمنع الخروج منها أو وصول التعزيزات العربية إليها.

تضاعف التأثير التراكمي للأسلحة التي استخدمتها الهاغاناه بصورة متواصلة من الساعة ١٠:٣٠ صباح الأربعاء، ٢١ نيسان/أبريل، نهاراً وليلاً حتى وقت متأخر من مساء الخميس، ٢٢ نيسان/أبريل، بفعل القصف النفسي المتواصل للبث الإذاعي باللغة العربية من إذاعة الهاغاناه، «كول همَغن» «صوت الدفاع»، ومكبرات الصوت المحمولة على الشاحنات، التي كانت تحث العرب على إجلاء النساء والأطفال فوراً. وفي الواقع، بحسب ما أوردته صحيفة «بالستاين بوست»، التي خلفتها «جروزالم بوست»: فإن البث الإذاعي بدأ منذ الإثنين، ١٩ نيسان/أبريل، أي اليوم التالي للاجتماع الذي تم بين بيلين وستوكويل.

كانت الأوامر التي صدرت إلى الوحدات المهاجمة، في ٢١ نيسان/أبريل، تقضي بـ«قتل أي عربي تصادفونه... وبإحراق كل شيء قابل للاحتراق... وباقتحام الأبواب بالمتفجرات.» لقد أطلق لواء كرملي من عقاله بكامل قوته لمهاجمة سكان مدنيين يبلغ عددهم نحو ٧٥,٠٠٠ نسمة محصورين داخل منطقة لا تتجاوز مساحتها ١,٥ كلم٢. وعندما علمت قيادة الهاغاناه أن السلطات العربية كانت تدعو السكان العرب المدنيين إلى التجمع في ساحة السوق القديمة للاحتماء من القصف، أصدرت أوامرها، بحسب التاريخ الرسمي للواء كرملي، بقصف ساحة السوق بمدافع الهاون من عيار ٣ انشات. وعندما بدأ القصف، وبدأت القذائف تتساقط داخل السوق، ساد ذعر شديد. واندفع الجمهور إلى الميناء مقتحماً البوابة بعد أن نحّى جانباً الشرطة التي كانت تحرسها وصعد القوارب وبدأ الفرار من المدينة.» ووصف تقرير عربي كُتب في ذلك الوقت المشهد كما يلي: تدافع الرجال أصدقاءهم وداست النساء أطفالهن. وسرعان ما امتلأت القوارب في الميناء بحمولاتها البشرية. وكان الازدحام فيها مخيفاً، وانقلب كثير منها وغرق ركابه جميعاً».

لقد فاجأ تصرف ستوكويل في حيفا الحكومة البريطانية (كما فاجأ جميع العواصم العربية). واستشاط وزير الخارجية، إرنست بيفن، على السلطات العسكرية واتهمها بالخذلان. واحتاج الأمر إلى تدخل رئيس الحكومة، كليمنت اتلي، لإعادة العلاقات إلى طبيعتها بين بيفن والفيلد مارشال مونتغمري، رئيس هيئة الأركان الامبراطورية ورئيس ستوكويل[١].

(١) مجلة الدراسات الفلسطينية.

مناجاة حيفا

يقول حسن الأمين

كان سقوط حيفا أليماً في النفوس، وقد قلت مناجياً لها:

أحيفا الأبية طال النزوح   فكيف الشطوط وكيف السفوح
أهانت على الخطب ملتاعة   أذلت لفاتحها المستبيح

* * *

إذا هب في الليل منك الهواء   ذرفنا عليك دموع الاباء
ولذنا بأسيافنا ثائرين   وسرنا فلا ننثني للوراء

* * *

يلبيك منا الكمي العنيد   ويهتف باسمك صوت الشهيد
ونصرخ في الهول مستقتلين   سنحفظ أوطاننا أو نبيد

* * *

لئن عثرت ببنيك الجدود   وكانوا الأباة وكانوا الأسود
فصبراً توافيك أسيافنا   لوامع تفري هوادي اليهود

* * *

سنرجع بعد الغياب الطويل   فتشرق حيفا ويزهو الجليل
فصبراً تصبحك أعلامنا   خوافق فوق الربى والسهول

* * *

يهودا خسئت فلست لنا   نظيراً نخضب منه القنا
سياط الأسار وذل السبا   على عارضيك وعار الخنا

* * *

لئن حكم الدهر أن تغتدي   خصيماً يمد يد المعتدي
فزلة هذا الزمان اللئيم   سنغسلها كفنا في غد

وقد نشرت هذه القصيدة أول ما نشرت في مجلة العرفان. ومن أوقح ما يمكن أن يقع أنني قرأتها في إحدى المطبوعات الفلسطينية منسوبة إلى أحد الناس.

سقوط يافا

إن كانت حيفا هي المدينة الثانية المدرجة في قائمة الهاغاناه، فالمدينة الثالثة كانت يافا. وفي الواقع، كان الاسم الذي اختير منذ البداية للعملية المخطط لها ضد يافا هو «بِعور حَميتْس». لكن «الخميرة» التي كان ينبغي التخلص منها في عملية «بِعور حَميتس» ضد يافا لم تكن في البدء سكان يافا نفسها، وإنما سكان القرى المحيطة بها: الساقية والخيرية ويازور وسَلَمَة، وأبو كبير، وتل الريش.

كان تلكؤ الهاغاناه النسبي فيما يتعلق باحتلال يافا راجعاً، إلى حد كبير، إلى انتشار الجيش البريطاني في جوار يافا ـ تل أبيب؛ وإلى ضآلة إمكان أن يكون هناك بالنسبة إلى يافا «ستوكويل» آخر، وخصوصاً أن يافا كانت جزءاً من الدولة الفلسطينية بموجب قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة. وبالتالي، تقرر أن يكون مصير يافا الموت خنقاً بدلاً من الموت بهجوم جبهي. وبحسب التاريخ الرسمي للهاغاناه، كانت يافا «ستضطر إلى الاستسلام بعد أن يغادر البريطانيون في ١٥ أيار/مايو.» وفي الواقع، كان الجيش البريطاني في قطاع يافا ـ تل أبيب مستنفراً بعد الغضب الذي أثاره تصرف ستوكويل في مجلس الوزراء البريطاني.

لكن خطط الهاغاناه ضد يافا لم تأخذ في الحسبان خطط المنظمة المنافسة لها، الإرغون، التي كان مقر قيادتها ومعظم قواتها في تل أبيب المجاورة، حيث كان يقيم قائدها مناحم بيغن.

كانت العلاقات بين الهاغاناه والإرغون محكومة، أساساً، بالتنافس في شأن النفوذ السياسي في الدولة التي كانت في قيد الإنشاء بين «اليسار» و«اليمين» اللذين كانا يمثلانه بالتتالي. وكان الميدان الأبرز والأربح سياسياً لهذا التنافس، في المرحلة الأولى من حرب ١٩٤٨، العمل «العسكري» ضد الفلسطينيين، كما كان ضد البريطانيين في المرحلة السابقة مباشرة لها. وكانت إحدى الضحايا المبكرة لهذا التنافس دير ياسين التي ارتُكبت فيها المذبحة المروعة في ٩ نيسان/ أبريل.

كان بيغن على علم بخطط الهاغاناه فيما يتعلق بيافا. وكان لديه خططه الخاصة لـ«التطهير». وقرر القيام بهجوم جبهي متوقعاً ألا يتجرأ البريطانيون على مجابهته، أسوة بما حدث في حيفا، ووقّت هجومه بحيث يتزامن مع عيد الفصح في ٢٤ نيسان/أبريل، لكنه لم يستطع البدء بتنفيذه إلا في ٢٥ نيسان/ أبريل. وبما أنه كان استولى على كمية ضخمة من قنابل الهاون من قطار عسكري بريطاني، فإنه بدأ قصفاً متواصلاً وعشوائياً للأحياء السكنية والتجارية

في المدينة استمر ثلاثة أيام ليلاً نهاراً على مدار الساعة. وفي الوقت نفسه، شن هجوماً أرضياً من الشرق إلى غرب بـ٦٠٠ مقاتل على حيّ المنشية، عنق يافا الدقيق، الذي كان يمتد شمالاً بمحاذاة البحر وتحيط به تل أبيب من الجهتين الشمالية والشرقية.

كانت المقاومة في المنشية عنيفة وشرسة. وفي ضوء العجز عن التقدم في الحيّ طوال نهار وليل ٢٥ نيسان/أبريل، تحول اندفاع الهجوم إلى الجنوب في اتجاه يافا نفسها، لكن هنا أيضاً صُدّ الهجوم الذي تواصل طوال نهار ٢٦ نيسان/أبريل. وبحلول مساء ٢٦ نيسان/أبريل، كان بيغن على استعداد لإيقاف العمليات الأرضية ضد يافا مع الاستمرار في القصف العنيف المتواصل لأحياء المدينة السكنية والتجارية. لكن مساعديه أقنعوه بمعاودة الهجوم على المنشية. واستمرت المقاومة هنا طوال نهار ٢٧ نيسان/أبريل. لكن حدث بعض التقدم مع حلول الظلام. واستمر الهجوم خلال الليل، وتمكنت الإرغون في النهاية من تحقيق اختراق أوصلها إلى حافة البحر في الساعة ٧:٠٠ من صباح يوم ٢٨ نيسان/أبريل، وبذلك فُصلت المنشية عن بقية المدينة.

وهنا، تدخل البريطانيون بعد أن وجهوا إنذاراً إلى سلطات الهاغاناه في تل أبيب. في ٢٩ نيسان/أبريل، قصفوا مقر قيادة الإرغون في ضاحية تل أبيب بالمدفعية، وأطلقت نيران المدافع الرشاشة من الطائرات على وحدات الإرغون في المنشية، فأرغمت على التراجع. ومما يدعو إلى السخرية أن اتفاقية عُقدت بين البريطانيين والهاغاناه سمحت لدوريات مشتركة من قواتهما بتسلم المنشية من الإرغون. وفي ذلك اليوم نفسه، ٢٩ نيسان/أبريل، بدأت الهاغاناه تنفيذ عملية «بعور حميتْس»، التي كانت تأخرت بسبب عمليات الإرغون الأرضية، مضيّقة بذلك الخناق على يافا نفسها. وتساقطت القرى الواحدة تلو الأخرى بسرعة تحت وطأة هجوم ألوية الهاغاناه الثلاثة، كرياتي وألكسندروني وغفعاتي، ووضعت اتفاقية أُبرمت بين الهاغاناه والإرغون في ٢٨ نيسان/أبريل جعلت قوات الإرغون تحت قيادة الهاغاناه في هذه العملية.

لكن لم تجر الأمور كلها بيُسر بالنسبة إلى عملية «بعور حميتْس». فإن الحامية في يافا، المؤلفة من ٣٥٠ مقاتلاً من جيش الإنقاذ، قامت بمحاولة أخيرة للصمود وشنت في ٢٦ نيسان/أبريل هجوماً مضاداً لاسترداد تل الريش، الواقع إلى الشرق من يافا، على بعد ٢ كلم منها. وبحسب التاريخ الرسمي للهاغاناه، خسر لواء غِفْعاتي في هذه المعركة ٣٣ قتيلاً و١٠٠ جريح. إلا إن أوان الصمود كان قد فات. فالسكان المدنيون، الذين دب الذعر في قلوبهم

بسبب القصف المتواصل لمدافع الهاون، كانوا بدأوا الفرار بالآلاف، محطمين بذلك معنويات المقاتلين في تل الريش وبقية الأماكن. وتدخل البريطانيون في عملية «بعُور حميتْس» فقط من أجل إجبار الهاغاناه على إبقاء منفذ بري على طريق يافا ـ القدس مفتوحاً أمام المدنيين الهاربين الذين لم يتمكنوا من المغادرة عن طريق البحر.

في هذه الأثناء، واستجابة لنداءات الاستغاثة اليائسة التي أرسلتها اللجنة القومية العربية في يافا، أمر قائد قوات جيش الإنقاذ على الجبهة الوسطى، التي كانت يافا جزءاً منها، وحدة من جيش الإنقاذ بالتحرك إلى يافا. ووصل فوج أجنادين، المؤلف من مقاتلين فلسطينيين إلى المدينة في ٢٩ نيسان/ أبريل، خارجاً مباشرة من وطيس معركة شمالي القدس، حيث تلقى وطأة هجوم الهاغاناه والبلماح على النبي صموئيل في ٢٣ نيسان/ أبريل. وكان ذلك الهجوم جزءاً من عملية «يِبوسي»، التي هدفت إلى احتلال المرتفعات الاستراتيجية التي تسيطر على طرق الوصول إلى القدس من أجل التمكن من احتلال الأجزاء من المدينة التي كانت ما زالت في أيدي العرب[١].

(١) مجلة الدراسات الفلسطينية.

الفصل الثلاثون

الحــــرب

عشية صدور قرار تقسيم فلسطين من الأمم المتحدة عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعاً في صوفر (لبنان) يوم ١٦/٩/١٩٤٧م أعلن فيه أن عرب فلسطين لن يسلموا بأي تدبير من شأنه أن يقضي على وحدة بلادهم واستقلالهم، بل سيعلنون حرباً لا هوادة فيها لدفع ذلك العدوان عن بلادهم وأن الحكومات العربية «ستضطر إلى مباشرة كل عمل حاسم من شأنه أن يدفع العدوان ويعيد الحق إلى نصابه». وتلا ذلك عقد دورة أخرى للمجلس في بيروت وعاليه (٧ ـ ١٥ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٤٧م) قرر فيها: (١) المبادرة حالاً إلى تجنيد المتطوعين وتسليحهم (٢) أن تحشد البلدان العربية جيوشها النظامية على مقربة من الحدود الفلسطينية (٣) تأليف قيادة عامة من جميع الأقطار العربية وتعيين مرجع أعلى لها (٤) إلى أن يتم ذلك يجب مد عرب فلسطين بما لا يقل عن عشرة آلاف بندقية وكميات كافية من الرشاشات والقنابل اليدوية وما إلى ذلك من أسلحة (٥) مبادرة الدول العربية إلى شراء أكبر كمية ممكنة من الأسلحة والعتاد لتموين المجاهدين بها (٦) اعتماد مليون دينار لتمويل القوات الفلسطينية (٧) حشد أقصى ما يمكن من المقاتلات والقاذفات في المطارات القريبة من الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط لمراقبة المواصلات البحرية والحيلولة دون وصول النجدات إلى اليهود من وراء البحار.

ويستفاد من هذه القرارات تبلور ملامح عامة لاستراتيجية عربية موحدة إزاء السعي الصهيوني المتصاعد والمدعوم دولياً، إلى إنشاء دولة إسرائيل وفقاً لقرار تقسيم فلسطين الذي كان يجري التحضير له في الأمم المتحدة بنشاط وكانت أهم معالم هذه الاستراتيجية تحديد الهدف الاستراتيجي العربي في هذه المرحلة وهو: العمل على تحقيق استقلال فلسطين

والحفاظ على وحدتها وإحباط مشروع التقسيم وإنشاء الدولة اليهودية، وتحديد العمل العسكري اللازم لتنفيذ هذا الهدف في حال فشلت السياسة في تنفيذه، أي عن طريق الكفاح الشعبي الفلسطيني المسلح ودعمه بالمتطوعين من مختلف البلدان العربية وبالسلاح والأموال، واتخاذ إجراءات احتياطية أخرى تتمثل في حشد الجيوش العربية النظامية على مقربة من حدود فلسطين وحشد قوة جوية عربية للحيلولة دون وصول التعزيزات البشرية والأسلحة إلى يهود فلسطين عبر البحر المتوسط وبدء تشكيل قيادة عربية موحدة يرأسها قائد أعلى.

وهذا يعني، في لغة الاستراتيجية الحديثة، أن العرب قرروا تنفيذ هدف استراتيجيتهم العليا إزاء مشروع الدولة الصهيونية من خلال أسلوبي العمل والردع معاً. وتمثل العمل في دعم وتطوير عمل القوى الفلسطينية المسلحة ضد التنظيمات الصهيونية المسلحة. فيما تمثل الردع في حشد الجيوش النظامية العربية قرب حدود فلسطين والتهديد باستخدام القوة الجوية العربية لتطبيق ما يسمى في لغة الاستراتيجية بـ«الخندق الاستراتيجي» على الدولة الصهيونية المزمعة، بالإضافة إلى التهديد باستخدام القوة النظامية العربية في نهاية الأمر.

لكن قرارات العمل العسكري العربية هذه شهدت تنفيذاً ضعيفاً لبعضها (مثل تشكيل جيش الإنقاذ العربي برئاسة فوزي القاوقجي وجيش الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني) وصعب تنفيذ بعضها الآخر أو لم ينفذ مطلقاً (أبرز مثال على الحالة الأخيرة عدم حشد القوة الجوية المكلفة فرض الحصار الجوي على حركة الملاحة إلى فلسطين في البحر المتوسط). ويرجع ذلك إلى عدم تنفيذ معظم الدول العربية ما التزمت من هذه القرارات، خصوصاً بعدما اعترضت بريطانيا على تسليح الفلسطينيين وتدريبهم، باعتبار أن هذا العمل يعتبر غير ودي وموجهاً ضد سلطتها كدولة منتدبة لا تزال مسؤولة عن أمن فلسطين.

وفي الوقت نفسه، لم يؤت الردع المتوخى من إعلان التهديد باستخدام القوة العربية وحشد بعض القوات قرب حدود فلسطين في دول المواجهة، ثماره الرادعة لدى المنظمات الصهيونية في فلسطين أو القوى الدولية المؤيدة لقرار التقسيم وإنشاء دولة إسرائيل، نظراً إلى إدراكها ضعف قدرات الدول العربية العسكرية، من جهة، وعدم وحدة إرادتها السياسية فعلياً، من جهة ثانية، وارتباط معظمها بالقوة الإمبريالية المسيطرة إقليمياً ودولياً (بريطانيا والولايات المتحدة) من جهة ثالثة.

وإثر صدور قرار التقسيم في ١٩٢٧/١١/٢٩ عقد رؤساء الحكومات العربية اجتماعاً في القاهرة خلال الفترة ما بين ١٢ و١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، وأذاعوا بياناً أكدوا فيه بطلان قرار التقسيم. وقرروا «أن يتخذوا من التدابير الحاسمة ما هو كفيل بإحباط مشروع

التقسيم الظالم ونصرة حق العرب» وأنهم «وطدوا العزم على خوض المعركة التي حُملوا عليها على السير فيها حتى نهايتها الظافرة».

وانقضت أربعة أشهر بعد القرار الاستراتيجي الجديد الذي اتخذه رؤساء الحكومات العربية بخوض المعركة في شكل مباشر، سقط خلالها الكثير من المدن والقرى والمواقع الفلسطينية في يد قوات الهاغاناه وغيرها من المنظمات اليهودية المسلحة. وتراجعت قوات جيش الإنقاذ وتشكيلات القوات الشعبية الفلسطينية. ولم يتم أي استعداد جديد من جانب الدول العربية لإعداد جيوشها النظامية للمعركة على رغم التقارير التي قدمها رئيس اللجنة العسكرية في الجامعة العربية عن تطور الموقف العسكري في فلسطين ومتطلبات القوات النظامية العربية للتغلب على القوات اليهودية (٦ فرق كاملة التنظيم والتسليح و٦ أسراب من المقاتلات والقاذفات). وفي الوقت نفسه وضعت القوى الدولية العراقيل أمام تنفيذ صفقات أسلحة عقدتها الحكومتان السورية واللبنانية لتطوير جيشيهما. وعلى رغم ذلك استمرت الدول العربية في اتجاه العمل العسكري المباشر، فقررت في اجتماع مجلس الجامعة العربية في ١٢/٤/١٩٤٨م أن تدخل الجيوش العربية فلسطين في ١٥/٥/١٩٤٨م إثر انتهاء الانتداب البريطاني مباشرة.

وفي ١١/٥/١٩٤٨م وبعد عدة اجتماعات لرؤساء الأركان العرب وضعوا فيها خطة التحركات الموحدة اللازمة لتنفيذ العمل العسكري اللازم لتحقيق الهدف الاستراتيجي العام المشار إليه مسبقاً، اجتمع ممثلو الدول العربية السبع في دمشق وقرروا إنشاء قيادة عامة موحدة لجميع القوات النظامية وغير النظامية العاملة في فلسطين أسندت رئاستها للملك عبد الله وعيّن اللواء نور الدين محمود (عراقي) نائباً له. وقد أدخلت تعديلات جذرية على خطة الهجوم العربية الموضوعة بواسطة رؤساء الأركان سببت خللاً في الأهداف والتنفيذ

واستهدفت الخطة بعد ذلك محاولة الاستيلاء على الأرض المحددة للعرب في قرار التقسيم وعدم تخطيها. وبذلك أصبح هدف العمليات العسكرية العربية الاستيلاء على أراض ومواقع معينة وليس تدمير القوة العسكرية الإسرائيلية الوليدة التي كانت لا تزال، على رغم تفوقها العددي وفي مجال التسلح الخفيف على الجيوش العربية، قيد التشكيل كجيش نظامي فاعل وتواجه جيوشاً نظامية تعوقها في قوة النيران الثقيلة.

لذلك واجهت القيادة الإسرائيلية الجيوش العربية بخطة دفاعية اتسمت بالمرونة والقدرة على المناورة والحركة، معتمدة في الأساس على شبكة من المستعمرات القوية التي تتحكم في محاور الحركة داخل البلاد وتوفر عمقاً استراتيجياً مصطنعاً للدولة العبرية، تساندها قوات ضاربة متحركة جيدة التدريب على الهجمات الليلية، لتستفيد من غطاء الظلام في تغطية عجز

قوة النيران ووسائط الحركة القتالية (المدرعات) التي كانت تعاني منها تشكيلات المشاة الإسرائيلية في المراحل الأولى من الحرب الخاصة. وكانت هذه الخطة لكسب الوقت اللازم لوصول التعزيزات المادية والبشرية من الخارج، خصوصاً خلال فترة الهدنتين: الأولى من ٦/١١ إلى ١٩٤٨/٧/٩م والثانية (من ٩ إلى ١٩٤٨/٧/١٨م). وهكذا لم يحقق العمل العسكري هدفه الاستراتيجي المعلن في قرارات الجامعة العربية على رغم اعتماده المبادرة الهجومية الاستراتيجية على نطاق شامل، ضمن إمكانات القتال المتاحة آنذاك. ولم يتكرر بعد ذلك مطلقاً في مختلف المراحل التي أعقبت المرحلة الأولى من حرب ١٩٤٨م من الصراع العسكري العربي ـ الإسرائيلي.

وقد استخدمت الجيوش العربية في مختلف مراحل الحرب وبدرجات متفاوتة الفاعلية، قواتها الجوية والبحرية في قصف المدن والمرافىء التي تسيطر عليها إسرائيل (مثل تل أبيب وحيفا وعسقلان وناتانيا). وهو الأمر الذي لم يتكرر إلا على نطاق محدود خلال حرب ١٩٥٦م وأكثر محدودية في حرب ١٩٦٧، ثم بعد ذلك في قصف العراق للعمق الإسرائيلي بالصواريخ خلال حرب الخليج. وعلى رغم ذلك، أدى فقدان وحدة القيادة عملياً والتطبيق الضمني لاستراتيجيات قطرية لدى الجانب العربي، إلى فقدان المبادرة التي انتقلت تدريجاً بعد الهدنة الثانية إلى الجانب الاسرائيلي، خصوصاً في ظل اختلال ميزان القوة نتيجة تزايد التسليح الثقيل وارتفاع مستوى التدريب والتنظيم والقيادة لدى الجانب الإسرائيلي على نحو متزايد. وقابل كل ذلك نقص في الأسلحة والذخائر ووسائط الحركة لدى الجانب العربي على رغم تزايد عدد قواته تدريجاً.

لقد دخلت الجيوش العربية الحرب من دون استعداد جدي مسبق، سواء على مستوى التسليح أو التدريب أو الحشد الكامل للقوى. وهو الأمر الذي نبهت إليه معظم القيادات العسكرية العربية قياداتها السياسية عندما فوجئت بسرعة صدور قرار التدخل العسكري النظامي. لكن القيادات السياسية العربية كانت تحكمها روح استخفاف بقدرات العدو الإسرائيلي إلى حد كبير ويدفعها شعور بالحرج إزاء الرأي العام العربي وإزاء مطامع بعضها في الاستيلاء على القسم العربي في فلسطين وفقاً لقرار التقسيم. وإضافة إلى ذلك تصورت القيادات السياسية العربية أن الحرب لن تكون عسكرية فعلياً وإنما عملية سياسية ضمن لعبة تنفيذها للقوى الدولية والإقليمية من المنطقة.

لقد تصورت القيادات السياسية العربية أن قواتها العسكرية تتمتع بقدرة رادعة إزاء القوات الإسرائيلية، من جهة، وإن القوى الدولية سترسي حلاً سياسياً يحقق المصالح

السياسية العربية الأساسية، من جهة أخرى. وهكذا فشل كل من العمل والردع العربيين في حرب ١٩٤٨م. في حين حقق العمل العسكري الإسرائيلي نجاحات حسمت الحرب لمصلحته وأجبرت الدول العربية على عقد هدنات دائمة في النصف الأول من عام ١٩٤٩م.

وعلى رغم قصور العمل العسكري العربي وعدم توافر قدرة ردع عربية خلال حرب ١٩٤٨، فإن العمل العربي المذكور استطاع أن يوقف احتلال إسرائيل لكافة أراضي فلسطين. ونشأ ما عرف بالضفة الغربية وقطاع غزة كمناطق عربية غير محتلة. وهو الأمر الذي اعترف به إيغال آلون، قائد قوات البالماخ، إذ قال: «لولا تدخل الجيوش العربية لما كان هناك من يوقف توسع قوات الهاغاناه، التي كانت تستطيع خلال اندفاعها الوصول إلى الحدود الطبيعية لإسرائيل الغربية، لأن معظم قوات العدو المحلية أثناء هذه المرحلة كانت مشلولة»[1].

استطاعت القوات العربية أن تتقدم في الأيام الأولى، مما جعل أمريكا تطلب من مجلس الأمن التدخل لوقف إطلاق النار.

فالمصريون دخلوا مستعمرة يدمر دخاي الحصينة بعد معركة عنيفة ورفعوا عليها العلم المصري يوم ٢٤ أيار ١٩٤٨م كما احتلوا المجدل وعراق سويدان وبذلك سيطرت القوات المصرية على الطريق المؤدية إلى المستعمرات اليهودية الجنوبية وفي ٢٩ أيار احتلوا أسدود وفي ٣٠ منه قصفت مدفعيتهم مستعمرتي نحبا وبيئروت إسحاق كما قصفت طائراتهم مستعمرتي رحبوت ودوروت وميناء تل أبيب.

وفي الوقت نفسه كانت القوة المصرية التي سارت في الطريق الداخلي تتقدم بسرعة حتى وصلت طلائعها يوم ١٧ أيار ١٩٤٨م إلى بير السبع دون أن تلقى أية مقاومة، على أن القوة الرئيسية وصلت إلى بير السبع يوم ٢٠ أيار وفي نفس اليوم تم الاتصال بينها وبين القوة الأردنية في بيت لحم.

أما القوة المصرية المتقدمة على الطريق الساحلي فقد وصلت إلى جسر أسدود، الواقع على مسافة ٣ كلم شمالي أسدود وبذلك صارت على مسافة ٣٢ كلم من تل أبيب كما أن الطائرات المصرية كانت تقصف تل أبيب.

وبوصول المصريين إلى جسر أسدود صارت مدينة أسدود مهددة، ولكن كان اليهود قد حشدوا قوات كبيرة أسرعت فنسفت الجسر ووقفت سداً دون المصريين شمالي أسدود كما أن اليهود بدأوا باستعمال أربع طائرات وصلت حديثاً من أوروبا قصفوا بها القوة المصرية التي

(١) محمود عزمي.

استطاعت إسقاط واحدة منها، وكذلك فإن اليهود أخذوا يقصفون المصريين بقنابل من عيار ٦٥ ملم وصلتهم حديثاً.

وفي منتصف ليلة ٣ حزيران ١٩٤٨م شن اليهود هجوماً معاكساً على القوات المصرية، لكن الهجوم فشل وتكبد اليهود خسائر كبيرة.

ورأى المصريون احتلال خط المجدل - الفالوجا - بيت جبرين - الخليل، وخط أسدود - قسطينة لفصل المستعمرات الجنوبية في النقب عن شمالي فلسطين وإرغامها على الاستسلام، فنجحوا في ذلك كما طردوا اليهود من دير نخاس وترقوميا وتقدموا باتجاه الخليل.

وعوضاً عن التوجه شمالاً نحو تلك أبيب توجه المصريون نحو المجدل - عراق سويدان - الفالوجة - بيت جبرين لتأمين الاتصال بقوة الفدائيين المصريين التي وصلت بقيادة أحمد عبد العزيز إلى بُعد ٧ كلم جنوبي القدس ودخلت بيت لحم واتصلت في ٢٤ أيار بالقوات الأردنية.

ونجح المصريون في إخراج العدو من جنوب فلسطين وكانت آخر معاركهم الهجوم على مستعمرة نيتسانيم واحتلالها ولكنهم فشلوا في احتلال مستعمرة نجبا الغربية من المجدل.

أما الأردنيون فقد وصلت طلائعهم في الساعات الأولى من صباح ١٥ أيار إلى شرق القدس وأخذوا يقصفون القدس المحتلة. كما مضت وحدة أردنية فقطعت الاتصال بين يهود القدس ومستعمرات جبل المشارف وفي ١٧ أيار كان الأردنيون قد أصبحوا على مسافة أقل من ٢٠ كلم من تل أبيب، كما كانوا قد احتلوا بيت لحم، وعزلوا مناجم البوتاس اليهودية وفي ١٩ أيار احتلوا محطة ضخ المياه قرب رناح تفكا، ثم صدوا هجوماً يهودياً معاكساً.

وأما العراقيون فقد وصلوا في ٢٥ أيار ١٩٤٨م إلى مسافة أقل من ١٠ كلم من ناتانيا، وكان اليهود قد استطاعوا احتلال مدينة جنين فاستطاع العراقيون طردهم منها واستعادتها، وأحب هنا أن أخص حرب جنين بتفصيل فأروي ما سجله أبطالها بأنفسهم. فقد كان يوم جنين من الأيام المشهودة في الوقائع الفلسطينية يستحق التخصيص بالذكر:

وإليك التفاصيل يروي بعضها عمر علي نفسه فيما وجد في أوراقه بعد وفاته، ويتحدث عنها أحد الضباط الذين شهدوها، وأحد الضباط الذين حوصروا فيها:

كانت قوة تابعة للجيش العراقي تحركت ربيع ١٩٤٨ نحو جنين للحفاظ عليها من الوقوع في أيدي العصابات الصهيونية. وقد جرى حصار تلك القوة في قلعة المدينة، وصدرت الأوامر إلى قوات عراقية أخرى بالتحرك عبر طريق نابلس - جنين لطرد العدو وفك الحصار عن القلعة.

ما ذكره اللواء الركن عمر علي:

كان عمر علي أحد قادة القوات العراقية في حرب فلسطين في ١٩٤٨، وقد روى وقائع التقدم نحو مدينة جنين الفلسطينية المحتلة على الشكل التالي: «في الساعة الخامسة والنصف في صباح الثالث من حزيران (يونيو) ١٩٤٨، شرع فوجنا (الفوج الثاني للواء الخامس بالانتقال نحو جنين. وقد ارتأيت تنظيم الانتقال بشكل يسمح بسرعة الانفتاح ومواجهة أي تهديد معاد تتعرض له قواتنا خلال المسير، وجعلت المقدمة تتألف من السرية الأولى وفصيل رشاشات «فيغرز» وحظيرة هاون ومفرزتي بندقيات «بويز». أما المجموعة التالية التي تسير خلف المقدمة فتتألف من فصيل من السرية الثانية ومفرزتين ضد الدبابات، ويتبع ذلك مقر الفوج وما تبقى من السرية الثانية ثم فصيل رشاشات وحضيرة هاون، وبعدها تأتي السرية الثالثة وأخيراً سرية المقر. أما العجلات الزائدة والأمور الإدارية، بما فيها الأرزاق، فقد تركتها الإعاشة لغرض إعداد الطعام ثم نقله مطبوخاً إلى حيث يستقر الفوج.

وصلت مقدمة الفوج إلى قرية سيلة الظهر ولم تعثر على أي أثر للعدو. وقد شاهدنا ثلاث عجلات مليئة باللاجئين الذين تركوا جنين والقرى المجاورة. وعند الاستفسار منهم أفادوا أن العصابات الصهيونية احتلت جنين وتتهيأ للزحف على نابلس. فطلبت من اللاجئين إخلاء الطريق كي تتمكن عجلات الفوج من التقدم بسرعة، كما أخبرتهم أن لا خوف عليهم الآن.

نتيجة للمعلومات التي استقيتها من اللاجئين قدّرت خطورة الموقف، فطلبت من آمر سرية المقدمة، النقيب جار الله عبد الله، أن يندفع مسرعاً للوصول إلى مضيق عرابة، واندفعت بدوري إلى أمام كي أسير مع فصيل الرأس وأنا أخاطب المهاجرين قائلاً: «إذا كنتم تحبون الله ورسوله اتركوا الطريق لنا لنرد الصهاينة»!

كان منظر المهاجرين رهيباً ومؤلماً، وقد ذكرني ذلك المنظر بهجرة أهالي راوندوز (مدينة عراقية على الحدود بين إيران والعراق وتركيا) في العام ١٩١٦ عند احتلال الجيش الروسي للمدينة. وكنت آنذاك طفلاً لا أتجاوز السادسة أو السابعة من العمر.

لقد دمعت عيناي وأنا أشاهد مئات الرجال والنساء والأطفال يسيرون راجلين أو يستخدمون عربات تجرها البغال والثيران، وكان الازدحام يتزايد على الطريق كلما تقدمنا نحو جنين، لكنهم كانوا يتركون لنا الطريق ليتقدم رتلنا بأقصى سرعة.

في حوالي السادسة والنصف صباحاً وصلت قوة المقدمة مضيق عرابة، وترجل الفصيل الأمامي ليتسلق التلال على جانبي المضيق ويحرس مرور بقية الفوج. ولما لم نجد أثراً للعدو، طلبت من آمر السرية استئناف التقدم والتوجه إلى مفرق قباطية

حالما وصلنا مفرق قباطية ـ جنين، جوبهنا بنيران رشاشات شديدة من التلال الواقعة شمال المفرق، كذلك من شمال الطريق المؤدية إلى جنين. وأصدر آمر فصيل الرأس أوامره بالنزول من العجلات والتموضع في الأراضي المتموجة. وهناك شاهدنا جماعة من المجاهدين الفلسطينيين يقدر عددها بخمسة عشر مسلحاً على الظهرة المشجرة شرق مفرق قباطية مباشرة. كانوا من أهالي قرية قباطية، ولم تكن لديهم معلومات واضحة سوى أن اليهود احتلوا جنين وأن هناك رتلاً معادياً آخر يتقدم من منطقة التلال الواقعة جنوب الطريق، متجهاً إلى قباطية، وقد تم توجيه فريق من المقاومين للتصدي له.

طلبت من آمر سرية الإسناد اتخاذ ما يلزم لوضع جميع أسلحته من رشاشات وهاونات في مواضع رمي وذلك لإسناد هجوم سرية المقدمة. وبعد فترة قصيرة بدأت أسلحتنا تصب نيرانها على مراكز اليهود المحتلين، وأصدرت أوامر موحدة وسريعة لآمري السرايا بالهجوم وتطهير التلال الواقعة شمال الطريق العام.

ويبدو أن العدو تمكن من تحديد منطقة الأوامر، فقد فوجئنا بقصف شديد من هاونات العدو علينا. ولحسن الحظ فإن القصف لم يكن دقيقاً وإن أقرب قنبلة سقطت على مسافة مئة ياردة منا.

هذا ما دونه عمر علي في مذكراته التي يبدو أنه لم يكملها. وقد أشار عمر علي نفسه إلى ذلك خلال دفاعه عن نفسه أمام محكمة (المهداوي) فقال فيما قال:

. . . على أثر اشتراك الجيش العراقي في الحرب لإنقاذ فلسطين وبعد حوادث (كبشر) و(كوكب الهوى) في شهر مايس سنة ١٩٤٨ استدعي فوجي الفوج الثاني اللواء الخامس بصورة خاصة من دون اللواء إلى فلسطين وفي صباح اليوم الثاني من وصول الفوج إلى فلسطين أحرزنا ظفر جنين الأول في ٣ حزيران ودمرنا من قوى العدو ما يعادل سبعة أضعاف قوتنا، قوى العدو التي حاصرت حامية جنين بعدما استولت على المدينة وكان من نتيجة المعركة أن امتلأت مواقع المعركة لأول مرة بمئات من جثث قتلى العدو وأكداس من مختلف الأسلحة والأعتدة والتجهيزات، وأنقذت حامية جنين من الحصار.

وبعد انتهاء مدة الهدنة الأولى، هاجمت القوات اليهودية المرابطة في شمالي جنين وبعد معركة دامت ٢٤ ساعة تمكنا من تطهير القرى إلى مدى ثمانية كيلومترات شمال وشرق جنين حتى تم لنا سحقهم في كل من معسكر (جلحة) و(صنددلة) وقرية (عرانة) و(غربونة) وتلال (مزاد). وتركوا مرة أخرى وراءهم مئات القتلى ومختلف الأسلحة وكميات كبيرة من الأعتدة.

وجاء في محادثة لأحد الضباط:

● **ماذا كان دورك في معركة جنين آنذاك؟**

ـ تلك المدينة الفلسطينية هي أحب المدن إلي لقد جاءتنا الأوامر بالتحرك نحو فلسطين بعد إعلان الجيوش العربية الحرب على الصهاينة عام ١٩٤٨. وكنت آنذاك أمراً لفوج حربي. تحركت مع قواتي من كركوك مقر الفوج، إلى بغداد ومنها باتجاه فلسطين، بدون توقف أو استراحة. وأذكر أننا وصلنا نابلس في ساعات الغبش الأولى، لنفاجأ بغارة صهيونية علينا في الرابعة صباحاً.

● **ماذا كانت خطتكم؟**

ـ كان الهجوم على نتانيا. لكن جندياً جاءني إلى نابلس يحمل برقية تأمرنا بالهجوم على جنين لتخليص قوة لنا محاصرة هناك. وفهمت أن الخطة قد تغيرت، فجمعت جنودي المنهكين والمشتّتين وتحركنا حسب الأوامر. وأذكر أن المهجرين الفلسطينيين كانوا يسدون الطرقات بعرباتهم أو حاجياتهم التي حملوها على ظهورهم، فقد كان العدو قد توغل في أراضينا مسافة عشرة كيلومترات، وبدأ يفتح نيرانه علينا.

● **هل كنتم مهيئين لتغيير الخطة بشكل مفاجيء؟**

ـ لم أكن على علم بتغيير الخطة، كما لم تكن لديّ تعليمات حول تفاصيل الخطة الجديدة ومحاور الزحف. ولم يكن أمامي كآمر فوج سوى أخذ المبادرة والاعتماد على النفس. وهكذا أصدرت الأوامر إلى جنودي بالهجوم... والهدف هو نار العدو!

● **هل كنتم تقدّرون قوة العدو؟**

ـ لم نكن قد اشتبكنا مع اليهود بعد، ولم نر منهم سوى تلك الغارة الجوية التي استقبلتنا في نابلس. وقد حل الليل ونحن لم نتقدم سوى مسافة بسيطة. حاولت الاتصال بالأفواج العراقية الأخرى دونما جدوى.

في الصباح التالي فتح العدو نيرانه علينا من جديد، فقابلناه بأشد منها، واستطعنا احتلال الجبل المقابل لمدينة جنين في ذلك النهار، بالرغم من أننا لم نكن قد ذقنا طعاماً منذ فترة طويلة.

وحل النهار الثالث علينا في فلسطين، فقررنا تركيز الهجوم على بلدة برقين لأنها مفتاح خط العدو، واستطعنا إسقاطها، ولاحت لنا بيوت جنين المبنية على مدارج السفح، صغيرة ومتباعدة تلتمع تحت نور الشمس بشكل ذكّرني ببيوت مدينة عقرة في شمال العراق.

وفي الصباح الرابع سقط خط العدو كله. وحاول أحد أرتاله قطع خط العودة علينا، وكان مؤلفاً من ١٢ دبابة وعدة مصفحات، فتصدينا له وواصلنا تقدمنا نحو المدينة. وفي

الحادية عشرة من صباح السادس من حزيران (يونيو) لاحت لي القلعة الشهيرة التي كانت القوة العراقية محتجزة فيها، فهجمنا عليها وفككنا أسر الرفاق.

● **وهل ابتعد اليهود عن المدينة؟**

ـ لقد تسلمنا جنين، لكن قوات اليهود بقيت كامنة على مشارفها. ومن الحيل التي لجأ العدو إليها يومذاك لخداع أهالي القرى والمدن الفلسطينية، وكذلك لتسلل إلى خطوط القوات العراقية ارتداء الجنود الصهاينة ملابس وبزات مشابهة لملابس الجنود العراقيين. فقد كان الفلسطينيون يستقبلون الجيش العراقي بالتهليل حيثما وصل. وبعد ثلاث ليال من مكوثنا في المدينة، شن العدو هجوماً شديداً مع المغيب، على أمل استعادة جنين، فرددناه وأبعدناه مسافة تزيد على العشرين كيلومتراً.

● **كيف أمضيت السنة التي بقيت فيها في جنين؟**

ـ إنها لذكريات سعيدة. فقد أصبحت فرداً من أهالي المدينة، يعرفني الصغار والكبار، ويناديني الرجال بلقب «كومندان»، وتقصدني النسوة لحل مشكلاتهن. كما أننا شيدنا ضريحاً للجندي المجهول في جنين. وبعد ٣٦٥ يوماً من بقائنا في جنين، جاءت الأوامر بتسليم المدينة إلى القوات الأردنية والعودة إلى العراق. وقد أقام فوجنا استعراضاً وداعياً في ساحة المدينة، وبكى الأهالي عندما ألقيت خطبة الوداع. كان ذلك في الثامن من أيار (مايو) ١٩٤٩.

وعن الحصار تحدث الفريق سعيد حمو:

يقول سعيد حمو: «تألفت القوة العراقية التي توجهت نحو جنين من مقر فوجنا المنقول بالسيارات، ومن سرية مشاة واحدة مع فصيل مدفعية ٢٥ رطلاً، وسبع مدرعات، وأربع بنادق ضد الدبابات. كان يتبع القوة أيضاً فصيل هندسة ومفرزة طبية. وقد سميت القوة المتجهة نحو جنين باسم (رتل أسد)، وهدفها الاحتفاظ بمدينة جنين وقلعتها والقيام بغارات على مراكز العدو، مع ملاحظة عدم التورط بمعارك تتطلب نجدات»!.

ويعتقد سعيد حمو أن تلك الأهداف والواجبات كانت فوق طاقة «رتل أسد» الذي يتألف عنصر المشاة فيه من سرية واحدة. فواجبات مثل هذه تحتاج إلى قوة لا تقل عن جحفل لواء.

بعد استطلاع محور نابلس ـ جنين ـ العفولة. تحرك «رتل أسد» من دير شريف إلى جنين، واتخذ من قلعتها قاعدة له، وبدأ يستعد للإغارة على مواقع العدو القريبة من المدينة.

تحرك الرتل باتجاه العفولة لطرد اليهود، وعند وصوله صباح ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨ إلى جنوب قرية زرعين، تبين له أن العدو قد احتل القرية وبدأ بنسف بيوتها.

خلال ذلك، تحركت دورية بقوة فصيل ورعيل مدرعات على طريق جنين ـ حيفا لحماية الجناح الأيسر للرتل والقيام بمهمات استطلاعية.

عاود الرتل الإغارة على زرعين فجر اليوم التالي، ناقصاً فصيل مشاة ورعيل مدرعات. وعند بلوغ مشارف قرية صندلة شوهد العدو وقد احتلها وبدأ بنسف منازلها أيضاً بعد تهجير سكانها. وجرى تبادل إطلاق نار بين الجانبين.

كان الفلاحون الفلسطينيون ينزحون عن قراهم في المنطقة، والعدو يقترب من جنين مستولياً على القرى الواقعة في الطريق، فرفع آمر الرتل تقريراً إلى رؤسائه يشرح فيه الموقف ويقترح إرسال قوة إضافية. لكن القوة المطلوبة لم تأت.

خلال ذلك، وردت برقية من أفراد الشرطة الفلسطينية في قلعة لجون، تفيد أن العدو طوقهم، وأنهم موشكون على الاستسلام إذا لم تصلهم النجدة. وقد تحركت قوة من (رتل أسد) لفك الحصار عن لجون، لكنها وصلت بعد فوات الأوان، فعاد الرتل أدراجه بعد أن قصفها بالمدفعية.

ويقول سعيد حمّو أن «رتل أسد» أصبح ضمن مدى المدفعية المعادية، ورأى آمر الرتل اقتراب الخطر من جنين، فخصص جحفل السرية التي لديه للقيام بواجب الحجاب على الراقم الذي يسيطر على المدينة.

احتلت قوة الحجاب ذلك الراقع وبدأت تتمركز فيه، لكنها لم تتمكن من إكمال استحكاماته لضيق الوقت، ومشاغلة العدو لها بمدافع الهاون.

ويتذكر سعيد حمّو أن قائد قوة الحجاب، قام بلفته ذكية إذ أرسل مفرزة قوامها خمسة جنود مسلحين برشاشة «برين» وأربع بنادق إنكليزية قديمة، إلى القنطرة الواقعة جنوب الراقم لحمايته. وكان اسم القنطرة «جسر خروبة».

وما أن حل نهار الثاني من حزيران (يونيو) ١٩٤٨ حتى كان أفراد الرتل في حالة إعياء شديد بسبب الغارات المتتالية التي قاموا بها، كما بدأت آثار السهر المستمر تنال منهم. ولم يتبق أمام آمر الرتل سوى التمركز داخل القلعة واحتلال مواضع دفاعية خارجها.

وفي مساء ذلك اليوم، قصفت طائرة صهيونية مدينة جنين وقلعتها، تمهيداً لتطويقها ومحاصرة الرتل العراقي فيها. ولأن الحرب كر وفر، كان منتسبو «رتل أسد» يعرفون أن المعركة لم تحسم لصالح اليهود، وأن النجدة في طريقها إليهم.

بعد تحرير المدينة اعترف العدو في بياناته الرسمية بأن عدد القتلى والجرحى والمفقودين منه بلغ ١٢٤١ فرداً، وفقدت القوات العراقية ٧٥ شهيداً، وسقط من الفسلطينيين ٥٠ شهيداً.

وبعد انتهاء الهدنة الأولى في التاسع من تموز (يوليو) ١٩٤٨، قامت القوات العراقية تؤازرها فرق المجاهدين الفلسطينيين بالهجوم على القرى السبع التي احتلها اليهود في بداية الحرب، وتم تحريرها كلها.

وعن وقائع جنين قال ضابط عراقي شعراً جاء فيه:

أجنين إنك قد شهدت جهادنا   وعلمت كيف تساقطت قتلانا

وقف القتال

كان السوريون في ١٠ أيار ١٩٤٨م قد احتلوا مشمار هايردن، بعد أن خاضوا معارك عنيفة.

وعندما تقدم اللبنانيون نحو ما يسمى إصبع الجليل الممتد شمالاً من نهر الأردن والحولة حتى دان، كان السوريون قد عبروا نهر الأردن نحو شرقي إصبع الجليل في حين اتجه اللبنانيون نحو غربه، وبذلك صارت القوات اليهودية بين جبهتين عربيتين.

وهاجم اللبنانيون المالكية وهزموا اليهود فيها واحتلوها، كما احتلوا قدس، ثم استطاع اليهود استردادهما، وفي يوم ٦ حزيران عاود اللبنانيون بمشاركة السوريين والمتطوعين الهجوم على المالكية فاستعادوها، ثم استعادوا قدس في اليوم الثاني.

وبذلك صارت الطريق مفتوحة إلى سهل الحولة والجنوب كله. وهكذا نرى أنه بالرغم من كل النواقص في القوة العربية، فإنها استطاعت في أيامها الأولى أن تجعل الموقف كما يلي: المصريون في بيت لحم وضواحي القدس الجنوبية، هذا في الشمال، وأما في الغرب فقد وصلوا حتى حدود منطقة يافا الجنوبية، كما سيطروا على منطقة النقب الجنوبي وخليج العقبة.

والسوريون مع المتطوعين الذين عرفوا باسم جيش الإنقاذ، يسيطرون على الجليل كله حتى جنوب بحيرة طبريا.

والعراقيون في قلب فلسطين ومحدقون بتل أبيب، وممتدة خطوطهم الأمامية في الشمال إلى ما وراء مدينة جنين، وفي الغرب إلى بيارات طونكرم وقلقيلية على بعد أقل من ثلاثة عشر كيلومتراً من شاطىء البحر المتوسط.

والأردنيون يسيطرون على غور الأردن الجنوبي ومنطقة القدس والقدس ومنطقة رام الله والرملة واللد ومطار اللد، على بعد عشرة كيلومترات فقط من تل أبيب.

على أن هذا الاندفاع توقف وتطورت الأمور على الشكل التالي:

كان مجلس الأمن قد وجه في ٢٢ أيار ١٩٤٨ نداء لوقف القتال خلال ٣٦ ساعة فرفض العرب الاستجابة لهذا النداء. وكانت مساعي أمريكا تعمل لاستمرار القتال وعدم وقف النار لاحتمال التفوق اليهودي وصد التقدم العربي. ولكن اليهود ـ وقد وصل الحال إلى ما وصفنا ـ أدركوا الخطر الذي أحدق بهم فمستعمرات النقب معزولة تماماً وكذلك القدس، والجليل كله يسيطر عليه العرب. فلجأوا إلى أمريكا التي عادت تعمل بشدة لوقف القتال وتضغط على العرب وتعدهم وتمنيهم، فوافقت جامعة الدول العربية على قرار مجلس الأمن رقم ٥٠ المؤرخ في ٢٩ أيار ١٩٤٨م لمدة أربعة أسابيع، وأبلغت مجلس الأمن قرارها بالموافقة. وفي صباح ١١ حزيران ١٩٤٨م توقف القتال.

وفي ذلك يقول الشاعر الدمشقي أحمد صندوق محرضاً على عدم القبول بقرار مجلس الأمن:

أإن ذقت صهيون حر الصفاح	رجعت ترومين وقف الكفاح
أصلحاً وسرى الرسول الطهور	لشذاذ شعبك نهب مباح
أصلحاً وهذي دماء الضحا	يا تسيل بهن السهول الفساح
وتلك العذارى وأشلاؤها	تناثرن بين الربى والبطاح
تحنطها لافحات الهجير	وتدفنها سافيات الرياح
ولما نبادلك بيع النفوس	بسوق الملاحم بيع السماح
ولما ترعك بيوم عبوس	على السابحات وجوه صباح
كأن كؤوس الردى سلسل	يداف لديها بمسك وراح
تقبلها ثغرات السيوف	فتحسبها همسات الصباح
وتغمرها فوهات الرصاص	فتحسبها لحظات الملاح
كأن عناق كعوب الرماح	لديها عناق كعاب رداح
فلا صلح حتى تئيم النساء	ويلقى الجناة الحمام المتاح
ولا صلح أوتؤذني بالفناء	وتخلي البلاد وتلقي السلاح

وكان في قرار مجلس الأمن أن يمنع كل طرف من تحسين مواقعه الراهنة، ويتعهد بألا

يحرك قوات أو معدات حربية وأن لا يعزز قواته المقاتلة بوحدات أخرى. كما لا يسمح للمهاجرين اليهود البالغين سن الخدمة العسكرية بالدخول إلى فلسطين إلا بموافقة خاصة من الوسيط الدولي. كما نص القرار على أن يجري تموين مدينة القدس بقوافل يشرف عليها الصليب الأحمر الدولي.

وقد التزم العرب بكل ذلك في حين أن اليهود وجدوا فترة الهدنة الفرصة الثمينة، فنظموا قواهم واستوعبوا الأعتدة الحربية التي أخذت ترد إليهم من أوروبا، إذ أنهم تسلموا كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات والطائرات، وأصبحوا جاهزين للانتقال من الدفاع إلى الهجوم.

كل ذلك وقد حيل بين العرب وبين الحصول على السلاح، واستطاعت أمريكا أن تضغط لتطبيق حظر توريد الأسلحة إليهم.

وهكذا فقد كانت الهدنة الأولى بداية الانحدار العربي، وتحول اليهود إلى الهجوم، وتحول العرب إلى التقهقر حتى كان ما كان.

وفي ذلك يقول العالم الشاعر النجفي الشيخ عبد المهدي مطر:

وجدي ليعرب لا سرج ولا قتب ... تنقاد حيث يشاء الصارم الذرب
سبع من الدول العرباء تنقضها ... دويلة مالها ريش ولا زغب
هذي فلسطين نصب العين إن صدقوا ... وذا هو (الزيت) منهم كيف يغتصب
شكت لهم وطأة الطاغي فما انبعثوا ... وولولت ضجراً منهم فما غضبوا
وأيقظتهم من العادين مطرقة ... فما استفاقوا لها إلا وهم شُعب
وأججت لهم ناراً لتضرمهم ... هم يوقدون لظاها وهي تحتطب
شنوا فقلنا على اسم الله غارتهم ... تظنها الخيل إلا أنها قصب
تغزو العدو بأطمار مهلهلة ... وعنده الحلق الماذي واليلب
يا وادعين إذا استسلمتم فلمن ... هذي الجيوش وماذا هذه الأهب
أما هو العار إن كأس العلى سكبت ... أن لا تدار عليكم هذه النخب
سيف العقيدة يحسو من دمائهم ... بخيبر وقنا الإسلام تحتلب
وأصبحوا وكؤوس النصر مترعة ... لديهم ودماكم فوقها حبب
لقد طربتم على الأوتار وانتفضوا ... على المفاد أما يكفيكم الطرب
و(ذو الفقار) لكم قد خط سابقة ... حمراء بين شباها الموت يضطرب

أنّى يسود فتور في دمائكم ... وفي العروبة رأس كله عصب
أعيذكم والمواضي في سواعدكم ... أن يدركوا اليوم فيكم ثأر ما طلبوا
لا تخدعنكم الأقوال فارغة ... من قادة هم إذا جد الوغى خشب
صفر العزائم، هزي جذع نخلتها ... أو لا تهزي، فلا بسر، ولا رطب
يا ساحة العز بالباري معوذة ... أن لا يخوضك قلب خافق وجب

وإذا كان هذا الشاعر قد قال أن الدول العربية هي سبع فإن التي اشتركت منها في الحرب هي خمس لأن السعودية اشتركت بثلاثمائة جندي فقط ألحقتهم بالجيش المصري.

أما الدولة السابعة (اليمن) فقد كانت في عزلتها البعيدة.

تفاصيل أخرى

عقد في عمان في ٣٠ نيسان (أبريل) ١٩٤٨ أول مؤتمر لرؤساء حرب الجيوش العربية (الحلقة الأولى) وذلك قبل بدء القتال بأسبوعين فقط وإن العسكريين أقروا بالإجماع بأن التغلب على القوات اليهودية يتطلب ما لا يقل عن ٦ فرق (Divisions) كاملة التنظيم والتسليح و٦ أسراب (٧٢ طائرة) من الطائرات القاصفة والمقاتلة على أن تكون كل هذه القوات خاضعة لقيادة عربية واحدة موحدة تسيطر عليها وتحركها وفق خطة معينة. وإن السياسيين العرب الذين كانوا ينتظرون نتيجة مداولات العسكريين استكثروا هذه القوات وطالبوا العسكريين بمباشرة القتال بعد ١٥ أيار (مايو) بالقوات «المتيسرة» على أن تزداد هذه تدريجياً فماذا كان حجم هذه القوات «المتيسرة»؟

القوات المصرية

يفيدنا التقرير المصري السري في العمليات الحربية في فلسطين عام ١٩٤٨ بأن تشكيل الحرب للقوات المصرية المتجمعة بالعريش يوم ١٤ أيار كان يتألف من قوتين، قوة الجيش الرئيسية بقيادة العميد أحمد علي المواوي وقوة متطوعين خفيفة بقيادة المقدم أحمد عبد العزيز.

- وتألفت قوة الجيش الرئيسية من الوحدات الآتية:
- الكتيبة الأولى بنادق مشاة (حوالي ٧٠٠ ـ ٧٥٠).
- الكتيبة السادسة بنادق مشاه (حوالي ٧٠٠ ٧٥٠).
- الكتيبة التاسعة بنادق مشاة (حوالي ٧٠٠ ـ ٧٥٠).
- كتيبة استطلاع مدرعة (٣٥ مدرعة).

- كتيبة دبابات خفيفة (٧ دبابات).
- ٣ بطاريات مدفعية ميدان ٢٥ رطلاً (٢٤ مدفعاً).
- بطارية مدفعية ميدان ١٨ رطلاً (٢٤ مدفعاً).
- بطارية مدفعية مضادة للدبابات ٦ أرطال (٨ مدافع).

وكانت القوة الخفيفة بقيادة أحمد عبد العزيز عبارة عن سرية واحدة Company ٤ ضباط و١٢٤ صف وعسكري، مسلحة بالنبادق و٨ رشاشات برن Bren و٤ مدافع خفيفة ٣,٧ بوصة و٤ مدافع رطلان مضادة للدبابات.

وكانت القوات الجوية المصرية تتألف من خطين خط أول بالعريش عدده: ٦ طائرات مقاتلة (سبيت فاير) وطائرة استكشاف وتصوير.

وخط ثان في القاهرة عدده: ٦ طائرات مقاتلة (سبيت فاير) و٥ طائرات نقل داكوتا (جهزت كقاذفات متوسطة فيما بعد) وطائرة استكشاف.

وهكذا يكون مجموع القوات المصرية البرية المتيسرة للقتال في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ لواءً واحداً معززاً أو مجموعة لواء Brigade Group عديده حوالي ٣٥٠٠ ضابط وجندي.

ويقول التقرير المصري السري تعليقاً على ذلك: «كانت حالة القوات المصرية في الفترة التي سبقت دخول القوات العربية فلسطين تتسم بطابع السلم والاكتفاء بالمحافظة على الأمن الداخلي والأعمال الأخرى التي كانت تكلف بها وكانت في مجموعها بعيدة عن الطابع العسكري وعما يجب أن تقوم به قوات عسكرية في تدريب واستعداد متواصل لغرض خوض غمار الحرب».

ويضيف التقرير أن الاسلحة المتوافرة في ذلك الوقت لم تكن لتكفي إلا لتجهيز المحافظة على الأمن الداخلي والأعمال الأخرى التي كانت تكلف بها وكانت في مجموعها بعيدة عن الطابع العسكري وعما يجب أن تقوم به قوات عسكرية في تدريب واستعداد متواصل لغرض خوض غمار الحرب».

ويضيف التقرير أن الأسلحة المتوافرة في ذلك الوقت لم تكن لتكفي إلا لتجهيز الرشاشات».

واعتبر التقرير أن حالة «الحملة» أي النقليات كانت سيئة وأن ٦٠ في المئة في مجموعها «غير صالح للعمل» أما بالنسبة للتدريب فيقول التقرير أن حالة التدريب الفردي كانت مرضية على وجه العموم، ولكن التدريب المشترك كانت حالته غير مطمئنة وأنه لم يصل إلا إلى مستوى تدريب السريه في كتيبه واحدة.

القوات العراقية

ويورد الفريق الأول صالح صائب جبوري رئيس أركان الجيش العراقي في حينه في مذكراته تشكيل الحرب للقوات العراقية الرئيسية المرابطة في المفرق في شرق الأردن في طريقهاإلى الجبهة قبل بدء العمليات كالآتي:

أولاً: القوة الآلية وقوامها:

- الفوج الآلي.
- كتيبة مدرعات خالد.
- كتيبة الصحراء الآلية.
- سريتا هندسة ومخابرة.

ويقدر الجبوري موجودها بـ١٠٦ ضباط، ١٨٣٧ مراتباً ٤٧ مدرعة، ١٨ مدفع ميدان.

وثانياً: اللواء الأول مشاة وقوامه:

- الفوج الأول (٢٤ ضابطاً و٦١٦ مراتباً).
- وحدات صغيرة طبية وهندسة ومخابرة.

ويقدر الجبوري موجودها بـ٩٧ ضابضاً و٢٢٥٧ مراتباً فيكون المجموع ٤٢٠٠ ضابط وجندي.

وتألفت القوة الجوية العراقية من:

- ١٢ طائرة نقل خفيفة أنسن ANSON سرعتها القصوى ١٩٠ ميلاً في الساعة.
- ٣ طائرات نقل خفيفة GLADIATOR.

وكان لدى العراق أيضاً ١٠ طائرات مقاتلة فيوري FURY لكن كما يقول التقرير العراقي السري «تعذر اشتراك طائرات فيوري لعدم تيسر العتاد حينئذ أما طلباتنا من طائرات الفيوري الأخرى فلم تصل بالرغم من احتياجاتنا الشديدة، كما حجزت ١٨ طائرة في الهند وفشلت كل المحاولات للحصول عليها».

القوات السورية

أرسلت سورية إلى الميدان قوى وحدات جيشها الناشىء: اللواء الأول (١٨٧٦ ضابطاً وجندياً) المعزز بـ٦ دبابات و٣٢ مدرعة و١٢ مدفع ميدان ٧٥ ملم.

وتشكلت القوة الجوية السورية من ٤ طائرات تدريبت هارفارد HARVAD وقيل ١٠ منها.

ويشكو الزعيم عبد الله عطفة رئيس الأركان السوري السابق في مذكرة يقدمها إلى

رئيس الوزارة بتاريخ ١٨ تموز (يوليو) ١٩٤٨ من الترتيبات الإدارية التي فرضها وزير الدفاع المستقيل على وزارة الدفاع بموجب مرسوم اشتراعي صدر في ٦/١٠/٤٦ تأسست بموجبه ١٣ مديرية في الوزارة.

يقول عطفة: «وكل من هذه المديريات مستقلة عن الأخرى ولم ترتبط بسلطة موحدة لتنسيق أعمالها وارتباطها مع بعضها ولم يكتف المرسوم بفصل المصالح عن الأركان وجعل رئاسة الأركان كأحد هذه المديريات الثلاث عشرة بل منح وزير الدفاع جميع الصلاحيات التي تعود إلى قيادة الجيش وبذلك سلب فعلاً رئاسة الأركان كل سلطة ونفوذ».

القوات اللبنانية

ويخبرنا الفريق الأول صالح صائب الجبوري أن اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني أخبر زملاءه في مؤتمر رؤساء الأركان الذي عقد في عمان في ٣٠ نيسان (أبريل) لتحديد القوات التي يتوجب إرسالها إلى فلسطين بأنه يستطيع إرسال أكثر من فوج ولكن قلّة الذخيرة تجعله يرجح إرسال فوج واحد فقط.

وبالواقع اتخذ لبنان لصغر حجم جيشه خطة دفاعية في الأسابيع الثلاثة الأولى من مرحلة القتال الأولى (١٥ أيار ـ ١١ حزيران) ولكنه أشرك فوج القناصة الثالث (٤٣٦ ضابطاً وجندياً) مدعوماً بالفوج المدرع (٤ مدرعات و٦ دبابات) لاسترداد قرية المالكية الفلسطينية القريبة من الحدود اللبنانية من اليهود وكان ذلك في ٤ حزيران ١٩٤٨.

القوات الأردنية

كان تشكل الحرب للجيش الأردني في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ حسب ما يذكره القائد عبد الله التل في مذكراته كالآتي:

- اللواء الأول (الكتيبة الأولى والثالثة) ٢٢٥٠ ضابطاً وجندياً.
- اللواء الثالث (الكتيبة الثانية والرابعة) ٢٣٠٠ ضابط وجندي.
- اللواء الرابع (الكتيبة الخامسة والسادسة) ٢٥٥٠ ضابطاً وجندياً.
- كتيبة المدفعية ٧٥٠ ضابطاً وجندياً.

المجموع ٧٨٥٠ ضابطاً وجندياً.

ويضيف التل أنه كانت لدى الجيش الأردني الأسلحة الآتية: ٧٢ مدرعة ثقيلة، و٥٢ مدرعة كشافة خفيفة، و٢٤ مدفعاً عيار ٢٥رطلاً و٣٨ مدفعاً ٦ أرطال، و٤٠ مدفعاً ٣ بوصة (هاون ـ MORTAN).

وثمة تباين كبير بين ما يذكره عبد الله التل عن قوة الجيش وما يذكره غلوب باشا في مذكراته فإن الأخير يقدر عديد الجيش بـ٦٠٠٠ ضابط وجندي وعدد المدرعات الصالحة بخمسين فقط وعدد مدافع ٢٥ رطلاً بثمانية فقط وعدد مدافع الهاون ٣ بوطة بـ١٦ مدفعاً فقط. كما يقول أن من أصل ٦٠٠٠ جندي لم يكن سوى ٤٥٠٠ جندي جاهزين للقتال. ويخبرنا غلوب أنه لم يكن للجيش الأردني منذ إنشائه خدمات SERVICES مستقلة لغاية ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ وأنه حتى ذلك التاريخ كان الجيش البريطاني يقدم له جميع هذه الخدمات من صيانة للأسلحة والمدرعات والذخيرة إلى النقل والخدمات الطبية وأن الجيش الأردني اضطر في ١٤ أيار (مايو) للمرة الأولى أن يتولى هذه الخدمات بنفسه اعتماداً على الارتجال والبديهة.

ويخبرنا غلوب أيضاً أنه لم يكن لدى الجيش احتياطي من الذخيرة إذ أن الجيش البريطاني كان يمده بها لقاء دفع أكلافها وأن هذا النظام «وفر على الجيش نفقات باهظة لا طاقة له عليها لإنشاء المستودعات لحفظ الذخيرة ولحراستها»، وأنه عندما تبين له أن العمليات الحربية وشيكة الحدوث ناشد القيادة البريطانية للشرق الأوسط في قناة السويس لنجدته وأنها لبت طلبه وحملت سفينة بكاملها بذخيرة للمدفعية، ولكن السلطات المصرية تعرضت للسفينة قبل إقلاعها من خليج السويس باتجاه العقبة واستولت على حمولتها، وأن القيادة البريطانية في قناال السويس عوضت على فقدان الشحنة الأولى بتحميل سفينة ثانية بذخيرة المدفعية، بيد أن قرار الحظر كان قد صدر من قِبَل هيئة الأمم مما اضطر القيادة البريطانية إلى تفريغ حمولة السفينة الثانية والاحتفاظ بها.

ويخبرنا غلوب أيضاً بأنه نتيجة ما سلف لم يكن لدى الجيش من مخزون ذخيرة مدفعية الميدان ومدافع الهاون سوى ما يكفي لمعركة واحد فقط نظرياً.

وأن الجيش الأردني انتظر ١٦ شهراً بعد ١٥ آيار (مايو) قبل أن يحصل على مثل هذه الذخيرة.

وهكذا يكون مجموع القوات المقاتلة الرئيسية للدول العربية الخمس في مرحلة القتال الأولى (١٥ آيار (مايو) ـ ١١ حزيران (يونيو) في حرب ١٩٤٨ كالآتي:

ـ الضباط والجنود: ١٨,٠٠٠ (حتى لو أخذنا بالأرقام المرتفعة التي يذكرها عبد الله التل).

ـ المدرعات على أنواعها: ٢٤٢ (حتى لو أخذنا بأرقام عبد الله التل).

ـ الدبابات الخفيفة: ١٩ (علماً بأن دبابتين سوريتين تعطلتا في الطريق إلى الجبهة وأن الدبابات اللبنانية الست لم تشترك في القتال إلا يوم ٤ حزيران وفي معركة استرداد المالكية فقط).

ـ مدفعية الميدان دون المضاد للطائرات والدبابات: ١٣٦ (تدخل فيها أرقام التل المرتفعة بالنسبة للجيش الأردني).

ـ مدفعية مضادة للطائرات والدبابات: ٧٠ (تدخل فيها أرقام التل المرتفعة).

ـ طائرات مقاتلة: ١٢ (علماً بأن الطيران البريطاني أسقط طائرتين مقاتلتين مصريتين وعطّل اثنتين أخريين قبل نهاية شهر أيار (مايو) ١٩٤٨).

ـ طائرات تدريب ونقل واستكشاف: ٣٢ (اعتبرنا الطائرات السورية في هذه الفئة ١٠ وليس ٤).

وتشكل هذه القوات فرقتين ونصف إلى ثلاث فرق على أبعد تقدير، بينما تشكل الطائرات المقاتلة سرباً واحداً فقط، وإذا أعدنا إلى الذاكرة أن مؤتمر رؤساء الأركان الحرب الذي عُقد في عمان في ٣٠ نيسان (أبريل) حدد بالإجماع أن التغلب على القوات اليهودية يتطلب ما لا يقل عن ٦ فرق كاملة التنظيم والتسليح و٦ أسراب من الطائرات المقاتلة والقاصفة (أي ٧٢ طائرة) لتبين لنا أن القوات «المتيسرة» التي أصرّ السياسيون العرب على إرسالها كانت أقل من نصف القوات التي طالب العسكريون بها.

تشكيل الحرب للقوات الصهيونية

كان عدد الهاغاناه سنة ١٩٤٦ (٦٢,٠٠٠) يضاف إليه قوات المنظمتين الإرهابيتين الأرغون (٣٠٠٠ ـ ٥٠٠٠) والشيترن (٢٠٠ ـ ٣٠٠) فيصبح المجموع ٦٥,٠٠٠ ـ ٧٠,٠٠٠ مقاتل.

ونعلم من مذكرات بن غوريون ومن التاريخ الرسمي للهاغاناه أن «قوات الميدان» تطورت ما بين نيسان (أبريل) ١٩٤٦ وبدء الحرب في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ حين أصبح عددها في التاريخ الأخير ٣١,٨٢٦ بما في ذلك ٦٠٠٠ مقاتل في البالماخ، وأن قوات الميدان هذه تألفت من ١٠ ألوية (Brizedes) ثلاثة منها ألوية البالماخ هي:

ـ اللواء يفتاح ٢٠٠٠ حندي.

ـ اللواء هاريل ٢٠٠٠ جندي.

ـ اللواء هاريل ٢٠٠٠ جندي.

ـ اللواء هانيغيف ٢٠٠٠ جندي.

أما سائر الألوية فكانت:

ـ اللواء كرميلي ٢٢٣٨ جندياً.

- اللواء غولاني ٣٥٧٣ جندياً.
- اللواء الكسندروني ٣٥٨٨ جندياً.
- اللواء كيرياتي ٢٥٠٤ جنود.
- اللواء غيغعاتي ٣٢٢٩ جندياً.
- اللواء السابع الناشيء ٨٠٠ جندي.
- اللواء غنسيوني ٣١٦٦ جندياً.

يضاف إليها ٤١٦١ جندياً في أسلحة الخدمات، أي في المدفعية والهندسة والطيران والنقل.

أما أسلحة الهاغاناه يوم قيام الدولة في ١٥ آيار (مايو) فكانت كالآتي، حسب رواية التاريخ الرسمي للهاغاناه ومذكرات بن غوريون:

- مدافع هيسبانو سويزا Hispano-Suiza سويسرية ٢٠ ملم: ٢٥.
- مدافع جبلية فرنسية ٦٥ ملم: ٥.
- مدافع هاون ٣ بوصة: ١٠٥.
- مدافع هاون ٢ بوصة: ٦٨٢.
- مدرعات (صنع محلي) ٦٠٠ ـ ٨٠٠.
- نصف مجنزرات أميركية ٥٢.
- قاذفات لهب ٢٠.
- مدافع ضد الدرع (Piat) ٣٠.
- رشاشات متوسطة ١٨٢.
- رشاشات ١٢٦٩.
- بنادق ٢٨,٠٠٠ (بما فيها بنادق بوليس المتسعمرات).
- رشاشات أتوماتيكية (صنع محلي) ١٠٢٦٤.
- قنابل يدوية (صنع محلي) ٩٤٩٢٦.
- ألغام (صنع محلي) ٣١,٠٠٠.

ولا تشمل هذه الأسلحة الطلبات الضخمة العديدة التي كان بن غوريون، برأيه النافذ السديد وهمته العالية وبُعد نظره وتركيزه الثابت على الأهم فالمهم، قد أوصى عليها مسبقاً في الخارج وكانت جميعاً في طريقها الفعلي إلى فلسطين قبل ١٥ أيار (مايو). ويذكر بن غوريون في مذكراته بتاريخ ١٩ أيار أن شحنة كبيرة من هذه الطلبات كانت راسية خارج حيفا في ذلك

اليوم تنتظر نهاية الانتداب البريطاني لتفريغها، وأن حمولتها كانت: ١٠,٠٠٠ بندقية، ١٤٢١ رشاشاً، و١٦ مليون رصاصة بنادق، تضاف طبعاً إلى ما ورد أعلاه. ويذكر تاريخ الهاغاناه الرسمي أنه وصل إلى البلاد ما بين ١٥ آيار و٣١ آيار - أي خلال أسبوعين فقط من قيام إسرائيل من هذه الطلبات - ١٠ مدافع أخرى عيار ٧٥ ملم، و٣٠ مدفعاً عيار ٦٥ ملم، و٥ مدافع أخرى هيسبانو سويزا عيار ٢٠ ملم، بالإضافة إلى ٧٠,٠٠٠ قذيفة مدفع و١٢ مدفع هاون ١٢٠ ملم.

ولكي يكوّن القارىء العربي فكرة أدق حول كيف تكون جدية رجال الدولة في الحروب نعطي على سبيل المثال لا الحصر محتويات بعض الطلبات «الإضافية» لكل ما سبق التي كان بن غوريون قد أوصى عليها وتلقاها تباعاً بعد ١٥ أيار (مايو):

١٠ طائرات مسر شميت، ٢٠ طائرة نورماندي، ٤٠ دبابة، ٩٢ نصف مجنزرة، ٢٠٠ بازوكا، ٥٩ سفينة من مختلف الأنواع، ٣٠ مليون رصاصة، وما يزيد على ٢٠٠ مدفع ميدان. والغريب أن أسعار هذه الأسلحة، على كثرتها، لم تكن خيالية فوق طاقة الدول العربية مجتمعة أو فرادى. فبن غوريون يخبرنا أن طائرات المسر شميت العشر مثلاً كلفته مليوناً من الدولارات فقط. ذلك أن أسعار الأسلحة بعد الحرب العالمية الثانية كانت تدنت بسبب ضخامة الفائض منها.

ونحن لو حاولنا مقارنة أسلحة الطرفين لوجدنا أن الطرف الصهيوني كان يتفوق أصلاً على الطرف العربي في عدة أنظمة (المدرعات ومدافع الهاون، والرشاشات الأتوماتيكية، والألغام، والقنابل اليدوية، ناهيك عن الذخيرة والعديد والخبرة القتالية والإدارية السوقية). وإن كان يوجد تفاوت لمصلحتنا، وهو محدود جداً، فإن العدو تمكن من التعويض عليه بسرعة وحسم يدعوان إلى الإعجاب.

وبعد.. فعند أية مقارنة، فاللبّاب اللبّاب هو أن الأطراف العربية كانت بالفعل خمسة، مما يُفقد أي محاولة للمقارنة، ونظراً لفقدان القيادة الواحدة الموحدة كانت كل قوة عربية فعلياً تجابه إسرائيل لوحدها. رغماً عن قلتها النسبية مجتمعة، حيث أن المقر به أن القوة المهاجمة تحتاج إلى نسبة ٣:١ تجاه العدو لمصلحتها لتضمن صناعة النصر(١).

(١) وليد الخالدي.

كتابخانه تخصصى
وزارت امور خارجه
156206